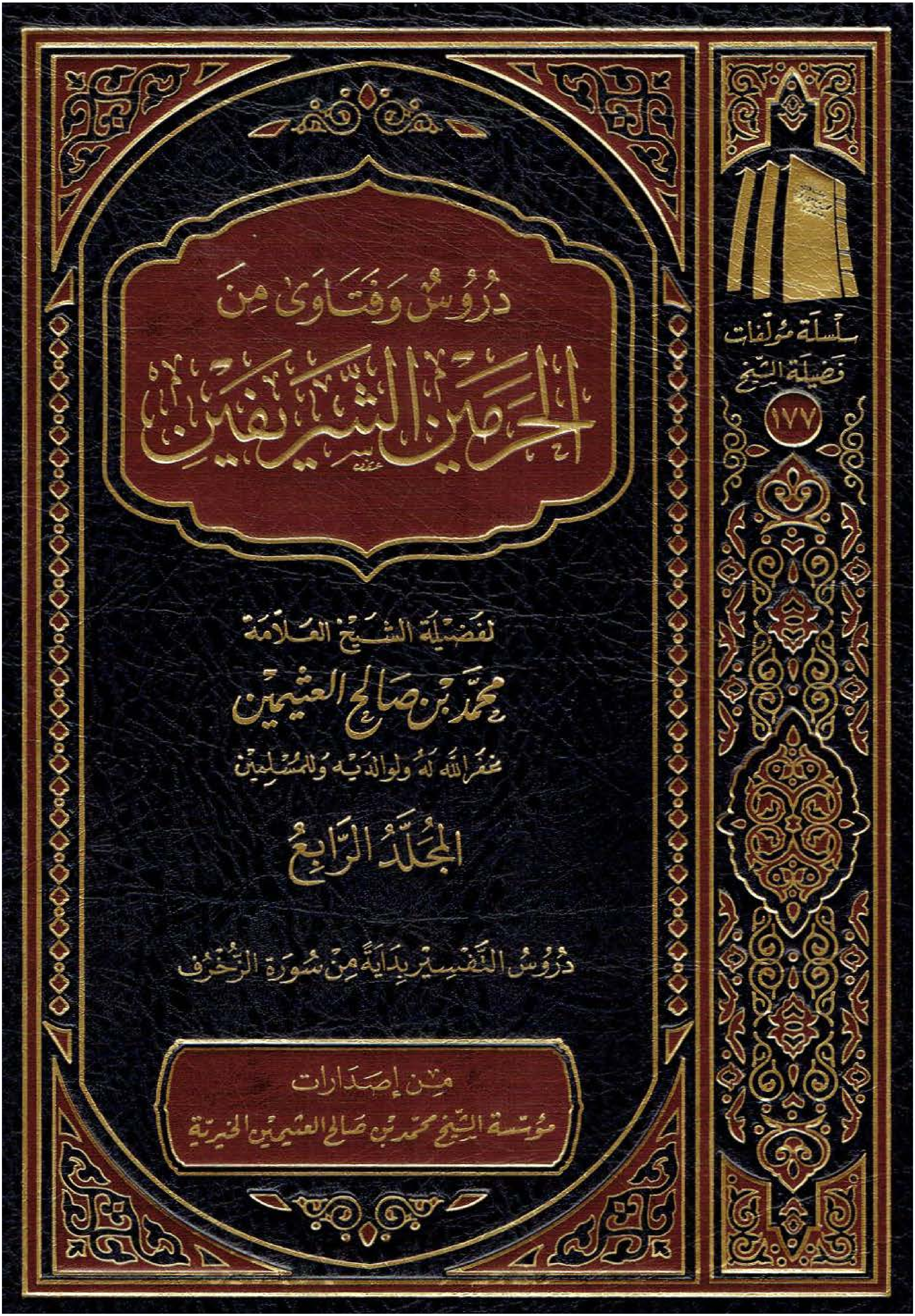


دروس وفتاوى من
الحرمين الشريفين
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
المجلد الرابع
دروس التفسير بداية من سورة الزخرف
من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ
١٧٧

دروس وفتاوى من

الحرمين الشريفين

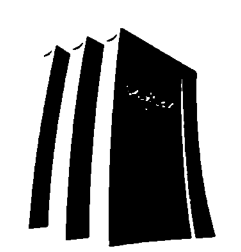
المجلد الرابع

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين ، محمد بن صالح
دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين . / محمد بن صالح العثيمين ط ١ -
القصيم ، ١٤٣٩ هـ / ١٨ مج .
٧٣٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين ؛ ١٧٧)
ردمك: ٣ - ٦٤ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
١ - ٦٨ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج ٤)
١- الفتاوى الشرعية. ٢- الفقه الحنبلي. أ . العنوان
ديوي ٢٥٨,٤ ٢٠٣٥ / ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٢٠٣٥ / ١٤٣٩
ردمك: ٣-٦٤-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
١-٦٨-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٤)

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩
هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوّال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦
www.binothaimeen.net
info@binothaimeen.com





الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرَّة الدولية للطباعة والتوزيع
١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .
هاتف وفاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٧٧)

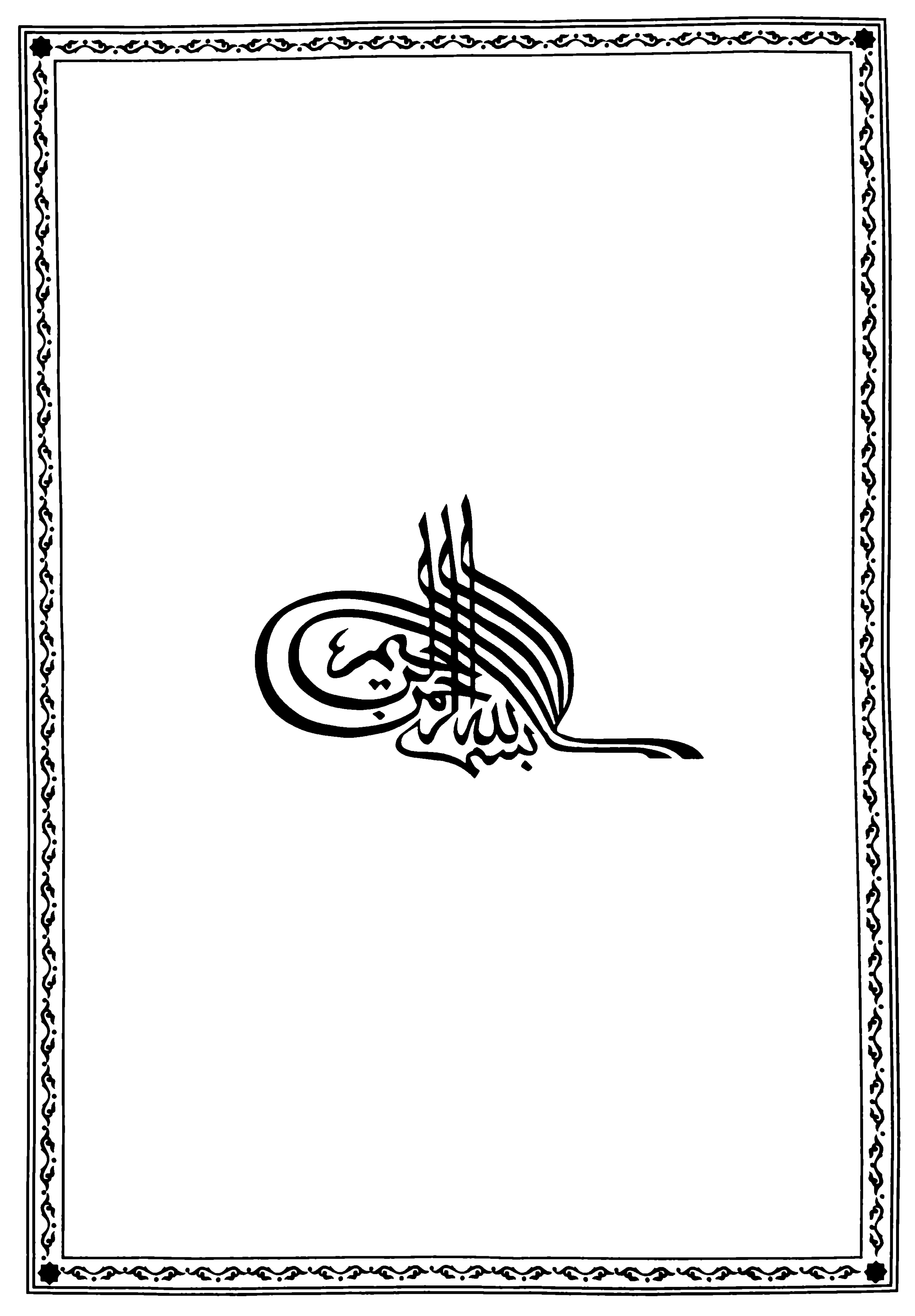
دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الرابع

دروس التفسير بداية من سورة الزخرف

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم



سُورة الزخرف

الحمدُ لله ربِّ العالمِينَ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ الكلامَ في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾. على مَسْأَلَتَيْنِ:

المَسْألة الأُولَى: التَّعلِيقُ على هذِه الآيَةِ، فإنَّ الحُلُولِيَّةَ -حُلولِيَّةَ الجَهْمِيَّةِ الضالَّة- أَخَذُوا من هذِهِ الآيةِ المتَشابهَةِ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذَاتِهِ في كلِّ مَكانٍ -قَبحَهُمُ اللهُ- فَلَمْ يُنَزِّهُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يكونَ في أيِّ مكانٍ مِنَ الأَرْضِ، ولو كانَ مكانَ القَاذُوراتِ، والأَوْسَاخِ، والأَنْتَانِ، والجِيَفِ، والحيضِ، وغيرِ ذلكَ؛ لأنهم قالُوا: إنَّ اللهَ قالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

وقالوا أيضًا: إنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]، وقالوا: إنَّ اللهَ تَعالَى قَالَ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، استَدَلُّوا بهذِهِ الآياتِ، وهذِه الآياتُ مِنَ المُتَشابِهَاتِ التي تَخْفَى عَلَى مَنْ أعْمَى اللهُ قَلْبَهُ وأزاغَ قَلْبَهُ، وقالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

ونَحْنُ نُجِيبُ على هذا التَّشْبيهِ والتَّضْلِيلِ مِنْ هؤلاءِ الجَهْمِيَّةِ الضالَّةِ المُبتَدِعَةِ، فنقولُ -وبالله نستَعِينُ-: إنَّ اللهَ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

فالآيَةُ تَدُلُّ على أنَّ أُلوهِيَّةَ اللهِ ثابِتَةٌ في السَّماءِ، وثابِتَةٌ في الأَرْضِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، والمَعْنَى: أن أُلوهِيَّـةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثابِتَةٌ في السَّماواتِ وفِي الأَرْضِ، فليسَ إلهُ مَنْ في السَّماواتِ دونَ أهلِ الأَرْضِ، وليسَ إِلهُ أَهْلِ الأرضِ دونَ أهلِ السَّماواتِ، بل هُو إِلهُ مَنْ في السماواتِ والأرضِ، وهذا واضِحٌ.

ونَظِيرُهُ أن تَقُولَ: فُلانٌ أَمِيرٌ في مكَّةَ، وأميرٌ فِي المدِينَةِ. والمَعْنَى: أنَّ إمارَتَهُ ثابِتَةٌ في المَدِينَةِ، وثابِتَةٌ في مَكَّةَ، ومن المعلومِ أن مَكانَهُ في إحْدَاهما، إما في مَكَّةَ وإما في المَدينَةِ، فلَا يُمْكِنُ أن يَكونَ فيهِما جميعًا في آنٍ واحِدٍ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَهٌ في السَّماءِ، وإِلَهٌ في الأرضِ، أي: إِلَهُ مَن فِي السَّماءِ، وإِلَهُ مَن في الأرضِ، وأما هو نَفْسُهُ فإنه في السَّماءِ؛ لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٦-١٧].

بَطَلَ الآن اسْتِدْلالُهُم بهذه الآيَةِ، وتَبيَّنَ أَنَّهم لِزَيْغِ قُلُوبِهِمْ اشتبَهَتْ عليهِمْ هذِهِ الآيَةُ، فظَنُّوا أنَّ اللهَ تعالَى بذَاتِهِ في الأَرْضِ كَما أَنَّه فِي السَّماءِ، وضَرَبْنا لكُمْ مَثَلًا يُقَرِّبُ ما قرَّرْناهُ مِنَ المَعْنَى الحَقِّ الموافِقِ لجَلالِ اللهِ وعَظَمَتِهِ، وهو قَوْلُنا: فلانٌ أميرٌ في مكَّةَ وأميرٌ في المَدينَةِ، وإن كانَ في إِحْدَاهُما. فهنا أيضًا في الآيَةِ: اللهُ إلهٌ في السماءِ، وإلهٌ في الأَرْضِ، لكنَّه في السماءِ فوقَ كلِّ شيءٍ.

وبهذا تبَيَّنَ أنَّ استِدْلَالهُمْ باطِلٌ، وأنَّ الآيَةَ لا تَدُلُّ على ما ذَهَبُوا إليه، ولكن مَن أَعْمَى اللهُ بصِيرَتَهُ وأزَاغَ قَلْبَهُ -والعياذ بالله- اشتبَهَ عليهِ الحَقُّ بالباطِلِ، فذَهَبَ إلى ما يَقْتَضِيهِ الزَّيْغُ، نَسْأَلُ اللهُ العافِيَةَ.

ولهذا كانَ مِنَ الدُّعاءِ المأثورِ: اللَّهُمَّ أرِنِي الحَقَّ حَقًّا وارْزُقْنِي اتِّباعَهُ، وأَرِنِي البَاطِلَ باطِلًا وارْزُقْنِي اجتِنَابَهُ، ولا تجْعَلْهُ مُلْتَبِسًا علينا، فنَضِلَّ.

وهنَا وَقْفَةٌ يَسِيرَةٌ في إعرابِ هذِهِ الآيَةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

الواوُ: بحَسَبِ ما قَبلَهَا، و﴿وَهُوَ﴾ ضمِيرُ رَفْعٍ مُنْفَصِلٌ مَبْنِيٌّ على الفَتْحِ في محَلِّ رفعٍ مُبْتَدَأٌ، و﴿ٱلَّذِى﴾: اسمٌ موصولٌ، مَبْنِيٌّ على السُّكونِ في محَلِّ رَفْعٍ بَدَلٌ من المُبْتَدَأِ، أو في محَلِّ رَفْعٍ مُبْتدأٌ ثانٍ، أو خَبَرُ المبتدأِ ﴿وَهُوَ﴾؛ لأن الاسمَ الموصولَ يحْتاجُ إلى صِلَةٍ فقَطْ. و﴿فِى﴾: حَرْفُ جَرٍّ، و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: اسمٌ مجْرُورٌ، وعلامَةُ جَرِّهِ الكَسْرَةُ الظاهِرَةُ على آخِرِهِ، والجارُّ والمَجْرُورُ مُتعَلِّقٌ بمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: (كان). و﴿إِلَٰهٌ﴾: خَبَرُ المبتَدَأِ، وقد يَكونُ قولُهُ: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ مُتعَلِّقًا بـ﴿إِلَٰهٌ﴾، و﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾: (الواوُ) حَرْفُ عَطْفٍ، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿فِى﴾: حَرْفُ جَرٍّ، و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مجْرورٌ، وعَلامَةُ جَرِّهِ الكَسْرَةُ، مُتَعَلِّقٌ بالَّذِي قبْلَهُ أي بإلِهٍ، و﴿إِلَٰهٌ﴾: معْطوفٌ على إلِهِ الأُولى، والمعنى: وهُو المَعْبودُ في السماءِ، وهو المَعبودُ فِي الأَرْضِ، أي: المُتَأَلَّهُ في السَّماءِ والمُتَأَلَّهُ في الأَرْضِ.

ولكِنْ هناكَ مَن يقولُ في قولِهِ تعالَى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾: إنَّه لا بُدَّ أن تكونَ ﴿إِلَٰهٌ﴾ خبرًا لمُبتَدَأٍ محذوفٍ، والتَّقْديرُ: وفي الأَرْضِ هُو إِلَهٌ. لأَنَّكَ لو جَعَلْتَ ﴿وَفِى

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ جارًّا ومجْرُورًا خبَرًا مُقدَّمًا، و﴿إِلَٰهٌ﴾ مُبْتَدأً مُؤخَّرًا، لفسَدَ المَعْنَى فسادًا كبيرًا، ولكانَ المَعْنَى: وفي الأرضِ إِلَهٌ آخَرُ. فيَتعَيَّنُ أن تَجْعَلَ ﴿إِلَٰهٌ﴾ خـبَرَ مُبْتَدأٍ محذوفٍ، أي: وفي الأرضِ هُو إِلَهٌ.

واستَدَلَّ أيضًا هؤلاءِ الجَهْمِيَّةُ المُنكِرُونَ لعُلُوِّ اللهِ، القائلُونَ: إنَّ اللهَ بذَاتِهِ في كلِّ مكانٍ بقولِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]. قالوا: وهُو اللهُ في السَّماواتِ وفِي الأَرْضِ، وهذا أيضًا مَنْ تَشْبِيهِهِمْ وتَلْبِيسِهِم الحَقَّ بالباطِلِ.

ومَعْنَى الآيةِ: وهُو اللهُ في السماواتِ وفِي الأَرْضِ، أي: وهُو الإِلَهُ في السماواتِ والأرضِ؛ وذلِكَ لأن لَفْظَ الجَلالَةِ على القَولِ الراجِحِ الذي لا شكَّ فيهِ، مُشتَقٌّ مِنَ الأُلُوهِيَّةِ، وليسَ اسمًا جامِدًا، وهو فِعَالٌ بمَعْنَى مَفْعولٍ، وأصلُ اللهِ: الإِلَهُ، لكِنْ حُذِفَتِ الهَمْزَةُ للتَّخْفِيفِ لكَثْرَةِ الاستِعمالِ. وعلى هذا يَكونُ قولُهُ: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ مُتعَلِّقًا بلَفْظِ الجَلالَةِ، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ مَعطوفٌ عليهِ، فهُو أيضًا مُتعَلِّقٌ بِهِ من حَيثُ المَعْنَى، فيكونُ وهُو اللهُ، أي: وهو المَأْلُوهُ في السماواتِ وفي الأَرْضِ.

وبَعْضُ العُلماءِ قالَ: تَقِفُ، فتقولُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ثم تَسْتأنِفُ فتقولُ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]. فيكونُ قولُه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُتعَلِّقًا بقولِهِ: ﴿يَعْلَمُ﴾، ويكونُ مَعْنَى الآيةِ: أنَّ كونَ اللهِ في السماواتِ لا يَمْنَعُ مِن عِلْمِهِ سِرَّكُم وجَهْرَكُم في الأَرْضِ.

واستَدَلَّ هؤلاءِ المُبتَدَعَةُ الضَّالُّونَ بقَولِهِمْ: إنَّ اللهَ بذَاتِهِ في كلِّ مكانٍ بقولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، فقَالُوا الضَّمِيرُ في قولِهِ: ﴿وَهُوَ﴾ يَعودُ

عَلَى اللهِ، ﴿مَعَكُمْ﴾ أي: مُصَاحِبٌ لَكُمْ، ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي: في أَيِّ مكانٍ كُنْتُمْ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذاتِهِ في كلِّ مكانٍ؛ فإذا كُنْتَ في المَسْجِدِ فهُو في المَسْجِدِ، وإذا كُنْتَ في السُّوقِ فهُو في السُّوقِ، وإذا كُنْتَ في البَيتِ فهُو البَيْتِ، وإذا كُنْتَ في الجَوِّ فهُو فِي الجَوِّ، وإذَا كُنْتَ في البَحْرِ فهُو في البَحْرِ.

ولا شَكَّ أن هذَا قولٌ مُنْكَرٌ، وضَلالٌ، وبُعْدٌ عن تَعظِيمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولَيْسَتِ الآيَةُ دليلًا لما ذَهَبُوا إليهِ أبَدًا؛ لأَنَّ كونَ اللهِ مَعَنَا لا يَلْزَمُ أن يكونَ معَنَا في الأَرْضِ، فقد يكونُ الشيءُ معَ الإنسانِ وهو فَوْقَه، وقد يكونُ الشيءُ مَعَ الإنسانِ وهُو بَعِيدٌ منه، تُطْلَق عليهِ المَعِيَّةُ لُغَةً وإن لم يَكُنْ مُقارِبًا لَهُ في مَكانِه.

فمَثَلًا: نَرَى القَمَرَ بَازِغًا، فنَقولُ: القَمَرُ معَنَا، والعَرَبُ في كَلامِهِمْ يقولونَ: ما زِلْنَا نَسِيرُ والقَمَرُ مَعَنا، وما زِلْنا نَسيرُ والنَّجْمُ معَنَا، وما زِلْنَا نَسِيرُ والقُطْبُ مَعَنا، وما أشْبَهَ ذَلِكَ، وأين مَكَانُ القَمَرِ؟ في السماءِ، وكَذلِكَ النَّجْمُ، وكذلِكَ القُطْبُ، كلُّهَا في السَّماءِ، ويُطْلَقُ عليها لُغَةً عربيَّةً فَصِيحَةً أنها مَعَنَا، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ مَعَنَا، وإن كانَ في السَّماءِ، فهُو فِي السَّماءِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوقَ كلِّ شيءٍ، وهو مَعَ عِبادِهِ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وجَهْرَهُم، ويَعْلَمُ أَحْوالَهُم، ولا يخفَى عليه شيءٌ في الأرْضِ ولا فِي السماءِ، إذن لا يَلْزَمُ مِنَ المَعِيَّةِ المُصاحَبَةُ في المكانِ.

قالَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ في (العَقِيدَةِ الوَاسِطِيَّةِ): «بَلِ القَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ، مِنْ أَصْغَرِ مخْلُوقَاتِهِ، هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ المُسَافِرِ، وَغَيْرِ المُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ»[1]. فإذا كانَ القَمَرُ وهو مِنْ أَصْغَرِ مخْلُوقاتِ اللهِ، يَصِحُّ أن نقولَ: إنَّه معَنَا. وإنْ

(١) العَقيدة الوَاسِطيَّة (ص: ٨٤).

كانَ في السَّماءِ، فالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مَعَنَا وهُوَ فِي السَّماءِ، وهو عَالِمٌ بِنَا في سِرِّنَا وجَهْرِنَا. ولهذا كانَ مِنْ دُعاءِ السَّفَرِ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ»[1].

فلا يَلْزَمُ من كونِه صَاحِبًا لنَا في أَسْفارِنَا، أن يَكونَ غائبًا عن أهلِنَا، بل هُو صاحِبٌ لنا في أَسْفارِنَا، وخَلِيفَةٌ لنَا في أَهْلِنَا؛ لأن اللهَ تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فتبيَّنَ بهذا أنَّ استِدْلَالَهُمْ على ما ذَهَبُوا إليه مِنَ الضَّلالِ بأنَّ اللهَ في كُلِّ مكانٍ بقولِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]. اسْتِدْلالٌ باطِلٌ، فيقالُ مثلًا: فُلانَةُ مَعَ زَوْجِهَا فُلانٍ. وزَوْجُها في مَكَّةَ، وهي في المَدينَةِ، ويَصِحُّ هذا القَولُ، معَ أنها لَيسَتْ مَعَهُ في المكانِ، لكِنْ مَعَهُ في مُطْلَقِ المُصاحَبَةِ.

وكذلك يُقالُ مثلًا: القائدُ مع جُندِهِ. وهو في غُرفَةِ القِيادَةِ، والجُنودُ في مَيدانِ القِتَالِ، وهو تَعْبِيرٌ لُغَوِيٌّ فَصِيحٌ، ولكن كما قُلْنا: إنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَبِهُ عليهِ الحَقُّ، فيَأْخُذُ المُتشَابِهَ من النُّصوصِ؛ لِيُلَبِّسَ بِهِ على النَّاسِ، فيَعتَقِدُوا ما ذَهَبَ إليه مِنَ الباطِلِ.

والحاصلُ أن قولَهُ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، وأن قَولَهُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]، وأنَّ قولَهُ تعالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، لا يَدُلُّ أبَدًا لا بِوَجْهٍ بَعِيدٍ ولا قَرِيبٍ على ما ذَهَبَتْ إليهِ هذِهِ الفِرْقَةُ الضالَّةُ الجَهْمِيَّةُ الذين يَقولونَ: إنَّ اللهَ بذَاتِهِ في كُلِّ مكانٍ.

---

(١) أخرَجه مُسْلمٌ: كتاب الحَجِّ، باب ما يَقول إذا رَكِبَ إلى سَفر الحَجِّ وغَيْرِه، رقم (١٣٤٢).

ونحن الآن نُبيِّنُ الأَدِلَّةَ السَّمْعِيَّةَ والعَقْلِيَّةَ والفِطْرِيَّةَ على عُلُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فوقَ كلِّ شيءٍ.

ونَعْنِي بالأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ: أدِلَّةَ الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ لأنها تُستَفادُ مِنْ سَماعِ آياتِ اللهِ، وسَماعِ أقوالِ رَسولِ اللهِ ﷺ فتَسْتَدِلُّ بِهَا.

أمَّا العَقْلِيَّةُ فهي: ما كانَ مِنْ دَلالَةِ العَقْلِ الذِي يُقِرُّ به المُؤْمِنُ والكافِرُ.

وأَمَّا الفِطْرِيَّةُ فهِي: ما فَطَرَ اللهُ عليهِ الخَلْقَ بدُونِ دِراسَةٍ وتَعَلُّمٍ.

أمَّا السَّمْعِيَّةُ: فتَدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ من أَوْجُهٍ كَثيرَةٍ، مِنْهَا:

١- تَصريحُ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بوَصْفِ العُلُوِّ لنَفْسِهِ جَلَّوَعَلَا في قولِهِ تَعالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، فـ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ اسمُ تَفْضِيلٍ مِنَ العُلُوِّ، ولم يَقُلْ: الأَعْلَى على كذا، ولم يُقَيِّدْ. إذن: له العُلُوُّ المُطْلَقُ عَزَّوَجَلَّ وهو فوقَ كلِّ شيءٍ، لا يُساوِيهِ شيءٌ، ولا يَعْلُو عليهِ شيءٌ، فهُو الأَعْلَى فوقَ كلِّ شيءٍ.

٢- تَصْرِيحُ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالعُلُوِّ بصِيغَةِ الصِّفَةِ المُشَبَّهَةِ الدَّالَّةِ على الثُّبُوتِ والاِسْتِقرارِ، مِثْلِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ على فَعِيلٍ مِنَ العُلُوِّ، وفَعِيلٌ تَأْتِي للمُبالَغَةِ، وتَأْتِي صِفَةً مُشَبَّهَةً، تَدُلُّ على الثُّبوتِ والاستِمْرارِ، وهو كذلِكَ في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وجاءَ القُرآنُ مُصَرِّحًا بالفَوقِيَّةِ، مثل قولِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقولِه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، وجَاءَ أيضًا في القُرآنِ التَّصْريحُ بنُزُولِ الأَشْياءِ مِنْ عِنْدِهِ، والنزولُ يَستَلْزِمُ العُلُوَّ في قولِهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ

أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، وقَولِهِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص:٢٩]، وقولِهِ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥].

وجَاءَ أيضًا بالتَّصْرِيحِ بصُعودِ الأَشْياءِ إليهِ، وعُرُوجِهَا إِلَيْهِ، والصُّعودُ والعُرُوجُ لَا يكونُ إلَّا مِنْ أَسْفَلَ إلى أَعْلَى في قولِهِ تَعالَى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، وقَولِهِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وجاءَ أيضًا بوَصْفِ الارتِفَاعِ، مثل قولِهِ تَعالَى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، وفِي قولِهِ تَعالَى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر:١٥].

وهنا نَقِفُ لِنُبيِّنَ أن بعضَ المُفسِّرينَ يقولُ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾، أي: رافِعُ الدَّرَجاتِ، وهذا تَحْرِيفٌ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥]، مَعناه: أنَّ اللهَ نَفْسَهُ رَفِيعُ الدَّرَجاتِ، ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ الذِي هو سَقْفُ المَخْلُوقاتِ كُلِهَا، والآياتُ في هَذَا كَثِيرَةٌ، وكلُّها تَدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهي أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ.

وأَمَّا الدَّلَالَةُ مِنَ السُّنَّةِ:

فجاءَتِ الدَّلالَةُ مِنَ السُّنَّةِ على كلِّ وُجوهِ السُّنَّةِ: القَولِ، والفِعْلِ، والإقْرارِ أو التَّقْرِيرِ مِنَ النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فَقَدْ قرَّرَ عُلُوَّ اللهِ تَعالَى بقولِهِ، وبفِعْلِهِ، وبإقْرارِهِ، أي تَقريرِهِ.

مثالُ القولِ: قولُهُ ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[(١)]، ومِثْلُ قولِهِ في سُجودِهِ ﷺ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»[(٢)].

---

(١) أخْرَجَه البخاري: كتاب المغازي، باب بَعْث علي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد إلى اليَمَن، رقم (٤٣٥١)، ومُسْلم: كتاب الزَّكاة، باب ذِكْر الخَوارِج وصِفاتِهم، رقم (١٠٦٤).

(٢) أخْرَجه مُسْلم: كتاب صلاة المُسافرين، باب استحباب تَطْويل القِراءة في صَلاةِ الليل، رقم (٧٧٢).

وأمَّا الفِعْلُ: فَمِنْهُ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقد كَانَ إِذَا دَعَا يَرْفَعُ يَدَيْهِ[(١)].

وفِي خُطْبَةِ عَرَفَةَ في حَجَّةِ الوَدَاعِ، لما قَرَّرَ ما قَرَّرَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وقواعِدِ الدِّينِ، قال للصَّحابَةِ: «أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟». قَالُوا: نَعَمْ. «أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟». قالُوا: نَعَمْ. «أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟». قالُوا: نَعَمْ -ثَلاثَ مَرَّاتٍ يُقَرِّرُهُم بِإِبْلاغِهِ، فيقولونَ: نَعَمْ- فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». يَرْفَعُ إِصْبَعَهُ إِلَى السَّماءِ وَيَنْكُتُهَا لِلنَّاسِ[(٢)].

فقولُهُ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». أي: عَلَى هؤلاءِ. فانْظُرْ كيفَ فَرَّقَ، لما أرادَ الربَّ عَزَّوَجَلَّ صَرَفَ إِصْبَعَهُ إلى السَّماءِ، ولما أرادَ الناسَ رَدَّهَا إلى الأَرْضِ.

إذن: هذَا إثباتٌ لِعُلُوِّ اللهِ تَعالَى بالسُّنَّةِ الفِعْلِيَّةِ.

وأمَّا السُّنَّةُ الإقْرارِيَّةُ:

في حديثِ جَارِيَةِ مُعاوِيةَ بنِ الحَكَمِ حينَ أَرادَ أن يُعْتِقَهَا، فدَعَا بِهَا النَّبِيُّ ﷺ وقالَ لها: «أَيْنَ اللهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّماءِ. جارِيَةٌ لم تَتَعَلَّمْ، مَمْلُوكَةٌ رَقِيقَةٌ، قالَ لهَا: «أَيْنَ اللهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّماءِ. قَالَ: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[(٣)].

سبحانَ اللهِ! هذِهِ جَارِيَةٌ لم تَتَعَلَّمْ، مَمْلُوكَةٌ، تَعْرِفُ أينَ رَبُّها، وأولئكَ القَوْمُ لا يَعْرِفُونَ أينَ اللهُ إلا أَنَّه في كلِّ مَكانٍ -والعياذُ بالله- هو في الأَوْساخِ والأَقْذَارِ والأَنْتَانِ، ومَواضِعِ الحيضِ، وغيرِ ذلكَ.

---

(١) أَخْرَجَه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب رَفْعِ الإمام يَدَه في الاستسقاء، رقم (١٠٣١)، ومُسْلِم: كتاب صَلاةِ الاستسقاء، باب رَفْع اليَدين بالدُّعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٥).

(٢) أَخرَجه البُخاري: كتاب المَغازي، باب حَجَّة الوَدَاع، رقم (٤٤٠٣)، ومُسْلم: كتاب الحَجِّ، باب حَجَّة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٣) أَخْرَجَه مُسلِم: كتاب المَساجِد ومَواضِع الصَّلاة، باب تَحْرِيم الكَلام في الصَّلاة، رقم (٥٣٧).

ومِنْ أَدِلَّةِ السَّمْعِ: إجماعُ الصحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقبْلَ أن يَأْتِيَ هؤلاءِ المَوتُورُونَ الضالُّونَ، أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ اللهَ تَعالَى في السَّماءِ، وليسَ عن واحِدٍ مِنْهُمْ حَرْفٌ واحِدٌ يَقولُ: إنَّ اللهَ في كُلِّ مكانٍ. ولا وَرَدَ عَنْهُم حَرْفٌ واحِدٌ يقولُ: إنَّ اللهَ تَعالَى ليسَ فِي السَّماءِ. وأنَا بكلامِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تَيمِيَّةَ أَتحدَّى أيَّ واحدٍ أن يَأْتِيَنِي بحَرْفٍ واحِدٍ عنِ الصحابَةِ أَنَّهم أَنْكَرُوا عُلُوَّ اللهِ تَعالَى فِي السماءِ.

فشيخُ الإسلامِ ابنُ تيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَاسِعُ الاطِّلاعِ، وحَرِصَ حِرْصًا عَظِيمًا على هذه المَسألَةِ، وطَالَعَ الكُتُبَ الكثيرَةَ والأَثَرِيَّةَ، ولم يَجِدْ عن أَحَدٍ مِنَ الصحابَةِ أَنَّهم أَنْكَرُوا أَنْ يَكونَ اللهُ في السماءِ، وهم يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ صَباحًا ومَساءً، ولم يَرِدْ عن واحِدٍ منهم أَنَّه فسَّرَ آيَةً مِنْ آياتِ العُلُوِّ بغيرِ مَعناهَا الَّذِي أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وهذه مَسْأَلَةٌ أُحِبُّ أن أُنبِّهَ عليها طَلَبَةَ العِلْمِ، فَقَدْ نُقِلَ الإجماعُ عَنِ الصحابَةِ دُونَ أن تُنْقَلَ أقوالُهُم بنَصِّهَا، لكِنَّا نَعْلَمُ أن الصحابَةَ يَقْرَؤُونَ القُرآنَ، فإذا لم يَرِدْ عَنْهُم ما يُخالِفُ هذَا القرآنَ، فهو إجْمَاعٌ؛ لأنهم يَعْرِفُونَ القُرآنَ، ويَعْرِفُونَ المَعْنَى، فإِذَا لَمْ يَرِدْ عَنْهُمْ ما يُخالِفُ هذَا القرآنَ، فَهُو إجماعٌ مِنْهُم على ما دَلَّ عليهِ القُرآنُ، ولا حاجَةَ أن نَقُولَ: أَثْبِتْ بالسَّنَدِ أن الصحابَةَ أَجْمَعُوا على ذلِكَ؛ لأن عنْدَنَا كتابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولم يُنقَلْ عَنْهُم خِلافُهُ.

وهذه القَاعِدَةُ تَنْفَعُ طَالِبَ العِلْمِ عندَ المُناظَرةِ والمُحاجَّةِ، إذا قَالَ: أينَ إجْماعُ الصحَابَةِ على أنَّ اللهَ في السَّماءِ؟ أقولُ: ائتِنِي بحَرْفٍ واحِدٍ عَنهُم أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا أن يَكونَ اللهُ في السَّماءِ، فإذا أَتَيْتَ فإنَّه حِينَئذٍ لا إِجْمَاعَ، لكنَّكَ لن تَسْتَطِيعَ هذَا، وأنا أَستَدِلُّ على إِجْماعِهِمْ بكونِهِمْ يَقْرَؤُونَ القُرآنَ، ولم يَرِدْ عَنْهُم حَرْفٌ واحِدٌ يُخالِفُ ما جاءَ بِهِ القُرآنُ.

أما الأَدِلَّةُ العَقْلِيَّةُ: التي يَتَّفِقُ عليها العُقلاءُ حَتَّى غيرُ المُسلِمِينَ هي أنَّ العُلُوَّ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ بالاتِّفَاقِ، فالعَالِي ليسَ كالنَّازِلِ، وليسَ كالسافِلِ، فالعَالِي له مَنزِلَةٌ عالِيَةٌ، ولهذَا تُوصَفُ المعَانِي العَظِيمَةُ بالعُلُوِّ، فالعُلُوُّ باتِّفاقِ العُقلاءِ صِفَةُ كمالٍ، فإذا نَفَيْتَ العُلُوَّ عن اللهِ، مَعناهُ سَلَبْتَ عنه صِفَةَ الكَمالِ، وإذا انتفَتْ صِفَةُ الكَمالِ ثبَتَتْ صِفَةُ النَّقْصِ.

وعَلَى هذَا، فيَكونُ العَقْلُ قَدْ دَلَّ عَلَى عُلُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَوَجْهُ ذلِكَ أن العُلُوَّ صِفَةُ كَمالٍ، وكلُّ صِفَةِ كَمالٍ فَلِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَكْمَلُها، والدَّلِيلُ على هذا قولُهُ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، أي: الوَصْفُ الأَكْمَلُ، فهنا قد دَلَّ العَقْلُ على عُلُوِّ اللهِ.

ثم **أَدِلَّةُ الفِطْرَةِ**: التي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عليهَا بِدُونِ تَعَلُّمٍ، وبدونِ بَحْثٍ ومُناظَرَةٍ، ويَعْرِفُها الإنسانُ مِنْ فِطرَتِهِ، عندَما تقولُ: يا رَبِّ. تَجِدُ أَنَّ قَلْبَكَ يَطِيرُ إلى السَّماءِ، فتَجِدُ ضَرُورَةً في القَلْبِ أن يرتَفِعَ إلى فَوْقُ، ولهذا تَرْفَعُ يَدَيْكَ تِلْقَائِيًّا: يا رَبِّ. حتَّى هؤلاءِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ ويقُولونَ: اللهُ بذَاتِهِ في كلِّ مكانٍ. لو رَأَيْتَهُم وهُمْ يَدْعُونَ اللهَ تَجِدُهُم يَرْفَعُونَ أَيدِيَهُم إلى السَّماءِ. فسبحانَ اللهِ! كيف تَرْفَعُ يدَيْكَ إلى السماءِ وتقولُ: إنَّ اللهَ بذَاتِهِ في كلِّ مكانٍ. لا بُدَّ أنْ تُطَيِّرَ يَدَيْكَ يَمِينًا ويَسارًا وتَحْتُ وفَوْقُ حتى يَصْدُقَ التَّوجُّهُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ عنْدَكَ!

إذن: الفِطْرَةُ تَقتَضِي أنَّ اللهَ تَعالَى فوقَ كلِّ شيءٍ، بدَليلِ أنَّ الإنسانَ إذَا دعَا رَبَّهُ فإنه يَجِدُ مِن قَلْبِهِ ضَرُورَةً بطَلَبِ العُلُوِّ.

وقَدْ ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِهِ (اجْتِماع الجُيُوشِ الإسلامِيَّةِ علَى غَزْوِ المُعَطِّلَةِ والجَهْمِيَّةِ) أَنَّ أَبا المَعَالي الجُوَيْنِيَّ كانَ يُقَرِّرُ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعَفا عنه- فيَقُولُ: إنَّ

اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ السماواتِ والأرضَ، وهُو الآنَ على ما كانَ عليهِ- أي: قَبْلَ كُلِّ شيءٍ- وهُو الآن على ما كَانَ عليهِ، يُرِيدُ أَنْ يُنكِرَ اسْتِوَاءَ اللهِ عَلَى العَرْشِ- فإذا كانَ هو الآن على ما كانَ عليهِ، فمَعْنَاه: أنـه لم يَسْتَوِ على العَرْشِ. فقـالَ له أَبُو العَلاءِ الهَمْذَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أستاذُ، دَعْنَا مِنْ ذِكْرِ العَرْشِ، أي: الاسْتِواءِ عَلَى العَرْشِ؛ لأنَّ الاستواءَ عَلَى العَرْشِ دَلِيلُهُ سَمْعِيٌّ غَيْرُ عَقْلِيٍّ، ولولَا أن اللهَ أَخْبَرَنَا أَنَّه استوى على العَرْشِ ما عَلِمْنَا بذلِكَ، لكِنْ أَخْبِرنَا عن هذِهِ الضَّرُورَةِ، وهي أنه ما قالَ عارِفٌ قَطُّ: يا اللهُ، إلا وَجَدَ مِنْ قَلبِهِ ضَرُورَةً بطَلَبِ العُلُوِّ! يُرِيدُ أن يَقولَ: إنَّ العابِدَ أو الدَّاعِيَ يَرفَعُ يَدَيهِ ويقولُ: يا اللهُ! فيَجِدُ لقَلْبِهِ ضَرُورَةً بطَلَبِ العُلُوِّ، وهذا الصحيحُ، فجَعَلَ أبو المَعَالي يَضْرِبُ على رَأْسِهِ، ويَقُولُ: «حَيَّرَنِي الهَمْذَانِيُّ، حَيَّرَنِي الهَمْذَانِيُّ!»[1].

وذلكَ لأن الدَّلِيلَ الفِطْرِيَّ لا يُمكِنُ لأَحَدٍ إِنْكارُهُ، ولهذا إذا جاعَ الإنسانُ طَلَبَ الطَّعامَ. وهل هناك أَحَدٌ يُدَرِّسُ، ويقولُ: يا فُلانُ، إذا جُعْتَ فَاطْلُبِ الطعامَ، وإذا عَطِشْتَ فاطْلُبِ الماءَ! بل هو مَوْجودٌ بالفِطْرَةِ، فعُلُوُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ موجودٌ بالفِطْرَةِ، فما دَعَا دَاعٍ رَبَّهُ إلا وَجَـدَ مِنْ قَلْبِهِ ضَرُورَةً بطلَبِ العُلُوِّ، ولهذا تَحَيَّرَ أَبـو المَعالي الجُوَينِيُّ، وعَجَزَ عن الإجابَةِ.

فتبَيَّنَ بهذا أن عُلُوَّ اللهِ جَلَّوَعَلَا دَلَّ عليه السَّمْعُ والعَقْلُ والفِطْرَةُ، والسمعُ من ثَلاثَةِ أَصْنَافٍ: القُرآنِ، والسُّنَّةِ، والإجْماعِ.

وقد يَسْأَلُ سائـلٌ فيقولُ: إنَّ اللهَ قـالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، متَى كانَ الاستِـواءُ؟

(١) اجتماع الجيوش الإسلاميّة (٢/ ٢٧٥).

فنقُولُ: بعدَ خَلْقِ السماواتِ والأرضِ. فيقولُ: وَقَبْلَ خلْقِ السماواتِ والأرْضِ هل استَوَى على العَرْشِ؟ فإن قُلْنا: نَعَم، صارَ للهِ استِوَاءٌ. وإن قُلْنَا: لا، أنْكَرْنَا استِواءَ اللهِ على العَرْشِ، فانظرُوا كيفَ يأتي الشيطانُ للناسِ بهذه الأَسئلَةِ!!

ثم نقولُ أيضًا: هلْ أَنْتَ أصدَقُ إِيمانًا مِنَ الصَّحابَةِ؟ هل أَنْتَ أشدُّ حُبًّا للهِ مِنَ الصَّحابَةِ؟ هل أنتَ أشَدُّ مَحَبَّةً للعِلْمِ من الصَّحابَةِ؟ هل الصَّحابَةُ سأَلُوا الرَّسولَ ﷺ هذا السُّؤالَ؟ ولكِنِّي ما أُرَاكَ إلا هَالِكًا، كَمَا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**»(١)، ما شَأْنُكَ بكونِ اللهِ استوَى على العَرْشِ قَبْلَ خَلْقِ السماواتِ والأرْضِ، أم لا؟

والجوابُ على هذَا أن نَقُولَ: إنَّ اللهَ تَعالَى أَخْبَرَنَا أنه بعدَ أن خَلَقَ السماواتِ والأرضَ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ، ولم يُخْبِرْنَا عَمَّا كانَ الأمرُ عليهِ قَبْلَ خَلْقِ السماواتِ والأرضِ: هـل هُو مُسْتَوٍ أم غيرُ مُسْتَوٍ. فـلا يَسَعُنَا في هذهِ الحالِ إلا السُّكوتُ والتَّسْلِيمُ، فلا نقول شيئًا، فهذه أُمورٌ غَيْبِيَّةٌ أكبرُ مِنْ عُقُولِنَا، فلا يُمْكِنُ أن نَقِيسَها بشيءٍ مِنَ المَخْلُوقاتِ، ولا يُمْكِنُ أن نَتكَلَّمَ فِيهَا بغيرِ عِلْمٍ.

فهذا السُّؤالُ ليسَ في مَحَلِّهِ، فيا أخِي، ما دامَ اللهُ قَدْ سَكَتَ عَنْهُ فاسْكُتْ عَنْهُ، وما دَامَ الرسولُ ﷺ سَكَتَ عَنْهُ فاسْكُتْ عَنْهُ، وما دَامَ الصحابَةُ سَكتُوا عَنْهُ فاسْكُتْ عَنْهُ، وهذا هُو الحَقُّ.

إذن، خُلاصَةُ الأمرِ: أن نُؤمِنَ، ونَعْتَقِدَ، ونَشْهَدَ بأَلْسِنَتِنَا، أَنَّ اللهَ تَعالَى فوقَ كلِّ شيءٍ، وأنه على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، ولا يُمْكِنُ أبدًا أنْ يَكونَ بذاتِهِ في كلِّ مكانٍ، بَلْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هَلَكَ المُتَنطِّعون، رقم (٢٦٧٠).

حاشَاهُ مِنْ ذلِكَ جَلَّوَعَلَا، ونَسألُ اللهَ تَعالَى لهؤلاءِ الذِينَ ذَهَبُوا هذَا المَذْهَبَ، أو التبَسَ عليهِمُ الحَقُّ في هذه المَسألَةِ، أن يَهْدِيَهُم إلى الحَقِّ، وأن يَرُدَّهُم إليه، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.

وهنا مَسألَةٌ أُحِبُّ أن أُنبِّهَ عليها، وهِي: أنَّ بعضَ الناسِ يَعتَقِدُ، ثم يَستَدِلُّ بعدَ الاعتِقَادِ، وهذا خَطأٌ وضَرَرٌ على الإنسانِ؛ لأنَّكَ إذا اعتَقَدْتَ ثم استَدْلَلْتَ، غَلَّبتَ الاعتِقَادَ فتَلْوِي أعناقَ النُّصوصِ لتُوافِقَ اعتِقادَكَ، لكنِ اجْعَلِ اعتَقَادَكَ تابِعًا، ابْحَثْ في النُّصـوصِ أَوَّلًا، وتَأَمَّلْهَـا، وتَتَدَبَّرْهَـا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء:٨٢]، فتَدَبَّرْهَا أوَّلًا، ثم إذا تبَيَّنَ لكَ الحَقُّ منها فابنِ عَقِيدَتَكَ على ما تبَيَّنَ لكَ، حتى تكونَ مَهْدِيًّا بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.





سورة الدخان

الدَّرسُ الأوَّل:

إنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئَاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان:١-٨].

في هذه الآياتِ الكَريماتِ يُقْسِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالكِتابِ المُبِينِ، وهو هذا القُرآنُ العظيمُ، وهو كتابٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى كَتَبَهُ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٩]، أي: لا يَمَسُّ هذا الكتابَ المَكْنونَ إلا المُطَهَّرونَ، يعني: إلا المَلائِكَةُ، وكما قالَ تعالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢١-٢٢].

وهو أيضًا كتابٌ؛ لأنه مَكتوبٌ في الصُّحُفِ التي بأَيدِي المَلائِكَةِ، كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾

[عبس:١٢-١٦]، وهُو مَكْتوبٌ؛ لأن هذِه الأُمَّةَ تكْتُبُهُ في المَصاحِفِ، وتَتْلُوهُ مِنْها كما تَحْفَظُهُ في صُدُورِهَا أيضًا، فهُو كِتابٌ لهذِهِ الوُجوهِ الثلاثَةِ التي نَعْلَمُها.

وقولُهُ تعالَى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، المُبِينُ: يَعْنِي المُظْهِرُ للأُمورِ على حَقَائِقِهَا، فهو مُظهِرٌ للحَقِّ من الباطِلِ، ومُظهِرٌ للشَّرِّ من الخيرِ، ومُظهِرٌ للمُتَّقِينَ من غيرِ المُتَّقِينَ، ومُظهِرٌ لجميعِ الأشياءِ التي يُمَيَّزُ بينها ويَظْهَرُ فيها الحقُّ من الباطِلِ.

أَقْسَمَ اللهُ بهذا الكتابِ المُبينِ على إنزالِ هذا الكتابِ المُبينِ في لَيلَةٍ مُباركَةٍ فقالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: يَعْنِي من عِنْدِنا، ونَزَلَ به جِبريلُ على قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ فوعاهُ النبيُّ ﷺ، وحَفِظَهُ، وأَبْلَغَهُ إلى هذِهِ الأُمَّةِ بأمانَةٍ تامَّةٍ، وأَبْلَغَهُ الصحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى التابِعينَ، ثم التابِعُونَ إلى مَن بَعْدَهُم، وهكذا حتَّى وَصَلَ إلينا اليومَ سَالِمًا من كلِّ نَقْصٍ ومن كلِّ زِيادَةٍ، ولهذا قال أهلُ العِلْمِ: مَن أَنكَرَ حَرْفًا مِنَ القُرآنِ من الحُروفِ التي أَجْمَعَ القُرَّاءُ على ثُبُوتِهَا، فإنه يُعْتَبَرُ كافِرًا باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وقولُهُ: ﴿لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، ليلة مبارَكَة هنا مُبهَمَةٌ لم تُبيَّنْ، ولكِنَّ القرآنَ يُفَسِّرُ بعْضُه بعضًا، وقد فسَّرَ اللهُ هذِهِ الليلَةَ بقولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، هذه هِي اللَّيلَةُ المُبارَكَةُ، ليلةُ القَدْرِ، أي: ليلةُ الشَّرَفِ والتَّقْدِيرِ، فِهي سُمِّيَتْ ليلةَ القَدْرِ؛ لأن فيها يُقَدَّرُ ما يكونُ في تلكَ السَّنَةِ، كما قالَ هنَا: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وسُمِّيَتْ ليلَةَ القَدْرِ لشَرَفِهَا عندَ اللهِ وعِظَمِ الأعمالِ الصالِحَةِ فيهَا، ولهذا ثَبتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَامَها إيمانًا واحْتِسابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ**»(١).

---

(١) أخْرَجه البُخاري: كتاب الإيمان، باب قِيام لَيْلةِ القَدْر من الإيمان، رقم (٣٥)، ومُسْلم: كتاب صَلاة المُسافِرين، باب التَّرْغيب في قِيام رَمَضانَ، رقم (٧٦٠).

فهو يَقولُ هنَا: ﴿لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ مِنْ بَرَكَتِهَا أَنَّهَا خَيرٌ مِنْ ألفِ شَهْرٍ، يَعْنِي: أنَّ العِبادَةَ فِيهَا وقيامَهَا خيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، ليسَ فيها ليلةُ القَدْرِ؛ وذلك لأنه كما سَمِعْنَا مَنْ قامَهَا إِيمانًا واحْتِسَابًا غَفَرَ اللهُ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ.

فإن قِيلَ: أين تَقَعُ هذه الليلَةُ مِنَ السَّنَةِ؟

قُلْنا: تَقَعُ في رَمَضانَ، ودليلُ ذلِكَ قولُهُ تَعالَى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، وبهذا يَتَبَيَّنُ لنا ضَعْفُ مَن زَعَمَ أن ليلَةَ القَدْرِ ليلةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبانَ، وصارُوا يُقيمونَ فيها احْتِفَالًا بالعِبادَةِ والذِّكْرِ والسَّهَرِ، وهذا الاحتفالُ في ليلةِ النِّصْفِ من شَعْبانَ أقولُها هنا أمامَ بيتِ اللهِ لأَبْلُغَ بها أَسْماعَ مَنْ يَسْمَعُني من أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَقولُ: إنَّ إِحْياءَهَا لا أَصْلَ لَهُ عن النَّبِيِّ ﷺ، ولا عَنِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعلى هذا لا يَنْبَغِي للمُسلِمِينَ أن يُحْيُوهَا؛ لأنه لو كانَ هذا خَيْرًا لسَبقَنَا إليهِ مَنْ هُمْ أفضَلُ مِنَّا وأَحْرصُ منَّا على الخَيْرِ.

والذي يَنْبَغِي للإنسانِ هو أن يَكونَ حَرِيصًا على ما ثَبَتَتْ بِه السُّنَّةُ؛ فإن فيهِ خَيْرًا كثيرًا، ومن العَيبِ الواضِحِ البيِّنِ في البِدَعِ أنَّ أصحابَهَا تَجِدُهُم حَرِيصِينَ عليها نَشِيطِينَ فيها، لكنَّهم في الأعمالِ الثَّابِتَةِ الصحيحةِ غالِبًا ما يَكونونَ فَاتِرِينَ، وهذا مِمَّا يَدُلُّ على أَنَّه يَجِبُ على الإنسانِ أن يَتحرَّزَ من كلِّ بِدْعَةٍ، وأنه إذا زَيَّنَ الشيطانُ في قَلْبِهِ البِدَعَ، فإنَّه يَجِبُ عليه أن يُعْرِضَ عنْ ذلِكَ، وأن يُقْبِلَ على ما ثَبَتَ مِن سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ ففيهِ الخَيرُ الكثيرُ.

إذن: مَوقِعُ لَيلَةِ القَدرِ في رَمَضانَ، وليسَ في النِّصْفِ من شَعبانَ، وتكونُ في العَشْرِ الأَواخِرِ مِنْ رمضانَ؛ وذلكَ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اعْتكَفَ العَشْرَ الأَوَّلَ مِنْ رَمَضَانَ،

ثُمَّ اعْتَكَفَ العَشْرَ الأَوْسَطَ فِي قُبَّةٍ تُرْكِيَّةٍ، عَلَى سُدَّتِهَا حَصِيرٌ، قَالَ: فَأَخَذَ الحَصِيرَ بِيَدِهِ فَنَحَّاهَا فِي نَاحِيَةِ القُبَّةِ، ثُمَّ أَطْلَعَ رَأْسَهُ فَكَلَّمَ النَّاسَ، فَدَنَوْا مِنْهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي اعْتَكَفْتُ العَشْرَ الأَوَّلَ، أَلْتَمِسُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ اعْتَكَفْتُ العَشْرَ الأَوْسَطَ، ثُمَّ أُتِيتُ، فَقِيلَ لِي: إِنَّهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنكُمْ أَنْ يَعْتَكِفَ فَلْيَعْتَكِفْ**». فَاعْتَكَفَ النَّاسُ مَعَهُ، قَالَ: «**وَإِنِّي أُرِيتُهَا لَيْلَةَ وِتْرٍ، وَأَنِّي أَسْجُدُ صَبِيحَتَهَا فِي طِينٍ وَمَاءٍ**». فَأَصْبَحَ مِنْ لَيْلَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَقَدْ قَامَ إِلَى الصُّبْحِ، فَمَطَرَتِ السَّمَاءُ، فَوَكَفَ المَسْجِدُ، فَأَبْصَرْتُ الطِّينَ وَالمَاءَ، فَخَرَجَ حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ، وَجَبِينُهُ وَرَوْثَةُ أَنْفِهِ[١] فِيهِمَا الطِّينُ وَالمَاءُ، وَإِذَا هِيَ لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ مِنَ العَشْرِ الأَوَاخِرِ[٢].

ثُمَّ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَولُه: «**مَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا مِنَ العَشْرِ الأَوَاخِرِ**»[٣]، وأَمَرَ أن نَتَحَرَّاها فِي الأَوتارِ مِنَ العَشْرِ الأواخِرِ لأَنَّها أَوْكَدُ[٤].

وكذلك أيضًا ثَبَتَ عنه أن جملَةً من أَصحابِهِ أُروا لَيلَةَ القَدْرِ، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ**»[٥]، وهذا أَقَلُّ زَمَنٍ حُصِرَتْ فيه ليلةُ القَدْرِ.

---

(١) أي طَرَف أنفِه. النهاية روث.

(٢) أخْرَجَه البخاري: كتاب فَضْل ليلة القَدْر، باب تَحَرّي ليلة القَدْر في الوِتْر من العَشْر الأواخر، رقم (٢٠١٨)، ومُسْلِم: كتاب الصِّيام، باب استحباب صَوْم سِتَّة أيامٍ من شَوَّال، رقم (١١٦٧).

(٣) أخْرَجَه البخاري: كتاب التَّهَجُّد، باب فَضْل مَن تَعارَّ من الليل فصَلَّى، رقم (١١٥٨)، ومُسْلم: كتاب فَضائل الصحابة، باب من فَضائل عبدِ الله بنِ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٧٨).

(٤) أخْرَجَه البخاري: كتاب فَضْل لَيلةِ القَدْر، باب التماس ليلة القَدْر في السَّبْع الأواخر، رقم (٢٠١٦)، ومُسْلم: كتاب الصِّيام، باب استحباب صَوْم سِتَّة أيامٍ من شَوَّالٍ، رقم (١١٦٥).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، رقم (٢٠١٥)، مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعا لرمضان، رقم (١١٦٥).

وعلى هذا فنَقُولُ: ليلةُ القَدْرِ في العَشْرِ الأواخِرِ، وفي السَّبْعِ الأواخِرِ منه أوكدُ، وفي الأَوْتَارِ منه أوكَدُ.

فإن قيلَ: هل تَقُولونَ: إن ليلةَ القَدْرِ في ليلةٍ مُعَيَّنَةٍ في السنةِ دائمًا، أم إنَّها تَنْتَقِلُ في بعضِ السنواتِ؟

فالجواب: أنَّ الراجِحَ من أقوالِ أهلِ العِلْمِ والذي به تَجْتَمِعُ الأَدِلَّةُ أنها تَنَقَّلُ فتكونُ مَثَلًا هَذِه السَّنَةَ في ليلةِ خَمسٍ وعِشرين، وتكونُ في سَنَةٍ أُخْرَى في ليلةِ ثَلاثٍ وعِشْرينَ، وفي سَنَةٍ أُخْرَى في ليلةِ سَبعٍ وعِشْرِينَ، وفي سَنَةٍ أُخْرَى في ليلةِ تِسْعٍ وعِشْرِينَ، وهذا من حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حتَّى لا يَلْتَزِمَ الناسُ بلَيلَةٍ مُعَيَّنَةٍ يَجْتهِدُونَ فيها، ويَدَعُونَ بَاقِيَ ليالي العَشْرِ، وإنما أَبْهَمَهَا اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وجعَلَها تَنْتَقِلُ فيما نَعْلَمُه من أَحاديثِ النبيِّ ﷺ لأَجلِ أن يَتبيَّنَ الحريصُ مِنَ الكَسْلانِ، فالكَسلانُ يقولُ مَثَلًا: ليلةُ القَدْرِ ليلَةُ سبعٍ وعشرينَ أَجتهِدُ فيها وأَدَعُ الباقِيَ، ولكِنَّ الإنسانَ الحريصَ يقولُ: لَيلَةُ القَدْرِ في السبعِ الأواخِرِ، أو في العَشْرِ الأواخِرِ مِنْهُ، والنَّبيُّ ﷺ قال: «**التَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ لَيْلَةَ القَدْرِ، فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى، فِي خَامِسَةٍ تَبقَى**»[1]، ولم يُعَيِّنْ، فالحَرِيصُ يقولُ: أنا أَجْتَهِدُ في الأعمالِ الصَّالِحَةِ في كلِّ هذِهِ العَشْرِ، لعلَّ اللهَ تَعالَى أن يُوَفِّقَنِي لليلَةِ القَدْرِ.

ومَعْلومٌ أنَّ مَنِ اجْتَهَدَ في العَشْرِ الأواخِرِ، وقامَ الليلَ إيمانًا واحتِسَابًا فإنَّه سُيوَفَّقُ لليلَةِ القَدْرِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ**

---

(١) أخرجه البُخاري: كتاب فَضْل ليلةِ القَدْر، باب تَحَرِّي ليلةِ القَدْر في الوِتْر من العَشْر الأَواخِرِ، رقم (٢٠٢١).

لَه ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِه»(١)، وهي لا تَخْرُجُ عَنْ هذِهِ الأيامِ، فإذَا حَرَصْتَ واجْتَهَدْتَ مِنْ أوَّلِ العَشْرِ إلى آخِرِهَا تقومُ الليلَ إيمانًا واحتِسَابًا، إيمانًا باللهِ، واحْتِسَابًا لثوابِ اللهِ، فإنك سوفَ تَنالُ ليلةَ القَدْرِ بإذنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

يَقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾:

﴿يُفْرَقُ﴾: يَعْنِي يُفَصَّلُ ويُبَيَّنُ، وذلِكَ بالكتابِ الذي يُكتَبُ في تِلْكَ الليلةِ على حَسَبِ حِكْمَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ومَشِيئتِهِ، فيَكْتُبُ اللهُ تَعالَى حياةَ قومٍ ومَوتَ آخَرِينَ، ونَصْرَ قَومٍ وذُلَّ آخَرِينَ، وكذلك يَكْتُبُ رِزْقَ قومٍ وحِرمانَ آخَرِينَ، إلى غيرِ ذلك مما تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وهو الحَكِيمُ الخَبِيرُ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، أي شأنٍ حِكيمٍ، أي: هو ذُو حِكْمَةٍ، أو حَكِيمٌ بمعنى محكُومٍ بِهِ، فيأتِي شامِلًا لهذَا وهذا، كلُّ أَمرٍ محكومٍ بِه، وهو أيضًا حَكِيمٌ؛ لأن الذي حَكَمَ بِهِ هو اللهُ، وهو الحَكِيمُ العَلِيمُ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، وهذا تَعْظِيمٌ لهذَا الأمرِ الذي يُكْتَبُ في تلكَ الليلةِ، حيثُ جاءَ في صِيغَةِ التَّنْكِيرِ ومضَافًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في قولِهِ: ﴿مِّنْ عِندِنَآ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ مُرْسِلِينَ مِن جُمْلَةِ مَنْ أُرْسِلَ مُحَمَّدًا ﷺ، وهذا كالتَّعْليلِ؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾، فأنزلَ اللهُ القرآنَ لِتَثْبُتَ بِه رِسالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

---

(١) أخْرَجَه البُخاري: كتاب الإيمان، باب قِيام ليلةِ القَدْرِ من الإيمان، رقم (٣٥)، ومُسْلم: كتاب صَلاةِ المُسافِرين، باب التَّرْغيب في قِيامِ رَمَضانَ، رقم (٧٦٠).

وقوله تعالى: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يعني: أن اللهَ تَعالَى أرسلَ الرُّسُلَ رحمَةً بالعبادِ؛ لأنه لَولَا إرسالُ الرُّسُلِ ما عَرَفَ الناسُ كيفَ يَعْبدونَ اللهَ، ولم يَعْرِفُوا كيف يَتَوَضَّؤُونَ، ولا كيفَ يُزَكُّونَ، ولا كيفَ يَصُومُونَ، ولا كيفَ يَحُجُّونَ، ولكنَّ الرُّسُلَ أَرْسَلَهُم اللهُ تَعالَى وله الحَمْدُ والمِنَّةُ لأجلِ أن يُبَيِّنُوا للناسِ ما نُزِّلَ إليهم، حتَّى يَكونَ الناسُ عَابِدِينَ لرَبِّهم على بَصِيرَةٍ، وعلى الوَجْهِ الذي يَرْضَاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.



الدَّرسُ الثَّاني:

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، والصَّلاةُ والسلامُ عَلَى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّنا نَتكلَّمُ قليلًا عَلَى ما سَمِعناه فِي صَلَاةِ إمامِنا فِي هَذَا الصباحِ، فقد قَرَأَ أكثرَ سُورَةِ الدُّخَانِ.

ابْتَدَأَ اللهُ تعالَى هَذِهِ السُّورةَ بقولِه تَعالَى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الدخان:٢]، وإنما قلنا: إنَّ اللهَ ابتدأ هَذِهِ السُّورةَ بذلك؛ لأنَّ البَسملةَ ليستْ آيةً منها، بل ولا مِن الفَاتِحَةِ أيضًا -على القولِ الرَّاجِحِ- فالبَسْملةُ آيةٌ مِن كتابِ اللهِ، لا شَكَّ فِي هذا، يُؤتَى بها فِي ابتداءِ كُلِّ سُورَةٍ إِلَّا سُورَةً واحدةً، وهي التَّوْبَةُ، فإنَّها لم يُفْصَلْ بينَها وبينَ الأنفالِ بالبَسملةِ.

ومن ذلك -أي: مِن كونِ البَسملةِ ليستْ آيةً مِن سُورَةِ الفَاتِحَةِ كما قلتُ- ما ثَبَتَ فِي الصَّحيحِ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال فِيما يَرْويهِ عن رَبِّهِ فِي الحديثِ القُدْسِيِّ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تعالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قَالَ:

هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[(١)].

فهل أنتَ حِينَ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورةَ تَشْعُرُ بأنكَ تُناجي اللهَ كلما قلتَ آيةً أجابَكَ اللهُ؟ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى هَذَا ما نُؤَمِّلُه فِي إخوانِنا المُسْلِمِينَ، ونَسْأَلُ اللهَ تعالَى أَنْ يُعِينَنا عليه فِي أَنْفُسِنا، بأن تَشْعُرَ بأنكَ كُلَّما تَلَوْتَ آيةً فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يُناجِيك ويَرُدُّ عليكَ.

يَقـولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الدخان:١- ٢]، ﴿حمٓ﴾ حَرْفانِ هِجائيانِ يَبتدِئُ اللهُ بهذه الحُروفِ -أي: بالحُروفِ الهِجَائيَّةِ- عَدَدًا مِن السُّورِ، فهل لهذه الحُروفِ مَعْنًى، أم لَيْسَ لها مَعْنًى؟

الرَّاجِحُ أنَّها لَيْس لها مَعْنًى، وليسَ قَوْلُنا: ليسَ لها مَعْنًى. أنَّ وُجودَها وعَدَمَها سَواءٌ، ولكن هِيَ بذاتِها لا مَعْنى لها، والدَّليلُ لذلك قولُه تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، ووَجْهُ الدَّلالةِ مِن الآيةِ أَنَّ اللِّسانَ العربيَّ فِي مثلِ هَذِهِ الحروفِ لا يَجْعَلُ لها مَعْنًى، وحينَئِذٍ نقول: الحاءُ حَرْفٌ هِجائِيٌّ، والميمُ حرفٌ هِجائِيٌّ، لَيْسَ لها مَعْنًى فِي حَدِّ ذاتِها، ولكنْ لها حِكْمةٌ عَظِيمةٌ بَالِغةٌ، وهي أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أتى بهذه الحروفِ، ليقولَ لقُرَيْشٍ الَّذِينَ هُم أُمَرَاءُ البلاغةِ والفَصاحةِ: إنَّ هَذَا القُرْآنَ الَّذِي عَجَزْتُم أن تَأْتُوا بمِثْلِه، أو بِعَشْرِ سُوَرٍ مِن مِثْلِه، أو بِسُورَةٍ مِن مِثْله، أو بحَديثٍ مِن مِثْله لم يَكُن غَرِيبًا عَلَى لِسانِكم، فإنَّه مِن هَذِهِ الحُروفِ الَّتِي تُرَكِّبُونَ منها كَلامَكم، ومعَ ذلكَ أَعْجَزَكُم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الدخان:٢]، الواوُ هنا للقَسَمِ، والمرادُ

---

(١) أخْرَجَه مُسْلم: كتاب الصلاة، باب وُجوب قراءة الفَاتحة في كلِّ رَكْعةٍ، رقم (٣٩٤).

بـ(الكتاب المُبينِ) القُرْآنُ الكريمُ، وسُمِّيَ كتابًا؛ لأَنَّه مَكْتوبٌ فِي اللَّوحِ المحفوظِ، ولأنه مَكْتوبٌ فِي الصُّحُفِ الَّتِي بأيدي الملائكةِ، ولأنه مَكْتوبٌ فِي الصُّحفِ الَّتِي بأيدينا، وعلى هَذَا فـ(فِعال) بمعنى (مَفْعول)، كتابٌ هنا بمَعْنَى: مَكْتوبٍ، مثل: غِراس بمعنى مَغْروسٍ، وبِناء بمعنى مَبْنِيٍّ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان:٢]، هل المُرادُ المُبينُ فِي نَفْسِه، أَم المُبِينُ لِغَيْرِه، أم المرادُ هَذَا وهذا؟

الجواب: المُرادُ هَذَا وهذا، بِناءً عَلَى قاعدةٍ ذَكَرْناها، وهِيَ: «كُلُّ آيةٍ تَحْتَمِلُ مَعْنيينِ عَلَى السواءِ، ولا مُنافاةَ بينَهما، وليسَ بينَهما مُرَجِّحٌ، فهي مَحْمولةٌ عَلَى المَعْنيينِ جَمِيعًا».

إذن: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ الَّذِي هُوَ بَيِّنٌ فِي نفسِه ومُبِينٌ لِغَيْرِه، والقُرْآنُ هكذا بَيِّنٌ فِي نفسِه مُبِينٌ لغيرِه، أَمَّا كونُه بَيِّنًا فِي نفسِه، فهذا ظاهرٌ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، يَسَّرناه لفظًا، ويَسَّرْناهُ مَعْنًى لمن أراد أَنْ يَتذكَّرَ، فهل مِن مُدَّكِرٍ؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: ابْتدَأْنا إنزالَه، ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهي ليلةُ القَدْرِ، والدَّلِيلُ لذلك قولُه تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١].

وسَمَّاها اللهُ مُباركةً؛ لما فيها مِن الخَيراتِ الكثيرةِ، حتَّى قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٣].

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣]، ﴿إِنَّا﴾ جمع، ﴿كُنَّا﴾ كذلك، ﴿مُنذِرِينَ﴾ كذلك أيضًا جمعٌ.

وهنا يَتساءَلُ الإِنْسَانُ: لماذا جِيءَ بصِيغةِ الجمعِ وهو واحدٌ؟

نقولُ: جِيءَ بصِيغةِ الجَمْعِ وهو وَاحِدٌ مِنْ أَجْلِ التعظيمِ؛ لأنَّ ضَمِيرَ الجَمْعِ يَكونُ للمُتَعَدِّدِ، ويكونُ للواحدِ العَظيمِ الَّذِي يُعَظِّمُ نفسَه، وكلما جاءَ ضميرُ الجمعِ مُضافًا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فالمُرادُ به التعظيمُ؛ لأنَّه لا يُمْكِنُ أَنْ يُرادَ به التعددَ، كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

﴿مُنذِرِينَ﴾ أي: مُخَوِّفِينَ، فإنَّ هَذَا القُرْآنَ فيه التخويفُ، وفيه التَبشيرُ، فهو قرآنٌ نَذيرٌ للكافرينَ مُبَشِّرٌ للمُؤْمِنِينَ.

﴿فِيهَا﴾ أي: فِي هَذِهِ اللَّيْلةِ، ﴿يُفْرَقُ﴾، أي: يُفَصَّلُ، ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾ أي: كُلُّ شَأْنٍ، ﴿حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] أي: مُشْتَمِلٍ عَلَى الحِكْمةِ، ولهذا كانت لَيْلَةُ القَدْرِ يُقدَّرُ فيها ما يكونُ فِي تلك السَّنةِ، وأنواعُ التقديرِ هي:

أولًا: التقديرُ العامُّ السابقُ، وذلك فِي اللَّوْحِ المَحْفوظِ، فإنَّ اللهَ تَعالَى لمَّا خلَقَ القَلَمَ، قالَ له: «اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١). إذن، كلُّ ما يَقَعُ فِي الكونِ فإنَّه مَكْتوبٌ فِي اللَّوْحِ المَحْفوظِ.

ثانيًا: كِتابةٌ عُمُرية، وذلك ما يُكْتَبُ عَلَى الجَنينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندَ خَلْقِ الجَنينِ يَخْلُقُه أَطْوارًا، كما قالَ تَعالَى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤]، الطَّوْرُ الأَوَّلُ: طَوْرُ النُّطْفةِ، وهو أربعون يَوْمًا، ونُطفةٌ، يعني قَطْرَةً مِن مَنِيٍّ، هَذِهِ النُّطْفةُ تَتكوَّنُ شيئًا فشيئًا، حتَّى إذا تَمَّ لها أربعون يومًا، فإذا هِيَ عَلَقَةٌ، يعني قِطعةً مِن دَمٍ، فتَبْقَى عَلَى هَذَا الطَّوْرِ أربعين يومًا، ثُمَّ تَتحَوَّلُ إِلَى مُضْغَةٍ، أي: قِطعةِ لَحْمٍ بِقَدْرِ

(١) أخرجه أحمد (٣٧/ ٣٧٨، رقم ٢٢٧٠٥).

ما يَمْضَغُه الإِنْسَانُ فِي فَمِه، وتَبْقَى فِي هَذَا الطَّوْرِ أربعين يومًا، فهذه مِئَةٌ وعِشْرون يَوْمًا.

فإذا تَمَّ للجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ مِئَةٌ وعِشْرونَ يومًا بَعَثَ اللهُ إليه المَلَكَ المُوَكَّلَ بالأرحامِ، فنَفَخَ فيه الرُّوحَ، وأُمِرَ بكَتْبِ رِزْقِه وأَجَلِه وعَمَلِه، وشَقِيٌّ أَمْ سَعيدٌ[1]، هَذَا التقديرُ يُسَمَّى التقديرَ العُمُرِيَّ، فكلُّ إِنْسَانٍ يُقَدَّرُ له ذلك.

ثالثًا: التقديرُ الحَوْلِيُّ، وهو الَّذِي يكونُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ، ولهذا قالَ تَعالَى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان:٤-٥]. يعني: هَذَا الأمر الحَكِيم الَّذِي يُفْرَقُ هُوَ مِن عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، يعني: نَحْنُ الَّذِينَ نُرْسِلُ الآياتِ، ونُرسِلُ الرُّسُلَ، ونُرسُلُ الرِّياحَ، فالمُرْسَلون هنا شَامِلَةٌ لكلِّ ما يُرْسِلُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ واللهُ تَعالَى يُرْسِلُ الرِّياحَ، والدَّلِيلُ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر:٢٢]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧].

كذلك يُرْسِلُ الرُّسُلَ، والدَّلِيلُ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد:٢٥].

كذلك يُرْسُلُ الأوامِرَ، فإنَّ اللهَ تَعالَى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة:٥-٦].

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان:٦]، يعني: أَنَّ

---

(١) أخْرَجه البُخاري: كتاب الحَيْض، باب قَوْل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، رقم (٣١٨)، ومُسلِمٌ: كتاب القَدَر، باب كَيْفية خَلْق الآدَمِيِّ في بَطْن أُمِّه، رقم (٢٦٤٦).

اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُرْسُلُ الرُّسلَ وغيرَها مِمَّا يُرْسِلُه رحمةً بالعبادِ، وقال: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ واللهُ تَعالَى ربُّ كلِّ شيءٍ؛ اعتناءً برَسولِ اللهِ ﷺ وأَنَّ اللهَ تَعالَى رَبَّاهُ تَرْبيةً خاصَّةً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ هذانِ اسمانِ مِن أَسماءِ اللهِ، الأَوَّلُ السميعُ، وله معنيان؛ المعنى الأوَّل: المُجِيبُ، والمعنى الثَّاني: السَّامِعُ، أما الأَوَّلُ فدَلِيلُه قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، أي: لمُجِيبُ الدُّعاءِ، ومِن ذلك أيضًا قولُ المُصَلِّي: سَمِعَ اللهُ لمَن حَمِدَهُ، أي: استجابَ.

وأما الثَّاني بمعنى السامِعِ، فمِنه قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، هَذِهِ المَرْأَةُ جاءت تَشتكِي إِلَى الرَّسُولِ ﷺ بأنَّ زوجَها ظَاهَرَ منها، أي: قالَ لها: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي. وهذا القولُ -كما وصَفَهُ اللهُ- مُنْكَرٌ وزُورٌ، مُنكَرٌ لأَنَّه حَرامٌ، وزُورٌ لأَنَّه كَذِبٌ، فالزَّوْجةُ ليست عَلَى الزَّوْجِ كظَهْرِ أُمِّهِ، بل ظَهْرُ أُمِّهِ مِن أَشَدِّ ما يكونُ تَحْرِيمًا، والزَّوْجةُ مِن أَشَدِّ ما يكونُ تَحْليلًا، فهو كَذِبٌ وزُورٌ.

﴿سَمِيعٌ﴾ بمعنى سَامِعٍ، فهو جَلَّوَعَلَا يَسْمَعُ كُلَّ صوتٍ وإنْ خَفِيَ، وانظُرْ إِلَى هَذِهِ المَرْأَةِ الَّتِي جاءت تَشتكِي والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حُجْرةِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ عائشةُ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ المُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ البَيْتِ، مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١] إِلَى آخِرِ الآيَةِ»[1]، وهي فِي الحُجْرةِ، والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فوقَ سماواتِه عَلَى عَرْشِه يَسْمَعُ، قالَ تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦، رقم ٢٤٦٩٩).

ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

فائدة: الظِّهارُ: أَنْ يُشَبِّهَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ بأُمِّهِ، أو بغيْرِها مِن النِّسَاءِ اللاتي يُحَرَّمْنَ عليه تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا، مِثل أَنْ يقولَ: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي، أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ بِنْتِي، أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُختي، أنتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ عَمَّتِي، أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ خالَتِي، كلُّ هَذَا ظِهارٌ، وحُكْمُه أَنَّه إذا وَقَعَ مِن إِنْسَانٍ وَجَبَ عليه أَنْ يَتجَنَّبَ زوجتَهُ حتَّى يُكَفِّرَ، **والكَفَّارةُ ثلاثةُ أنواعٍ** عَلَى الترتيبِ: **الأَوَّلُ:** عِتْقُ رَقَبَةٍ. **والثَّاني:** إذا لم يَجِدْ يَصُومُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ. **والثَّالثُ:** إذا لم يَسْتَطِعِ الصَّوْمَ، يُطْعِم سِتِّينَ مِسكينًا.

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان:٦]، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: ذو العِلْم الواسِعِ الشامِلِ لما فِي السماواتِ وما فِي الأَرضِ، وقَدْ ذَكَر اللهُ تَعالَى عِلْمَه مَرَّةً إجمالًا، ومَرَّةً تَفْصيلًا، فمِن الإجمالِ مِثْلُ هَذِهِ الآيةِ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ومِن التفصيلِ مِثْلُ قولِه تَعالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]

﴿وَرَقَةٍ﴾ يعني مِن الشَّجَرِ، أَيُّ ورقةٍ تسقُط من شَجَرَةٍ، فاللهُ يَعْلَمُها، وإذا كانَ يَعْلَمُ الأوراقَ المُتساقِطةَ، فإنَّه يَعْلَمُ الأوراقَ المُتلاحِقةَ المَخْلوقةَ مِن باب أَوْلى، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، فعِلْمُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واسعٌ شامِلٌ لكلِّ شيءٍ.

ثم قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان:٧-٨]، قولُه: ﴿رَبِّ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَالِقُهما، ومالِكُهما، ومُدَبِّرُهما، وما فيهما أيضًا، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ يعني: إن كُنْتُم ذَوِي إيقانٍ، فَأَيقِنُوا بأَنَّ اللهَ رَبُّ السماواتِ والأرضِ وما بينَهما.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا مَعْبودَ حقٌّ إِلَّا هُوَ، وسَبَقَ الكلامُ عَلَى هَذِهِ الكلمةِ العظيمةِ، وبيانِ أَنَّ خبرَها مَحْذوفٌ، وأن تَقْديرَه: (حَقٌّ).

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هُوَ الَّذِي يُحْيِي الخَلْقَ ويُمِيتُ الخَلْقَ.

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ حاجَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رجلٌ مُتَمَرِّدٌ، فقالَ له إبراهيمُ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، فقالَ المُحَاجُّ: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾، فلم يَشَأْ إبراهيمُ أَنْ يُنازِعَهُ فِي هَذِهِ الكلمةِ، ولكنه أَتَى بأمرٍ لا يَتمكَّنُ مِن الخُروجِ منه، فقالَ له إبراهيمُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، فلا يُمْكِنُ أَنْ يَرُدَّ عَلَى هذا، ولهذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].



الدَّرسُ الثَّالِث:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩].

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، وهذا كقولِهِ تَعَالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، فاللهُ جَلَّ وَعَلَا لِحِكْمَتِهِ لَمْ يَخْلُقْ هذهِ السَّماواتِ والأرضَ لَعِبًا ولهَوًا وهُزوًا وباطلًا، وإِنَّما خَلَقَهما لِحِكَمٍ عظيمةٍ بَاهرةٍ، مِنها مَا يَظْهَرُ لِلعبادِ، ومِنْها ما لَا يَظْهَرُ لِلعبادِ.

فَما يَظْهَرُ لنا مِنَ الحِكَمِ فِيما خلَقَ اللهُ فِي هَذِهِ السماواتِ وَالأَرضِ فإِنَّما هُو زِيادةُ قدرٍ منَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وزيادةُ مِنَّةٍ، منْ أجلِ أنْ يَزدادَ الإِنسانُ طَمأنينةً إِلى حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَا لَمْ يَظْهَرْ لَنا منهُ منَ الحِكْمةِ فإِنَّه يَجِبُ علَيْنا التَّسليمُ.

وكذلك لِنَعْلَمَ أن لِعبادِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَبًّا، وأَنْ نَعْلَمَ أَنَّه لَمْ يُقدِّرْ شَيئًا إِلَّا لِحِكمةٍ؛ لأنَّ مِنْ أَسماءِ اللهِ الحكيمَ، والحكيمُ هوَ المُحْكِمُ لِلأشياءِ، المُتْقِنُ لَهَا، الذِي يَضَعُ كلَّ شيءٍ مَوضعِهِ اللَّائقِ بهِ، بحيثُ لَا يقولُ العقلُ: لَيْتَهُ لَمْ يَضَعْ، أَو لَيْتَهُ يَضَعُ فِيمَا لَمْ يَضَعْهُ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يُقدِّرُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فإِنَّه لِحِكَمٍ عظيمةٍ بَالغةٍ.

وفِي هذهِ الآيةِ منْ صِفاتِ اللهِ صِفةُ نَفْيٍ، فَالمَنْفِيُّ فِي هذهِ الآيةِ أَنْ نَقولَ: اللهُ لم يخلقَ السَّماواتِ والأرضَ لَعِبًا، وصِفاتُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى المَنفِيَّةُ لَا يُقصَدُ بِها مُجَرَّدُ النفيِ؛ لأنَّ مُجَرَّدَ النَّفيِ لَا يَدُلُّ عَلى الكمالِ، وَصِفاتُ اللهِ تَعالى كلُّها كَمالٌ، يَدُلُّ على

ذلكَ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]، والمثلُ بِمَعْنَى الوَصْفِ، أَيْ: لهُ الوَصْفُ الأَعْلَى، أَي: الأكملُ مِن كلِّ وجهٍ.

وإنْ قُلنا: إنَّ المَثَلَ بِمَعْنَى الوَصْفِ؛ لأَنَّهُ يَأْتي هَكَذَا فِي اللُّغةِ العَربيةِ، ومِنهُ قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد:١٥]، بِمَعْنَى وَصْفِ الجنةِ الَّتي وُعِدَ المتقونَ فِيها أَنهارٌ، كَما أَنَّ المَثَلَ يَأْتِي بِمَعْنَى الشَّبَه، كَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، ولقائلٍ أنْ يقولَ: إنَّ ﴿مَثَلُهُمْ﴾ فِي هذهِ الآيةِ بِمَعْنَى وَصْفِهم، أَي: وَصْفُهم كَوصفِ الَّذي استَوْقَدَ نارًا.

إِذَا كانَ اللهُ تَعالى لهُ المَثَلُ الأَعْلى، فَهل يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ فِي صِفاتِهِ نَفيٌ مُجَرَّدٌ لَا يَتضَمَّنُ كمالًا؟

والجوابُ: لَا، وذلكَ لأنَّ النفيَ المُجَرَّدَ ليسَ بشيءٍ أَصلًا، فكيفَ يكونُ نَفْيُهُ كمالًا؛ لأنَّ النفيَ المُجرَّدَ يَعْني العَدَمَ، والعدمُ لَيْسَ بِكمالٍ؛ لِهَذا كانَ كلُّ صفةٍ مَنفيةٍ نَفَاها اللهُ عَن نَفسِه فإِنَّها تَتَضَمَّنُ صِفةً سُلوكيةً دَالةً عَلى كمالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بلْ يَنبغي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ النفيَ قَد يُنفَى عنِ الشَّيءِ لعدمِ قَابِلِيَّتِهِ لهُ، وقَد يُنْفَى عنِ الشَّيْءِ لِعَجْزِهِ عنهُ، فإِذَا نُفِيَ عنهُ لِعَدَمِ قَابليَّتِهِ لهُ، فهذَا ليسَ فيهِ نفيٌ ولَا كمالٌ ولَا ذمٌّ أَيضًا، إذا نُفِيَ الشَّيءُ عنْ مَوْصوفٍ لعدمِ قَابليتِهِ لهُ فَهَذَا ليسَ بمَدْحٍ ولَا قَدْحٍ، وإذَا نُفِيَ الشيءُ عَن مَوْصوفٍ يَعْجِزُ عنهُ فإنَّ هذَا صِفةُ نقصٍ، وتلكَ قاعدةٌ يَنْبغي عَلينا تَعَلُّمُها.

إذن، إذَا نُفِيَ الشيءُ عَن مَوصوفٍ لعدمِ قَابليتِهِ لهُ فَهَذا لَا مَدْحٌ ولا ذمٌّ، وإِذَا نُفِيَ عنْ مَوصوفٍ لعَجْزِهِ عنهُ، فإنهُ صِفَةُ نَقْصٍ.

مثالُ ذلكَ: إذَا قـالَ قائـلٌ: إنَّ الجدارَ لَا يَعْتَدِي عَلى أَحدٍ، والجدارُ جَمادٌ،

لَا يَعْتَدِي عَلى أَحَدٍ، فنَفَى الاعتدَاءَ عنِ الجدارِ لعَدَمِ قَابليتِهِ لذلكَ، فَهل نَحنُ إذَا قُلنَا: إنَّ الجدارَ لَا يَعْتدي عَلى أحدٍ، هَل نحنُ مَدَحْنَا الجدارَ؟ لَا، لَم نَمْدَحْهُ، ولَمْ نَذُمَّهُ، وإذَا قلنَا عَن شخصٍ مَا: فلانٌ لَا يَظْلِمُ أحدًا، وأنتَ تُريدُ بذلكَ أَنَّه عَاجِزٌ عنِ الظُّلمِ، فَهذَا يُعْتَبَرُ صِفةَ ذمٍّ، معَ أنَّ مثلَ هذَا المفروضُ أنْ يكونَ صفةَ مدحٍ؛ لكنْ إذَا كانَ معَ العجزِ عنهُ فهوَ ذمٌّ، ومنهُ قولُ الشاعرِ:

قُبَيِّلَــــةٌ لَا يَغْــــدِرُونَ بِذِمَّـــةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَـرْدَلِ(١)

يَعْنِي أنَّهم إذَا عَاهَدوا وفُوا، فلَا يَغْدِرون، وأنَّهم لَا يَعْتدون عَلى أحدٍ، فلَا يَظْلِمُون الناسَ حَبَّةَ خَرْدلٍ، فَهَل هُو يَمْدَحُ هَؤلاءِ القومَ؟ الجوابُ: لَا، بَلْ يَذُمُّهم فِي الواقعِ؛ لأنَّه نَفَى عَنْهم الغَدْرَ والظُّلمَ لِعَجْزِهم عَن ذلكَ.

ومِنْ ذلكَ أيضًا قولُ الحماسِيِّ يَهْجُو قَومَهُ يقولُ:

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَـمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِي ... بَنُو اللَّقِيطَةِ مِـنْ ذُهْـلِ بْـنِ شَـيْبَانَا
لَكِنَّ قَـوْمِي وَإِنْ كَـانُوا ذَوِي عَـدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّـرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَـا
يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْـمِ مَغْفِـرَةً ... وَمِنْ إِسَـاءَةِ أَهْـلِ السُّـوءِ إِحْسَـانَا
فَلَيْـتَ لِي بِهِـمُ قَوْمًـا إِذَا رَكِبُـوا ... شَنُّوا الإِغَـارَةَ فُرْسَـانًا وَرُكْبَانَـا(٢)

يقولُ فِي قومِهِ: لَيسوا منَ الشرِّ فِي شيءٍ، وهذَا لا يُظَنُّ فِيه أنَّه مدحٌ؛ لأنَّه يُريدُ القَدْحَ؛ لأنَّ إِبِلَهُ استبَاحها -كَما يقولُ- بنُو اللَّقيطةِ، يَعْني أَنَّهُم قومٌ لَا أصلَ لهمْ،

---

(١) البيان والتبيين (٤/ ٣٧).

(٢) انظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (ص:٢٠-٢١).

أمُّهُم لَقيطةٌ مِن ذُهْلِ بنِ شَيبان، استباحُوا الإبلَ وَأَخذوها، وَيقول: لَو كُنتُ مِن مَازنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبلِي بَنُو اللَّقيطةِ، ثمَّ يستطرد فيقولُ -وكأنَّ هذَا القولَ جوابٌ لِقائلٍ: أليسَ لكَ قبيلةٌ؟!-:

لَكِنَّ قَـوْمِي وَإِنْ كَـانُوا ذَوِي عَـدَدٍ

يَعني كَثِيرينَ.

لَيْسُوا مِنَ الشَّـرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَـا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْـمِ مَغْفِـرَةً وَمِنْ إِسَـاءَةِ أَهْـلِ السُّـوءِ إِحْسَـانَا

يَعني إِذَا غَلَبهم أَحدٌ غَفروا لهُ، وإِنْ أساءَ إِلَيهم أَحسنوا إليهِ؛ خَوفًا مِن أَن يُكَرِّرَ الإساءةَ مَرَّةً ثانيةً، يُحسنونَ إليهِ حتَّى لَا يَظْلِمُوهُ ظُلْمًا أكبرَ، ويَدُلُّ لهذَا قولُهُ:

فَلَيْـتَ لِي بِهِـمُ قَوْمًـا إِذَا رَكِبُـوا شَـنُّوا الإِغَـارَةَ فُرْسَـانًا وَرُكْبَانَـا

فَلَيْتَ لَهُ بِهِمْ أَيْ: بَدَلهم.

الخُلاصةُ: أنَّ نَفْيَ الصفةِ عـنِ الموصوفِ قَد تكونُ لَغوًا لَا فائـدةَ مِنْهَا، لَا مَدْحًا ولَا ذَمًّا، وقَد تَكونُ ذمًّا، وقَد تَكونُ مَدْحًا، فَتكونُ مَدْحًا إِذَا تَضَمَّنت كمالًا، وتَكونُ ذَمًّا إِذَا تَضَمَّنَتْ نَقصًا كَالعَجْزِ مَثلًا، وتكونُ لَغوًا إِذَا لَم يَكُنْ فِيها مَدْحٌ ولا ذَمٌّ، بأنْ أُرِيدَتْ إِلَى مَا لَا يَقْبَلُ هَذهِ الصفةَ، فإنَّ ذلكَ ليسَ فيهِ مدحٌ ولا ذمٌّ، ومَا يُنْفَى عنِ اللهِ فهوَ منَ القِسْمِ الأَوَّلِ الَّذي يَتضَمَّنُ كَمالَه، فإِذَا نَفَى اللهُ الظلمَ عَن نفسهِ فَقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، فالمرادُ: كَمالُ العدلِ، وإِذَا قالَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤]،

فَالمرادُ كمالُ القدرةِ؛ لأنَّ ضدَّ العجزِ القدرةُ، وضدَّ الضعفِ القوةُ، فَيَجِبُ أنْ نَنْتبِهَ لهذَا، والفرقُ بينَ القُدرةِ وَالقُوةِ معروفٌ.

إذن إذَا قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، المقصودُ بِهِ كمالُ قُدرتهِ، ودَليلُ قُدرتِهِ قَولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٤]، والآيةُ الَّتي مَعنا وهيَ قَولهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]، مِنْ كِمالِ الحِكْمَةِ، لَا يُمْكِنُ أنْ يَخْلُقَ شَيْئًا لَعِبًا؛ لكمالِ حِكْمَتِهِ.

ثمَّ أَكَّدَ هذَا بِقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٩]، أَي: مَا خَلَقْنا السماواتِ والأرضَ إلَّا بالحقِّ، فَخَلَقَهُنَّ بالحقِّ، والحقُّ فِي الأصلِ هو الشَّيْءُ الثابتُ، وخَلقَهما أَيضًا للحقِّ، فَإنهما -أَي: السماواتِ والأرضَ- مَخلوقتانِ بالحقِّ، ومَخْلُوقتانِ للحقِّ، والَّذي يُهِمُّ مِن هذهِ الآيةِ هوَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أنَّ مَا يَنْفِي اللهُ تَعالى عنْ نَفسهِ مِنَ الصفاتِ فَالمرادُ بِهِ كمالُ ضِدِّهِ، ولَيس نَفيًا مُجَرَّدًا؛ لأنَّ النفيَ المُجَرَّدَ ليسَ مَدْحًا؛ بَل هُو إمَّا لَغْوٌ، وإمَّا نقصٌ، حسبَ مَا تَقْتَضيهِ الحالُ.





سورة الأحقاف

الدَّرسُ الأوَّل:

إن الحمدَ للهِ نَحْمَدُه ونَستعِينُه ونَستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أنفسِنا ومِنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهدِهِ اللهُ فـلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فـلا هاديَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، إله الأَوَّلينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وخليلُه، وأمينُه على وحيِه، بَلَّغَ الرسالةَ، وأَدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأُمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، وتَرَكَ أُمَّتَه على مَحَجَّةٍ بيضاءَ، ليلِها كنهارِها، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

والمرادُ بالوَالدَيْنِ هنا الأمُّ والأَبُ، والأبُ هوَ الذي خَرَجَ مِن صُلْبِه الإنسانُ، والأمُّ هيَ التي عاشَ في بَطْنِها الإنسانُ مُدَّةَ الحملِ.

قولُه تعالى: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾، أي أن يُحْسِنَ إليهما بالقولِ والفعلِ والخِدْمةِ، وكلِّ شيءٍ، فكلُّ إحسانٍ فإنَّ اللهَ أمرَكَ بل وصَّاكَ بِهِ بالنسبةِ للوالدينِ.

قولُه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، يعني أنها حَمَلَتْهُ كُرْهًا لمَشَقَّةِ الحَمْلِ وابتداءِ الحملِ، ووَضَعَتْه كُرْهًا لشِدَّةِ الوَضْعِ ومَشَقَّتِه، فهي في كُرهٍ حينَ وضعِه، وحينَ حَمْلِه، ولهذا كانتِ الأُمُّ أحقَّ بحُسْنِ الصُّحبةِ منَ الأبِ؛ لأنها تَتَكَلَّفُ مِنَ

المَشاقِّ ما لا يَتكَلَّفُه الأبُ، فالولدُ مِن حينِ أن يَكُونَ في بَطْنِها تَجِدُ الآلامَ وضِيقَ الصَّدْرِ، حتى إنَّها تَعزُفُ عَن زَوْجِها أحيانًا وتكْرَهُه ولا تُرِيدُهُ، وكذلكَ رُبَّما تَعزُفُ حتى عنِ الجُلوسِ بينَ النساءِ، وهذا يُوجَدُ كثيرًا في بعضِ النساءِ.

ومنَ العَجَبِ أن بعضَ الأزواجِ إذا رَأَى منَ الزوجةِ ذلكَ يَرَى أن هذا سُوءُ عِشْرةٍ منها، فيَلُومُها ويُوَبِّخُها ويَكْرَهُها، وهذا مِن جَهْلِه بالواقعِ؛ لأن المرأةَ حينَ الحملِ قد يَعْترِيها ما يُسَمُّونَه بالوحَمِ، بواوٍ وحاءٍ وميمٍ، وهيَ صِفةٌ نَفْسِيةٌ تَكْرَهُ فيها المَرْأةُ أشياءَ كثيرةً، حتى الزوجَ، فلا تُحِبُّ أن تَنامَ مَعَهُ على فراشٍ.

والواجبُ على الرجلِ الزوجِ العاقلِ المُؤمنِ أن يَقْدُرَ المرأةَ حقَّ قدرِها، وأن يَعرِفَ أحوالَها ونَفسِيَّتَها حتى يُعامِلَها بما تقتضِيه هذهِ الحالُ، وما تقتضِيه هذهِ النَّفْسيةُ، وانْظُرْ إلى حَكِيمِ الخلقِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ حيثُ قالَ: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»[١].

لا يَفْرَكْ -يعني لا يَكْرَه ولا يُبْغِض- مُؤْمِنٌ مُؤْمِنةً إذا رأَى منها ما يَكْرَهُه، بل يُوازِنُ بينَ الحَسَناتِ والسيئاتِ، فإن كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها خُلُقًا آخرَ، ولْيَصْبِرْ ولْيَحْتَسِبْ، ولْيُنْزِلِ المرأةَ مَنزِلَتَها في أحوالٍ تُوجِبُ أن تُقصِّرَ في حقِّ زوجِها، أو تُسِيءَ عِشْرتَهُ.

قولُه تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، واعْلَمْ أنَّ الأَشْهُرَ إذا جاءتْ في القرآنِ أو في السنةِ فالمرادُ بها الأشهرُ الهِلاليةُ، وليستِ الأَشْهُرَ الإفرنجيةَ، إنما هيَ الأشهرُ الهلاليةُ، فهذهِ الأشهرُ الهلاليةُ هيَ التي جعلَها اللهُ مَواقيتَ للناسِ

(١) أخرَجَه مُسْلم: كتاب الرَّضاع، باب الوَصِيَّة بالنساء، رقم (١٤٦٩).

كلِّهم، فالأصلُ أن مِيقاتَ بني آدمَ مبنيٌّ على الأهِلَّةِ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩]، لكنْ معَ تطورِ الأحوالِ وتَغيرِ الأجيالِ صارَ الأمرُ إلى ما تَرَوْنَ، وأصبحَ كثيرٌ منَ الخلقِ لا يَعْرِفُ إلا التوقيتَ بالأشهرِ الإفرنجيةِ التي ليسَ لها أصلٌ يُبْنَى عليهِ، فلا تُوجَدُ علاماتٌ حِسِّيةٌ يُعْرَفُ بها دُخولُ الشهرِ وخُروجُ الشهرِ، وإنما هيَ اصطلاحاتٌ اصطلحُوا عليهَا، ولهذا تَجِدُ بعضَ الشهورِ واحدًا وثلاثينَ يومًا، وبعضَ الشهورِ ثمانيةً وعِشْرينَ يومًا، فما الذي أدَّى إلى هذا الفرقِ! وأينَ العلامةُ الحِسِّيةُ التي تُوجِبُ الفرقَ بينَ هذا وهذَا!

لكنْ على كلِّ حالٍ ليسَ هذا مَقامَ تفنيدِ هذا التوقيتِ الإفرنجيِّ أو عدمِ تفنيدِه، لكني أقولُ: حَمْلُه وفِصالُه ثلاثونَ شهرًا بالأشهرِ الهلاليةِ.

وثلاثونَ شَهْرًا بالسنواتِ: سَنَتانِ وسِتَّةُ أشهرٍ؛ لأن السنةَ اثنا عَشَرَ شهرًا، وأربعةٌ وعِشْرونَ شَهْرًا سَنَتانِ، وتَكْمِيلُ الثلاثينَ سِتَّةُ أشهرٍ.

مِن هنا أخذَ العُلماءُ الذين فَقُهوا في دينِ اللهِ وفي معاني الكتابِ والسُّنةِ، قالُوا: هذهِ الآيةُ تَدُلُّ على أن أقلَّ مُدَّةِ حملٍ يُمكنُ أن يَعِيشَ ستةُ أشهرٍ، والدليلُ قولُه تَعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤]، فإذا كانَ فِصالُه في عامينِ، وحملُه وفصالُه ثلاثونَ شهرًا، فتكونُ مُدَّةُ الحملِ سِتَّةَ شهورٍ، فأقلُّ مُدَّةِ حملٍ يَعِيشُ بها الجنينُ ستةُ شُهورٍ. ولهذا لو خَرَجَ قبلَ سِتَّةِ أشهرٍ لا يعيشُ، فلا يُمْكِنُ أن يَعِيشَ لأَقَلَّ مِن ستةِ أشهرٍ.

والحملُ يَترتَّبُ عليهِ أحكامٌ كثيرةٌ:

الأولُ: منها ما يَترتَّبُ على مُجرَّدِ وُجودِ الحملِ، وإن كانَ الجنينُ في طَوْرِ النُّطفةِ،

فتترتبُ عليهِ أحكامٌ، نَذْكُرُ منها أنهُ بمُجرَّدِ وُجودِ الحملِ تكونُ عِدَّةُ المُفارَقةِ بوَضعِ الحَمْلِ؛ طالَ أو قَصُرَ، فإذا ماتَ الإنسانُ عنِ امرأةٍ حَمَلَتْ قبلَ أربعةِ أيامٍ مثلًا وتَيقَّنَّا حملَها فعِدَّتُها إلى وضعِ الحملِ.

كذلكَ أيضًا بمُجَرَّدِ نُشوءِ الحملِ يَجوزُ للإنسانِ أن يُطَلِّقَ الزوجَةَ، يعني أنَّ الحملَ زمنُ تَطليقٍ للزوجةِ حتى وإن كانَ لم يَبِنْ إلا قليلًا، حتى لو كانَ جامَعَها فإنهُ يجوزُ أن يُطَلِّقَها بمُجرَّدِ وجودِ الحملِ.

وبهِ نَعرِفُ خطأَ العوامِّ الذينَ يقولونَ: إن طلاقَ الحاملِ لا يَقَعُ، وهذا نُسْأَلُ عنهُ كثيرًا، فيأتي إنسانٌ ويقولُ: إنه طَلَّقَ زوجتَهُ وهيَ حاملٌ، يعني هلْ يَقَعُ الطلاقُ أو لا يَقَعُ، والجوابُ: يَقَعُ بإجماعِ المُسلِمينَ، وهوَ ما ذَكَرَهُ اللهُ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١]، إلى قولِه: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

فهذانِ الحُكْمانِ يَتعلَّقانِ بالجنينِ مِن حينِ أن يُوجدَ الحملُ، حتى ولو كانَ في الأربعينَ الأُولى. والحملُ يكونُ أربعينَ يومًا نُطْفةً، وأربعينَ يومًا عَلَقةً وأربعينَ يَوْمًا مُضْغةً، ثم بعدَ مئةٍ وعِشْرينَ يومًا تُنفخُ فيهِ الرُّوحُ.

الثاني: ومِنْ أَحْكامِ الحملِ ما يَتعلَّقُ بكونِهِ عَلَقةً، من ذلكَ أنَّ مِن الفُقهاءِ مَنْ قالَ: إذا كانَ الجَنينُ في طَوْرِ النُّطفةِ فإنهُ يَجوزُ إلقاؤُه، وإذا انتقلَ مِن طَوْرِ النُّطفةِ إلى طَوْرِ العَلَقةِ حَرُمَ إلقاؤُه، يعني أنهُ يَجوزُ للمرأةِ أن تَأْكُلَ حُبوبًا لِيَسْقُطَ الحملُ ما دامَ في طَوْرِ النُّطفةِ، أما إذا انتقلَ إلى طَوْرِ العَلَقةِ، أي بعدَ أربعينَ يومًا، فإنهُ لا يَجوزُ إلقاؤُه؛ وذلكَ لأن العَلَقةَ دُودةٌ مثلُ الدمِ، بل هِيَ دَمٌ، فقد تَبيَّنَ الآنَ أنهُ ابتداءُ خَلْقِ

الإنسانِ، فلا يَجوزُ إِلْقاؤُها، وسنتكَلَّمُ على جَوازِ الإلقاءِ فيما بعدُ.

الثالثُ: ما يَتعلَّقُ بتخليقِه، أي بِتبيُّنِ خلقِ الإنسانِ فيهِ.

فمِنْ ذلكَ -أي مِنَ الأحكامِ التي تَتعلَّقُ بالتخليقِ- العِدَّةُ، يعني تمامَ العِدَّةِ، فإذا وَضَعَتِ المُعْتدةُ جَنينًا قدْ تبيَّنَ فيهِ خلقُ الإنسانِ؛ بأن تَميَّزتْ يَداهُ ورِجلاهُ، فإنهُ تَنتهِي العِدَّةُ، وإن وضَعَتْ غيرَ مُخلَّقٍ فإنها لا تَنقضِي العِدَّةُ؛ لأنه يُشترَطُ لتمامِ العِدَّةِ أن يكونَ الحملُ الذي سَقَطَ قدْ تَخلَّقَ، أي قدْ تبيَّنَ فيهِ خلقُ الإنسانِ، وما قبلَ ذلكَ لا تنتهي بهِ العِدَّةُ.

ومنْ ذلكَ أيضًا -أي مما يَتعلَّقُ بكونِه مُخلَّقًا- النِّفاسُ، وهوَ الدمُ الذي يَخرُجُ معَ الولادةِ، أو قبلَها بيومينِ أو ثلاثةٍ معَ الطَّلْقِ، فهذا دمُ نفاسٍ، وهذا الدمُ لا يُعتبرُ نِفاسًا إلا إذا سَقَطَ الجنينُ وقد تَخلَّقَ، فإن أَسْقَطَتْ جَنِينًا لم يَتخَلَّقْ فإن الدمَ الذي يَخْرُجُ منهَا لا يكونُ دمَ نِفاسٍ، بل هوَ دمُ فَسادٍ، فتَصومُ وتُصَلِّي ويأتِيها زَوْجُها ولا حَرَجَ في ذلكَ؛ لأنهُ يُشترطُ لكونِ الدمِ دمَ نِفاسٍ أن يَتخلَّقَ الجنينُ.

فهذهِ ثَلاثَةُ أَحْوالٍ:

الحالُ الأولى: النُّطفةُ، والثانيةُ: العَلَقةُ، والثالثةُ: التخليقُ.

الرابعُ: إذا نُفِختْ فيهِ الرُّوحُ، وتُنْفَخُ فيهِ الرُّوحُ إذا تمَّ لهُ أربعةُ أَشْهرٍ، يعني مئةً وعشرينَ يومًا، فإذا تمَّ لهُ أربعةُ أشهرٍ -يعني مئةً وعشرينَ يومًا- نُفِختْ فيهِ الرُّوحُ، والدليلُ حديثُ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «حَدَّثَنَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ وهُوَ الصادقُ المصدوقُ...».

فائدةٌ: ما الفرقُ بينَ الصادقِ والمصدوقِ؟

نقولُ: الصادقُ الذي أَخْبَرَ بالصِّدْقِ؛ رجلٌ حَدَّثَكَ وقالَ: قَدِمَ فلانٌ اليومَ، وصارَ فُلانٌ قَادِمًا، فنقولُ: هذا صادقٌ؛ لأنهُ أَخْبَرَ بالصدقِ، والمصدوقُ رجلٌ حَدَّثَهُ إنسانٌ، وقالَ: إنَّ فُلانًا قَدِمَ اليومَ، فسألَ قالُوا: نَعَمْ صحيحٌ. فهذا الذي أَخْبَرَ نُسمِّيهِ مَصْدوقًا، فإن كانَ الذي أَخْبَرَهُ بقُدومِ زيدٍ كاذبًا فإنهُ ليسَ بمَصْدوقٍ؛ لأنهُ أَخْبَرَ بغيرِ الصِّدقِ.

وإنما قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هذهِ الجُمْلةَ لأنَّ الحالَ تَقْتضِي ذلكَ؛ لأنَّ الجنينَ في بَطنِ أمِّه أَمْرُه غَيْبيٌّ، فلهذَا قالَ: وَهُوَ الصادقُ فيما أَخبَرَ بهِ، المَصْدُوقُ فيما أُخْبِرَ بهِ؛ لأنَّ كونَ الرسولِ ﷺ يَعْلَمُ أطوارَ الحملِ فهو إنما عَلِمَ ذلكَ عنْ طَريقِ الوَحْيِ.

قالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ»(١).

المُهِمُّ بعدَ أربعةِ أشهرٍ يَتعلقُ بإسقاطِهِ:

أَوَّلًا: أنهُ آدمِيٌّ، فيُغَسَّلُ ويُكَفَّنُ ويُصَلَّى عليهِ، ويُدْفَنُ في المَقابرِ. وما قبلَ ذلكَ -يعني ما سَقَطَ منَ الأَجِنَّةِ قبلَ أن تُنْفَخَ فيهِ الرُّوحُ- فإنهُ لا يُغَسَّلُ، ولا يُكفَّنُ، ولا يُصَلَّى عليهِ، ولا يُدفنُ في المقابرِ، وإنما يُدْفَنُ في أيِّ مكانٍ، لكن إذا نُفِختْ فيهِ الرُّوحُ ثبتَ لهُ حُكْمُ الإنسانِ.

---

(١) أخرَجه البُخاريُّ: كتاب بَدْء الخَلْق، باب ذِكْر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، ومُسْلم: كتاب القَدَر، باب كَيْفية خَلْق الآدمي في بَطْن أُمّه وكتابة رِزْقه وأَجَله وعَمَله وشَقاوته وسَعادته، رقم (٢٦٤٣).

ثانيًا: مما يَترتَّبُ على ذلكَ أنه يُسمَّى، فنُسَمِّيه إن كانَ ذَكَرًا باسمِ الذَّكَرِ، وإن كانَ أُنْثَى باسمِ الأُنثَى، ونُسمِّيه لأن هذا الذِي سَقَطَ بعدَ أن نُفِختْ فيهِ الرُّوحُ سوفَ يُبْعثُ يومَ القيامةِ، وسوفَ يُنادَى يومَ القيامةِ، ولهذا جاءَ في الحديثِ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ»(١). فهوَ يُنادَى باسمِه يومَ القيامةِ.

ثالثًا: يُعَقُّ عنهُ، يعني يُذْبَحُ لهُ يومَ السابـعِ، لكن إذا كانَ سَقَطَ مَيِّتًا هلْ يُعَقُّ عنهُ؟

الجوابُ: مِنَ العُلماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ مَن قالَ: لا يُعَقُّ عنهُ؛ لأنَّ العَقيقةَ إنما تكونُ يومَ سابعِ المَوْلودِ، وهذا قدْ ماتَ قبلَ أن يَبْلُغَ السابعَ، ومِنهمْ مَن قالَ: يُعَقُّ لأن هذا المولودَ سوفَ يُبْعَثُ يومَ القيامةِ ويكونُ شَفِيعًا لوالدَيهِ.

الخامسُ: ما يَتعلَّقُ بكونِه حَيًّا، يعني أن يَخْرُجَ وهوَ حيٌّ، وذلكَ أحوالٌ، فمِن حيثُ الإرثُ مثلًا لو سقطَ الجنينُ مَيِّتًا بعدَ ثمانيةِ أشهرٍ أو تسعةِ أشهرٍ، سَقَطَ مَيِّتًا، فإنهُ لا يَرِثُ، فلا بدَّ أن يَستهِلَّ صارخًا.

إسقاطُ الجنينِ:

هذا يَتعلَّقُ بخُروجِه حيًّا، وذلكَ ما يَتعلَّقُ بالأموالِ كالوَصِيَّةِ لهُ، وكالإِرْثِ وما أشبَهَ ذلكَ، بَقِيَ أن يُقالَ: لو قَرَّرَ الأَطِبَّاءُ أن بقاءَ هذا الجنينِ حتى تَلِدَه أُمُّه ضررٌ على أُمِّه، هل يَجوزُ إسقاطُه؟

نقولُ: أما إذا نُفِخَتْ فيهِ الرُّوحُ فلا يَجوزُ إسقاطُه؛ لأنهُ آدَمِيٌّ حيٌّ، فلا يَجوزُ

(١) أخرجَه البُخاريُّ: كتاب الجِزْية، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم (٣١٨٦)، ومُسْلم: كتاب الجِهاد والسِّير، باب تحريم الغَدْر، رقم (١٧٣٦).

قتلُه، وأما قبلَ نَفْخِ الرُّوحِ فيهِ فإنهُ لا بأسَ مِن إسقاطِه إذا رَضِيَتِ الأمُّ والأبُ؛ لأنهُ قبلَ أن تُنْفخَ فيهِ الروحُ قطعةُ لحمٍ، لكنْ بعدَ أن تُنْفخَ فيهِ الروحُ لو قَرَّرَ الأَطِباءُ أن بقاءَهُ في بطنِ أمِّه ضررٌ عليهَا، قلنا: وَلْيَكُنْ، فمَنِ الذي أنْشَأَ الحملَ؟ ومَنِ الذِي قَدَّرَ أن يكونَ على أُمِّهِ ضَررٌ؟ نقولُ: اللهُ، إذن يَجِب علينَا أن نقولَ: سَمِعنَا وأطعنَا ولا نَقْتلَ نَفْسًا بغيرِ حقٍّ.

ولو قررَ الأطباءُ وقالُوا: لو بَقِيَ في بطنِ أمِّه لَماتتِ الأمُّ، لم يقولُوا: يَلْحَقُها ضررٌ فَقَطْ، بل: قالوا: لَماتَتْ، وهوَ قدْ نُفِختْ فيهِ الرُّوحُ، فهَلْ يَجوزُ إسقاطُه؟ فلو أَنَّهُ بَقِيَ في بطنِ أمِّه لَهَلَكتْ وهلكَ هوَ أيضًا فتَهلِكُ نفسانِ، لكنْ لو نزَّلناهُ لهلكَ، وأُمُّه قدْ تَهلِكُ وقدْ لا تَهلِكُ.

الجوابُ: العَقْلِيُّونَ السُّذَّجُ يقولونَ: يَسْقُطُ، وَلْيَهْلِكْ ولا تَهلِك الأمُّ، وأهلُ البَصيرةِ في دِينِ اللهِ الذينَ يقولونَ: إنَّ اللهَ حرَّمَ قتلَ النفسِ بغيرِ حقٍّ يقولونَ: لا نُسْقِطُه، ولا يَحِلُّ إسقاطُه، حتى لو مَاتَتْ أمُّه، فإنها إذا ماتتْ فهلْ ماتتْ بِفعلِنا أم بفعلِ اللهِ؟ نقولُ: بفعلِ اللهِ، فالذِي أنشأَ الحملَ في بطنِها هوَ اللهُ، والذي جَعَلَ الحملَ سببًا في هلاكِها هوَ اللهُ، لكنْ لو أنْزَلنَا الحملَ وماتَ فقدْ ماتَ بفعلِنا نحنُ، فنحنُ السببُ في موتِه، ولا يَجوزُ عقلًا أو شَرْعًا أن تَقْتُلَ نفسًا لحياةِ أُخرَى، ولذلكَ لو أنَّ رَجُلًا في فَلاةٍ منَ البَرِّ جاعَ جُوعًا شديدًا ومَعَهُ شابٌّ لهُ عَشرُ سَنواتٍ مُمْتلِئٌ لحمًا، والرجلُ الكبيرُ سيَهلِكُ، فقالَ: لَعَلِّي أذبحُ هذا الصبيَّ وآكلُ لَحْمَه، فإن هذا لا يَجوزُ أبدًا، ولا أَحَدَ يقولُ بجَوازِهِ.

وإنما اختلفَ العُلماءُ فيما لو اضْطَرَّ حَيٌّ لأَكْلِ مَيِّتٍ، فهل يَجوزُ أو لا، وفي هذا

قولانِ، والصحيحُ الجوازُ، لكنِ المسألةُ فيها خلافٌ، أما وهو حيٌّ يَقتُلُه لِيَحْيَا هو، فهذَا لم يَقُلْ بِهِ أحدٌ.

ثم إننا نقولُ: سُقوطُ هذا الحَمْلِ قَتْلٌ لهُ مُتيَقَّنٌ وليسَ غيرَ مُتيَقَّنٍ، وموتُ أُمِّهِ إذا بَقِيَ فمُحْتَمَلٌ، فقد يَرْفَعُ اللهُ هذا الضَّرَرَ ويَبْقَى في بَطنِها ولا تموتُ.

ثم إننا نقولُ: إذا قَدَّرنَا أنها ستموتُ مئةً بالمئةِ ، فكما ذَكَرْتُ لكمْ أولًا: إن مَوْتَها ليسَ بسببٍ منَّا، ولكنهُ بفعلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، على أنهُ لا يُمْكِنُ بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ أن يُقْتَلَ إنسانٌ لِاسْتِحْياءِ إنسانٍ آخَرَ.

ولو أنَّ معَكَ كافـرًا حَرْبِيًّا ليسَ لهُ عَهْدٌ ولا أمـانٌ ولا ذِمةٌ، وأنتما في البَرِّ، واضطررتَ إلى قتلِه لأكلِه، فإنهُ يَجوزُ قتلُه، فالحربيُّ يجوزُ قتلُه، حتى لو كانَ بطنُكَ مُمْتلِئًا، فالحربيُّ مُباحُ الدمِ.

هذا ما يَتعلقُ بالحَملِ، وأرجُو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يَكونَ فيهِ منفعةٌ، وأهمُّ شيءٍ فيما أقولُ هوَ أن بعضَ العوامِّ يظنونَ أن مَن طَلَّقَ زوجتَه وهيَ حاملٌ فإن الطلاقَ لا يقعُ، وهذا وَهمٌ، ولم يَقُلْ بِهِ أحدٌ مِنْ أهلِ العلمِ، وطلاقُ الحاملِ أَوْسَعُ مِن طَلاقِ غيرِ الحاملِ؛ لأن طلاقَ الحاملِ يَجوزُ حتى لو أنَّ الإنسانَ لم يَغْتسِلْ من الجنابةِ منهَا، فإنهُ يَجوزُ أن يُطلِّقَها، بخلافِ غيرِ الحاملِ فإنهُ لا يَجوزُ أن يُطلِّقَها في طُهْرٍ جامعَها فيهِ حتى يَتبَيَّنَ حملُها.



الدَّرسُ الثَّاني:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩].

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، الخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَيْكَ﴾ يَعودُ إِلَى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ.

والصَّارِفُ لهؤُلاءِ الجِنَّ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالَى بِيَدِهِ مَلكوتُ السماوَاتِ وَالأرضِ، يُصَرِّفُ فِي مُلكهِ مَا يَشاءُ، فَصرَفَ اللهُ تَعَالَى إِلَى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، والنَّفَر: مَا بينَ الثلاثَةِ إِلَى التِّسعةِ، أَو إِلَى العَشَرَةِ، هَؤُلاءِ النَّفَرُ منَ الجِنِّ جَاؤُوا مِنْ بِلادٍ بَعيدةٍ؛ لِأَنَّهُمْ سَمِعوا بِالنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ وهُو رَسولٌ إِلَى الثَّقلينِ جميعًا الإنسِ والجنِّ، فَجاؤُوا إِلَى رَسولِ اللهِ ﷺ يَسْتَمِعونَ القُرْآنَ.

قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾، أَيْ: حَضَرُوا إلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

قَوْلُهُ: ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾، أَيِ: استمِعُوا إِلَى القُرْآنِ بِإِنصاتٍ وأَدبٍ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى حُسنِ أَدَبِ هَؤُلاءِ النَّفَرِ منَ الجنِّ.

قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أَيْ: أَنَّهُمْ بَادرُوا بالدَّعوةِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ منْ حِينِ أَنْ قُضِيَ القُرْآنُ الَّذِي سَمِعوهُ.

﴿وَلَّوْا﴾ أَيْ: انصَرَفُوا.

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ يُنْذِرُونَهُمْ وَيَدْعُونهمْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠].

قَوْلُهُ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ مِنَ الجنِّ، وَفِي قَوْلِهِمْ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ توَدُّدٌ وتَعْطِيفٌ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْبَلَ قَوْمُهم مَا جَاؤُوا بِهِ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، أَيْ: منْ بَعدِ الكتَابِ الَّذِي أُنزِلَ عَلَى مُوسَى، ومُوسَى هُوَ ابْنُ عِمْرانَ، وهوَ أَفْضَلُ أَنْبياءِ بَنِي إِسْرَائيلَ، وَيأْتي فِي المَرْتبَةِ الثَّالِثةِ فِي تَفْضيلِ الأنبياءِ -عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-؛ لِأَنَّ أفضلَ الأَنْبياءِ مُحَمَّدٌ ﷺ ثُمَّ إِبْراهيمُ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ نوحٌ، وعِيسَى، وَهؤُلَاءِ الخمسَةُ هُمْ أُولُو العَزْمِ منَ الرُّسلِ.

قَوْلُهُ: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿يَهْدِىٓ﴾ أَي: القُرْآنُ، كَما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وكلُّ مَا خَالفَ الحقَّ فَإِنَّهُ طَريقٌ مُعْوجٌّ، لَا يُؤَدِّي صَاحِبَهُ إِلَّا إِلَى الهَلاكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣١].

قَوْلُهُ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ كَرَّرَ الجنُّ النِّداءَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾؛ لِلتَّأْكيدِ.

قَوْلُهُ: ﴿أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ وهوَ النَّبِيُّ ﷺ.

قَوْلُهُ: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ أَي: أَقِرُّوا بِرِسالتِهِ، وَبأَنَّه رَسولُ اللهِ حَقًّا.

قَوْلُهُ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قَالَ الجنُّ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ فَأَتَوْا بـ(مِن) الدَّالةِ عَلَى التَّبعيضِ؛ لِأَنَّهم لَا يَسْتطيعونَ الجزمَ بأَنَّ اللهَ يَغْفِرُ ذُنُوبَهمْ، لَكِن دَلَّت الآياتُ الكَرِيماتُ عَلَى أَنَّ الكافِرَ إِذَا آمَنَ، غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقدَّمَ منْ ذَنبِهِ، كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، وَقَالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف:١٠-١٢]، وهَذَا منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، لكنَّ الجنَّ لَمْ يَسْتَطيعوا أَنْ يَجْزِموا بأَنَّ جَميعَ الذُّنوبِ تُغْفَرُ، فَقَالوا: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَيْ: يَمْنَعْكُمْ مِنْهُ.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٣٢].

قَوْلُهُ: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾، أَيْ: مَنْ لَا يُجِبْ دَاعيَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعالَى يُهلِكُهُ، وَلَنْ يَسْتطِيعَ أَنْ يَفِرَّ منْ عُقُوبةِ اللهِ.

فِي هَذِهِ الآياتِ الكريماتِ مَسائلُ:

المَسْأَلَةُ الأُولَى: إثباتُ وُجودِ الجنِّ، وَالجنُّ عالَمٌ غَيبيٌّ، خَلَقَهمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ نَارٍ؛ لِأَنَّ أَبَاهم إِبْليسُ، وَإِبْليسُ مَخْلُوقٌ مِنَ النَّارِ، كَمَا قَالَ إِبْليسُ عَن نَفْسِه مُقِرًّا بِذَلِكَ: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦]، يَعْني: آدمَ ﴿مِن طِينٍ﴾، فَأَصْلُهُمُ

النَّارُ، ومَآلُ الكَافرِ مِنْهم إِلى النَّارِ؛ وَلِذَلك كَانَ الفسقُ والكفرُ فِي الجِنِّ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الإنسِ؛ لِأَنَّهم يَرْجِعون إِلَى طَبِيعَتِهم، وَطَبِيعتُهم نَارِيَّةٌ، وَمَآلُ الكافرِ مِنْهمُ النارُ، فَهم عَالَمٌ غَيْبِيٌّ.

والأصلُ أَنَّهم لَا يُـرَوْنَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]، لكنْ قَد يُظْهِرُهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَيَرَاهمُ الإنسُ، وقَدْ يَتَشَكلونَ بِأَشْكالٍ يُشاهَدونَ فِيهَا، فَقَدْ يَتَشَكَلُ الجِنِّيُّ بِصُورةِ ثُعبانٍ، كَمَا جَاءَ ذَلِك فِي الحديثِ الصَّحِيحِ، عَنْ أَبِي سَعيدٍ الخُدْريِّ، وكَان لَهُ ابنُ عَمٍّ حَديثُ عَهْدٍ بِعُرسٍ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ اسْتَأْذَنَ إِلَى أَهْلِهِ، وَكَانَ حَدِيثَ عَهْدٍ بعُرْسٍ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَذْهَبَ بِسِلَاحِهِ، فَأَتَى دَارَهُ فَوَجَدَ امْرَأَتَهُ قَائِمَةً عَلَى بَابِ البَيْتِ، فَأَشَارَ إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ، فَقَالَتْ: لَا تَعْجَلْ حَتَّى تَنْظُرَ مَا أَخرجَنِي، فَدَخَلَ البَيْتَ فَإِذَا حَيَّةٌ مُنْكَرَةٌ، فَطَعَنَهَا بِالرُّمْحِ، ثُمَّ خَرَجَ بِهَا فِي الرُّمْحِ تَرْتَكِضُ، قَالَ: فَلَا أَدْرِي أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا الرَّجُلُ أَوِ الحَيَّةُ(١).

وكَان ذَلِك سَبَبُهُ أَنَّ الحَيَّةَ جِنِّيَّةٌ، وأَنَّ الشابَّ أَقدمَ عَلَى قَتْلِها دُونَ أَنْ يُنْذِرَهَا أَوَّلًا، فَلَما قَتَلَها قتَلَهُ أَهلُهَا.

إِذَنِ الجنُّ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، لَا يُرَى، هَذَا هُوَ الأَصلُ، ورُبَّما يُرَى إِمَّا عَلَى صُورَتِهِ، وإِمَّا عَلَى صُورةِ حَيَوانٍ آخرَ.

مَسْأَلَةٌ: هَلِ الجنُّ مُسْلِمُونَ أَمْ كُفَّارٌ؟

الجَوَابُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَيَّنَ فِي سُورةِ الجِـنِّ أَنَّ مِنهم مُؤْمِنًـا وَمِنْهم كَافِرًا،

---

(١) أخْرَجه مُسلِمٌ: كتاب السَّلامِ، باب قَتْل الحيَّات وغيرها، رقم (٢٢٣٦).

كَالإِنْسِ تَمامًا، فَالمُؤمِنُ مِنْهم صَالِحٌ وَمِنْهم دُونَ ذَلكَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن:١٤]، وَقَالَ عَنْهُمْ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن:١١]، إِذَنْ فَفِي الجنِّ رِجالٌ صَالحونَ.

مَسْأَلَةٌ: هَل فِي الجنِّ رِجالٌ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:٦]، فَمِنْهم رِجالٌ صَالحونَ، وَمِنْهم رِجَالٌ دُونَ ذَلكِ، وَالصَّالحونَ مِنْهم قَد يَنْفعون بَنِي آدمَ، وقَدْ يُسَاعدُونه فِي أُمُورِه، وَيُهَيِّئُونَ لَهُ الأمرَ، وَيُسَاعدُونه عَلَى كُلِّ مَا فِيهِ مَصْلَحتُه؛ لِأَنَّهمْ مُؤمنونَ، «وَالمُؤْمِنُ أَخُو المُؤْمِنِ»(١)؛ وَلذَلك كَانوا يُسَاعِدونَ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَما قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص:٣٧-٣٨].

فَقَسَّمَ اللهُ هَؤُلَاءِ الجنَّ إِلى ثَلَاثةِ أَقْسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: بَنَّاءٌ.

القِسْمُ الثَّانِي: غَوَّاصٌ فِي البِحَارِ، يُخْرِجُونَ الدُّرَّ والياقُوتَ، وغَيرَ ذَلِك.

الثَّالِثُ: قَومٌ مُقَرَّنونَ فِي الأَصْفادِ؛ لمَعْصِيتِهم.

وَرُبَّما يُسَاعِدونَ الإنسَ فِي أشياءَ لَا يَستَطِيعُ الإنسُ أَنْ يَقُوموا بِهَا، كَما فِي قِصَّةِ مَلِكةِ سَبأ، لـمَّا قَالَ سليمانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨]، مَاذَا قَالَ الجنُّ؟ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ

(١) أخرجه مُسْلم: كتاب النِّكاح، باب تَحريم الخِطْبة على خِطْبة أخيه، حتى يَأذَنَ أو يَتْرُكَ، رقم (١٤١٤).

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩]، وكَانَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَد وَقَّتَ وَقْتَه ودَبَّرَهُ تمامًا، وكَانَت لَه سَاعةٌ مُعَيَّنةٌ يَقُومُ فِيهَا، فقالَ الجِنِّيُّ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ قَوِيٌّ: لَا يُعْجِزُنِي، آتِي بِه منَ اليمنِ إِلَى الشامِ، ﴿أَمِينٌ﴾ لَنْ أَتعَدَّى عَلَيْهِ بأيِّ شيءٍ.

ولكنَّ هُنَاكَ قوةً أَقْوَى منَ الجِنِّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠]، فَلَا شَكَّ أَنَّ الأسرعَ مِنْهما مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ منَ الكتابِ، فَقَالَ: أَنَا آتيكَ بِالعرشِ قَبْلَ أَنْ يَمُدَّ الإِنْسَانُ طَرْفهُ، ثُمَّ يَرُدَّهُ إِلى نَفسِهِ.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النمل:٤٠]، ﴿رَءَاهُ﴾: أَيْ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والضَّمِيرُ (الهاءُ) يَعودُ عَلَى العرشِ، فَلَمَّا رأَى سُلَيْمَانُ العرشَ ثَابتًا كأَنَّ له أياما وهو فِي هَذَا المكانِ قَالَ، ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النمل:٤٠].

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ أَتَى الَّذِي عِنْدَه عِلْمٌ منَ الكتابِ بِالعرشِ؟

الجَوَابُ: قَالَ العُلَمَاءُ: إِنَّه يَعْرِفُ اسمَ اللهِ الأعظَمَ، وأَنَّه دعَا اللهَ بِهِ، فَحَمَلَتْهُ المَلائكَةُ، والملائكَةُ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أَقْوى مِنَ الجنِّ، وأطهرُ من الجنِّ، ولَيْسَ فيهم عَاصٍ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّهم خُلِقوا منْ نُورٍ، وفَرْقٌ بينَ المَخْلوقِ منْ نَارٍ وَالمخلوقِ مِنْ نُورٍ؛ وَلِذَلكَ نَقُولُ: الجنُّ خُلِقوا منْ نَارٍ، وَالملائكَةُ مِن نُورٍ، وَالبَشَرُ مِن طِينٍ.

بِهَذَا عَرَفنا أَنَّ الجِنَّ عندَهُمْ قُوَّةٌ، وعِنْدَهم أَمَانةٌ؛ لِأَنَّ هَذَا العِفريتَ قَال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩].

مَسْأَلَةٌ: هلِ الجنُّ يَأْكلون وَيَشْربونَ؟ ومَا طَعَامُهم؟

الجَوَابُ: نَعَمْ، الجنُّ يَأْكُلونَ ويَشْرَبـونَ، ودَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الوفـدَ الَّذِين جَاؤُوا

إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ منَ الجِنِّ أَعْطَاهمُ النَّبِيُّ ﷺ وِفادةً دائمةً ثابتةً، وعَادةً أَنَّك إِذَا أَكْرَمتَ الوفدَ الَّذِين يَأْتون إِلَيك، فالكَرامَةُ مُوَقَّتَةٌ فِي حِينِها ثُمَّ تَنْتَهِي، لَكنَّ هَؤُلاءِ الوفدَ صَارُوا بَركةً عَلَى أَنْفُسِهمْ، وعلَى قَوْمِهمْ.

أَعْطاهمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وِفادةً، وَقَالَ: «**كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَ عَلَيْهِ لَحْمًا**»[1]؛ وَلِذَلِكَ نُهِينَا عنِ الاسْتنجَاءِ بِالعظامِ، أَوِ البولِ عَلَيْها، أَوِ التَّغوُّطِ علَيْها؛ لِأَنَّنَا إِذَا فَعَلْنا ذَلِكَ، فَقَد لَوَّثنا عَلَى الجِنِّ طَعَامَهمْ، فهَذِهِ وِفَادةٌ للجِنِّ.

وَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَكُلُّ بَعْرَةٍ، أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُم**»[2]. البعرُ: رَوْثُ الإبلِ، يَجِدُهُ الجنُّ عَلَفًا لدَوَابِّهم؛ وَلِذَلك نُهِيَ عَنِ الاستجمَارِ بِالرَّوْثِ؛ لِأَنَّهُ طَعَامُ دَوَابِّ الجِنِّ، فَفِي هَذَا الحديثِ دَليلٌ عَلَى أَنَّ الجِنَّ يَأْكُلونَ، وَفِيهِ دَليلٌ عَلَى أَنَّهم يَرْكَبُونَ، وأنَّ لَهم رَكَائِبَ، وَهَذَا هُوَ الواقعُ.

والنَّبِيُّ ﷺ أَخبرَ أَنَّ مَنْ لم يُسمِّ عَلَى طَعَامِهِ وَشَرابِهِ، فإِنَّ الشَّيْطَانَ يُشَارِكُه فِي طَعَامِهِ وَشَرابِهِ.

وَلِذَلك يَجِبُ التَّسميةُ عَلَى الأكلِ والشُّربِ، وَيَأْثَمُ الإِنْسَانُ إِذَا لَم يُسمِّ اللهَ، ويَكُونُ عَاصِيًا لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيُشَارِكُهُ الشَّيْطَانُ فِي أَكْلِهِ وشُرْبِهِ، والطَّرِيقُ إِلَى الخَلاصِ مِنْه هِيَ التَّسميةُ، سَمِّ بِاللهِ يُبَارِكْ لَكَ فِي أَكْلِكَ وَشُرْبِكَ، وَتَحمي أَكْلَك وشُرْبَك مِنْ أَنْ يُشارِكَكَ عَدُوُّك.

---

(١) أخرَجه مُسْلم: كتاب الصلاة، باب الجَهْر بالقراءة في الصُّبح والقراءة على الجِنِّ، رقم (٤٥٠).
(٢) تتمة الحديث الذي تقدم تخريجه آنفًا.

كَثيرٌ منَ النَّاسِ اليَوْمَ لَا يُسَمُّونَ عَلَى الأكلِ وَالشُّربِ، إِمَّـا غَفْلَةً، وإِمَّا جَهْلًا، وإِمَّا نِسيانًا، لكنَّ الإِنْسَانَ إِذَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّه إِذَا لَم يُسَمِّ شَارَكَهُ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّهُ لنْ يَنسَى.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: أَنَا لَا أُشاهِدُ جِنًّا يَرْكَبُ، وَلَا أُشَاهِدُ دَوَابَّهم؟

قُلْنَا: سُبْحانَ اللهِ، هَـل لم يَفُتْكَ منَ العلمِ إِلَّا هَـذَا، مَا أكثرَ الَّذِي فَاتكَ مِنَ العلمِ، فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء:٨٥]، كُلُّنا يَعْلَم أَنَّ فِي جَسَدِه رُوحًا، ثُمَّ قَالَ عاتبًا عَلَيْهِم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾، فكَأَنَّه يَقُولُ: مَا فَاتَكمْ منَ العلمِ إِلَّا أَنْ تَعْرِفوا الرُّوحَ، فأَكْثَرُ العُلُومِ لَا تَعْرِفونها! فَلِذَلك نَقُولُ: إِنَّ الجنَّ يَأْكلونَ ويَرْكبونَ، ولَهُم دَوابُّ، ومعَ ذَلكَ لَا نُشَاهِدُهُمْ.

وهُنَا يَرِدُ سُؤَالٌ: هلْ هَؤُلاءِ الجِنُّ عَلَى ظَهرِ الأَرضِ أَم فِي بَاطنِ الأرضِ؟

الجَوَابُ: عَلَى ظَهرِ الأرضِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قالَ: «كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَ عَلَيْهِ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ، أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ»، إِذَنْ فَهُم عَلَى ظَهرِ الأَرضِ، ومَـا اشْتَهَرَ عِندَ العَامَّةِ أَنَّهُمْ فِي بَاطنِ الأَرضِ، فَلَيْسَ بِصَوابٍ، بَلِ الجنُّ عَلَى ظهرِ الأَرْضِ.

مَسْأَلَةٌ: هلِ الجنُّ مُكَلَّفونَ بِالشَّرائعِ، منْ صَلاةٍ، وزكاةٍ، وصيامٍ، وحَجٍّ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ، شَريعـةُ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي بُعِثَ إِلَيْهم بِها فِيها صـلاةٌ، وزكاةٌ، وصيامٌ، وحجٌّ.

وهلْ يَلْزَمُ أَنْ تكونَ صَلَاتُهمْ كَصلاتِنا؟

فِيهَا احْتِمالانِ:

الأَوَّلُ: يَحْتَمِلُ أَنَّهم مُكَلَّفُونَ بِصَلاةٍ كَصَلَاتِنا؛ لِأَنَّ الشَّريعةَ وَاحدةٌ، وَلَمْ يَأتِ عنِ النَّبيِّ ﷺ تَفريقٌ بَينَ الإنسِ والجنِّ، فَالأصلُ التَّساوِي، الأصلُ أَنَّ عَلَيْهم خَمْسَ صَلواتٍ: ظُهْرًا، وعَصْرًا، ومَغْرِبًا، وعِشاءً، وفَجْرًا، وعلَيْهِم زَكَواتٌ فِي أَمْوَالهم، وعلَيْهم صِيامٌ كَصِيَامِنا.

الثَّانِي: قَالَ بعضُ العُلَماءِ: إنَّ مُقْتَضَى حِكمةِ اللهِ أَنْ تَكُونَ شَرَائِعُهم تَلِيقُ بِحَالِهم، كَما أَنَّ شَرَائِعَ الإنسِ تَلِيقُ بِحَالهم، فَصَلاةُ المريضِ لَيْسَتْ كَصَلاةِ الصَّحِيحِ، إِذْ إِنَّ المريضَ يُصَلِّي قائمًا، فإنْ لَم يَسْتطِعْ فقاعدًا، فإنْ لَم يَسْتطِعْ فَعلَى جَنبٍ، ولَيْسَتْ زَكَاةُ الثِّمارِ كزكاةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، تَخْتلفُ، فَاللهُ تَعَالَى شَرَعَ لَهم ذَلِكَ فِي الأَصلِ، لَكِنَّ شَرائِعَهُمْ فِي كَيْفِيَّتِها مُناسبةٌ لِحَالِهم.

فَإِنْ قِيلَ: لَو أَنَّ الجِنَّ تَحاكموا إِلَيْنا، فهلْ نَحْكُم بِشَريعةِ الإنسِ أَمْ بشَرِيعةِ الجِنِّ؟

قُلْنَا: نَحْكُمُ بِشَرِيعةِ الإنسِ.

مَسْأَلَةٌ: هَلِ الجِنُّ يُسَلَّطون عَلَى بَنِي آدَمَ، وَيَدْخُلون فِيهِ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ، يُسَلَّطون عَلَى بَنِي آدمَ، وَيَدْخُلون فِيهِ، وَلَكِنَّ دُخُولَهم فِي بَنِي آدَمَ أَنْوَاعٌ:

الأَوَّلُ: يُفْسِدون علَيْه دِينَهُ، وَيُلْقون فِي قَلْبِهِ الوَسَاوسَ وَالشُّكُوكَ، وَيَتَدَرَّجون مَعَه، فيُشَكِّكونه أَوَّلًا فِي شَيْءٍ منَ العِبَاداتِ، ثُمَّ فِي أَشْياءَ منَ العباداتِ، ثُمَّ فِي العَقيدَةِ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ أَو فِي الدِّينِ، أَوْ فِي الرَّسُولِ ﷺ.

الثَّانِي: يَتَلَبَّسونَ فِيهِ فَيُؤْذُونه جِسْميًّا، وَيُفسدون عَلَيْهِ حَيَاتَه؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابنِ آدمَ مَجْرَى الدمِ.

الثَّالِثُ: يَصْرَعُونَه ويَسْقُطُ سَرِيعًا، ويُغْمَى علَيْه.

مَسْأَلَةٌ: هلْ لِلإنسِ مَخْرَجٌ منْ تَسلطِ الجنِّ علَيْه، ودُخُولهم فِيهِ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ لَه مَخْرَجٌ، وذَلِكَ بِالأَوْرادِ الشَّرْعِيَّةِ، الَّتِي غَفَلَ عَنْهَا كثيرٌ من النَّاسِ، وَهِي:

أَوَّلًا: آيَةُ الكُرسيِّ، قَالَ ﷺ: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنْ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ»(١)، وآيَةُ الكُرسيِّ، وَرَدت فِي سُورَةِ البقرةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسيِّ فِي كُلِّ لَيْلةٍ، فَلَا يَزَالُ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافظٌ، ولَا يَقْرَبُكَ شَيْطانٌ حَتَّى تُصبِحَ.

ثَانِيًا: قِرَاءةُ سُورةِ الإخلَاصِ، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١]، فإِنَّ ذلكَ يَحْمِيكَ منَ الشياطِينِ، ومَا تَعَوَّذَ مُتعوِّذٌ بِمِثْلِ المُعوِّذَتينِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

وأَنْكَرَ بعضُ النَّاسِ أَنْ يكونَ الجنُّ يَتَلَبَّسونَ بِالإِنْسَانِ، وَقَالَ: هَذِهِ أَوْهامٌ،

---

(١) أخرجه البُخاريُّ: كتاب الوَكالة، باب إذا وَكَّلَ رَجُلًا فتركَ الوَكِيلُ شيئًا فأجازه الموكل فهو جائزٌ، وإن أقرضه إلى أَجَلٍ مُسَمًّى جازَ، رقم (٢٣١١).

وهَذِهِ عَوَارِضُ عَصَبيَّةٌ، وَلَا يُمْكِنُ للجنِّ أن يَدْخُلَ فِي الإِنْسَانِ، وَمِمَّن ذَهَبَ إِلى هَذَا المُعْتَزِلَةُ، قَالوا: إِنَّ الجِنَّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَ فِي الإِنْسَانِ، وهَذَا تفريطٌ، وأَفْرَطَ قومٌ مِنَ الجَهلَةِ، حتى صَارَ كُلُّ شَيْءٍ يُصِيبُهمْ يقولون: هُو مِنَ الجنِّ، حَتَّى لَو أَصَابَ الإِنْسَانَ زُكامٌ، قَالُوا: هَذَا منَ الجِنِّ.

وَلِذَلِكَ كَثُرَتِ الأَوهامُ فِي عَصْرِنَا هَذَا، وصارَ النَّاسُ كلَّما أَصَابَتْهم مُصِيبةٌ منَ الأمرَاضِ، قَالُوا: هَذَا منَ الجنِّ، وكَثُرتِ الأَوهامُ، وكَثُرَ القُرَّاءُ الَّذِينَ يُدَجِّلُون عَلَى النَّاسِ، ويَبْتَزُّون أَمْوالَهم، وهُم كَذَبَةٌ، لكِن رَأَوا أُناسًا انْخَفَضت نُفُوسُهم وَلَمْ تَكُنْ عِنْدَهم عَزِيمةٌ، وصَارُوا يَخْضَعونَ لِكلِّ هَاجسٍ وكُلِّ وَسْواسٍ.

وغالِبًا يَكونُ الحقُّ بَيْنَ طَرَفَيْ نَقيضٍ، فَنَحن لَا نُنْكِرُ أَنْ يَتَلبسَ الجنُّ بِالإنسِ، لَكِنَّنا نُنْكرُ الأَوهامَ الَّتِي تُصيبُ كَثيرًا منَ النَّاسِ اليَوْمَ، وكُلَّما أَصابهُ شَيْءٌ قالَ: هَذَا جنٌّ! وهَذَا خطأٌ.

الإِنْسَانُ إِذا كَانَ عنْدهُ ضَعْفُ شَخْصيَّةٍ فكُلُّ إِنْسَانٍ يَغْلِبُه، وكُلُّ شَيْطانٍ يَسْتَحوذُ عليْه، لَكنْ إِذَا كَانتْ عِنْدَهُ قُوةُ عَزِيمةٍ، وتَوكُّلٌ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ واعتمادٌ عليْه، وإكثارٌ منَ الأَوْرَادِ الشَّرْعِيَّةِ، فإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَحْميه.

وَلِذَلك يَجِبُ عَلَيْنا أنْ نُعلِمَ الصِّبْيَةَ مِنَ الذُّكورِ والإناثِ الأَوْرادَ الشَّرْعِيَّةَ، ونَحُثَّهم عليْها؛ حَتَّى يَكونَ ذَلكَ حِصْنًا لَهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يُمْكنُ للجنِّ أَنْ يَسْرِقَ منَ المالِ، وَلَوْ كَانَ فِي الصُّنْدوقِ؟

قُلْنا: نَعمْ يُمْكِنُ، والدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ استَحْفَظَ أَبَا هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الصَّدَقةِ، وفِي لَيْلةٍ منَ اللَّيَالي رأَى شَيطانًا بِصُورةِ رَجُلٍ، يَأخذُ منَ التَّمرِ فَأَمْسَكَه،

وَقَالَ: «لَأَرْفعَنَّكَ إِلَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، ومَعْلومٌ أنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ من الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويَخَافُ مِنهُ، قَالَ لهُ: لَا. وادَّعَى هَذَا الشَّيْطَانُ أنَّه ذُو حَاجَةٍ وذُو عِيالٍ، مَا عِندَهُ شيءٌ، والعِيَالُ كَثِيرونَ، فَرَقَّ لَهُ أَبُو هُرَيْرةَ وأَطْلَقَهُ وتَرَكَهُ.

وَلَمَّا ذهَبَ أَبُو هُرَيرةَ فِي الصَّباحِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ قَالَ لهُ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟»؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتاهُ الوحيُ، قالَ: يَا رسولَ اللهِ، ادَّعَى أَنَّه ذُو حَاجَةٍ وذُو عِيالٍ، فَأَطْلَقْتُهُ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ**»، وَلَمْ يَقُلْ: إِذَا عَادَ فَلَا تُطْلِقْهُ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «فَعَلِمْتُ أَنَّه سَيَعودُ». عَلِمَ أَبُو هُرَيْرةَ أَنَّه سَيَعودُ، وَلَكِنَّه لَم يَعْلَمْ أنَّه شَيْطانٌ.

فعادَ فِي اللَّيْلةِ الثانِيَةِ، وأخذَ منَ التَّمرِ، فَأَمْسَكَهُ أَبُو هُرَيْرةَ، وَقَالَ: «لَأَرْفعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ». فَادَّعَى دَعْواهُ السَّابقةَ، أنَّه ذُو حَاجةٍ وعِيَالٍ، فَرَقَّ له، وأَطْلَقَهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ لَمْ يَقُلْ: إِذَا أَمْسَكْتَهُ فَلا تُطْلِقْهُ.

ثُمَّ غَدا إِلَيَّ رسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ».

وفِي اللَّيْلةِ الثَّالِثةِ أَمْسَكَهُ وادَّعى أَنَّه ذُو حاجةٍ وعِيَالٍ، فقالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «لَأَرْفعَنَّكَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ». فقالَ لَهُ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِآيةٍ مِنْ كتابِ اللهِ إِذَا قَرَأْتَها لَمْ يَزَلْ عليْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، ولَا يَقْرَبُكَ شَيْطانٌ حَتَّى تُصْبِحَ؟ قالَ: «بَلَى، مَا هِيَ؟». قالَ: آيةُ الكُرْسيِّ، فالشَّيْطَانُ يَدرِي أَنَّ آيةَ الكُرسيِّ تَمْنَعُ منَ الشَّياطِينِ.

فلَمَّا أَصبحَ أَبُو هُرَيْرةَ غدَا إِلَى رسولِ اللهِ ﷺ وأَخبرهُ بِما قَالَ الشَّيْطَانُ، فقالَ

النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[١]، فقَبِلَ الحقَّ وحَذَّرَ مِنَ الباطلِ، قالَ: «صَدَقَكَ»، ولكنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيَّنَ الوَصْفَ الحَقِيقيَّ للشَّيْطانِ، وهوَ الكَذِبُ.

ويَدُلُّكَ عَلَى كَذِبِهِ ومَكْرِهِ وخُبثِهِ، أَنَّهُ قَاسَم أبانَا آدمَ، فأَبُونا آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللهُ تعالى لَهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:٣٥] لِشَجَرةٍ فِي الجنَّةِ، فَالشَّيْطَانُ وَسْوَسَ لَهما، وَقَالَ: كُلَا مِنْ هَذِهِ الشَّجرةِ، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف:٢١]، حَلَفَ، ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١]، فَأَقَرَّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَولَهُ: لَمْ يَزَلْ عَلَيْكَ منَ اللهِ حَافظٌ، ولَا يَقْرَبُكَ شَيْطانٌ حَتَّى تُصبِحَ.

وفِي هَذَا الحَديثِ دَليلٌ عَلَى فَائدةٍ مُهِمَّةٍ، وهيَ قَبُولُ الحَقِّ ممَّن جاءَ بِهِ وَلَوْ كَانَ شَيْطانًا.

بعضُ النَّاسِ إذَا أَخْطأَ عَالِمٌ مِنَ العُلَماءِ فِي مَسألةٍ اجتِهاديَّةٍ، ردَّ جَميعَ مَا يَقُولُ مِنْ حقٍّ وبَاطلٍ، وهَذَا خطأٌ، الحقُّ يَجِبُ أَنْ يُقْبلَ مِمَّن جاءَ بِهِ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ منْ أَهلِ الحقِّ، فهَا هُوَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أقرَّ الحقَّ الَّذِي جاءَ بِهِ الشَّيْطَانُ.

وهَا هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ قَالَ فِي كِتَابِهِ عنِ المُشرِكِينَ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨] **فَادَّعَوا دَعْوَيَيْنِ:**

الأُولَى: أَنَّهمْ وَجَدوا علَيْها آباءَهم.

الثَّانية: أنَّ اللهَ أَمَرَهم بِهَا.

فَأَبْطَلَ اللهُ قَوْلَهُمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ

---

(١) تتمة حديث أبي هريرة الذي تقدم تخريجه آنفًا.

بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف:٢٨]، وَأقرَّ قولَهمْ: إنَّهم وَجَدوا آباءَهم عَلَيْها، فقُبِل قولُ المُشْرِكِ؛ لِأَنَّ قولَهُ فِي هَذَا حقٌّ، فَيَجِبُ قبولُهُ.

والنَّبِيُّ ﷺ أتَاهُ حَبْرٌ منْ أَحْبارِ اليَهُودِ، والحبرُ يَعْني العَالِمُ الواسعُ العلمِ، وَقَالَ: يا مُحَمَّدُ، إنَّا نَجِدُ أنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّماواتِ عَلَى إِصبَعٍ، والأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، والجبالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وذَكَرَ أَشياءَ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ تَصديقًا لِقولِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧][1]، فَالرَّسُولُ ﷺ صَدَّقَ عَالمًا منْ عُلَماءِ اليَهُودِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ حقًّا.

وإِذَا قَالَ المُؤْمنُ بَاطلًا لَا يُصَدَّقُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ باطلًا، وَالباطلُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَرْدودًا منْ أَيِّ شَخصٍ، وَالحقُّ يَجِبُ أَنْ يَكونَ مَقْبولًا مِنْ أَيِّ شَخصٍ.

وَفِي هَذِهِ الآياتِ دَليلٌ عَلَى حُسنِ أَدبِ الجنِّ، يُؤخَذُ مِنْ قَولِهم: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾، مَعَ أَنَّ بعضَ الإنسِ يَحْضُرُ مَجالسَ الذِّكْرِ، ولكنْ لَا يُنْصِتُ، إِنْ تَسَنَّى لَه أَنْ يُكَلِمَ صَاحِبَهُ كلَّمَهُ، وإنْ لَم يَتَسَنَّ لهُ ذَلِكَ صارَ يُحَدِّثُ نفسَهُ، فيَسْرَحُ ويُفَكِّرُ فِي أشياءَ كَثيرةٍ وهوَ في الدَّرسِ، وَهَذَا مِنْ سُوءِ الأَدَبِ، فَإِذَا كُنتَ جالِسًا فِي دَرسٍ، فإِنْ لَم تَحْضُرْ بقَلبِكَ ضَيَّعْتَ وَقْتَكَ، والوقتُ ثَمِينٌ، أَثْمَنُ مِنَ المالِ، وأَغْلَى مِنَ المالِ؛ لِأَنَّ الوقتَ إِذَا فاتَ لَمْ يَرْجِعْ، والمالُ إذَا فَاتَ فقدْ يَرْجِعُ، كَم مِنْ إِنْسَانٍ احترقَ مَالُهُ ثُمَّ عادَ، فأغناهُ اللهُ، لكنَّ الوقتَ لَا يُمْكِنُ أنْ يَرجِعَ، فأيُّ دَقيقةٍ تَزولُ فقدِ انتهتْ، ولَا يُمْكِنُ أَنْ ترجِعَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، رقم (٤٥٣٣)، ومُسْلم: كتاب صِفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

فإذَا حَضَرْتَ إلى الدرسِ وَقَلبُكَ فِي وَادٍ تُفكِّرُ، فأنتَ مَا حَضَرْتَ حقيقةً، بَل أَضَعْتَ الوقتَ عَلَى نَفْسِكَ، ولَو ذَهَبْتَ لِتَنامَ لَكانَ أَحسنَ لكَ منْ حُضُورِك بِلَا قلبٍ، وهَؤُلاءِ الجنُّ يَقُولونَ: ﴿أَنصِتُواْ﴾.

وَفِيهِ أَيْضًا منْ مَحاسنِ الجنِّ الَّذِينَ وَفَدوا إلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهم منْ حِين أنْ عَلِموا بالحقِّ ذَهَبوا يَدْعون إلَيْهِ؛ لِقَولِهِ تَعالَى: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

وفِيهِ أَيْضًا مِنْ آدَابِهِمْ أَنَّهم لَم يَقُوموا حِينَ استماعِ القُرْآنِ، بَلْ لَم يَقُوموا إِلَّا حِينَ قُضِيَ؛ وَلِذَلك يَنْبَغِي لِطَالبِ العلمِ إذَا حَضَرَ حَلْقَةَ علمٍ أَلَّا يَقومَ حَتَّى يَنْتَهِيَ الدرسُ إِلَّا لحاجةٍ، وإذَا كَانَ لِحَاجةٍ فهلْ يَنْبغي أَنْ يَستأذنَ لِيقومَ؟

الأمرُ فِيهِ تَفْصيلٌ: فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢]، فهلْ يَدْخُلُ فِي ذلكَ الحضورُ لِطَلَبِ العلمِ؟ يَحتمِلُ، لَكِنْ يُقالُ: إِذَا كَانَ الإِنْسَانُ يَخْشَى إِذَا قامَ لِيَستأذِنَ أَنْ يَشغَلَ الحاضِرينَ، فلَا يَفْعَل؛ لِأَنَّ بعضَ الحَاضِرينَ لِلدَّرْسِ إذَا تَحَرَّكَ أَدْنَى شَيْءٍ التَفَتوا إلَيْه، رُبَّمَا لو بَكَى صبيٌّ اشرأَبَّت رِقَابُهُم: مَا الَّذِي حَصَلَ؟ لِأَنَّهُمْ لَم يُرَكِّزُوا تركيزًا تامًّا.



الدَّرسُ الثَّالِث:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٠].

قولُه تَعالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾ قال المُعرِبون: (إذ) ظرفٌ عامِلُه محذوفٌ، والتقديرُ: اذْكُرْ إذ صَرَفْنا إليك؛ لأن الظرفَ والجارَّ والمجرورَ لا بُدَّ لهما من شيءٍ يَتعَلَّقانِ به؛ إما مَوجودًا وإما محذوفًا، وهذا يأتي في القُرآنِ كثيرًا، أي: تُصَدَّرُ الجملةُ بكلمةِ (إذ)، فإعرابها كما ذكرتُ؛ أن تكونَ (إذ) ظَرْفًا عاملُه محَذوفٌ، والتقديرُ: اذكُرْ.

قال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: واذْكُر إذ صَرَفْنا إليكَ ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، والنَّفَرُ هم الجَماعةُ من الثلاثةِ إلى التسعةِ أو إلى العشرةِ، ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: صَرَفَهُمُ اللهُ تَعالَى حتَّى يَسْتَمِعوا القُرآنَ من النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ، وهذا كقولِه تَعالَى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:١]، إلى آخِرِه.

قال: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾، أي حَضَروا قِراءةَ القُرآنِ ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ﴾، وهذا من أَدَبِهم حيثُ أمَرَ بعضُهم بعضًا أن يُنصِتَ، يعني لِما يَقْرؤُه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾، وهم على إنصاتِهم ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إلى قومِهم

من الجِنِّ مُنْذِرِينَ، أي مُنْذِرِينَ إِيَّاهم لِمَا سمِعوه من كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وهو القُرآنُ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف:٣٠]، أي أنَّه يُصَدِّقُ ما بينَ يَدَيهِ من الكتبِ، فإنَّ القُرآنَ قد شَهِدَ للتوراةِ والإنجيلِ بالصِّدقِ، ولغيرِهما من الكتبِ كصُحُفِ إبراهيمَ وموسى، وكالزَّبُور الَّذِي أُوتِيَه داودُ.

والتصديقُ لِمَا بينَ يديه له معنيانِ:

أحدهما: أنَّه يَشْهَدُ بصِدقِ ما جاءتْ به الكتبُ السابقةُ.

والثَّاني: أنَّه يُصدِّقُها، فإنَّ الكُتبَ السابقةَ قد أَعْلَمَتْ بالقُرآنِ، وأَخْبَرَتْ به، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، يعني النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ.

قولُه: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾، أي يَدُلُّ عليه، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى آخِرِه.

الجن:

الجنُّ عالَمٌ غَيْبِيٌّ، وهم ذُرِّيَّةُ إبليسَ، وخُلِقوا من نارٍ؛ فإنَّ إبليسَ خَلَقَه اللهُ تَعَالَى من النارِ، ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عنه أنَّه قال لَمَّا أُمِرَ بالسُّجُودِ لآدَمَ ولم يَفْعَلْ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

وقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٤-١٥].

وهم عَالَمُ الغَيْبِ، والأَصْلُ أنَّهم لا يُشاهَدونَ، ولكن قد تُسمَعُ أصواتُهم،

وقد يَتخيَّلونَ للإنسانِ بأنواعٍ من الحيوانِ، وهم مُكلَّفونَ؛ أي يُؤمَرون ويُنْهَون، كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧].

وهل منهم رسلٌ؟

نقول: لا، ليسَ منهم رُسُلٌ؛ لقولِ اللهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩]، وهذا الوصفُ لا يَنطبِقُ عليهم، لكنْ مِنهم نُذُرٌ، يعني يَسْتَمِعونَ إلى الرُّسلِ منَ البَشَرِ، ويُنذِرونَ قَومَهم؛ كما في هذهِ الآيةِ وغيرِها.

وهل تَكْلِيفُهم كتكليفِ الإنسِ، بمعنَى أَنَّهم يُؤمَرون بما يُؤْمَرُ به الإنسُ بدُونِ زِيادةٍ ولا نَقْصٍ، أو أَنَّهم مُكَلَّفونَ بالعباداتِ الَّتي تُناسِبُهم؟

في هذا قولانِ للعلماءِ:

أَحَدُهما: أَنَّهم مُكَلَّفون بما يُكلَّفُ به الإنسُ، فصَلاتُهم كصلاتِنا، وصيامُهم كصِيامِنا، وصَدَقاتُهم كصداقتِنا، وحَجُّهم كحَجِّنا، يعني أَنَّهم كالإنسِ سَواءٌ.

والقولُ الثَّاني: أَنَّهم مُكَلَّفون بعباداتٍ تُناسِبُ حَالَهم؛ لأنَّ حِكْمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تَقْتَضِي أن يُخاطِبَ كلَّ أحدٍ بما يُناسِبُ حالَه، ولهذا نَقولُ للمريضِ من الإنسِ: صَلِّ قائمًا، فإن لم تَستطِعْ فقاعدًا، فأنتَ تَرَى الآن الفَرْقَ بينَ إنسانٍ صحيحٍ فَرْضُه القيامُ في الصَّلاةِ، وإنسانٍ مَريضٍ فَرضُه القُعودُ في الصَّلاةِ، فاختلفتِ العِبادةُ بالنسبةِ للإنسِ باختلافِ أحوالِهم، فإذا كان كذلك فإنَّ مِن الحكمةِ أن تَختلِفَ العباداتُ بالنسبةِ للجنِّ؛ لأنهم من جِنسٍ آخرَ، فشَرَعَ اللهُ لهم من العِباداتِ ما يُناسِبُ حَالَهم.

والقولُ الأولُ أقربُ إلى ظاهرِ اللفظِ، فظاهرُ ألفاظِ النصوصِ أنَّهم هم والإنسُ سواءٌ، والثَّاني أَقْرَبُ إلى المَعْنَى والحِكْمةِ، وهو أنَّ اللهَ تَعَالَى قد كلَّفهم وألزَمَهم بعباداتٍ تُناسِبُ حالَهم.

هل الجنُّ يأكلون ويَشربون؟

الجواب: نعم، هم يَأْكُلون ويَشْرَبون، ودَلِيلُ ذلك أنَّ الوفدَ مِنَ الجنِّ الَّذِينَ وَفَدوا إلى الرَّسُولِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ أعطاهم ضِيافةً دائمةً، قال لهم: «**لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحمًا**»[1].

وهذه ضِيافةٌ تَبْقَى إلى الأبدِ، إلى أنْ يَشاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، يعني أنَّ الجِنَّ يأكلونَ ويجدونَ اللحمَ قد كُسِيَتْ به العظامُ الَّتي أكَلَ لَحْمَها الإنسُ، ولهذا لا يَحِلُّ لنا أن نَستنجِيَ بعظمٍ، يعني أن نَستجمِرَ بعظمٍ؛ لأنَّه إن كانَ نَجِسًا فإنه لا يَزِيدُ المَحَلَّ إلَّا نجاسةً، وإن كانَ طاهرًا فإنَّنا نُلَوِّثُه ونُفسِدُه على إخوانِنا من الجنِّ.

ولهذا رُبما يُصابُ الإنسانُ بأذًى من الجنِّ إذا بالَ على عظمٍ، أوِ اسْتَنْجَى بعظمٍ، أو ما أشبهَ ذلك؛ لأن هذا عُدوانٌ عليهم. كذلك البَعرةُ والرَّوْثَةُ لا يَجوزُ لنا أن نَبُولَ عليها، ولا أن نَستجمِرَ بها؛ لأنَّها عَلَفٌ لبهائِمِ الجنِّ.

وفي هذا الحديثِ دليلٌ على أنَّ مَرْتبةَ الإنسِ فوقَ مَرْتبةِ الجنِّ؛ لأنَّ الجنَّ لا يَطعَمُون إلَّا ما كانَ فَضْلَةً منَ الإنسِ، ولأنَّ دوابَّهم لا تأكُلُ عَلَفَ دوابِّ الإنسِ، وإنما تَأْكُلُ البَعرةَ والرَّوْثةَ، وما أَشْبَهَ هذا.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: إننا نُشاهِدُ العِظامَ تَلُوحُ وليسَ عليها لحمٌ، والبَعْرةُ تَبقَى مُدَّةً

---

(١) أخرَجه مسلم: كِتاب الصلاة، باب الجَهْر بالقراءةِ في الصُّبح والقراءة على الجِنِّ، رقم (٤٥٠).

وهي تُشاهَدُ ولا تَتْلَفُ بأكلِ بَهائِمِ الجنِّ؟

فالجواب: علينا أن نُصَدِّقَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ ولا نَشُكَّ في خَبَرِه، ونَعْلَمَ أن ما قاله في هذا فهو حَقٌّ، ولكنَّه لَمَّا كانَ الجنُّ عالَمًا غَيْبِيًّا صارَ كلُّ ما يتعلَّقُ بهم من أُمورِ الغيبِ فهو غائبٌ عنَّا، ولا نَدْرِي كيف يَجِدُونَ هذا العظمَ، ولا نَدْرِي كيف تَجِدُ دَوابُّهم هذا الرَّوْثَ أوِ البَعْرَ. ألسنا نُؤْمِنُ بأنَّ كلَّ إنسانٍ عليه مَلَكانِ، أَحَدُهما عن اليمينِ، والثَّاني عن الشِّمالِ، ولا نَراهما؟ فهذا عالمٌ غيبيٌّ لا يُمْكِنُ أن نُحِسَّ به، اللَّهُمَّ إلَّا على وجهِ الكراماتِ، أو على وجهِ الآياتِ للرسلِ -عليهم الصَّلاةُ والسلامُ-.

فالجِنُّ أعطاهم اللهُ تَعالَى قُوَّةً وقُدرةً فوقَ ما للإنسِ، ولهذا لَمَّا قال سُليمانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للمَلأِ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ يعني بذلك مَلِكةَ سَبأ ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨]، وهو عَرْشٌ عظيمٌ تَجْلِسُ عليه؛ لأنها مَلِكةُ قَومِها، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:٣٩]، وكان سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد رَتَّبَ أوقاتَه، وجَعَلَ لجلوسِه وَقْتًا، ولقيامِه مِن مجلسِه وَقْتًا، فقالَ هذا الجِنِّيُّ: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾، فلا يَخْشَى أن يَسْقُطَ هذا العرشُ ويَتكَسَّرَ ويَفْسُدَ ﴿أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩]، فلا يُمْكِنُ أن أخونَ فآخُذَ شيئًا منه.

فوَصَفَ هذا الجِنِّيُّ نفسَه بأنه قَوِيٌّ لِيَأْمَنَ سليمانُ من سُقوطِ العرشِ إذا جاء حاملًا إياه من اليمنِ إلى الشامِ، وأَمِينٌ لِيَأْمَنَ من خِيانتِه.

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠]، يعني آتيك به في لحظةٍ.

قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النمل:٤٠]، لَمَّا رأى سُليمانُ العرشَ مُستقِرًّا عندَه، يَعني ثابِتًا، وكأنَّ له سِنِينَ؛ لأنَّه لم يَقُلْ: لما رآه عندَه، بل قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾.

وفي هذه القِصَّةِ دليلٌ على أنَّ المَلائكةَ أقْوَى من الجنِّ؛ لأنَّ الملائكةَ أَتَتْ به من اليمنِ إلى الشامِ بلحظةٍ، فهم أَقْوَى بلا شَكٍّ من الجنِّ، ولكن معَ هذا نقولُ: إن الجنَّ أقْوَى من الإنسِ، وقد ذَكَرَ اللهُ تَعالَى في سُليمانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ اللهَ سَخَّرَ له الشياطينَ: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص:٣٧-٣٨].

فذَكَرَ اللهُ أنَّ اللهَ قَسَّمَ الشياطينَ لسُليمانَ ثلاثةَ أقسامٍ:

قِسْمٌ بَنَّاءٌ يَبْنِي القُصورَ، وقِسْمٌ غوَّاصٌ في البحارِ يأتي بالدُّرَرِ والمَرْجانِ وغيرِها، والثَّالثُ: مُجْرِمٌ مُعانِدٌ قد قَرَّنه بالأصفادِ وحَبَسَه.

أحوال الجن:

نَرجِعُ إلى أحوالِ الجِنِّ فنقولُ: الجِنُّ أشدُّ ظُلْمًا وأكثرُ كَذِبًا من الإنسِ؛ لأنهم يَرْجِعونَ إلى أَصْلِهم وهي النارُ، والنارُ لا يَخْفَى علينا جميعًا أنَّها نارٌ مُحرِقةٌ، وأنَّ لهبَها -كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥]- فيه الخِفَّةُ والسُّرعةُ والطَّيشُ، فهم أشدُّ عُدْوانًا من الإنسِ، وأكْذَبُ قولًا.

والجنُّ ربما يُسَلَّطون على الإنسِ، فيَدْخُلُ الجِنِّيُّ في بَدَنِ الإنسانِ ويَتَلَبَّسُ به، ويُؤْذِيهِ تَارَةً بالصَّرَعِ، فيَصْرَعُه ويَخْنُقُه، وتارةً بتغييرِ الفِكْرِ، وتارةً بالجنونِ، المُهِمُّ أن أنواعَ إيذائِهم كثيرةٌ.

والجنُّ ربما يَتَشَكَّلُون بغيرِ شكلِ الجنِّ الحقيقيِّ، فقد يكونُ الجنيُّ في صورةِ

حَيَّةٍ، وبصورةِ قِطَّةٍ، وبصُوَرٍ أخرى مُتنوِّعةٍ؛ فإنَّ رجلًا من الأنصارِ شابًّا حديثَ عَهْدٍ بعُرسٍ، استأذنَ النبيَّ ﷺ أن يَقْدَمَ المدينةَ قبلَ الرَّكْبِ، فأذِنَ له، فلمَّا وَصَلَ إلى بيتِه وجَدَ زَوجتَه على البابِ، فانتقدها، وأنكَرَ عليها خُرُجَها من المنزلِ، فأشارتْ إلى الفِراشِ، فوَجَدَ على الفِراشِ حَيَّةً مُنْطَوِيَةً، فأخَذَ الرُّمْحَ فوكَزَها فقضى عليها، فقُضِيَ عليه، وهَلَكَ في الحالِ، فما يُدْرَى أَيُّهما أسرعُ موتًا؛ الشابُّ أمِ الحَيَّةُ.

فبَلَغَ ذلك النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ فنَهَى عن قتلِ الحيَّاتِ الَّتي تَكونُ في البيوتِ؛ لأنها قد تكونُ جِنًّا[1]، إلَّا صِنْفينِ؛ هما الأبترُ يعني قَصيرَ الذَّنَب، وذو الطُّفْيَتينِ[2]، والطُّفيتانِ عبارة عن خَيطينِ أَسْودينِ فوقَ ظهرِ الحَيَّةِ، فهذانِ الصِّنْفانِ يُقْتَلانِ ولو في البيوتِ، أما ما عداهما فإنه يُحَرَّجُ عليه ثلاثةَ أيامٍ، فإذا رَجَعَ بعدَ ذلك قُتِلَ.

وكَثُرَ في الآونةِ الأخيرةِ مَسُّ الجنِّ للإنسِ، وصارَ كَثِيرٌ من النَّاسِ يَشْكُونَ من هذا الأمرِ، وسببُ ذلك إعراضُ النَّاسِ عمَّا جَعَلَه اللهُ تَعالَى حِصنًا لهم، وهي الأورادُ الشرعيَّةُ؛ فإنَّ كثيرًا من النَّاسِ يُصبِحُ ويُمسِي لا يَقرَأُ آيةَ الكُرْسيِّ، ويُصبِحُ ويُمْسِي لا يَقْرَأُ المُعَوِّذَتَيْنِ، ويُصْبِحُ ويُمسِي لا يَقرَأُ الأذكارَ الواردةَ في الصباحِ والمساءِ، فأَعْرَضُوا عن ذلك، معَ أن هذه الأشياءَ تَحْمِيهم من الجنِّ الَّذِينَ لا يَستطيعون أن يَحْمُوا أنفسَهم عنهم بالسلاحِ، لكنَّ هذه الأذكارَ وهذه الآياتِ تَحْمِيهم من الجنِّ.

فالنَّاسُ في الآونةِ الأخيرةِ غَفَلُوا عن الأذكارِ، ولو أَنَّهم استعملوا الأورادَ الَّتي

---

(١) أخرَجه مُسْلم: كتاب الآداب، باب قَتْل الحَيَّات وغيرها، رقم (٢٢٣٦).

(٢) أخرَجه البُخاري: كتاب بَدْء الخَلْق، باب خَيْرُ مَالِ المُسْلم غَنَم يَتْبَع بها شَعَف الجِبال، رقم (٣٣١٠)، ومسلم: كتاب السلام، باب قَتْل الحَيَّات وغيرها، رقم (٢٢٣٣).

جاءتْ بها السُّنَّة لَسَلِمُوا من أذَى الجنِّ.

ثمَّ إنَّ هنا شيئًا آخرَ، وهو أن الإنسانَ إذا كان عندَه خوفٌ من الجنِّ تَسَلَّطوا عليه، وإذا كانَ عندَه اتكالٌ على اللهِ وعَزيمةٌ عَجَزوا عنه، ولم يَستطيعوا؛ ولهذا كان الشيطانُ يَهْرُبُ من عُمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فإذا سَلَكَ عُمَرُ طَريقًا سَلَكَ الشيطانُ طَرِيقًا آخرَ[1]؛ وذلك لقُوةِ قلبِه وقُوةِ تَوكُّلِه على اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفَضْلُ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بهذا لا يَعني أنَّه أَفْضَلُ من أبي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مثلًا، أو أنَّه أَفْضَلُ من النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ، ولكن هذه خَصِيصة خَصَّها اللهُ تَعَالَى لِعُمَرَ بنِ الخطابِ، لكنَّ غيرَه ممَّن له فضلٌ أفضلُ منه.

المُهِمُّ -يا إخواني- أُوصِيكم ألَّا يكونَ لديكم خوفٌ، وأنْ تُحْكِمُوا التوكُّلَ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنْ تَستعمِلوا الأورادَ الَّتي جاءتْ بها السُّنَّة، مثل آيةِ الكُرسيِّ؛ فإن مَن قَرَأَها في ليلةٍ لم يَزَلْ عليه مِنَ اللهِ حافِظٌ، ولا يَقْرَبُه شيطانٌ حتَّى يُصبِحَ[2].

وكذلك المُعَوِّذتانِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١]، «**مَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**»[3].

كذلك هناك أحاديثُ عن النبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فيها أورادٌ، فاستعملوا هذه الأورادَ، فهي مِن أَقْوى ما يَحْرُسُكم ويَمْنَعُكم من تسلُّطِ الجنِّ عليكم.

---

(١) أخْرَجه البُخاريُّ: كتاب بَدْء الخَلْق، باب صِفَة إبليس وجُنوده، رقم (٣٢٩٤)، ومُسْلم: كتاب فَضائِل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، باب من فَضائِلِ عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رقم (٢٣٩٦).

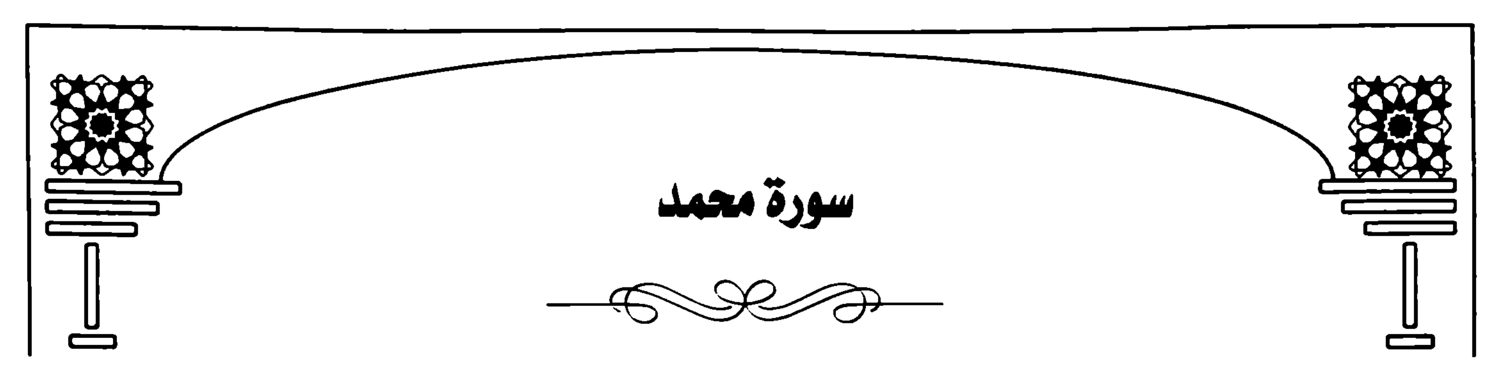
(٢) أخْرَجه البُخاريُّ: كتاب الوَكالة، باب إذا وَكَّل رَجُلًا، فترك الوَكِيلُ شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقْرَضَه إلى أجَلٍ مُسَمًّى جاز، رقم (٢٣١١).

(٣) أخْرَجه النَّسائي: كتاب الاستعاذة، رقم (٥٤٣٨).

أَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يُعِيذَني وإياكم من شرِّ ما خَلَقَ، ومن شرِّ غاسقٍ إذا وَقَبَ، ومن شَرِّ النفَّاثاتِ في العُقَدِ، ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَدَ.

والحَمْدُ للهِ الذي بنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





سورة محمد

الدَّرسُ الأوَّل:

إنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قولُه تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد:١].

أسماءُ السورةِ:

هذهِ السورةُ تُسَمَّى سُورةَ القتالِ، وتُسَمَّى أيضًا سُورةَ محمدٍ؛ وذلكَ لأنهُ ذُكِرَ فيها محمدٌ ﷺ، وذُكِرَ فيها القتالُ.

يُبيِّنُ اللهُ تَعالَى في هذهِ السورةِ أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما يَجِبُ الإيمانُ بهِ، فكَفَرُوا باللهِ، ورُسُلِه، وكُتُبِه، ومَلائكَتِه، وباليومِ الآخِرِ، وبالقَدَرِ، ومَن كَفَرَ بأَيٍّ من أركانِ الإيمانِ الستةِ فهو كافرٌ، حتى لو آمَنَ بالبعضِ، وكَفَرَ بالبعضِ فهو كافرٌ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ

بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

فالإيمانُ كلٌّ لا يتجزَّأُ، مَنْ كفَرَ بشيءٍ منهُ فَقَدْ كفَرَ بِهِ جميعًا، فيكونُ قولُه تعالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي كَفَرُوا بما يَجِبُ الإيمانُ بهِ مِن أَركانِ الإيمانِ السِّتةِ التي بيَّنَها النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لجبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

هؤلاءِ الذينَ كَفَرُوا وصدُّوا عن سَبيلِ اللهِ، صَدُّوا بمعنى: أَعْرَضُوا، أو صَرَفُوا، فإذا فَسَّرناها بـ: أعرضُوا، صارَ الفعلُ لازمًا، وإذا فَسَّرناها بـ: صرفُوا، صارَ الفعلُ مُتعدِّيًا، فعلى الأولِ يكونُ المعنى: أنهم أعرضُوا عن سبيلِ اللهِ، وعلى الثاني يكونُ المعنى: صَرفُوا عبادَ اللهِ عن سبيلِ اللهِ.

ويُمكِنُ حملُ الآيةِ على المَعْنَيينِ جميعًا؛ لأن مِن قواعدِ التفسيرِ: أنَّ الآيةَ إذا تَضَمَّنتْ مَعْنيينِ لا يُنافي أحدُهما الآخرَ، وَجَبَ أن تُحْمَلَ على المعنيينِ جميعًا؛ لأن ذلكَ أعمُّ وأشملُ وأبرأُ للذِّمَّةِ وأحوطُ، وعلى هذا فيكونُ هؤلاءِ الكُفارُ قد صَدُّوا بأنفسِهم عن سَبيلِ اللهِ، وقد صَرَفُوا عبادَ اللهِ عن سَبيلِ اللهِ.

قولُه: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، فهؤلاءِ أضلَّ اللهُ أعمالَهم، مهما ظنُّوا أنهم على صَوابٍ، فإنهم على خطأٍ، وهم أخسرُ الناسِ أعمالًا، كما قالَ تَعالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٦].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو، رقم (٩).

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢].

ولما كانَ القرآنُ الكريمُ مَثانيَ، تُثَنَّى فيهِ المعاني، فإذا ذُكِرَ الشيءَ ذكرَ ما يقابلُه، فإذا ذكرَ الحقَّ ذكرَ الباطلَ، وإذا ذكرَ الكافرَ ذكَرَ المؤمنَ، وإذا ذكَرَ الثوابَ ذكرَ العقابَ، حتى يَبْقَى الإنسانُ سائرًا في مِنْهاجِه وتَصرُّفاتِه بينَ الخوفِ والرجاءِ، فلما ذَكَرَ الذينَ كفرُوا وصدُّوا عن سبيلِ اللهِ أنه أضلَّ أعمالَهُم قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، بيَّنا أن الذينَ كَفرُوا هُم مَن كفرُوا بما يَجِبُ الإيمانُ بهِ، فيُقابِلُهمُ الذينَ آمنُوا، وهمُ الذينَ آمنُوا بما يَجِبُ الإيمانُ بهِ، فآمنُوا باللهِ وملائكتِه، وكُتبِه، ورُسلِه، واليومِ الآخرِ، والقَدَرِ خيرِه وشرِّه، وعملُوا الأعمالَ الصالحاتِ، والعملُ الصالحُ هوَ المبنيُّ على شيئينِ:

الأولُ: الإخلاصُ للهِ.

الثاني: المُتابعةُ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

هذا العملُ الصالحُ، وضِدُّهُ العملُ الفاسدُ، فما لم يُخْلَصْ فيهِ للهِ فهوَ عملٌ فاسدٌ، وما لم يُتَّبَعْ فيهِ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهو عملٌ فاسدٌ، ودليلُ ذلكَ قولُ النبيِّ ﷺ فيما رواهُ عن ربِّه: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1]، فاختلَّ في هذَا الإخلاصُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

وقالَ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وفي لفظٍ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٢)، والذي اختلَّ هنا المتابعةُ.

ولا تتحققُ المتابعةُ إلا إذا وافقتِ العبادةُ الشريعةَ في أمورٍ ستةٍ:

الأولُ: السَّببُ.

الثاني: الجِنسُ.

الثالثُ: القَدْرُ.

الرابعُ: الكَيفيةُ.

الخامسُ: الزَّمانُ.

السادسُ: المَكانُ.

الأولُ: السَّببُ:

فإذا تَعَبَّدَ الإنسانُ عبادةً لسببٍ غيرِ مشروعٍ، فالعبادةُ مَردودةٌ ومُبتَدَعةٌ، يُنكَرُ على فاعلِها أن يَفْعَلَها، مثالُ ذلكَ لو أن الإنسانَ كلما خَرَجتْ منهُ ريحٌ حَمِدَ اللهَ، أو كلما تَجَشَّأَ حَمِدَ اللهَ، فنقولُ: هذهِ العبادةُ غيرُ مُوافِقةٍ للشرعِ، لأنكَ حَمِدتَ اللهَ على سببٍ لم يجعَلْهُ النبيُّ ﷺ سبباً للحمدِ، لكن لو فُرِضَ أن الإنسانَ أُصِيبَ بانحباسِ الريحِ، ثم فَتَحَ اللهُ له ذلكَ، فحِينَئذٍ يكونُ ذلك نِعمةً مُتجَدِّدةً، إذا حَمِدَ اللهَ عليها فإن

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على قراءة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٧٠٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الحدود، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، (١٧١٨).

ذلكَ صحيحٌ.

الثاني: الجِنس:

لو أن الإنسانَ ضحَّى بفَرَسٍ، فإن هذهِ الأُضْحيةَ لا تُجْزِئُ؛ لأنها ليستْ من جنسِ ما يُضحَّى بهِ، فخالفَ هذا العملُ الشريعةَ في الجنسِ، أما الذي يُضحَّى بهِ فهوَ بَهيمةُ الأنعامِ، منَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ.

الثالثُ: القَدْرُ:

لو أن رجلًا صَلَّى الفجرَ ثلاثَ ركعاتٍ، أو أربعَ ركعاتٍ، فلا يَصِحُّ؛ لأنها مُخالِفةٌ للشريعةِ في القَدْرِ.

الرابعُ: الكَيفيةُ:

لو أن أحدًا تَوَضَّأَ فغَسَلَ رِجْليهِ، ثم مَسَحَ رأسَه، ثم غَسَلَ يديهِ، ثم غَسَلَ وجهَه، فلا يَصِحُّ الوضوءُ، لاختلافِ الكيفيةِ.

الخامسُ: الزَّمانُ:

لو أنَّ رَجُلًا صامَ رمضانَ في رَجَبٍ، وقالَ هذا منَ المُسابقةِ إلى الخيراتِ، فلا يُجْزِئُ؛ لأنهُ مخالفٌ للزمانِ.

ولو ضحَّى يومَ عرفةَ فالأضحيةُ لا تُجْزِئُ؛ لأنها مخالفةٌ في الزمانِ، ولو ضَحَّى يومَ عيدِ الأضحى قبلَ الصلاةِ، لم تُجْزِئْ؛ لأنها مخالفةٌ في الزمانِ.

السادسُ: المَكانُ:

ولوِ اعتكفَ الإنسانُ في بيتِه بدلًا عنِ المسجدِ لم تَصِحَّ؛ لأنها مخالفةٌ في المكانِ.

قولُه تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، المرادُ بالصالحاتِ: الأعمالُ الصالحةُ، ولا تكونُ صالحةً حتى تكونَ مَبنيةً على شيئينِ وهما: الإخلاصُ، والمتابعةُ.

والشركُ: ضِدُّه الإخلاصُ، والابتداعُ أوِ المخالفةُ ضدُّه المتابعةُ، ومنَ الشركِ الرِّياءُ، وهوَ أن يعملَ الإنسانُ العملَ للهِ، لكن يُرِيدُ أن يَمْدَحَهُ الناسُ عليهِ، فهوَ لا يُصلِّي للناسِ، ولكن يُصلي للهِ، ويريدُ أن يَمدَحه الناسُ، فيقالَ: هذا رجلٌ مصلٍّ. يُنْفِقُ للهِ، ولا يُنْفِقُ للفقيرِ، لكن يُرِيدُ أن يَمْدَحَهُ الناسُ بالإنفاقِ، فهذا مُراءٍ.

والرياءُ إذا خالطَ العبادةَ يُفسِدُها، ولا تُقْبَلُ منه، بل يَأْثَمُ بها؛ لأنهُ أشركَ باللهِ، والشركُ لا يُغْفَرُ ولو كانَ شِرْكًا أصغرَ، لعمومِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشركُ لا يَغْفِرُهُ اللهُ ولو كانَ أصغرَ، ولا يعني ذلكَ أن الشركَ الأصغرَ يُخَلَّدُ صاحبُه في النارِ، بل يعذبُ صاحبُه بقدرِ ما عَمِلَ منَ الشركِ، ثم يكونُ مآلُه إلى الجنةِ»[1].

والذي يُخَلَّدُ فاعلُه في النارِ هوَ الشركُ الأكبرُ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

ومنَ الشِّركِ أن يعملَ الإنسانُ العملَ للدنيا، يُؤَذِّنُ لِيأخُذَ الراتبَ، ويكونُ إمامًا لِيأْخُذَ الراتبَ، فليسَ قَصْدُه أن يَتقَرَّبَ إلى اللهِ بالأذانِ، ولا أنْ يَتقرَّبَ إلى اللهِ بالإمامةِ، ولكن مِن أجلِ أن يَحْصُلَ على الراتبِ، هذا شِركٌ لأنهُ أرادَ بعملِه الدُّنيا.

وقدْ قالَ شيخُ الإسلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوهابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كتابِه التوحيدِ قالَ:

---

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٨٤).

«بابٌ منَ الشِّركِ إرادةُ الإنسانِ بعملِه الدُّنيَا، وقدْ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦]»[١].

فإن قيلَ: إن كثيرًا منَ الأئمةِ والمُؤذنينَ يَقومونَ بذلكَ العملِ من أجلِ الراتبِ، فهلْ يعني ذلكَ أن يَتخلَّى عنِ الأذانِ والإمامةِ؟

قُلْنا: نَعَمْ، إذا كانتْ هذهِ نِيَّته فَلْيَتَخَلَّ؛ لأن كونَه يُصْبِحُ فقيرًا منَ المالِ، خيرٌ من كونِه يُصْبِحُ فقيرًا منَ الإخلاصِ، ومعَ ذلكَ يَجِبُ أن نُصَحِّحَ النِّيَةَ، فإذا تَقَرَّبْتَ إلى اللهِ بالأذانِ وبالإمامةِ، وتَأْخُذُ ما تَرَتَّبَ على ذلكَ للتَّقَوِّي عليهما، وعلى القيامِ بهما، قالَ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن أخذَ مالًا لِيَحُجَّ بهِ فلا حَرَجَ، ومَنْ حَجَّ لِيَأْخُذَ المالَ فليسَ لهُ في الآخِرةِ مِنْ خلاقٍ»[٢].

وهذا نَحتاجُ إليهِ فيما يأخُذُه بعضُ الناسِ أيامَ الحجِّ منَ الدراهمِ لِيَحُجَّ بهِ عن غيرِه، فإننا نقولُ لهُ: هل أنتَ أخذتَ هذهِ الدراهمَ لِتَحُجَّ بها، أو حَجَجْتَ لِتَأْخُذَ الدَّراهِمَ؟

إن كانَ الأول فلا حَرَجَ؛ لأنهُ من بابِ الاستعانةِ برزقٍ على طاعةِ اللهِ، وإن كانَ الثاني ففيهِ الحرجُ؛ لأنهُ اتخذَ الدِّينَ وسيلةً للدنيا، والعكسُ هوَ الصحيحُ، وهو أن الدُّنيا هيَ التي تُتَّخذُ وَسِيلةً للدِّينِ.

قولُه تَعالى: ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

---

(١) كتاب التوحيد (١/ ١٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٦/ ٢٠).

﴿بِمَا﴾ ما: اسمُ موصولٍ، تَشْمَلُ ما نُزِّلَ على محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم مِنَ القرآنِ والسُّنَّةِ، قالَ تعَالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وهذهِ الجملةُ تَدُلُّ على أن ما جاءَ بِهِ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقٌّ، سواءٌ كانَ طَلَبًا أم خَبَرًا، ومَوْقِفُنا منَ الطلبِ الطاعةُ، أن نَقولَ: سَمِعنَا وأطعنَا. ونُنَفِّذُ، إن كانَ أمرًا فَعَلْنَا، وإن كانَ نَهْيًا تَرَكْنَا.

وموقفُنا منَ الخبرِ التصديقُ، أن نقولَ: آمنَّا وقَبِلْنَا وصَدَّقْنَا.

هذا هوَ الإيمانُ بما نُزِّلَ على محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وثوابُ هؤلاءِ الذينَ آمنُوا بما نُزِّلَ على محمدٍ قولُه: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، أي كَفَّرَ عنهُم سَيئاتِ أعمالِهم، وأصلحَ حالَهم وشأنَهُم، وجمعَ اللهُ لهم بينَ أمرينِ، بينَ إزالةِ السوءِ بتكفيرِ السيئاتِ، وحصولِ الخيرِ بإصلاحِ الحالِ.

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، كما قالَ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتُ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ»(١)، وكقولِه ﷺ: «العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ، لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ»(٢).

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٣].

---

(١) أخرَجه مُسْلم: كتاب الطَّهارة، باب الصلوات الخَمْس والجُمُعة إلى الجُمُعة ... مُكَفِّرات لما بَيْنهنَّ، رقم (٢٣٣).

(٢) أخرَجه البُخاري: كتاب العُمْرَة، باب وجوب العُمْرَة وفضلها، رقم (١٧٧٣)، ومُسلم: كتاب الحَجِّ، باب فَضْل الحجِّ والعُمْرَة، رقم (١٣٤٩).

هذهِ الآيةُ تعليلٌ لما قبلَها، فمَنِ اتبعَ الباطلَ، حَدَثَ لهُ مِنَ الضلالِ بقدرِ ما يَتَّبِعُه منَ الباطلِ، فمَن عصَى اللهَ فقدِ اتَّبَعَ الباطلَ فينقُصُ مِن إيمانِه بقَدْرِ مَعْصيتِه، ويَنْقُصُ مِن هداهُ بقدرِ معصيتِه؛ فكما أن اتباعَ الحقِّ سببٌ للخيرِ، فاتباعُ الباطلِ سببٌ للشرِّ.

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾، أي مثل هذا التبيينِ والتوضيحِ يَضرِبُ اللهُ للناسِ أمثالَهم.

قولُه تَعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٤].

قولُه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بمَيْدانِ القتالِ.

قولُه: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ضَرْبَ هنا مَصْدَرٌ بمعنى الأمرِ، أي فَاضْرِبُوا رِقابَهم.

قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾، أثخنتموهُم في القتلِ، وأبليتمُوهم، وأضعفتمُوهم بالقتلِ.

قولُه: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ فحينئذٍ شُدُّوا الوَثاقَ منهمْ بالأسرِ، فلا تَأسِروهُم قبلَ أن تُثْخِنُوهم بالقتلِ، حتى لا تقومَ لهم قائمةٌ.

قولُه: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، وإذا أَسَرْتُمُوهُم فإمَّا مَنًّا بعدُ وإما فداءً، حتى تَضَعَ الحربُ أوزارَها، ومنَ المُمكنِ أن تكونَ (حتى) هنا للتعليلِ؛ أي لأجلِ أن تَضَعَ الحربُ أوزارَها.

وجملةُ: «إما مَنًّا وإما فِداءً» تُفِيدُ التخييرَ، فإما أن تَمُنُّوا عليهم فتطلقُوهم، وإما أن تُفادُوهم بمالٍ أو مَنْفعةٍ أو رجالٍ.

مثالُ الفداءِ بالمالِ: بأن يُطْلَبَ مِنَ الكافرِ الميسورِ أن يَدْفَعَ فِداءً، فيقالَ: لن نُطْلِقَكَ إلا بمئةِ مليونٍ.

ومثالُ الفداءِ بالمنفعةِ: أن نقولَ: لا نُطْلِقُك حتى تُصْلِحَ لنا الطريقَ، فيكونُ الأسيرُ عاملًا معَ العمالِ، كما فَعَلَ المسلمونَ في أَسْرَى بَدْرٍ، حيثُ فَادُوهم بتعليمِ أبناءِ الأنصارِ الكتابةَ.

ومثالُ الفداءِ بالرجالِ: كأنْ يكونَ عندَهُم أَسْرَى مِنَّا، فنقولَ: أَعْطُونَا أَسْرانَا، ونُعْطيكُم أَسَراكُم.

وهذا التخييرُ تخييرُ مَصْلحةٍ، فلا يَحِلُّ لمن يلي أمرَ المسلمينَ في هذا الشأنِ أن يتخيرَ إلا ما تقتضيهِ المصلحةُ، والضابطُ في هذا المقامِ أن نقولَ: إذا كانَ المقصودُ بالتخييرِ التيسيرُ فهوَ تَشَهٍّ، وإذا كانَ التخييرُ بالتصرفِ للغيرِ فهوَ مصلحةٌ، ووليُّ أمرِ المسلمينَ يُخَيَّرُ، فيجبُ أن يختارَ ما هوَ أَصْلَحُ مِنَ المنِّ أوِ الفداءِ.

ولبيانِ الفرقِ بينَ تخييرِ المصلحةِ والتشَهِّي، **نَضرِبُ مثالينِ**:

المِثالُ الأولُ: إذا خَيَّرْنَا وليَّ يتيمٍ بينَ نوعينِ منَ التصرفِ، بينَ أن يَفْتَحَ مَتْجَرًا بمالِ اليتيمِ، وبينَ أن يُعْطِيَه شَخْصًا ثِقَةً مضاربةً، فهذا تخييرُ مصلحةٍ.

ولو أنَّ الإنسانَ إذا لَزِمَتْه كفارةُ يَمينٍ، وخُيِّرَ بينَ إطعامِ عَشَرةِ مساكينَ، أو كسوتِهم، أو عتقِ رقبةٍ، فالمقصودُ هنا التيسيرُ، فهوَ تَخْيِيرُ تَشَهٍّ.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي ذلكَ هوَ الحكمُ.

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾، فلو شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لانتصَرَ منَ الكفارِ، وكفى المؤمنينَ القتالَ، ولكنهُ بحِكْمتِه جعلَ الأمرَ سِجالًا بينَ المسلمينَ والكفارِ، ليَبْلُوَ بعضَهم ببعضٍ.

وإذا نَظَرنَا إلى هذهِ السُّنَّةِ وجدنَا أنها سُنَّةٌ مُطَّرِدة، يبلُو اللهُ تَعالَى الناسَ بعضَهم ببعضٍ، فيَنْصُرُ هؤلاءِ أحيانًا، ويَنْصُرُ هؤلاءِ أحيانًا، ولو شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لانْتَصَرَ منَ الكفارِ فأهلكَهُم وأبادَهم جميعًا بكلمةٍ واحدةٍ، لكن هذا تَفوتُ بهِ مَصالِحُ كثيرةٌ منها:

الأولى: حكمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ منْ حكمةِ اللهِ أن تبقَى الأرضُ بينَ مؤمنٍ وكافرٍ، ولو كانَ النـاسُ كلُّهم مؤمنينَ لم يَكُنْ للإيمانِ تلكَ القيمةُ؛ لأن الإنسانَ لا يمكنُ أن يخرجَ عن بني جنسِه؛ لكن إذا كانَ هناكَ طريقانِ: طريقُ كفرٍ، وطريقُ إيمانٍ، فهنا يَتبيَّنُ ويَتميَّزُ فضلُ الإيمانِ.

الثانية: أنهُ لو كانَ الناسُ كلُّهم مُؤمنينَ لسُدَّ بابُ الجهادِ، ولو كانَ كلُّ الناسِ مُطيعينَ لسُدَّ بابُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ؛ لأنهُ حِينَئذٍ لا مُنْكَرَ يُنْهَى عنهُ، ولا إخلالَ بمعروفٍ، ولكن من حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن جَعَلَ العبادَ منهم مُؤْمِنٌ ومنهم كافرٌ، لِيَبْلُوَ بعضَهم ببعضٍ.

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد:٤-٦].

أعداء المسلمين:

إنَّ أعداءَ المُسلِمِينَ لا يَنْحصِرونَ في نَوعٍ مُعَيَّنٍ منَ الكفرِ، بل كلُّ مَن خالفَهم في دِينِهم عَدُوٌّ لهم، ويَشْمَلُ أعداءُ المسلمينَ: المُنافِقِينَ، واليهودَ، والنصارَى.

أولا: المنافقونَ: المنافقونَ الذينَ بينَ المسلمينَ، والذينَ يتظاهرونَ بالإسلامِ هم أعداءٌ للمسلمينَ، ومعَ ذلكَ يُصَلُّونَ مَعَهمْ، ويَصومونَ مَعَهمْ، وإذا خَرَجَ المسلمونَ للجهادِ خرجُوا معهُم، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤].

وهمْ أَشَدُّ منَ الكُفَّارِ عَداوةً، إذ إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قالَ في كتابِه: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، وجملةُ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ جملةٌ اسميةٌ مُعرَّفَةُ الطَّرفينِ تَدُلُّ على الاستقرارِ والثُّبوتِ، وأنَّ هذِهِ حالُهم ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾، وأنزلَ اللهُ في شأنِهم سورةً كاملةً، وفي سورةِ البقرةِ ذَكَرَ اللهُ في أَوَّلِها المؤمنينَ الخُلَّصَ، والكافرينَ الخُلَّصَ، والمنافقينَ، ذكَرَ اللهُ في المُؤمنينَ الخُلَّصِ، والكافرينَ الخُلَّصِ آياتٍ قليلةً، وفي المنافقينَ ذَكَرَ اللهُ آياتٍ كثيرةً أكثرَ مِنَ الصِّنفينِ، وذلكَ لعِظَمِ خَطَرِهم وشِدَّةِ عَداوتِهم.

ثانيًا: اليهودُ والنصارَى، همْ أعداءٌ للمسلمينَ أيضًا، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ [المائدة:٨٢]، فاليهودُ أعداءٌ، والمُشرِكونَ أعداءٌ، وهم أشدُّ النـاسِ عداوةً، والنَّصـارَى قالَ اللهُ فِيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾، فهم أقربُ الكُفَّارِ مَودَّةً لنَا.

ويَقْرَأُ المُسلِمونَ هذهِ الآيَةَ ويَأخُذونَ بأَوَّلِها دونَ آخرِها، كما يَقْرَأُ القارئُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء:٤٣]، ويَسْكُتُ، وإذا قرأ: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وسكتَ، يُفهمُ منها أن اللهَ يَنْهَى عن قربانِ الصلاةِ، كذلكَ مَن يَقْرَأُ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ [الماعون:٤] ويسكتُ، فيكونُ الأولُ قرأَ الآيَةَ التي بها النهيُ عن قربانِ الصلاةِ، والثاني قرأَ الآيَةَ التي فيها الوعيدُ لمن صَلى، ولكن كلامُ اللهِ مُتَّصِلٌ بعضُه ببعضٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، في جملةٍ حاليةٍ مُقيَّدةٍ، ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾.

والآيَةُ الثانيةُ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ فمَن هُم؟ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون:٥-٧]، فالذي يقولُ: أقربُ الناسِ مودةً للذينَ آمنُوا الذينَ قالُوا إنَّا نَصارَى، ولا يقرأُ آخِرَ الآيةِ يُخْطِئُ في الاستدلالِ، فكمالُ الاستدلالِ أن تَستقرِئَ الدليلَ كلَّه، ولهذا قالَ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة:٨٢-٨٤].

هذا الوصفُ الذي هوَ عِلَّةُ الحكمِ غيرُ مُنطبِقٍ على نَصارَى زمانِنا والزمانِ السابقِ مُنْذُ زمنٍ بعيدٍ، فلم نَرَ منهُم ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، بل رَأَيْنا مِنهمْ قِسِّيسينَ يَدْعونَ الناسَ إلى النصرانيةِ بكلِّ ما يَستطيعونَ، ببثِّ النداءاتِ، وإرسالِ المَنْشوراتِ، وإرسالِ الأشرطةِ إلى صناديقِ

البريدِ في بلادِ الإسلامِ؛ لأنهم يَتتبَّعونَ الناسَ، ويأتونَ مَعَهم بعمالٍ يَعْرِفونَ المواقعَ عندَنا ويَبُثُّونَ سُمومَهُم.

فهُم على العكسِ مما ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في النصارى حينَ نزولِ القرآنِ، ولذلكَ نَسْمَعُ هذهِ الأيامَ أن عندَهم هجمةً شَرِسةً على المسلمينَ وعلى الإسلامِ، ومَن قَدَرُوا أن يهجُمُوا عليه هُجومًا عسكريًّا قامُوا به، ومَن لا يقدرونَ عليهِ فإنهم يَبُثُّونَ سُمومَهم خلالَ إعلامِهم الذي لم تَمنَعْ منهُ الحصونُ ولا المراقبةُ؛ لأن وَسائلَ الإعلامِ الآنَ انتشرتِ انتشارًا عَظِيمًا خَفِيًّا وظاهرًا.

وما حَدَثَ لأهلِ البُوسنةِ والهِرْسكِ منا ببعيدٍ، ولقدْ سَمِعنَا الأفاعيلَ المنكرَةَ التي لا يَفْعَلُها ذو ضميرٍ، ولو كانَ أكفرَ عبادِ اللهِ، يأتي الرجلُ إلى الفتاةِ ويَزْني بها بينَ يدَي أَبيهَا وأمِّها، فيَتَفَجَّرُ القَلْبُ دمًا، وتَتَفَتَّتُ الكَبِدُ حينما يُشاهِدُ عَدُوَّه يُجامِعُ ابنتَه، أو أختَه أو يُجامِعُ زوجتَه أو أمَّه، أو غيرَ ذلكَ منَ المُنكراتِ العظيمةِ التي يَنْدَى لها الجَبِينُ.

ولهذا أَحُثُّكم ونفسِي على الفَزَعِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ودُعائِه أن يُفَرِّجَ الكَرْبَ عن هؤلاءِ الإخوةِ الذينَ أُصيبوا بهذهِ المُصيبةِ، وأن يُذِلَّ كلَّ عَدُوٍّ للإسلامِ منَ النصارى واليهودِ والمُشركينَ والمُلحدِينَ والمُنافقينَ، ادعُوا اللهَ يا إخواني، ادْعُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ابْذُلُوا ما استطعتُم من أموالِكم، أَتُريدونَ أن يُفعلَ بإخوانِكم هذا الفِعْلُ وأنتُم غافلونَ بالنِّعمِ مُطْمَئِنِّينَ على فُرُشِكم؟ أينَ الأُخُوَّةُ الإيمانيةُ؟ أين النخوةُ الرجوليةُ؟ أن يفعلَ النصارى بإخوانِنا هذهِ الأفاعيلَ وكثيرٌ منا لا يَدري ماذا فَعلُوا أو لا يَهْتَزُّ قلبُه لما فعلُوا، فهذا مِن التَّخاذُلِ.

فعلينَا أن نَرْجعَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالدُّعاءِ في سُجودِنا، وفي آخرِ الليلِ، وبينَ الأذانِ والإقامةِ، وفي كلِّ الأحوالِ والأزمانِ والأمكنةِ التي تُرْجَى فيها الإجابةُ، ادعُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يَنْصُرَهم ويُفَرِّجَ كُرْبتَهم، وأنْ يَمْنَحَهُم رِقابَ أعدائِهم ويُوَرِّثَهُم أرضَهم ودِيارَهُم وأموالَهم ونساءَهُم وذُرِّيَّاتِهم، وادعُوا اللهَ أيضًا على مَن سَاعدَهُم أو عاونَهم سِرًّا أو علانيةً أن يَكْبِتَه ويَخْذُلَهُ ويُنزلَ بهِ بأسَه الذي لا يُردُّ عنِ القومِ المُجرمينَ، ويشتتَ شَمْلَ حُكوماتِهم حتى يَقَعُوا في البلاءِ والشرِّ والفتنةِ.

وهمْ أعداءٌ مهما كانَ، كلُّ كافرٍ مِن يَهُوديٍّ أو نصرانيٍّ أو مُشْركٍ فهوَ عَدُوٌّ لكم، لا يَوَدُّونَ لكمُ الخيرَ أبدًا، ولا يَنْفَعُونَكم بشيءٍ إلا وقد أخذوا مِنكُم أكثرَ مما أَعْطَوْكُم، فنسألُ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذا المَقامِ أن يَنْصُرَ إخوانَنا في البوسنةِ والهِرْسكِ، وأن يُفَرِّجَ كرباتِهم، وأن يُذِلَّ أعداءَهم، وأنْ يَمْنَحَهُم رِقابَ أعدائِهم أَسْرًا وقتلًا وتَشْريدًا، وأن يُوَرِّثَهُم دِيارَهم ونساءَهم وأموالَهم إنهُ وليُّ ذلكَ والقادرُ عليهِ.

ونسألُ اللهَ تَعالَى أن يُفَرِّجَ عن جَميعِ المسلمينَ في كلِّ مكانٍ ممنِ اضطهدَهُم أعداءُ الإسلامِ، وأن يَهْدِيَ دُعاةَ الإسلامِ إلى الحِكْمةِ والتأني وإتيانِ الأمورِ مِن أبوابِها، حتى يَحْصُلَ المقصودُ ويَزُولَ المَكْروهُ، إنهُ وليُّ ذلكَ والقادرُ عليهِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصلى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنَا محمدٍ، وعلى آلِه وأصحابِه، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

الدَّرسُ الثَّاني:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلَى نبينا مُحَمَّدٍ خـاتَمِ النَّبيِّينَ، وإمامِ المُتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ تَعالَى لنَبيِّه مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [مُحَمَّد:١٩].

هَذَا الأَمْرُ المُوجَّهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ مُوجَّهٌ له وللأُمَّةِ أيضًا؛ لأنَّ الخطابَ المُوجَّهَ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ له ولأُمَّتِهِ؛ إما عن طَريقِ التَّبَعِيَّةِ؛ لأنَّ الأُمَّةَ تَبَعٌ له، وإما عن طَريقِ التأسِّي.

فالأَوَّل إذا قلنا: عن طَريقِ التَّبعيةِ فالخِطَابُ فِي المَعْنَى له وللأُمَّةِ، لكن خُوطِبَ به إمامُها؛ لأنَّهم تَبَعٌ له.

وأما عَلَى الوجهِ الثَّاني فيكونُ الخطابُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوَّلًا وآخِرًا، وتكونُ الأُمَّةُ فِي امتثالِ المأمورِ به مُتأسِّيَةً برسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وإذا أردتَ أن تَعرِفَ هَذِهِ القاعدةَ فاقْرَأْ قولَه تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطَّلاق:١].

فخَاطَبَ بالنداءِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَط: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ثمَّ جَعَلَ الحُكْمَ للعُمومِ، فقال: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾.

إلَّا إذا قامَ الدَّلِيلُ عَلَى أنَّ الخِطابَ خَاصٌّ برسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ، فإن الخطاب يَكونُ خَاصًّا به، مِثالُه قولُه تَعالَى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:١-٤]، فهذا الخطابُ خاصٌّ بالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وعلى كلِّ حالٍ أمَرَ اللهُ نبيَّه أن يُعْلَمَ بأنه لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فما مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؟ هل المعنى: لا إِلَهَ مَوْجودٌ إِلَّا اللهُ، أو المعنى لا إِلَهَ حقٌّ إِلَّا اللهُ، وما الفرقُ بينَ المَعْنيَيْنِ؟

الجواب: المعنى الثَّاني، أي: أنَّه لا مَعْبودَ حقٌّ إِلَّا اللهُ، وعلى هَذَا فتكونُ جَمِيعُ المعبوداتِ من دونِ اللهِ مَعبودةً بالباطلِ، وتكونُ هِيَ أيضًا باطلةً، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

ولا يَصِحُّ أن يكونَ المَعْنَى: لا إِلَهَ موجودٌ إِلَّا اللهُ؛ لأنَّ الوَاقِعَ يُكذِّبُ هَذَا؛ فإنَّ هناكَ آلهةً تُعْبَدُ مِن دونِ اللهِ، ولكنها آلهةٌ باطلةٌ؛ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون:١١٧]، قالَ: ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، فأثْبَتَ أُلوهيَّتَه، وقال تَعالَى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١] أي: غَيْرَ خَسارةٍ.

فإذا كانَ هَذَا هُوَ المعنى: لا إِلَهَ حقٌّ إِلَّا اللهُ، أي: لا مَعْبودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ، فلماذا كانَ لا مَعْبودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ؟

الجواب: لأنَّ كلَّ معبودٍ دونَ اللهِ فإنَّه بَاطِلٌ، لا يَستحِقُّ أن يُعبَدَ؛ لأنَّه لا يَنفَعُ عابدِيهِ؛ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾

[فاطر:١٣]، والقِطْمِيرُ هُوَ: القِشرةُ الَّتِي تكونُ عَلَى نَواةِ التَّمْرِ، وفيها ثلاثةُ أشياءَ ذَكَرَها اللهُ فِي كتابِه: فَتِيلٌ، ونَقِيرٌ، وقِطْمِيرٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤]، وقال: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٤٩]، وقال: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

فالقِطْمِيرُ هو القِشْرةُ المُلْتَفَّةُ عَلَى النواةِ، والفتيلُ هُوَ العِرْقُ الَّذِي يكونُ فِي بطنِ النواةِ، والنَّقيرُ هو النُّقْرةُ الَّتِي تكونُ فِي ظَهْرِ النواةِ، ويُضرَبُ ذلك مثلًا فِي القِلَّةِ. فالذين يَدْعون من دونِ اللهِ ما يَمْلِكون عَلَى سَبيلِ الاستقلالِ من قِطْمِيرٍ، فالمُلْكُ للهِ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٩].

وهل يَمْلِكُون أن يَدْفَعوا عن عَابِدِيهم ضَررًا؟

الجواب: لا، قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على فَرْضِ السَّماعِ ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤]، والخبيرُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، يعني لا يُنْبِئُك أَحَدٌ عن هَذِهِ الأصنامِ الَّتِي تُعبَدُ ولا عن حَالِها ولا عن مـآلِ عَابِدِيها مثلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، هَذِهِ الأصنامُ الَّتِي تُعبَدُ تَكْفُرُ بالذين عَبَدوها؛ كما يُبَيِّنُه قولُه تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، والَّذِينَ يكونون أعداءً هم المَعْبودون، ﴿كَانُوا۟﴾ أي: المَعْبودون ﴿لَهُمْ﴾ أي: للعَابِدِينَ ﴿أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

إذن، لا مَعْبودَ حقٌّ إِلَّا اللهُ؛ لأَنَّه هُوَ الَّذِي يَستحِقُّ العبادةَ؛ لكونِه هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ النفعَ والضررَ، ويَمْلِكُ إنزالَ الغيثِ وإنباتَ الأرضِ وكلَّ شيءٍ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ [الفرقان:٢].

وبهذا نَعْرِفُ أن الَّذِينَ يطوفون بقُبُورِ الأولياءِ يَدْعونَهم من دُونِ اللهِ: يا فُلَانُ أَدْرِكني، يا فُـلَانُ أَنْقِذني، يا فُـلَانُ أَغِثني، نَعْرِفُ أن هَؤُلاءِ مُشركونَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا تَنْفَعُهم صلاةٌ، ولا تَنفعُهم صدقةٌ، ولا يَنْفَعُهم صِيامٌ، ولا يَنْفَعُهم حَجٌّ، ولا تَنْفَعُهم عُمْرَةٌ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ [التَّوْبَة:٥٤]، فالصَّدَقَةُ وهي نفعٌ مُتَعَدٍّ للغيرِ لا تُقْبَلُ عَلَى أنها عِبادةٌ؛ لأَنَّهم كفروا باللهِ ورسولِه، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، لا نَفْعَ فيه ولا خَيْرَ فيه.

ثم إنَّ هذا الوليَّ قد يكونُ وَلِيًّا، وقد يَكونُ عدوًّا، فقد يكونُ من أولياءِ اللهِ، وقد يكونُ من أعداءِ اللهِ، فمَن دعا النَّاسَ إِلَى عبادةِ نفسِه فهُوَ عدوٌّ للهِ، وليسَ وليًّا، فربما يكونُ هَذَا الميتُ يدعو النَّاسَ إِلَى عِبادةِ نفسِه، ثمَّ يموتُ، فيَعْكُفُ النَّاسُ عَلَى قَبْرِه ويَدْعُونه ويسألونه ويقولون: هَذَا وليُّ اللهِ، هَذَا وليُّ اللهِ، فإذا دعاه وقالَ: سَيِّدي، مَوْلايَ، وَلِيِّي، ربِّ، أَدْرِكْني، أَغِثْني، أَعْطِني مالًا، ارْزُقْني ولدًا، كانَ بذلك مُشْرِكًا شِركًا أكبرَ مُخْرِجًا عن المِلَّةِ، وليسَ شِرْكًا أصغرَ، فهو مُشرِكٌ فِي دِينِه، ضالٌّ فِي عَقْلِه، سَفِيهٌ، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ ﴾ [البقرة:١٣٠].

فهو سَفِيهٌ؛ لأنَّ هَذَا الرجلَ جُثَّةٌ الآن، وربما تكونُ الأرضُ قد أَكَلَتْه وهو لا يَملِكُ لِنَفْسِهِ نفعًا ولا ضرًّا، ولكنَّ الشيطانَ -أعاذني اللهُ وإياكم منه- يَلعَبُ بعُقُولِ بني آدمَ، حتَّى يجعَلَ الحليمَ سَفيهًا، والعاقلَ مجنونًا؛ وإلَّا كيف يكونُ الرجلُ

-وقد حُمِلَ عَلَى الأكتافِ ودُفِنَ فِي حُفرةٍ من الأرضِ- قَادِرًا عَلَى أن يَنْفَعكَ أو يَضُرَّكَ؟! ففكِّرْ عَقْليًا هل يُمكنُ هذا؟

الجواب: لا يُمكِنُ، إذن لماذا تَدْعوه، فبدلًا من أنْ تَقولَ: يا فُلَانُ أغِثْنِي، أَدْرِكني، أنقذني، ارْزُقني ولدًا، ارزقني مـالًا، رُدَّ عليَّ ضالَّتي، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، قُلْ: يا ربِّ، حتَّى تكونَ داعيًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، وإذا دعوتَ اللهَ فلن تَخِيبَ، وسيحصُلُ لك أمرانِ ولا بدَّ:

الأمرُ الأوَّلُ: العبادةُ؛ لأنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ، قال تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، ما قالَ: عن دُعائي؛ لأنَّ الدُّعاءَ عِبادةٌ ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، فجعَلَ الدُّعاءَ عِبادةً، وصَرْفُ شيءٍ من أنواعِ العبادةِ لغيرِ اللهِ شِركٌ، وإذا كانَ الدعاءُ عبادةً فهو حسنةٌ، ومَن جاء بالحسنةِ فله عَشْرُ أمثالِها[1].

الأمر الثَّاني: إذا دعا اللهَ شيئًا، أو إذا سألَ اللهَ شيئًا، فإما أن يَحْصُلَ له ذلك الشَّيْءُ، وهذا كثيرٌ. وفِي القُرْآنِ: مَن دَعَا اللهَ بشيءٍ أَجَابَه؛ قالَ تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرِّقاق، باب مَن هَمَّ بحَسَنةٍ أو سَيِّئةٍ، رقم (٦٤٩١)، ومُسْلم: كتاب الإيمان، باب إذا هَمَّ العبدُ بحَسَنةٍ كُتِبَت، وإذا هم بسَيِّئةٍ لم تُكْتب، رقم (١٣١)، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]، فأيُّ إِنْسَانٍ يَغْتَمُّ ويقولُ: لا إِلَهَ إلا أنتَ، سُبحانَك، إنِّي كنتُ من الظالمينَ. فإنَّ اللهَ يُنْجيهِ من الغمِّ، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء:٧٦].

ومُحَمَّدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دعا اللهَ فِي بدرٍ فاستجابَ اللهُ له، وقُتِلَ من صَناديدِ قُرَيْشٍ الشَّيْءُ الكثيرُ؛ سَبعون قتيلًا من قُرَيْشٍ، وسُحِبَ منهم أربعةٌ وعِشرونَ رَجُلًا من كُبَرَائِهم جُثَثًا أُلقِيَتْ فِي قَلِيبٍ من قُلُبِ بَدْرٍ، حتَّى وقَفَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَى القَليبِ وقال: يا فُلَانُ بنَ فُلَانٍ، يَدْعُو كلَّ واحدٍ باسمِه واسمِ أبيهِ: «**أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**». فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يَسْمَعُوا وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا؟ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا**»(١). يعني يَسْمعونني أكثرَ ممَّا تَسمعونني أنتم.

فنادَاهُم الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلك تَوْبيخًا لهم، وما أعظمَ حَسْرَتَهم فِي تلك الساعةِ والعِيَاذُ باللهِ!

وفِي يومٍ من الأيَّامِ كانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ النَّاسَ يومَ الجُمُعَةِ، فدخَلَ رجلٌ فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا. فرَفَعَ يَدَيْهِ وقالَ: «**اللَّهُمَّ أَغِثْنَا**». ثلاثَ مَرَّاتٍ. فأَنْشَأَ اللهُ السَّحابَ فأمْطَرَ، ولم يَنْزِلِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من المِنْبَرِ إِلَّا والمطرُ يَتَحادَرُ مِن

(١) أخرَجَه مُسلِمٌ: كتاب صِفَة القيامة والجنة والنار، باب عَرْض مَقْعَد المَيِّت من الجنة أو النارِ عليه، وإثبات عَذَاب القَبْر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٤).

لِحيته[١]. إذن دَعَا فاستجابَ اللهُ له.

فهَذِهِ واحدةٌ: إذا دَعَا الإِنْسَانُ رَبَّه فإما أن يستجيبَ اللهُ لهُ، وإما أن يَصْرِفَ عنه من السُّوءِ ما هُوَ أعظمُ ممَّا سأَلَ، وإما أن يَدَّخِرَ ذلك له يومَ القيامةِ، وهَذِهِ نِعْمَةٌ.

فلا تَدْعُ هَذَا المَيِّتَ، أو هَذَا الوليَّ، أو هَذَا النَّبِيَّ، ولا جِبريلَ، ولا مِيكائِيلَ، ولا إسرافيلَ، ولا مُحَمَّدًا، ولا إبراهيمَ ولا غيرَهم، بلِ ادعُ رَبَّهم عَزَّوَجَلَّ، ادعُ اللهَ، فإنْ دعوتَ غيرَ اللهِ لِدَفْعِ الشِّدَّةِ، أو لجَلْبِ النعمةِ، فإنك مُشْرِكٌ كافِرٌ، لا يَنفَعُك صومٌ، ولا صَلَاةٌ، ولا صَدَقَةٌ، ولا حَجٌّ، ولا عُمْرَةٌ، ولا غيرُ ذلك.

ولو دَعَا الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنقِذْني أنا فقيرٌ، يَا رَسُولَ اللهِ، هَيِّئْ لي زَوْجةً، أنا أَعْزَبُ، يَا رَسُولَ اللهِ، أَعْطِني، هَبْ لي وَلَدًا أنا عقيمٌ، يَا رَسُولَ اللهِ، يَسِّرْ لي سَيَّارةً، أنا ليس عندي سَيَّارةٌ. فنقولُ: هو مُشْرِكٌ.

سُبْحَانَ اللهِ! النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أشرفُ الخَلْقِ، الرَّسُولُ أشرفُ الخلقِ، كيف إذا دعاه يُشرِكُ! أليسَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أكرمُ الخَلْقِ، وما سُئِلَ شَيْئًا إِلَّا أعطاه؟

نقولُ: هَذَا فِي حَياتِه، أمَّا بعدَ موتِه فلا يَستطِيعُ.

فلو قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادعُ اللهَ لي بكذا، فما دعا الرَّسُولَ، بل قالَ: ادعُ اللهَ أن يَرْزُقَنِي مالًا، وما قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ارْزُقْنِي.. فنقولُ: هَذَا خطأٌ وضَلالٌ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[٢]، فلا يُمكِنُ أن يَستغفِرَ لك، ولا يُمكِنُ

(١) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

(٢) أخرجه مُسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

أن يَدْعُوَ لك أبدًا، فقد انقطعَ عَمَلُه وانتهى.

فإن سَأَلَنا سائلٌ وقال: هل الشهيدُ أفضلُ أم النَّبيُّ؟

فالجواب: النَّبيُّ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩]، فالشهداءُ فِي المَرْتبةِ الثَّالثةِ، والمرتبةُ الأُولى: النبيُّون، والمرتبةُ الثَّانيةُ الصِّدِّيقُون، والمرتبةُ الثَّالثةُ: الشهداءُ.

والشهيدُ حيٌّ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩- ١٧٠].

وأنت تقولُ: إنَّ النَّبِيَّ أفضلُ من الشهيدِ، فإذا كانَ الشهيدُ حيًّا فالنبيُّ حيٌّ من بابِ أَولى؛ لأنَّه أفضلُ، والصِّدِّيقُ حيٌّ؛ لأنَّه أفضلُ من الشهيدِ.

ونحن فِي المَسْجدِ النبويِّ بجانبِ القُبُورِ الثَّلاثةِ الَّتِي نَزُورها، وفيها: نَبِيٌّ وصِدِّيقٌ وشَهيد.

فإذا كانَ الشهيدُ حَيًّا، فالنبيُّ حيٌّ من بابِ أولى.

فماذا نقولُ لهذا الرَّجُلِ؟

نقولُ: الحياةُ: حياةُ الدُّنيا، وحياةُ البَرْزَخِ، وحياةُ الآخرةِ، وحياةُ الإِنْسَانِ فِي بَطْنِ أُمِّه، فهذه أربعةُ أنواعٍ، وحياتُه فِي بَطْنِ أُمِّه حياةٌ ضَعيفةٌ، لا يَسْمَعُ، ولا يُبصِرُ، ولا يَأْكُلُ، ولا يَشْرَبُ، ولا يَلْبَسُ، ولا يَتَلَذَّذُ، إنَّما يَأْتيهِ الطعامُ من جهةِ السُّرَّةِ، فحَبْلُ

السُّرَّةِ مُشْتبِكٌ بالرَّحِمِ، ويَتَغَذَّى الإنسانُ من دَمِ أُمِّهِ؛ ولهذا نَجِدُ الأمَّ الحاملَ تكونُ ضَعِيفةً، حتَّى إنَّه يَجوزُ أنْ تُفطِرَ فِي رَمَضانَ إذا خَافَتْ عَلَى الوَلَدِ، فهذه الحياةُ ناقصةٌ، وحياةُ الدُّنيا أكملُ، حيثُ يأكُلُ الإِنْسَانِ فيها ويَشْرَبُ، ويَلبَسُ ويَنكِحُ، ويَتَلَذَّذُ، ويَسمَعُ ويُبصِرُ ويَعْلَمُ.

وحياةُ البَرْزَخِ أكملُ من حياةِ الدُّنيا لمَن كانَ مُؤْمِنًا -أَسْأَلُ اللهَ أن يَجْعَلَني وإياكم منهم- لأنَّ الإِنْسَانَ فِي قبرِه إذا سُئِلَ مَن رَبُّك؟ وما دِينُك؟ ومَن نَبِيُّك؟ فقال: ربي اللهُ، وديني الإسلامُ، ونبيي مُحَمَّدٌ؛ نادى مُنادٍ من السَّماءِ أن صَدَقَ عبدي، فأَفْرِشُوه من الجَنَّةِ، وأَلْبِسوهُ من الجنَّةِ، وافتحوا له بابًا إِلَى الجنَّةِ، فيأتيه من رَوْحِها ونَعيمِها، ويُمَدُّ له فِي قبرِه مدَّ البصرِ، يُفْسَحُ له فِي قَبْرِه مدَّ البَصَرِ[1].

ولهذا إذا خرَجَ الميتُ من بَيْتِه وهو مُؤمِنٌ قد بُشِّرَ بالجنَّةِ عندَ الاحتضارِ، فإن نفسَه تقولُ: قدِّموني قَدِّموني؛ لأنَّ ما أمامَها خيرٌ من الدُّنيا كُلِّها. فإذا كانَ غيرَ ذلك قالتِ النفسُ: يا وَيْلَها، أين تَذْهَبونَ بها[2]! لأنَّها بُشِّرَتْ عندَ الاحتضارِ بالنَّارِ، وغَضَبِ الجبَّارِ، نَعوذُ باللهِ من ذلكَ!

وهناك فَرْقٌ بينَ حَياةِ البَرْزَخِ وحَياةِ الدُّنيا، لكنَّ نَعِيمَ البرزخِ أكملُ من نَعيمِ الدُّنيا؛ إِلَّا أنَّه دُونَ نَعيمِ الآخرةِ؛ لأنَّ النعيمَ يكونُ عَلَى الرُّوحِ وَحْدَها، وربما تَتَّصِلُ بالبَدَنِ أحيانًا، لكنَّ نَعِيمَ الآخرةِ إذا حُشِرَ النَّاسُ ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]، وإذا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧)، أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب كلام الميت على الجنازة، رقم (١٣٨٠).

دَخلُوا الجنَّةَ رَأَوْا من النعيمِ ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قلبِ بشرٍ(١).

ويُذبَحُ الموتُ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ، ويقالُ: يَا أَهْلَ الجنَّةِ خُلُودٌ فلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فلا مَوْتَ(٢).

فتَعَلُّقُ الرُّوحِ بالبدنِ فِي الحياةِ الآخرةِ أكملُ من تَعَلُّقِها بالبدنِ فِي البرزخِ، ومِن تَعَلُّقِها بالبدنِ فِي الدُّنيا، ومِن تَعَلُّقِها بالبدنِ فِي بطنِ الأُمِّ.

فأنواعُ الحياةِ أربعةٌ، وحياةُ الشهداءِ ليستْ حَياةً دنيا؛ وهل يَجوزُ أنْ نَدْفِنَ الشَّهيدَ لو كانَ حيًّا حياةً دُنيا!

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ الَّتِي تُدْفَن وهي حَيَّةٌ ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨-٩].

وهل يُمكِنُ للإِنْسَانِ أن يَدْفِنَ أباه وهو حَيٌّ حياةً دنيا! لا، فهي حَياةٌ بَرْزَخِيَّةٌ، وإذا كانت حياةً بَرْزخِيَّةً فالإِنْسَانُ فيها لا يَحْتاجُ إِلَى أكلٍ ولا شُربٍ من الدُّنيا، ولا لِباسٍ ولا زَوجةٍ، ولا يَعمَلُ. والدَّليلُ على أنَّه ما يَعْمَلُ فِي القَبْرِ قولُه تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] أي: الموتُ، فبعدَ الموتِ ليسَ هناك عِبادةٌ، فإذا ماتَ الإِنْسَانُ انقطَعَ عَمَلُه إِلَّا من ثلاثٍ: صَدَقَةٍ جاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٧٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم:٣٩]، رقم (٤٤٥٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٩).

(٣) أخرَجَه مُسلِمٌ: كتاب الوَصِية، باب ما يَلْحَقُ الإنسانَ من الثوابِ بعدَ وفاته، رقم (١٦٣١).

فتبيَّنَ بهذا أنَّ حياةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي قبرِه ليستْ كحياتِه فِي الدُّنيا، فلا يَستطِيعُ أن يَدْعُوَ لكَ، ولا أنْ يَسْتغفِرَ اللهَ لكَ، وذلك عندما تَقولُ: اسْتغفِرْ لي يَا رَسُولَ اللهِ، أوِ ادعُ اللهَ لي.

بهذا نَعرِفُ أنَّ الواجبَ علينا أن نَتَّجِهَ فِي دُعائِنا، وفِي رَغباتِنا، وفِي إزالةِ كُرُباتِنا إِلَى اللهِ، فاللهُ هُوَ الَّذِي يَملِكُ ذلك، أما مَن سِواه فلا، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لرسولِه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:٥٠]، فإذا لم يَكُنْ عندَه خزائنُ اللهِ، فإنه لا يَملِكُ أن يَرْزُقَ عبادَ اللهِ، قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [التَّوْبَة:٩٢].

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، فالذي يَعْلَمُ الغَيْبَ هو اللهُ، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [التغابن:١٨]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وعلى هَذَا فنقولُ: ما أَخْبَرَ به النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ ممَّا يكونُ إِلَى يومِ القيامةِ وما بعدَ يومِ القيامة، فهو من عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولولا أنَّ اللهَ أَعلَمَه ما عَلِمه.

وفي الآيةِ التي في سورة الأنعام قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ [الأنعام:٥٠]، وفي سُورَة هُودٍ قالَ نُوحٌ لقومِه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ [هود:٣١]، فحُذفت (لكم) فِي قِصَّةِ نُوحٍ، وفِي قِصَّةِ مُحَمَّدٍ جاءت (لكم).

وللربط بينَ هَذَا وهذا نَقولُ: نُوحٌ أَوَّلُ الرسُلِ، ومُحَمَّدٌ آخِرُ الرُّسُلِ، وكلُّ واحدٍ منهما يقولُ: لا أقولُ لكم: عندي خَزائِنُ اللهِ، ولا أَعْلَمُ الغَيْبَ، ولا أقولُ: إنِّي مَلَكٌ، فمَنِ ادَّعَى أنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ من الغَيْبِ غيرَ ما عَلَّمَه اللهُ فهو كافِرٌ؛ لأَنَّه مُكذِّبٌ للهِ ورسولِه، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، وهنا أَمَرَ الرَّسُولَ أنْ يَقولَ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾، والرَّسُولُ قال ذلك لنا، فقد تَلَا علينا القُرْآنَ الَّذِي فيه هَذِهِ الآيةُ، إذن هُوَ قالها لنا: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام:٥٠]، يعني: ما أنا إِلَّا رسولٌ أَتَّبعُ ما يُوحَى إليَّ فَقَطْ، وإذا ادَّعَى مُدَّعٍ أنَّ الرَّسُولَ يَعْلَمُ الغَيْبَ فالحُكْمُ فيه أنه كَافِرٌ؛ لأَنَّه كَذَّبَ اللهَ وكذَّبَ رَسولَه؛ كَذَّبَ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، وكَذَّبَ الرَّسُولَ الذي قال: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾، فإذا ادَّعَى مُدَّعٍ أنَّ مَن دونَ الرَّسُولِ بمَراحِلَ يَعْلَمُ الغَيْبَ فهو أكفرُ وأكفرُ؛ لأنَّه إذا كَانَ الرَّسُولُ لا يَعْلَمُ الغَيْبَ فمَن دُونَه من بابِ أَوْلى، فلا يَعْلَمُ الغَيْبَ.

وبهذا نَعْلَمُ أنَّ ما يُطالِعُنا فِي بعضِ الصُّحفِ من أَنَّه سيكونُ فِي هَذَا العامِ كذا وكذا، فإن المُصَدِّقَ به كافرٌ؛ ولهذا جاءَ فِي الحَدِيثِ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**»[1]؛ لأَنَّه لا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ، وهذه من النِّعمةِ أننا نُؤْمِنُ بأنَّ هَؤُلاءِ الدَّجَّالينَ الَّذِينَ يَقولون: سيكونُ فِي هَذَا العامِ كذا وكذا. كذَّابون؛ إذ ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥] عَزَّوَجَلَّ،

(١) أخرجه أحمد (١٥/ ٣٣١، رقم ٩٥٣٦).

ولا أَحَدَ يُشارِكُه فِي هذا.

إذن في قولِه تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فهمنا من التَّوْحِيد قِسْمين: تَوْحِيدَ الأُلُوهيَّةِ، وأنه لا مَعبودَ حقٌّ إِلَّا اللهُ، وتَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ بأنَّ الَّذِي يَخْلُق ويَرْزُق ويُحْيِي ويُمِيتُ ويَعْلَمُ الغَيْبَ هُوَ اللهُ.

بَقِينا فِي توحيدِ الأسماءِ والصِّفَاتِ، وتَوْحيدُ الأسماءِ والصِّفَاتِ يَعرِفُه حتَّى العامَّةُ، فيَعْرِفُه كلُّ مَن قَرَأَ القُرْآنَ، فمَن قرَأَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٠]، فَهِمَ أن من أسماءِ اللهِ العَزِيزَ، ومن أسمائِه الحَكِيم، وأنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ بالعِزَّةِ، ومُتَّصِفٌ بالحكمةِ، وكلُّ مَن قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر:٢٠]، فَهِمَ أنَّ من أسماءِ اللهِ السَّميعَ، ومِن أسمائِه البَصِير، وأنَّ مِن أوصافِه السَّمْعَ والبَصَرَ. وكلُّ النَّاسِ عَلَى هَذَا.

ولكنْ من النَّاسِ مَنِ اجتالتْه الشياطينُ عن هَذِهِ الفِطرةِ، وقال: لا أَصِفُ اللهَ إِلَّا بما دَلَّ العقلُ عَلَى أنَّه يتَّصِفُ به، وأمَّا ما لم يَدُلَّ العقلُ عَلَى أنَّه مَوْصوفٌ به فلا أَصِفُ اللهَ به.

فمَرْجِعُ الصِّفَاتِ عندَ هَذَا الرَّجُلِ العقلُ، ولهذا يُثْبِتُ من الصِّفَاتِ ما شاءَ ويَنْفِي ما شاءَ، ويَتحَكَّمُ فيما يَجِبُ للهِ عَزَّوَجَلَّ من صِفاتِ الكمالِ فيقولُ: هَذِهِ صِفَةُ كمالٍ أُثْبِتُها للهِ، وهَذِهِ لَيْسَتْ صِفةَ كمالٍ فلا أُثْبِتُها للهِ، فيَرْجِعُ فِي أوصافِ اللهِ إِلَى عقلِه.

نَقولُ: فبأَيِّ عقـلٍ نَزِنُ ذلك؟ بعقلِ زَيدٍ أَمْ عُبيدٍ، أم بأيِّ عقـلٍ؟! ما أكثَرَ اضطرابَ العَقْلانِيِّينَ، وما أكثرَ اختلافَهم! يقولُ قائِلُهم[1]:

---

(١) البيتان للشهرستاني. نهاية الإقدام في علم الكلام (ص:٣).

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ المَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

فهم -أعني المُتكَلِّمِينَ الَّذِينَ حَكَّموا عُقولَهم فيما يَجِبُ للهِ عَزَّوَجَلَّ- مُضْطَرِبون أشدَّ اضطرابٍ فِي الدُّنيا، فالوَاحِدُ منهم بنفسِه يَضْطَرِبُ، فتَجِدُه فِي بَعْضِ كُتُبِه يقولُ: هَذَا الوصفَ ثابتٌ للهِ، واجبٌ له، وفي بعضِ كتبِه يقول: هَذَا الوصفُ لا يُوصَفُ اللهُ به.

صفة الاستواء:

وأَضْرِبُ لذلك مثلًا: جاءَ فِي القُرْآن فِي سبعةِ مَواضِعَ من كتابِ اللهِ ذِكْرُ الاستواءِ، والشَّيْءُ فِي كتابِ اللهِ يَثْبُتُ إذا جاءَ في مَوضعٍ واحدٍ؛ لأنَّ كلامَ اللهِ أصدقُ الكلامِ.

واستواءُ اللهِ عَلَى العرشِ جاءَ فِي سبعةِ مَواضِعَ من كتابِ اللهِ، منها: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

واسْأَلْ أيَّ واحدٍ عندَه علمٌ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، ولو قَلِيلًا، فقُلْ: ما مَعْنَى اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ؟ سيقولُ لك: معناه: عَلَا وارتفعَ عَلَى العرشِ.

وهل مِثْلُ هَذَا التركيبِ يأتي بهذا المعنى؟ يعني استوى عَلَى كذا، هل يأتي بمعنى: علا وارتفع؟

الجواب: نعم يأتي، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ

﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]، فمعنى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾: لتَعْلُوا عليه، ومعنى: ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾: إذا عَلَوْتُم عليه.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨] معناه: علوتَ عَلَى الفُلْكِ.

وكلُّ النَّاسِ يَعرِفونَ ذلك، والقُرْآنُ نَزَلَ بلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ بأيِّ لسانٍ؟ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وقال جلَّ ذِكرُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، أي لِتَفْهموه، فإذا فَهِمْناه عَلَى مُقْتضَى هَذَا اللسانِ العربيِّ صارتِ الكلمةُ واضحةً: استوى عَلَى العَرْشِ: علا عليه، واستقرَّ عليه، وارتفَعَ عليه.

لكن يَأْتِيكَ الرجلُ فيقولُ: إذن مَثَّلْتَ اللهَ بخَلْقِه، حيثُ جَعَلْتَ معنى (استوى عَلَى العرشِ) كالمعنى فِي قولِه: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣]، ما هُوَ (استوى) أي عَلَا عَلَى العرشِ وارْتَفَعَ.

أقولُ: لكن ما قلتُ: كاستواءِ الإِنْسَانِ عَلَى البَعيرِ، وفرقٌ بينَ إثباتِ أصلِ المَعْنَى وإثباتِ الكيفيَّةِ، فأنا ما أَثْبَتُّ كَيفيَّةً، فلو قلتُ: إنَّه استوى عَلَى هَذِهِ الكيفيةِ فهذا حرامٌ، يعني: أنا لا أَعْلَمُ الكَيْفيَّةَ، وقد قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

وانظروا إِلَى قِصةٍ وَقَعَتْ من إمامٍ من أَئمَّةِ المُسْلِمِينَ، وهو الإمامُ مالكٌ إمامُ دارِ الهِجْرةِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كانَ فِي مَجْلِسِهِ، فقامَ رَجُلٌ وقال: يا أبا عبدِ الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، كيفَ اسْتَوَى؟

فما قالَ: ما مَعْنَى اسْتَوَى، ولكن قالَ: كيفَ اسْتَوَى، فسألَ عن الكَيفيَّةِ.

فخَجِلَ مالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هَذَا السُّؤالِ، واستحيا من الربِّ أنْ يُسْأَلَ عن كَيفيَّةِ صِفاتِه، فأَطْرَقَ برأسِهِ حتَّى عَلَتْهُ الرُّحَضَاءُ -والرُّحَضاءُ: العَرَقُ، وعَلَتْه أي: صَارتْ تَتَصَبَّبُ منه من شِدَّةِ ما وَقَعَ عَلَى قلبِه من السُّؤالِ- ثمَّ رفَعَ رأسَه وقال قولتَه المَشْهورةَ الَّتِي تَستحِقُّ أنْ تُكْتَبَ بماءِ الذَّهَبِ، بأطرافِ الأصابعِ، لا بِرِيشِ الأقلامِ، قال: «الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أُرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا» فأمرَ به فأُخرِجَ منَ المَسْجِدِ[١].

«الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ» يعني أَنَّه مَعْلومٌ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ؛ استوى عَلَى كذا أي: علا وارتفَعَ عليه، «والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» ما نَتحكَّمُ فيه بِعُقولِنا، وليسَ هناك دليلٌ شرعيٌّ عليه، ولا يمكِنُ أن يُكَيَّفَ.

«وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ»، أي: بالاستواءِ؛ لأنَّ اللهَ أخبرَ به عن نفسِه، «وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ» فالصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لما نَزَلَتِ الآيةُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ما قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كيفَ اسْتَوَى.

والقاعدةُ الهامَّةُ: كلُّ سُؤالٍ يَتعلَّقُ بِصِفاتِ اللهِ لم يَسْأَلْ عنه الصَّحَابَةُ فالسُّؤالُ عنه بِدْعَةٌ.

---

(١) أخْرَجه أبو نُعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبَيْهقي في الأسماء والصِّفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

وكذلك: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا»[(١)]. إذا قال: كيفَ يَنْزِلُ، فهَذَا الكلامُ بِدْعَةٌ؛ لأنَّ الصَّحَابَةَ ما سألوا عنه.

وكذلك: يأتي اللهُ للقَضاءِ بينَ عِبادِه، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفَجْر:٢٢]، إذا قال: كيفَ يَجِيءُ؟ فهو بِدْعَةٌ، فما سَأَلَ عنه السابقونَ من الصَّحابَةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وهم أَحْرَصُ منَّا عَلَى العِلْمِ، وأَتْقَى منَّا لله، هَذِهِ واحدةٌ.

أيضًا السُّؤالُ عنه بِدْعَةٌ؛ لأنَّ دَيْدَنَ أهلِ البِدَعِ أنهم دائمًا يَسْأَلُونَ عن كَيْفِيةِ الصِّفَاتِ من أجلِ أن يُحْرِجوا أهلَ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُثْبِتُونها، فصارَ معنى قوله: (بِدْعَة)، له وجهانِ:

الوجه الأَوَّل: أَنَّه مُبْتَدَعٌ لم يَسْأَلْ عنه الصَّحَابَةُ.

والثَّاني: أنه دَيْدَنُ أهلِ البِدَعِ؛ فهم الَّذِينَ يَسْألون عن كَيْفيةِ صِفاتِ اللهِ.

ولهذا قالَ بعضُ السَّلفِ من عُلماءِ هَذِهِ الأُمَّةِ: إذا قالَ لكَ الجَهْميُّ -والجَهْمية مُعَطِّلَةٌ يُنكِرونَ الصِّفَاتِ-: إنَّ اللهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّماءِ الدُّنيا فكيفَ يَنزِلُ؟ فقُلْ له: كيفَ هُوَ في ذاتِه؟ فهو ما يُستَطِيعُ أن يُكيِّفَ، سيقولُ: لا عِلمَ لي بكيفيَّةِ ذاتِه، فقلْ له: أنا لا عِلْمَ لي بكَيفيَّةِ صِفاتِه؛ لأنَّ العِلْمَ بكيفيةِ الصِّفَاتِ فرعٌ عن العِلْمِ بكيفيَّةِ الذاتِ، فإذا كنَّا لا نَعْلَمُ كيفيةَ ذاتِه فلا يُمْكِنُ أن نعلمَ كَيْفيةَ صفاتِه[(٢)].

وقال آخَرُ من عُلماءِ أهلِ السُّنَّة، وهم عُلماءُ السَّلَفِ: إذا قالَ لكَ الجَهْمِيُّ:

(١) أخْرَجه البخاري: كتاب التَّهجُّد، باب الدعاء في الصلاةِ من آخِرِ الليل، رقم (١١٤٥)، ومُسْلِم: كتاب صَلاة المُسافِرينَ وقصرها، باب التَّرْغيب في الدُّعاء والذِّكْر في آخِرِ الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

(٢) الفتوى الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص:٥٤٤).

كيفَ اسْتَوَى؟ فقُلْ له: إنَّ اللهَ أَخْبَرَنا أَنَّه اسْتَوَى، ولم يُخْبِرْنا كيفَ اسْتَوَى[(١)].

فهذه كلِماتٌ يَسِيرةٌ من السَّلَفِ فيها خيرٌ وبركةٌ، فالأَوَّلُ اسْتَدَلَّ عليه اسْتِدْلالًا عَقْليًّا، والثَّاني استدلالًا سَمْعيًّا.

فالأَوَّلُ الَّذِي قالَ: اسْأَله: كيفَ هُوَ بذاتِه؟ اسْتَدَلَّ بالعَقْلِ عَلَى نَفْيِ العِلْمِ بالكيفيَّةِ، قالَ: الَّذِي لا تَعْلَمُ كَيْفيَّةَ ذاتِه لا يُمْكِنُ أن تَعْلَمَ كَيْفيةَ صِفاتِه عَقْلًا، والثَّاني استدلَّ استدلالًا سَمْعيًّا بالنصِّ، قالَ: أَخْبَرَنا أَنَّه اسْتَوَى، ولم يُخْبِرْنا كيفَ استوى. فعَدَمُ إخبارِه بكيفيَّةِ الاستواءِ يعني أَنَّه غيرُ مَعْقولٍ لنا.

أيضًا هناكَ نُقطةٌ ثانيةٌ نُضيفُها إِلَى ما قاله الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ وهي أن السُّؤالَ عن كيفيَّةِ الاستواءِ مَعَ كونِه بِدْعَةً فهو منَ التَّنطُّعِ فِي دِينِ اللهِ، أي: التعمُّقِ فِي الدِّينِ، والتَّعَمُّقُ فِي الدِّينِ والسُّؤالُ عَمَّا لم تُخْبَرْ عنه هَذَا هلاكٌ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**»[(٢)].

وهذا يَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ خَبَرًا، وأن يَكونَ دُعاءً، وعلى كلِّ حالٍ فهو تَحْذِيرٌ منَ التنطُّعِ فِي دينِ اللهِ، فاجعلِ الأُمورَ عَلَى ظَاهِرِها.

ويُذْكَرُ أنَّ أميرَ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ خَرَجَ فِي رَكْبٍ فِيهِمْ عَمْرُو ابْنُ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَتَّى وَرَدُوا حَوْضًا، فَقَالَ عَمْرٌو: «يَا صَاحِبَ الحَوْضِ، هَلْ تَرِدُ حَوْضَكَ السِّبَاعُ؟». فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: «يَا صَاحِبَ الحَوْضِ، لَا تُخْبِرْنَا»[(٣)]؛

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بِدَعهم الكلامية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٣٠٥) ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هَلَكَ المُتَنطِّعون، رقم (٢٦٧٠).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٣).

لأنَّ السُّؤالَ عن ماءِ الحوضِ تَنطُّعٌ.

وعلى هَذَا إذا أصَابَكَ ماءٌ فلا تَقُل: هَذَا ماءُ مَجَارٍ، قد يَكونُ مَاءَ مَاسُورةٍ مُنكَسِرَةٍ، فلا تَشُكَّ، ولا تَسْأَلْ، ولا تَبْحَثْ، فإذا أَصَابَكَ ماءُ مِيزابٍ من فَوْقُ فإنه يَحتمِلُ أن أَحَدَ الصِّبْيانِ بالَ فِي المِيزابِ وخَرَّ، ويَحتَمِلُ أن السَّطْحَ غُسِلَ فخَرَّ، ويَحْتَمِلُ أنَّ هناك ضبابًا تَكَثَّفَ فخَرَّ، كلُّ هَذَا مُحتمَلٌ، فلا تَسْأَلْ إذا أصابَكَ مَاءُ المِيزابِ ولا تَطْرُقْ بَابَ صَاحِبِ البَيْتِ وتقول: يا فُلَانُ، أصابني ماءٌ من مِيزَابِك فهل هُوَ نجِسٌ أو لا.

إذن: لا تَنَطَّعَ فِي دِينِ اللهِ؛ لا فِي الأُمورِ الخَبَرِيَّةِ، ولا فِي الأُمورِ الحُكميةِ، فسَلِّم واسْتَسْلِمْ، ولا تَسْتفسِرْ.

وما عاقبةُ التنطُّع؟

انْظُر إِلَى قِصَّةِ بني إسرائيلَ؛ قتلوا نَفْسًا بغيرِ حقٍّ، قَبِيلةٌ قَتَلَتْ رَجُلًا من قبيلةٍ، فادَّارءوا فيها، فجاءوا إِلَى مُوسَى، فقال: اذْبَحُوا بَقَرةً، واضرِبُوا القتيلَ ببعضِ البقرةِ، وسيَتبَيَّنُ لكم مَن هُوَ القتيلُ. سُبْحَانَ اللهِ! أرأيتُم لو أنَّهم ذَبَحُوا بَقَرةً؛ أيَّ بقرةٍ كانتْ، وضَرَبُوا القتيلَ ببعضِها، فإنه يَحْصُلُ المقصودُ، لكن تَعمَّقوا فَهلَكوا، وتَشَدَّدوا فشَدَّدَ اللهُ عليهم، ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ [البقرة:٦٨] كبيرةٌ أو صغيرةٌ، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [البقرة:٦٨]، فما فعَلُوا.

جاءَ سُؤالٌ آخرُ: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾، الآن عرَفْنا السِّنَّ أنها بينَ الفَارِضِ والبِكْرِ، لكنْ نُرِيدُ اللونَ !! اذْبَحوا بقرةً لونُها أسودُ أو أبيضُ،

وما عليكم، قَالُوا: لا، لا بدَّ أن نُعيِّنَ اللَّوْنَ ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة:٦٩]، ثلاثةُ أوصافٍ، فما قالَ: بَقَرَةٌ صَفْراءُ فقَط، بل فَاقِعٌ لَوْنُها؛ شَدِيدُ الصَّفارِ، وليستْ قَبِيحةً بل تَسُرُّ الناظرينَ، وهذا تَشْدِيدٌ، فلو قِيلَ لهم: إنها بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ أو سَوْدَاءُ أو بَيْضاءُ لكانَ أَيْسَرَ، لكنْ شَدَّدَ عليهم، فجَعَلَها صَفْراءَ فاقعًا لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ.

فبَقِيَ سُـؤالٌ: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ مـا عَمَلُها؟ هـل هي حَلُوبٌ أو وَلُودٌ؟ قالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾، ما تَشابَهَ عليهم، لكنهم كَذَبَةٌ ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾، مُسَلَّمَةٌ من كلِّ عيبٍ، وما فيها أيُّ عَيبٍ، وبعدَ ذلك: ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾، فانظُر الحُكْم بالعَقْل، وكأنه قبلَ ذلك ما جاءَ بالحقِّ. أعوذُ باللهِ! وكأنَّهم هم الَّذِينَ يَحْكُمونَ.

فهل بعدَ ذلك ذَبَحُوها بانقيادٍ، وانشراحٍ، وانبساطٍ، ومُسارعةٍ؟

الجواب: لا ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة:٧٠-٧١]. وهَذَا كُلُّه نَتيجة التنطُّعِ والتشديدِ.

ولهذا إذا تَنطَّعَ الإِنْسَانُ حتَّى فِي الوُضوءِ، زادَ عليه الشرُّ وانْفَتَحَ عليه بابُ الوَسَاوِسِ، ثمَّ صارَ يَغسِلُ العُضْوَ ثلاثَ مَرَّاتٍ فيقولُ: ما تَمَّ غَسْلُه، ويُكَرِّرُ ويقولُ: ما تَمَّ غَسْلُه؛ لأنَّه إذا شَدَّدَ إِنْسَانٌ شَدَّدَ اللهُ عليه، سواءٌ كانَ التشديدُ شَرْعِيًّا أو قَدَرِيًّا، فمتى شَدَّدْتَ عَلَى نَفسِكَ فإنَّ اللهَ سيُشَدِّدُ عليكَ، فخُذْ بالأسهلِ والأيسرِ.

ولهذا كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يُخَيَّرُ بينَ شَيئينِ إِلَّا اختارَ

أَيْسَرَهُما، ما لم يَكُنْ إثمًا[١]، فإنْ كانَ إثمًا كانَ أبعدَ النَّاسِ عنه.

فأقولُ: إن الَّذِي يَسْأَلُ عن كَيفيَّةِ صِفاتِ اللهِ مُتَنَطِّعٌ، والواجبُ فِي هَذِهِ الأُمورِ الخَبَرِيَّةِ الغَيْبيَّةِ التسليمُ التامُّ، وألَّا نَسْأَلَ عمَّا سِوَى ذلك.

إذن نُثبِت أنَّ معنى قولِه تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، أي: علا وارتفعَ، بدُونِ تمثيلٍ، وبدونِ تكييفٍ، ونَحْنُ نَشهَدُ أنَّ علوَّ اللهِ عَلَى عَرْشِه لَيْسَ كعلوِّ الإِنْسَانِ عَلَى البَعيرِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]. ونحن نَقِفُ فلا نُكيِّفُ صِفاتِ اللهِ؛ لأننا لم نَعْلَمْ عن كَيْفيةِ صفاتِه.

ثمَّ إن أيَّ كيفيَّة تقدِّرها فِي ذِهنك، أو تَنطِق بها بلسانِك، فأنت كاذِبٌ؛ لأنَّه ما عندَك عِلْمٌ.

ومِنَ التنطُّعِ أنَّ بعضَ النَّاسِ حين آمنَ وصدَّقَ وسلَّمَ بأنَّ اللهَ يَنزِلُ إِلَى السَّماءِ الدُّنيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ؛ كما ثَبَتَ ذلك بالأحاديثِ العديدةِ الَّتِي عدَّها بعضُ العُلَماءِ من المُتواترِ: «**يَنْزِلُ رَبُّنا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»[٢]. بعضُ النَّاسِ قال: إنَّ اللهَ يَنزِلُ إِلَى السَّماءِ الدُّنيا فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ، وثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَتنقَّلُ من قارةٍ إِلَى أُخْرَى، فكيفَ تكونُ الحَالُ؟

---

(١) أخْرَجه البخاري: كتاب المَناقِبِ، باب صِفَة النبي ﷺ، رقم (٣٥٦٠)، ومُسْلم: كتاب الفَضائل، باب مُباعَدتِه ﷺ للآثامِ واختيارِه من المُباح أسْهلَه، رقم (٢٣٢٧).

(٢) أخْرَجه البخاري: كتاب التَّهَجُّد، باب الدعاء في الصلاة من آخِرِ الليل، رقم (١١٤٥)، ومُسْلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدُّعاء والذِّكْر في آخِرِ الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

فجَوَابُنا عَلَى هَذَا أن نَقولَ: اتْرُكْ هَذَا التقديرَ، إنَّ اللهَ لَيْسَ كمِثْلِه شيءٌ، فهل نُزولُ اللهِ إلَى السَّماءِ الدُّنيا كنُزولِنا نَحْنُ إلَى الدَّورِ الثَّاني؟! فنقولُ:

أولًا: سُؤالُك هَذَا بِدْعَةٌ وتَنطُّعٌ، فكلُّ مَن سَأَلَ عن كيفيَّةِ صِفَةٍ من صِفاتِ اللهِ فهو مُبتَدِعٌ ومُتنطِّعٌ.

ثانيًا: إنَّ اللهَ لَيْسَ كمِثْلِه شيءٌ، فلَيْسَ نُزولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إلَى السَّماءِ الدُّنيا كنزولِ الإِنْسَانِ إلَى الدَّوْرِ الثَّاني من السَّطحِ، بل هُوَ نُزولٌ يَليقُ بجَلالِه وعَظَمتِه، ولا نُكَيِّفُه ولا نُمَثِّله؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ويَقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

ويَقولُ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

ويقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

إذن ما وَاجِبُنا نحوَ آياتِ الصِّفَاتِ وأحاديثِ الصِّفَاتِ؟

وَاجِبُنا أن نَسْلُكَ ما سَلَكَه أسلافُنا من الصَّحَابَةِ والتابعينَ لهم بإحسانٍ، فنُمِرَّها كما جاءتْ بلا كَيْفٍ؛ كما تَوَاتَرتْ هَذِهِ الكلِمةُ عن السَّلَفِ.

وقولُنا: نُمِرُّها كما جاءتْ أي: بمَعْنًى بلا كَيْفٍ، فما نُكَيِّفُ، وبلا تَمْثِيلٍ، فلا نُمَثِّلُ؛ لأنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

فنحن نُمِرُّها عَلَى أنها ألفاظٌ ذاتُ مَدْلولٍ مَعْنوِيٍّ، ونُؤْمِنُ بما دَلَّتْ عليه من المَعْنَى، لكن يَجِبُ أن نَتبرَّأَ من التمثيلِ، وأن نَتبرَّأَ من التكييفِ، وبهذا نَسْلَمُ.

فلو قُلْنا فِي قولِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا». يعني: يَنزِلُ أمرُه، فإنَّ اللهَ سَيَسْأَلُنا عن ذلك يومَ القيامةِ، يقولُ: كيفَ تَقولُ: يَنزِلُ أمرُه ونَبِيِّي ورَسُولِي إليكَ يقولُ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا؟». فلن تَقْدِرَ أن تُجِيبَ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، فلا تَستطِيعُ أَنْ تَقولَ: إنَّ المرادَ نُزُولُ أمرِه عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بلَّغَ البلاغَ المُبِينَ، وقال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ»، فهل (الأمر) يقولُ: مَن يَدْعُونِي فأَسْتَجِيبَ له؟! وهل الأَمْرُ يَنزِلُ إِلَى السَّماءِ الدُّنيا ويُدبِّرُ الأمرَ من السَّماءِ إِلَى الأرضِ؟! يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة:٥].

إذن نَحْنُ نَقولُ: يَنزِلُ ربُّنا عَزَّوَجَلَّ ولكنْ لا نُكَيِّفُ هَذَا النزولَ، ولا نَقولُ: كنُزُولِنا من السَّطحِ إِلَى الدَّورِ الثَّاني مثلًا، ولا نُمثِّلُ هَذَا النُّزولَ فنَقولَ: كنُزولِنا من السَّطْحِ إِلَى الدَّوْرِ الثَّاني، ولا نُكَيِّفُه فنُقَدِّرَ له كيفيَّةً مُعيَّنةً، لا بعُقولِنا ولا بألسنتِنا؛ لأنَّ اللهَ يَقـولُ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. ثمَّ أيُّ شيءٍ تُقَدِّرُه فِي ذِهْنِكَ أو تَنْطِقُ به بلِسانِكَ فهو كذِبٌ فِي كيفيَّةِ صفاتِ اللهِ.

إذن يَجِبُ علينا أن نَقِفَ مَعَ النصوصِ، وأن نُؤمِنَ بها عَلَى مُرادِ اللهِ ورسولِه، وأَلَّا نُكيِّفَ فِي صفاتِ اللهِ، ولا نُمثِّلَ، ولا نَسْأَلَ عن الكيفيَّةِ أيضًا، وسؤالُنا عن الكيفيةِ بِدْعةٌ، كما قالَه الإمامُ مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ، وجَرَى عَلَى ذلك جميعُ السَّلَفِ، فجميعُ العُلَماءِ بعدَه جَرُوا عَلَى هَذَا، وقَالُوا: يَنْبَغِي أن يَكونَ كلامُ مالِكٍ مِيزانًا لجميعِ الصِّفَاتِ، فنقولُ فيها: هِيَ مَعْلومةُ المَعْنَى، مَجْهولةُ الكَيْفيَّةِ.

فسِرْ عَلَى هَذَا تَحْصُلْ لكَ السَّلامةُ من سؤالِ اللهِ يومَ القيامةِ؛ لأنَّ اللهَ سوفَ يَسأَلُك: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٦٥]. ولا يُمْكِنُ أن تُحَكِّمَ عَقْلَكَ فِي أُمورٍ غَيْبيَّةٍ لا تُحِيطُ بها؛ لأنَّ صفاتِ اللهِ لا تُقاسُ بِصِفاتِ المَخْلُوقِينَ.

ولهذا قالَ العُلَماءُ: إنَّ الشَّيْءَ لا يُمكِنُ أنْ تَعرِفَ كَيْفِيَّتَهُ إلَّا بوَاحِدةٍ من أمورٍ ثَلاثةٍ: مُشاهَدتِه، أو مُشاهَدةِ نَظيرِه المساوي له، أو الخَبَرِ الصَّادِقِ عنه، فأنا مثلًا إذا شاهدتُ (المُسَجِّلَ) عرفتُ كَيْفِيَّتَه بطريقِ المُشاهَدةِ، فإذا لم أُشاهِدْه لكن شاهدتُ نظيرًا له بيدِ إِنْسَانٍ آخرَ فهذه مُشاهدةُ نَظِيرٍ، وإذا وَصَفَه لي رَجُلٌ صَادِقٌ فهذا بالخبرِ الصادِقِ.

وهل صِفاتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حَصَلَ فيها واحدٌ من هَذِهِ الثَّلاثةِ؟

الجواب: لا، فلا شُوهِدَتْ ولا شُوهِدَ لها نَظِيرٌ، وليسَ مَعَنا خَبَرٌ صَادِقٌ أنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخبَرَنا بكذا ولم يُخْبِرْنا بكذا، فالأَمْرُ وللهِ الحمدُ واضحٌ.

والخُلاصةُ: أنَّه يَنْبَغِي للإِنْسَانِ فيما يَتعلَّقُ بآياتِ الربِّ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَكُونَ مُعظِّمًا للهِ، فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو الجلالِ والإِكْرامِ، فتكونُ مُعظِّمًا لربِّك، قائمًا بعبادتِه، مُصَدِّقًا بأخبارِه، مُؤمنًا باللهِ وملائكتِه، وكُتبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خيرِه وشرِّه.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدَّرسُ الثَّالِث:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [مُحَمَّد:٣٥].

نَهَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ عِبادَهُ المُؤْمِنينَ أَنْ يَلْحَقَهُمُ الوَهَنُ، وهوَ ضَعْفُ العَزيمَةِ والهمَّةِ، وأَنْ يَدْعُوا للسَّلْمِ، أيْ: مُسَالَمَةِ الكُفَّارِ وهمُ الأَعْلَوْنَ، فالأَعْلَى لَا يَنْبَغِي لَه أَنْ يَطْلُبَ المُسالمَةَ مَعَ الأَدْنَى، إِنَّما يَكونُ طَلَبُ المُسالمَةِ عندَ التَّكافُؤِ أَوِ الضَّعْفِ، أَمَّا مَعَ العُلُوِّ فَلَا يَنْبَغِي إِطْلَاقًا، بَل لَا يَجُوزُ أَنْ يَدعُوَ الإِنْسَانُ إلى السَّلْمِ؛ لِأَنَّهُ الأَعْلَى، كَلِمتُهُ هِيَ النافِذَةُ، وَسُلْطتُهُ هِيَ المُهَيْمِنةُ، أَمَّا مَعَ الضَّعفِ أَوِ العجزِ فَلَا بَأسَ بِالمُسالمَةِ.

وَلِهَذَا صَالحَ النَّبِيُّ ﷺ قُرَيْشًا عَلَى الهُدْنَةِ لمُدةِ عَشْرِ سِنِينَ، وَأَقَرَّ ذلكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. لكنْ مَعَ القُوَّةِ وكونِ المُسْلِمِينَ هُمُ الأَعْلَيْنَ، لَا تَجُوزُ الدعوةُ لِلمُسَالمةِ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: مَتى يَكونُ المُسْلِمُونَ همُ الأَعْلَيْنَ؟

قُلْنَا: إذَا تَمَسَّكوا بِدِينِ اللهِ؛ لِأَنَّهمْ لَنْ يَعلُوا إِلَّا بعُلُوِّ الدِّينِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة٣٣]، أَمَّا مَعَ تَخاذُلِهِمْ وبُعْدِهمْ عَن كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، وتَحْكِيمِهمُ القَوانِينَ الوَضعيَّةَ، مُقَدِّمِينَ إِيَّاها عَلَى حُكْمِ اللهِ ورَسُولِهِ ﷺ فَلَنْ يُكْتَبَ لَهمُ النصرُ؛

لِأَنَّ اللهَ إِنَّما وَعَدَ بالنصرِ مَن يَنْصُرُهُ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١].

فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ المُسْلِمُونَ همُ الأَعْلَيْنَ إِلَّا إذَا تَمَسَّكُوا بِكِتَابِ اللهِ؛ عقيدةً، وقولًا، وعملًا، وَمَنهجًا، وسُلوكًا، وحَكَّمُوا كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِهِ ﷺ فِي القَرِيبِ والبَعِيدِ، والغنيِّ والفقيرِ، والشريفِ والوَضيعِ.

أَمَّا المُسْلِمُونَ فَتَراهمْ مُتفرِّقونَ وَمُتَشتِّتونَ، يَكرهُ بعضُهُمْ بعضًا، تَحْسَبُهم جَمِيعًا وقُلُوبُهمْ شَتَّى، فهَؤُلاءِ لَنْ يُكْتَبَ لَهمُ النصرُ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ، فقدْ يَنْصُرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ يَتَخاذَلُ عَن دِينِهِ امتحانًا للآخَرِينَ، كَما نُصِرَ الكُفَّارُ فِي أُحُدٍ وفي حُنَينٍ، ولكنْ كَانتِ العاقبةُ لِلْمُؤمنينَ -وللهِ الحَمْدُ-.

فَقَيَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ النَّهيَ عنِ الوهنِ والدعوَةِ إِلَى السَّلْمِ بِشَرطِ أَنْ نَكونَ نَحنُ الأَعْلَيْنَ، ولَنْ نكونَ الأَعْلَيْنَ إِلَّا إِذَا تَمَسَّكْنَا بِالدِّينِ؛ لِأَنَّ العُلُوَّ إِنَّما هُوَ لِلدِّينِ، فإِذَا كنَّا مُتمسِّكينَ بِالدِّينِ صِرْنَا الأَعْلَيْنَ، وحِينَئِذٍ لَا يَنْبَغِي لَنَا، وَلَا يَلِيقُ بنا أَنْ نَدْعُوَ إِلَى السَّلْمِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾، يكونُ اللهُ مَعَ الإِنْسَانِ إِذَا كَانَ قائمًا بأمرِ اللهِ، مُؤمنًا، تَقِيًّا، صَابِرًا، مُحْسِنًا، إلى آخرِ الأوصافِ الَّتِي ذَكَرَها اللهُ تَعالَى مُقَيِّدةً للمَعيَّةِ.

معية الله عَزَّوَجَلَّ:

قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

وَقَالَ أيضًا: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، والآياتُ فِي هَذَا المَعْنَى كثيرةٌ.

واعْلَمْ أنَّ مَعِيَّةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي القُرْآنِ الكريمِ عَلَى أقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: الإِحاطةُ.

كَقَولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧]، وَفِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، هَذِهِ مَعِيَّةٌ عَامَّةٌ تَشْمَلُ جَمِيعَ الخَلقِ، ومُقْتَضاها الإحاطةُ بِالخلقِ؛ عِلْمًا وقُدْرةً، وسُلطانًا، وسَمعًا، وبَصرًا وغير ذَلِك مِن معاني رُبُوبيَّتِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى نُسَمِّي هَذِهِ المَعِيَّةَ المَعِيَّةَ العامَّةَ الَّتِي مُقْتَضاها الإحاطَةُ.

القِسْمُ الثَّانِي: النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ.

وهَذِهِ قُيِّدَتْ تَارةً بِأَوصافٍ، وتَارةً بِأَعيانٍ وأَشْخاصٍ مُعَيَّنِينَ، مِثَالُ الأَوَّلِ: قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، وَقَولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]، لَم يَذْكُرِ اللهُ شَخْصًا مُعَيَّنًا كَانَ اللهُ مَعهُ، بل أَطْلَقَ، وكلُّ مَن كَانَ مَوصوفًا بِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَاللهُ تَعَالَى مَعَهُ نَصْرًا، وتَأْييدًا، وتَثبيتًا، وهِدَايَةً.

والثَّانِي: مُقَيَّدَةٌ بِأشخاصٍ، مِثَالُ ذلكَ: قَولُهُ تَعَالَى لِمُوسَى وهارونَ: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، فَهَذِهِ مَعِيَّةٌ مُقَيَّدَةٌ بمُوسَى وهَارونَ - عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ -، وَكَقولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، مَعَ هَذَيْنِ الاثنَيْنِ هَذِهِ مُقَيَّدَةٌ بِأَشْخاصٍ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: الوعيدُ والتَّهديدُ.

كَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ

يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]، فَهُنا المَعِيَّةُ تَقْتَضِي الوَعِيدَ وَالتَّهديدَ، وَأَنْ يَخافُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهم وإِنْ بَيَّتوا مَا يُبَيِّتون منَ القولِ، وخَفِيَ عَلَى النَّاسِ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: كيفَ يَصِحُّ أَنْ نَقولَ: إنَّ اللهَ معنَا، وهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَوْقَ العرشِ؟ قُلْنَا: لَا إِشْكالَ؛ لِأَنَّنَا نُثْبِتُ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفسِهِ، ونَعْلَمُ أَنَّه حَقٌّ، وأَنَّه لَا تَناقُضَ بَيْنَ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عنْ نَفْسِهِ أَو غيرِه؛ لِأَنَّهُ مِنْ عندِ اللهِ، فنَقولُ: أَثبتَ اللهُ تَعَالَى أَنَّه مَعَ خَلْقِهِ بهَذِهِ الآياتِ، وأَثْبتَ أَنَّه فَوْقَ عَرشِهِ، فَنُؤمنُ بِأَنَّه فوقَ عرشِهِ، وأَنَّه مَعَ خَلقِهِ، لكنْ لَا بِذَاتِه، كَمَا يَقُولُهُ الحُلوليَّةُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّ اللهَ مَعَ الخلقِ بذَاتِه، وفِي كُلِّ مكانٍ، فإنَّ هَذَا لا شَكَّ أَنَّه باطلٌ، ولَا مَانعَ منْ أنْ يَكونَ الشيءُ عاليًا، ويُقالَ: إِنَّهُ مَعَكَ.

وضَرَبَ شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِذَلِكَ مثلًا فِي كِتابِهِ (العَقِيدَةِ الوَاسِطِيَّةِ)، قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَيْسَ معنَى قَوْلِهِ: ﴿مَعَكُمْ﴾ أَنَّه مُخْتَلِطٌ بِالخلقِ، فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللغةُ العربيَّةُ، وإذَا كَانتْ لَا تُوجِبُهُ اللغةُ العربيَّةُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَمْتَنِعُ غاية الامتناعِ أَنْ يَكونَ مُخْتَلِطًا بالخلقِ؛ لِأَنَّهُ فوقَ سَماواتِهِ»[1].

ثُمَّ ضَرَبَ لهَذَا مَثَلًا بِالقمرِ، فَالقَمَرُ مِنْ أَصْغَرِ آياتِ اللهِ الفَلَكِيَّةِ، ومعَ ذَلكَ يُقالُ: إِنَّه مَعَ المُسافِرِ، ويَقُولُ القائلُ العربيُّ: مَا زِلْنا نَسِيرُ والقمرُ معَنَا، ومرَادُهُ أَنَّهُ يَصْحَبُنا وهوَ فِي السَّماءِ، فإذَا كَانَ هَذَا مُمْكِنًا فِي المَخْلوقَاتِ، فَإِمكانُه فِي الخالقِ مِن بابِ أَوْلَى؛ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعظمُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ شَيْءٌ منْ مَخْلوقاتِهِ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّ اللهَ معنَا بِذَاتِهِ فِي الأرضِ. فإنَّهُ يَسْتلزِمُ أَنَّ الرجلَ إِذَا دَخل

---

(١) العقيدة الواسطية (٨٣-٨٤).

المِرحاضَ أن يَكونَ اللهُ مَعَهُ فِي المِرْحاضِ -والعِيَاذُ بِاللهِ- وَالَّذِينَ يَقُولونَ بِهَذَا عَلَى ضَلالٍ بَيِّنٍ، ويَجِبُ علَيْهم أَنْ يَتُوبوا إِلَى اللهِ، وأَنْ يَرْجِعوا عنْ هَذَا القولِ الخاطِئِ الضَالِّ، ولَوْ قُلنا هَذَا القولُ يَسْتلزِمُ علَيْه أَيْضًا منَ اللوازِمِ البَاطلَةِ أَنْ يَكونَ اللهُ تَعَالَى فِي المسجِدِ مَعَ الَّذِينَ فِي المَسْجِدِ، وَفِي السُّوقِ مَعَ الَّذِينَ يَبِيعونَ وَيَشْترونَ، وفِي المَجْزَرَةِ مَعَ الجَزَّارِينَ، وَفِي الزَّبائلِ مَعَ الكَنَّاسِينَ، وهَذَا قولٌ بَاطلٌ منْ أَبْطلِ مَا يَكونُ.

فَالواجبُ عَلَى مَنْ يَعْتقِدُ هَذَا أَنْ يَتوبَ إِلى اللهِ قَبلَ أَنْ يَفْجَأَهُ الموتُ وهُو عَلَى هَذِهِ العَقيدَةِ الباطلةِ، ولَا يَستطِيع أَنْ يَتخلَّصَ بِجَوابٍ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعلَيْه أَنْ يُقْلِعَ عنْ هَذِهِ العَقيدةِ الباطلَةِ، الَّتِي يَشْهَدُ بِبُطلانِهَا الكتابُ والسُّنَّةُ والعقلُ، وأَنْ يَرْجِعَ إلى اللهِ، وأَنْ يَقُولَ: سُبْحانكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ، وأَن يَعْتقِدَ أَنَّ اللهَ تَعالَى لَا يَلِيقُ به أَنْ يَكونَ كَما تَصوَّرَ مِنْ هَذَا المَعْنَى البَاطِلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، أَيْ لَن يَنْقُصَكم منْ أَعْمالِكمْ، فكُلُّ مَا عَمِلَهُ الإِنْسَانُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَجِدَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، كُلُّ عملٍ عَمِلهُ الإِنْسَانُ سيَجِدُهُ، وسيُثابُ علَيْه، الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أمثالِها إِلى سَبعِ مِئَةِ ضِعفٍ، إلى أَضْعافٍ كثيرةٍ، والسيِّئَةُ بِمِثْلِهَا، سَواءٌ كَانتْ فِي الحَرَمِ، أَوْ خَارجَ الحرمِ.

ومنِ اعْتَقَدَ أَنَّ السَّيئاتِ تُضاعَفُ فِي مَكَّةَ كَما تُضاعفُ الحسناتُ، فقدْ أَخطأَ خطأً عَظيمًا، فالسَّيِّئَةُ بمَكَّةَ وغَيْرِها لَا تُضَاعَفُ، ودَليلُهُ قَولُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن جَآءَ

بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]، هَذِهِ الآيةُ فِي آخِرِ سُورةِ الأنعامِ، وهيَ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ قَبل أَنْ يُهاجِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ، فإذا كَانَت هَذِهِ السُّورةُ نَزَلت بمَكَّةَ واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، عَلِمنا أَنَّ السيِّئةَ لَا تُضاعفُ فِي مَكَّةَ، لَكِنها أَشدُّ عُقُوبةً، يَعْني أنَّ العُقوبَةَ عَلَى السيِّئةِ بِمَكَّةَ أشدُّ مِنَ العقوبَةِ عَلَى السيِّئةِ فِي غَيْرِ مَكَّةَ، وهَذَا مُضاعفةٌ بِالكَيْفيَّةِ، يَعْني: لَا يُمْكِنُ أَنْ تكونَ السيِّئةُ بِالسَّيئتينِ، لَكن تَكونُ بسَيِّئَةٍ مِثْلِها، إِلَّا أَنَّها أشدُّ.

وأمَّا مَا يُرْوَى عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه خَرجَ منْ مَكَّةَ إلى الطائفِ، وَقَالَ: لَا أَبْقَى فِي بَلَدٍ سِيِّئاتُهُ وحَسَناتُهُ سَواءٌ، فَهَذَا لَا يَصِحُّ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فهُو أَفْقهُ مِن أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْهِ هَذَا الأمرُ مَعَ وُضُوحهِ وبَيَانِه.

فَيَجِبُ عَلَيْنا تَدبُّرُ القُرْآنِ، وتَفهُّمُ مَعانيهِ؛ لِأَنَّ القُرْآنَ لَم يَنزِلْ لِيُتلَى فَقطْ، ولكنْ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، فَتِلاوتهُ مُباركةٌ، والحرفُ مِنه بِحَسَنةٍ، والحَسَنةُ بِعشْرِ أمثالِها، لكنَّ أهمَّ شَيْءٍ أَنْ يَتدبَّره الإِنْسانُ، وأَنْ يَتفَهَّمه، ثُمَّ يَتَّعِظَ بِهِ، وَيَتذكَّرَ.

ولوْ سأَلْتَ كَثيرًا منَ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَقْرؤُونَ القُرْآنَ عنْ مَعانِي القُرْآنِ، لَوَجدتَ أنَّهم لَا يَعْرِفونَ مِنْها شَيئًا، وَهَذَا يَعْني أنَّهم أُمِّيونَ وإِنْ قَرؤُوا القُرْآنَ، كَما قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، ومَعْنى ﴿أَمَانِيَّ﴾: أَيْ لَا يَعْلَمونَ الكتابَ إِلَّا قراءةً فقطْ، لَا مَعنًى، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَن لَا يَعْرِفُ مَعْنَى القُرْآنِ وإِنْ قَرَأَهُ وتلاهُ مِنْ أوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، فَإِنَّهُ أُمِّيٌّ، وَالدَّلِيلُ عَلَى

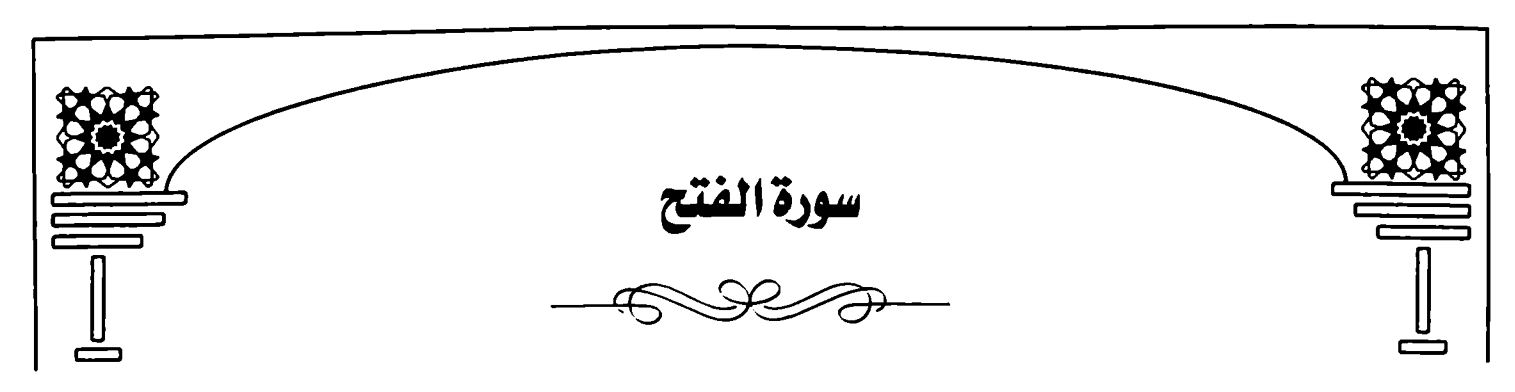
أنَّ الأَمَانِيَّ بِمَعْنَى القراءةِ، قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢]، أَيْ: إذا قرأَ.

ومِنْهُ قولُ الشَّاعرِ فِي أميرِ المؤمنينَ عُثمانَ بنِ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تَمَنَّـــى كِتَـــابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِـــهِ وآخِـرَهُ لَاقَـى حِمَامَ المَقَـادِرِ[1]

تَمَنَّى كتابَ اللهِ يَعْني: قَرَأَهُ.

(١) انظر الروض الأنف (٤/ ٢٣٠)، والنهاية في غريب الحديث: منا.



سورة الفتح

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩]، فِي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ يُخبرُ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنْ مُحمدٍ رسولِ اللهِ، والذينَ مَعَه، وهُم صَحابَتُه، ويَصِفُهم بِأَوْصافٍ أَوَّلًا: أنَّهم أَشِدَّاءُ عَلى الكُفَّارِ، يَعْني يُعامِلونَ الكفارَ بِشِدَّةٍ؛ لأنَّ ذلكَ مِن تَمامِ العدلِ، فإنَّ الكُفَّارَ أَعداءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، ولَو تَمكَّنوا منَ المسلمينَ لَعامَلوهم بِالشدةِ؛ لِهَذا كانَ مِن صِفاتِ المُؤمنينَ الحَميدةِ أنَّهم أَشداءُ عَلى الكُفَّارِ أَقوياءُ، وقَد أَمَرَ اللهُ نَبيَّه مُحمدًا ﷺ أنْ يُجاهِدَ الكفارَ وَالمنافقينَ، ويَغْلُظ عَلَيْهم، فقالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]، ذكَرَ اللهُ هذهِ الآيَةَ بِلَفْظِها فِي مَوْضعين مِنَ القرآنِ، بِهَذَا اللَّفظِ بِدونِ زِيادةٍ ولا نقصٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وجهادُ الكفارِ يَكونُ بِاستِباحةٍ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣]، فيَجِبُ عَلَى المُسلِمِينَ أَنْ يُقاتِلوا أعداءَ اللهِ وَأَعْداءَهم، حتَّى لَا تكونَ فِتنةٌ، أَيْ: حتَّى لَا يَكونَ شِرْكٌ، ويَكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ، أَيْ: حتَّى لَا يَكونَ صَدٌّ عنْ سَبيلِ اللهِ، ولَا يَقِفَ أعداؤُنَا فِي سَبيلِنَا يَصدُّونا عَن دِينِ اللهِ وَيَقِفُوا حَجَرَ

عَثْرةٍ دُونَهُ، أمَّا إذَا سَالَموا واسْتَسْلموا وَبَذَلوا الجِزْيَةَ فإنَّنا نُسَالِمُهم وَلَا نُقَاتِلُهم؛ لأنَّ الإسلامَ دِينُ العدلِ، فمَنْ قَابَلَهُ بِالعدلِ قَابَلَهُ الإِسلامُ بِالعدلِ، ومَنْ قَابلهُ بِالظلمِ وَالجَوْرِ وَالعُدوانِ، ومَنَعَ دِينَ اللهِ فِي أرضِ اللهِ وفِي عِبادِ اللهِ؛ فإنَّ الإسلامَ قَوِيٌّ، ويَجِبُ أَن يَكونَ قويًّا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، يَشْمَلُ كلَّ كافرٍ مِن أهلِ الكتابِ -وهمُ اليَهودُ والنَّصارَى- والمُشْرِكينَ، والمُلْحِدِينَ، وغَيْرَهم؛ لكنَّ الأمرَ -كَما قُلتُ- هَذا مَا لَمْ يَسْتَسلِمْ أَعداءُ الإِسلامِ، وَلَا يَقومُوا ضِدَّهُ، ولَا ضِدَّ دَعْوتهِ.

وقَولُـهُ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: إنَّ النبيَّ ﷺ وأَصحابَـهُ رُحماءُ بَيْنَهم، يَرحَـمُ بَعْضُهم بَعضًا، ويُقابِلُهُ باللِّينِ وَالرَّأفةِ وَالرحمةِ، كَما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقَد وَصَفَ النبيُّ ﷺ المُؤْمِنَ بِالنسبةِ لِأخيهِ بِقولِهِ: «**المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعضًا**»(١)، وبقَولِه ﷺ: «**مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَراحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ**»(٢).

وقَد أَوْجَبَ اللهُ عَلى المُسلِمِينَ مَا يُثَبِّتُ هذهِ الرَّحمَةَ وهَذهِ الأُلْفةَ، فَكانَ منْ حَقِّ المُسلمِ عَلى المُسلمِ إِذَا لَقِيَهُ أَنْ يُسَلِمَ عَليهِ، فَيقولَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، أوِ: السلامُ عَليكَ، ولَا يَكفِي عَن هذَا السَّلامِ أَن يَقولَ: حيَّاكَ اللهُ، أَو مَرْحبًا، أَو أهلًا، بَل لَا بدَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٦١)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٤٦٩٠).

(٢) أخْرَجَه مُسلم: كتاب البِرِّ والصِّلة والآداب، باب تَراحُم المؤمنين وتعاطُفِهم وتعاضُدِهم، رقم (٤٦٩١).

أَن يَقولَ: السَّلامُ عليكَ، أَوِ: السَّلامُ عَلَيكُمْ، أَو: سَلامٌ عَلَيك، أَو سَلامٌ عَلَيْكم، وَيَجِبُ علَى المُسَلَّمِ عَليه أنْ يَرُدَّ فيقولَ: عَلَيكمُ السلامُ، أوْ عَليكَ السلامُ، أَو وَعَليكَ السَّلامُ، أَو وعليكمُ السَّلامُ، فَلو قالَ: أَهْلًا وَسَهْلًا لَم يَكْفِ، لَو قَالها مِئَةَ مَرَّةٍ لَم يَكْفِ، إلَّا إذَا ضمَّ إليهَا: عَليكمُ السَّلامُ، فَهنا يَكونُ قَد ردَّ التَّحيةَ بِمِثلِها وأَحسنَ مِنْها، وقدْ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦].

ومنَ المُؤْسِفِ أَنَّنا نَرى كَثيرًا منَ المُسلِمِينَ اليَومَ لَا يُؤَدِّي بَعْضُهم التَّحيةَ إِلَى بَعضٍ، يُقابِلُهُ، ويَمْشي إِلى جَنبِهِ، ولَا يَقولُ: السَّلامُ عَلَيكم، أَحيانًا يَجْعَلُ السلامَ حَسَبَ المَعْرفةِ، إنْ كانَ يَعْرِفُهُ سَلَّمَ عليهِ، وإنْ كانَ لَا يَعْرِفُهُ لَمْ يُسلِّمْ، وأَحيانًا يَجْعَلُ السَّلامَ حَسَبَ الجِنْسيَّةِ، إنْ كانَ الَّذي لَاقاهُ عَربيًّا وهُو عَربيٌّ سَلَّمَ، وإنْ كانَ غيرَ عَربِيٍّ لَم يُسلِّمْ، وأَحيانًا يَجعلُ السلامَ حَسَبَ السُّلطةِ، إنْ كانَ الَّذي قابَلَهُ لهُ سُلْطةٌ وشَرَفٌ وَجاهٌ سَلَّمَ، وإلَّا فلَا، وكلُّ هذَا خِلافُ هَدْيِ الإسلامِ؛ لأنَّ السلامَ مَشروعٌ لكلِّ مسلمٍ، فكَلُّ مَن لَاقيتَ مِنَ المُسلِمِينَ فَسلِّمْ عَليهِ، ويَجِبُ أنْ يَرُدَّ عليكَ بِما ذَكَرْنا: عليكَ السلامُ، أَو عَليكمُ السلامُ، أَو مَا أَشْبهَ ذَلكَ.

ومِما يُقَوِّي هذهِ الرَّحمةَ بينَ المُسلِمِينَ أنَّ مِن حقِّ المُسلمِ عَلى أَخِيهِ أَنْ يَعُودَه إذَا مَرِضَ، وذلكَ حَسَبَ مَا تَقْتضيه الحالُ، قَد يَكونُ المرضُ شديدًا، فَيَقْتضي ذَلكَ أَنْ يُكَرِّرَ العِيادةَ، وقَد يَكونُ المريضُ قَريبًا فَيَقْتَضِي قُرْبُهُ أنْ يُكرِّرَ العِيادةَ، وقَد يَكونُ المَرَضُ خَفيفًا والمريضُ لَيسَ قَريبًا لِلْإِنسانِ، لَيسَ بَيْنَه وَبَيْنَه رَحِمٌ يَجِبُ أَنْ يَصِلَهُ بِها، فتكونُ العِيادةُ بِحَسَبِها، المُهِمُّ أَلَّا يَمْرَضَ أحدٌ منَ المسلمينَ وَلَا يَعودُهُ

أحدٌ؛ وَلِهَذَا كانَ القولُ الرَّاجحُ فِي العيادةِ أنَّها فَرضُ كِفايةٍ، إذَا قامَ بِها مَنْ يَكفي سَقَطت عنِ البَاقينَ، وإلَّا وَجبتْ علَى المسلمينَ، إلَّا إذَا كانتْ تَسْتَلْزِمُ صِلةَ الرَّحمِ، وَيَسْتلزِمُ عَدَمُ العِيادَةِ قَطيعةَ الرَّحمِ، فَهنا تكونُ العيادةُ فَرضًا؛ لأنَّ صلةَ الرَّحمِ وَاجبةٌ.

ويَنْبَغِي لِمَنْ عَادَ المريضَ أَن يَفْتَحَ لَه بابَ الرَّجاءِ، فَيقولَ لَه مثلًا: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علَى كلِّ شيءٍ قديرٌ، والإنسانُ قَد يَمْرَضُ مَرضًا عَظيمًا ويُشْفَى بِإِذْنِ اللهِ، وأنْ يَفْتَحَ لهُ بابَ التَّوبةِ والاستِغفارِ واستِغلالِ الوقتِ بِمَا يُرضِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ولا يُغنِي عنْ ذَلك مَا يَفْعَلُهُ بعضُ النَّاسِ اليومَ إِذَا ذَهبوا إِلَى عِيادةِ المَرْضَى، ذَهبوا بِالزُّهورِ وَالأَوْراقِ الخَضْراءِ ومَا أَشْبَهَ ذَلك، فإنَّ هذَا لَيسَ منَ السُّنةِ، بَل هُو يَدُلُّ عَلى أنَّ الإنسانَ يَزُورُ أَخاه زِيارةَ مادةٍ، لَا مَودَّةٍ، والذِي يَنبَغِي لِلإِنسانِ الزائرِ العائدِ أَن يُحيِيَ قَلْبَ المريضِ بِذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والتوبةِ والإنابَةِ إلى اللهِ وَالاستغفَارِ.

قالَ أهلُ العلمِ: ويَنْبَغِي أَيضًا أَن نُذَكِّرَهُ الوَصيةَ، أَن يُذَكِّرَهُ مَا يُوصِي بِه، والمُوصَى بِه إمَّا وَاجبٌ، وإمّا مُستحَبٌّ، فَالواجبُ إذَا كانَ عَلى الإنسانِ دَيْنٌ لَيس بِه بَيِّنةٌ؛ وَجَبَ أنْ يُوصِيَ بِه، مثالُ ذلكَ: رَجُلٌ أَقْرَضَ شَخصًا ألفَ رِيالٍ ولَمْ يَكْتُبْهُ بِوثيقةٍ، ولَيسَ بَيْنَهما بيِّنةٌ، فَيَجِبُ عَلى هَذا المريضِ أَنْ يُوصِيَ بِذلكَ، فَيقولَ: يُكْتَبُ فِي ذِمَّتي لِفلانٍ ألفُ رِيالٍ، لماذَا قُلْنا بِالوجوبِ؟ لأَنَّه إذَا ماتَ وليسَ عِنْدَ صَاحبِ الحقِّ بينةٌ، فإنَّهُ يُمكنُ أَنْ يَضِيعَ حَقُّهُ؛ لأنَّ الورثةَ قَد يَقولونَ: إذَا لَم يَكُنْ عِندكَ بَيِّنةٌ فإنَّنا لَن نَقبلَ دَعواكَ، فهذهِ مِنْ أَسبابِ الرَّحمةِ بَيْنَ المُسلِمِينَ، وهِي عِيادةُ بَعْضِهِمْ بَعضًا عِنْدَ المرضِ.

ومِن ذلكَ -أَيْ: مِما يَرْبطُ أَوَاصِرَ المَحبَّةِ وَالرحمةِ بَيْنَهم- أَنَّه إذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فشَمِّتْهُ، أَي قُلْ لهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، ويَرُدُّ هُو فَيقولُ: يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ، فَالتَّشمِيتُ سُنَّةٌ مُؤَكَّدةٌ، وذهَبَ بعضُ العُلماءِ إِلَى وُجوبِهَا بِشرطِ أَنْ يَحْمَدَ العاطسُ، أَمَّا إذَا لم يَحْمَدْ، فإنهُ لَا يُشَمَّتُ. ولكنْ إذَا لَم يَحْمَدْ؛ هلْ تُذَكِّرُهُ فَتقولُ: احْمَدِ اللهَ أَو تَتْرُكُهُ؟

نَقولُ جَوابًا عَلى ذَلكَ: إذَا كانَ يَحتمِلُ أَنَّه جاهلٌ لَا يَعْرِفُ الحُكْمَ فعَلِّمْه، أَمَّا إذَا كانَ لَا يَجْهَلُ، ولكنَّه مُتهاوِنٌ ولَمْ يَحمَدِ اللهَ عَلى عُطاسِهِ؛ فَهَذا لا يُذَكَّرُ؛ لأنَّ عدمَ حَمْدِهِ عَلى العُطاسِ يَدُلُّ عَلى تَهاوُنِهِ وَتَناسيهِ.

أَمَّا رَدُّ التَّشميتِ فإِنَّه فَرْضُ عَيْنٍ، يَعني يَجِبُ عَلى مَن شُمِّتَ أَن يَرُدَّ فيقولَ: يَهدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكمْ.

ومِمَّا يُوَطِّدُ أَوَاصِرَ الرَّحمةِ والمَحبَّةِ أيضًا: أَنَّه إذَا أَعانَكَ تُعِينُهُ، فإِنَّ مَعونةَ المُسلِمِ لِأَخِيهِ لَا شَكَّ أَنَّها تُوجِبُ المَوَدَّةَ بَيْنَهما، وتَغْرِسُ فِي قُلوبِ الناسِ مَحَبَّةَ الخيرِ وَالمعونةِ؛ وَلِهَذا أمرَ اللهُ بِذَلكَ فِي قولِهِ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

ثمَّ وَصَفَ اللهُ مُحَمَّدًا رَسولَ اللهِ والذينَ مَعهُ بِأَنَّكَ: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩]، وَمَعْنَى ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: أَي تَراهمْ كَثِيري الصَّلاةِ، فَعبَّرَ عنِ الصَّلاةِ بِبعضِ أَجْزَائِها، فَهُم فِي رُكوعٍ دَائِمٍ، وفِي سُجودٍ دائمٍ، أَي: فِي صَلاةٍ دائمةٍ كَثيرةٍ؛ لأنَّ الصَّلاةَ مِن أَجَلِّ العِباداتِ، وهِي أفضلُ أَركانِ الإسلامِ بَعدَ الشَّهادتينِ، وفِيها صِلةٌ بَيْنَ العبدِ وبينَ رَبِّهِ، فإِنَّ الإنسانَ المُصَلِّي إذَا قامَ يُصلِّي فإنهُ

يُنَاجِي اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقَد ذَكَرْنا فِيما سَبَقَ صُورةَ هذهِ المُنَاجاةِ، والَّتي جَاءتْ فِي حديثٍ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ...»[1]. الحديثَ؛ وَلِهَذَا كانتِ الصلاةُ صِلَةً بينَ اللهِ وبينَ العبدِ؛ لأنَّ فيهَا هذهِ المُناجَاةَ العظيمَةَ.

ثمَّ وَصَفَهمْ بِالإخلاصِ فِي هذهِ العبادةِ، فَقالَ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، يَبْتَغونَ الفَضْلَ، أَيْ: يَطْلُبُونهُ، والفَضْلُ هُوَ العَطاءُ وَالإحسانُ، وَالرِّضوانُ صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أيْ: إنَّ اللهَ يَرْضَى عَنْهم، فهمْ يَطْلُبون بِأَعْمالِهم فَضلَ اللهِ وَرِضْوانَه، لَا يَطْلُبون شَيئًا منَ الدُّنيا، لَا جَاهًا ولَا رِئَاسةً، وَلَا سُلطةً عَلى الخلقِ، وإنَّما يَطْلُبونَ فَضلًا منَ اللهِ ورِضونًا.

قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ [الفتح:٢٩]، السِّيما: العَلامةُ، ومنهُ قولُ النبيِّ ﷺ فِي حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ»، قال: «إِنَّهَا سِيمَا لَيْسَتْ لِغَيْرِكُمْ»[2]، سِيما بِمَعنى عَلامةٍ، أَي: عَلامةُ صَلَاتِهم فِي وُجُوهِهم؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾، ولكنْ؛ مَا هَذهِ السِّيما؟ هَل هِي سِيما حِسيَّةٌ، أَو سِيما مَعنويةٌ؟ الصَّوابُ أَنَّها سِيما مَعْنَوِيَّةٌ، وهِيَ نُورُ الوجهِ وَبَهْجَتُهُ وَسُرُورُه، فإنَّه كلَّما كَثُرَتْ صَلاةُ الإنسانِ ازدَادَ نُورُ وَجْهِهِ؛ لِقولِ النبيِّ ﷺ: «الصَّلَاةُ نُورٌ»[3]، وإذَا كانتْ نُورًا يَسْتَنِيرُ بِها القلبُ استَنَارَ الوجهُ؛ لأنَّ الوَجْهَ صَفحةٌ مِنْ صَفحاتِ القَلْبِ يُنْبِئُ عَنه؛ وَلِهذا إذَا كانَ الإنسانُ مَسرورًا ظَهَرتْ عَلامةُ السُّرورِ عَلَى وَجْهِهِ، وإذَا كانَ

---

(١) أخْرَجه مُسْلم: كتاب الصَّلاة، باب وُجوب قراءةِ الفاتحة في كلِّ رَكْعةٍ، رقم (٦٠٣).
(٢) أخْرَجه مُسلم: كتاب الطَّهارة، باب استحباب إطالة الغُرَّة والتَّحْجيل، رقم (٣٦٩).
(٣) أخْرَجه مُسْلم: كتاب الطَّهارة، باب فَضْل الوُضوء، رقم (٣٣٣).

محزونًا ظَهرتْ آثارُ الحُزْنِ عَلَى وَجْهِهِ، وإذَا لَاقاكَ عَرفْتَ أنَّه يُحِبُّكَ مما تَرى فِي وَجْهِهِ منَ البَشاشَةِ والتَّهللِ، وإذَا لَاقاكَ وهُو يُبْغِضُكَ عَرفْتَ ذَلكَ فِي وَجْهِهِ مما تَرى فِي وَجْهِهِ منَ الانكماشِ وَالعُبوسِ وَعَدمِ الفَرَحِ بهِ، المُهِمُّ أنَّ المُرادَ بِالسِّيما فِي قَولِهِ تَعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾، المرادُ بِها السِّيما المَعْنَويَّةُ، وهِيَ انْشِراحُ الصَّدْرِ، وانبِساطُ الوَجْهِ وَتهَلُّلُهُ، فَهذهِ عَلامةُ السُّجودِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الصَّلاةَ نورٌ.

وأمَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ البعضُ -أَو مَا ظَنَّهُ البعضُ- مِن أنَّ المرادَ بِالسِّيما مَا يَكونُ فِي الجبهةِ مِن أَثرِ السُّجودِ؛ فهذَا ضَعيفٌ، ولَيْسَ بِصحيحٍ؛ لأنَّ هذهِ العَلامةَ الحِسِّيَّةَ الَّتي تكونُ فِي الجبهةِ قَد تكونُ مِن شَخصٍ لَا يُكثرُ السجودَ، وقَد تُفْقَد مِن شَخْصٍ يُكْثِرُ السجودَ، فلَيْست هيَ السيما المُرادَةَ فِي هذهِ الآيةِ.

ثمَّ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ [الفتح:٢٩]، أيْ: هذِهِ صِفَتُهمُ المذكورةُ فِي التوراةِ، وهيَ الكتابُ المُنزَّلُ على مُوسَى، وفِي الإنجيلِ، وهُوَ الكِتابُ المُنزَّلُ عَلى عِيسَى، عَلَيْهمُ الصلاةُ والسلامُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح:٢٩]، يَعني مَثَلهم كَمَثلِ الزَّرعِ الَّذي أَخْرجَ شَطْأَهُ، وهُو مَا يَنْبُتُ فِي أَصْلِ شَجَرةِ الزَّرعِ حتَّى يَنْمُوَ ويَزِيدَ فَيُساوِيَ الأصلَ ويَكونَ كأَنَّهُ أصلٌ، فَهُمْ بِمَنزلةِ الزرعِ الَّذي يَنمو وَيَزْدادُ، وَتَتَفتحُ لَهُ الأغصانُ.

قوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾، السُّوقُ: جَمعُ ساقٍ، وَلما استوَى وكَمُلَ صارَ كلُّ مَن يَنظرُ إِليه نَظَرَ إعجابٍ ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، وفِي قولِهِ تَعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ دَليلٌ عَلى أنَّ المُسلِمينَ كلَّما قَوِيَ إسلامُهمْ وَإيمانُهمْ

فإنَّ ذَلكَ يَغِيظُ الكُفَّارَ، وأنَّه يَنْبَغِي لِلمُسلِمِينَ أنْ يَفْعَلُوا كلَّ مَا يَغِيظُ أَعْداءَهم منَ الكفَّارِ؛ لأنَّ ذلكَ يُقَرِّبُهم إِلَى اللهِ، ويُحَصِّلُونَ بهِ الأجرَ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠].

قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح:٢٩]، أَيْ: وَعدَهُمْ مَغفرةً لِلذُّنوبِ وَأَجرًا عَظيمًا عَلَى الأعمالِ الصَّالحةِ، وَذلكَ أنْ يُجازِيَهمُ الحسنةَ بِعَشْرِ أَمْثالِها إِلَى سَبْعِ مئةِ ضعفٍ، إِلَى أَضعافٍ كثيرةٍ، نَسألُ اللهَ تَعالَى أَنْ يُحقِّقَ لَنا هَذِهِ الصِّفاتِ الحَمِيدةَ، وأنْ يَجْعَلَنا مِن أَتْباعِ النبيِّ ﷺ وأَصْحابِهِ، وأنْ يَتوفَّانا عَلى ذَلك، وأنْ يُعِيذَنا منَ الفِتَنِ ومِنَ البِدَعِ مَا ظَهَرَ مِنْها وَمَا بَطنَ، إنَّه جَوادٌ كريمٌ.





سورة الحجرات

الدَّرسُ الأوَّل:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قولُه تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:١-٢].

صَدَّرَ اللهُ هَاتَينِ الآيتَينِ بقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وَقَدْ أُثِرَ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ». أيِ: اسْتَمِعْ لها، وأَصْغِ إِلَيْهَا، «فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ»[1].

قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، صُدِّرَ الخطابُ بالنِّداءِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أهميةِ هَذَا الخطابِ؛ وذَلِكَ لأَنَّ النداءَ يستدعي تَنْبِيهَ المُنادَى، وتنبيهُ المُخاطَبِ قبلَ خِطابِه يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سيُخاطَبُ بِمَا لَهُ أَهميةٌ، فَإِذَا كَانَ النداءُ بوَصْفِ الإِيمانِ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا المُخاطَبَ بِهِ من مُقْتَضياتِ الإِيمانِ، ويَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ مُخالفته نَقْصٌ فِي الإِيمانِ.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

---

(١) حلية الأولياء للأصبهاني (١/ ١٣٠).

قال بعضهم: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾؛ بِمَعْنَى لَا تَقَدَّمُوا، ولكن مَعْنَى ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ فِي الوَاقِعِ أَدَقُّ من مَعْنَى لَا تَقَدَّمُوا؛ فمعنَى ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ لَا تُقَدِّمُوا بينَ يَدَيِ اللهِ لَا أَقْوالًا وَلَا أفعالًا، وَلَا أحكامًا وَلَا أخبارًا، وَلَا غيرَ ذَلِكَ، فَلَا تُقَدِّموا شيئًا بينَ يَدَيِ اللهِ ورسولِهِ، فَلَا تُشَرِّعْ مَا لم يُشَرِّعْهُ اللهُ، وَلَا تُحَرِّمْ مَا لم يُحَرِّمْه اللهُ، وَلَا تُبِحْ مَا لم يُبِحْهُ اللهُ، وَلَا تُوجِبْ مَا لم يُوجِبْهُ اللهُ، وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لك بِهِ علمٌ فِي جَانبِ اللهِ، كُنْ أَدِيبًا، كُنْ عَبْدًا حقيقيًّا للهِ عَزَّوَجَلَّ، كُنْ مؤمنًا حقيقيًّا باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

التقوى:

قولُه تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، التَّقْوَى مأخوذةٌ مِنَ الوِقايةِ؛ وَهِيَ أَنْ يَتَّخِذَ الإِنْسَانُ وِقايَةً من عَذابِ اللهِ، بِفِعْلِ أوامرِ اللهِ، وَاجتنابِ نَواهِيهِ، فالتَّقْوَى تَشْمَلُ الدِّينَ كلَّه؛ لأَنَّ الدِّينَ أوامرُ ونَواهٍ؛ ففِعْلُ الأَوامِرِ، وتَرْكُ النواهي طاعةٌ للهِ، وكلاهما تَقْوَى للهِ عَزَّوَجَلَّ.

فالتَّقْوَى بالمَعْنَى العَامِّ: هِيَ اتِّخاذُ وِقايَةٍ من عَذابِ اللهِ بفعلِ أوامِرِه، وَاجتنابِ نَواهِيهِ؛ ومن نواهِي اللهِ أَلَّا نُقَدِّمَ شيئًا بينَ يَدَيِ اللهِ ورسولِه.

قولُه تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أَيْ سَمِيعٌ لأَقْوالِكم إِنْ تَقَدَّمْتُم بينَ يَدَيِ اللهِ، وعَلِيمٌ بنِيَّاتِكم مَاذا نَويتُم بتَقَدُّمِكُم بينَ يَدَيِ اللهِ، بَلْ هُوَ عَلِيمٌ بكُلِّ شَيْءٍ، فَإِنَّهُ لَا أعمَّ من صِفةِ العِلْمِ، إِذ إِنَّهَا مُتعلِّقةٌ بالوَاجبِ وَالمُمْكِنِ وَالمستحيلِ؛ وَلِهَذا من أشملِ مَا يَكُونُ دَلالةً وأشملِ مَا يَكُونُ مَعْنًى صِفةُ العِلْمِ للهِ عَزَّوَجَلَّ لأَنَّها تَتعلَّقُ بالوَاجبِ وَالمُمْكِنِ وَالمستحيلِ؛ يَعْنِي أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَاجِبَ الوُقوعِ، وَمَا كَانَ مُمْكِنَ الوقوعِ، وَمَا كَانَ مُستحِيلَ الوُقوعِ.

فعِلْمُ اللهِ بالمُستحِيلِ الوقوعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ومِنَ المَعلومِ أَنَّهُ يَستحِيلُ أنْ يَكُونَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ آلهةٌ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، هَذَانِ اسمانِ من أَسْمَاءِ اللهِ، وَلْنأْخُذْ بَسْطًا فِي القَوْلِ عَلَى هَذيْنِ الاسْمَيْنِ: السميع والعليم.

الكلامُ علَى اسمِ اللهِ السَّميع:

قَالَ العُلَمَاءُ: إِنَّ السَّمعَ يُطلقُ عَلَى مَعْنيَيْنِ:

الأَوَّل: الاستجابةُ.

الثَّاني: إِدراكُ المسموعِ.

فَإِذَا سَمِعْتَ صوتًا وأدركتَ هَذَا الصوتَ فَهَذَا سَمْعٌ، وَإِذَا دعاكَ أحدٌ فأَجَبْتَهُ فَهَذَا أَيْضًا سَمْعٌ.

مثالُ السَّمْعِ الَّذِي بِمَعْنَى الاسْتجابةِ:

المثالُ الأَوَّلُ: قولُه تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]؛ مَعْنَى لَا يسمعونَ: لَا يستجيبونَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ لَا يَسْمَعونَ القَوْلَ بآذانِهم لكانَ مُتناقِضًا مَعَ قَوْلِهِ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾.

المثالُ الثَّاني: قولُه تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]؛ سميعُ الدُّعاءِ، بمَعْنَى: مُجِيبُ الدُّعَاءِ، وإِن كَانَ يَشْمَلُ هَذَا وَهَذَا فِي الوَاقعِ، لَكِنِ الإِجابةُ تَتضَمَّنُ سَمْعَ الإِدراكِ وَلَا عكسَ.

المثالُ الثَّالثُ: قولُ المُصَلِّي: سَمِعَ اللهُ لمَنْ حَمِدَه؛ يَعْنِي استجابَ اللهُ لمَنْ

حَمِدَه، وسَمِعَ لَـمَّا كَانتْ بِمَعْنَى استجابَ تَعَدَّتْ باللَّامِ، فقَالَ: سَمِعَ اللهُ لمَن حَمِدَه، ولم يَقُلْ: سَمِعَ اللهُ مَن حَمِدَه. لَوْ قَالَ: سَمِعَ اللهُ مَن حَمِدَه، لكانَ المَعْنَى: سَمِعَ صَوْتَ الحَامِدِ، لَكِنْ لما قَالَ: سَمِعَ لمَنْ حَمِدَه، صَارَ المَعْنَى استجابَ لمَنْ حَمِدَه.

مثالُ السَّمْعِ الَّذي بمعنَى إدراكِ المَسْموعِ:

مثالُ السَّمعِ الَّذي بِمَعْنَى إِدراكِ المسموعِ هُوَ سَماعُك لصوتِ حَدَثٍ فتَسْمَعُه، هَذَا يُسَمَّى سَمْعًا.

قالَ أهلُ العِلْمِ: وسَمْعُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحِيطٌ بكلِّ صَوْتٍ مهما خَفِيَ ومهما بَعُدَ، فإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَسْمَعُ السِّرَّ وَالنَّجوى وَمَا هُوَ أَخفَى، وَمَا هُوَ دونَ ذَلِكَ مِنَ الأصواتِ، وسَمْعُ اللهِ بِمَعْنَى إدراكِ المسموعِ- ينقسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: أن يكونَ المُرادُ به التهديدَ:

مثالُ ذَلِكَ؛ قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]؛ فإِنَّ المُرادَ بِذَلِكَ التهديدُ، يُهدِّدُ اللهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالوا هَذِهِ القَوْلَةَ الشَّنيعةَ؛ بِدَليلِ قَوْلِهِ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران:١٨١-١٨٢].

القِسْمُ الثَّاني: أن يكونَ المرادُ به التأييدَ:

ومنه قولُه تَعَالَى لمُوسَى وهارُونَ حِينَ أرسلَهُما إِلَى فِرْعَونَ: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٥-٤٦]، فهَذِهِ الآيَةُ يُرادُ بِهَا التَّأْيِيدُ لمُوسَى وهارُونَ، وفي نفسِ الوقتِ قَدْ تكونُ

مُفيدةً للتَّهديدِ بالنسبةِ لِفرْعَونَ.

القِسْمُ الثَّالثُ: أن يُرادَ به بيانُ شُمولِ سَمْعِ اللهِ لكلِّ شيءٍ:

ومنه قولُه تَعالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١]، وكانَتْ عَائِشَةُ أمُّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا فِي نفسِ الحُجْرَةِ ويَخْفى عَلَيْهَا بعضُ حدِيثِهَا وَلَا تَسْمَعُه، وَالمكانُ وَاحدٌ وضيِّقٌ، وعائشةُ لَا تسمعُ، ومَعَ هَذَا يسمَعُ اللهُ تلكَ المرأةَ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ فتقولُ عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُه الأصواتَ، لقَدْ كُنْتُ فِي الحُجْرَةِ وإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِهَا»[١].

واللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي السَّمَاءِ فوقَ عرشِه فوقَ كُلِّ شيءٍ، ومَعَ ذَلِكَ يسمَعُ شكْوى هَذِهِ المرأةِ ومُجادَلتَها للرَّسُولِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ومحاورةَ الرَّسُولِ لَهَا، فالمرادُ بالسَّمعِ هُنَا بيانُ شُمولِ سَمْعِ اللهِ لكلِّ مَسموعٍ.

فَـإِذَا آمنتَ بِهَذَا فـإِنَّ هَذَا الإِيمانَ من حَيْثُ السُّلوكُ وَالمنهجُ سيقودُك -وَلَا شَكَّ- إِلَى أن تَتَّقِيَ اللهَ فِيمَا تقولُ؛ لأَنَّكَ إِذَا آمنتَ بِأَنَّ اللهَ يَسمَعُ كُلَّ مَا تقولُ فسوفَ لَا تُسْمِعُ ربَّكَ إِلَّا مَا يُرْضِيهِ.

ما دُمتَ تُؤمنُ بأَنَّك إِنْ قُلْتَ فُحشًا سَمِعَه اللهُ، وإِن قلتَ حقًّا سَمِعَه اللهُ، وإِنْ قُلْتَ باطلًا سَمِعَه اللهُ، وإِنْ قلتَ حُسْنًا سَمِعَه اللهُ، فإِنَّك سَوْفَ تَختارُ مِنَ النطقِ مَا هُوَ خيرٌ وحَسَنٌ، ولن تُسْمِعَ ربَّكَ عَزَّوَجَلَّ ما لَا يُرضِيهِ، وَلِهَذَا لَا شَكَّ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، رقم (٧٣٨٥).

يُؤمِنُ بمُقتضى أَسْمَاءِ اللهِ وصفاتِه سَوْفَ يَحدثُ لَهُ تغييرٌ فِي حياتِه، وسلوكٌ حسنٌ مَرْضِيٌّ عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لكنَّنَا نقرأُ أَسْمَاءَ اللهِ وصفاتِه، ولكنَّنا لَا نَفْهَم معناها وَلَا نُشْعِرُ أنفُسَنا بمقتضاها، وَانْظُرْ إِلَى حديثٍ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقَالَ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1]. ولم يُبَيِّنْها الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أجْلِ أَنْ يَتْعَبَ الإِنْسَانُ فِي استِخْرَاجِها من كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه ﷺ وَالحديثُ الَّذِي وَرَدَ فِي تَعْيينِها قَالَ أئمةُ الحُفَّاظِ: إنه حَدِيثٌ مُدْرَجٌ لَا يَصِحُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لأجلِ أَنْ يَتولَّى الإِنْسَانُ بنفسِه استخراجَ هَذِهِ الأسماءِ من كتابِ اللهِ وسُنةِ الرَّسُولِ ﷺ حَتَّى يَتبينَ المُجِدُّ الحريصُ عَلَى تَتَبُّعِ هَذِهِ الأسماءِ من غَيرِه.

وليسَ معنَى إِحصائِها أَنْ تَحْفَظَها وتكتبُها فِي ورقةٍ وتَحْفَظَها بقلبِك، بَلِ المرادُ من إِحصائِها هو:

أولًا: مَعْرِفةُ لفظِها.

ثانيًا: معرفةُ مَعْنَاها.

ثَالثًا: التَّعبدُ للهِ بمُقْتضاها.

وهَذِهِ النُّقطةُ الأخيرةُ هِيَ المُهِمَّةُ بالنسبةِ للسَّيْرِ وَالسُّلوكِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]، أَي اعْلَمُوا علمًا يَتغيَّرُ بِـهِ سُلوكُكم ومِنْهاجُكم إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويكـونُ التعبدُ للهِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط، رقم (٢٥٤٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٤٨٤٢).

بمقتضاها؛ فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ سميعٌ سَتَتَجَنَّبُ كُلَّ قولٍ يُغْضِبُ اللهَ، وتختارُ كُلَّ قولٍ يُرْضِي اللهَ، وَإِذَا عَلِمتَ أَنَّ اللهَ بَصِيرٌ ستَتَجَنَّبُ كُلَّ فِعْلٍ يُغْضِبُ اللهَ، وتقومُ بكلِّ فِعْلٍ يُرْضِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ لأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَراكَ؛ وأَنَّه سميعٌ بَصِيرٌ.

إِذا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ حكيمٌ؛ فإِنَّك تُؤْمِنُ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وتَعْلَمُ أَنَّ مَا قدَّرَه وقَضاهُ فَإِنَّهُ لِحِكْمَةٍ، وتُؤْمِنُ كَذَلِكَ بشَرْعِه، فتَنْقادُ لَهُ انقيادًا تامًّا؛ لأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ مَا قَضاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فهُوَ لِحِكْمَةٍ.

الكلامُ على صفةِ اللهِ العليمِ:

العِلمُ هُوَ: إِدراكُ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، فمَن لم يَدْرِكْ فليسَ بعالمٍ، ومَن أدركَ الشَّيْءَ عَلَى غيرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فليسَ بعالمٍ، ويُسمَّى الأولُ جاهِلًا جَهْلًا بَسِيطًا، ويُسَمَّى الثَّاني جَاهِلًا جهلًا مُركَّبًا.

فعِلْمُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحِيطٌ بكلِّ شَيْءٍ بالماضِي وَالحَاضرِ وَالمُستقبلِ؛ مُحِيطٌ بالماضي فَلَا يَنْسَى، وبالحَاضِرِ وَالمستقبلِ فَلَا يَجْهَلُ، وَلِهَذَا قَالَ مُوسَى لمَّا قَالَ لَهُ فِرْعونُ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢]، ﴿لَّا يَضِلُّ﴾؛ لا يَجْهَلُ، ﴿وَلَا يَنسَى﴾ مَا عَلِمَه أَوَّلًا، فَهُوَ جَلَّ وَعَلَا يعلَمُ مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يكونُ.

عِلْمُ اللهِ محيطٌ بكلِّ شَيْءٍ جملةً وتفصيلًا، وَاستمِعْ إِلَى علمِ اللهِ المُجمَلِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، هَذَا مُجْمَلٌ، أَمَّا التَّفصيلُ فاسْتمِعْ إِلَيْهِ فِي آياتٍ كثيرةٍ منها قولُه تَعَالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا

يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد:٤]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ [ق:١٦]، وَالآياتُ فِي هَذَا كثيرةٌ.

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾، كُلُّ مَا فِي البرِّ وَالبَحْرِ من شَجرٍ وحَجرٍ وأنهارٍ وطُيورٍ وحَيوانٍ، ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾؛ و﴿مِن وَرَقَةٍ﴾ شاملٌ لكلِّ ورقةٍ صغيرةٍ أَوْ كبيرةٍ؛ لأَنَّ ﴿وَرَقَةٍ﴾ نكرةٌ فِي سياقِ النَّفي، فتكونُ مُفيدةً للعمومِ، فأيُّ ورقةٍ تسقطُ فَهُوَ يَعلمُها، وأيُّ ورقةٍ تُنبتُ فَهُوَ يَعلمُهَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ يَعلَمُ الأوراقَ السَّاقطةَ، فَهُوَ يَعْلمُ الأوراقَ النَّابتةَ من بابِ أَوْلى؛ لأَنَّ الإِنباتَ يَحْتاجُ إِلَى خَلْقٍ، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَعْلمُ مَا خلَقَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يَعْنِي إِلَّا يَعْلَمُها؛ وَهِيَ معلومةٌ للهِ، أَيُّ حبةٍ كبيرةٍ أم صغيرةٍ؛ لأَنَّ (حبة) نَكِرةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾، فالظُّلُماتُ كثيرةٌ، ظلماتُ الليلِ، وظُلماتُ الأَرْضِ، وظُلماتُ الكُهوفِ، وظُلماتُ البَحْرِ، فالليلُ إِذَا أظلَمَ لَا تُرى الأشياءُ.

وإِذا قَدَّرْنا أَنَّ هَذِهِ الحَبَّةَ فِي قَاعِ البَحْرِ مدفونةٌ فِي الطِّينِ، فتكونُ الظلماتُ ظُلْمةَ الطِّينِ مَعَ ظُلْمةِ الليلِ وظُلْمةِ البَحْرِ، ولْنَفرِضْ أَنَّ الجَوَّ غَيْمٌ فتكونُ الظلماتُ ظُلمةَ الغَيْمِ وظُلْمةَ المَطَرِ، وظُلْمةَ العَواصِفِ.

هَذِهِ الظُّلماتُ -ورُبَّما ظُلماتٌ أُخرَى- لَا نَعرِفُها، لَكِنْ أَيُّ حبةٍ صَغُرَت أم

كَبُرتْ فِي ظُلماتِ الأَرْضِ، فإِنَّ اللهَ تَعالَى يَعْلَمُها.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ يَعْنِي إِلَّا وَهُوَ مَكْتوبٌ عِنْدَ اللهِ كِتَابًا بَيِّنًا لَا يَخْتَلِفُ، فعِلْمُ اللهِ مُحِيطٌ لكلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وتَفْصِيلًا، فِي الحَاضِرِ والمَاضِي والمُستقبَلِ.

والَّذِي يُفيدُه الإِيمانُ بعِلْمِ اللهِ مِنَ النَّاحيةِ السُّلوكيَّةِ، أَنْ يَخْشَى الإنسانُ اللهَ فِي قَلْبِه؛ لأَنَّ القَلْبَ لَا يَعلمُ بِهِ أحدٌ، لَكِنِ اللهُ يَعْلَمُ به، فَإِذَا آمنتَ بِأَنَّ اللهَ يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ، فإِنَّكَ لَنْ تُضمِرَ فِي قَلْبِكَ شيئًا يُغضِبُ اللهَ أبدًا؛ لأَنَّكَ مُؤْمِنٌ بِأَنَّ اللهَ عَالمٌ مُطَّلِعٌ، وتَخْشَى اللهَ، كَذَلِكَ أَيْضًا لَا تَنوِي سُوءًا بأحدٍ؛ لأَنَّكَ لَوْ أَخْفَيْتَ نِيَّةَ السُّوءِ عمَّن تُرِيدُ بِهِ السُّوءَ، فإِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ذَلِكَ وسيُحاسِبُكَ عَلَى هَذَا.

فالإِيمانُ بالعِلْمِ من أَسْبَابِ صَلاحِ البَاطِنِ؛ لأَنَّ العِلْمَ يَكُونُ حَتَّى فِي الخَفِيَّاتِ، فَإِذَا آمنتَ بِهَذَا فسوفَ يَصْلُحُ قَلْبُكَ، وثِقْ أَنَّهُ إِذا صَلَحَ القَلْبُ صَلَحتِ الجَوارِحُ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»[1]؛ وَلِهَذَا يَنْبَغِي لنا أَنْ نَعْتنيَ بصلاحِ القُلوبِ قبلَ صلاحِ الجوارحِ، فصلاحُ القلوبِ هُوَ المُهِمُّ، وكَمْ من إِنْسَانٍ صَالحِ الجَوارحِ لَكِنْ قلبُه فَاسِدٌ، فَإِذَا صلَحَ القلبُ صلَحَتِ الجوارحُ؛ وَإِذَا فسدَتِ القلوبُ فَسدتِ الأبدانُ؛ وَلِهَذَا لما حَدَّثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّهُ مَا مِن قَلْبٍ من قُلوبِ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إِصْبِعَيْنِ مِنْ أَصَابعِ الرَّحْمَنِ يُصَرِّفُه كَيْفَ يَشاءُ. قَالَ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّفْ قَلْبِي إِلَى طَاعَتِكَ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، رقم (٤٨٠٤).

والعَجَبُ أَنْ تَرَى شَخْصًا عَلَى مُنْكَرٍ ظَاهِرٍ، فإِنْ قِيلَ لَهُ: اتَّقِ اللهِ، يقولُ لكَ: التَّقْوَى هَا هُنا، فَلَوِ اتَّقى القلبُ اتَّقَتِ الجوارحُ؛ لأَنَّ الَّذِي قَالَ: «التَّقْوَى هَا هُنَا»[١]، هُوَ الَّذِي قَالَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ». فَيَنْبَغِي العِنايَـةُ بصَلَاحِ القُلُـوبِ؛ لأَنَّ أعمالَ القُلُوبِ أخطرُ مَا يَكُونُ عَلَى الإِنْسَانِ.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ التَقَى هُوَ وَالمُشْرِكُونَ، فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ، لاَ يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلاَ فَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا اليَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ، كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟»، قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[٢]. هذَا الشَّاهِدُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، رقم(٦٧٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسِّير، باب لا يقول: فلان شهيد، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١٦٧).

وَهَذَا يُوجِبُ للإِنْسَانِ الخوفَ وَالقَلَقَ، وأنْ يَكُونَ دَائِمًا مَعَ قَلبِه يُنَظِّفُه ويُطهِّرُه مِنَ الشِّرْكِ، ومِنَ الشَّكِّ، ومِنَ النِّفاقِ، ومِنَ الحِقْدِ، ومِنَ العداوةِ للمُسلِمِينَ، ومِنَ البَغضاءِ وهكذا، يَجِبُ أنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ دائمًا مَعَ قلبِه؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ المَدارُ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ قولَه ﷺ: «وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ»[1]، كَيْفَ يَخْذُلُ اللهُ هَذَا الإِنْسَانَ العَامِلَ بعَمَلِ أهلِ الجنةِ، معَ أَنَّ اللهَ أكرمُ الأكرمين، فَكَيْفَ يَخْذُلُ اللهُ هَذَا الإِنْسَانَ؟

قُلْنَا: لأَنَّ فِي قلبِه سِرًّا خَبيثًا هُوَ الَّذِي أَوْدَى بِهِ إِلَى الهلاكِ؛ فيَنْبَغِي أَنْ نُطَهِّرَ قُلُوبَنا وأَنْ نُمَحِّصَها حَتَّى تكونَ نَقِيَّةً، وَإِذَا صَلَحَ القلبُ صلَحَ الجسدُ كلُّه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول: فلان شهيد، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١٦٧).

الدَّرسُ الثَّاني:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ**:

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١].

قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ابْتَدَأَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ بِقَولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وإِذَا صَدَّرَ الخطابَ بِالنداءِ، كَانَ ذلكَ دَليلًا عَلَى أَهميَّتِهِ؛ لِأَنَّ النِّداءَ فِيهِ تَنْبيهٌ وإِيقَاظٌ للفِكْرِ، فَكلُّ خِطابٍ ابتُدِئَ بِالنداءِ، فَإِنَّهُ يَعْني أَنَّ مَضْمونَه هَامٌّ، يَنْبَغي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَنتبِهَ لَهُ.

وَالخطابُ هُنَا مُصَدَّرٌ بِالنداءِ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ثُمَّ إِذَا وُجِّهَ الخطابُ إِلَى المُؤْمِنينَ، كَانَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ ما وُجِّهَ إِلَيْهِ المُخاطَبُ مِنْ مُقْتَضياتِ الإيمانِ، وكَمالِ الإيمانِ، وأَنَّ مُخالفتَهُ نَقْصٌ فِي الإِيمانِ.

وقَوْلُهُ: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أَي: تَأَدَّبوا مَعَ اللهِ ورسولِهِ ﷺ، وَلَا تُقَدِّموا شَيئًا بينَ يَدَيِ اللهِ ورسولِهِ ﷺ مِنَ الأَقوالِ أَوِ الأفعالِ أَوِ الآراءِ، أَوْ غيرِ ذَلكَ، فكلُّ شَيْءٍ يَجِبُ أَنْ يكونَ تَابِعًا للهِ ورسولِهِ ﷺ.

ويُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الآيةِ عَلَى تَحْريمِ جَميعِ البِدَعِ، فَكلُّ البدعِ مُحَرَّمَةٌ، وكلُّ البِدَعِ ضَلالةٌ، وإِنْ ظَنَّ مُبْتَدعوهَا أَنَّهمْ عَلَى شَيْءٍ، وَلَكِنَّهم لَيْسوا عَلَى شيءٍ، فَالمُبتدِعُ مُتَقَدِّمٌ بَيْنَ يَدَي اللهِ ورسولِهِ ﷺ مُحْدِثٌ فِي دِينِ اللهِ مَا لَيْسَ منهُ، وبِدْعَتُهُ تَتَضَمَّنُ أمرًا خَطِيرًا، وهوَ أَنَّ الدِّينَ لَم يَكْمُلْ، وأَنَّه هُوَ الَّذي كَمَّله بِهَذِهِ البِدعَةِ، وهَذَا لا شَكَّ

أنَّه مُنَاقِضٌ تمامًا لِقَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

فيُقالُ لِأَصحابِ البِدعةِ: إنْ كَانتْ هَذِهِ البِدْعةُ منَ الدِّينِ، فَالدِّينُ نَاقصٌ قبلَ وُجودِ هَذِهِ البِدْعَةِ، وَمَضمونُ هَذَا تَكْذِيبٌ لِقَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ لِأَنَّ المُبتدِعَ لِسانُ حَالهِ يَقُولُ: إِنَّ الدِّينَ نَاقصٌ، حَيثُ لَم نَجِدْ هَذِهِ البِدْعَةَ فِي دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وإنْ كَانتْ لَيستْ منَ الدِّينِ، وَجَبَ عَلَى المَرْءِ أَنْ يَبْتَعِدَ عنهَا غَايةَ الابتعَادِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالَى يَقُولُ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، فإمَّا حقٌّ وإمَّا ضلالٌ، والنَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ يَقُولُ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ(١)، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ»(٢)، ويَقُولُ: «وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(٣)، ولَمْ يَسْتثنِ النَّبِيُّ ﷺ منْ ذَلك شَيئًا، فكلُّ بِدعةٍ فِي دينِ اللهِ ضلالةٌ مَهْمَا كَانَ مُبْتَدِعُها، وَمَهما ظَنَّ مُبْتَدِعُوها أَنَّها حَسَنَةٌ، فَإِنَّها ضَلالةٌ.

فمَنْ قسَّمَ البدعةَ إِلَى أقسامٍ، فإنَّ هَذَا يَجِبُ النظرُ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ ثَبَتَ أَنَّها بِدعةٌ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَقولَ: إِنَّها حَسَنَةٌ؛ لِأَنَّ أَفْصحَ الخلقِ، وأَعْلَمَ الخلقِ، وأَنْصَحَ الخلقِ، وأَصْدَقَ الخلقِ، قَالَ: «وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، وَلَمْ يَسْتثنِ وَاحدةً.

فَإِذَا ثَبتَ أَنَّها بِدعةٌ، فَلَا يُمكنُ أَنْ نَقولَ: إنَّ منَ البدعِ مَا هُوَ حَسَنٌ؛ لِأَنَّا لَدَيْنا كَلامًا مِمَّن هُوَ أَعْلَمُ مِنه، وأَنصَحُ منهُ لِلخلقِ، وأَفْصحُ مِنه فِي المَقالِ، وأَصْدقُ مِنْهُ فِي الخبرِ، يَقُولُ: «وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

---

(١) أي: تمسكوا بها، كما يتمسك العاضُّ بجميع أضراسه. النهاية (نجذ).

(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم١٧١٤٤)، وأبو داود: كتاب السُّنة، باب في لُزوم السُّنة، رقم(٤٦٠٧).

(٣) جزء من الحديث المتقدم عليه.

وإذَا ثَبتَ أنَّ البدعةَ حَسَنَةٌ، فَيَتعَيَّنُ أَلَّا تكونَ بِدْعةً؛ لِأَنَّ الجمعَ بَين كونِ الشيءِ بِدعةً وحَسَنَةً جَمْعٌ بَيْنَ الضِّدينِ، فقَد يَكونُ الشيءُ حَسَنًا لكنْ لَا يَصِحُّ أَنْ نَجْعَلَهُ بِدعةً.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: إنَّ قَولَكم هَذَا يُنَاقِضُ قولَ أَمِيرِ المُؤمِنينَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المُوفَّقِ للصَّوابِ، وذَلك أَنَّه خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ منْ رَمَضَانَ، ورأَى النَّاسَ يُصلُّونَ أَوْزاعًا، يَعْنِي: مُتَفَرِّقِينَ، يُصَلِّي الرجلُ وَحدَهُ، والرجلانِ جميعًا، والثلاثةُ جميعًا، وهَذَا تَفَرُّقٌ، فأمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِثاقبِ نَظَرِهِ، وحُسنِ صَنيعهِ، وإخلاصِ نِيَّتِهِ، أَمَرَ أُبيَّ بنَ كعبٍ وتَمِيمًا الداريَّ أنْ يَقومَا بالنَّاسِ بإِحدَى عَشْرةَ رَكْعةً[1]، كَما ثَبتَ ذَلكَ فِي (مُوطَّأِ مَالِكٍ) بِسَنَدٍ منْ أَصحِّ الأسانيدِ، فَأَمَرهما أَنْ يَقومَا بِالنَّاسِ بِإِحْدَى عَشْرَة رَكْعةً، وهوَ العَددُ الَّذِي كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُواظِبُ علَيْه غالبًا؛ وَلِهَذَا سُئِلَتْ أُمُّ المُؤْمنينَ عَائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَيفَ كَانتْ صَلاةُ النَّبيِّ ﷺ فِي رَمَضانَ؟ فَقالتْ: «مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً»[2]، فأخذَ بِهَذِهِ السُّنَّةِ أميرُ المُؤمِنينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وَبَعدَ أَنْ أمرَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، وهُمَا أُبَيُّ بنُ كَعبٍ، وَتَمِيمُ الدَّارِيُّ، خَرَجَ ورأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ، فسَرَّهُ ذَلك؛ لِأَنَّ كُلَّ مُخْلِصٍ لِدِينِهِ وَلِأُمَّتِهِ يَسُرُّهُ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى الحَقِّ، وكلُّ عَدُوٍّ لِدِينِه وَلِأُمَّتِهِ يَسُرُّهُ أَنْ يَتفرقَ النَّاسُ فِي دينِ اللهِ.

فَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرجَ وَوَجدَ النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى إِمَامِهِم، فَقَالَ: «نِعْمَتُ البِدْعَةُ

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ: وُقوت الصلاة، باب ما جاءَ في قِيام رَمَضان، رقم (٢٨٠).

(٢) أخرَجه البخاريُّ: كتاب التَّهجُّد، باب قِيام النبي ﷺ بالليلِ في رَمَضان وغيرِه، رقم (١١٤٧)، ومسلم: كتاب صلاة المُسافرين، باب صَلاة الليل وعَدَد رَكَعاتها، رقم (٧٣٨).

هذِهِ»[1]، فَأَثْنَى علَيْها وقَدْ سَمَّاها بِدْعةً، فَكَيْفَ يَأْتِي مَنْ يَقُولُ: إنَّه لَيْسَ فِي البِدَعِ أَيُّ شَيْءٍ حَسَنٍ؟

فالجَوَابُ: إنَّ هَذِهِ البدعةَ الَّتِي وَصَفَها عُمَرُ بأنَّها بِدْعةٌ لَيْست بِدْعةً فِي الدينِ؛ لِأَنَّها كَانتْ ثَابتةً بِفِعْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ صلَّى بِالنَّاسِ ثَلاثَ لَيَالٍ جماعةً فِي قِيَامِ رَمَضَانَ، حَتَّى اكتظَّ المسجدُ بالنَّاسِ، فأولُ مَن صَلَّى معَهُ قَلِيلونَ، ثُمَّ زادَ العددُ، ثُمَّ اكتظَّ المسجدُ بالنَّاسِ، فخافَ رَسولُ اللهِ ﷺ أنْ تُفْرَضَ صلاةُ القيامِ عَلَى الأُمَّةِ؛ لِالتِزَامِهِمْ إِيَّاهَا؛ وَلِأَنَّ الإِنْسَانَ رُبَّمَا إذَا التزَمَ بشيءٍ، شُدِّدَ عَلَيْه فيهِ، وفُرِضَ علَيْه، فخافَ إِذَا التزَمُوا بِها أَن تُفرضَ علَيْهم، فتَرَكَ.

فإِذَا أُعِيدتِ الجماعةُ فِي قِيامِ رَمَضَانَ بَعْدَ وَفاةِ الرَّسُولِ ﷺ لَا تَكونُ بِدعةً، لَكِنَّها تُرِكَتْ خَوفًا منَ المَشقَّةِ، وَلَمَّا تُوُفِّي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ انقطعَ الوحيُ، فَكَانت بِدْعةً بِاعتِبارِ أَنَّها تُرِكتْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَفِي عَهْدِ أَبِي بَكرٍ، وفِي أَوَّلِ خِلَافةِ عُمَرَ، ثُمَّ اسْتُؤْنِفَتْ.

يَتبيَّنُ لنَا مِنْ هَذَا أنَّ البِدَعَ كُلَّها ضَلالةٌ، وَلَا يُمْكنُ أنْ نُقسِّمَ البِدَعَ إِلَى قِسمينِ أَوْ أَكثرَ؛ لِأَنَّ مَا ظُنَّ أَنَّه بِدْعةٌ حَسَنَةٌ، فَهُو إِمَّا أَنَّهُ غيرُ بدعةٍ، وإِمَّا أَنَّه غيرُ حَسَنٍ، ولكنَّ المُبتدِعَ ظَنَّ أَنَّهُ حَسَنٌ، ولَا يُمكنُ أَنْ يَجْتمِعَ فِي الأمرِ أَنَّه بِدْعةٌ وَأَنَّ كَوْنَهُ حسنًا، ورَسولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[2].

فَعَلَى كُلِّ طَالبِ عِلْمٍ يُرِيدُ الوُصولَ إِلى الحقِّ، أَلَّا يَكونَ إِمَّعَةً، بَلْ أَنْ يَنْظُرَ فِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان، رقم (٢٠١٠).
(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم١٧١٤٤)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم(٤٦٠٧).

كَلامِ العُلَماءِ أَيُوافِقُ الحقَّ أم لَا؛ لِأَنَّهُ مَا مِن أَحَدٍ إِلَّا وَيُؤخَذُ مِن قَولِهِ وَيُرَدُّ، إِلَّا الرَّسُولُ ﷺ، فَلا يُرَدُّ شَيْءٌ مِن قَولِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ البِدَعِ؛ لِأَنَّ المُبتدِعَ قَد تَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسولِهِ ﷺ وشَرَعَ فِي دِينِ اللهِ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ، ولَمْ يَأْذَنْ بِهِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أَيِ: اتَّخِذُوا وِقَايَةً منْ عَذابِهِ، فَلَا تُقدِّموا بَينَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِهِ ﷺ فتَقَعُوا فِي العذابِ.

وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي يَسْمَعُ أَقْوالَكمْ، ويَعْلَمُ أَحْوَالَكم، فَإِيَّاكم أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمونَ، فإِنَّ اللهَ سَامعٌ، وإيَّاكُم أَنْ تُخْفُوا فِي صُدُورِكُمْ مَا لَا يَرْضاهُ اللهُ، فَإِنَّ اللهَ عَليمٌ.

وَخَتْمُ هَذِهِ الآيةِ بِهَذَيْنِ الاسمينِ الكَريمينِ، يُوجِبُ الحَذَرَ التامَّ مِنَ المُخالفَةِ بِالقولِ أَوْ بِالعَقيدَةِ أَوْ بِالفعلِ؛ لِأَنَّ العِلمَ مُتعَلَّقُهُ وَاسعٌ، فَإِيَّاكَ أَنْ تتقدَّمَ بينَ يَدَيِ اللهِ وَرَسولِهِ ﷺ فأَنْتَ عبدٌ يَجِبُ أَنْ تكونَ ذَليلًا للهِ، وَأَنْ تَتبرَّأَ منْ كُلِّ شَيْءٍ يُخالِفُ شَريعةَ اللهِ.

والمُسْلِمُ يُريدُ بِعملِهِ رضَا اللهِ، والوصولَ إِلى كَرامتِهِ، وَلَا يُمكنُ أَنْ يَصِلَ إِلى اللهِ مِن طَرِيقٍ غَيرِ طَرِيقِ اللهِ، فَالأَبوابُ مُغلَّقةٌ إِلَّا البابَ الَّذي فَتحَهُ اللهُ وَرسولُهُ ﷺ، وهوَ الشرعُ المُنَزَّلُ عَلَى مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢].

قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾.

أَيْ: لَا تَرْفَعْ صَوتَكَ فَوْقَ صَوتِ الرَّسُولِ ﷺ، ولَوْ كَانَ بِغَيْرِ بِدعةٍ، ولَوْ كَانَ بِسُنَّةٍ، الزَمِ الأَدَبَ مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واخْفِضْ صَوتَكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣]، فَخَاطِبِ الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بِأَدَبٍ، خَافِضًا الصوتَ غيرَ مُسْتَعْلٍ بِصَوتِكَ عَلَى صَوتِهِ، وإِذَا كَانَ هَذَا فِي صِفةِ المُخاطبَةِ، فَكَيْفَ بِمَن يرفَعُ صَوتَهُ بِالعقِيدةِ أَوْ بِالشَّريعةِ، الَّتِي يَدَّعِي أَنَّها شَرِيعةٌ فَوْقَ شَريعةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفَوقَ عَقيدةِ الرَّسُولِ ﷺ، فلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا أَشدُّ.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ حَذَّرَ اللهُ مِنْ مُخالفةِ أَمْرِه بِرَفْعِ الصوتِ فوقَ صَوتِ النَّبيِّ ﷺ، فَقَالَ: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، أي إِذَا رَفَعْتُم أَصْوَاتَكم فَوْقَ صَوتِ النَّبِيِّ ﷺ أو جَهرْتُم لَهُ بِالقولِ كَجَهرِ بَعْضِكم لِبَعضٍ فأَنَّ أَعمالَكم تَحْبَطُ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، تُفِيدُ أَنَّ حُبُوطَ العملِ دَقيقٌ، فَقَدْ يَفعَلُ الإِنْسَانُ مَا يُحْبِطُ عَمَلَهُ وهُو لَا يَشْعُرُ، كَما جَاءَ فِي الحديثِ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيتكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا، فَيَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا**»[1]. أَيْ: سَبعِينَ

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٠).

سَنَةً، وهِيَ كَلِمَةٌ يَسيرةٌ لَمْ يُلْقِ لهَا العبدُ بالًا؛ ولِهَذا قَالَ تَعالَى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾.

وكَلِمَةُ: ﴿أَن تَحْبَطَ﴾ مُصَدَّرَةٌ بـ(أَنْ) المَصْدَرِيَّةِ، وعامِلُها مَحْذوفٌ، تَقْديرُهُ: كَرَاهَةَ ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، يَعْني: أَنَّ اللهَ يَكْرَهُ مِنَّا أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُنا ونَحْنُ لَا نَشْعُرُ.

مَرَّتْ هَذِهِ الآيةُ عَلَى الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كالجبلِ وكَالصَّاعقةِ، وفِي قِصَّةِ ثَابتِ ابنِ قَيسِ بنِ شَمَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يُؤَيِّدُ ذَلك، كَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ مِن خُطَباءِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ المُفوَّهِينَ، ومِنْ أَعْظَمِ الخُطَباءِ أَداءً وتَرْتيبًا، وصَوْتًا أيضًا، وكانَ صَوتُهُ قَوِيًّا، فلَمَّا نَزلت هَذِهِ الآيةُ ظَلَّ فِي بَيْتِهِ يَبْكِي، وخافَ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وهوَ لَا يَشعُرُ؛ لِأَنَّ اللهَ حَذَّرَ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، وَهُوَ خَطيبٌ مُفَوَّهٌ، قَوِيٌّ، إذَا خَطَبَ بَيْنَ يَدَي الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكونَ لَه قُوةٌ، فَجَعَلَ يَبكي فِي بَيْتِهِ، وَكانَ رَسولُ اللهِ ﷺ مِنْ حُسنِ رِعَايتِهِ لِأَصحابِهِ، بَلْ وَلِأُمتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ، يَتفَقَّدُ أَصْحابَهُ أَيْنَ فُلانٌ؟ أَيْنَ فُلَانٌ؟ فَسأَلَ عَنْهُ، فقَالُوا: يَا رَسولَ اللهِ، مُنْذُ نَزَلتِ الآيةُ وهُو فِي بَيْتِهِ يَبْكِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وسأَلَهُ، فأَخْبَرَ بِهَذَا الخبرِ، قَالَ: إِنَّه خَشِيَ أَنْ يَحْبَطَ عملُهُ وهُو لَا يَشعرُ؛ لِأَنَّهُ خَطِيبٌ مُفوَّهٌ، جَهْوَرِيُّ الصوتِ، يَخْطُبُ بَيْنَ يَدَيِ الرَّسُولِ ﷺ فَأَرسلَ إِلَيْه، وَقَالَ لَه: «**يَا ثَابتُ، أَلَيْسَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ؟**»[1].

فَكَانَ جَزاءُ الخوفِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الجَنَّةَ، وَلَم يَكُنْ ثَابتُ بْنُ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَظنُّ أَنَّ هَذَا الخوفَ يُوجِبُ شَهادةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهُ بِالجَنَّةِ، بَلْ هُوَ خَافَ

(١) أخرجه ابن حبان: (١٦/ ١٢٥، رقم ٧١٦٧)، والطبراني في الكبير: (٢/ ٦٦، رقم ١٣١٠)، والأوسط: (١/ ١٨، رقم ٤٢).

أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فيكونَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

والجَوائِزُ الَّتِي حَصَلَتْ لِثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَلاثٌ، كُلُّ واحدَةٍ تُعادِلُ الدُّنيا؟

الجائِزَةُ الأُولَى: أَنَّه يَعِيشُ حَمِيدًا، وَحَمِيدًا بِمَعْنَى مَحْمودًا، فَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكونَ الرجلُ عَلَى آدابٍ عاليةٍ فِي حَياتِهِ لَا يَفْعَلُ فِعلًا يُذَمُّ عليْهِ.

الجائِزَةُ الثَّانِيَةُ: يُقْتَلُ شَهيدًا، والشهادَةُ دَرجةٌ عَاليةٌ، وَمَنْزِلَتُهُمْ فِي المَرْتَبَةِ الثَّالِثةِ مِنْ صَالِحِ الخَلْقِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ، وقَدْ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

الجائِزَةُ الثَّالِثَةُ: دُخولُ الجَنَّةِ، فَالأَمْرُ وَقَعَ كَما دَعَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عاشَ الرجلُ حَميدًا، وقُتِلَ شَهيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والجائزةُ الثَّالِثةُ نَعْلَمُ أَنَّها سَتكُونُ بِخبَرِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَقِصَّةُ اسْتِشْهادِهِ عَجِيبَةٌ، فَقَدِ اسْتُشْهِدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَقْعةِ اليَمامَةِ فِي قِتالِ مُسَيْلِمَةَ الكذَّابِ، وكانَت عليْهِ دِرعٌ، فمَرَّ بهِ رَجُلٌ وأَخذَ دِرعَهُ، اسْتَحْسَنَها وأَخذَها مِنْ أَجْلِ أَنْ يَستعمِلَها فِي القتالِ، فَرَآهُ بَعضُ أَصْحَابِهِ فِي المَنامِ وَأَخْبَرَهُ ثابتٌ بِأَنَّ دِرعَهُ أَخذَها رَجلٌ، وأَنَّها وُضِعَت تَحْتَ بُرمةٍ -أي قِدْرٍ من خَزَفٍ يُطْبَخُ فيها الطَّعامُ- فِي أطرافِ الجيشِ، وأَنَّ حَولَها فَرَسًا تَسْتَنُّ، والاستنانُ هُوَ وُقُوفٌ مَخْصوصٌ لِلخيلِ[1]، فَتَعَجَّبَ الرَّجلُ مِن هَذِهِ الرُّؤيةِ، فلَمَّا أَصبحَ أَخبرَ قَائدَ وَقْعةِ اليَمامَةِ

(١) استن الفرس: أي تحرك مرحا ونشاطًا ولا راكب فوقه.

خَالدَ بْنَ الوَليدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فذَهَبَ يَطْلُبُ الدِّرعَ حَسبَ مَا وَصَفَها ثَابتٌ، فَوجدَها فِي أَطْرافِ الجيشِ، وعَلَيْها بُرْمةٌ وُضِعَت الدِّرعُ تحْتَها، فوَجَدَ البُرْمَةَ، ووَجَدَ الفَرَسَ حَوْلَها يَسْتَنُّ، وإِذَا بِالدِّرعِ مَوْجودةٌ، فَثَابتٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدَ أَنْ قُتِلَ عَلِمَ كَيْفَ أُخِذتْ دِرْعُهُ، وأينَ وُضِعَت، ومَا حَوْلَها؛ لِأَجلِ أَنْ يَكونَ هَذَا قَرِينةً تَبْعَثُ الَّذِي رَآهُ فِي المَنامِ عَلَى طَلَبِ الدِّرعِ، فوَجَدَ الدِّرعَ كَما وَصَفَ ثابتٌ، فأَخَذَها وذَهَبَ بِها إِلى خَالِدٍ، وكانَ ثابتٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْصَى بِوَصيَّةٍ أُخْرَى، فَحُمِلَتْ هَذِهِ الوَصِيَّةُ إِلى القَائدِ الأَعْلَى، أَبِي بَكرٍ الصِّديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَلِيفةِ هَذِهِ الأُمَّةِ بعدَ نَبِيِّها، وهُو أَوَّلُ خليفةٍ استَحَقَّ الخلافَةَ بِإشَارةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ وَإِجْماعِ أَهْلِ الحَلِّ والعَقْدِ عَلَى بَيعتِهِ.

فَأَبُو بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أُخْبِرَ أَنفَذَ الوَصِيَّةَ، وَهِيَ وَصِيةٌ مِن مَيِّتٍ، لَكن دَلَّتِ القَرَائنُ عَلَى صِدْقها، وأَخَذَ بعضُ العُلَماءِ -ومِنْهُم شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيةَ رَحِمَهُ اللَّهُ- أَنَّ وَصِيَّةَ المَيِّتِ تُنَفَّذُ إذَا دلَّتِ القرائِنُ عَلَى صِدْقِها، وَأَمَّا إذَا لَم تَدُلَّ القرائنُ عَلَى صِدْقِها، فَلَا تُنَفَّذُ.

فَلَو رَأيتَ أَبَاكَ فِي المَنَامِ بَعدَ مَوْتِه، وَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنِّي جائعٌ، فتَصَدَّقْ عنِّي بِخُبزٍ مِنْ شَعيرٍ، أَوْ بِخُبزٍ مِنْ بُرٍّ، فلَا تُنَفَّذُ الوَصِيَّةُ؛ لأَنَّهُ لا تُوجَدُ قَرائِنُ، وَالشَّيْطَانُ يَتَمَثَّلُ بِصُورةِ أَيِّ إِنْسَانٍ إِلَّا رسولَ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلا يُمْكِنُ لِلشَّيطانِ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِه، لَكنْ غَيرُه وَلَو بَلَغَ ما بَلَغَ مِنَ الفَضْلِ ومنَ العلمِ، فَيُمْكِنُ لِلشَّيطانِ أَنْ يَتَصَوَّرَ به.

فَلَا يَجُوزُ تَنْفِيذُ وَصيةِ المَيِّتِ إِلَّا إذَا دَلَّتِ القرائنُ عَلَى صِدْقِهَا، ولوْ أَنَّنا استَجَبْنا لِكلِّ رُؤْيةٍ رَأَيْناها، لَأَمكنَ لكلِّ مُبْتَدِعٍ أَنْ يَقُولَ: رأيتُ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ

كَذا وكذَا، بَلْ بَعْضُهم يَقُولُ -مِن كِبَرِ كَذِبِه-: رَأَيْتُ اللهَ، فقالَ لِي كَذَا وكَذَا!! ولكنَّ هَؤُلاءِ كَذَبَةٌ لَا شَكَّ، فإِذَا أَتَوا بِمَا يُخَالِفُ الشرعَ المنقُولَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ فَهم كَاذبُونَ مَهْمَا قَالُوا، فَلَا يُمْكِنُ لِلرُّؤَى أَنْ تُغَيِّرَ الشريعَةَ.

ولقدْ ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ عنْ شَيخِهِ ابنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ أَنَّهُ أَشْكلت عَلَيْه مَسَائِلُ فِي الفِقهِ، وَشَيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ قَلَّ أَنْ تُشْكِلَ عَلَيْه مَسألةٌ فِي الفقهِ؛ لِأَنَّ اللهَ أعطاهُ عِلْمًا وَاسِعًا، وحِفْظًا تامًّا، وفَهْمًا ثاقبًا، فيَقِلُّ الإشكالُ عندهُ، ولكنْ مَعَ ذلكَ الإِنْسَانُ بَشَرٌ.

يَقُولُ ابنُ تَيْمِيَّةَ: فَرأَيتُ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ فِي المَنَامِ، وسَأَلْتُهُ عنْهَا، ومِنْ جُمْلَةِ مَا أَشْكَلَ عليْه أَنَّه تُقَدَّمُ إليه جَنائِزُ يُصَلِّي علَيْها، وهُم منْ رُؤَساءِ المُبْتدعَةِ، وتَعْرِفونَ أنَّ البِدْعةَ تَكْبُرُ وتَصْغُرُ بِحَسبِ الدَّعوى إِلَيْها، فقدْ تكونُ البِدْعةُ فِي حَدِّ ذَاتِهَا لَا تُكَفِّرُ، لَكنْ إذَا كَانَ الإِنْسَانُ دَاعِيًا إِلَيْها قدْ يَكْفُرُ بذلكَ، وإِنْ كانتْ هِيَ بذاتِهَا لَا تُكَفِّرُ؛ لِأَنَّ الدَّعوةَ إِلَى مُنابذةِ السُّنَّة بِالبِدْعَةِ أَمرٌ خَطِيرٌ.

كَانتْ تُقَدَّمُ الجنائزُ، وكانَ شَيخُ الإِسْلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَشُكُّ فِي إِسْلامِهِمْ، هَلْ هُم كُفَّارٌ بِبِدَعِهِم أَو لَا؟ يَقُولُ: فَرَأَى النَّبِيَّ ﷺ فقالَ له: يَا أَحمدُ، الشَّرْطَ الشَّرْطَ. أو قال: عَلِّقِ الدُّعاءَ بالشرطِ[1]. أَيِ استثنِ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ مُؤْمِنًا، فاغْفِرْ لَه وارْحَمْهُ، وهَذِهِ -الحمدُ للهِ- تَوْسِعَةٌ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا تَعْرِفُ أَنَّ هَذَا الرجلَ لا يُصَلِّي، ولكنْ تَخْشَى أَنَّه يُصَلِّي فِي بَيتِهِ، فإِنْ كَانَ لا يُصَلِّي أبدًا، فهوَ كافرٌ لَا تَجوزُ الصَّلَاةُ عليهِ، ولا دَفْنُهُ مَعَ المُسْلِمِينَ، وإِنَّما يُخْرَجُ بِهِ إِلى الصَّحْرَاءِ بعيدًا عنِ المَنَازِلِ، وتُحْفَرُ لهُ

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٣٠٠).

حُفْرةٌ، ولَا يُجْعَلُ لهُ لَحْدٌ، ولَا بِناءٌ- ويُرْمَسُ كَما تُرْمَسُ الجِيَفُ؛ لِئَلَّا يَتَأذَّى النَّاسُ بِرَائحَتِهِ، ويَتَأذَّى أهْلُهُ بِمُشَاهَدَتِهِ.

لكنْ قَد يَخْشَى الإِنْسَانُ أنَّ هَذَا الرَّجُلَ يُصَلِّي فِي بَيتِهِ ونحنُ لَا نَعلمُ، فَيَشْتَرِطُ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا فَاغْفِرْ لَهُ وَارحَمْهُ. والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ يَعْلَمُ أَنَّه مُسلمٌ أَوْ غيرُ مسلم، قالَ: علَيْكَ بِالشَّرطِ يا أحمدُ. فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أنَّ مَن قُدِّمَ إِلَيْكَ لِتُصَلِّيَ علَيْهِ، وأنتَ شَاكٌّ فِيهِ، فَاشْتَرِطْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تُقِرُّ هَذِهِ الرُّؤْيَا وأنتَ الآنَ تُنْكِرُ أنْ تكونَ الرُّؤيا مَصدرًا لِلتَّشريعِ؟

قُلْنَا: لِأَنَّ هُناكَ قَرائنَ شَهِدَ لهَا الشَّرْعُ، فَهُناك اسْتِثْناءٌ فِي العبادَاتِ يَجْعَلُ اللازمَ مِنها جائزًا، وهُنَالك استِثْناءٌ فِي الدُّعَاءِ، وكِلَاهما وَاردٌ.

فَالاستثناءُ فِي العبادَاتِ الَّذِي يَجْعَلُها جَائزةً بَعدَ أَن كَانتْ لَازمةً جَاءتْ فِي حَديثِ امرأةٍ قريبةٍ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَهِيَ ضُباعةُ بِنتُ الزُّبيرِ بنِ عبدِ المُطلبِ، جَاءتْ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَهِيَ تُرِيدُ الحجَّ، والحجُّ إذَا شَرَعَ فِيهِ الإِنْسَانُ صَارَ لَازِمَ الإتمامِ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦]، فقالتْ: يَا رَسولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ الحَجَّ وأَجِدُني شَاكِيةً -يَعْني: مَرِيضةً- قَالَ: «**حُجِّي وَاشْتَرِطِي، وَقُولِي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَني**»[١]، فَإِذَا كَانَ الإِنْسَانُ مَريضًا ويُرِيدُ العُمْرَةَ أوِ الحجَّ، وخافَ أَلَّا يَستطيعَ إِتْمامَه، فَلْيَقُلْ بِلِسانِه: إِنْ حَبَسَنِي حَابِسٌ، فَمَحِلِّي حَيْثُ حَبَستَنِي،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز اشتراط المُحْرم التحلل بعُذْر المَرض ونحوه، رقم (١٢٠٧).

فَإذا حُبِسَ، يَخْلَعُ ثِيَابَ الإحْرامِ، وَيَتَحَلَّلُ مِنْ إحَرامِهِ، وَيَمْشِي إِلَى أَهْلِهِ، وهَذَا الشَّرطُ جَعَلَ اللازمَ جائزًا.

وفِي الدُّعَاءِ: اقْرَأْ آياتِ اللِّعَانِ، الَّذِي يَرْمِي زَوجتَهُ بالزِّنَى، وَلَمْ يَثْبُتْ ذلك بِإِقْرارِها، أوْ بِبَيِّنَةٍ يُطالَبُ باللِّعَانِ، وَإِلَّا جُلِدَ بحدِّ القذفِ، واللِّعَانُ: أَنْ يَشهدَ أربعَ شهاداتٍ باللهِ ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦-٧]، هَذَا دعاءٌ، لكنْ إِنْ كَانَ منَ الكَاذِبِينِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ كَاذِبًا فَلا لَعْنَةَ، وهَذَا اسْتِثْناءٌ فِي الدُّعَاءِ.

والمَرْأَةُ تَشْهدُ أرْبعَ شَهَاداتٍ باللهِ: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور:٨-٩].

إِذَنْ، فَهَذِهِ الرُّؤْيا الَّتِي رَآهَا شَيْخُ الإِسْلامِ وبناءً علَيْها قَالَ فِي الدُّعَاءِ عَلَى الجنازةِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَه إنْ كَانَ مُسْلِمًا. لهَا أَصْلٌ فِي السُّنَّةِ، فَنَقْبَلُها، وإِنْ لَمْ يَكُنْ لها أَصْلٌ لَا نَقْبَلُها، لَا مِنْ شَيْخِ الإِسْلامِ وَلَا غَيْرِهِ.

فالرُّؤَى لَا تَثْبُتُ بِها الأحكامُ، لَكِنْ إِذَا شَهِدَ لَهَا الشرعُ بِالصحةِ أَوِ الواقعُ بالصحَّةِ، عَمِلْنَا بِها، ولكنَّ الواقعَ مِمَّن حَالُه كَحَالِ الصَّحَابَةِ: صِدْقٌ، وَأَمَانَةٌ، أَمَّا أُولَئِك المُشَعوِذُونَ الَّذِينَ يَقُولونَ: رَأَيْنا كَذا وكَذا، وَآيَةُ ذَلكَ كَذَا وكَذَا، ثُمَّ يَأْتِي بِهَا الشَّيْطَانُ وَيُصَوِّرُهَا لِلنَّاسِ، فَهؤُلَاءِ لَا يُقْبلُ مِنْهمْ؛ لِعَدَمِ الثِّقةِ بِأَقْوالِهِمْ؛ وَلِعَدَمِ أَمَانتِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

كانَ ثَابِتُ بنُ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ خُطباءِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلَّمَ المُفوَّهِينَ، ومِن أعظمِ الخُطباءِ أداءً وتَرْتِيبًا وصوتًا أيضًا، وكانَ صوتُه قَويًّا، فلَمَّا نزلَتْ هَذِهِ الآيةُ ظلَّ فِي بيتِه يَبْكِي، وخافَ أَنْ يَحْبطَ عَمَلُه وَهُوَ لَا يَشْعُرُ؛ لأَنَّ اللهَ حَذَّرَ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، وهو خطيبٌ مُفوَّهٌ قويٌّ، إِذَا خَطَبَ بينَ يَدَيِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَا بُدَّ أَنْ تكونَ لَهُ قُوَّةٌ، فجعَلَ يَبْكِي فِي بيتِه، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ من حُسْنِ رِعايتِه لأصحابِه، بَلْ ولأُمتِه إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ، يَتفقَّدُ أصحابَه أينَ فلانٌ؟ أينَ فلانٌ؟ فسأَلَ عَنْهُ، فقالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، منذُ نزلتِ الآيةُ وَهُوَ فِي بيتِه يبكي، فأرسلَ إِلَيْهِ وسأَله، فأَخْبرَ بِهَذَا الخَبَرِ، قَالَ: إِنَّه خَشِيَ أَنْ يَحْبطَ عَمَلُه وَهُوَ لَا يَشْعُرُ؛ لأَنَّهُ خطيبٌ مُفوَّهٌ جَهْوَرِيُّ الصَّوتِ يَخْطُبُ بينَ يَدَيِ الرَّسُولِ ﷺ فأَرْسَلَ إِلَيْهِ، وقال لَهُ: «يَا ثَابِتُ، أَلَيْسَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ؟»[1].

فصارَ الخَوْفُ سَبَبًا لأَمْنِه، فَهُوَ خَائِفٌ مِنَ اللهِ، ومِنْ عذابِ اللهِ ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، فبيَّنَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ لَيْسَ من هَؤُلَاءِ، وأَنَّ عَاقِبَتَهُ أَنْ يُقتَلَ شَهِيدًا ويَدْخُلَ الجَنَّةَ، وَلِهَذَا نَحْنُ نَشهَدُ الآنَ أَنَّ ثَابتَ بنَ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهلِ الجَنَّةِ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَهِدَ لَهُ، وفِعْلًا وَقَعَ، فإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قُتِلَ شَهِيدًا فِي وقعةِ اليَمامَةِ[2].

وكَانَ لهَذَا الصَّحَابِيِّ قصةٌ غريبةٌ، أَنَّهُ لَمَّا قُتِلَ مرَّ بِهِ رجلٌ مِنَ الجيشِ ووَجَدَ عَلَيْهِ درعًا وكأَنَّهُ أَعْجَبَتْهُ الدِّرْعُ فسَلَبَهَا، ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى رحلِهِ ووضعَها تَحْتَ بُرمَةٍ؛ وَهِيَ

(١) المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٦٧ رقم ١٢٩٥).

(٢) الإيمان لابن منده (٢/ ٥٨٩).

قِدْرٌ مِن خَزَفٍ من طِينٍ مَشوِيٍّ، وفي اللَّيْلِ رَأَى رَجُلٌ من أصحابِ ثَابتِ بنِ قيسٍ ثَابِتًا فِي المَنَامِ، فأَخْبَرَه أَنَّهُ مرَّ بِهِ رجلٌ مِنَ الجَيشِ وأخذَ درعَهُ ووضعَها تَحْتَ بُرمةٍ، وحولَها فرسٌ يَسْتَنُّ[1]، وأوصَى بوَصِيَّةٍ بَلَّغَهَا قَائدُ الجُندِ خَالدُ بنُ الوليدِ إِلَى أَبِي بكرٍ، فَلَمَّا أصبحَ الرَّجُلُ ذَهَبَ إِلَى المكانِ الَّذِي وَصَفَه ثَابتُ بنُ قيسٍ ووَجَدَ البُرمةَ، ووجدَ تحتَها الدِّرعَ، ووجدَ عندَها الفرسَ يَستنُّ، ثُمَّ أُخْبِرَ القائدُ، ونَقَلَ الوصيةَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ونَفَّذَ وَصِيَّتَه.

ويُقَالُ: إِنَّه أولُ شخصٍ نُفِّذَت وصيتُه بَعْدَ موتِه؛ لأَنَّ الوَصِيَّةَ لَا تُنَفَّذُ إِلَّا إِذَا أَوْصَى بِهَا الإِنْسَانُ وَهُوَ حَيٌّ، لَكِنْ بَعْدَ وفاتِه فَلَا يُمْكِنُ، وَلِهَذَا نَحْنُ نَسْمَعُ كثيرًا مِنَ الأَمواتِ يأتونَ إِلَى أهليهِم ويقولونَ: أنقذونا بماءٍ، أَنْقِذُونا بطعامٍ، فيَضِيقُ صدرُ الرَّائي ويَقُولُ: لَعَلَّ هَذَا المَيِّتَ يُعذَّبُ، ويحتاجُ إِلَى طعامٍ وشرابٍ، ولكنَّنا نقولُ: لَا تكُنْ فِي قَلَقٍ؛ قَدْ يَكُونُ هَذَا من ضَرْبِ الأمثالِ مِنَ الشَّيطانِ؛ لأَنَّ الشَّيْطَانَ يَستطِيعُ أَنْ يَتصَوَّرَ بصورةِ أَيِّ إِنْسَانٍ فِي المَنامِ إِلَّا صورةً وَاحدةً، وَهِيَ صورةُ النَّبِيِّ ﷺ فلَا يُمْكِنُ أَنْ يتمَثَّلَ بِهَا الشَّيْطَانُ[2]، أَمَّا غيرُه فوارِدٌ، فقَد يَتمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بصورةِ أبيك أَوْ عمِّك أَوْ أخيكَ أَوِ ابنِك، ويأتي بالأشياءِ الَّتِي تُزْعِجُكَ؛ لأَنَّ الشَّيْطَانَ حَرِيصٌ عَلَى إزعاجِ بَنِي آدمَ.

قولُه تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ معناه: لَا تَجْعَلْ صَوتَكَ أَعْلَى من صَوتِ الرَّسُولِ، فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ يُحَدِّثُك بصوتٍ مُنْخَفِضٍ فاجْعَلْ صوتَك فِي مُخاطبتِه أخفضَ منه، لَا تَجْعَلْه أعلَى مِنْهُ، ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ

(١) استن الفرس: أي تحرك مرحا ونشاطًا ولا راكب فوقه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الرؤيا، باب قول النبي ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني»، رقم (٤٢١٣).

بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾؛ يَعْنِي عِنْدَ مُناداتِه لا تَصرُخْ كَمَا تَصرُخُ لَوْ ناديتَ زميلَك، بَلْ خَاطِبْه بأدبٍ يَلِيقُ بِهِ ﷺ فرُبَّمَا تُنادِي شخصًا من زُملائِك وتَصْرُخُ: يَا فلانُ، يَا فلانُ. بأعلَى صوتٍ، لَكِنْ مُخاطَبتُك للنَّبِيِّ ﷺ يَجِبُ أَنْ تكونَ بأَدَبٍ ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

في سورةِ النُّور قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور:٦٣]، وأحدُ مَعْنيي الآيةِ أَنْ تَذْكُرَ شَخْصًا مِنَ النَّاسِ باسمِه: يَا عبدَ اللهِ، أَوْ يَا عبدَ الرحمنِ، أَوْ يَا بكرُ، أَوْ يَا خَالِدُ، أَوْ يَا عَلِيُّ، وَمَا أشبهَ ذَلِكَ.

لَكِنِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا تَقُلْ له: يَا محمدُ، بَلْ قُلْ: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا نَبِيَّ اللهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

والمَعْنَى الثَّاني إِذَا دَعاكُم فأَجِيبوه؛ وَلَا تَجعلوهُ كدُعاءِ بعضِكم بعضًا؛ فَإِذَا دعاك صَاحِبُك فَأَنْتَ بالخيارِ، إِنْ شئتَ فأَجِبْ، وإِن شئتَ فَلَا تُجِبْ، أَمَّا إِذَا دَعاكَ الرَّسُولُ فأَجِبْ، كَمَا قَالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] فِي هَذِهِ الآياتِ.

وإِذَا كَانَ اللهُ تَعالَى نَهانَا أَنْ نَرْفَعَ أصواتَنا فوقَ صوتِ النَّبِيِّ، أَوْ أَنْ نَجْهَرَ لَهُ بالقَوْلِ كَمَا نَجْهَرُ لبعضِنا، فما بالُنا بالذين يَرفعون أَقْوالَهم عَلَى أَقْوالِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا بالُكم بالذين يُقدِّمون أنظمةَ البَشَرِ عَلَى مَا جاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَمَا بالُكم بالذين يَسْخَرُون مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ويقولون: إِنَّ هَذِهِ أنظمةٌ رَجْعِيَّةٌ باليةٌ، وإِنَّها لَا تَصْلُحُ لهَذَا العصرِ، وإِنَّه يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَستبدِلَ بِهَا أنظمةً من طَواغيتِ الكُفْرِ وَالضلالِ.

ما بالُكم بمَن يرَوْنَ هَذَا ويُنفذونه ويَجْعلونَ ذَلِكَ أنظمةَ دُوَلِهِم، أَلَيسَ هَؤُلَاءِ أَولَى بِأَنْ يَحْبَطَ عملُهم، وأَولَى أَنْ يكونُوا مُرتدِّينَ عَنِ الإِسْلَامِ، وأَوْلَى أَنْ يُوصَفوا بالكفرِ الَّذِي قَالَ اللهُ فيه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

إِنَّ هَؤُلَاءِ لهم مَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي سورةِ القتالِ، فِي قولِه تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [محمد:٢٥-٢٧]، يقولون لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ: سنُطيعُكم فِي بعضِ الأمرِ، لَا فِي كلِّه، فما بالُكم فيمَن يُطِيعُ هَؤُلَاءِ فِي كُلِّ الأمرِ، فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ يَضْرِبون وُجوهَهم التي أقبلُوا بِهَا عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَرِهوا مَا نَزَّلَ اللهُ، ويَضْرِبونَ وُجوهَهم الَّتِي وَلَّوْهَا عمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فلذَلِكَ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ عِنْدَ الموتِ، ذَلِكَ بأَنَّهم كَرِهوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فأَحْبَطَ أعمالَهم.

قولُه تَعالَى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ يَعْنِي نَهَيْناكم عَنْ هَذَا كراهةَ أَنْ تَحْبَطَ أعمالُكم وأنتُم لَا تَشعرُون؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَحْبَطُ عملُ الإِنْسَانِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وكَمْ مِن كلمةٍ وَاحدةٍ أوقعتْ صَاحبَها بالكفرِ، فهَوَى بِهَا فِي النَّارِ.

فوائدُ هاتَيْن الآيتَيْن:

الفَائِدَةُ الأُولى: تحريمُ التَّقديمِ بينَ يَدَيِ اللهِ ورسولِه، وأُخِذَ التحريمُ من قولِه

تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾.

الفَائِدَةُ الثَّانيةُ: تَحْرِيمُ البِدَعِ فِي الدِّينِ، ويُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾، فإِنَّ المُبتدِعَ مُقَدِّمٌ بينَ يَدَيِ اللهِ ورسولِه، وَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ المُبتدِعَ شَرَعَ فِي دينِ اللهِ مَا لَيسَ منه، فلِسانُ حَالِه يَقُولُ: إِنَّ الشَّرْعَ قَاصِرٌ؛ لأَنَّ هَذِهِ عِبَادَةٌ لم يأتِ بِهَا الشَّرعُ، فيَكُونُ قَاصرًا؛ وَلِهَذَا تُعْتَبَرُ البِدَعُ مِنْ أخطرِ مَا يَكُونُ عَلَى دينِ الإِنْسَانِ؛ لأَنَّ مَضْمونَها ومُستلزماتِها صعبةٌ للغايةِ.

خطر الابتداع في الدين:

الابتداعُ فِي دِينِ اللهِ يُنافي قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، اليومَ: أَيْ يومَ عرفةَ، فِي عهدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفي حَجَّةِ الوداعِ، أكملتُ لكم فَلَا شَيْءَ مِنَ الدِّينِ إِلَّا كَمُلَ.

فَلَا نَحتاجُ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ إِلَى شَيْءٍ نَدِينُ للهِ بِهِ غيرِ مَوجودٍ فِي الشَّرْعِ، فمَن ابْتَدَعَ فِي الدِّينِ، فإِنَّ ابْتَداعَه يُنافي مَضْمونَ هَذِهِ الآيَةِ مُنافاةً تامَّةً، وَالإِنْسَانُ المُبتدِعُ لَوْ عَلِمَ مَا فِي بدعتِه مِنَ الخطرِ العظيمِ لكان أشدَّ نُفورًا منها من نُفورِه مِنَ الأَسَدِ.

ومن مَفاسدِ البِدَعِ أَنَّ المُشتغِلَ بِهَا يُهْدِرُ سُنَّةً ثَابتةً، كُلُّ إِنْسَانٍ يَشتغِلُ ببدعةٍ، فإِنَّ اشتغالَه بِهَا سَيُهْدِرُ سُنَّةً؛ وَلِهَذَا قَالَ بعضُ السَّلَفِ: مَا ابْتَدَعَ قومٌ بِدْعةً إِلَّا تَرَكُوا مِنَ السُّنَّةِ سُنَّةً مِثْلَها أَوْ أَشَدَّ؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ إن عَمِلَ بالبدعةِ اشْتَغلَ بِهَا عَنِ السُّنَّةِ.

ومِن مَضارِّ البِدْعةِ أَنَّهَا تَقدِيمٌ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ورسولِه، وتَعَدٍّ عَلَى دِينِ اللهِ، وعَلَى رسولِ اللهِ ﷺ ومن مَفاسِدِ البِدَعِ أَنَّ مَضْمونَها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِمَّا جَاهِلٌ بها، وأنَّها من دِينِ اللهِ، وإِما كَاتِمٌ لها، وكِلَا الأمرينِ خَطِيرٌ، فَهَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَالمًا

ببدعتِك هَذِهِ، وأنَّها من دينِ اللهِ، أَوْ جَاهِلًا؟

فإِنْ قَالَ: كَانَ جَاهِلًا بِهَا فهَذَا أمرٌ خطير جدًّا؛ لأَنَّهُ يَرْمِي النَّبِيَّ ﷺ بالجهلِ فِي دينِ اللهِ، وإِنْ قَالَ: إِنَّه كَانَ عَالمًا، يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كَاتمًا لرسالةِ اللهِ غيرَ مُبلِّغٍ لها؛ لأَنَّنا فَتَّشْنا فِي سُنَّتِه ولم نَجِدْ هَذِهِ البِدْعةَ من دِينِه، فحِينَئذٍ يَكُونُ كَاتمًا لها، فالمُبتدِعُ لَا شَكَّ أَنَّ بِدْعتَه تَستلزِمُ وصفَ رسولِ اللهِ ﷺ بأحَدِ أمرين: إِمَّا الجهل، وإِما الكِتْمان، وكلاهما عَيْبٌ عظيمٌ لرسولِ اللهِ ﷺ.

فإِن قَالَ: يحتملُ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بلَّغَها ولكنْ لم يَنْقُلْها الصَّحابةُ. فَهَذَا مُشكِلٌ أيضًا؛ لأَنَّهُ يَلْزَمُ عَلَى هَذَا القَوْلِ أَنَّ الصحابةَ قَدْ كَتَموا الشَّرْعَ وفرَّطوا فِي نَقْلِه، هَذَا من وجهٍ، ويلزمُ أَيْضًا مَفْسدةٌ أُخرَى أكبرُ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ لم يَحْفَظِ الشَّرِيعةَ، مَعَ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقُولُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ بلَّغها كَمَا زَعَمَ هَذَا المُبتدِعُ، ولكِنْ لم تُنْقَلْ إِلينا عَنْ طَرِيقِ الصَّحابةِ، فَلازمُ ذَلِكَ أَنَّ الشَّرْعَ غيرُ محفوظٍ؛ لأَنَّهُ لم يُنْقَلْ إِلينا، وهَذِهِ مَفْسدةٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ بِهَا إِنْسَانٌ يُؤمِنُ باللهِ وَاليومِ الآخرِ.

ومِن مَفَاسِد البِدَعِ، أَنَّ صَاحبَها يَشعُرُ بِأَنَّهُ قَدْ سَنَّ طريقةً بنفسِه هُوَ، لِيَتَّبِعَه النَّاسُ عَلَيْهَا، وحِينَئذٍ يَدَّعِي لنفسِه مُشاركةَ رسولِ اللهِ ﷺ فِي الرِّسالةِ وأَنَّه مُشرِّعٌ؛ وَلِهَذَا أتى بهَذِهِ البِدَعِ للنَّاسِ حَتَّى يَمْشُوا عَلَيْهَا.

فلَوْ لم يَكُنْ مِنْ مَفَاسِدِ البِدْعةِ إِلَّا أَنَّهَا مِنَ التَّقدُّمِ بينَ يَدَيِ اللهِ ورسولِه لكَفَى بِذَلِكَ تَنفيرًا عَنْهَا، وننصَحُ المُبتدِعَ: أَنْ يَكتفِيَ بِمَا ثَبَتَ من شَرْعِ اللهِ عَمَّا لم يَثْبُتْ، ودَعْ مَا لم يَثبُتْ، أَرِحْ نفسَك وأَرِحْ غيرَك وَاجتنبِ الشَّرَّ وأَسْبَابَ الشَّرِّ وستَجِدُ الخيرَ كلَّه.

الفَائِدَةُ الثَّالثةُ: إثباتُ اسمَي السَّميعِ وَالعليمِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، يُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وَاعلَمْ أَنَّ مِنَ القواعدِ المُقرَّرةِ أَنَّ اسمَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إِذَا كَانَ مُتعدِّيًا، فَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ الإِيمانُ بِهِ إِلَّا بأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

الأَوَّلُ: إثباتُه اسمًا للهِ.

الثَّاني: إثباتُ الصِّفةِ الَّتِي تَضَمَّنها هَذَا الاسْمُ.

الثَّالثُ: إثباتُ المَعْنَى المُتعلِّقِ بِهَا.

مِثالُ ذَلِكَ: اسمُ اللهِ السَّميعُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ الإِيمانُ بِهِ إِلَّا بِأَنْ تُثبِتَ بِأَنَّ السَّميعَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ؛ لأَنَّ مِنَ المُبتدعةِ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ أَسْمَاءَ اللهِ لَيْسَتْ أَسْمَاءً لَهُ، لكنَّها أسماءٌ لبعضِ مخلوقاتِه، لَا يُمْكِنُ أَنْ تُؤمنَ بالاسمِ حقيقةً إِلَّا بإثباتِ أَنَّ السميعَ مِنْ أَسْمَاء اللهِ، وأنَّ هَذَا الاسْمَ يَدُلُّ عَلَى صِفَةٍ، وَهِيَ السَّمْعُ، وقُلْنَا ذَلِكَ لأَنَّ مِنَ المُبتدعةِ المُعطِّلةِ مَن يَقُولُ: إِنَّ أَسْمَاءَ اللهِ أعلامٌ محْضَةٌ لَا تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَلَا صِفَةٍ.

والمَعْنَى المُترتبِ عَلَى السميعِ أَنَّهُ يسمَعُ؛ وَلِهَذَا جَاء هَذَا المَعْنَى فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]، أَمَّا إِذَا كَانَ الاسْمُ غيرَ مُتعدٍّ، بَلْ هُوَ لازِمٌ، فَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ الإِيمانُ بِهِ إِلَّا بإثباتِهِ اسمًا للهِ، وإثباتِ المَعْنَى الَّذِي دَلَّ عليه؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مَعْنَى يَتعلَّق بِهِ خَارِجٌ عَنْ ذَاتِ اللهِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: الحيُّ، فالحيُّ اسمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، فَلَا يَتِمُّ الإِيمانُ بِهِ إِلَّا بِإثباتِه اسمًا للهِ وإثباتِ المَعْنَى الَّذِي دلَّ عَلَيْهِ، وَهُوَ الحياةُ، أَمَّا الحياةُ فإنَّها تَتعلَّقُ بذاتِ اللهِ فَقَط، فالحيُّ إِذَنْ لَا يَتِمُّ الإِيمانُ بِهِ إِلَّا بإثباتِه اسمًا مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ وإثباتِ المَعْنَى الدالِّ عَلَيْهِ، وَهُوَ الحياةُ، وَلَا يَتعلَّقُ بالغيرِ، هَذِهِ قَاعدةٌ مُفيدةٌ فِي أَسْمَاءِ اللهِ.

الفَائِدَةُ الرَّابعةُ: تحريمُ رفعِ الصَّوتِ فَوْقَ صوتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخَذْنَاهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات:٢]، وَفِيهَا التَّحذيرُ من ذَلِكَ غايَةَ التَّحذيرِ، وأنَّ الإِنْسَانَ رُبَّمَا يُحْبَطُ عملُه برفعِ صوتِه عَلَى رسولِ اللهِ ﷺ لِقَوْلِهِ: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢].

الفَائِدَةُ الخامسةُ: تحذيرُ الإِنْسَانِ مِنَ الأفعالِ أَوِ الأَقْوَالِ الَّتِي قَدْ تَخْفَى، وَقَدْ تَكونُ سَببًا لكفرِه وشِرْكِه وَهُوَ لَا يَشعُرُ؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، وَالعَمَلُ لَا يُحْبَطُ إِلَّا بالكفرِ، لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣].

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾، وغضُّ الصوتِ: هُوَ خَفْضُه ولِينُه، بحيثُ لَا يَكُونُ جَاهرًا به، وَلَا يَكُونُ عَنِيفًا به، بَلْ يَكُونُ -كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ- غضًّا لَيْسَ فِيهِ عُنْفٌ، وَلَيْسَ فِيهِ قُوةٌ، وَلَيْسَ فِيهِ جهْرٌ لَا يَلِيقُ بمَقامِ رسولِ اللهِ ﷺ هؤُلَاءِ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يُرِيدُ أَنْ يَرتفِعَ صوتُه فَوْقَ صوتِ النَّبِيِّ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ قولُه مُقَدَّمًا عَلَى قَولِ النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى إِنَّه إِذَا قِيلَ لَهُ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ كَذَا. استنْكَفَ وَاستكبَرَ وقَالَ: قَالَ فلانٌ كَذَا.

وقد رُوِيَ عَنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»(١)، فَهَذَا ابنُ عبَّاسٍ يُنْكِرُ عَلَى مَن عَارَضَ قولَ النَّبِيِّ ﷺ بقولِ أَبِي بكرٍ وعُمرَ، مَعَ أَنَّهما اللَّذانِ أُمِرْنا بالاقتداءِ بهما، فَكَيْفَ بمَن دُونَهما من هَذِهِ الأُمَّةِ، كَيْفَ بمَنْ يُعارِضُ قولَ الرَّسُولِ ﷺ بقولِ شيخٍ مُحرِّفٍ جاهلٍ بالحقِّ، أَوْ مُعارِضٍ للحقِّ من هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُقَدِّمون قولَ أشياخِهم ومَن يَزْعُمونَهم أولياءَ عَلَى قولِ اللهِ ورسولِه، بِمَا أحدَثوا فِي دينِ اللهِ مِنَ البِدَعِ، وبما جاءوا بِهِ مِنَ الضلالةِ.

فعَلَى المَرْءِ أنْ يَكُونَ مُحكِّمًا لكتابِ اللهِ ولسُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وَلَا يستبدِلَ بهما شيئًا، وَلَا يُقَدِّمَ عليهما شيئًا، فإنَّهما هما الطَّرِيقُ المُوصِّلُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.



(١) أخرج أحمد (١/ ٣٣٧، رقم ٣١٢١) نحوه بلفظ: «أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَيَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

الدَّرسُ الثَّالِث:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

تَشتمِلُ سورةُ الحُجراتِ على آدابٍ اجتماعيةٍ وأخلاقيةٍ عظيمةٍ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢].

لا تَرْفَعْ صوتَك فوقَ صوتِ النبيِّ، أي: إذا كانَ يَتكلَّمُ مَعَكَ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فلا تَجْعَلْ صوتَك أَرْفَعَ مِن صوتِه، بلِ اجعَلْ صوتَك أخفضَ من صوتِه؛ ليكونَ الأَعْلَى صوتًا الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهذا أدبٌ عظيمٌ.

وعلى هذا؛ فإذا جاءكَ حُكْمٌ منَ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهل يَجوزُ لكَ أن تَجْعَلَ هواكَ فوقَ حُكْمِ الرسولِ؟

الجوابُ: إذَا كانَ لا يَجُوزُ أنْ تَرفَعَ صَوتَكَ على صوتِ الرسولِ؛ فما بالُك بحُكمِكَ؟ فلا يَجوزُ أن تَجْعَلَ حُكْمَكَ مُساويًا لحُكْمِ الرسولِ بحيثُ تَطْلُبُ الاختيارَ، وتَنْظُرُ أَيُّهما أحسنُ، أبدًا، فما دامَ حُكْمُ الرسولِ فهوَ أَحْسَنُ بلا شَكٍّ.

وقولُه تَعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات:٢]، نحنُ نَجْهَرُ معَ بعضِنا البعضِ ونَصْرُخُ: يا فلانُ، يا فلانُ. أما الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيَنْبَغِي أن نَتأَدَّبَ، ولا نَجْهَرَ لهُ بالقولِ كجهرِ بعضِنا لبعضٍ.

ثم بيَّنَ اللهُ أن مُخالفةَ هذا الأمرِ تُحْبِطُ العملَ؛ فقالَ: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢].

وقد نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ على قومٍ مُؤمِنينَ حقًّا؛ حيثُ كانَ ثابتُ بنُ قيسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحدَ الخُطباءِ الذينَ أَعْطاهُمُ اللهُ صوتًا قويًّا، ولما نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ جَلَسَ في بيتِه يبكِي، ولم يَخْرُجْ، ففقَدَهُ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكانَ مِن هَدْيِ النبيِّ ﷺ أنهُ يَتفقَّدُ أصحابَه إذا تَخَلَّفَ أحدٌ؛ فقد يكونُ مَرِيضًا فيَعُودُه، أو عندَه حَاجةٌ فيُساعِدُه عليها؛ لأن رِعايتَه لأصحابِه أكملُ رِعايةٍ، فلَمَّا فقَدَهُ أرسلَ إليهِ يَقولُ لهُ: ما شَأْنُك؟ فقالَ: إنَّ اللهَ أنزلَ هذهِ الآيَةَ، وإنَّ صوتي رفيعٌ قويٌّ، وأَخْشَى أن يَحْبَطَ عملي وأنا لا أَشْعُرُ. فرجعَ المندوبُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وقالَ: إنَّ ثابتًا يقولُ كذَا وكذا، فردَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قائلًا: «قلْ لهُ: لَنْ يَحْبَطَ عَمَلُكَ، وَسَوفَ تَعِيشُ سَعِيدًا، وَتُقْتَلُ شَهِيدًا، وَتَدْخُلُ الجَنَّةَ»[1]، اللهُ أكبرُ! سبحانَ اللهِ! ثلاثُ بَشائِرَ! لما اسْتَوْلَى الخوفُ مِنَ اللهِ على قلبِه وحَبَسَ نَفَسَه في بيتِه، جَاءَتْهُ هذهِ البَشائرُ التي لا تَكونُ الدنيا كلُّها عِوَضًا عنها، قالَ: «تَعِيشُ سَعِيدًا، وَتُقْتَلُ شَهِيدًا، وَتَدْخُلُ الجَنَّةَ».

وهذهِ البِشارةُ كانَ من المُمْكِنِ أَلَّا تَحْصُلَ لو بَقِيَ يأتي للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كعادتِه؛ لكن جاءتْ لسَبَبٍ؛ وهوَ انحباسُه في بيتِه خوفًا منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فحَصَلَ لهُ هذا العِوَضُ الذي يُفْنِي الإنسانُ عُمُرَه مُقابِلَه.

والذي حَصَلَ أن الرجلَ عاشَ عِيشةً حَميدةً سَعِيدةً، وقُتِلَ شهيدًا؛ حيثُ قُتِلَ

(١) أخرجه ابن قانع (١/ ١٢٦)، والطبراني (٢/ ٦٧، رقم ١٣١٢)، والحاكم (٣/ ٢٦٠، رقم ٥٠٣٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين. وأخرجه أيضًا: عبد الرزاق عن مَعْمَر في الجامع (١١/ ٢٣٩، رقم ٢٠٤٢٥)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٨، رقم ٤٢).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَهِيدًا يومَ اليمامةِ، وكانَ من قِصَّتِه عجبٌ؛ حيثُ إنهُ لما قُتِلَ مرَّ بِهِ أحدُ أفرادِ الجيشِ، وكانَ عليهِ درعٌ، وهوَ عبارةٌ عن ثوبٍ من حديدٍ يتَّقي بِهِ الإنسانُ السِّهامَ، فأخذَ الدِّرعَ كأنه أعجبَهُ؛ لِيَحْفَظَهُ خَوْفًا عليهِ، اللهُ أعلمُ بالنيةِ، وكانَ مَنْزِلُ هذا الرجلِ الذي أخذَ هذا الدِّرْعَ في طَرَفِ الجيشِ، فوَضَعَ الدرعَ في الأرضِ، وكفأَ عليهِ بُرمةً، والبُرْمةُ قِدرٌ من فَخَّارٍ، فجاءَ ثابتُ بنُ قيسٍ بالليلِ في الرُّؤْيا إلى أحدِ أصحابِه، وقالَ لهُ: إنهُ مرَّ بي رجلٌ وأخذَ الدرعَ، وإنهُ وضعَهُ في رَحلِه، وأكفأَ عليهِ بُرمةً، وأعطاهُ على ذلك عَلامةً، حيثُ قالَ: وحولَه فرسٌ تَسْتَنُّ[1]. وقالَ لهُ: وإذا أتيتَ أبا بكرٍ الصديقَ فأعلِمْهُ أن عَلَيَّ مِنَ الدَّيْنِ كذا، ولي منَ المالِ كذا، وفلانٌ مِن رَقِيقِي عَتِيقٌ. فذَهَبَ الرجلُ لما أصبحَ إلى المكانِ الذي وَصَفَهُ ثابتٌ، فوَجَدَ الأمرَ كما وَصَفَ: وَجَدَ الدِّرْعَ تحتَ البُرْمةِ، ووَجَدَ عندَه الفَرَسَ الذي يَسْتَنُّ، وبَلَّغَ أبا بكرٍ وَصِيَّةَ ثابتٍ، فنَفَّذَ أبو بكرٍ وَصِيَّتَه[2].

قالَ أهلُ العلمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: ولم يُعْلَمْ أن وَصِيَّةً نُفِّذتْ بالرُّؤْيا إلا وصيةَ ثابتِ ابنِ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ؛ لأن الوصيةَ تَثْبُتُ في الشرعِ بشُهودٍ يأتونَ إلى المَحْكمةِ ويُثْبِتونَ الشهادةَ، أو إلى الوَرَثةِ ويُثْبِتونَ الشهادةَ عندَهُم، لكن هذهِ ثَبَتَتْ بالرُّؤْيا؛ لأن هذه الرُّؤيا وُجدَ لها شاهدٌ يَدُلُّ على صِدْقِها، وهوَ قَضِيةُ الدرعِ؛ ولهذا نفَّذها أبو بكرٍ.

وعلى هذا فإذا وُجِدتْ قرينةٌ تَشْهَدُ بصدقِ الرؤيا فإنها تُنَفَّذُ.

---

(١) استن الفرس: أي تحرك مرحا ونشاطًا ولا راكب فوقه.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٧٠، رقم ١٣٢٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٦١)، والآحاد والمثاني(٣/ ٤٦١، رقم ١٩٢١).

وأذكُرُ لكمْ قِصةً وقعتْ في العهدِ الأخيرِ؛ حيثُ كانَ هناكَ رجلٌ قد كتبَ وثيقةً لبيتٍ أستأجرَهُ لمُدةِ خمسينَ سنةً، ولما تُوفيَ هذا الرجلُ، جاءَ صاحبُ البيتِ إلى الورثةِ، وقالَ لهمْ: إن المُدةَ قدِ انتهتْ فاخرجُوا منَ البيتِ. فقالوا: لم تتمَّ المدةُ، العقدُ قديمٌ. قالَ: قد تمتْ. هل عندَكُم بيِّنةٌ أنها لم تَتِمَّ؟ قالوا: لا. قالَ: إذن أعطوني مِلْكِي. فتَّشوا في الدفترِ -دفترِ الميتِ- فلم يَجِدُوا شيئًا، فلما كانَ في الليلِ جاءَهُمُ الميتُ فقالَ لهم: إنكُم بَحَثْتُم عن وَثيقةِ العقدِ -عقدِ الإجارةِ- ولكن تَجِدُونَها في أولِ صَفْحةٍ منَ الدفترِ، إلا أن هذهِ الصفحةَ لُزِقتْ بالغُلافِ!! فأنتم فُكُّوا هذهِ الورقةَ تَجِدونَ الوثيقة. فلما أصبحُوا فكُّوا الورقةَ، ووجدُوا الوثيقة تمامًا كما وَصَفَ المَيِّتُ!

المهمُّ أن الوصيةَ بعدَ الموتِ إذا وُجِدَتْ قرائنُ تُؤَيدُها وتُثبتُها فإنهُ يُعْمَلُ بها، وإلا فالأصلُ أن ما في النومِ لا يُعْمَلُ بهِ.



الدَّرس الرَّابع:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَن يُضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلَهُ الأولينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وخليلُه، وأمينُه على وحيِهِ، بَلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأُمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، وتركَ أُمتَه على مَحَجَّةٍ بيضاءَ، ليلُها كنهارِها، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:١-٢].

قولُه تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي لا تَجعَلُوا حُكْمًا مُقَدَّمًا على حُكْمِ اللهِ ورَسُولِه، ولا تَشرَعُوا في دِينِ اللهِ ما لم يَشرَعْه اللهُ ولا رسولُه؛ لأنَّ مَن قدَّمَ حُكْمًا على حكمِ اللهِ، فإنهُ قد قَدَّمَ بينَ يَدَيِ اللهِ ورسولِه، ومَنْ شَرَعَ ما لم يَشرَعْهُ اللهُ ورسولُه فقدْ قَدَّمَ بينَ يديِ اللهِ ورسولِه.

إذنْ أهلُ البِدَعِ يُعْتَبرونَ مُمْتَثِلِينَ لهذا، فأيُّ بِدْعةٍ لم تَكُنْ مَشروعةً في القرآنِ أوِ السُّنةِ فإنها تُعتبرُ تَقَدُّمًا بينَ يديِ اللهِ ورسولِه.

ثم حَذَّرَ عَزَّوَجَلَّ مِنْ ذلكَ فقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ لأنَّ البِدْعةَ إما قوليةٌ وإما فعليةٌ، فإن كانتْ قوليةً فهوَ سميعٌ لها، وإن كانتْ غيرَ قوليةٍ سواءٌ عَقَديةٌ في القلبِ أو فِعْليةٌ في الجوارحِ، فإنهُ عَزَّوَجَلَّ يَعْلَمُها، ولهذا قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ هذا نَهْيٌ، وقولُه: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ هذا نَهْيٌ آخَرَ.

قولُه: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ يعني نَهَيْنَاكُم عنْ ذلكَ كَرَاهةَ أن تَحْبَطَ أَعمالُكم وأَنْتُمْ لا تَشْعُرونَ.

فأَوَّلًا قالَ تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ يعني إذا تَكَلَّمَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فلا تَرْفَعُوا أصواتَكُم فوقَ صوتِه وتَأَدَّبُوا، واحترِمُوا قولَه، وأنصِتُوا لهُ، ولهذا كانَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذا تكلمَ النبيُّ ﷺ كأنما على رُءُوسِهمُ الطيرُ منِ احترامِه وتعظيمِهِ.

وثانيًا قالَ: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾، فنحنُ إذا نادَى بعضُنا بعضًا فيُمْكِنُ أن يَصْرُخَ: يا فلانُ، لكنِ الرسولُ إذا ناديتَه فيَجِبُ أن تُخْفِضَ صوتَكَ بأدبٍ ووقارٍ؛ لأن أعظمَ الخلقِ عليكَ حقًّا هوَ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيَجِبُ أن تَحْترِمُوه ولا تَجْهرُوا لهُ بالقولِ كجَهْرِ بعضِكم لبعضٍ.

أَضِفْ إلى هَذينِ النَّهْيَينِ قولَ اللهِ تَعالَى في سورةِ النورِ: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور:٦٣]؛ فإن مَعْنَى هذهِ الآيةِ: إذا دَعَوْتُموه فلا تَجْعَلوا دَعْوتَكُم إياهُ كدعاءِ بعضِكم بعضًا، فنحنُ مثلًا يُنادي بعضُنا بعضًا يقولُ: يا فلانُ باسمِه، يا محمدُ، يا عبدَ اللهِ، يا عليُّ، يا عمرُ، يا خالدُ، وما أشبهَ ذلكَ، لكنِ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا تَقُلْ لهُ: يا محمدُ؛ لأنهُ لا يقولُ: يا محمدُ إلا الأعرابُ الذينَ يأتونَ منَ الباديةِ، ولا يَعرِفونَ الأحكامَ الشرعيةَ في الغالبِ، لكنِ ادعُوه: يا رسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ؛ لأنهُ ﷺ أعظمُ وأكرمُ مِن أن يُنادَى باسمِه العَلَمِ؛ لأنَّ نِداءَكَ إياهُ:

يا رسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ يَتَضَمَّنُ شيئَينِ عظيمينِ:

الأولُ: احترامُ الرسولِ ﷺ.

والثاني: الشهادةُ لهُ بأنهُ رسولٌ، أو بأنهُ نبيٌّ.

وبهذا نَعرِفُ أنهُ لا يَنبغي ما يَقَعُ مِن كثيرٍ مِنَ الكُتابِ في عَصرِنَا الذينَ إذَا أرادُوا أن يقولُوا: قالَ رسولُ اللهِ، قالُوا: قالَ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ، ولا شكَّ أنَّهمْ يُريدونَ رسولَ اللهِ، لكنْ لا يَنبغي أن يَعدِلُوا عنْ وَصفِهِ بالنبوةِ والرسالةِ إلى ذِكرِ اسمِه ونسَبِهِ.

ألم تعلمُوا أنهُ لما كانَ صُلْحُ الحُدَيبيةِ وأرادَ النبيُّ ﷺ أن يَكْتُبَ في الصُّلْحِ: «**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**» قالَ لهُ مَندوبُ قريشٍ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[(١)].

فانْظُرْ كيفَ ذَكاءُ العربِ، ونحنُ هنا في العَصْرِ ما نَفْهَمُ الفرقَ بينَ (قالَ محمدُ ابنُ عبدِ اللهِ) و(قالَ رسولُ اللهِ)، بل بعضُ الناسِ يقولُ: إن هذهِ أفخمُ: (قالَ محمدُ ابنُ عبدِ اللهِ) وهذا غَلَطٌ، بلْ قُلْ: (قالَ رسولُ اللهِ)، ويَرِدُ عن بعضِ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهمْ يُحدثونَ عنِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ باسمِهِ، مثل قولِ عمَّارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ صَامَ اليَوْمَ الَّذِي يُشَكُّ فِيهِ فَقَدْ عَصَى أَبَا القَاسِمِ ﷺ»[(٢)]. لكنْ هذا نادرٌ، وأكثرُ تعبيرِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) أخرجه البخاري تعليقا: كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: «**إذا رأيتم الهلال...**»، وأبو داود: كتاب الصوم، باب كراهية صوم يوم الشك، رقم (٢٣٣٤)، والترمذي: أبواب الصوم، باب ما جاء في كراهية صوم يوم الشك، رقم (٦٨٦)، والنسائي: كتاب الصيام، باب صيام يوم الشك، رقم (٢١٨٨)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في صيام يوم الشك، رقم (١٦٤٥).

الصحابةِ إنما هوَ بالنبوةِ أو بالرسالةِ، فقدْ قالَ تَعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، فإذا أردتَ أن تُنادِيَ الرسولَ فقُلْ: يا رسولَ اللهِ، ما تقولُ: يا محمدُ.

ألم تَعْلَموا أن مُناداةَ الإنسانِ بوَصفِهِ أحبُّ إليهِ مِن مُناداتِهِ باسمِه، فهناكَ بعضُ الناسِ مثل شيخٍ كبيرٍ عالمٍ، إذا قلتَ لهُ: يا فلانُ، يا عبدَ اللهِ، فإنهُ يَرى أنكَ نزَّلتَ من حقِّه، لكن لو قلتَ: يا شيخُ، تكونُ قدْ رفعتَهُ، وأرفعُ مِن ذلكَ: يا فضيلةَ الشيخِ، وأرفعُ من ذلكَ: يا سماحةَ الشيخِ.

فقولُه: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، يعني إذا دَعَوتُموه لا تَجْعلُوه كدعاءِ بَعضِكم بعضًا، **هذا وَجْهٌ في الآيةِ**.

الوَجْهُ الثاني: لا تجعلُوا دعاءَهُ إيَّاكُم كدُعاءِ بعضِكُم بعضًا، يعنِي بل إذا دَعاكُم فأجيبُوه، فإذا دعاكَ غيرُه فأنتَ إن شئتَ أَجِبْ وإن شئتَ فلا تُجِبْ، حَسَبَ ما تَقتضِيهِ المَصْلحةُ والشريعةُ، لكنِ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذَا دَعاكَ فيَجِبُ أَلَّا تَجْعَلَ دعاءَه كدُعاءِ بعضِنا بعضًا، ولهذا يَجِبُ على مَن دَعاهُ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهوَ يُصَلِّي أن يُجِيبَ الرسولَ ﷺ؛ لأنهُ لا يَجوزُ أن نَجْعَلَ دُعاءَ الرسولِ إيانَا كدُعاءِ بعضِنا بعضًا.

إذنْ للآيةِ معنيانِ:

المعنى الأولُ: لا تجعلُوا مُناداتَكُم كمُناداةِ بعضِكم بعضًا.

والثاني: لا تَجْعَلُوا نِداءَهُ لكمْ إذا دعاكُم كنداءِ بعضِكم بعضًا، بل أَجِيبُوه.

ولهذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ

لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال:٢٤]، وهو لا يَدْعُونا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا لما يُحيينا.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، وقدْ أثَّرتْ هذهِ الآيةُ بمَنْ همْ أشَدُّ خَشيةً للهِ منَّا: كانَ ثابتُ بنُ قَيسِ بنِ شَمَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَهْوَريَّ الصوتِ، أي صوتُه رفيعٌ، وتَعرِفونَ أن بعضَ الناسِ -ما شاءَ اللهُ- أعطاهُ اللهُ حُلقومًا جيِّدًا، فيكونُ صوتُه قَويًّا بدُونِ أن يَتعَمَّدَ قُوَّتَهُ، بلْ هوَ مِن طَبيعتِهِ، كانَ ثابتٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شاعرَ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكذلكَ خَطِيبًا، فكانَ قَويَّ الصوتِ، فلما نَزلتْ هذهِ الآيةُ أَثَّرتْ في قلبهِ أيَّما تأثيرٍ، فانحبسَ في بيتِه يَبْكِي؛ خَوْفًا مِن أن يَحْبَطَ عَمَلُه وهوَ لا يَشْعُرُ، اللهمَّ ارضَ عنهمْ، لكنْ -واللهِ- إن مَن خافَ هوَ الآمِنُ، فخافَ أن يَحْبَطَ عَمَلُهُ وهوَ لا يَشْعُرُ، فكانَ جزاءُ هذا الخوفِ مِن ربِّ السماواتِ والأرضِ أنْ سَألَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهُ، فَأَخْبَرُوهُ أنهُ منذُ نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ وهوَ في بيتِهِ يَبكِي، فقالَ لهُ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»(١).

وقالَ لهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا ثَابِتُ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا وَتُقْتَلَ شَهِيدًا وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ**»(٢). واللهِ هذا الثمنُ أَغْلَى الأثمانِ، فشَهِدَ لهُ الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بثلاثةِ أشياءَ:**

الأوَّلُ: أنهُ يَعِيشُ حَمِيدًا، أي يَعِيشُ عِيشةً حَميدةً، يُحْمَدُ عليهَا لحُسْنِ سِيرتِهِ ومَنهجِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والثاني: أنهُ يُقتَلُ شَهِيدًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة، رقم (٣٦١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، رقم (١١٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٦/ ١٢٥، رقم ٧١٦٧).

والثالثُ: أنهُ يَدْخُلُ الجنةَ.

ولهذا يَجِبُ علينَا نحنُ الآنَ أن نَشهَدَ بأن ثابتَ بنَ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ منْ أهلِ الجنةِ، ونسألُ اللهَ أن نَرَاهُ فيهَا. اللهمَّ أرِنَا إياهُ وإخوانَنا في جَنَّاتِ النعيمِ.

وهذَا الرجلُ عاشَ حَمِيدًا لمُدافعتِه عنِ النبيِّ ﷺ بمَقالِهِ نَثْرًا ونَظْمًا، ثم قُتِلَ شَهيدًا في وقعةِ اليمامةِ.

ووقعةُ اليمامةِ جَرَى فيها حادثةٌ استدلَّ بها أولئكَ الانتحاريون الذينَ يُفادونَ بأنفسِهم، وهذهِ القصةُ أن البراءَ بنَ مالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كانَ رجلًا شُجاعًا، ولما وَصَلَ المجاهدونَ إلى حَديقةِ مُسيلِمةَ الكَذَّابِ وَجَدُوا البابَ قد أُغْلِقَ، والسورَ مُحْكَمًا، فلم يَسْتطيعوا دُخولَ الحديقةِ لِيقْتُلُوا مُسيلِمةَ، فقالَ لهمُ البراءُ: «يا مَعْشَرَ المُسلِمِينَ، احْمِلُوني على الجِدارِ حَتَّى تَطْرَحُوني عَلَيْهِ وأنا أَفْتَحُ لَكُمْ»، وهذهِ شَجاعَةٌ منهُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فطَرَحُوه مِن وَراءِ الجِدارِ على العَدُوِّ، ففَتَحَ البابَ لهمْ ودَخَلَ المُسلِمونَ وقُضِيَ على مُسيلِمةَ والحمدُ للهِ(١).

يَستدِلُّ الانتحاريونَ بهذهِ القصةِ على جَوازِ الانتحارِ، أي على جَوازِ قتلِ النفسِ الذي قالَ فيهِ النبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: **«مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»**(٢).

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبير (٩/ ٤٤)، وانظر تاريخ الطبري (٣/ ٢٩٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب شُرْبِ السم، والدواء به، وبما يُخافُ منه والخبيث، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأن مَن قتل نفسه بشيء عذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١٠٩).

فيَستدلونَ بهذهِ القصةِ على جوازِ الانتحارِ، وليسَ في القِصَّةِ دليلٌ؛ فالرَّجُلُ لم يَهْلِكْ، بل هوَ الذِي فتَحَ البابَ، لكنِ المنتحرُ هوَ أَوَّلُ مَن يَموتُ بسِلاحِه، فهوَ مُتيقِّنٌ بالموتِ، ومَنِ الذي أَوْجَبَ على عِبادِهِ أن يَعمَلُوا عملًا يموتونَ بِهِ وهوَ يقولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩].

ثم ما الذِي يَتَرتَّبُ على هذا الانتحارِ؟ فرُبَّما يَقْتُلُونَ عَشَرةَ رجالٍ منَ العدوِّ ويَقْتُلُ العدوُّ منهم مئةً. ونحنُ لا نقولُ هذا تَخْذِيلًا أبدًا واللهِ، نحنُ ندعُو إلى الشَّجاعةِ في الحربِ، لكنْ بشرطِ أن يكونَ مرادُ المُجاهدِ أن تكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العُلْيَا، وأن تُحكَّمَ شريعةُ اللهِ في أرضِ اللهِ، لكننا نقولُ: رُوَيدَكَ، امشِ على ما جاءَ بِهِ الشرعُ، وسوفَ يَنْصُرُكَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].

بَقِيَ أن يُقالَ: ماذا تقولُ في هؤلاءِ الذينَ انتحرُوا وهلكُوا؟

نقولُ: هؤلاءِ أَمرُهُم إلى اللهِ، وهمْ مُتأوِّلونَ مُجْتهدونَ، والمُجْتهدُ مِنْ هذهِ الأُمةِ -وللهِ الحمدُ- لن يَعدِمَ أجرًا أو أجرينِ، فيَكونُ له أجرٌ إذا أخطأَ، ويكونُ لهُ أجرانِ إذا أصابَ.

فهؤلاءِ المُنتحرونَ لا نقولُ فيهمْ شيئًا، فأمرُهم إلى ربِّهم عَزَّوَجَلَّ، لكننَا نريدُ أن نُبيِّنَ الحُكْمَ للناسِ؛ حتى لا يُقْدِمَ أحدٌ بعدَ بُلوغِ الحُجَّةِ على شيءٍ يَراهُ جائزًا وهوَ مُحرَّمٌ.

أقولُ بَارَكَ اللهُ فيكم: ثابتُ بنُ قيسٍ -ونحنُ نتكلمُ عن قصتِه- قُتِلَ شَهِيدًا في وَقْعةِ اليمامةِ، ومرَّ بهِ أَحدُ الجُندِ وهوَ مَيتٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وكانَ عليهِ درعٌ، فأخذَ هذا

المارُّ دِرْعَهُ، ثم ذهبَ بها إلى رحلِه ووضعَها تحت بُرمةٍ، يعني قِدرًا من الفَخَّارِ، ووضعَ الدرعَ تحتَ القدرِ، وكانَ حولَ الدرعِ فَرَسٌ يَسْتَنُّ(١)، فرأى ثابتَ بنَ قيسٍ أَحَدُ أصحابِه في المَنامِ، فقالَ لهُ ثَابتٌ: إنهُ مرَّ بهِ رجلٌ، وأخذَ الدرعَ ووضعَها تحتَ بُرْمةٍ عندَها فرسٌ يَسْتَنُّ، فلما أَصْبَحَ الرائي في المنامِ أَخْبرَ القائدَ بما رَأى في المَنامِ، فذهبُوا إلى المكانِ فوَجَدُوا الدِّرعَ كما وَصفَ ثابتٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورَفَعُوا الأَمْرَ إلى أبي بَكْرٍ الصِّديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأنفذَ وَصِيَّةَ ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ. قالَ أهلُ العلمِ: ولم تُنَفَّذْ وصيةُ أحدٍ أوصَى بها بعدَ موتِه قبلَ ثابتِ بنِ قيسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضَاه(٢).

المُهِمُّ -يا إخوانَنا- أقولُ: إنَّ الإنسانَ كلما تَرَكَ الشيءَ خَوْفًا منَ اللهِ، فإن اللهَ يُعوِّضُه خَيْرًا منهُ. ويَدُلُّ لهذهِ القاعدةِ المُفيدةِ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٠].

فأحسِنِ النيةَ، واتْرُكِ العملَ للهِ، يُخْلِفِ اللهُ عليكَ خَيْرًا منهُ.



(١) استن الفرس: أي تحرك مرحا ونشاطًا ولا راكب فوقه.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٧٠، رقم ١٣٢٠).

الدَّرس الخَامِس:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللهُ تَعالَى: أَعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرَّجِيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجرات:١١].

فائدة:

أولًا: كلمةُ: «وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ»، لَمْ يَقُلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «خَاتَم الرُّسُلِ»، بل قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، حتَّى لا يَدَّعِيَ مُدَّعٍ فيما بعدُ أنَّه يُوحَى إليه، وإن لم يَدَّعِ أنَّه رَسولٌ، فالنَّبِيُّ يُوحَى إليه بالشَّرعِ ولَكِنْ لَا يُرْسَلُ، ولا يُؤْمَرُ بالتبليغِ؛ فلهذا قالَ: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ولم يقلْ: «وَخَاتَمَ الرُّسُلِ»، فإذا ادَّعَى مُدَّعٍ فيما بعدُ أنه يُوحَى إليه فقد كَذَّبَ القُرْآنَ، ونقولُ له بكلِّ أَفْوَاهِنَا: إِنَّكَ كَاذِبٌ، لا نَبِيَّ بعدَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولهذا كَانَتْ شَرِيعَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم عَامَّةً لجميعِ البَشَرِ، بل للإنسِ والجنِّ إِلَى يومِ القيامةِ، وغَيْرُه من الأنبياءِ شَرِيعتُه مُحَدَّدَةٌ، لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَرِيعَتُهُ غيرُ مُحَدَّدَةٍ؛ ولهذا أيضًا كانتِ الشريعةُ الإسلاميةُ صالحةً لكلِّ زمانٍ ومكانٍ وأُمَّةٍ، فهي صالحةٌ لكلِّ زمانٍ مِن البَعْثَةِ إِلَى يومِ القيامةِ، ولكلِّ مكانٍ مِنْ أُمِّ القُرَى إِلَى أَبْعَدِ الدُّنيا، ولكلِّ أُمَّةٍ من عَرَبٍ وعَجَمٍ، فيَصْلُحُ هَذَا الدينُ الإسلاميُّ لكلِّ أُمَّةٍ، ولَيْسَ يَصْلُحُ لها فَقَطْ، بَلْ يَصْلُحُ لها ويُصْلِحُها، ولو أنَّ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ تَمَسَّكَتْ بدينِ الإسلامِ، وبما جَاءَ فِي كتابِ اللهِ مِنَ التوجيهاتِ والإرشاداتِ، وبما

جاءَ فِي سُنَّةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبما كَانَ عَلَيْهِ السلفُ الصَّالِحُ، واللهِ لَنْ تَغْلِبَها قُوَّةٌ أبدًا؛ لأنَّ اللهَ قَالَ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣]، أي يُعْلِيَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه، عَلَى كلِّ مَنْ دَانَ بأيِّ دِينٍ من يهودَ ونَصارَى وبُوذِيِّينَ وشُيُوعِيِّينَ وغيرِهم، هَذَا الدِّينُ لا بُدَّ أن يَظْهَرَ، لكنْ مَعَ المُتَمَسِّكِ به، أَمَّا ونحن هكذا أمةٌ مُتفرِّقةٌ كلُّ حِزْبٍ بما لَدَيهم فَرِحُونَ، فلن يُكْتَبَ لها النصرُ، لِقَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦]. اصْبِرْ عَلَى الدِّينِ، فإِنْ أُوذِيتَ فِي دِينِ اللهِ فَاصْبِرْ، فإنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، يُؤَيِّدُهُمْ ويَنْصُرُهُمْ ويُثَبِّتُهم، أَسْأَلُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي وإياكم مِنَ الصابِرِينَ.

المُهِمُّ أنَّ أيَّ إِنْسَانٍ -حتَّى لو ادَّعَى أنَّه مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ- إذا قالَ: إنَّه يُوحَى إليه، نقولُ له: كَذَبْتَ وكَذَّبْتَ القُرْآنَ، ولَسْتَ بِوَلِيِّ اللهِ، بَلْ أنت مِنْ أعداءِ اللهِ؛ لأنَّك تَقولُ خِلَافَ ما قالَ اللهُ ورسولُه.

فَلْنَعُدْ إلى قولِه تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات:١١]، قالَ ابنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ -يَعْنِي اسْتَمِعْ لَهَا- فَإِنَّهُ خيرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ»(١). فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، أَهُوَ مِنَ الخيرِ الَّذِي نُؤْمَرُ به، أو مِنَ الشَّرِّ الَّذِي نُنْهَى عنه؟ الجوابُ: الثَّاني، يعني هُوَ مِن الشرِّ الَّذِي نُنْهَى عنه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦، رقم ١٠٣٧).

وقـولُه تعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، من الخيرِ الَّذِي نُؤْمَرُ به، وكَفَى بالإِنْسَانِ المُؤْمِنِ فَخْرًا أن يُوَجِّهَ إليه خَالِقُ الأرضِ والسماواتِ خِطَابًا بهذا الوَصْفِ الجليلِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾.

وتُفِيدُ الآيةُ الكريمةُ أن السُّخْرِيَةَ مُنافيةٌ لكمالِ الإيمانِ، فلو كانَ الإِنْسَانُ مُؤْمِنًا حقًّا مَا سَخِرَ من القَومِ، ومعنى السُّخْرِيةِ الاستهزاءُ بالخِلْقَةِ أو بالخَلْقِ أو بالعملِ، فالاستهزاءُ بالخِلْقَةِ تَجِدُ بَعْضَ النَّاسِ يَسْخَرُ من الرجلِ إذا رَآهُ قَصِيرًا جِدًّا، ويَسْخَرُ من الرجلِ إذا رَأَى وَجْهَهُ قَبِيحًا، ويَسْخَرُ من الرجلِ إذا رآهُ أَعْرَجَ، ويَسْخَرُ من الرجلِ إذا رآه أحولَ... إِلَى آخِرِ ما يَسْخَرُ منه النَّاسُ من الأوصافِ الخِلْقِيَّةِ، فهَذَا حرامٌ؛ لأنَّ اللهَ نَهَى عنه، ثُمَّ إنَّ الَّذِي يَسْخَرُ من الخِلْقَةِ هُوَ سَاخِرٌ من الخالقِ فِي الحقيقةِ، فهل الإِنْسَانُ يَخْلُقُ نفسَه ويُكَيِّفُ نَفْسَه إنْ شَاءَ جَعَلَ نفسَه جَمِيلًا، وإِنْ شَاءَ جَعَلَ نفسَه قَبِيحًا؟! اللهُ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذِي خَلَقَ وصَوَّرَ الأشياءَ كُلَّها.

أَرَأَيْتَ لو نَظَرْتَ إِلَى جِدارٍ قد طُلِيَ بالطِّينِ أو بالأَسْمَنْتِ، ورَأَيْتَ فيه تَعَرُّجًا ثمَّ ذَمَمْتَ الجِدارَ، إِنَّما تَذُمُّ فِي الواقعِ الَّذِي بَنَاهُ.

إذن، إذا عِبْتَ إِنْسَانًا فِي خِلقَتِه فقد عِبْتَ الخالقَ؛ ولذلك يَجِبُ النظرُ إِلَى هَذِهِ المسألةِ، هَذِهِ واحدةٌ.

ثَانِيًا: رُبَّما تَعِيبُهُ فِي خِلقَتِه فَيَرُدُّكَ اللهُ وأنتَ الجميلُ إِلَى خِلقَتِه، فتُصَابُ بِحَادِثٍ يَتَشَوَّهُ منه وَجْهُـكَ، أو تُصَابُ بحَرِيقٍ، أو تُصَـابُ بمرضٍ، وإذا أَفْـلَتَّ من هَذَا، ولا إِفْلَاتَ مِنْ قَدَرِ اللهِ، فَقَدْ تُصَابُ ذُرِّيَّتُك، وكم من إِنْسَانٍ عَيَّرَ أخاه فَأُصِيبَ بها

عَيَّرَ به أَخاهُ، قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ، فَيَرحَمه اللهُ وَيَبْتَلِيكَ»[١].

هَذَا بالنسبةِ للسُّخْريةِ فِي الخِلْقَةِ، أما السُّخْريةُ فِي الخُلُقِ، فتَعْلَمُونَ أَيُّها النَّاسُ أن النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِي الخُلُقِ، فمِنهم مَنْ هُوَ واسعُ الصدرِ، بَشُوشٌ، لينٌ، طَيِّبُ القلبِ، مُجَرَّدَ أن تَنْظُرَ إليه تُحِبُّه، ومنهم العَكْس سَيِّئُ المَلَكَةِ، عَبُوسُ الوَجْهِ، إن سَلَّمْتَ عليه بلِسانٍ فَصيحٍ ونُطْقٍ مَسْموعٍ رَدَّ عليك بِأَنَفَةٍ، بعضُ النَّاسِ يَسْخَرُ مِنْ هَذَا الرجلِ مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ، ويقولُ: واللهِ لو أنتَ فُلَانٌ. عندَما يُرِيدُ ضَرْبَ المَثَلِ بالسُّخْريةِ، هَذَا لا يَجوزُ، إذا كنتَ صَادِقًا فَاتَّصِلْ بهذا الرجلِ وقُلْ: يا أخي، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[٢]، يا أَخِي حَسِّنْ خُلُقَكَ، ثُمَّ انْظُرِ الفرقَ بَيْنَ أن تُحَسِّنَ الخُلُقَ وبَيْنَ أن تُسِيءَ الخُلُقَ، تَجِدْ أَنَّكَ إذا حَسَّنْتَ الخُلُقَ انْشَرَحَ صَدْرُكَ وصِرْتَ دائمًا فِي سُرورٍ ولم تَنْدَمْ، وإذا كنتَ سَيِّءَ الخُلقِ لا بُدَّ أن تَنْدَمَ.

مِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ بَطِيءُ الغَضَبِ سَرِيعُ الرِّضَا، فهذا حَسَنٌ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ سَرِيعُ الغضبِ بَطِيءُ الرِّضَا، فهذا سَيِّئٌ، فيأتي بعضُ النَّاسِ ويَعِيبُ هَذَا الرجلَ فِي خُلُقِه، يقولُ: هَذَا رجلٌ غضوبٌ سريعُ الغضبِ بَطِيءُ الرِّضَا. يَسْخَرُ منه، هَذَا لا يَجوزُ، إذا كنتَ صادقًا فَانْصَحْه، وقُلْ: إن نَبِيَّنَا صلى الله عليه وعلى آله وسلم اسْتَوْصَاهُ رُجُلٌ فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي. قال: «لَا تَغْضَبْ» فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»[٣]. الغضبُ جَمْرَةٌ يُلْقِيهَا الشيطانُ فِي قلبِ الإِنْسَانِ حتَّى يَفورَ دمُه

---

(١) أخرجه الترمذي: آخر كتاب صفة القيامة والورع والرقاق، رقم (٢٥٠٦) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٦٨٤)، والترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (١١٦٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم (٦١١٦).

وتَنْتَفِخَ أَوْدَاجُه ويَحْمَرَّ وَجْهُه ويَنْتَفِشَ شَعَرُه؛ حتَّى كأنَّه لا يَعِي ما يقولُ، فَانْصَحْ هَذَا الرجلَ قُلْ: يا أخي لا تَغْضَبْ. ودَواؤُه أن يَستعِيذَ باللهِ من الشيطانِ فيَذْهَبَ عنه ما يَجِدُ، وإن كانَ قائمًا جلَسَ، إن كانَ جَالِسًا اضْطَجَعَ؛ لأنَّ الحركةَ هَذِهِ وتَغْيِيرَ الاتجاهِ يُوجِبُ بُرُودَةَ الغضبِ، المُهِمُّ الأخلاقُ السَّيِّئةُ كثيرةٌ، لا يَجوزُ للإِنْسَانِ أن يَسْخَرَ من شخصٍ من أجلِ خُلُقِه، بل يَحْمَدُ اللهَ الَّذِي عَافَاه ممَّا ابْتَلَى به هَذَا، ولْيُحَسِّنْ خُلُقَه.

كلُّنَا غيرُ مَعْصُومِينَ، كلُّنَا يُخْطِئُ ويُصِيبُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «كُلُّ بَنُو آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[1]. اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا، ولا يَخْلُو الإِنْسَانُ من خَطَأٍ فِي مَقَالِه وفي فِعَالِه وفي حَالِه، فهل تَنْتَهِزُ الفرصةَ أن تَرَى فِي أَخِيكَ عَيْبًا فِي عَمَلِه حتَّى تَسْخَرَ منه، أو تقولُ: الحمدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي ممَّا ابْتَلَاهُ بِهِ؟ قُلْ هَكَذَا ولَا تَسْخَرْ، كم من إِنْسَانٍ سَخِرَ من شَخْصٍ فِي عَمَلِه فَأُصِيبَ به، فَمَثَلًا إذا وَجَدْتَ إِنْسَانًا يَسْخَرُ ويَغْتَابُ النَّاسَ، وكُلَّمَا جلَسَ مَجْلِسًا جعَلَ يَأْكُلُ لحومَ النَّاسِ، وهَذَا عَمَلٌ سَيِّئٌ لا شَكَّ، فلا تَسْخَرْ منه، وإن كنتَ صَادِقًا فَانْصَحْه وخَوِّفْهُ مِنَ اللهِ، والأعمالُ السيئةُ كثيرةٌ، مِنْهَا ما هُوَ انتهاكُ مُحَرَّمٍ، ومنها ما هُوَ تَرْكُ وَاجِبٍ، فَلَا تَسْخَرْ مِنْ أَخْيكَ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات:١١]، أي عسى أن يكونَ المَسْخُورُ منهم خَيْرًا من السَّاخِرِينَ، وهذا وَعْدٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قد تَنْقَلِبُ الحالُ، فيكونُ المَسْخورُ منهم خيرًا من السَّاخِرِينَ.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ وما أكثرَ سُخْرِيَةَ النِّسَاءِ بعضِهن من بعضٍ، وهذه حَدِّثْ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥١).

ولا حَرَجَ، ومَن كانَ منكم مُتزَوِّجًا فَلْيَسْأَلْ زَوْجَتَه، ومَن لم يَكُنْ مُتزَوِّجًا فَلْيَسأَلْ أُخْتَه أو أُمَّه، فسُخْرِيةُ النِّسَاءِ لا حَصْرَ لها كثيرةٌ جِدًّا، لا يَسْخَرْ نساءٌ من نساءٍ عَسَى أن يَكُنَّ خيرًا منهن.

ففي هذه الجُملةِ نَهَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ ووَعَدَ وتوَعَّدَ، فالنَّهْيُ فِي: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، وفي: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾، والوعدُ والوعيدُ في: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، هَذَا وَعْدٌ للمَسْخورِ منه، ووَعِيدٌ للساخرِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات:١١]، ﴿تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: لا تَعِيبُوهَا، ومِنَ المَعْلومِ أن الإِنْسَانَ لا يَعِيبُ نفسَه، لو فيه أكبرُ عَيْبٍ ما عَابَ نفسَه، والجيدُ منا الَّذي فيه العَيْبُ فيَعْرِفُ عَيْبَه، لَكِنْ لا يَلْمِزُ نَفْسَه عندَ النَّاسِ ويقولُ: يا جماعةُ، أنا فِيَّ كَذَا وكَذَا مِنَ العيوبِ.

إذن، كيفَ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾. معناه: لا تَلْمِزُوا إِخْوانَكم الَّذينَ هُمْ بمَنزلةِ أنفسِكم، هَذَا أَخُوكَ بمَنزلةِ نفسِك، فإذا كنتَ لا تَرْضَى أن تَلْمِزَ نفسَك ولم تَلْمِزْهَا، فلا تَلْمِزْ أَخَاك؛ لأَنَّه بمَنزلةِ نفسِك، واسْمَعْ إِلَى قولِ اللهِ تَعالَى فِي قِصَّةِ الإفكِ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢]، مَنْ يَعْنِي بالنفسِ؟ يعني أُمَّ المُؤْمِنِينَ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يعني: لَوْلَا ظَنُّوا خَيْرًا بمَن نُسِبَ إليهم ما قِيلَ من الإفكِ، حتَّى يَعْرِفُوا أن الأمرَ كَذِبٌ ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور:١٢].

إذن ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: لا تَلْمِزُوا إخوانكم الَّذِينَ هم بمَنزلةِ أنفسِكم، واللَّمْزُ دُونَ السُّخريةِ، السُّخْرِيةُ أَشَدُّ؛ لأنَّ فِي السخريةِ نوعَ تَرَفُّعٍ عَلَى المَسْخورِ منه،

لَكِنِ اللَّمْزُ إظهارُ العَيْبِ وإن لم يَكُنْ سُخْرِيَةً، فـ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ مثلُ أن تقولَ: هَذَا الأعورُ، هَذَا الأحولُ، هَذَا القَذِرُ، وهكذا، أو لا تَلْمِزُوها بعَمَلٍ أو بخُلُقٍ.

قـوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ [الحجرات:١١]، كيفَ التنابزُ بالألقـابِ؟ يعني لا يَنْبِزْ أَحَدُكم أَخَاه باللقبِ الَّذِي لا يَرْضَاهُ، انْتَبِهْ يا أخي، يعني تُنَادِي شَخْصًا أعورَ مثلًا فتقولُ: يا أعورُ تعالَ. هَذَا لا يجوزُ، هَذَا التنابزُ بالألقابِ، أو يكونُ رجلٌ قد سَرَقَ ومَنَّ اللهُ عليه بالتَّوْبَةِ، فتُنَادِيهِ وتقولُ: يا سارقُ. لا يجوزُ هَذَا.

ثُمَّ قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١١]، يعني: إن فَعَلْتُم ذلك كُنْتُم مِنَ الفَسَقَةِ ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

إذن فِي هَذِهِ السُّورةِ آدابٌ عظيمةٌ؛ ولذلك يَنْبَغِي لكلِّ إِنْسَانٍ أن يَقْرَأَها، وأن يَعرِفَ كلامَ المُفَسِّرينَ فيها، وأن يَتَأَمَّلَها، فإنَّها واللهِ مُشتمِلةٌ عَلَى الآدابِ العاليةِ العظيمةِ فِي حقِّ اللهِ وفي حقِّ العبادِ، افْتُتِحَتِ السُّورةُ بقولِه تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١]، ثُمَّ سَاقَ اللهُ تَعالَى فيها الآدابَ والأخلاقَ العاليةَ إِلَى أنْ قالَ فِي آخِرِ السُّورةِ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحجرات:١٧-١٨].

اسْتَفَدْنا مِنْ هَذِهِ الآياتِ الكريمةِ أن هَذِهِ الأشياءَ الَّتِي نَهَى اللهُ عنها إذا اتَّصَفَ بها الإِنْسَانُ صَارَ فاسقًا، والفاسقُ هُوَ الخَارِجُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، والفسقُ أنواعٌ، قد يكونُ الفسقُ كُفْرًا، وقد يَكونُ الفسقُ مَعْصِيَةً من الكبائرِ، وقد يكونُ من الصغائرِ إذا أَصَرَّ عليها، الأقسامُ ثلاثةٌ؛ الفسقُ قد يكونُ كُفْرًا، والثَّاني معصيةٌ من الكبائرِ، والثَّالثُ

معصيةٌ من الصغائرِ إذا أَصَرَّ عليها، وفِي قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي سُورَةِ السجدةِ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠]، المرادُ بالَّذِينَ فَسَقُوا الكفَّارُ، هَذَا فِسْقُ كُفْرٍ. وفي قولِه تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات:٦]، المرادُ بالفاسقِ فَـاسِقُ المَعصيةِ، يعني دونَ ذلك، ففِسْقُ المَعصيةِ إما أن يكونَ بكبيرةٍ ولو مرةً واحدةً، وإما أن يكونَ بصغيرةٍ، لكنْ فَاعِلُ الصغائرِ لا يكونُ فاسقًا إِلَّا إذا أَصَرَّ عليها.

التَّوْبَةُ وَشُرُوطُهَا:

إذن: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١١]، المرادُ بالفسقِ هنا فِسْقُ الصغائرِ، لَكِنَّ قولَه: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ [الحجرات:١١]، هُوَ مَحَطُّ التقسيمِ، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، نَحْتاجُ الآن إِلَى وقفةٍ لِنعرِفَ ما هِيَ التَّوْبَةُ وما شُروطُها؟ فنقولُ: التَّوْبَةُ رُجوعُ العبدِ من مَعصيةِ اللهِ إِلَى طاعتِه، هَذَا تعريفُ التَّوْبَةِ، مثالُ ذلك: رجلٌ يَتَخَلَّفُ عن صَلَاةِ الجماعةِ، ثمَّ مَنَّ اللهُ عليه وهَدَاه، وصَارَ يُصَلِّي مَعَ الجماعةِ، ماذا نقولُ فِي هَذَا الرجلِ؟ إذا تابَ فهل يعودُ عَلَى حالِه الأُولَى قبلَ المعصيةِ أو عَلَى أَعْلَى منها أو دُونَها أو عَلَى مِثْلِها؟ الجوابُ: عَلَى أَعْلَى من حالِه الأُولَى، إذا تَابَ وصَدَقَتْ تَوْبَتُه صَارَ فِي منزلةٍ أَعْلَى من الأولى، أَعْلَى من حالِه قبلَ أن يَتوبَ.

اسْتَمِعْ إلى قِصَّةِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ آدمُ هو أَبُو البشرِ، خَلَقَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَأَسْكَنَه الجنَّةَ، وقَالَ له ولِزَوْجَتِه -واسْمُها حَوَّاءُ- قَالَ لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٣٥]، الشجرةُ أَبْهَمَهَا اللهُ، مَا قَالَ: شَجَرَةُ الحِنْطَةِ، ولا شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ، ولا شَجَرَةُ البُرْتُقَالِ، ومن التَّكَلُّفِ أن نُحاوِلَ تَعْيِينَ مَا أَبْهَمَ اللهُ إذا لم نكُنْ مُلْزَمِينَ به، وهذه قاعدةٌ أُحِبُّ من إخوانِنا طلبةِ العلمِ أن يَفْهَمُوهَا، مِنَ العَبَثِ وإِتْعَابِ الذِّهْنِ وإماتةِ الوقتِ أن نُحاوِلَ تَعْيِينَ ما أَبْهَمَ اللهُ إذا لم يَكُنْ ذلك لَازِمًا لنا؛ لأَنَّه لو كانَ فِي تَعْيِينِه مَصْلحةٌ لنا لَعَيَّنَه اللهُ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، أما ما يَلْزَمُنَا فيَجِبُ أن نَبْحَثَ عنه، مِثْل قولِه تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، ما نَعْلَمُ كَيْفَ إقامتُها، لو قِيلَ لك: أَقِمِ الصَّلاةَ. وأنتَ ما عِشْتَ بينَ المُسْلِمِينَ فتَسْتَفْهِمُ، فتقولُ: كيفَ أُقِيمُهَا؟ القلمُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ به القضاءَ، لَمَّا قَالَ له اللهُ: اكْتُبْ. مُبْهَمٌ، قَالَ: مَاذَا أَكْتُبُ؟ فقَالَ: «اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1]. فنحنُ نقولُ لإخوانِنا طلبةِ العلمِ: ما جَاءَ مُبْهَمًا فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ إذا لم يَكُنْ لَازِمًا علينا أن نَعرِفَ تَعْيِينَه فلا نُكَلِّفُ أنفسَنا، ولا سِيَّما فِي أُمورِ الغَيْبِ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بأفعالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أو صفاتِه أو اليومِ الآخِرِ، دَعِ التفصيلَ فيها، دَعِ التعمقَ فيها، واللهِ لَئِنْ تَعَمَّقْتَ فِي صفاتِ اللهِ تَعالَى وحَاوَلْتَ أن تَسْأَلَ عما لم يَسْأَلْ عنه الصَّحَابَةُ لَهَلَكْتَ، اسْكُتْ عَمَّا سَكَتَ اللهُ عنه، فالصَّحَابَةُ وهم خيرٌ منك لم يَتَعَمَّقُوا فِي هذا، الصَّحَابَةُ لَمَّا حَدَّثَهم الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيا حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ[2] فَهِمُوا الحَدِيثَ، وفَهِمُوا المَعْنَى، فهل قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كيفَ يَنْزِلُ؟ ما قَالُوا ذلك، إنما قَالُوا: آمَنَّا وصَدَّقْنَا يَنْزِلُ رَبُّنَا، لكن لو قالَ قائلٌ: كيفَ نُزُولُه؟ لَقُلْنَا

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧/ ٣٧٨، رقم ٢٢٧٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

له كما قالَ الإمامُ مَالِكٌ: «النزولُ مَعْلُومٌ والكَيْفُ مجهولٌ»[١]. هَذَا الميزانُ الذي ذَكَرَه الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ ميزانٌ لجميعِ الأعمالِ، وإن كانَ قد سَبَقَه مَنْ قالَ به، لَكِنِ اشْتَهَرَ عن مالكٍ.

إذن، يَجِبُ علينا أَلَّا نَتعمَّقَ، الشجرةُ الَّتِي نَهَى اللهُ آدَمَ أن يَأكُلَ منها هل لنا أن نَسأَلَ ما هَذِهِ الشجرةُ؟ أَبَدًا، ولا علينا أن نسأَلَ، ولو سُئِلْنا لَقُلْنَا: اللهُ أعلمُ.

نَهَى اللهُ آدمَ أن يَأكُلَ من الشجرةِ هُوَ وزَوْجُه حَوَّاءُ، ولكنْ أَكَلَا منها بواسطةِ وَسْوَسَةِ الشيطانِ -أَعَاذَنِي اللهُ وإِيَّاكُم منه، وحَالَ بَيْنَنا وبَيْنَه- الشيطانُ قَاسَمَهُمَا، يعني أَقْسَمَ لهما إِقْسامًا عظيمًا: إِنِّي لَكُمَا مِنَ النَّاصِحِينَ، ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]، فبهذه الوَساوسِ الإِنْسَانُ ضعيفٌ، والحمدُ للهِ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدَّرَ عَلَى آدمَ هَذَا لِحكَمٍ عَظيمةٍ، لَيْسَ هَذَا مَوضِعَ بَسْطِها، أَكَلا منها ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه:١٢١]، وأَمَرَهُمَا اللهُ تعالَى أَنْ يَهْبِطَا إِلَى الأرضِ من الجنَّةِ، وأَخْبَرَ أن الشيطانَ عَدُوٌّ لهما، ثم تَابَ آدَمُ إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا، فماذا حَصَلَ له بعدَ التَّوْبَةِ؟ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، الاجتباءُ هَذَا ما حَصَلَ مِنْ قَبْلِ ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، فالإِنْسَانُ قد يكونُ بعدَ التَّوْبَةِ خيرًا منه قَبْلَها؛ لأَنَّه يَنْكَسِرُ بين يَدَيِ اللهِ ويَخْجَلُ من اللهِ ويَعرِفُ قدرَ نفسِه، ولا يُصِيبُه الغرورُ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ إذا فَكَّرَ أَنَّه لم يَعْصِ اللهَ أَصَابَه الغرورُ والعُجْبُ، فيكونُ الإِنْسَانُ بعدَ التَّوْبَةِ النصوحِ خيرًا منه قَبْلَها.

إذن، التَّوْبَةُ أن يَرجِعَ إلى اللهِ مِنْ مَعصيتِه إِلَى طاعتِه.

---

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسنادٍ جوَّده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

شُرُوطُ التَّوْبَةِ:

التَّوْبَةُ لها شُروطٌ لا بُدَّ من تحقُّقِها:

الشَّرْطُ الأوَّلُ: الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، لِئَلَّا يَقصِدَ بالتَّوْبَةِ أن يَنالَ عَرَضًا من الدُّنيا، أو أنْ يَظْهَرَ أَمَامَ النَّاسِ بمنزلةِ التائبِ، بل يُرِيدُ بالتَّوْبَةِ وَجْهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ والنجاةَ من النَّارِ، اللَّهُمَّ أَنْجِنَا مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ أَنْجِنَا مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ أَنْجِنَا مِنَ النَّارِ، يَقصِدُ هذا؛ لأنَّ الذنوبَ يا إخواني لها آثارٌ، الذنوبُ قد تُحيطُ بالقلبِ -والعِياذُ باللهِ- فيَقْسُو ولا يَرَى الحقَّ حقًّا، بل يَرَى الباطِلَ حقًّا، اسْمَعْ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣]، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كَلَّا﴾ لَيستْ أَساطِيرَ الأوَّلِينَ، ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية:٢٣].

إذن، لا بُدَّ مِنْ إِخْلاصِ النِّيَّةِ في التَّوْبَةِ.

الشَّرْطُ الثَّاني: النَّدَمُ، أن يَنْدَمَ عَلَى ما فَعَلَ، بمعنى يَتَأَثَّرُ، وكَأَنَّ شَيْئًا فَاتَه أو أنَّ شيئًا آلَمَه، ويَتَمَنَّى أن لم يَكُنْ فَعَلَه.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: أن يُقْلِعَ عن المَعصيةِ، فإن كانتِ المَعصِيةُ فِعْلَ مُحَرَّمٍ تَرَكَها، وإن كانتِ المَعْصِيةُ تَرْكَ واجبٍ فَعَلَه، وإلا لم تَصِحَّ التَّوْبَةُ، وأَضْرِبُ لكم مثلًا: رَجُلٌ تَرَكَ الصَّلاةَ مَعَ الجماعةِ، هذه معصيةٌ، فقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إليه. هَذَا قَالَه فِي الضُّحَى، وفي الظُّهْرِ ما ذَهَبَ يُصَلِّي، فَلَا تَصِحُّ تَوْبَتُه؛ لأَنَّه لم يُقْلِعْ عن المعصيةِ.

آخَرُ يَتعاملُ بالرِّبَا، يُعْطِي المِئَةَ ويأْخُذُ مِئَةً وعِشْرِينَ بعدَ سنةٍ، فقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه. ولكنْ مَعَ ذلك لم يَزَلْ مَنْ جَاءَه يُعْطِي مِئَةً بمِئَةٍ وعِشْرِينَ إلى سنةٍ،

فلا تَصِحُّ تَوْبَتُه؛ لأَنَّه لم يُقْلِعْ، فلا بُدَّ من الإقلاعِ.

رجلٌ سَرَقَ من شخصٍ مالًا، وتَذَكَّرَ أنَّ السرقةَ حَرَامٌ، فقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليه. ولَكِنَّ المالَ مَعَهُ، ولم يَرْجِعْهُ إلى صَاحِبِه، لا تَنْفَعُ التَّوْبَةُ؛ لأَنَّه ما نَزَعَ، إذا كانَ صَادِقًا أَعْطَى المالَ لِصَاحِبِه.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: أن يَعْزِمَ عَلَى أَلَّا يعودَ فِي المُستقبلِ، فلا بُدَّ مِنْ هَذَا، كَمَا نَدِمَ عَلَى ما مَضَى يَجِبُ أن يَعْزِمَ أَلَّا يعودَ فِي المُستقبلِ، أَمَّا مَنْ قالَ: إنَّه تائبٌ، وهو كلما سَنَحَتْ له الفرصةُ فَعَلَ الذنبَ، فهو غيرُ صادقٍ، فلا بُدَّ أن يُقْلِعَ عن الذنبِ فِي المُستقبلِ، نعم لا بُدَّ أن يَعْزِمَ أَلَّا يعودَ فِي المُستقبلِ.

فائدةٌ:

لو قلتُ: الشَّرطُ الرَّابعُ: أَلَّا يَعودَ إِلَى الذنبِ فِي المُستقبلِ. هناك فَرْقٌ بينَ هَذَا التعبيرِ وبينَ: أنْ يَعْزِمَ عَلَى أَلَّا يعودَ فِي المُستقبلِ، والفرقُ بينَهما أنَّ الأولَ لو عَادَ للمَعصيةِ لَمَا قُبِلَتْ تَوبَتُه، أما فِي العَزْمِ فإنَّه تُقْبَلُ تَوْبَتُه، فإذا عَادَ يَتُوبُ مَرَّةً أُخْرَى؛ لأَنَّه عندما تَابَ عَزَمَ عَلَى أَلَّا يَعودَ، لَكِنْ نَفْسُهُ سَوَّلَتْ له فَفَعَلَ، أما لو قُلْنَا: الشَّرطُ أَلَّا يعودَ. ثمَّ عَادَ، ما قُبِلَت تَوْبَتُه، فبينَهما فَرْقٌ واضحٌ.

إذنْ، إذا كانَ الإِنْسَانُ يَعزِمُ عَلَى أَلَّا يَعودَ ثمَّ سَوَّلَتْ له نفسُه بعدَ ذلك فَعَادَ، فالتَّوْبَةُ الأُولَى مَقْبُولَةٌ، ولكنْ يَحْتاجُ إلى تَجديدِ التَّوْبَةِ للمَعصيةِ الثَّانيةِ.

الشَّرْطُ الخَامِسُ: وهو أعظمُ الشروطِ: أن تكونَ التَّوْبَةُ فِي حالٍ تُقْبَلُ فيها التَّوْبَةُ، فإن كانت بعدَ فَوَاتِ الأَوَانِ، فَلَنْ تُقْبَلَ، مثالُ ذلك: رجلٌ يَعْصِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ فلما نَزَلَ به الموتُ تَابَ إِلَى اللهِ، فلا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ؛ لأَنَّه فَاتَ الأَوَانُ، قالَ اللهُ تَعالَى:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، هَذَا مَا لَهُ تَوْبةٌ، واذْكُرْ قِصَّةَ فِرْعَوْنَ، فَفِرْعَوْنُ تَابَ إِلَى اللهِ حينَ أَدْرَكَهُ الغَرَقُ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، انْظُرْ إلى الذُّلِّ ﴿إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فَجَعَلَ نَفْسَه تَابِعًا لبَنِي إسرائيلَ، وكَانَ مِنْ قَبْلُ يَقْتُلُهُمْ، لكن قِيلَ له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾، يعني الآنَ تُؤْمِنُ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩١-٩٢]، لماذا؟ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ مِنْ بَنِي إسرائيلَ ﴿ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢]؛ لأنَّ بَنِي إسرائيل قَدْ أَرْعَبَهم فِرْعَوْنُ، فَأُغْرِقَ هُوَ وقَوْمُهُ، وإنَّ الرجلَ إذا كانَ له عَدُوٌّ جَبَّارٌ لا تَطْمَئِنُّ نفسُه إِلَّا إذا شَاهَدَ عَدُوَّه قَدْ هَلَكَ؛ لأَنَّه سيَقَعُ فِي قُلوبِ بني إسرائيلَ أن الرجلَ نَجَا بأيِّ وسيلةٍ، لَكِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بِرَحْمَتِه ببَنِي إسرائيلَ أَظْهَرَ جِسْمَه طَافِيًا عَلَى الماءِ حتَّى شَاهَدَهُ بَنُو إسرائيلَ واطْمَأَنُّوا، ثمَّ ماذا بعدَ ذلك؟ أين ذَهَبَ؟ أَكَلَتْهُ الحِيتانُ بِلَا شَكٍّ؛ لأَنَّ بَنِي إسرائيلَ لا يُمْكِنُ بأيِّ حَالٍ مِنَ الأحوالِ أن يَأْخُذُوا جُثَّةَ فِرْعَوْنَ لتكونَ عَلَمًا أَثرِيًّا أبدًا؛ ولهذا دَعْوَى: أَنَّ فِرْعَوْنَ هُوَ الَّذِي فِي أهرامِ مِصْرَ، لَيْسَتْ صحيحةً، وغيرُ مقبولةٍ؛ لأَنَّه لا يَدُلُّ عَلَى أَنَّه هُوَ، لا أَثَرَ ولا نَظَرَ فِي التاريخِ، والنظرُ أيضًا لا يُقْبَلُ هذا، أتظنون أن بني إسرائيلَ يُشَاهِدُونَ عَدُوَّهم ويأخُذُونَه تُحْفَةً فِي الأَثَرِيَّاتِ؟ أبدًا لو رَأَوْه وتَمَكَّنُوا منه لَقَطَّعُوه إِرْبًا إِرْبًا أو أَحْرَقُوه بالنَّارِ.

عَلَى كلِّ حالٍ، فِرْعَوْنُ آمَنَ حِينَ رَأَى الموتَ ولم يَنْفَعْه إيمانُه فلا يُقْبَلُ منه.

الثَّانيةُ: الشَّمْسُ الآنَ تُشْرِقُ من المَشْرِقِ، فَإِذَا جَاءَ ما يُرِيدُ اللهُ تَعالَى أن تُشْرِقَ فيه من المَغْرِبِ آمَنَ كلُّ النَّاسِ حتَّى أَكْفَرُ عِبادِ اللهِ يُؤْمنون، لكن لا يَنْفَعُهم، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ

أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، وقال النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1].

انْتَبِهْ لهذه الشروطِ يا أخي، قَبْلَ أنْ يَفْجَأَكَ الموتُ وأنتَ لم تَتُبْ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ إِنَّا تَائِبُونَ فَتُبْ عَلَيْنَا، إِنَّك عَلَى كلِّ شيءٍ قديرٌ.



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟ رقم (٢٤٧٩).

الدَّرس السَّادِس:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢].

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ في ضِمنِ ما ذَكَرَ مِنَ الآدابِ العظيمةِ في سُورةِ الحجراتِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، لَمْ يَأْمُرْنا جَلَّ وَعَلَا أن نَجْتنِبَ جميعَ الظنِّ، بلْ قالَ: ﴿ٱجْتَنِبُواْ﴾، وما قالَ: بعضَ الظنِّ، بلْ قالَ: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، يَعني لا كلَّ الظنِّ؛ لأن الظنَّ المَبْنِيَّ على القرائنِ البينةِ لا بأسَ بهِ، ولهذا عَمِلَ بهِ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في غَزْوةِ خيبرَ، حيثُ سألَ عن مالِ حُيَيِّ بنِ أَخْطَبَ، وكانَ رَئِيسَ بني النَّضيرِ، وطبعًا اليهودُ عندَهُم أموالٌ كثيرةٌ، فسألَ عن مالِه، فقيلَ لهُ: أَذْهَبَتْهُ النَّفقاتُ والحروبُ، يعني فَنِيَ لكثرةِ الحُروبِ، وذَهَبَ المالُ، فأمرَ النبيُّ ﷺ الزُّبيرَ بنَ العَوَّامِ أن يَضرِبَ الرجلَ الذي قالَ: إنَّ مالَهُ أَكَلَتْهُ الحروبُ؛ لأن الرسولَ قالَ: «**العَهْدُ قَرِيبٌ، وَالمَالُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ**»، فكيفَ يَفْنَى المالُ والمُدَّةُ قليلةٌ والمالُ كثيرٌ، ولا يَفْنَى المالُ الكثيرُ في المُدَّةِ القليلةِ، فهذا بعيدٌ، فلما مسَّهُ الزُّبيرُ بعذابٍ، قالَ: قد رَأَيْتُ حُيَيًّا يطوفُ فِي خَرِبَةٍ هَا هُنَا. فَذَهَبُوا فطافُوا فوَجَدُوا مَسْكَ ثورٍ مملوءًا ذهبًا[1]. يعني جِلدَ الثورِ مملوءًا ذهبًا دَفنَهُ حُيَيُّ بنُ أَخْطَبَ.

الشاهدُ مِن هذهِ القصةِ أن النبيَّ ﷺ عَمِلَ بغالبِ الظنِّ، حيثُ إنهُ عَزَّرَ هذا

---

(١) أخرجه ابن حبان (١١/ ٦٠٧، رقم ٥١٩٩).

الرجلَ حتى دلَّ على موضعِ المالِ، ولهذا قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وليسَ كلَّ الظنِّ، فالظنُّ المَبْنِيُّ على القرائنِ البينةِ ليس بإثمٍ.

ولكن إذا ظَنَنْتَ بأحدٍ سُوءًا فأنتَ لستَ مأمورًا بأن تُنَقِّبَ، ولهذا قالَ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾، فلا تُنَقِّبْ، بلِ ابتعِدْ وتَرَوَّ في الموضوعِ حتى يَتبيَّنَ الأمرُ.

قولُه: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، الغِيبةُ فَسَّرَها النبيُّ ﷺ بقولِه: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»[1]، مِن عَيْبٍ خِلْقيٍّ، أو خُلُقيٍّ، أو دِينيٍّ، أو أيِّ عيبٍ يكرهُهُ.

والعيبُ الخِلْقيُّ أن تقولَ: فلانٌ الأعورُ، الأعمَى، الأعمشُ، الأعرجُ، وما أشبهَ ذلكَ، مما يُكْرَهُ أن يُوصَفَ بهِ.

والخُلُقيُّ أن تقولَ: فلانٌ كذابٌ، فلانٌ كثيرُ النومِ في مجالسِ العلمِ. المُهِمُّ أنكَ تَذْكُرُ فيه عَيْبًا خُلُقيًّا؛ كالكَذِبِ والخيانةِ وما أشْبَهَ ذلكَ.

والتعبديُّ بأن تقولَ: فلانٌ مُراءٍ، فلانٌ ضعيفُ الدِّينِ، وهذا الخلقُ الأخيرُ مِن خُلقِ المُنافقينَ، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٧٩]، فالمُنافِقُ خبيثٌ، فإن تَطوَّعَ الرجلُ بمالٍ كثيرٍ قالَ: هذا مُراءٍ، وإن تَطوَّعَ بمالٍ قليلٍ قالَ: إنَّ اللهَ غَنِيٌّ عن صاعِ فلانٍ، فالمنافقُ يَلمِزُ المؤمنَ.

فالمُنافِقُ عدوٌّ، ولو تَدبرتُم سورةَ المنافقينَ لعَرَفْتُم قيمةَ المنافقِ في المجتمعِ،

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الغيبة رقم (٢٥٨٩).

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾ [المنافقون:٤]، وما قالَ: هُمْ عَدُوٌّ، بلْ قالَ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، وهذهِ جُمْلَةٌ يقولُ العلماءُ: إنها تَقْتَضِي الحَصْرَ، يعني كأنهُ قالَ: لا عَدُوَّ غيرُهم.

وانظُرْ مثلًا إلى قولِهم الكذبَ، يقولونَ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ [المنافقون:٧]، و(حتى) هنا ليستْ للغايةِ ولكنها للتعليلِ، يعني لا تُنفِقُوا عليهمْ لأجلِ أن يَنفَضُّوا عنهُ، قاتلَكُم اللهُ أيها المنافقونَ، أتظنونَ أن أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليًّا وابنَ مسعودٍ وابنَ عباسٍ إذا لم تُنفقُوا عليهمْ يَنفضُّوا عن سبيلِ اللهِ؟!

الجوابُ: هم يَظُنونَ، لكنْ نحنُ لا نَظُنُّ، فهؤلاءِ يَفْدُونَ رسولَ اللهِ ﷺ بأرواحِهم، ولا يُمكنُ أن يَنفضُّوا عنهُ إذا نَقصَتِ النفقةُ أبدًا.

ولهذا لما قالَ مَندوبُ قريشٍ في صُلْحِ الحُديبيةِ للرسولِ: وَإِنِّي لَأَرَى أَوْباشًا مِنَ النَّاسِ -يعني جُموعًا متفرقةً- خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ. فقالَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «امْصَصْ بَظْرَ اللَّاتِ»، والبَظْرُ هوَ الفَرْجُ، كأنهُ يقولُ لهُ: اذهَبْ لِإِلَهِكَ الذِي تَعْبُدُه وامْصَصْ بَظْرَه. وهذا كلامٌ قويٌّ: «امْصَصْ بَظْرَ اللاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ!»[1].

فإنهم لا يَذهبونَ ولا يَدَعُونَه، وكذلكَ لو أن المُنافِقِينَ مَنعوا المالَ -واللهِ- لنْ يَتفرَّقُوا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ولن يَنْفَضُّوا عنهُ.

ويقولونَ أيضًا: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون:٨]، ويَعنونَ بالأعزِّ أنفسَهم، وبالأذلِّ المسلمينَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

لكنْ قالَ اللهُ تعالى في الردِّ عليهمْ في الأُولى: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾، قالَ: الرِّزقُ ليسَ بأيدِيهم، ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٧].

وقالَ تعالى في الثانيةِ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون:٨]، ولم يَقُلْ: واللهُ ورَسُولُهُ الأعزُّ؛ لأنهُ لو قالَ: واللهُ ورسولُه الأعزُّ، لَوَافَقَ المُنافِقِينَ في قَوْلِهم، فقد قالُوا: الأعزُّ والأذلُّ، لكنَّ اللهَ ما ردَّ عليهمْ بهذهِ الصِّيغةِ، بلْ قالَ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾، والمنافقونَ ليسَ لهم شيءٌ، فلو قالَ: واللهُ ورسولُه أعزُّ، لفُهِمَ منهُ أن المُنافِقِينَ لهم عِزَّةٌ، ولكنهُ لا عِزَّةَ لهمْ، فهُمْ أَذَلُّ ما يَكونُ، فهمْ يَتَّقونَ الناسَ ولا يَتَّقونَ اللهَ، ويَسْتَخْفُونَ منَ الناسِ ولا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ، وهمْ أذلُّ بني آدمَ؛ لأنهُ ليسَ عندَهُمُ العزيمةُ ولا يُصَرِّحونَ بها في قُلوبِهم، بلْ همْ أَذِلَّاءُ يَتَّقونَ الناسَ ولا يَتَّقونَ اللهَ، ويخشونَ الناسَ ولا يخشونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، ذَكَرْنا أن الغِيبةَ: ذكرُكَ أخاكَ بما يكرَهُ، وإنما سُمِّيتْ غِيبةً؛ لأن الإنسانَ يَتكلَّمُ في غَيْبةِ الإنسانِ، فإن ذَكرَهُ بما يكرَهُ في حُضورِهِ سُمِّيَ سَبًّا وشَتْمًا، وإن كانَ في غَيْبتِه سُمِّيتْ غِيبةً.

واعْلَمْ أن الغِيبةَ تتضاعفُ بحسبِ آثارِهَا، فغِيبةُ القريبِ أشدُّ مِن غِيبةِ البعيدِ؛ لأن فيها إثمَ الغيبةِ وإثمَ القطيعةِ، وغيبةُ العُلماءِ أشدُّ مِن غِيبةِ العامةِ؛ لأن غِيبةَ العلماءِ فيها غِيبةُ الشخصِ وذمُّ ما يَحْمِلُهُ مِن شَريعةِ اللهِ، والعَالِمُ إذا كانَ يُعلِّمُ الناسَ الخيرَ ثم سُلِّطَ عليهِ إنسانٌ فاغتابَهُ سوفَ لا يَقْبَلُ الناسُ منهُ ما يقولُ مِنَ الخيرِ، وحينَئذٍ يكونُ الذي اغتابَ العالِمَ جَنَى مَرَّتينِ؛ الأولى على الشخصِ والثانيةَ على الشريعةِ

التي يَحْمِلُها. ولهذا كانتْ غِيبةُ العلماءِ أَشَدَّ إثمًا وأعظمَ عقوبةً وأكبرَ مِن غِيبةِ العامةِ، فالعاميُّ تَغْتابُه ويَتأَثَّرُ في شَخْصِه أو لا يتأثرُ، لكنِ العالِمُ يتأثرُ في غِيبتِه بما يدعُو إليهِ مِن شَريعةِ اللهِ، فتكونُ أنتَ السببَ في عدمِ قَبولِ الناسِ شريعةَ اللهِ التي يَتكلَّمُ بها هذا العالِمُ.

وغِيبةُ الأُمراءِ ووُلاةِ الأمورِ أشدُّ مِن غِيبةِ عامةِ الناسِ؛ لأن غِيبةَ الأُمراءِ ووُلاةِ الأمورِ تَتضَمَّنُ شيئينِ: الغِيبةَ الشخصيةَ، وعدمَ طاعةِ الناسِ لهمْ، وعدمَ انقيادِهم لتنظيمِهم الذِي لا يُخالِفُ الشرعَ، وهذا لا شَكَّ أنهُ يَحْدُثُ بها منَ الفوضَى واختلالِ الأمنِ ما لا يَعْلَمُ بهِ إلا اللهُ، فالذي يَضْبِطُ الناسَ شيئانِ: العلماءُ الأمراءُ، أما العلماءُ فيَضْبِطونَهُم في بيانِ الشريعةِ، فيقولُ لكَ العالِمُ: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، وهذا وَاجِبٌ فتَمْشِي وراءَه، والأمراءُ يُلْزِمونَ الناسَ بتَنفيذِ الشريعةِ، فهذهِ وَظِيفتُهم، ويُلْزِمونَ الناسَ بتَحقيقِ الأمنِ، وعَدَمِ الإخلالِ بهِ.

والأمنُ -أيها الإخوةُ- ليسَ رخيصًا واللهِ، قالَ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل:١١٢]، فبدأَ بالأمنِ؛ لأن الأمنَ ليسَ بالهيِّنِ، فإذا تَناثَرَ الناسُ ورَكِبُوا رُءوسَهم وكلُّ إنسانٍ لهُ رأيٌ، وكلُّ إنسانٍ يَحْكُمُ برأيِهِ على غيرِه، فلنْ يكونَ هناكَ قائدٌ وتَحْدُثُ فَوْضَى، ولهذَا أمرَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المُسافِرِينَ إذا كانُوا ثلاثةً أن يُؤَمِّروا أَحَدَهم[1]؛ لئلا يَتنازَعُوا.

وافْرِضْ أنَّ ثلاثةً ليسَ لَهُمْ أميرٌ في البرِّ، فقالَ أَحدُهم: نَتوقَّفُ لِنتغدَّى، وقالَ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، رقم (٢٦٠٨).

الثاني: نَمْشِي، فقالَ الأولُ: نَتوقَّفُ مِتْنَا منَ الجوعِ، فقالَ الثاني: لا، اصْبِرْ ما جُعْنَا بعدُ. فهذا تَناقضٌ وتنافرٌ، فلا بدَّ أن يكونَ للناسِ قائدٌ مطاعٌ.

وقُوَّادُ المسلمينَ مُطاعونَ شَرْعًا، ومطاعونَ نظامًا، فالآنَ في الدولِ الكافرةِ الدستورُ كما يقولونَ حاكمٌ فيها، فهوَ الذِي يَحْكُمُ الناسَ، وهوَ الذِي يُنَظِّمُهم، ولولا الدستورُ لانفلتتِ الأمورُ، لكن نحنُ نِظامُنا مأخوذٌ منَ الكتابِ والسُّنةِ ومنهجِ الصحابةِ والتابعينَ لهم بإحسانٍ، فلو أنَّ الأمرَ تُرِكَ فَوْضَى، وقُدِحَ في وُلاةِ الأمورِ بما فيهمْ وبما ليسَ فيهمْ، وسُكِتَ عَن محاسِنِهِمُ التي تَنْغَمِرُ مَساوئُهم فيها، لَحَصَلَتْ فَوْضَى ليسَ لها نِهايةٌ. ولا يَحْتاجُ أنْ أَذْكُرَ وأَضَعَ النِّقاطَ على الحُروفِ في التمثيلِ ببعضِ الدولِ، فمَعْلومٌ عندَكُم ما الذي حَصَلَ بالتمردِ على وُلاةِ الأمورِ منَ القتلِ واستحلالِ الدماءِ.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه.



الدَّرس السَّابِع:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾.

الظَّنُّ مَا يَتَوَهَّمُهُ الإِنْسَانُ فِي الغيرِ بِدُون عِلْمٍ، لَكن لِقَرائِنَ أَوْ عَلَاماتٍ ظَنَّ مَا ظَنَّ، وقدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ منَ الظنِّ، وَقَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ**»(١).

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، يُعْلَمُ منهُ أَنَّ بعضَ الظنِّ لَا يَجِبُ أَنْ نَجْتَنِبَهُ، وَذَلِكَ الظنُّ المَبْنِيُّ عَلَى القرائِنِ، فالظنُّ المَبْنِيُّ عَلَى القرائِنِ يَجوزُ أَنْ نَعْمَلَ به.

والقرائنُ إِمَّا قَوليَّةٌ، وإِمَّا فِعْليةٌ، فَقَدْ يَقُولُ الإِنْسَانُ قولًا يَحتمِلُ أَنْ يَكونَ أَرادَ سوءًا، وَيَحْتمِلُ أَنْ يَكونَ أَرَاد خيرًا، فَنَحْمِلُه عَلَى الخيرِ، لكنْ إِذَا كُنَّا نَعلَمُ عَن هَذَا الرَّجلِ وعَنْ سِيرتِهِ أَنَّه سَيِّئٌ، فَيَجوزُ لَنَا أَنْ نَظُنَّ بِهَذَا القَوْلِ أَنَّه أَرَادَ الشرَّ، وليسَ علَيْنا إِثمٌ؛ وَلِهَذَا قالَ: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، فَالإِثمُ يَكونُ فِي الظنِّ الَّذِي لَمْ يُبْنَ عَلَى قرائنَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها، رقم (٢٥٦٣).

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، أَيْ: لَا يَتَجَسَّسْ أَحَدٌ عَلَى أَخِيهِ، فَيَهْتَبِلَ غَفَلَاتِهِ، وَيَلْتَمِسَ زَلَّاتِهِ، فَإِنَّ ذَلك مُحَرَّمٌ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ فِيمَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ**»[1].

وَبِهَذَا نَعْرِفُ ضَلالَ مَنْ يَتَّبِعونَ مَسَاوِئَ النَّاسِ، وَعَوْرَاتِ النَّاسِ، فبعضُ النَّاسِ إِذَا سَمِعَ عَنْ أخيهِ سُوءًا سواءٌ كَانَ قَوْلِيًّا أو فِعْلِيًّا، فَرِحَ بِهِ، وطارَ بِهِ فِي الآفاقِ، وإِذَا سَمِعَ خيرًا كتَمَهُ، وَهؤُلاءِ همُ القومُ الَّذِينَ يَتَّبِعونَ عَوْراتِ المُسْلِمِينَ، فَهَؤُلاءِ يَفْضَحُهُمُ اللهُ حَتَّى لَوْ كَانوا فِي أَجْوافِ بُيُوتِهم.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، وَالغِيبةُ فَسَّرَها النَّبِيُّ ﷺ بأَنَّها: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَه**»[2]، سَواءٌ كَانَ ذَلكَ فِي عيبٍ خِلقيٍّ أَوْ عيبٍ خُلقيٍّ، فلَو عيَّرْتَه بأَنَّه أعورُ فهَذَا عيبٌ خِلقيٌّ، ولو عيَّرتهُ بأَنَّه أحمقُ فهَذَا عَيبٌ خُلُقِيٌّ.

فَلَا يَحِلُّ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَغتابَ أَخاهُ، إِلَّا إذَا قَصدَ بِذلكَ النُّصحَ وَالتَّحذيرَ مِنهُ، فَهَذَا لَا بَأسَ بِهِ، إِذْ قَد وَقَعَ هَذَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فإِنَّ فَاطمةَ بنتَ قَيسٍ أَتَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَسْتَشيرُهُ: خَطبَها مُعاويةُ بْـنُ أَبِي سُفْيانَ، وخَطبَها أَبو جَهمٍ، وَكِلَاهما مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ، لَا مَالَ لَه**»، أَيْ: أَنَّهُ فَقِيرٌ، «**أَمَّا أَبو جَهْمٍ فَرَجُلٌ لَا يَرْفَعُ عَصاهُ عَنِ النِّسَاءِ**»، أَيْ: يَضْرِبُ المَرْأَةَ، «**وَلَكِنِ انْكِحِي أُسَامَةَ**»، وأُسَامَةُ بْنُ زَيدٍ ابنُ مَوْلًى، وهوَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ، أَعْتَقَهُ النَّبِيُّ ﷺ فكَانَ منَ المَوالِي، وابنُهُ أُسامةُ مَوْلًى؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ أَبوهُ مَوْلًى فَهُوَ مَوْلًى، «**انْكِحِي أُسَامَةَ**»[3]،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٨٠).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها، رقم (١٤٨٠).

فكَرِهَتْهُ، فقالَ: «انْكِحِي أُسَامَةَ»، فنكَحَتْهُ، فَوَجَدْتَ فِيهِ خيرًا كثيرًا، واغْتبطَتْ بِهِ.

الشَّاهدُ مِنْ هَذَا الحديثِ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «**أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَرَجُلٌ لَا يَرْفَعُ عَصَاهُ عَنِ النِّسَاءِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَه**»، ولا شَكَّ أنَّ مُعاوية وأبا جَهمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَا يَرْضيانِ بِذَلكَ، لكنَّ هَذَا منْ بَابِ النَّصيحَةِ.

ومنْ بَابِ النَّصيحةِ أَيْضًا لَوْ جَاءَ أَحَدٌ يَسْتَشِيرُكَ فِي شخصٍ يُرِيدُ أَنْ يُعَامِلَهُ بِبيعٍ أَو شراءٍ، وأنتَ تَعرِفُ أنَّ هَذَا الشخصَ ذُو خِيانةٍ، فَيَجِبُ عَلَيْك أَنْ تقولَ: هَذَا الرجلُ خَائنٌ لَا تُعامِلْهُ.

لَوْ أَنَّ أحدًا اسْتَشاركَ فِي شَخصٍ خَطَبَ ابنتَهُ، وأَنْتَ تعرِفُ أَنَّ فِي هَذَا الشَّخصِ عَيْبًا يُرَدُّ به النِّكَاحُ، وَجَبَ عليكَ أَنْ تُبيِّنَ العيبَ، ولكنْ إِذَا عَلِمتَ أنَّ فُلانًا خَطَبَ منْ فُلانٍ، وأنتَ تَعْلَمُ أنَّه لَيْسَ كُفئًا؛ لِأَنَّك تَعرِفُ أنَّه مُضَيِّعٌ للصلَاةِ، وأنَّهُ شرَّابٌ لِلخمرِ، فَيَجوزُ لَكَ أَنْ تَقولَ لِأهلِ البنتِ المَخطُوبةِ: إِنَّ الخاطبَ لَيْسَ كُفْئًا حتَّى وإِنْ لَمْ يَسْتَشِرْكَ؛ لِأَنَّ «**الدِّينَ النَّصِيحَةُ**»[1]، وأنتَ تَعلمُ أَنَّ وَلِيَّ المَرْأَةِ لَوْ عَلِمَ أنَّ الخاطِبَ عَلَى هَذِهِ الحالِ مَا زَوَّجهُ، فَالواجبُ أَنْ تُخْبِرَ، كَمَا أَنَّكَ لَا تَرْضَى أَنْ تُزوِّجَ ابنتَكَ مِثلَ هَذَا الرَّجلِ، فَلَا تَرْضَى أَنْ يُزوِّجَ أَخُوك المسلمُ مثلَ هَذَا الرجلَ، والتَّناصحُ بينَ المُسْلِمِينَ واجبٌ.

بعضُ النَّاسِ ابتُلِي بِغِيبَةِ صِنفَيْنِ منَ النَّاسِ غِيبَتُهما شَرٌّ مَحْضٌ:

الصِّنفُ الأوَّلُ: العُلَماءُ.

الصنفُ الثَّاني: الأُمراءُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»، رقم (١٠٢).

وغِيبةُ هَذَيْنِ الصِّنفينِ أَشدُّ منْ غِيبةِ سَائرِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ غِيبةَ سَائرِ النَّاسِ الضَّررُ فِيهَا خَاصٌّ بِالشَّخْصِ المُغتابِ، لكنَّ غِيبةَ الأُمراءِ فَسادٌ لِلْمُجتمَعِ، وَزَوَالٌ لِأَمنِهِ، وأَقْصِدُ بِالأُمراءِ أَعْلَى مَا يَكونُ مِن رَئِيسٍ، أَوْ مِنْ مَلِكٍ، أَوْ رَئِيسِ جُمْهُورِيَّةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِك، فَغِيبةُ هَؤُلاءِ فَسَادٌ لِلأُمَّةِ كُلِهَا؛ لِأَنَّهُ يُسْقِطُ هَيْبَةَ ذِي السُّلطانِ، فَإِذَا اغْتَبْتَ الرَّئِيسَ وَاغْتَبتَ المَلِكَ، سَقَطتْ هَيْبَتُهُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وإِذَا سَقَطتْ هَيْبَتُه فِي أَعينِ النَّاسِ سقَطَت طَاعتُهُ وتَوْجِيهاتُه، وبَقِيَ النَّاسُ فَوْضَى، وَلَا يَجُوزُ أن تكونَ الأُمةُ فَوْضَى.

فَالنَّبيُّ ﷺ أمَرَ المُسَافِرِينَ إِذَا كَانُوا ثَلاثةً أَنْ يُؤَمِّرُوا واحدًا منهُم؛ لِأَنَّ تَرْكَ النَّاسِ بِلَا أَمِيرٍ ضَرَرٌ عَظيمٌ وفوضَى؛ وَلِهَذَا قَالَ الشاعِرُ[1]:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ

وحتَّى البهائِمُ لَا بُدَّ لَهَا منْ قَائِدٍ، فَالظِّباءُ أَوِ الطيورُ، لَا بُدَّ لكلِّ طَائفةٍ أَنْ يَكونَ لَهَا قَائدٌ، فَالظِّباءُ فِي الصَّحْرَاءِ تَجْعَلُ قَائدًا تَمْشِي وَرَاءَهُ؛ وَلِذَلك الصَّيادُ العَارِفُ يَصْطَادُ أَوَّلَ مَا يَصْطادُ الزَّعِيمَ، وَإِذَا اصطَادَ الزَّعِيمَ تَحَيَّرَ البَاقونَ، ثُمَّ اصْطَادَهمْ شَيْئًا فَشَيْئًا؛ لِأَنَّهم يَتحَيَّرونَ، وَلَا يَجِدونَ أحدًا يَقُودُهم، وَكَذَلك فِي الطُّيورِ، انْظُرْ إِلَيْها فِي جوِّ السَّماءِ تَجِدْ أَنَّ فِي مُقَدَّمِها واحدًا تَقْتَدِي بِهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ حالَ البَهائمِ فَكَيْفَ بِبَني آدَمَ.

ومنِ اغتَابَ الأُمرَاءَ ذَوِي السُّلْطانِ أَسْقَطَ هَيْبَتَهم فِي قُلوبِ النَّاسِ، ثُمَّ صَارَ النَّاسُ يَتَنَاقلونَ مَا تَذْكُرُ، فَتَمْتلِئُ القُلُوبُ منَ الحقدِ عَلَيْهم، وَالكراهَةِ لَهُمْ، وَيُؤَدِّي

---

(١) هو الأفوه الأَوْدي، انظر نهاية الأرب (٣/ ٦٤)، وتتمة البيت: ولا سراة إذا جُهَّالهم سادوا.

الأَمْرُ بالتَّالي إِلَى الخُرُوجِ عَلَيْهم، وحِينَئِذٍ يَحْدُثُ الشرُّ.

فالأُمةُ الإِسلاميَّةُ كَانتْ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ، وطريقٍ واحدٍ، وَلَمَّا خَرَجتِ الخَوارِجُ عَلَى عُثْمانَ بنِ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَشَتَّتِ الأُمَّةُ، ثُمَّ على عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهكَذَا فَسَدتِ الأمةُ بِسَببِ الخرُوجِ عَلَى الأَئِمَّةِ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: إِذَا كَانَ الأُمرَاءُ فِيهِمْ مَعْصِيةٌ، فَهَل تَجِبُ عَلَيْنا طَاعتُهم، وتَحْرُمُ علَيْنا غِيبتُهُم؟

فالجَوَابُ: تَجِبُ طَاعتُهمْ، فَقَدْ أُمِرْنَا بِطَاعةِ وُلاةِ الأُمُورِ مُطْلَقًا، فإِذَا أَمَرَ وَلِيُّ الأمرِ بِمَعصيةٍ فَلَا سَمْعَ ولَا طَاعةَ، وإِنْ أَمَرَ بِمَا لَيْسَ بِمَعْصيةٍ، لكنْ هُوَ عاصٍ، تَجِبُ طَاعتُهُ، حَتَّى إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخْبَرَ بأَنَّهُ يَكونُ أَئمةٌ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ أَوْ يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ عَن وَقتِهَا، وأَمَرَ بِطَاعتِهم، حَتَّى إِنَّ الصَّحَابَةَ استأذنُوهُ فِي مُنابذَةِ أمثَالِ هَؤُلاءِ، فقَالَ: «**لَا، مَا صَلَّوْا**»[1]، وفِي لَفْظٍ: «**لَا مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ**»[2].

وعلَى هَذَا، فالوَاجِبُ إِذَا رَأَينا وليَّ الأمرِ عَلَى مَعْصيةٍ بالنِّسْبَةِ لِأَوامرِهِ الَّتِي لَيْسَتْ بِمَعْصيةٍ، الواجبُ الطاعَةُ، ومَعْصيتُهُ عَلَى نَفْسِهِ، ويَجِبُ علَيْنا نُصْحُهُ، بَلْ نُصْحُهُ منَ الدِّينِ، حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ**» قَبْلَ المُسْلِمِينَ، و«**عَامَّتِهِمْ**»[3]، فَنُصْحُ وُلاةِ الأُمورِ أَبْلَغُ مِنْ نُصحِ عَامَّةِ النَّاسِ، يَجِبُ علَيْنا أَنْ نَنْصَحَهم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، وترك قتالهم ما صَلَّوا، ونحو ذلك، رقم (١٨٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨، رقم ١١٢٤٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا»، رقم (١٠٢).

ولَيْسَ مِنَ النُّصْحِ أنْ نُعْلِنَ مَسَاوِئَهمْ، فَهَذَا لَا يَزِيدُ الأمرَ إِلَّا شِدَّةً وبَلاءً، وليسَ منْ طَرِيقِ السلَفِ الصَّالحِ، ولَا مِنْ مَنْهجِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، حَتَّى إِنَّه قِيلَ لِأُسامةَ بنِ زيدٍ فِي قضيةٍ مَعَ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: أَتُرِيدونَ أَنْ نُسْمِعَكُمْ مَا نَقولُ لَهُم؟ فَالإِنْسَانُ النَّاصحُ لَا يُشَهِّرُ بِوُلَاةِ الأُمورِ مُدَّعِيًا أَنَّ ذَلِكَ نَصِيحةٌ، بَلِ الواجِبُ أنْ يَأتيَ البُيوتَ مِنْ أَبْوَابِها.

وهُنَاكَ قَنواتٌ يُمْكِنُ أَنْ تَصِلَ بِالنَّصيحةِ إِلَى وَلِيِّ الأَمرِ بِدُونِ أَنْ تكونَ تَشْهِيرًا وفَضيحةً؛ لِأَنَّ الأَمْرَ خَطِيرٌ، فإِذَا امتلأَتْ قُلوبُ الرَّعيَّةِ حِقْدًا وبُغْضًا للوُلاةِ، فَسيكونُ التمزُّقُ وَالتَّفَرُّقُ بَيْنَ الرَّعيةِ ورُعَاتِهَا، وَحِينَئِذٍ يَكونُ الشرُّ والفسادُ، ولكنَّ النَّصيحةَ وَاجبةٌ، وَيَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَسْلُكَ أقربَ طَرِيقٍ يَحْصُلُ بِهِ المَقصودُ، يَكْتُبُ إِلَى وَلِيِّ الأَمْرِ، لَكنْ لَيْسَ عَلَى طريقِ التَّحزُّبِ، وجَمعِ الآراءِ، وجمعِ التَّوقيعاتِ؛ لِأَنَّ هَذَا لا يُفِيدُ، وَإِنَّما يُنْصَحُ بِالنَّصيحةِ المَبْنيَّةِ عَلَى بيانِ الحقِّ بِدُونِ انفِعَالٍ، وبِدُونِ انتِقَادٍ، ويَذْهَبُ بِها بِنَفْسِه إِنْ كَانَ يَتَمَكَّنُ منَ الوُصولِ إِلَيْهِم، أَوْ يُرْسِلُها مَعَ مَن يَصِلُ إِلَيْه، وإذَا فَعَلَ ذَلِكَ بَرِئَتْ ذِمَّتُهُ.

فَالمسؤُولُ عنْ صَلاحِ الرعيَّةِ وإِصْلَاحِهَا هُوَ الراعِي وَلِيُّ الأَمْرِ، وإذَا أَخْطَأَ فِي شَيْءٍ أَقِمْ عليْه الحُجَّةَ بِما تَكْتُبُ لَه بِالنصيحَةِ، ثُمَّ إِنِ اهتَدَى فذَلِكَ المطلوبُ، وإِذَا لَم يَهتدِ فَالذَّنبُ علَيْه.

الأَمْرُ الثَّانِي: غِيبةُ العُلَماءِ، وغِيبَةُ العُلَماءِ لَيْست كَغِيبةِ عامَّةِ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ يَتَرَتَّبُ علَيْها رَدُّ الشريعةِ الَّتِي يَحْمِلُها العَالِمُ، وأَنْتم تَعْلَمون أنَّ العُلَماءَ وَرثةُ الأنبياءِ، وأنَّ العُلَماءَ يَبُثُّون عِلْمَهم فِي عِبادِ اللهِ؛ منْ أَجْلِ أنْ يَسِيرَ العِبادُ عَلَى شَرِيعةِ اللهِ، هَذا هُوَ

الأَصلُ فِي العَالِمِ؛ لِأَنَّ العُلَمَاءَ فِي الشُّعوبِ كالنُّجومِ فِي السَّمَاءِ، يُبَيِّنونَ الشريعَةَ، فَإِذَا اغتيبَ العُلَمَاءُ وصارَ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ هَمٌّ إِلَّا بيانُ مَسَاوِئِ العُلَمَاءِ، فإِنَّ النَّاسَ سَوْفَ تَسْقُطُ منْ أَعْيُنِهِمْ مَهَابةُ العُلَمَاءِ، وإِذَا سَقَطَت مَهابةُ العُلَمَاءِ، لَزِم مِنْ ذَلكَ سُقُوطُ الشَّريعةِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا؛ لِأَنَّهم سَيقُولونَ: نُهِينُ هَذَا العَالِمَ، ونَتْرُكُه، هَذَا قَالَ كَذَا، وهَذَا قَالَ كَذَا، مَعَ أَنَّهُ قَد يَصْدُرُ مَا يَقُولُهُ العَالِمُ عنِ اجتهادٍ لَا يَعْلَمُ بِطُرقِهِ هَؤُلاءِ الَّذِينَ قَاموا يَتكَلمونَ فِيه.

فيَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يُقَدِّرَ الأمُورَ، ويَزِنَهَا بِمَوَازِينِ الشريعَةِ، ولَيس بِمَوَازِينِ الغَيْرةِ، والعاطفَةِ، وَالكرَاهيةِ، وَلَا أَحَدَ مَعصومٌ منَ الخطأ، فالعَالِمُ يُخطِئُ إمَّا فِي الحكمِ الشَّرْعِيِّ، أَوْ فِي الاستدلَالِ عَلَى الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، أَوْ فِي المَنهَجِ، وَهُوَ مَوضعُ زَلَّةٍ.

ومنَ النَّصيحةِ لِلعالِمِ ومنَ النَّصيحةِ لِلأُمةِ أَلَّا يُشهَّرَ بالعَالِمِ، بَلْ يُنْصَحُ العَالِمُ، ونُصْحُ العالمِ أَوْكَدُ من نُصْحِ العامَّةِ؛ لِأَنَّ العَالِمَ إمامٌ، يَدخُلُ فِي قولِ الرَّسُولِ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ»[1]، فالعَالِمُ يُقْتَدَى بِه، فَإِذَا أَخْطَأَ فالواجِبُ علَيْك أَنْ تُنَاقِشَهُ سِرًّا بأَدبٍ، فالعَالِمُ يَرى أنَّهُ أكبرُ مِنكَ قَدْرًا وأعزَرُ مِنْكَ عِلمًا، وأَقْوى مِنْكَ فهمًا، فلَا تَأتِ أَمَامَ النَّاسِ وَتَقُل: يا فُلان، أَنْتَ قلتَ: هَذَا حرامٌ، ما دَليلُكَ؟ لَكِن لَو ذَهَبْتَ إِلَيْه، وَقُلتَ: سَمِعْتُ أَنَّك تَقُول: هَذَا حَرامٌ، وأَشْكَلَ عَلَيَّ وجهُ الدَّلِيلِ، أَفِدْنِي جَزَاكَ اللهُ خيرًا. فَتجد العَالِمَ يَتَهَلَّلُ، وَيَنْشَرِحُ صَدرُه، وَيُبَيِّنُ الدَّلِيلَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا»، رقم (١٠٢).

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الآفةَ أنَّ كثيرًا منَ النَّاسِ يَنقُلونَ إلَيْنا وإلَى غَيْرِنا عنِ العُلَماءِ أَشْياءَ لَا صِحَّةَ لهَا إطْلاقًا، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مَن نُقِلَ إلَيْه عنِ العَالِمِ شَيْءٌ يرَى أَنَّهُ خطأٌ، أنْ يَتَثَبَّتَ مِنَ الناقلِ، ومَا أَحْسَنَ مَا ذَهَبَ إلَيه شَيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ فِي كتابهِ (مِنْهاجِ السُّنَّةِ)، حَيثُ كَانَ إذَا ذَكَرَ العبارَةَ المرْدُودةَ كَانَ أوَّلَ مَا يَقُول: أَوَّلًا نُطالِبُ بِصِحَّةِ النقلِ، وهَذِهِ هِيَ الحقيقةُ، وإذَا لَمْ يَصِحَّ النقلُ بَطَلَ كُلُّ شيءٍ، فإِذَا جَاءَكَ إِنْسَانٌ، وَقَالَ: العالمُ الفلانيُّ يَقُولُ كَذا وكذَا، فأنتَ تُنكِرُ هَذِهِ المَقالَةَ، وتَتَثَبَّتُ من الناقلِ، قَد يكونُ عَامِّيًّا لَا يَعرِفُ كُوعَهُ مِن كُرْسُوعِهِ، ومعَ ذلكَ يَقُـولُ قالَ: فُـلانٌ كَذا، وهُو لَا يَفْهَمُ الكلامَ.

فإنْ قِيلَ: مَا الفرقُ بينَ الكُوعِ وَالكُرسوعِ؟

قُلْنَا: أُنْشِدُكمْ بيتًا قَالَ الشاعرُ:

وَعَظْمٌ يَلِـي الإِبْهَـامَ كُـوعٌ وَمَـا يَلِـي ... لِخِنْصَرِهِ الكُرْسُوعُ وَالرُّسْغُ مَا وَسَط[1]

العظمُ الَّذِي يَلِي الإبهامَ يُسَمَّى كُوعًـا، ومَـا يَلِي لِخِنْصَرِهِ الكُرْسوعُ، وَالرُّسْغُ مَا وسَطَ، أي مَا بَيْنَهما.

بعضُ النَّاسِ يَتَلَجْلَجُ فِي مُخاطبةِ العُلَماءِ، فَيَنقُلُ أشياءَ عَنْهم غيرَ صَحِيحةٍ، فإذَا نُقِلَ لكَ عَنْ عَالِمٍ مَا تُنْكِرُهُ فَالوَاجِبُ علَيْكَ التَّثبتُ، وإذَا ثَبَتَ ذَلكَ فَالوَاجِبُ أَنْ تَتأمَّلَ، هلْ مَا قَالهُ هَذَا العَالِمُ خطأٌ أَمْ صَوابٌ؛ لِأَنَّ الإنْسَانَ إذَا سَمِعَ قولًا فِي أولِ وَهْلةٍ رُبَّما يَظُنُّه خَطأً، ثُمَّ إذَا تَأَمَّلَ وَجَدَ أَنَّه صَوابٌ.

فَإِذا رَأَى أَنَّه خطأٌ فَالواجِبُ أَنْ يَذْهَبَ إِلى العَالِمِ، وَيَقُولَ: بَلَغَنِي كَذَا وكَذَا،

---

(١) انظر مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (١/ ٣٩١).

وكُنتُ أَظُنُّ الأمرَ خِلَافَ ذَلكَ، يَقُولُ ذَلكَ بِأَدَبٍ وَاحترامٍ، ثُمَّ يَأْخُذُ معهُ فِي المُناقشَةِ، ومَنْ تَبيَّنَ لَهُ الحقُّ وَجبَ علَيْه اتِّباعُهُ، فإِنْ أصَرَّ هَذَا العَالِمُ عَلَى بَاطلِهِ وهُو يَرَى أَنَّه حقٌّ فَوَّضَ الأمرَ إِلَى اللهِ، فَهُوَ الَّذِي يُحاسِبُهُ.

وهنَا يَرِدُ سُؤالٌ: هلِ الغِيبةُ منْ كَبائرِ الذُّنوبِ أَم مِنْ صَغائرِ الذُّنوبِ؟

الجَوابُ: الغِيبَةُ منْ كَبائرِ الذُّنوبِ، وقدْ نَصَّ الإمامُ أحمدُ بنُ حَنبلٍ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى ذلكَ، والدَّليلُ هَذَا التَّشبيهُ الَّذي شَبَّهها اللهُ بِهِ، فقالَ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢]، فلَا يُحِبُّ أَحدُنا ذَلِكَ؛ وَلهَذَا قالَ: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، أَيْ: فقدْ كَرِهْتُموه، فتَشْبيهُ اللهِ لِلغِيبةِ بِهَذَا التَّشْبِيهِ يَدُلُّ عَلَى أنَّها منَ الكبائِرِ، وَإِنَّما شَبَّهَ ذَلِكَ بأكلِ لَحمِ الميِّتِ؛ لِأَنَّ الَّذِي اغْتبتَهُ غَائِبٌ لَا يَستطِيعُ أَنْ يُدَافِعَ عَن نَفسِهِ كَالمَيِّتِ يُؤْكَلُ لَحْمُهُ ولَا يَسْتطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ الآكلَ.

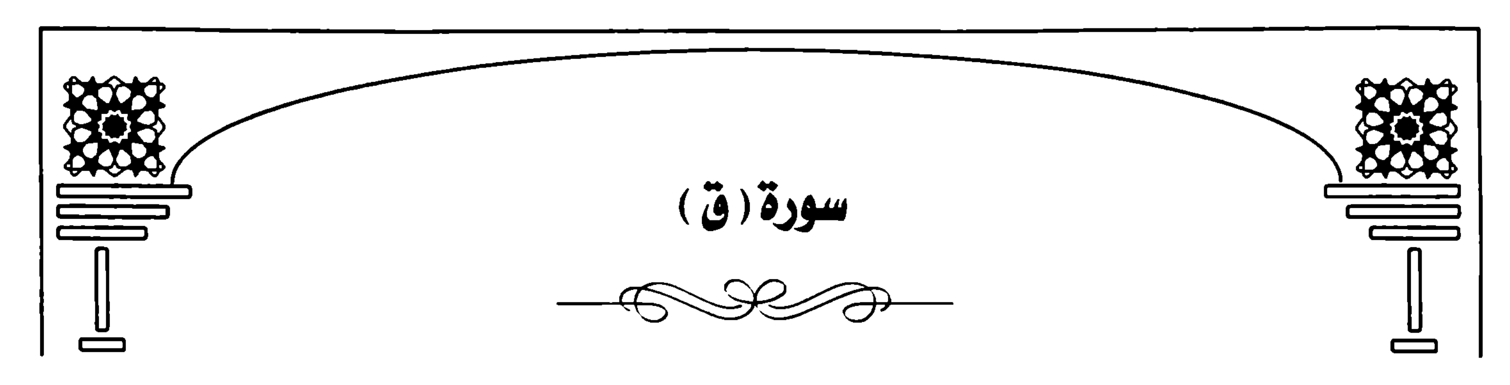
والَّذِي تَغْتابُه إِنَّما تُهْدِي إِلَيْهِ حَسَنَاتِكَ، حَتَّى إِنَّ بعضَ السلفِ أَوْصَى إِلَى شَخْصٍ، وَقَالَ: بَلَغَنِي أَنَّكَ تَغْتَابُنِي، فزِدْ فِي الغِيبةِ، فإِنَّها زِيادةُ أجرٍ لي، وإِثْمٌ علَيْك، وهوَ كذلكَ، فالَّذِي تَغْتابُه إِذَا كَانَ يومُ القيامَةِ فإِنَّهُ يُؤخَذُ منْ حَسَنَاتِك، فإِنِ اغْتَبْتَ أُنَاسًا كَثِيرينَ وَلَمْ يَبْقَ منْ حَسَنَاتِكَ شَيءٌ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهم فَطُرِحَتْ عَلَيْكَ، ثُمَّ طُرِحْتَ فِي النَّارِ.

فَالوَاجِبُ علَيْنا تجَنُّبُ الغِيبةِ، وأن نَدَعَ الكلامَ وَالفَوْضى وَالنِّزاعَ، الَّذِي حَصَلَ بِسببِهِ تَفرُّقُ الشبَابِ، بعدَ أَنْ كُنَّا نُؤَمِّلُ آمالًا طَويلةً كَبِيرةً عَرِيضةً فِي اتِّجاهِ الشَّبابِ، نَزغَ الشَّيطَانُ بيْنَهم، وشَتَّت شَمْلَهم، وفَرَّقَ كَلِمَتَهم، وصارَ هَمُّ الشابِّ: مَا تَقُولُ فِي فُلانٍ، ومَا تَقُولُ فِي فُلانٍ؟! دَعُوكم منْ فُلَانٍ وَفُلانٍ، هَؤُلاءِ قَدِموا عَلَى رَبِّهم،

والأَحياءُ لَهم مَن يُحَاسِبُهم، وَهُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولَا بُدَّ أَنْ يَذوقُوا عَاقبةَ أَمْرِهمْ، إنْ خيرًا فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ.

وعلَيْنا أَنْ نَتَّجِهَ إِلَى القُرْآنِ والسُّنَّةِ، ونَحْفَظَ مَا نَستطيعُ مِنْهما، وَأن نتأَمَّلَ مَعَانِيَهُمَا وأن نَعْمَلَ بِهِمَا، وَيَجِبُ علينا البُعْدُ عَنِ النِّزاعِ الَّذي يُؤَدِّي إِلَى ضَياعِ الوقْتِ، وَكَسْبِ الإثمِ.





سورة (ق)

الدَّرسُ الأوَّل:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَضْلُ السُّورَةِ:

هَذِهِ السُّورةُ سُورةٌ عَظيمةٌ، تَشتمِلُ عَلَى أُصولٍ مِنْ أُصولِ الدِّينِ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ يَقْرَؤُها فِي المَجامِعِ الكَبيرةِ، وكَانَ يَقْرَأُ بها فِي صلاةِ العيدِ فِي الرَّكعةِ الأُولى ﴿قٓ﴾، وَفِي الرَّكعةِ الثَّانيةِ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر:١]، أو يقرأُ فِي الأُولى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وَفِي الثَّانيةِ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١].

وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ الجُمُعَةَ بِسُورةِ ﴿قٓ﴾؛ لِأَنَّها سُورةٌ عَظيمةٌ، ابتدأَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهَذَا الحرفِ الهجائيِّ ﴿قٓ﴾، وهُو حَرفٌ هِجائيٌّ، ولَيْسَ لَه مَعْنًى فِي ذَاتِه؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، والحروفُ الهِجَائيَّةُ فِي اللسانِ العربيِّ لَيْسَ لهَا مَعْنًى فِي حَدِّ ذَاتِها.

ولكنْ إنْ لَم يَكُنْ لهَا مَعْنًى فِي حدِّ ذَاتِها، فَلَهَا مَغْزًى عَظِيمٌ فِي مَقامِ التَّحدِّي، حيثُ إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ تحدَّى العَرَبَ، وقَالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [الطور:٣٣]، يَعْني قالهُ عَلَى اللهِ وهوَ كَاذبٌ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٣-٣٤]، لَا أَتَـوا بِآيـةٍ، ولَا بسُورةٍ، ولَا بِعَشْرِ سُورٍ، ولَا بِمِثْلِ القُرْآنِ، فعَجَزوا عنْ هَذَا، فتَحدَّاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأنَّ هَذَا القُرْآنَ الَّذي أَعْجَزهم حُروفٌ، يُرَكِّبُون مِنْها كَلَامَهم، وَمَعَ ذَلك عَجَزوا أنْ يَأتوا بِتركيبٍ كَالقُرْآنِ الكريمِ.

وهَذَا يُؤَيِّدُهُ أَنك لَا تكادُ تَجِدُ سُورةً بُدِئتْ بِالحروفِ الهِجَائيَّةِ إِلَّا وَبَعْدَ الحرفِ الهِجَائِيِّ ذِكْرُ القُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١].

أَقْسَمَ تَبَارَكَوَتَعَالَى بالقُرْآنِ المَجِيدِ، وهوَ كِتابُ اللهِ الَّذي بَيْنَ أَيْدِينا، وَوَصَفه بِالمَجْدِ، وهوَ العظمَةُ وَالقُوَّةُ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَن تَمَسَّكَ بالقُرْآنِ فَستكونُ لَهُ القُوةُ والعظمَةُ، وَهَذَا واقعٌ، وَيُؤَيِّدُ ذَلك وَاقعُ المُسْلِمِينَ اليومَ، حَيثُ إِنَّهم فِي ذُلٍّ، وسَبَبُ ذُلِّهم إِعْرَاضُهم عَنْ كِتَابِ اللهِ وعَنْ سُنَّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ واتباعُ أَهْوَائِهم، وتَفرُّقُ الكَلِمَةِ، وَكَوْنُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهم يُرِيدُ أَنْ يَعْلُوَ بحقٍّ أَو بباطلٍ؛ فَلِذلك تفرَّقتِ الأُمَّةُ، وتَمَزَّقَتْ، وَصَاروا أَمَامَ أَعْدَائِهمْ أَشلاءً.

فحَفْنَةٌ منَ اليَهُودِ الَّذينَ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢] لَعِبتْ بِنَا لَعِبَ الصَّبِيِّ بالكُرةِ، فَهَذِهِ حُكُومةٌ تُعاهِدُ، وهَذِهِ حُكُومةٌ تَنْقُضُ العَهْدَ، وصَدَقَ اللهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة:١٠٠]، لكنْ لَمَّا كنَّا مُجْتَمِعِينَ عَلَى كَلِمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ نُرِيدُ إِعلاءَ

هَذَا الدِّينِ، ونُجَاهِدُ بالقُرْآنِ، وعلَى القُرْآنِ، كَانتِ الغَلَبةُ لَنَا.

والمُسْلِمُونَ دكُّوا عُرُوشَ الفُرسِ والرُّومِ؛ لِأَنَّهم يُقاتِلونَ للهِ إخلاصًا، ويقاتلونَ بِاللهِ استعَانةً، ويُقَاتلونَ فِي اللهِ دِينًا وشَرِيعةً، فَإِذَا أُمِروا بِالقتالِ قَاتَلوا، وإذَا أُمِروا بِالسِّلْمِ سَالَموا، وإِذَا أُمِروا بِالهُدْنةِ، هَادَنوا.

فالنَّبِيُّ ﷺ قَد هَادنَ قُرَيشًا بِأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهادَنَهمْ عَشْرَ سِنِينَ، ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ سَلَّطَ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِها، فَنقَضتِ العهدَ، فَانْتَقَضَ العهدُ مِنْهم.

فَالقُرْآنُ كَمَا وَصَفَهُ اللهُ مَجِيدٌ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج:٢١]، وَقَالَ هُنَا: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق:٢-٣].

قَوْلُهُ: ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ الفاعلُ قُريشٌ.

قَوْلُهُ: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ أي يَعْرِفونَهُ، وَيَصِفُونهُ بِصِفاتِ العقلِ وَالأَمانةِ، ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:٢]، وَلَمْ يَقُلِ اللهُ: فقَالُوا هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ. بَل أَظْهَرَ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ؛ منْ أَجْلِ أَنْ يُسجِّل علَيْهم أنَّهم كانُوا كَافِرينَ. ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾، وَالعجبُ هُوَ أمرُ البعثِ: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾ أَنُبْعَثُ! فالاستفهامُ هُنَا لِلإنكارِ وَالتكْذيبِ، ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق:٣]، أَيْ: لَنْ نَرْجِعَ، فَجعَلوا هَذَا شَيْئًا عَجبًا.

والعَجبُ حقيقةً هُوَ إِنْكارُ البعثِ، فَكَيْفَ نُنْكِرُ البعثَ وَالَّذِي سَيَبْعثُنا هو الرَّبُّ الَّذِي هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ، وَكَيفَ نُنْكِرُ البعثَ والَّذِي يَبْعثُنا هُوَ الَّذِي خلَقَنا

أَوَّلَ مرةٍ، والقادرُ عَلَى خَلْقِنا أَوَّلَ مَرَّةٍ قادرٌ عَلَى إعادَتِنا منْ بابِ أَوْلَى، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

فلَا عَجَبَ أَنْ يُبْعَثَ النَّاسُ بعدَ الموتِ، بَلِ العَجَبُ أَنْ يُنكِرَ مُنْكِرٌ البعثَ بعدَ الموتِ، ولقدْ كَابَرَ المُشْرِكونَ لَمّا قِيلَ لَهُمْ: إنَّ اللهَ إلهٌ واحدٌ، فَقَالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، فَالعجيبُ أَنْ يُنْكِرَ مُنكِرٌ وَحْدانيَّةَ اللهِ، وأَنْ يُنكِرَ مُنكِرٌ قُدرةَ اللهِ عَلَى البَعْثِ.

قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق:٤].

قَوْلُهُ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، يَعْني تَنْقُصُ منْ أَجْسَامِهِمْ، فإِنَّ الأرضَ تَأْكُلُ أَجْسَادَ بَنِي آدمَ، إِلَّا صِنفًا واحدًا منْ بَنِي آدمَ لَا تَأْكُلُهُ الأرضُ، وَهمُ الأنبياءُ -عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسلامُ- فحرَّمَ اللهُ عَلَى الأرضِ أَنْ تَأكُلَ أجسادَ الأنبياءِ[1]، كَمَا صَحَّ ذَلك عنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

فإِنْ قِيلَ: حَرَّمَ اللهُ عَلَى الأرضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسادَ الأنبياءِ، فهلِ الأرضُ مُكلَّفةٌ؟

قُلْنَا: الأرضُ مُكلَّفةٌ، وكلُّ شَيْءٍ أمامَ أَمرِ اللهِ مُكَلَّفٌ حَتَّى الجمادُ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورةِ فُصِّلت: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، فَالأرضُ تَأكُلُ بَنِي آدمَ إِلَّا الأنبياءَ، وَإِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ[2]، وهيَ القِطَعُ الصَّغيرةُ فِي أَسْفَلِ ظَهْرِ الإِنْسانِ، تكونُ كالبَذْرَةِ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥)، وأحمد (٤/ ٨، رقم ١٦٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]: زمرا، رقم (٤٩٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، رقم (٢٩٥٥).

لِلشجرَةِ، لِيُخلَقَ مِنْهَا الإِنْسَانُ عندَ إِعَادتِه يومَ القيامةِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق:٤]، أَيْ: كِتابٌ حافظٌ كَتَبَ اللهُ فِيهِ أعمالَ بَنِي آدمَ، وقدْ فصَّلَ هَذَا فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وحبلُ الوَرِيدِ: هُوَ عِرْقٌ غَلِيظٌ يُسمَّى الشِّريانَ، ويُسَمَّى الوَرِيدَ، وهوَ أَقْرَبُ مَا يَكونُ مِنَ الإِنْسَانِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٧]، وتَقْديرُ الآيةِ الكريمَةِ: هَذَانِ المُتلقِّيانِ هُما مَلَكانِ كَرِيمانِ، وكَّلَهما اللهُ تَعَالَى بِكِتابةِ أَعْمالِ العبدِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ﴾ [ق:١٨]، أَيْ: عِندَهُ، ﴿رَقِيبٌ﴾ أَيْ: مُراقِبٌ، ﴿عَتِيدٌ﴾، أَي: حَاضِرٌ، فَيَكْتُبُ كُلَّ الأقوالِ الَّتِي يُؤْجَرُ علَيْها والتِي يوْزَرُ علَيْها، وَاللَّغْوَ.

وَالإِنْسَانُ أَقوالُهُ ثلاثةُ أَقْسام:

القِسْمُ الأَوَّلُ: قَولٌ يَكونُ مَأْجورًا علَيْه وهوَ قولُ الحقِّ.

القِسْمُ الثَّاني: قولٌ يَكونُ بهِ مَوْزُورًا، وهوَ قولُ الباطلِ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: قولٌ يَكونُ بِه مَحْرومًا، وهوَ اللَّغْوُ، فإِنَّ اللغوَ هو الَّذِي لَيْسَ بِهِ أَجْرٌ وَلَا وِزرٌ، بل فِيهِ حِرْمانٌ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ لَوِ اسْتَغَلَّهُ بِما يُثابُ علَيْه، لَكَسَبَ الوقتَ.

دَخَلَ أَحدُ أَصحابِ الإمامِ أَحمدَ علَيْه وهوَ مَريضٌ يَئِنُّ منْ شِدَّةِ المَرَضِ، فقالَ لَهُ: يَا أَبا عَبدِ اللهِ، إنَّ فُلانًا منَ التَّابِعِينَ يَقُولُ: إِنَّ المَلَكَ يَكْتُبُ حَتَّى أَنِينَ المريضِ، فَلَمَّا قَالَ لهُ هَذَا، تَصَبَّرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى كَانَ يَحْبِسُ نَفْسَهُ عَنْ أَنِينِ المَرَضِ، وَهَذَا مِنَ الوَرَعِ التَّامِّ فِي الأَئِمَّةِ.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥].

﴿بَلْ﴾ هنا لِلْإِضْرابِ، والإضرابُ نَوْعانِ:

الأوَّلُ: إِضْرابُ إبطالٍ، ومعناهُ أنَّ مَا بعدَها يُبطِلُ مَا قَبْلَها.

الثَّانِي: إِضرابُ انتقالٍ، ومعناهُ أنَّ مَا بعدَهَا لَا يُبْطِلُ مَا قَبْلَها.

والمُرادُ بالإضرَابِ هُنَا الثَّانِي، وهوَ إِضرابُ الانتقالِ.

ومنْ أَمثلةِ إِضْرابِ الانتقالِ فِي الكتابِ العزيزِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦]، ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أيْ: بَعُدَ، ثُمَّ انتقلَ لِمَا هُوَ أَعظمُ: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾، ثُمَّ انْتقَلَ لِمَا هُوَ أَعْظَمُ: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣-١٤]، فَالإِضْرَابُ هُنَا إِبطالٌ.

قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، هَذَا إِضرابُ انتِقَالٍ مِنْ مَوْضوعٍ إِلَى آخَرَ، والحقُّ الَّذِي جاءَهمْ، هُوَ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الوَحْيِ؛ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾، الفاءُ عاطفةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرَتُّبِ مَا بَعْدَها عَلَى ما قَبْلَها، وأَنَّهم لَمَّا كَذَّبوا بِالحقِّ لَمَا جاءَهم، مَرِجَ أَمْرُهمْ واضْطَرَبَ، واختَلَفَ، وَلَحِقَهمُ الشكُّ والارتيابُ. وبِهِ نَعْلَمُ خُطُورةَ مَن إذَا جَاءهُ الحقُّ تَرَدَّدَ فِيهِ، أَنَّ ذَلِكَ خطَرٌ عَظيمٌ.

فإِذَا جَاءَكَ الحقُّ فَالوَاجِبُ أَنْ تَستقبِلَهُ بِالقَبولِ وَالانقِيَادِ، وأَلَّا تَتَرَدَّدَ وَلَا تَشُكَّ، بَلِ اقْبَلْ، وهَذِهِ الآيةُ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ يُشْبِهُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ

يَعۡمَهُونَ ﴾ [الأنعام:١١٠]، لَمّا لَمْ يُؤْمنوا بِهِ أَولَ مرَّةٍ، قَلَّبَ اللهُ أَفْئِدَتَهم وَأَبْصارَهم -أَفْئِدَتُهم يَعْنِي قُلُوبَهم- فَلَا يَفْقَهونَ الحقَّ وَلَا يَرَوْنَه، ﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، أَيْ: يَتَرَدَّدون فِي طُغْيانِهم.

ومِنَ الأُمُورِ الخَطيرَةِ أَنْ تَجِدَ قومًا إِذَا قُلتَ لَهُمْ: قَالَ اللهُ وَرَسولُهُ ﷺ أَو إِذَا سَمِعوا أَمْرَ اللهِ وَرَسولِهِ ﷺ قَالُوا: هلِ الأَمْرُ لِلْوُجوبِ أَمْ لِلنَّدْبِ؟ وهَذَا أَمْرٌ لَم يَكُنْ فِي الصَّحابَةِ، فَإِذَا أَمَرهمُ الرَّسُولُ ﷺ لَم يَقُولُوا: يَا رسولَ اللهِ ﷺ أَتُلْزِمُنا أَم هُوَ لِلنَّدْبِ؟ مَا كَانُوا يَفعَلُونَ ذَلِكَ، بَل يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ إِذَا سَمِعَ أمرَ اللهِ ورَسُولِهِ ﷺ أَنْ يَقُولَ: سَمِعْنا وأَطَعْنا.

وإِذَا جَاءَ النهيُ بعضَ النَّاسِ يَقُولُ: هلِ النَّهيُ لِلتَّحريمِ، أَمِ الكراهَةِ؟

فَإِذَا نَهى اللهُ وَرَسولُهُ ﷺعنِ الشيءِ فَانْتَهِ عَنْه، ولكنْ إِذَا تَورَّطَ الإِنْسَانُ فِي المُخالفَةِ، فلمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرَ بِهِ، أَو فَعَلَ مَا نُهِيَ عَنْه، حِينَئِذٍ يَسْأَلُ: هلِ الأَمرُ لِلْوُجوبِ فَيَحْتاجُ إِلَى كَفَّارةٍ، أَوْ إِلَى تَوبةٍ نَصُوحٍ، أَوْ لِلاسْتِحبابِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلكَ؟

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق:٦].

قَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ﴾، أَمْرٌ أَوَّلُ مَن يَدْخُلُ فِيهِ مَن كذَّبَ بِالبَعْثِ، ولكنَّهُ عَامٌّ، ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾، وَقدْ بَنَاها اللهُ تَعالَى بِقُوةٍ، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بِالنُّجُومِ وبِالمصابِيحِ، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ أَيْ: مِنْ خَلَلٍ وَتَفَاوتٍ.

الدَّرسُ الثَّاني:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ، الحمدُ للهِ رَبِّ العالمِينَ، وأُصلِّي وأُسلِّمُ على نَبِيِّنَا محمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ**:

سورَةُ (ق) مِنَ السُّوَرِ العظِيمَةِ التي كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَينَهَا وبينَ سُورَةِ (اقترَبَت) في المَجامِعِ الكِبارِ، فكانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ هاتينِ السُّورتين في صَلاتِه العِيدَيْنِ(١)؛ لِمَا تَتَضَمَّنَاهُ مِنَ المَواعِظِ العَظِيمَةِ التي تَلِينُ لها القُلوبُ القاسِيَةُ.

وفي هذه السُّورَةِ العظِيمَةِ، أَقْسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالقرآنِ العَظِيمِ بصِفَتِهِ القُرآنَ المَجِيدَ، والمَجْدُ: العَظَمَةُ والعِزَّةُ والرِّفْعَةُ، وهذا القرآنُ يَعْلُو ولا يُعْلَى، ومَن تَمَسَّكَ به فإنه يَعْلُو ولا يُعْلَى.

ثم تَحدَّثَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن أولئكَ المُكَذِّبِينَ الذين أَنْكَرُوا البَعْثَ: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق:٢-٣]، يعني: أَنَرْجِعُ ونَحْيَا بعدَ أن مِتْنَا وكُنَّا تُرابًا؟! ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

ولكِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ استَدَلَّ على إمكانِ ذلِكَ الرَّدْعِ بأُمورٍ حِسِّيَّةٍ معقُولَةٍ، وأدِلَّةٍ بُرْهانِيَّةٍ معلُومَةٍ. استَدَلَّ اللهُ تَعالَى على إمكانِ ذلِكَ بأنه يُنْزِلُ مِنَ السماءِ ماءً مبارَكًا، فيُنْبِتُ بِهِ جَناتٍ وحَبَّ الحصيدِ، يُنْزِلُ على الأرضِ الهامِدَةِ التي ليس فيها شَجَرٌ حَيٌّ، ولكِنَّ اللهَ تَعالَى يَجْعَلُ من هذا الماءِ ذلِكَ الحبَّ الحصِيدَ، الذي يَبْلُغُ منتَهاهُ إلى الحَصاةِ، والنَّخْل باسقات ترتَفِعُ في أَوْجِ السماءِ: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق:١٠-١١]،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ما يقرأ به في صلاة العيدين، رقم (٨٩١).

فيُحْيِي به الأرضَ بعدَ مَوْتِهَا. يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق:١١]؛ فإن القادِرَ على إحياءِ الأرضِ بعدَ موتِهَا قادرٌ على أن يُحْيِيَ الموتَى بعدَ موتِهِمْ.

واستَمِعْ إلى تفصيلِ ذلِكَ في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، ثمَّ بيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن تَكْذِيبَ هؤلاءِ لرَسولِ اللهِ ﷺ ليسَ بغَرِيبٍ ولا بِبِدْعٍ على بَنِي آدَمَ؛ فإنه قَدْ كَذَّبَ قبْلَهُم قَومُ نُوحٍ، وكذلك غَيْرُهم مِنْ أَتباعِ الرُّسُلِ.

ثم تَحدَّثَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن بُرهانٍ آخَرَ، ألا وهو خَلْقُ الإنسانِ أوَّلَ مرَّةٍ، فإذا كانَ اللهُ تَعالَى لم يَعْيَ بِخَلْقِهِ أوَّلَ مرَّةٍ، فهو قَادِرٌ على أن يَخْلُقَهُ مرَّةً أُخْرَى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:١٥].

ثم بَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنه خَلَقَ الإنسانَ، وأنَّه جَلَّوَعَلَا يَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ به نفسُه، أي: ما تُحَدِّثُكَ به نَفْسُك قبلَ أن يَنْطِقَ به لِسانُك؛ فإن اللهَ تَعالَى يَعْلَمُهُ.

فاحْذَرْ أن تُخْفِيَ في نَفْسِكَ ما لا يَرْضاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ هذا الذي تُخْفِيهِ في نَفْسِكَ سيكونُ الحسابُ عليهِ يومَ القِيامَةِ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩]، ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩-١٠].

إن الحِسَابَ في الآخِرَةِ على ما فِي القُلوبِ، أما في الدُّنْيا فإنَّ الأحكامَ على ما في الظاهِرِ؛ لأنه لا يَعْلَمُ ما في القَلْبِ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ ولكن في يومِ القِيامَةِ تُختَبَرُ السرائرُ، ويُحَصَّلُ ما في الصُّدُورِ.

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ

وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٦- ١٧]، أقْرَبُ إلى الإنسانِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ، وحبلُ الوَرِيدِ هو ذلِكَ العِرْقُ الغليظُ الذي يَخْرُجُ من القَلْبِ ويَرْجِعُ إليه، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ بمَلائِكَتِهِ أقربُ إلى الإنسانِ مِنْ هذَا الحَبْلِ؛ لأنَّـه قالَ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾، فجعَلَ هذا القُربَ مُعلَّقًا مُقيَّدًا في هذه الحالِ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، وهذا دليلٌ على أن هذَا القُرْبَ هو قربُ المُلائكةِ الذين يَتَلَقَّوْنَ ما يَعْمَلُهُ بنُو آدَمَ، ويَدُلُّ لهذا أنَّ قُرْبَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بنَفْسِهِ لا يَكونُ إلا لمَن دَعاهُ أو عَبَدَه فَقَط، فلا يكونُ لكُلِّ إنسانٍ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقال النبيُّ ﷺ حينَ رَفعَ الصحابَةُ أصواتَهُم بالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(١)، وقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ»(٢)، ولم يَرِدِ القُرْبُ -أي: قربُ اللهِ تَعالَى بنَفْسِهِ لعَبْدِهِ- إلا في حالِ الدُّعاءِ، وحالِ العِبادَةِ، أما القُرْبُ العامُّ؛ فإنه قُرْبُهُ بمَلائكَتِهِ، كما قالَ اللهُ تَعالَى هنا: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

وقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥]، وهذا قُرْبُهُ تَعالَى بمَلائكَتِهِ الذين يَنْزِلُون لِقَبْضِ رُوحِ الإنسانِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، رقم (٢٩٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

ثم قالَ عزَّوَجلَّ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧]: مَلَكانِ يَكْتُبانِ على الإنسانِ كلَّ ما قَالَ، وكلَّ ما فَعَلَ من خَيْرٍ أو مِنْ شَرٍّ. إذا تكَلَّمْتَ بأيِّ كَلِمَةٍ وبأَيِّ قولٍ فلدَيْكَ رَقِيبٌ حاضِرٌ، يَكتُبُ عليكَ كلَّ أفْعالِكَ، خيرِها وشَرِّهَا.

أخي المُسلِمُ، تأمَّلْ لو كانَ لدَيْكَ جهازٌ مُسَجِّلٌ مُصوِّرٌ يُسَجِّلُ ما تقولُ، ويُصوِّرُ ما تَفْعَلُ، ثم يُبعثُ به إلى الأميرِ أو إلى السلطانِ لِيُحَاسِبَكَ على مَا رَأَى، وعلى ما سَمِعَ من هذا الجهازِ، هل يُمكِنُ أن تَقولَ قَوْلًا يُغْضِبُ ذلكَ الأميرَ أو السلطانَ؟! هل يُمْكِنُ أن تفعَلَ فِعْلًا يُغْضِبُ ذلك الأميرَ أو السلطانَ؟!

إذن؛ فكُلُّ ما تقولُهُ وكلُّ ما تَفْعَلُهُ؛ فإنه مُسجَّلٌ عليكَ، وسَوْفَ يُنشَرُ لكَ يومَ القِيامَةِ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣- ١٤].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨]، ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ أي: من كَلِمَةٍ، وقولُهُ: ﴿مِن قَوْلٍ﴾ يَدُلُّ على العُمومِ الأكْبَرِ الذي لا يُمكِنُ أن يُخَصَّصَ شَيْءٌ مِنْ أفرادِهِ؛ ذلك لأنه جاءَ في سِياقِ النَّفْيِ، وأُكِّدَ بـ(مِنْ) التي هِيَ زَائِدَةٌ إعْرابًا، وليستْ زائدَةً في المَعْنَى.

ولما مَرِضَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَرَضًا شَدِيدًا، وجَعَلَ يَئِنُّ مِنَ المَرَضِ، دَخَلَ إليه بعضُ أصحابِهِ، فقالَ لَه: يا أبا عبدِ اللهِ، إن طَاوسًا -وهو أحدُ التَّابِعِينَ- يقول: «إنَّ المرِيضَ إذَا أنَّ فإنَّهُ يُكتَبُ أنِينُه في مَرَضِهِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]»، حتى أنينُ المَرِيضِ يُكْتَبُ! أمْسَكَ أبو عَبْدِ اللهِ الإمامُ أحمدُ عن الأَنِينِ، وصَارَ لا يَئِنُّ في مَرَضِهِ[١]. وهكذا أَئِمَّتُنَا يُعظِّمونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ويُعَظِّمونَ

(١) مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه (١/ ١١٥).

كلَّ ما قَرَّرَهُ اللهُ تَعالَى في كتابِهِ، وبَيَّنَهُ لعبادِهِ.

أَيُّها الإخوةُ، لو أَنَّنا نَظَرْنَا إلى ما نقُولُهُ في أيَّامِنَا، وفي خَلواتِنَا، ومعَ أصحابِنَا، ومعَ أقوامِنَا، لو نَظَرْنَا إلى هذهِ الأقوالِ الكثيرَةِ، التي هي غيرُ مُحصَاةٍ لنا؛ لوَجَدْنَا أننا نُفَرِّطُ في أقوالٍ عظيمَةٍ تَذْهَبُ سُدًى لا نَنْتَفِعُ منها، بل رُبَّما نَتَضَرَّرُ بها، ولقد قال نَبِيُّنَا وإمَامُنَا وقُدْوَتُنَا محمَّدٌ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١)، فإما أن تقولَ خَيْرًا تَنْتَفِعُ به عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإما أن تَصْمُتَ؛ حتى يَتِمَّ بذلك إِيمانُك؛ لأَنَّك إذا تكَلَّمْتَ وأطلَقْتَ لِسانَكَ، فما أكثَرَ خطَأَكَ، وما أعظَمَ زَلَّتَك، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وبعدَ خَلْقِ الإنسانِ، وبعدَ عَمَلِهِ، وبعدَ كَدْحِه في هذه الدُّنْيا، فما هِيَ النِّهايَةُ؟! استَمِعْ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق:١٩]، إنها سَكْرَةٌ ليستْ سَكْرَةَ شَرابٍ، ولا سَكْرَةَ هَوًى، ولا سَكْرَةَ عِشْقٍ، ولا سَكْرَةَ مالٍ، ولا سَكْرَةَ جاهٍ، ولا سَكْرَةَ رئاسَةٍ، ولكنها سَكْرَةُ فِراقٍ، سَكرةُ فِراقِ الدُّنيا التي يَشعُرُ الإنسانُ بِها أنه فارَقَ الدُّنْيا، فارَقَ دارَ العَمَلِ، إنه لا يَسْكَرُ في هذا الحالِ لأنه فارَقَ أُمَّه وأَباهُ، أو زَوْجَتَهُ وأولادَه؛ ولكنه يَسْكَرُ لأنه فارَقَ دارَ العَمَلِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، لا يقول: ارجعونِ لَعَلِّي أَرجِعُ إلى زَوجتِي، أو إلى أُمِّي، أو إلى أَبِي، أو إلى وَلَدِي، أو إلى صَدِيقِي، ولكن يقولُ: ﴿ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، فيقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠-١٠١].

فيا أَخِي، أقولُ لنَفْسِي -وأسأَلُ اللهَ تَعالَى أن يُلِينَ قَلْبِي وقُلُوبَكم-: تَذَكَّرْ هذه الآيَةَ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق:١٩]، هذه السَّكْرَةُ التي لا تَدْرِي متَى تَنزِلُ بكَ، ولا تَدْرِي أَتنزِلُ بك صَباحًا أم مَساءً، ولا تَدْرِي أَتَنْزِلُ بكَ عن قَرِيبٍ أم عن بعيدٍ، ولا تَدْرِي أَتنزِلُ بكَ وأنتَ على فِرَاشِكَ، ولا تَدْرِي أَتَنْزِلُ بكَ وأنتَ على كُرْسِيِّ مكتَبِكَ، ولا تَدْرِي أَتنزِلُ بكَ وأنتَ على سَيَّارَتِكَ تَقْصِدُ عَمَلَك، ولكنْ يُحالُ بينَك وبينَهَا.

أَيُّها الأخ، أيها المُسْلِمُ، أيها المُؤمِنُ، أيها المُوقِنُ، إنه لا يُمكِنُكَ أن تُنْكِرَ الموتَ؛ لأن الموتَ مُشاهَدٌ مَحْسوسٌ، ولكن يَأخُذُكَ التَّسْويفُ والتفريطُ والإهْمالُ حتى تَسْتَبْعِدَ وُقوعَ الموتِ، وما هو ببَعِيدٍ: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام:١٣٤].

أيها الإخوة، إني أَدْعُو نَفْسي وإيَّاكُمْ أن نتَذَكَّرَ دائمًا هذه السَّكْرَةَ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩]، (ما) إما أن تكونَ اسْمًا مَوصُولًا، أي: ذلك الَّذِي كُنْتَ تَحِيدُ منه وتَفِرُّ عنه، ولكِنْ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]، وإما أن تكونَ (ما) نافِيَةً، أي: ذلِكَ الَّذِي لا مَحِيدَ لكَ عَنْهُ، وكُلُّنا يَعلَمُ أن هذا هو غَايةُ كلِّ إنسانٍ.

ثم ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الغَايَةَ العامَّةَ، فقالَ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق:٢٠]، والذي يَنْفُخُ في الصُّورِ هُو إِسْرَافِيلُ، أَحَدُ المَلائِكَةِ الذين يحمِلُونَ العَرْشَ، قدِ التَقَمَ الصُّورَ، وحَنَى جَبْهَتَهُ، يَنتَظِرُ متى يُؤْمَرُ، فإذا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَنْفُخَ في هذا الصورِ؛ سَمِعَ الناسُ صوتًا عظِيمًا يفْزَعُونَ منه، ثم يَصْعَقونَ ويَمُوتُون: ﴿وَنُفِخَ فِى

ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، قيامٌ من قُبُورِهِمْ يَنْظُرونَ ماذَا حَدَثَ، فإذا نُفِخَ في الصُّورِ؛ فإنَّهم يُحشَرُونَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ليَقْضِيَ بينَهم بحُكْمِهِ، وهو السَّميعُ العَلِيمُ.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾، هذا اليومُ -أيها الإخوة- ليسَ يومَ وعيدٍ فَقَطْ، بل هو يومُ وَعْدٍ ووَعيدٍ؛ يومُ وعدٍ للمُتَّقِينَ، ويومُ وَعيدٍ للكافِرينَ؛ ولكنه عَزَّوَجَلَّ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾؛ لأن هذه السورَةَ افْتُتِحَتْ بشأنِ مَن يُنْكِرُ البَعْثَ ويُكَذِّبُ الرُّسُلَ، فكانَ المَقامُ البَلاغِيُّ يَقتَضِي أن يَذْكُرَ ذلِكَ الجانِبَ -أعني: جانِبَ الوعيدِ- فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق:٢١-٢٢]، واللهِ إنَّنا في غَفْلةٍ من هذا، إننا غافِلُونَ سَادِرُون[1] في دُنيانَا، لَاهُونَ عن آخِرَتِنا، وسوفَ نَرى بِبَصَرٍ قَوِيٍّ حدِيدٍ ما يكونُ يومَ القيامَةِ إذا جاءَ ذلكَ اليومُ: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق:٢١-٢٢].

ثم ذَكَرَ اللهُ تَعالَى في آخِرِ هذه السورَةِ مَآلَ كلِّ إنسانٍ، وذَكَرَ أن الناسَ يَنْقَسِمُونَ إلى قِسْمَيْنِ: قِسْم يَكونُ مِنْ أهلِ النَّارِ -نعوذُ باللهِ منها-، وقِسْمٍ يكونُ من أهلِ الجنَّةِ؛ أما أهلُ النارِ فإنَّ اللهَ تَحدَّثَ عن دَارِهِمْ، فقال: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق:٣٠]، فلا تَزَالُ يُلْقَى فيها وهي تقولُ: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾، وهذا الاستفهامُ للطَّلَبِ، وليسَ للنَّفْيِ كما زَعَمَهُ بعضُ المُفَسِّرِينَ[2]، تَطْلُبُ الزيادةَ، ولكنَّ رَحْمَةَ اللهِ

(١) أي تائهون، انظر: تاج العروس سدر.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٤٥- ٤٤٨).

عَزَّوَجَلَّ سَبقَتْ غَضَبَهُ، «حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ العِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ»[١]، أي: حَسْبِي حَسْبِي، كَفَى كَفَى.

أما الجَنَّةُ -وأسأَلُ اللهَ تَعالَى أن يَجْعَلَنِي وإيَّاكُمْ مِنْ أَهْلِهَا- فإنها تُزْلَفُ، أي تُقَرَّبُ، للمُتَّقِينَ غَيرَ بعيدٍ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣١-٣٣]، هذه أربَعَةُ أَوْصافٍ: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾، ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، أما الأَوَّابُ فَهُو الرَّجَّاعُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ من ذُنوبِهِ إلى طاعَةِ مَولاهُ. ﴿حَفِيظٍ﴾ حافظٍ لأوامِرِ اللهِ، لا يُخِلُّ بهَا، ولا يتَجاوَزُها، فهو جَامِعٌ بينَ الرُّجوعِ مِنَ المعصِيَةِ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[٢]، وبينَ حِفْظِ حُدودِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يَتَجاوَزُ ما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، بل يَأْتِي بِه كامِلًا مَوْفُورًا بحَسَبِ استِطَاعَتِهِ.

قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، أي خافَ اللهَ تَعالَى بالغَيْبِ، والخَشْيَةُ أَخصُّ مِنَ العِلْمِ، فكُلُّ خَشْيَةٍ عِلْمٌ، وليسَ كلُّ خوفٍ خَشْيَةً؛ إذ إنَّ الخَشْيَةَ لَا تكونُ إلا معَ العِلْمِ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، أي: العالِمون باللهِ عَزَّوَجَلَّ ليسَ العَالِمين بالطَّبيعَةِ؛ فإن مِنَ العَالِمِينَ بالطَّبيعَةِ مَن هو أكفرُ خَلْقِ اللهِ باللهِ، ولكنَّ المرادَ العَالمونَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما لَهُ مِنَ الأسماءِ والصِّفَاتِ والأحكامِ الكَوْنِيَّةِ والشَّرْعِيَّةِ، المُتَضمِّنَةِ للحِكْمَةِ البالِغَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، رقم (٦٢٨٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨، رقم ١٣٠٧٢)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، بابٌ، رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥١).

قال تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ هل المرادُ: أنَّه يَخْشَى اللهَ إذا كانَ مُنْفرِدًا في سُوقِهِ أو بيتِهِ، أو بَرِّه أو بَحْرِه، أم المرادُ ما هُو أعمُّ من ذلِكَ؟ بل المرادُ ما هُوَ أعَمُّ من ذلك: يَخْشَى اللهَ في الوَحْدَةِ، ويَخْشَى اللهَ بالغَيْبِ، أي: بما غابَ عن الناسِ، وبِمَا يُكِنُّه في صَدْرِهِ، فهو خَاشٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ ظَاهِرًا وباطِنًا، في الاجتماعِ والانفرادِ.

وكثيرٌ مِنَ الناسِ -نسألُ اللهَ أن يُعِيذَنِي وإياكم من أحوالِهِم- يَخْشَوْنَ اللهَ تَعالَى ظاهِرًا، فتَجِدُهُ أمامَك يَقومُ مَقامَ الخاشِعِ العابِدِ الذَّلِيلِ، ولكنَّ قلبَهُ مُتكَبِّرٌ جبَّارٌ -والعياذُ باللهِ-، أما مَنْ خَشِيَ اللهَ بالغَيْبِ، وكانَ قَلْبُهُ كظاهِرِهِ، يَخْشَى اللهَ ظاهِرًا وباطِنًا: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ ولم يَقُلْ: وكانَ ذا قَلْبٍ مُنيبٍ، وإنما قالَ: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾؛ إشارةً إلى أن تِلْكَ الإنابَةَ امتَدَّتْ به حتى الموتِ حتَّى لَقِيَ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾.

فهذِهِ الأربَعَةُ الأوصافِ هي أوصافُ أهلِ الجنَّةِ، الذين يُقالُ لهُمْ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٤-٣٥]، ومن المَزِيدِ الَّذِي لَدَى رَبِّنَا عَزَّوَجَلَّ النظرُ إلى وَجْهِهِ الكريمِ.

اللَّهُمَّ ارْزُقْنا النظرَ إلى وَجْهِكَ الكريمِ، والشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ في غَيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللهُمَّ اجعَلْنَا ممن وُفِّقَ لليلَةِ القَدْرِ، واستكْمَلَ فيها عَظِيمَ الثَّوابِ والأجرِ يا رَبَّ العالمين، ونسألُك اللَّهُمَّ أن تُعِيدَ علَينا شَهْرَنَا ونحنُ في أعَزِّ ما يكونُ، وفي آمَنِ ما يكونُ، وفي أقْوَى إيمانٍ يكونُ، وفي أحسنِ عَمَلٍ صالِحٍ يكونُ يا رَبَّ العالمينَ.

الدَّرسُ الثَّالِث:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأُصَلِّي وأُسَلِّم على نَبِيِّنا محمدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه أجمعين، أَمَّا بَعْدُ:

فإننا سَمِعنا ما تَلاه إمامُنا من هذهِ السورةِ العظيمةِ سُورة (ق) التي كان النبيُّ ﷺ يَقْرَأُ بها أحيانًا في صلاةِ العيدِ[(١)]، وذلك لأنَّها سورةٌ عَظِيمةٌ، فيها آياتٌ بَيِّناتٌ ومَوَاعِظُ مُذَكِّراتٌ، وكان يَخْطُبُ بها يومَ الجُمُعَة[(٢)] عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ونتكَلَّمُ على جانبٍ منها، وهو قولُه تَعالَى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق:١٩-٢٠].

هذه السَّكْرَةُ التي يَطِيشُ فيها الإنسانُ ويَفْقِدُ فيها عَقْلَه ليستْ سَكْرَةَ ضَرْبٍ ولا سَكْرَةَ شُرْبٍ، ولكنها سَكْرَةُ فِراقِ الدنيا، فإن الإنسانَ في تلك الحالِ يَشْعُرُ بأنه قد ارْتَحَلَ، وأنه تَرَكَ أَهْلَه ووَلَدَهُ ومالَهُ، ولم يَبْقَ إلا عَمَلُه، ولهذا إذا كان مُؤْمِنًا -وأسألُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكم من المُؤمِنِينَ- فإنه يُقالُ لرُوحِه: «مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ»[(٣)]، ويُبَشَّرُ بالجَنَّةِ في تلك اللَّحْظةِ الرَّهيبةِ العظيمةِ، فتَخْرُجُ رُوحُه مُنقادةً سهلةَ الخُروجِ؛ لأنها بُشِّرت بما هو خَيْرٌ من الدنيا وما فيها، ويَنْتَقِلُ من الدنيا دارِ الفُجَّارِ والأَحْزانِ والهُمومِ إلى دارِ النعيمِ المُقيمِ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ما يقرأ به في صلاة العيدين، رقم (٨٩١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجُمُعَة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٧٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٢).

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣١-٣٢]، وقال تعالَى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩].

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق:١٩]، وثَبَتَ ما وَعَدَ اللهُ، وأَيْقَنَ الإنسانُ أنه مُنْتَقِلٌ عن الدنيا إلى الآخِرَةِ ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩]، أي ذلك هو الشيءُ الذي كُنْتَ تَحِيدُ عنه وتَفِرُّ منه، فـ(ما) اسمٌ موصولٌ، أي ذلك الذي كُنْتَ منه تَحِيدُ وتَفِرُّ، ولكنَّ فِرارَكَ منه لن يُنْقِذَك منه ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجُمُعَة:٨]، وواللهِ إن شيئًا تَفِرُّ منه وهو يُلاقِيكَ لهو مُدْرِكُكَ، ليسَ هذا الموتُ الذي تَفِرُّ منه يَمْشِي خَلْفَك ويَتْبَعُكَ حتى تَتَوَهَّمَ أنك تَنْجو منه، ولكنه يُلاقِيكَ، فأنت تَفِرُّ مِنْهُ إليه، ولا بُدَّ من هذا، قال الشاعر[1]:

فَهُـنَّ المَنَايَـا أَيَّ وَادٍ سَـلَكْتُهُ ... عَلَيْهَا طَرِيقِي أَوْ عَلَيَّ طَرِيقُهَـا

وقال بَعْضُ العُلَماءِ: إنَّ (ما) نافيةٌ في قولِه: ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩]، أي ذلك شيءٌ لا مَحِيدَ لك عنه، والمَعْنيانِ لا يَتَنافَيانِ، وقد سَبَقَ لنا قاعدةٌ، وهي أن النصَّ إذا تَضَمَّنَ مَعْنَيَيْنِ لا يَتنافَيانِ، فالواجبُ حَمْلُه عليهما جميعًا، إلا إذا كانَ هناك مُرَجِّحٌ يُرَجِّحُ أحَدَ المَعْنيينِ فيُعْمَلُ به.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق:٢٠]، الصُّورُ: قَرْنٌ عَظِيمٌ، سَعَتُه كما بينَ السماءِ والأرضِ[2]، تكونُ فيه الأَرواحُ، والذي يَنْفُخُ فيه هو إسرافيلُ

(١) البيت في مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ٣٩).
(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٨٤، رقم ١٠).

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَحَدُ حَمَلَةِ العَرْشِ، وهو معَ جِبْرِيلَ ومِيكائِيلَ، كُلٌّ مِن الثلاثةِ مُوكَّلٌ بما فيه الحياةُ، أما جِبْرِيلُ فمُوكَّلٌ بما فيه حياةُ القُلوبِ، وهو الوَحْيُ، وأمَّا مِيكائيلُ فمُوكَّلٌ بما فيه حياةُ الأرضِ والنباتِ، وهو القَطْرُ، أي السَّيْلُ، وأما إسْرافيلُ فمُوكَّلٌ بما فيه حياةُ الأجسادِ عندَ البَعْثِ، وهو نَفْخُ الصُّورِ، ولهذا كانَ رسولُ الله ﷺ يَجْمَعُ بينَ هؤلاءِ الملائكةِ الثلاثةِ في استفتاحِ صلاةِ الليلِ حِينَ يَقولُ: «**اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السماواتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[1]، فكانَ ﷺ يَسْتَفْتِحُ بهذا الاستفتاحِ في صلاةِ الليلِ.

ويُنْفَخُ في الصُّورِ نَفْخَتانِ، أمَّا الأُولى فهي نَفْخَةُ فَزَعٍ وثَأْرٍ، وأما الثانيةُ فهي نَفْخَةُ بَعْثٍ وخُروجٍ، قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، تَخْرُجُ الأرواحُ من هذا الصُّورِ إلى أَجْسادِها، ولا تُخْطِئُ رُوحٌ جَسَدَها، بل تَذْهَبُ إليه بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حتى تَستقِلَّ في الجَسَدِ، ثم يَقومُ الناسُ من قُبورِهم لرَبِّ العالمين، وعَبَّر اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن النَّفْخِ في الصُّورِ، وهو أَمْرٌ مُسْتَقْبَلٌ بالفِعْلِ الماضي لِتَحَقُّقِ وُقوعِه، والشيءُ المُسْتقبَلُ إذا كانَ مُتحقِّقَ الوُقوعِ فلا بأسَ أن يُعبَّرَ عنه بالفعلِ الماضي، كما قال اللهُ تَعالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فإنَّ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: يأتي، وليسَ قد أَتى ومَضى، بدَليلِ قولِه: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

هذا النَّفْخُ في الصُّورِ الذي به يَكونُ البَعْثُ ويَكونُ بعدَ هذا البعثِ الأُمورُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧٠).

العَظِيمةُ والأَهوالُ الجِسَامُ، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، يُحْشَرُ الناسُ جَمِيعًا من ذُكورٍ وإناثٍ وصِغَارٍ وكِبارٍ على صَعِيدٍ واحدٍ، تُمَدُّ الأرضُ مدًّا، بعدَ أن كانتْ مُكَوَّرةً في هذه الدنيا فإنَّها يومَ القيامةِ تُمَدُّ وتُبْسَطُ، ليسَ فيها جِبَالٌ ولا أَوْدِيَةٌ، ولا بِناءٌ ولا أشجارٌ، وإنما يَذَرُها اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٦-١٠٧]، ويُحْشَرُ الناسُ على هذه الأرضِ عُراةً غيرَ مُكْتَسِينَ، وحُفاةً غيرَ مُنْتَعِلِينَ، وغُرْلًا غيْرَ مَخْتُونِينَ[١]، وبُهْمًا[٢] غيْرَ مُمَوَّلِينَ، ليسَ معَ الإنسانِ مالٌ ولا متاعٌ، وإنما هي الأعمالُ الصالحةُ، أَسألُ اللهَ أنْ يَجْعَلَ لي ولكم منها نَصِيبًا نَبْلُغُ به جِنَّاتِ النَّعِيمِ.

هذا اليومُ العَظِيمُ الذي وَصَفَهُ اللهُ تَعالَى بأوصافٍ عظيمةٍ في كتابِهِ ووَصَفَه بها رسولُه محمدٌ ﷺ يَنْقَسِمُ الناسُ فيه إلى قِسْمينِ: فريقٍ في الجَنَّةِ، وفَرِيقٍ في السَّعِيرِ.

وفي هذهِ السورةِ يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق:٢٠-٢٢]، صَدَقَ رَبُّنا عَزَّوَجَلَّ واللهِ إننا لَفِي غَفْلةٍ من هذا اليومِ، ولا يَكادُ يُقْرَعُ هذا اليومُ على بَالِنا إلا نادرًا، إلا مَن هَداهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وصارتِ الآخِرَةُ دائمًا نُصْبَ عَيْنَيْهِ ومَوْضِعَ تَفْكِيرِه، لكنَّ أكثرَ أوقاتِنا -نسألُ اللهَ أن يُعامِلَنا بعَفْوِهِ- يكونُ تَفْكيرُنا في هذه الدنيا، فنَحْنُ مِمَّن أَخْلَدَ إلى

---

(١) لحديث: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا». أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥، رقم ١٦٠٨٥)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١/ ١٣٣)، قال الهيثمي: فيه عبد الله بن محمد ضعيف. والحاكم (٢/ ٤٧٥، رقم ٣٦٣٨) وقال: صحيح الإسناد. والضياء (٩/ ٢٥ رقم ١٠). وأخرجه أيضًا البخاري في الأدب المفرد (ص:٣٣٧، رقم ٩٧٠).

الأرضِ، إلا مَن شَاءَ اللهُ، ليسَ الواحدُ مِنَّا قد ارتفَعَ في فِكْرِه وارتفَعَ في قَلْبِهِ حتى يَنْظُرَ إلى عِلِّيِّينَ، ويَنْظُرَ إلى ما أمامَه، ولكننا بُسطاءُ ضُعفاءُ، لا نَنْظُرُ إلا إلى ما بينَ أيدِينا من الدُّنيا، ولهذا قالَ عَزَّوَجَلَّ هنا: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ [ق:٢٢]، أي وأَزَلْنا ذلك الغِطاءَ، وكانَ الأمرُ المَوعودُ مَشْهودًا، كان الأمرُ الموعودُ -وهو يومُ القيامةِ- مَشْهُودًا، واتَّضَحَ للناسِ رَأْيَ العِيانِ ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، بعدَ أنْ كانَ كَلِيلًا شِبْهَ أَعَمى، فهو اليومَ حَدِيدٌ قَوِيٌّ؛ لأنه يَنْظُرُ الحَقائِقَ أمامَه رَأْيَ العَيْنِ، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢].

ثم ذَكَرَ في آخِرِ السُّورةِ أهلَ النَّارِ وأَهْلَ الجَنَّةِ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]، يعني اذْكُرْ هذا اليومَ العَظِيمَ الذي تُعْرَضُ فيه النَّارُ ويُؤْتَى بها بسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، كلُّ زِمامٍ يَجُرُّه سَبْعونَ أَلْفَ مَلَكٍ(١)، وقُوَّةُ الملائكةِ لا يَعْلَمُها إلا اللهُ، فيُلْقَى فيها أَهْلُها والعِياذُ باللهِ ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك:٨]، حتى يَدْخُلوا النَّارَ وهم مُعْتَرِفُون بذُنوبِهم ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٩].

أَمَّا أَهْلُ الجنةِ -نَسأَلُ اللهَ أن يَجْعَلَني وإيَّاكُم منهم بمَنِّهِ وكَرَمِه- فإنهم يُقالُ لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق:٣٢-٣٤]، ما أَعْظَمَ هذهِ البِشارةَ: ادْخُلُوها بسَلامٍ، يَصْحَبُكم أَبَدَ الآبِدِينَ سَلامٌ مِن المَرَضِ، ومِنَ الموتِ، ومِن الجُوعِ، ومِن

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، رقم (٢٨٤٢).

العَطَشِ، ومِن الهَمِّ، ومِن الغَمِّ، ومن كُلِّ المُكَدِّراتِ والمُنَغِّصاتِ، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾، وتأمَّل قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾، الأوابُ: هو الرَّجَّاعُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، الذي لا يَبْعُدُ ولا يَشْطَحُ، إنْ فَعَلَ مَعْصِيَةً ذَكَرَ رَبَّهُ فاسْتَغْفَرَ لذَنْبِه، وإنْ أَخَلَّ بواجبٍ ذَكَرَ ربَّه وقامَ بهذا الواجبِ، إنه أَوَّابٌ إلى اللهِ رَجَّاعٌ إليه، حَفِيظٌ حافظٌ لنَفْسِهِ مِن كلِّ شيءٍ يكونُ به غَضَبُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قال: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، خَشِيَه أي خَافَهُ عن عِلْمٍ؛ لأنَّ الخَشْيَةَ ليست هي الخوفَ فقَطَ، بل هي خَوْفٌ نَاتِجٌ عن عِلْمٍ، كما قال اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، فهو يَخْشَى رَبَّه؛ لأَنَّه يَعْلَمُ كمالَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بأسمائِه وصِفاتِه، وعندَه مِن صِفَاتِ اللهِ العَظيمةِ ما ليسَ عندَ غَيْرِه، فهو عارفٌ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خائفٌ من عِقابِه، خائفٌ من ذلكَ اليومِ الذي تَقَدَّمَ الحديثُ عنه.

وقولُه: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ حالًا من ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ حالًا من الخَاشِينَ للرَّحْمَنِ، والمعنيانِ لا يَتنافَيَانِ، يعني يَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ المعنَى: أنَّه خَشِيَ ربَّه، واللهُ تَعالَى غَائِبٌ عنه، لكنه تَيَقَّنَهُ بما عَلِمَه من صِفاتِه وآياتِه، ويَحْتَمِلُ أنه يَخْشَى ربَّه وهو غائبٌ عن الخَلْقِ؛ لأنه إنما يَخْشَى اللهَ لا يَخْشَى عِبادَ اللهِ، ففيها مَزِيدُ كمالِ الإخلاصِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وكثيرٌ من الناسِ لا يَخْشَى اللهَ بِالغَيْبِ، يَخْشَوْنَ اللهَ بِالشَّهَادَةِ، إذا كانَ عندَهم أَحَدٌ خافوا، أو إذا كانَ عندَهم أَحَدٌ أقاموا الوَاجِبَ وتَرَكُوا المُحَرَّمَ، وإذا لم يَكُنْ عِندَهم أَحَدٌ لم يُبالوا بالمخالفةِ، نَسْمَعُ أنَّ بعضَ الناسِ -والعياذُ باللهِ- لا يُصَلِّي إلا إذا كانَ عندَه أَحَدٌ، إن كان عندَه أحَدٌ يُصَلِّي صَلَّى، وإن لم يَكُنْ عندَه أَحَدٌ يُصَلِّي فإنه لا يُصَلِّي، فهل هذا الإنسانُ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بالغَيْبِ؟ الجواب: لا.

نَسْمَعُ أنَّ بعضَ الناسِ يَتْرُكُ الغِيبةَ إذا حَضَرَ مَجْلِسَه أَحَدٌ من أهلِ العِلْمِ، أو من أَهْلِ العِبادةِ والتَّقْوى، ولكن إذا حَضَره أحَدٌ من عَامَّةِ الناسِ صارَ يَغْتابُ الناسَ، ويَأْكُلُ لُحُومَهم، نَقُولُ: هذا الرجلُ ليسَ مِمَّنْ خَشِيَ الرحمنَ بالغيبِ، والعياذُ باللهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ جاءَ إلى الآخرةِ بقَلْبٍ مُنِيبٍ إلى اللهِ مُخْبِتٍ إلى اللهِ، ماتَ على أَحْسَنِ الأحوالِ؛ وذلك لأن الإنسانَ إذا ماتَ انتقلَ إلى الآخرةِ، إذ إنَّ دارَ العملِ انتهت، ولهذا يُقالُ: مَن مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيامَتُهُ، فالقُبورُ هي أولُ مَنْزِلٍ للآخرةِ[١]؛ لأنَّ الإنسانَ يَنتقِلُ من دارِ العملِ إلى دارِ الجَزاءِ، ولهذا قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِه (العَقِيدة الوَاسِطِيَّة) وهو كِتابٌ مُخْتَصَرٌ في عَقيدةِ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ، وهو كِتابٌ مِن أَحْسَنِ ما صَنَّفَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا البابِ، قال: «وَمِنَ الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ المَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ القَبْرِ، وَبِعَذَابِ القَبْرِ وَنَعِيمِهِ»[٢].

يَنْبَغِي للإنسانِ أن يَقْرَأَ هذه السورةَ سورةَ (ق) بتأَمُّلٍ ونَظَرٍ، ويُرَاجِعَ كلامَ أَهْلِ العِلْمِ عليها، حتى يَستفِيدَ منها؛ لأنها كَفَى بها وَاعِظًا، ولهذا كانَ الرسولُ ﷺ يَقْرَأُ بها يومَ الجُمُعَةِ، يَخطُبُ الناسَ بها[٣] لما فيها من المَواعِظِ العَظِيمَةِ.

ونَقْتَصِرُ على هذا من التعليقِ على ما سَمِعْناه من قِراءةِ أَئِمَّتِنا وَفَّقَهُم اللهُ.



---

(١) حديث: «إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ». أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، بعد باب ما جاء في ذكر الموت، رقم (٢٣٠٨).

(٢) شرح العقيدة الواسطية، لهراس (ص:٢٠١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجُمُعَة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٧٣).

الدَّرس الرَّابِع:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، وهذا مِنَ الأدِلَّةِ على إمكانِ البَعْثِ الذي أنكرَهُ أولئكَ المُكَذِّبُونَ؛ لأنَّ مَنْ خَلَقَ هذه السماواتِ العظيمَةَ والأرضَ وما بَيْنَهُما في هذه المُدَّةِ الوَجيزَةِ؛ قادِرٌ على أن يُعِيدَ الخَلْقَ.

قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، اللُّغُوبُ: التَّعَبُ؛ وذلكَ لِكمالِ قوَّةِ رَبِّنا عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ هذه السماواتِ العَظِيمَةَ في هذه المُدَّةِ الوَجيزَةِ دُونَ أن يَلْحَقَه جَلَّ وَعَلَا لُغُوبٌ وتَعَبٌ؛ لأنه كامِلُ القُوَّةِ. وخَلَقَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ في ستَّةِ أيامٍ، معَ أنه قادِرٌ على أن يَخْلُقَها في لحظَةٍ واحِدَةٍ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]؛ لأنَّ حِكْمَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تَقتَضِي أن تُناطَ الأُمورُ بأَسْبابِهَا.

وهذا التكوينُ العظِيمُ لهذه المخْلُوقاتِ العَظيمَةِ لا بُدَّ له من أَسبابٍ يَتَرَتَّبُ بعضُها على بعضٍ؛ حتى تَصِلَ إلى درَجَةِ الكَمالِ. وفي قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ دليلٌ على أن ما بينَ السماواتِ والأرضِ أمرٌ عظيمٌ كبيرٌ؛ لأنه جُعِلَ مُعادِلًا لخَلْقِ السماواتِ والأرضِ، بينَما نحن نَظُنُّ أنه ليسَ بينَهما إلا ذلِكَ الهواءُ، وتلكَ النجومُ، ولكنَّ هناكَ أُمورًا عظيمَةً بينَ السماواتِ والأرضِ استَحَقَّتْ أن تكونَ عدِيلًا لخَلْقِ السماواتِ والأرضِ.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق:٣٩]، الخطابُ ها هُنا للرَّسولِ

-ﷺ، يقولُ لَهُ -جل شأنُه-: اصْبِرْ على ما يَقولونَ مِنْ إنكارِ البَعْثِ وغيرِهِ مِنْ تكذِيبِكَ، لا تَتَضَجَّرْ؛ فإنَّكَ مُثابٌ على ذلِكَ، والعاقِبَةُ لكَ. وهكذا نَقولُ لكُلِّ مَن دعَا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ: اصْبِرْ على ما يُقالُ لَكَ وتَحَمَّلْ؛ فإنَّ العاقِبَةَ للمُتَّقِينَ: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٣]، إنَّكَ سوفَ تُلاقِي مَن يَرُدُّ دَعْوتَكَ، ومَنْ يَسْخَرُ بِكَ، ومَنْ يَسْتَهْزِئُ، ولكن هذا كُلُّه يَذهَبُ جُفاءً إذا قابَلْتَه بالصَّبْرِ والاحتِسَابِ، وأنتَ إذا قُتِلتَ، أو إذَا أُوذِيتَ في ذلك؛ فإنَّما هُوَ في سَبيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَمَّا أُدْمِيَتْ إِصْبَعُ النَّبِيِّ ﷺ في غَزْوَةِ أُحُدٍ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَل أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ»[1].

فكلُّ ما يَلْقَاهُ الإنسانُ في الدَّعْوَةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ والعَمَلِ الصالِحِ من الأَذَى النَّفْسِيِّ، أو الجِسْمِيِّ، أو المَالِيِّ، أو الأَهْلِيِّ؛ فإنَّما ذلكَ في سَبيلِ اللهِ، فَلْيَصْبِرْ، ولْيَحْتَسِبْ، ولْيَنْتَظِرِ الفَرَجَ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا، وإنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق:٣٩].

ولو أَنَّنا رَجَعْنا إلى سُورةِ المُطَفِّفِينَ لَوَجَدْنَا لمَن تكونُ العاقِبَةُ؟ يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩]، وذلك فِي الدُّنْيا: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٣٠] استِهْزَاءً وسُخْرِيَةً، ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢]، ونحنُ في عَصْرِنَا هذا لَا يُقالُ للدُّعاةِ: إنَّكُمْ ضالُّونَ، ولكِنْ يُقالُ: إنَّكُم رَجْعِيُّون! كلُّ مَنْ تَمَسَّكَ بالدِّينِ؛ فإنه يُقالُ لَهُ عندَ هؤلاءِ: رَجْعِيٌّ، والكلِمَةُ وإنِ اختَلَفَتْ في اللَّفْظِ، فالمَعْنَى واحدٌ: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من ينكب في سبيل الله، رقم (٢٦٤٨)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٦).

ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣١-٣٢].

فما هي العاقِبَةُ؟ استَمِعْ إليها: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اليومَ يَعْني: يومَ القيامَةِ، ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٥]، وهذا هُو الضَّحِكُ الَّذي لا بُكاءَ بعْدَهُ، أما ضَحِكُ أُولئكَ المُجْرِمينَ؛ فإن بعدَهُ البكاءَ الَّذي لا يَرْقأُ دمْعُه، نَسألُ اللهَ العافِيَةَ والسَّلامَةَ.

قالَ اللهُ لنبيِّهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٣٨-٤٤].

وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [ق:٤٥]، هذِهِ الجُملَةُ لا يَمْتَري عاقلٌ في أنَّها تَهديدٌ لهؤلاءِ المُكذِّبينَ، فاللهُ أَعْلَمُ بما يقولونَ، وسوفَ يُحاسِبُهُم عليهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، أي: بحَفِيظٍ ووكِيلٍ، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، فالقُرآنُ إنما يَتذَكَّرُ بِهِ مَن يَخافُ وعيدَ اللهِ، أما مَن كانَ مُكذِّبًا مُعْرِضًا مُستكبِرًا؛ فإنه إذا تُتْلى عليهِ آياتُ اللهِ: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥]، ولم يَنتَفِعْ بها، وكأنها قِصص العَجائزِ عنْدَهُ -والعياذُ باللهِ-، بخلافِ المُؤمنِ؛ فإنه يَرَى أن هذا الكلامَ أعظَمُ الكلامِ، وأنْفَعُهُ للقَلْبِ والفردِ والمُجْتَمَعِ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعالَى أن يَجْعَلَني وإيَّاكُم ممَّن يَتذَكَّرُ بالقرآنِ، ويَنْتَفِعُ بِهِ، ويَتْلُوهُ حَقَّ

تلاوتِهِ، إنه سَمِيعٌ قَرِيبٌ، والحمدُ للهِ رَبِّ العالمِينَ، وأُصَلِّي وأسلِّمُ على نَبِيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِهِ وأصحابِهِ أجْمعينَ.



الدَّرس الخَامِس:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

جَاءَ فِي سُورَةِ (ق) مَواعِظُ وزَواجِرُ عظِيمَةٌ، وقالَ اللهُ تَعالَى فِي نَهَايَتِهَا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، ولهذا كانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقْرَأُ بِهَا في المجامِعِ العامَّةِ، فكانَ في صلاةِ العِيدِ يَقْرَأُ بقَافَ، واقْتَرَبَتِ الساعَةُ[١]، وأحيانًا يَقْرَأُ بِسَبِّحِ والغَاشِيَةِ[٢].

وقد ابتَدَأَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ بقولِهِ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق:١-٢]، واختَتَمَهَا بقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

ولهذا أَدْعُو نَفْسِي وإِيَّاكُمْ إلى قِراءةِ هذِه السُّورَةِ، والتأمُّلِ فيهَا، وتَدَبُّرِهَا، وما تَشْتَمِلُ عليه مِنَ المَواعِظِ، وابتِداءِ الخَلْقِ وانتِهائِهِ، وقُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه السُّورَةِ مِنَ المَواعِظِ التي يَجِبُ علينَا أن نَنْتَبِهَ إليهَا قولُهُ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ أي: الإنسانُ ﴿مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، إن كانَ خَيْرًا كُتِبَ له، وإن كانَ شَرًّا كُتِبَ عَلَيهِ، وقولُهُ: ﴿مِن قَوْلٍ﴾ نَكِرَةٌ في سِياقِ النَّفْيِ، والنكْرَةُ في سِياقِ النَّفْيِ تُفِيدُ العُمومَ، ثم هذِهِ النَّكِرَةُ أيضًا أُكِّدَ العُمومُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ما يقرأ به في صلاة العيدين، رقم (٨٩١).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، رقم (٨٧٨).

فِيهَا بـ﴿مِن﴾ الزائدةِ لَفْظًا، لكنَّها قدْ زَادتْ في المَعْنَى؛ لأنَّ في القُرآنِ حُرُوفًا زائدةً من حيثُ اللَّفظُ، لكنَّها من حيثُ المَعْنَى تَزِيدُهُ، فهَذِهِ ﴿مِن﴾ زادَتِ التَّوكيدَ، أي: أيُّ قَولٍ يقُولُهُ الإنسانُ فإنَّه لَدَيهِ ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، أي: حَاضِرٌ.

دَخَلَ رجُلٌ على الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو مَرِيضٌ يِئِنُّ من مَرَضِهِ، وأَنِينُ المَرِيضِ معروفٌ لنَا جَمِيعًا، فقالَ لَهُ: يا أبا عبدِ اللهِ، إنَّ طاوسًا -وهو مِنْ كبارِ التابِعِينَ- يقُولُ: «إنَّ المَلَكَ يكْتُبُ حَتَّى أَنِينَ المَرِيضِ»، فأمْسَكَ الإمامُ أحمدُ عَنِ الأَنِينِ؛ خَوْفًا من أنْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ[1]، هذا هو أَنِينُ المَرِيضِ الذي يأتِي أَحْيانًا بِلا شُعُورٍ، فكيفَ بِنَا نحنُ الآنَ!

أَكْثَرُنَا يتكَلَّمُ بالشَّرِّ، ويغتَابُ أَخَاهُ المؤمِنُ الَّذِي حَرَّمَ اللهُ عليه غِيبَتَهُ، فقالَ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجرات:١٢]، والغِيبَةُ مِنْ كبائرِ الذُّنوبِ، نَصَّ على ذلِكَ الإمامُ أحمدُ، كما قالَ ابنُ عَبْدِ القَوِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَنظومَتِهِ الشهيرَةِ:

وَقَـدْ قِيـلَ صُـغْرَى غِيبَـةٌ وَنَمِيمَـةٌ ... وَكِلْتَاهُمَا كُبْرَى عَـلَى نَـصِّ أَحْمَـدَ[2]

وأكثرُ الناسِ الآن لا يتفَكَّهُ في المَجَالِسِ إلا بِغِيبَةِ النَّاسِ -نسألُ اللهَ العافيةَ-، وأشَدُّ من ذلك أن يَغْتَابَ العُلماءَ، أو أنْ يَغْتَابَ الأُمراءَ، ونَعْنِي بالأُمَرَاءِ الأمراءَ على سَبيلِ العُمومِ، أو على سَبِيلِ الخُصوصِ، أعْنِي أنَّ الأميرَ قد يَكونُ أَمِيرًا على مَدْرَسَةٍ، وهو المُدِيرُ، أو أَمِيرًا عامًّا، وهو المَلِكُ أو الرَّئِيسُ، فأشَدُّ الغِيبَةِ إِثْمًا غِيبةُ العُلماءِ،

---

(١) مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه (١/ ١١٥).

(٢) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١/ ١١٣).

وغِيبَةُ الأُمَراءِ؛ لأن غِيبَةَ عامَّةِ الناسِ لا يَعْدُو ضَرَرُها الشَّخْصَ الذي اغتَبْتَه، لكِنَّ غِيبَةَ العُلماءِ يَتَعدَّى ضَرَرُها الشَّريعَةَ الإسلامِيَّةَ؛ لأنَّ حَمَلَةَ الشَّريعَةِ الإسلامِيَّةِ هم العُلماءُ، فإذا اغتَابَهُم الإنسانُ، ونَزَلَتْ قِيمَتُهُم مِنْ قُلوبِ النَّاسِ، وضَاعَتْ هَيبَتُهم؛ أَصْبَحَ ما يَقولونَهُ مِنَ الشَّريعةِ مَحَلَّ شَكٍّ ومَحَلَّ رَفْضٍ، فَرُفِضتِ الشَّرِيعَةُ مِنْ خِلالِ غِيبَةِ العُلماءِ، وصارَ في ذلِكَ إِضاعَةٌ لشَرِيعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، جاءتْ مِنْ خلالِ غِيبةِ العُلماءِ.

أَمَّا الأُمَراءُ، فغِيبَتُهُم أيضًا أَشَدُّ من غِيبَةِ عامَّةِ الناسِ؛ لأنَّكَ إذا اغتَبْتَ الأُمَراءَ، فَقَدْ نَزَّلَتْ قِيمَتَهُم مِنْ أَعْيُنِ الناسِ، وإذا نَزَّلْتَ قيمَةَ الأُمراءِ مِنْ أَعْيُنِ الناسِ قَلَّتْ هَيْبَتُهُمْ، وصارَتْ أَوامِرُهُمْ مَرْفوضَةً، وصارَ الواحِدُ من الناسِ لا يَرَاهُمْ إلا مِثْلَهُ، فلا يُطِيعُهُمْ فِيمَا أَمَرُوا، ولا يَمْتَثِلُ أَمْرَهُم.

وقد انْعَكَسَ هذا الأَمْرُ على حالِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، حينَ صارَ بعضُ النَّاسِ يَتكَلَّمُ في أَعْراضِ العُلماءِ، ويَتكَلَّمُ في أَعْراضِ الأُمْراءِ، حتَّى زَالَتِ الهَيْبَةُ لهؤلاءِ وأولئكَ، وحَصَلَتْ بذَلِكَ مَفاسِدُ كثيرَةٌ، حتى إِنَّك لَتَرَى بعضَ الناسِ يقولُ: أنا لا أُطِيعُ الأَمِيرَ في شيءٍ إِلَّا إذَا كانَ اللهُ قَدْ أمَرَ بِهِ، فإذَا قالَ الأميرُ: أَقِمِ الصَّلاةَ، قُلْتُ: نَعَمْ؛ لأن اللهَ أَمَرَ بذلِكَ، لكِنْ إذا أَمَرَ بأُمُورٍ أُخْرَى مِنَ النظَامِ التي يَرَى أنها مَصْلَحَةٌ للخَلْقِ، وليسَ فيهَا مُخالَفَةٌ للشَّرْعِ، يقول: أنا لا أُطِيعُهُ في ذلِكَ؛ لأنه بَشَرٌ، أو يَقولُ: لأنه يَفْعَلُ كَذَا وكذا مِنَ المعاصِي!

نقولُ: هذا غَلَطٌ، حتى لو فَعَلَ المعاصِيَ فإنه تَجِبُ عليكَ طَاعَتُهُ فيما أَمَرَكَ بِهِ، ما لم يَأْمُرْكَ بمَعْصِيَةٍ، فإنْ أَمَرَكَ بمَعْصِيَةٍ فلا سَمْعَ ولا طاعَةَ، مثلًا: لو قالَ:

احْلِقْ لِحيَتَكَ، فإنه لا سَمعَ له ولا طاعَةَ؛ لأنَّ حَلْقَ اللِّحْيَةِ مَعْصِيَةٌ وحَرامٌ، أمَرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بإعْفائِهَا، فإذا جاءَ إنسانٌ وقالَ: احْلِقْهَا، فمَعناهُ: أن أمْرَهُ مُضادٌّ لأَمْرِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهنا لا نَسْمَعُ ولا نُطِيعُ، لكِنْ لو أُجْبِرْنَا على ذلِكَ، فالإجْبارُ والإكْرَاهُ له حُكْمٌ آخَرُ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى رخَّصَ للإنسانِ أن يَنطِقَ بكَلِمَةِ الكُفْرِ إذا أُكْرِهَ عليها وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ.

إذن: غِيبَةُ العُلماءِ وغِيبَةُ الأُمَراءِ أشَدُّ من غِيبَةِ الناسِ بما يترَتَّبُ عليها مِنَ الضَّرَرِ.

ثم إنه يُنْقَلُ عن بعضِ العُلماءِ أَشْياءُ لم يَقُولُوا بها، أو أَشْياءُ قالُوا بِهَا، لكِنْ لهُمْ وِجْهَةُ نَظَرٍ، فيأتِي بعضُ الناسِ الذين لَهُمْ أغْراضٌ فاسِدَةٌ -وربما كان عَنْ حُسْنِ نِيَّةٍ- ويتكَلَّمُ في العُلماءِ مِنْ خلالِ ذلِكَ.

والوَاجِبُ إذا سَمِعْتَ مِنْ عَالِمٍ شَيْئًا تَسْتَنْكِرُهُ، فعلَيكَ أَوَّلًا أن تَتَّصِلَ بالعَالِمِ؛ لأَنَّهُ رُبَّمَا يُنقَلُ عنه شيءٌ كَذِبٌ، وربما يَفْهَمُ الناقِلُ عنه أنه قالَ كذَا، وهو لم يَقُلْهُ، فاتَّصِلْ بِهِ، فإذَا اتَّصَلْتَ بِهِ وأَيَّدَ ما نُقِلَ عنْه، وكانَ هذا الأَمْرُ مُشْكِلًا عليكَ، فناقِشِ العَالِمَ، لكِنْ لا تُنَاقِشْهُ وكأَنَّكَ مِثْلُهُ، لا، فهذا لا يجوزُ؛ بل نَاقِشْهُ مُناقَشَةَ احْتِرَامٍ وأَدَبٍ؛ لأَنَّه أعْلَمُ مِنْكَ، وله حَقُّ التَّقْدِيرِ، ناقِشْهُ بأُسلوبٍ هادِئٍ، وقُلْ له مَثَلًا: أَحْسَنَ اللهُ إليكَ، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ تَعالَى كذا وكذا؟! أَحْسَنَ اللهُ إليكَ، أَلَمْ يَقُلِ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كذا وكذا؟! فأنتَ إذَا خَاطَبْتَهُ بمِثْلِ هذا الخِطابِ اللَّيِّنِ، يَلِينُ لكَ، لكِنْ تأتِي وشَعَرُكَ مُنتَفِشٌ، وعَيْنُكَ مُحْمَرَّةٌ، وأَوْدَاجُكَ مُنتَفِخَةٌ، ثم تَقولُ: كيفَ تقولُ كذا وكذَا؟! هذا مُخالِفٌ لِقولِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟! فمَهْمَا كان سيكونُ في قَلْبِه شيءٌ، لكِنِ ائتِهِ بأُسلوبٍ ولَبَاقَةٍ، وحُسْنِ أَدَبٍ؛ حتَّى يَلِينَ لَكَ.

إذن: الواجِبُ على مَنْ سَمِعَ عن أَحدٍ مِنَ العُلماءِ شَيْئًا يَستَنْكِرُهُ مِنْ قولٍ أو فِعْلٍ أن يَتَّصِلُ بِهِ، وأن يَسألَهُ، وأن يُناقِشَهُ، لكِنْ بهُدُوءٍ وأَدَبٍ، والواجِبُ على العَالِمِ أيضًا أنْ يتَلَقَّى هذه المُناقَشَةَ بصَدْرٍ رَحْبٍ، فإن هذا مِنْ هَدْيِ النَّبيِّ ﷺ، حتى إنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا نَهى الصحابَةَ عَنِ الوِصَالِ، يعني: عَنْ قَـرْنِ يومَـيْنِ مِنَ الصيامِ بِبَعْضِهِما البَعْضِ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، إنَّك تُواصِلُ، فناقَشُوهُ، فقال: «إنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ»(١)، وبَيَّنَ الفَرْقَ، فالإنسانُ العَالِمُ العاقِلُ الذي يُرِيدُ أن يَتَقَبَّلَ النَّاسُ ما يَصْدُرُ منْه، يَنبَغِي له أن يكونَ واسِعَ الصَّدْرِ، وأن يتَلَقَّى ما يُلقَى عليه مِنَ المُناقَشَةِ بصَدْرٍ رحْبٍ، والحقُّ لا يُمكِنُ أن يَضِيعَ، لكن لو أنَّه قابَلَ هؤلاءِ المُناقِشِينَ له بعُنْفٍ؛ لَضَاعَ الحقُّ، لكن إذَا قابَلَهُم بأدَبٍ كما هُمْ قابَلُوهُ بأَدَبٍ؛ حصَلَ الخيرُ الكثيرُ.

أما بالنِّسبَةِ للأُمراءِ فنقولُ: هُمْ كالعُلَماءِ أيضًا، فإذا رَأْيتَ ما تُنْكِرُهُ فاتَّصِلْ بِهِمْ، لكن قد لا يتَسَنَّى لك أن تَتَّصِلَ بهِمْ مُباشَرَةً، وحينَئذٍ تَعْمِدُ إلى قَنواتٍ أُخْرى تُبَلِّغُها ما تُنْكِرُهُ، وهم بدَورِهِمْ يقومُونَ بإبلاغِ المَسْؤُولِينَ مِنَ الأمراءِ، ومُناقَشَةِ ما يُمكِنُ مُناقَشَتُهُ؛ حتى يَتبَيَّنَ الأمْرُ؛ لأنه ربما يَكونُ تَصَرُّفُ الأَميرِ هذَا تَصَرُّفًا لأُمورٍ خَفِيَّةٍ عليكَ لا تَدْرِي عنْها، ويكونُ تَصَرُّفُهُ بعدَ ذلِكَ صَحِيحًا، وقد يَكونُ تَصَرُّفُهُ خطَأً، وحِينَئذٍ يَجِبُ عليه الرُّجوعُ إلى الحَقِّ إذا بُيِّنَ له.

ولا يَخْفَى علينا جَمِيعًا ما حدَثَ معَ عُمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَما سافَرَ إلى الشامِ، وفي أَثناءِ الطَّرِيقِ قيلَ لَهُ: إنَّ الشَّامَ فيها طاعُونٌ، والطاعُونُ وَباءٌ مَعروفٌ، فتَّاكٌ -والعياذُ باللهِ- فتَوَقَّفَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشَاوَرَ الصحابَةَ: هل يَرْجِعُ إلى المَدِينَةِ خَوْفًا مِنْ هذَا الوَباءِ، أم يَذْهَبُ إلى هذا الوَباءِ، ويتَوَكَّلُ على اللهِ ولا يَهْتَمُّ؟ فشاوَرَ الصحابَةَ؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الوصال إلى السَّحَر، رقم (١٩٦٧).

الأَنْصارَ والمهاجِرينَ، والكِبارَ مِنْهم، واستَقَرَّ رأْيُ الأكثرِ على أن يَرْجِعَ إلى المَدينَةِ، فأَمَرَ بالرجُوعِ إلى المَدينَةِ، فجاءَهُ أبو عُبَيْدَةُ عامِرُ بنُ الجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، كيفَ تَرْجِعُ، «أفِرارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟!»، فقالَ له عُمَرُ: «لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ»؛ لأن أبا عُبيدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن خِيارِ الصحابَةِ، حتى وَصَفَهُ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنه أَمِينُ هذِهِ الأُمَّةِ[1]، وحتى إن عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ لَمَّا طُعِنَ: «لَوْ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ حَيًّا، لَجَعَلْتُهُ الخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي»[2]؛ لأن النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «إِنَّهُ أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ».

المُهِمُّ: أنَّ أبا عُبَيْدَةَ اعتَرَضَ على عُمَرَ، وقالَ: «أَفِرارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟»، قال: «لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ»، ثم قال: «نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ»، سبحانَ اللهِ! كَلِمَةٌ عَجِيبَةٌ هذِهِ، لو أنَّ المُتَأَخِّرِينَ تَكَلَّمُوا عليها لَكَتَبُوا فِيهَا مُجَلَّدَاتٍ، ولم يَصِلُوا إلى هذا المَعْنَى الذي قالَهُ عُمَرُ، يقولُ: «نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ»، أي: إِنَّنَا إنْ ذَهَبْنَا إلى الشامِ فبِقَدَرِ اللهِ، وإن رَجَعْنَا إلى المدينَةِ فبِقَدَرِ اللهِ، فنحن لم نَفِرَّ، إن رَجَعْنا فبتَقْدِيرِ اللهِ، وإن مضَيْنَا فبتَقْدِيرِ اللهِ.

ثم ضَرَبَ له مَثَلًا، وقال: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ؟»[3]، فضَرَبَ له هذَا المَثَلَ، وحِينَئِذٍ اطمَأَنَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم (٤٣٨٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه، رقم (٢٤١٩).

(٢) أخرجه الخلال في السنة (١/ ٢٧٩، رقم ٣٤٤)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ٨٨٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم (٥٧٢٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والطِّيرة والكهانة ونحوها، رقم (٢٢١٩).

وفي أَثناءِ ذلِكَ جاء عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ، وكانَ قَدْ مَضَى في حَاجَةٍ لَهُ، وحَدَّثَهُم أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ -يعني الطَّاعون- بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»(١)، وهذا مِنْ تَوفِيقِ اللهِ.

فانظُرْ إلى المُشاوَرَةِ واجتماعِ الرَّأْيِ، لا بُدَّ أن يَكونَ على الحَقِّ.

فالحاصِلُ -أيها الإخوةُ- أننا نَقولُ: إذا سَمِعْتَ عن أَميرٍ مِنَ الأمراءِ -كبيرٍ أو صَغِيرٍ- شيئًا تَسْتَنْكِرُهُ؛ فلا تَتَّخِذْ من هذَا وَسِيلَةً لنَشْرِ مَعايِبِه بينَ الناسِ؛ لأن ذلِكَ خَطَرُهُ عَظِيمٌ، ولكنْ عليكَ أن تَتَّصِلَ بِهِ، إمَّا بطَريقٍ مُباشِرَةٍ، أو بطريقٍ غيرِ مُباشِرةٍ؛ حتى يَتبَيَّنَ الأمْرُ، وعَلَى مَن تبَيَّنَ له الحَقُّ أن يَصِيرَ إليه مَهْما كانَ، فإن الحَقَّ فوقَ الجَمِيعِ.

نسألُ اللهَ لنَا ولكُمْ التوفِيقَ في الدُّنيا والآخِرَةِ، وأن يَجْعَلَنَا وإياكُمْ هُدَاةً مُهْتَدِينَ، وأن يُصْلِحَ للمُسْلِمِينَ أُمورَهُمْ ووُلاةَ أُمُورِهِمْ، إنه عَلَى كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمِينَ، وصَلَّى اللهُ وسلَّمَ على نَبيِّنَا محمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحابِهِ، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يَومِ الدِّينِ.



(١) تتمة الحديث السابق .



سورة الذاريات

الدَّرسُ الأوَّل:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين، أَمَّا بَعْدُ:

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ [الذاريات:١- ٥].

هذا إِقْسامٌ بأربعةِ أُمورٍ، الأول: الذَّاريات، وهي الرِّياحُ، كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف:٤٥]، وأقْسَمَ اللهُ بها لما فيها من آياتِ اللهِ الدالةِ على كمالِ قُدرتِه، وعلى كمالِ حِكْمتِه، وعلى كمالِ رَحْمتِه.

هذه الرِّياحُ يُرْسِلُها اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أَحْيانًا رَحْمةً، وأَحْيانًا عَذَابًا، فقد أُرْسِلَتْ إلى عادٍ عَذَابًا، وتُرْسَلُ إلى أقوامٍ إلى يَوْمِنا هذا عَذَابًا، وما أَكْثَرَ العواصفَ التي نَسْمَعُها هذه الأيامَ في دُولٍ بعيدةٍ عنا.

هذه الرِّياحُ في تَصْرِيفِها يَمِينًا وشِمالًا وشَرْقًا وغَرْبًا آيةٌ عَظِيمةٌ من آياتِ اللهِ، مَن يَستطِيعُ أن يَصْرِفَ الهواءَ من الجَنوبِ إلى الشَّمالِ؟ لا أَحدَ إلا اللهُ، لو اجْتَمَعَ الخلقُ كُلُّهم على أن يَصْرِفوا الرِّيحَ عن الجهةِ التي أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ما استطاعوا.

هذه الرِّياحُ تَتصَرَّفُ بلحظةٍ، أنت واقفٌ الآن على السَّطْحِ يَأْتِيكَ الهواءُ من

الجنوبِ، وإذا به يأتي من الشَّمالِ في لحَظَةٍ، لو اجتمعت مَكَائِنُ الدنيا كُلُّها ونَفَّاثَاتُها ما حَصَلَت على هذا.

هذه الرِّياحُ لَوَاقِحُ، قال تَعالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر:٢٢]، تَحمِلُ اللِّقاحَ من شَجرةٍ إلى أُخْرَى، تَحمِلُ لِقاحَ السَّحابِ تُلَقِّحُه بالماءِ، فهي من آياتِ اللهِ العظيمةِ، ولهذا أَقْسَمَ اللهُ بها، وإقسامُه بها دَلِيلٌ على عَظمتِها وعَظَمَتُها دليلٌ على عَظَمةِ خالقِها عَزَّوَجَلَّ.

فالإِقْسامُ ببعضِ المخلوقاتِ دَلِيلٌ على عَظَمةِ هذه المخلوقاتِ ثم بالتالي تَكُونُ دَلِيلًا على عَظَمةِ الخَالِقِ جَلَّوَعَلَا.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ هي السَّحابُ مُوقَرَةٌ مُحَمَّلَةٌ بالمِياهِ، قال اللهُ تَعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور:٤٣]، يعني يَسوقُه، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾، يَجْمَعُ بَعْضَه إلى بعضٍ، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ مُتراكِمًا عَظِيمًا، ولا تَعرِفُ أيها الإنسانُ قَدْرَه وأنت في الأرضِ، ولكن إذا كنتَ في الطائرةِ عَرَفْتَ هذه العظمةَ العَظِيمةَ.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾، الوَدْقُ: قَطَراتُ الماءِ، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ جَبالٍ في السماءِ، ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ على حَسَبِ ما تَقتضِيهِ حِكْمَتُه جَلَّوَعَلَا.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤]، أي لَمعانُ البَرْقِ مِن قُوَّتِه وشِدَّتِه يَكادُ يَذْهَبُ بالأبصارِ، هذه اللَّمْحةُ واللَّمْعةُ من البَرْقِ تَحمِلُ من شُحناتِ الكَهْرَباءِ ما لا تُطِيقُه جَمِيعُ مُوَلِّداتِ العالم وهي تأتي بلَحْظةٍ، الصواعقُ التي تَنْزِلُ تنزِلُ منها شُحناتٌ عظيمةٌ قَوِيَّةٌ جِدًّا جِدًّا.

قرأتُ في مجَلَّةٍ أنه لو اجْتَمَعَ مَلايينُ الملايينِ من الكيلو وات ما وَلَّدَتْ مثل هذه الطاقةِ، وهي تَتكونُ من سَحابٍ، تَخْتَرِقُه الطائراتُ، إذا رأيتَه تَعَجَّبْتَ كيفَ تَوَلَّدَت منه هذه الطاقةُ العظيمةُ الكَهْربائية وبهذه اللحظةِ.

إذن أَقْسَمَ اللهُ تَعالَى بالحَامِلَاتِ وِقْرًا، وهي السحابُ لِما تَدُلُّ عليه من كَمالِ عَظمةِ الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ وكمالِ رَحْمتِهِ، وكمالِ حِكْمتِه.

هذه الأمطارُ التي تَنْزِلُ من هذا السَّحابِ تكونُ أَحيانًا رَحْمةً وأَحْيانًا عذابًا، في عَهْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرْسَلَه اللهُ إلى قَوْمِه ولَبِثَ فيهم ألفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عامًا يَدْعُوهم إلى اللهِ ولكنَّهم كُلَّما دعاهم لِيَغْفِرَ اللهُ لهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ [نوح:٧]، حتى حَدَا به الأَمْرُ إلى أن يَقولَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]؛ لأنَّ اللهَ أَوْحَى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦]، فحينَئذٍ دعا اللهَ أَلَّا يُبْقِيَ على الأرضِ أَحَدًا حيثُ أَعْلَمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنه لَنْ يُؤْمِنَ من قَوْمِه إلا مَن قَدْ آمَنَ.

كان يَصْنَعُ الفُلْكَ بوَحْيٍ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، الفُلْكُ يعني السَّفِينةَ، كُلَّما مَرَّ به مَلأٌ من قَومِه سَخِروا منه، يَصْنَعُ سَفِينةً في أرضٍ صَحْراءَ؟! فيَسْخَرونَ منه، فيقولُ لهم: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٨- ٣٩].

ولما قَدَّرَ القَوِيُّ العزيزُ إهلاكَ هؤلاء القومِ أَمَرَ السماءَ فأَمْطَرَتْ وأَمَرَ الأرضَ فنَبَعَتْ.

واسْتَمِعْ في سُورةِ (اقْتَرَبَت) قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر:١١]،

وفي قِراءةٍ (فَفَتَّحْنَا)، للدَّلالةِ على الكَثْرةِ والمُبالغةِ، ﴿أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ يَنْصَبُّ بشِدَّةٍ، ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢]، لم يَقُلْ: وفَجَّرْنا عيونَ الأرضِ، كلُّ الأرضِ كانتْ عُيونًا يَنْبُعُ منها الماءُ حتى التَّنُّورُ الذي هو مَحَلُّ إِيقادِ النارِ صارَ يَفُورُ من المياهِ، والتَّنُّورُ أبعدُ ما يكونُ عن الماءِ؛ لأنه يَابِسٌ حَارٌّ، ومعَ ذلك يَفورُ منه الماءُ؛ لأن اللهَ أمَرَ الأرضَ أن تَفْعَلَ، ففَعَلَتْ.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]، أَمْرٍ مَقْضِيٍّ من عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولا مُعقِّبَ لحُكْمِه، ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾، أي نُوحًا ومَن مَعَه ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ [القمر:١٣]، أي على ذاتِ ألواحٍ عظيمةٍ قَوِيَّةٍ لا تَتأثَّرُ بالمَوْجاتِ العَظيمةِ، ﴿وَدُسُرٍ﴾ أي مَساميرَ قَوِيَّةٍ، ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾، أي تَجْرِي ونحن نَراهَا بأعينِنا ونَكْلَؤُها بحِفْظِنا، ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١٤]، وهو نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقد كُفِرَ به وصَبَرَ ألفَ سَنةٍ إلا خَمْسِينَ عامًا، فجعَلَ اللهُ له هذا الجزاءَ، أنجاهُ وأصحابَ السَّفينةِ.

أَعودُ إلى الآيةِ الكريمةِ وهي قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات:٢]، وأَقْسَمَ اللهُ بها، أي بالسحابِ لما يكونُ فيها من الخيرِ والعَطاءِ بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

من آياتِ اللهِ تَعالَى أنك تَرَى الأرضَ خَاشِعةً، فإذا أنزَلَ اللهُ عليها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وأَصْبحَتْ مُخْضَرَّةً، وهذا رِزْقٌ للعِبادِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]، وقال: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر:١٣].

قال تعالى: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾، الجارياتُ هُنَّ السُّفنُ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، تَجْرِي على الماءِ يُسْرًا بسُهولةٍ، وكانت في الأَوَّلِ لا تَسِيرُ بالطاقةِ، ولكنها تَسِيرُ بالهواءِ، السُّفُنُ الشِّراعيَّةُ تَحْمِلُ الأرزاقَ العَظِيمةَ، هي عِبارةٌ عن

قُرًى تَمْشِي على سَطْحِ الماءِ بسُهولةٍ ويُسْرٍ حتى تَصِلَ من قَارةٍ إلى أُخرَى، أَقْسَمَ اللهُ بها لِما فيها من المَصالِحِ والمَنافِعِ وذلك بحَمْلِ الأرزاقِ والآدَمِيِّينَ والمَواشِي وغيرِها من بَلَدٍ إلى آخَرَ، بل من قارةٍ إلى قارةٍ، لولا هذه السُّفنُ لم يَتمكَّنِ الناسُ من أن يَتبادلوا السِّلعَ على هذا الوجهِ الوَاسِعِ، فانْظُرْ كيفَ أَقْسَمَ بما فيها من الرِّزْقِ، وعَبَّرَ عنها بالحاملاتِ وِقْرًا، ثم بما فيها حَمْلُ الرِّزقِ وجَلْبُه في الأرضِ، وهي الجارياتُ يُسْرًا.

يقولُ تَعالَى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات:٤]، هُمُ الملائكةُ، وقد جُمِعُوا جَمْعَ مُؤَنَّثٍ؛ لأنهم فِئاتٌ، كلُّ فِئَةٍ مُوكَّلةٌ بما أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ منها.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾، أي إنَّ الذي تُوعَدُونَه من النَّعيمِ أو مِن العَذابِ لَصادِقٌ، وإنَّ الدِّينَ -أي الجَزاءَ- لَواقِعٌ، فكلٌّ يُجازَى بعَمَلِه.

في هذهِ الآياتِ بُحوثٌ:

أولًا: كيفَ صَحَّ أن يُقْسِمَ بالمَخْلوقاتِ، معَ أنَّ القَسَمَ بغَيْرِ اللهِ مُحَرَّمٌ، بل شِرْكٌ؟

والجوابُ عن هذا أن نَقولَ: للهِ تَعالَى أنْ يُقْسِمَ بما شَاءَ مِن خَلْقِه، ونحن لا نَحكُمُ على اللهِ، بل اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَحْكُمُ، فإذا حَرَّمَ علينا أن نُقْسِمَ بغيرِه فإنه لم يُحَرِّمْ على نفسِه أنْ يُقْسِمَ، ولو شاءَ لَحَرَّمَ على نفسِه؛ لأنَّ اللهَ قد يُحَرِّمُ على نفسِه أشياءَ، ويُوجِبُ على نفسِه أشياءَ، قال تَعالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، أي: أَوْجَبَ على نفسِه الرَّحْمَةَ.

وقال النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديثِ القُدْسِيِّ: «**قَالَ اللهُ تَعالَى: يَا عِبادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**»[1]. وهنا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

حَرَّمَ على نَفْسِه، فلِلَّهِ أن يُوجِبَ على نفسِه، وأنْ يُحَرِّمَ على نفسِه ما شاءَ. حَرَّم على عِبَادِهِ أن يُقْسِموا بغَيرِهِ، وأَقْسَمَ هو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بمَن شَاءَ مِن خَلْقِه.

وما أَقْسَمَ اللهُ به فإنه عَظِيمٌ؛ لأنَّ القَسَمَ كما قال المُفَسِّرون: هو تأكيدُ الشيءِ بذِكْرِ مُعَظَّمٍ بصِيغةٍ مَخْصوصةٍ. فلا يُقْسِمُ اللهُ إلا بشيءٍ عَظيمٍ، وهذا المَخْلوقُ الذي أَقْسَمَ اللهُ به إذا كانَ عَظِيمًا فهو دَلِيلٌ على عَظَمةِ الخالِقِ، فعادَ الأمرُ إلى أن الذي أَقْسَمَ اللهُ به وعَظَّمَه إنما هو من مَخْلوقاتِ اللهِ الدَّالَّةِ على عَظَمَتِه.

لكن لا يَحِلُّ لنا أن نُقْسِمَ بأيِّ مخلوقٍ أبدًا، حتى بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يَجُوزُ أن نُقسِمَ به، فلا يَجوزُ أن تَقولَ: والنبيِّ. معَ أننا نَسْمَعُه في أَلْسنةِ كثيرٍ من الناسِ، وإذا سألتَه: لِمَ تُقْسِمُ بالنبيِّ؟ قال: النبيُّ أفضلُ البَشَرِ، النبيُّ عَظِيمٌ، النبيُّ كَرِيمٌ. فنقولُ له: إنَّ النبيَّ الذي عَظَّمْتَه، وقلتَ: إنه كريمٌ، وهو كما قُلْتَ من جِهَةِ أنه عَظِيمٌ كَرِيمٌ، هو الذي قالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ»[1]، والشكُّ من الرَّاوي.

وهذا تحذيرٌ من أَبْلَغِ التحذيراتِ، ولو أنَّ المُقْسِمَ بالنبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم اعْتَقَدَ أنَّ للنبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم من العَظَمةِ مثلَ ما للهِ لَكانَ مُشْرِكًا شِرْكًا أَكْبَرَ؛ لأنَّ تَعْظِيمَ نَبِيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واللهِ ما جاءَ إلا من تَعْظِيمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الذي أَرْسَلَه، فكيفَ نَجْعَلُ تَعْظِيمَ المُرْسَلِ مثلَ تَعْظيمِ المُرْسِلِ؟ هذا سَفَهٌ في العَقْلِ، وضَلالٌ في الدِّينِ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٠/ ٢٤٩، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

فإذا كُنْتَ صادقًا في تعظيمِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فعَظِّمْ أَمْرَه، ولا تَحْلِفْ بغَيْرِ اللهِ، ولكنْ هناك بعضُ الناسِ يَجْرِي القَسَمُ بالنبيِّ على أَلْسِنَتِهِم مَجْرَى العَادَةِ، حتى إِنَّهم لا يَسْتطيعون التَّخَلُّصَ منه، لكن نَقولُ لهم: طَهِّروا لِسانكم من هذهِ العادةِ القَبيحةِ المُحَرَّمةِ، وجَاهِدُوا أَنْفُسَكم. وإذا احْتَجَّ عليكَ رَجلٌ من هؤلاء بأنه لا يَنْوِي اليَمِينَ، بل هو كَلامٌ يَجْرِي على لِسانِه، وقد جَرَت به العادةُ دونَ اعتقادٍ، وهو من لَغْوِ اليَمينِ. قلنا له: هذا ليسَ بيَمِينٍ، اليَمِينُ هو الحَلِفُ باللهِ.

انتهينا من هذا الإشكالِ؛ وهو: كيفَ أَقْسَمَ اللهُ بشيءٍ من المَخْلوقاتِ، والقسمُ بغيرِ اللهِ حَرَامٌ؟ وقد أَجَبْنَا بأنَّ للهِ أن يُقْسِمَ بما شاءَ من خَلْقِهِ.

ثانيًا: لو أنَّ رَجُلًا أَقْسَمَ بغيرِ اللهِ، فقال: والنبيِّ، لا أَفْعَلُ هذا الشيءَ. وفَعَلَه، فهل عليه كَفَّارَةٌ أو لا؟ والجوابُ: ليسَ عليهِ كَفَّارَةٌ؛ لأنَّ وُجوبَ الكَفَّارةِ فَرْعٌ عن صِحَّةِ القَسَمِ، والقَسَمُ هنا غيرُ صَحيحٍ، فلا كَفَّارَةَ. ولكن عليه أنْ يَتوبَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويُقْلِعَ، فإنْ أَقْسَمَ بمَخْلوقٍ مَعْبودٍ فعليه كَفَّارَةٌ، ولو أَقْسَمَ باللاتِ، واللاتُ الصَّنَمُ المَعْبودُ، قال النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[1]. فهذهِ كَفَّارَتُها، الأَوَّلُ شِرْكٌ، و(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) إِخْلاصٌ.

ثم ذَكَرَ قِصَّةَ إِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو النبيُّ الكريمُ المِضْيافُ، كانَ أَكْرَمَ المُتَضَيِّفِينَ من بَنِي آدَمَ فيما نَعْلَمَ -اللَّهُمَّ إلا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم- فقد أَتَتْهُ المَلائِكَةُ الذين يُرِيدونَ أن يُنْزِلوا العذابَ بقومِ لُوطٍ، ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾، و(سلامًا)

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم:١٩]، رقم (٤٨٦٠)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب من حلف باللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله. رقم (١٦٤٧).

قال العُلماءُ: أي نُسَلِّمُ سلامًا، فتكونُ الجُملةُ حِينَئِذٍ فِعْليةً؛ لأن التقديرَ: نُسَلِّمُ سلامًا. فأجابَهم بجوابٍ أَفْضَلَ ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ [الذاريات:٢٥]، هذه الجُملةُ اسْمِيَّةٌ؛ لأنَّ التَّقْدِيرَ: عليكم سَلامٌ، والجُمْلةُ الاسميَّةُ تُفِيدُ الثُّبوتَ والاستمرارَ، فهي أَبْلَغُ من الجُملةِ الفِعْليَّةِ؛ ولهذا كانَ رَدُّ إبراهيمَ أحسنَ من سَلامِ المَلائكةِ، لكن لا يَعْرِفُ هذا إلا حُذَّاقُ النُّحاةِ، وهم في عَصْرِنا قَلِيلونَ، رَدَّ عليهم تَحِيَّتَهم بأفضلَ منها، كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦] على الأَقَلِّ.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات:٢٥]، وهذا من أَدَبِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يَقُل: أنتم قَوْمٌ مُنْكَرون. لم يَسْتَخْدِم الضَّمِيرَ، بل حَذَفَ الضَّمِيرَ، فقال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، والمعنى: أنتم قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، لكنه حَذَفَ ضَمِيرَ الخِطَابِ لِئَلَّا يَجْرَحَهم. أيضًا قال: ﴿مُّنكَرُونَ﴾، ولم يَقُل: أَنْكَرْتُكم، و(مُنْكَرون) مَبْنِيٌّ للمفعولِ، وهذا أيضًا أَدَبٌ آخَرُ. وفي آيةٍ أُخْرَى قال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ أي في نفسِه ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود:٧٠].

قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾، أي انْسَلَّ خُفْيَةً حتى يَأْتِيَ بضِيافةٍ، وهم لا يَشْعُرونَ. وهذا من تَمامِ كَرَمِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لكننا نَرَى الناسَ اليومَ إذا جاءهم الضيوفُ وجَلَسوا قالوا: سأُحْضِرُ لكم الغَدَاءَ. وإذا فَعَلَ ظَلَّ يُعَدِّدُ لهم ما يُقَدِّمُه لهم، وبَيَّنَ لهم أَسْعارَه؛ هذا الخُبْزُ اشتريناه بكذا، وهذا الطَّبَقُ بكذا، والسُّفْرةُ بكذا! ثم يُقَوِّمون عليهم الغَداءَ تَقْوِيمًا، كأنهم يَبِيعونَ مُماكَسَةً، فهل هذا من الكَرَمِ؟ لا واللهِ، بل هذا بُخْلٌ ممقوتٌ.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، سُبحانَ اللهِ، كيفَ استطاعَ هكذا سَرِيعًا

أن يَذْبَحَ هذا العِجْلَ وأنْ يَطْبُخَه؟! لكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُسْتَعِدٌّ للضُّيوفِ، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، وفي آيةِ سُورةِ هُودٍ: ﴿جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:٦٩]، وهناكَ فرقٌ بينَ الآيتينِ في المَعْنَى، لكن لا تَنافِيَ بينَهما، فالعِجْلُ كانَ سَمِينًا وقد شَوَاهُ لهم، والحَنِيذُ أي المَشْوِيُّ.

قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾، ولم يَقُل: كُلُوا. لم يَسْتَخْدِمْ فِعْلَ الأمرِ؛ لأن فيه نَوْعًا من الاستعلاءِ، لكن قال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾، وهذا عَرْضٌ، والعَرْضُ أَدَبٌ. ولكنهم لم يَأْكُلُوا؛ لأنهم مَلائِكَةٌ، والملائكةُ ليسَ لهم أَجْسامٌ، فلا يَحْتاجونَ إلى أكلٍ ولا شُربٍ. ولكن نحن نَحتاجُ؛ لأن أَجْوافَنا كُلَّها جَوْفاءُ، أما الملائكةُ لا أَجْوافَ لها، فلا تَحْتاجُ إلى أكلٍ وشُربٍ، ولذلك لم يَأْكُلوا.

فلما لم يأكلوا: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً﴾، وهذا الخَوْفُ سَبَبُه أن العادةَ جَرَت أنَّ الضيفَ إذا لم يَأْكُل منك فإنه يُرِيدُ بك كَيْدًا، وحتى في يَوْمِنا هذا، إذا لم يَأْكُلِ الضَّيْفُ فإنه يُرِيدُ بك كَيْدًا، ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ فطَمْأَنُوهُ.

بل زَادوا على هذا: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، والبِشَارةُ: الإخبارُ بما يُسَرُّ، وهذا الغُلامُ العَلِيمُ هو إِسْحاقُ، وفي سُورةِ الصَّافَّاتِ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١]، وهو غيرُ هذا، فالمرادُ به في الصَّافَّاتِ أبو العَرَبِ إسماعيلُ، أما هذا فهو إِسْحاقُ أبو بَنِي إِسْرائيلَ.

لكنَّ امرأَته كانتْ كبيرةَ السِّنِّ، أي: عَجوزًا، ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ﴾، أي صَيْحَةٍ، تَصِيحُ، ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ أي: ضَرَبَت على وَجْهِها مُتعَجِّبةً؛ لأنها عَجوزٌ، فمِن أينَ يَجِيئُها الوَلَدُ؟ فأقبلتِ المرأةُ تَصْرُخُ وتَضْرِبُ على وَجْهِها، كما هو عادةُ

النساءِ، فإنَّ المرأةَ إذا أَخبرَها الرَّجُل بشيءٍ واسْتَغْرَبَتْهُ صَاحَتْ وفَعَلَتْ هكذا. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، والعجوزُ: كَبِيرةُ السِّنِّ، والعَقِيمُ: التي لا تَلِدُ.

وهنا أَمْرٌ أُنَبِّهُ عليه، بعضُ الناسِ يقولُ: لي أبٌ عَجوزٌ. وهذا لا يَستقِيمُ، فالعجوزُ هي الأُمُّ، وهذا أَجِدُه كثيرًا في لِسانِ إِخوانِنا العَرَبِ، لكن عليه أنْ يَقولَ: لي أبٌ شَيْخٌ. فالذَّكَرُ يُقالُ له: شَيْخٌ. والمرأةُ يُقالُ لها: عَجوزٌ. ولهذا نقولُ لإخوانِنا الذين يَقَعون في هذا الخَطَأ: طَهِّروا أَلْسِنَتَكم من ذلك؛ لأنك لو خاطبتَ إنسانًا غيرَ عَرَبيٍّ، وقد تَعَلَّمَ اللغةَ العربيةَ -ومعلومٌ أن الذين لا يَنْطِقونَ العربيةَ يَتعلَّمون اللغةَ العربيةَ الفُصْحَى- وقُلْتَ له: هذا أبِي رَجُلٌ عَجوزٌ. لَاسْتَنْكَرَ لُغَتَكَ، فطَهِّروا أَلْسِنَتَكم من هذا اللفظِ، وقولوا للكَبيرِ من الرِّجالِ: شيخٌ، وللكبيرةِ من النِّساءِ: عَجوزٌ.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، فأجابتها الملائكةُ بكَلامٍ لا مُعارَضةَ فيه ولا مَنْدُوحَةَ عنه، ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾، أي: قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذا، فإِمَّا أن تكونَ (كذلك) خَبَرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: الأَمْرُ كذلك، وإِمَّا أنْ تكونَ مَفْعولًا مُطْلَقًا لما بعدَها الذي هو قولُه: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾. أي: كذلك قال رَبُّكِ: إنَّه سيُولَدُ لكِ غُلامٌ. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وكثيرًا ما يُقَدِّمُ الحِكْمةَ على العِلْمِ؛ وذلك لأن هذا الأَمْرَ الوَاقِعَ خِلافُ ما جرَت به العادةُ، فلا بُدَّ أن يكون هناك حِكْمةٌ، ولهذا قَدَّمت الملائكةُ اسمَ الحَكِيمِ على اسمِ العَليمِ؛ لأنَّ هذا الشيءَ خلافُ المُعتادِ، لكنَّ اللهَ تعالَى قَدَّرَه لِحِكْمةٍ عظيمةٍ.

فلما عَرَفَ أنهم ملائكةٌ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، أي: ما شَأْنُكم، ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾؛ لِيُعَذِّبوهم أو لِيُكْرِمُوهم.

هـؤلاء القَوْمُ هم قَـوْمُ لُوطٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بُعِثَ إليهم لأنهم مـع كَفْرِهم باللهِ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَأْتون أمرًا فاحشًا لم يُسْبقوا إليه، وهو اللُّواطُ، أي جِماعُ الذَّكَرِ الذَّكَرَ، نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ والحِمايةَ. أُرْسِلَ هؤلاء الملائكةُ إلى قومِ لُوطٍ، فقالوا:

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا تَسْأَل: مِمَّ أُخِذَ هذا الطِّينُ؟ بل آمِنْ فقط بما جاءَ في القُرآنِ، ولا تَسْأَلْ؛ لأنَّ هذهِ الأُمورَ فَوْقَ طاقَتِكَ.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (مُسوَّمة) أي: مُعلَّمة، مأخوذةٌ من السِّمة، وهي العَلامَةُ، كلُّ حَجَرٍ عليه اسْمُ صاحِبِه، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي مَن كان في القريةِ من المؤمنين، وهم لُوطٌ وأهلُه، إلا امرأَته، وكانتِ امرأَتُه خائنةً كافرةً، وهي لم تُخْبِرْه بالكُفْرِ، بل بَقِيَتْ مع قَوْمِها، فقالَ تَعالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

انْظُروا إلى لُوطٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهو رَسُولٌ مُؤَيَّدٌ بالآياتِ، ما آمَن معه أَحَدٌ، ما وُجِدَ في القريةِ إلا بيتٌ واحدٌ من المُسْلِمِينَ. وهنا لَعَلَّك تقولُ: كانَ المُتوَقَّعُ أنْ يُقالَ: «فما وَجَدْنَا فيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ المُؤْمِنِينَ»؛ لأنه قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فلماذا عَبَّرَ بالمُسلِمِينَ في الآيةِ الثانيةِ دونَ الأُولى؟

قالَ بعضُ أهلِ العِلْمِ: إنَّ هذا يَدُلُّ على أنَّ الإيمانَ والإسلامَ بمعنًى واحدٍ، وأنه عَبَّرَ بهذا وهذا للتَّنوعِ في العبارةِ، والتنوعُ في العبارةِ نوعٌ من البلاغةِ. لكنَّ هذا غيرُ صَحِيحٍ، وإنما عَبَّرَ بالإسلامِ؛ لأنَّ البيتَ كانَ مُسْلِمًا؛ إذ إنَّ امرأَةَ لُوطٍ كانتْ تُظْهِرُ الإسلامَ، فكانَ البيتُ نَفْسُه بَيْتَ إسلامٍ؛ لأنَّ امرأَةَ لُوطٍ ما كانت مُؤْمِنةً، لكنْ لَمَّا جاءَتِ النَّجاةُ ما نَجا إلا المؤمنون فَقَطْ، ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

والفَرْقُ ظَاهِرٌ بينَ المُسْلِمِ وبينَ المُؤْمِنِ، فقد يَكونُ الإنسانُ مُسْلمًا، ولكن ليسَ بمُؤْمِنٍ؛ ولهذا جاءَ رَجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال أَحَدُ الصحابةِ: يا رسولَ اللهِ، إنَّه مُؤْمِنٌ. قال: «أَوْ مُسْلِمٌ». قال: إِنَّه مُؤْمِنٌ. قال: «أَوْ مُسْلِمٌ»[1]. ففَرَّقَ بينَ الإسلامِ والإيمانِ.

وفي القُرآنِ الكريمِ قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، ففَرَّقَ بينَ الإيمانِ والإسلامِ، والإيمانُ بالقَلْبِ، ولا أَحَدَ يَستطِيعُ أنْ يَتَظاهَرَ بأنه مُؤْمِنٌ بقَلْبِهِ؛ لأنَّ الإيمانَ في القَلْبِ، لكنَّ الإسلامَ ظَاهِرٌ، فيَستطِيعُ الإنسانُ أنْ يُظْهِرَ أنه مِن أَسْلَمِ الناسِ، وهو مِن أَخْبَثِ الناسِ، واقْرَأْ قولَه تَعالَى عن المُنافِقِينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ﴾ [المنافقون:٤]؛ لأنَّ المَظْهَرَ مَظْهَرُ مُسْلِمٍ، إذا رأيتَه أَعْجبَكَ، ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾؛ لأن عندَهم فَصاحةً، لكنْ ما فيهم خَيْرٌ، ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، (فيها) أَيْ دِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ، وهي مَشْهورةٌ مَعْروفةٌ، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

وفي هذه القِصَّةِ دَلِيلٌ على أنَّ اللُّوطِيَّ يُقْتَلُ بكلِّ حالٍ، والزَّانِيَ لا يُرْجَمُ إلا إذا كانَ مُحْصَنًا، أي إذا كانَ قد تَزَوَّجَ وجامَعَ زَوْجَتَه، فإذا زَنَى بعدَ ذلك رَجَمْناه. أَمَّا اللُّوطِيُّ يُقْتَلُ على كلِّ حالٍ، ولو كانَ بِكْرًا، ما دامَ بالغًا عاقلًا؛ لأنَّ اللُّواطَ -والعياذُ باللهِ- قَتْلٌ للرُّجولةِ، وإلحاقٌ للرَّجُلِ بالمرأةِ، حتى إنَّ الذي يُفْعَلُ به يَبْدَأُ يُتابعُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تألف قلب مَن يخاف على إيمانه لضعفه، والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل، رقم (١٥٠).

الفُحولَ، ويقولُ بلسانِ الحالِ أو المَقَالِ: يا ناس، افْعَلُوا به. وهذا دَمارٌ للمُجْتَمَعِ وفَسَادٌ.

ولهذا كانَ أَصَحُّ أقوالِ العلماءِ أنَّ اللُّوطِيَّ -الفَاعِلَ والمفعولَ به- يُقْتَلُ، حتى وإنْ كَانَا بِكْرَيْنِ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ**»(١). وهنا الحُكْمُ مُطْلَقٌ.

وهذا شَيْخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ، بَحْرُ العُلومِ وحَبْرُ الأُمَّةِ في زَمَانِهِ، يَقولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتَّفَقَ الصَّحابةُ على أنَّ اللُّوطِيَّ يُقْتَلُ، سَواءٌ كان فَاعِلًا أو مَفْعولًا به، ولكنِ اخْتَلَفوا كيفَ يُقْتَلُ، فقال بَعْضُهم: يُرْجَمُ بالحِجَارَةِ حتى يَمُوتَ. وقال بَعْضُهم: يُحْرَقُ بالنَّارِ، فتُوقَدُ النارُ ويُلْقَى فيها. وقال آخَرُونَ: يُلْقَى من أَعْلَى شَاهِقٍ في البلدِ، ويُتْبَعُ بالحِجَارةِ، فالاختلافُ في نَوْعِ القَتْلِ، لا في أَصْلِهِ»(٢).

وهذا هو المُتَعَيِّنُ، فيَجِبُ على وُلاةِ الأُمورِ إذا ثَبَتَ اللُّواطُ بَيْنَ شَخْصينِ أنْ يَقْتُلُوهما وُجوبًا، وإلا فقد عَطَّلوا حَدًّا من الحُدودِ الشَّرْعيةِ، وعَرَّضوا شُعوبَهم للخَطَرِ والبَلاءِ.

واللُّواطُ خُلُقٌ سَيِّئٌ، سَمَّاه لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الفَاحِشَةَ، فقالَ لقَوْمِه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠]، فسَمَّاه الفاحشةَ مثلَ الزِّنَى، قال تَعالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢]. وفي قَتْلِ اللُّوطِيِّ إِحياءٌ للمُجْتَمَعِ، لا أَقولُ: إِحْياءٌ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمِل عمَل قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من عَمِل عَمَل قوم لوط، رقم (٢٥٦١).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٣٥).

للأجسادِ، لكنْ إحياءٌ للمعاني، وإحياءٌ للرُّجولةِ؛ حتى لا يَبْقَى الناسُ لا يُعْرَفُ منهم الذَّكَرُ من الأُنْثَى في المَعْنَى. نَسْأَلُ اللهَ تَعالَى أن يُجَنِّبَ بلادَ المسلمين الفواحشَ والمِحَنَ، ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ.



الدَّرسُ الثَّاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُه، ونَستعينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونَعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنا، ومِن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُهُ، أرْسَلَه اللهُ تَعالَى بالهُدَى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، وترَكَ أُمَّتَه على بَيْضاءَ نَقيَّةٍ، لا يَزيغُ عنها إلَّا هالِكٌ، فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات:٢٤-٢٥].

الاستفهامُ هنا للتَّشْويقِ؛ يعني كأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَمَّا أرادَ أن يُخْبِرَنا عن هَذَا الضيفِ أتى بِصِيغةِ الاستفهامِ لِنَشْتاقَ إلى هَذَا ونتطلَّعَ إليه.

وإبراهيمُ هو الخَليلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ إمامُ الحُنَفاءِ، الَّذي اتَّخَذَه اللهُ تَعالَى خليلًا؛ كما في قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]. وقد ثَبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أن اللهَ اتَّخَذَه -أي اتخذَ النَّبيَّ ﷺ- خَليلًا كما اتخذَ إبراهيمَ خليلًا[1]، وأنه قال -أي النَّبيُّ ﷺ- قَالَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩٠٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢).

والخَلِيلُ هـو الَّذي بَلَغَتْ مَحَبَّتُه شَغَافَ القَلبِ ومجـاريَ الدمِ، على حدِّ قولِ الشاعرِ[(١)] في مَعشوقتِه:

قَدْ تَخَلَّلْتِ مَسْـلَكَ الـرُّوحِ مِنِّـي ... وبِــذا سُــمِّيَ الخليــلُ خَلِــيلَا

وعلى هَذَا فالخُلَّة هي أَعْلَى أنواعِ المَحبَّةِ، وحينئذٍ يَتبَيَّنُ لنا أن مَن قَالَ: إن إبراهيمَ خليلُ اللهِ، ومُحَمَّدًا حبيبُ اللهِ، فقد أخطأَ خطأً عظيمًا في قولِه: «مُحَمَّدٌ حَبيبُ اللهِ»، حيثُ انتقصَ من قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لأننا لو سُئلنا: أَيُّهما أعلى رُتبةً؛ أن يكونَ خَلِيلًا أو أن يكونَ حَبيبًا، لَكان الجوابُ أن يكونَ خليلًا، لا شكَّ، فإذا قلتَ: إبراهيمُ خَليلُ اللهِ ومُحَمَّدٌ حبيبُ اللهِ، فقدِ انتقصتَ من حقِّ الرَّسُولِ ﷺ، فلْيُنْتَبَهْ لهذهِ النقطةِ؛ ولهَذَا جاءتِ مَحَبَّةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ للرُّسلِ ولغيرِ الرسُلِ، فاللهُ تَعَالَى يُحِبُّ المؤمنينَ، ويُحِبُّ المتَّقينَ، ويُحِبُّ المُقْسِطِينَ، ويُحِبُّ الصابرينَ، لكن لا يَجوزُ أن نقولَ: إنه خَليلُ المُتَّقِينَ، ولا نَعْلَمُ أحدًا من الخَلْقِ ثَبَتَتْ له الخُلَّةُ إلَّا رَجلين؛ وهما إبراهيمُ ومُحَمَّدٌ عليهما الصَّلاة والسلامُ.

ونحن لا نَشُكُّ بأن القائلَ هَذَا يظُنُّ أن كَلِمةَ حَبيبِ اللهِ أعظمُ من كلمةِ خَليلِ اللهِ، أو أَنَّه أرادَ أن يُمَوِّهَ على الخلقِ لِيُفَرِّقَ بينَ إبراهيمَ وَمُحَمَّدٍ عليهما الصَّلاة والسلام.

فالحاصلُ أن إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَليلُ اللهِ، ولقد جَرَى له قِصَّةٌ عظيمةٌ؛ وهي أَنَّه بَلَغَ مِنَ الكِبَرِ ما بَلَغَ، ولم يأتِهِ أولادٌ، ثمَّ إنَّ اللهَ تَعَالَى بشَّرَهُ بغُلامٍ حَليمٍ على حِينِ كِبَرِ سِنٍّ، وهو إسماعيلُ قطعًا، وما ذَهَبَ إليه بعضُ العلماءِ من أَنَّه إسحاقُ فهو خَطأٌ ظاهِرٌ، كما يَدُلُّ على ذلك سِياقُ آياتِ سُورةِ الصافَّاتِ؛ فإن اللهَ تَعَالَى بعدَ أن ذَكَرَ

(١) هو بشار كما في تفسير القرطبي (٥/ ٤٠٠).

قصةَ الذبحِ قال بعدَها: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ ﴾ [الصافات:١١٢]، فإسماعيلُ هو أولُ مولودٍ وُلِدَ لإبراهيمَ، وتعلَّقت به نفسُه، وأحبَّه؛ لأنَّه بِكْرُه، وجاءه على حينِ كِبَرٍ من السنِّ، وبلَغَ معَه السَّعْيَ؛ ومعنى بُلوغِ السعيِ أنَّه ليسَ طِفْلًا لا تَتعَلَّقُ به النفسُ، وليسَ كَبِيرًا قد فاتَ تَعلُّقُ النفسِ به، ولكنَّه كان شابًّا صغيرًا بَلَغَ معَ أبيه السَّعْيَ، وهَذا غايةُ ما تَتعلَّقُ به النفسُ.

رَأَى إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في المَنامِ أنَّه يَذْبَحُ هَذَا الولدَ، ورُؤيا الأنبياءِ وَحْيٌ، فقال لابنِه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢]، وهو لا يُرِيدُ أن يُشاوِرَه في أمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأن إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أجَلُّ مَن أن يُشاوِرَ ابنَه في تنفيذِ أمرِ اللهِ، لكن أرادَ أن يختبرَ الابنَ، وماذا يُقابل بهذِهِ الرؤيا، فكانَ الابنُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صابرًا، قَالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات:١٠٢].

فإنْ قالَ قائلٌ: إبراهيمُ رأى أنَّه يَذْبَحُه فأينَ الأمرُ بالذَّبْحِ؟

قلنا: إنه لا يُمْكِن أن يَقْتُلَ ابنَه وهو نَفْسٌ من الأنفسِ المُحَرَّمةِ إلَّا بأمرٍ، فهل يُمكِنُ أن يَذْبَحَ الإِنْسَانُ ابنَه إلَّا بأمرٍ من اللهِ! لا يُمْكِنُ، فإسماعيلُ فَهِمَ من كونِه يَذْبَحُه أنَّه قد أُمِرَ بذبحِه، وأنه يُنَفِّذُ ما أُمِرَ به؛ لأنَّه ليسَ من المُمْكِنِ أن يَذْبَحَ الإِنْسَانُ وَلَدَه إلَّا بأمرٍ من اللهِ.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، كلامٌ عجيبٌ، (سَتجدني) السِّين هنا للتنفيسِ وهي تُفِيدُ التحقيقَ.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أتى به لِئَلَّا يَعتمِدَ على نفْسِه، وعلى تصميمِه وعَزيمتِهِ. وقولُ الإِنْسَانِ: إن شاءَ اللهُ، مِمَّا يُسهِّلُ الأُمورَ، ألا تَرون أن سُليمانَ بنَ داود

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي آتاهُ اللهُ مُلكًا لا يَنبغِي لأحدٍ من بعدِه قال: «**لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِئَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ**»، اعتمادًا على ما في نفسِه من التصميمِ، «**فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ**»، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! بنصفِ إنسانٍ؛ حتَّى يُرِيَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ الأمرَ بيدِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ**»[1].

قال إسماعيلُ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٣]، أسلما أي استسلما لأَمْرِ اللهِ، وصَمَّما على القتلِ. (وتلَّه) الفاعلُ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. والهاء في (تلَّه) تعودُ على إسماعيلَ؛ أي تَلَّ إبراهيمُ إسماعيلَ على الجَبينِ، أي على الجَبْهةِ. وتلَّه لِلجَبينِ أي عَلَيه، وتلَّه على الجبينِ لِئَلَّا يَرى وَجْهَه حينَ ذَبْحِه؛ ولِئَلَّا يَرى الولدُ السِّكِّينَ يَهْوِي بها أَبوه إليه، فيَموتَ قبلَ أن يُذْبَحَ.

قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات:١٠٤]. وهنا فائدةٌ؛ وهي: أين جوابُ الشَّرطِ في قولِه: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات:١٠٣-١٠٤]؟ نقولُ: جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ. وتبَيَّنَ بذلك امتثالُ إبراهيمَ.

وهذهِ القصَّةُ في القُرآنِ صارَ حَوْلَها من الإسرائيلياتِ شيءٌ كثيرٌ، فقِيلَ: إنه أَكَبَّه على وَجْهِه، وإنه أمرَّ السِّكينَ على حلْقِه، وإن السِّكِّينَ انقلبتْ، وذَكَروا أشياءَ كثيرةً، وكلُّ هَذَا غيرُ مقبولٍ؛ لأنَّه لم يأتِ عن مَعصومٍ، وكلُّ خبرٍ لم يأتِ عن معصومٍ، وليسَ في القُرآنِ فإنَّه لا صِحَّةَ له؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى قَالَ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد، رقم (٢٨١٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [إبراهيم:٩].

إذن لا نَتَلقَّى عِلمَهم إلَّا من اللهِ؛ من القُرآنِ، أو من صَحيحِ السُّنَّة عن رسولِ اللهِ ﷺ.

فالحاصلُ أن إبراهيمَ صار خليلًا لتقديمِه ما يحبُّه اللهُ على ما تحبُّه نفسُهُ، فصارَ بذلك خليلًا للهِ عَزَّوَجَلَّ.



الدَّرسُ الثَّالِث:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [الذاريات:٢٤-٢٥]، وقد جاءت (سَلَامًا) الأُولى مَنْصوبةً على أنها مَصدَرٌ لفعلٍ محذوفٍ، والتقديرُ: نُسلِّمُ سلامًا، والثَّانيةُ مرفوعةً على أَنَّها مُبْتدأٌ خبرُه محذوفٌ، والتقديرُ: عليكم سَلامٌ.

قال العُلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: وردُّ إبراهيمَ أكملُ من تسليمِ الملائكةِ الَّذين هم الضيوفُ؛ لأن تسليمَ الملائكةِ وَقَعَ بالصيغةِ الفعليَّةِ الدالَّةِ على الحُدوثِ، وردَّ إبراهيمَ وقعَ بالصيغةِ الخبريَّةِ الدالَّةِ على الثُّبوتِ والاستمرارِ، فصارَ رَدُّ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أكملَ من تسليمِ الضيوفِ، وهكذا يَنْبَغِي للإنسانِ إذا سَلَّم عليه أحدٌ أن يكونَ ردُّه أكملَ، أو على الأقلِّ مماثلًا.

ولهَذَا لو قال قائلٌ: السلامُ عليكَ، فقال الآخَرُ: أهلًا ومرحبًا، تَفضَّلْ، ليسَ اليومَ أحدٌ أكْرَمَ مِنَّا ضيفًا، حيَّاكَ اللهُ وبيَّاكَ، ستَجِدُ الفِراشَ والمَأْوَى، وغير ذلك من هذهِ الألفاظِ، فإنه لا يَكونُ قد ردَّ السلامَ حتَّى يقولَ: عليك السلامُ.

إذن الواجبُ أن يقولَ: عليك السلامُ؛ لأنَّ قولَ القائلِ: السلامُ عليكَ. دعاءٌ له بالسلامِ من وجهٍ، وتأمينٌ له؛ ولهَذَا قال العُلماءُ: إذا مرَّ بك الكافرُ وقال: السلامُ عليك، فقلتَ: عليك السلامُ، صار بذلك آمِنًا، فالإسلامُ تَحِيَّتُه سلامٌ وأمنٌ وطُمأنينةٌ.

وكذلك الحُكْمُ في استعمالِ الهاتفِ؛ فالمتَّصِلُ عندما يَرفَعُ السَّماعةَ لِيُكَلِم

صاحبَه، فإنه يقولُ: ألو. ومعناها -كما يقولون- مَرحبًا بالإنجليزيَّة، فبَدَلَ مِن أنْ نقولَ: (هالو) أو (ألو)، فإننا نقول: «السلامُ عليكم»؛ لأنَّ هذهِ هي تَحِيَّةُ الإسلامِ.

فإذا قلتَ: السلامُ عليكم، وقال الَّذي اتصلتَ عليه: أهلًا ومرحبًا، فإنَّه ما ردَّ، حتَّى يقولَ: عليك السلامُ، فإنِ اقتصرَ على قولِه: أهلًا ومرحبًا، صارَ آثِمًا؛ لأنَّه عَصَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ اللهَ قَالَ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾، وهَذَا الأكملُ ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦]، إن لم تَكُنْ أحسنَ.

وهذهِ مَسائلُ يَغْفُلُ النَّاسُ عنها، وليسَ طَلَبة العلمِ، فإذا اتَّصلوا بالهاتفِ قالوا: السلامُ عليكم، حتَّى يُعلِّموا النَّاسَ، وإذا ردَّ المُكَلَّمُ بقولِ: أهلًا، فإنَّ طَالِبَ العِلْمِ يقولُ: رُدَّ السلامَ، وكذلك إذا اتَّصَلَ عليك أحدٌ وقال: ألو، فقلْ: سلِّمْ، فإن قال مَرَّةً أخرى: ألو، فقُلْ: سلِّمْ، حتَّى يقولَ: السلامُ عليكمْ.

فنُعوِّدُ النَّاسَ بالفعلِ؛ لأن التعليمَ بالفعلِ أبلغُ من التعليمِ بالقولِ، فإذا اجتمعَ القولُ والفعلُ صارا نُورًا على نورٍ.

قال تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾، أي: عليكم سَلامٌ ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ (قومٌ) خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: أنتم قومٌ، ومن أَدَبِ إبراهيمَ ﷺ أنَّه ما وَاجَهَهُمْ بالخطابِ، فقال: أنتم قومٌ، بل قَالَ: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، وهَذَا من التأدُّبِ باللَّفظِ؛ ألَّا تُجابِهَ المُخاطَبَ بما يَكرَهُ؛ لأنَّ ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ يَصِحُّ أن يكونَ خبَرًا لمبتدأٍ محذوفٍ تَقْديرُه: أنتم، أو هم قومٌ مُنكَرون، وليسَ مُجابهةً صَريحةً كما في قولِه: أنتم، فعلى هَذَا نقول: (قومٌ) خَبَرٌ لمُبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: أنتم، وإنما لم يَذْكُرِ المبتدأَ تَلَطُّفًا وتأدُّبًا في اللفظِ؛ لأن مُجابهةَ الإِنْسَانِ بقولِ: أنتَ رجلٌ مُنْكَرٌ مثلًا، أو أنتم قومٌ مُنكَرونَ فيها

شيءٌ من الجَفَاءِ، فتأدَّبْ يا أخي بأدبِ أبيكَ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إذن في الآيةِ حَذْفانِ؛ حذفُ مبتدأٍ وحذفُ خبرٍ؛ فالأوَّلُ قولُه: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، حُذِفَ منه المُبْتدأُ، والأصلُ: أنتم قـومٌ منكرون، والثاني: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ مُبْتدأٌ خبرُه محذوفٌ، والتقديرُ: عليكم سلامٌ.

إذن نأخُذُ من هَذَا أنَّه يجوزُ أن نَحْذِفَ المبتدأَ، ويجوزُ أن نَحذِفَ الخبرَ، لكن بشرطِ أن يكونَ المحذوفُ مَعْلومًا؛ لقولِ ابنِ مالِكٍ في الألفيَّةِ[1]:

وَحَــذْفُ مـا يُعلَـمُ جـائزٌ كـما   تَقولُ: زيدٌ، بعدَ: مَـن عِنْـدَكُما؟

قال تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ معنى مُنْكَرون: أي غيرُ مَعروفينَ؛ لأنَّه رأى وُجوهًا لم يرَهَا من قَبْلُ، ولكَرَمِه راغَ إلى أهلِه، أيِ انطلقَ خُفيةً؛ لِئَلَّا يُخْجِلَ الضيوفَ، أو يقولوا له: لا تأتِ بشيءٍ، فراغَ -أي ذَهَبَ خُفْيةً- إلى أهلِه، فجاء بعِجْلٍ سَمينٍ.

وإنني بهذهِ المُناسبةِ أقولُ: إن بعضَ النَّاسِ إذا نزلَ به ضيفٌ، وراغَ إلى أهلِهِ لِيُقَدِّمَ الطعامَ للضيفِ، قال الضَّيفُ للمُضِيفِ: عليَّ الطلاقُ أن لا تَذْبَح لي شاةً، وقال المُضِيفُ: عليَّ الطلاقُ لأَذْبَحَنَّ لكَ شاةً. إذن الآن لا بُدَّ أن إِحْدَى المَرْأتينِ سوف تَكونُ طَالِقًا، فالمُضِيفُ قَالَ: عَليَّ الطلاقُ لأَذْبَحَنَّ لك، والضيفُ قَالَ: عليَّ الطلاقُ أن لا تَذْبَح، فمَنِ الأحقُّ أن يكونَ حانثًا؟

الجواب: الثَّاني هو الأحقُّ بالحِنْثِ؛ لأنَّ الأَوَّلَ لَـمَّا حَلَفَ صارَ من حقِّه عليه أن يَبَرَّ بِيَمِينِه؛ ولهَذَا من حقِّ المُسلِمِ على المُسلمِ إبرارُ القسمِ، فإذا أردنا أن نَحْكُمَ بينَهما فإننا نقولُ: الحقُّ على الحالِفِ الأخيرِ؛ فهو الَّذي يَحْنَثُ؛ لأنَّ الأولَ حَلَفَ

(١) ألفية ابن مالك (ص:١٨) في الابتداء.

واستحقَّ أن يكونَ هو الَّذي يَبَرُّ قَسَمَه، وفي هذهِ الحالِ لو أن المسألةَ وَقَعَتْ وجاء يَستفتي فهل نقولُ: إنك لمَّا ذبحتَ طَلُقَتْ زوجةُ الضيفِ؟

ومسألةٌ أخرى؛ إذا قال الرجُلُ: إذا طلعتِ الشمسُ فامرأتي طالِقٌ. فإنه تَطلُقُ المرأةُ باتفاقِ العلماءِ، ولا يُمْكِنُ أن يُقصَدَ به اليمينُ؛ لأن الإِنْسَانَ ما يَملِكُ منعَ الشمسِ إطلاقًا. والَّذي قَالَ: إن ذَبَحْتَ لي فامرأتي طَالِقٌ وذَبَحَ؛ جُمهورُ الأُمَّةِ، وعُلماءُ الأئمَّةِ على أنها تَطلُقُ بكلِّ حالٍ، وليسَ فيه تفصيلٌ ولا شيءٌ؛ لأَنَّه قَالَ: إن ذَبَحْتَ فامرأتي طالقٌ، وذبحَ، فتَطلُقُ، كما لو قَالَ: إذا طلعتِ الشمسُ فامرأتي طالِقٌ. فطَلَعَتْ.

لكنَّ شيخَ الإسلامِ ابنَ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «إنه إن قَصَدَ اليمينَ فهو يمينٌ يُكفَّرُ، وإن قَصَدَ الطلاقَ فهو طَلاقٌ يَقع»[1]. واحتجَّ لذلك بقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[2]، ولم يَرِدْ عنِ السَّلَفِ تَعليقُ الطلاقِ مَقصودًا به اليمينُ، وإنما الَّذي وَرَدَ عنهم تَعْلِيقُ النَّذْرِ مَقصودًا به اليَمِينُ، فقال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «النذرُ إذا قَصَدَ به اليمينَ صار يَمِينًا»[3]، فكذلك الطلاقُ من بابِ أَولى، والعلماءُ قبلَ شيخِ الإسلامِ وبعدَه يقولون: إنَّ المرأةَ تَطْلُقُ.

فيَنبغِي أَلَّا يَتسرعَ النَّاسُ في هَذَا الأمرِ؛ لأَنَّه معَ الأسفِ الشديدِ كَثُرَ في الآونةِ الأخيرةِ الحَلِفُ بالطلاقِ، وصارَ الإِنْسَانُ يَحْلِفُ على زَوجتِهِ بالطلاقِ بأَسْهَلَ ما يكونُ، وهَذَا خطيرٌ جدًّا.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٣٣/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، رقم (١٩٠٧).

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٣٣/ ١٢٦).

لِنَفْرِضْ مثلًا أن الرجلَ قد طلَّقَ زوجتَه طلقتينِ سابقًا، ثمَّ قَالَ: إن كَلَّمْتُ فُلانًا فامرأتي طالقٌ، فكَلَّمَ فلانًا، فعلى المذاهبِ الأربعةِ تَطْلُقُ المرأةُ، وتَبِينُ منه؛ لأن هَذَا الطلاقَ هو الثَّالثُ، فتَبِينُ منه، وتكونُ حرامًا عليه، إلَّا بعدَ زوجٍ، وعلى رأيِ شيخِ الإسلامِ فيه التفصيلُ، لكن يَبْقَى هَذَا الرجلُ لوِ اختارَ قولَ شيخِ الإسلامِ ابن تيميةَ، يَبْقَى يُجامِعُ زوجتَه جِماعًا مُحَرَّمًا على رأيِ جمهورِ العلماءِ، وعلى رأيِ الأئمَّةِ الأربعةِ، فالمَسْألةُ خَطِيرةٌ، فيَجِبُ على الإِنْسَانِ أن يَتَجَنَّبَ الحَلِفَ بالطلاقِ، وألَّا يَتساهلَ فيه.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات:٢٦]، وفي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هود:٦٩]، والمعنى مُخْتلِفٌ، والجمعُ بينَهما: أوَّلًا الحَنِيذُ هو المَشْوِيُّ؛ لأن اللحمَ المشويَّ أطعمُ منَ اللحمِ المطبوخِ، حيث إنَّ طَعْمَ اللحمِ يَبْقَى فيه، بخِلافِ المطبوخِ فإنَّه يَمْتزِجُ بالماءِ ويكونُ طَعْمُه غيرَ لَذيذٍ، فالمعنيانِ لا يَتنافيانِ؛ فهو سَمِينٌ ومَشْويٌّ.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات:٢٧]، وهَذَا أيضًا من الأَدَبِ الفعليِّ والقوليِّ، قال: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ فلم يجعلِ الطعامَ في مكانٍ ويقول: تَفَضَّلوا للطعامِ، بل قرَّبه إليهم، ثمَّ لم يَقُلْ: كُلوا، بل قَالَ: ألا تأكلونَ، و(ألا) هنا أداةُ عَرضٍ، والعرضُ هو الطلبُ برفقٍ، فتجدون في قِصَّةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذهِ الضيافةِ آدابًا عظيمةً. لَيْتَنا نَتدبَّرُ القُرآنَ!

قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾، ولكنَّهم لم يأكلوا، ولم يَمُدُّوا أيديَهم إليه، ولم تَصِلْ إليه أَيْدِيهِمْ.

قال تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الذاريات:٢٨].

قولُه: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أَحسَّ بخِيفةٍ من هؤلاء؛ لأنَّهم لم يأكلوا من ضِيافتِه، وقد جرتِ العادةُ أن الضيفَ إذا لم يَأْكُلْ من مُضِيفِه، فقد أَضْمَرَ شرًّا، فخاف، ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ فطَمْأَنوه. وهنا قال: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، وهَذَا إحساسٌ نفسيٌّ، فكيف عَلِموا بذلك حين قالوا: لا تَخَفْ؟

نقولُ: لأنَّ الإِنْسَانَ الخائفَ يَظْهَرُ أثرُ الخَوفِ على وَجْهِه ويَتبيَّنُ، كأنها تَقْرَأُ ما في قلبِه إذا رأيتَ وَجْهَه، حتَّى المَحَبَّةَ والبَغْضاءَ؛ فإذا قَابَلَ الإِنْسَانُ غيرَه يُعْرَفُ أَنَّه يُحِبُّه أو يُبْغِضُه، وللقلبِ على القلبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقاهُ؛ لأن هَذَا -بإذنِ اللهِ- يَظْهَرُ على مَلامِحِ الوَجْهِ.

قال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، فإنْ قِيلَ: هَذَا الغُلامُ العَلِيمُ، هل هو الغلامُ الحَليمُ في سورةِ الصافَّاتِ؟

قلنا: لا، بل هَذَا إسحاقُ، والحليمُ إسماعيلُ؛ ولهَذَا وُصِفَ إسحاقُ بالعلمِ ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، وإِسْماعيلُ بالحِلْمِ؛ لقصَّةِ الذبحِ.

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات:٢٨-٢٩]

قولُه: ﴿فِى صَرَّةٍ﴾، أي في صَيْحةٍ؛ تَصِيحُ وتَزْعَقُ: إنها عجوزٌ عقِيمٌ، كيف تَلِدُ؟! ومعنى كونِها عَقِيمًا أنها بَلَغَتْ من الكِبَرِ ما أَيِسَتْ منه أن تَحْمِلَ بعدَ ذلك.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٣٠].

قولُه: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾، أي الأَمْرُ كذلك بقولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وهنا قَدَّمَ الحكيمَ على العليمِ، وهو أَنْسَبُ في هَذَا المَقامِ، ولا شَكَّ أن كلامَ

اللهِ تَعَالَى غايةٌ في البلاغةِ، فالأنسبُ هنا تَقدِيمُ الحكيمِ على العليمِ؛ لأن هَذَا جاءَ على خِلافِ المَعْهودِ، بعد أن كَبِرت المرأةُ، ولكنْ حِكمةُ اللهِ تَعَالَى فوقَ تَصوُّرِ الإِنْسَانِ وعَقْلِه.

ثم بعدَ أن عَرَفَ إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّهم رُسُلٌ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات:٣١]؛ أي ما شَأْنُكم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٢]، وهم قومُ لُوطٍ الَّذين يَأْتونَ الذُّكرانَ من العالمينَ، ويَذَرُونَ ما خَلَقَ لهم رَبُّهم من أَزْواجِهم؛ فيأتي الذَّكَرُ الذَّكَرَ كما يأتي المرأةَ، والنساءُ بَاقِيةٌ لا أحدَ يأتيهنَّ، حتَّى إن الضيوفَ أَتَوْا إلى لُوطٍ بصورةِ رجالٍ، فقَدِمَ إليه قومُه يُهرَعون إليه يُريدون هؤلاءِ الضيوفَ -نسألُ اللهَ العافيةَ- لأنَّهم يأتون الذُّكْرانَ ولا يأتون النساءَ. والقصَّةُ مَبْسوطةٌ في غيرِ هَذَا المَوْضِعِ.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات:٣٣-٣٤]؛ مُسَوَّمةً يعني مُعْلَمَةً، كلُّ حِجَارةٍ قد كُتِبَ وأُعْلِمَ عليها اسْمُ مَن تَقعُ عليه، فوقعتِ الحجارةُ على بَلْدَتِهم، حتَّى كان أَعْلاها أسفلَها؛ لأنَّها تَهدَّمَت بهذهِ الحجارةِ، فصارَ أعلاها أسفلَها وانهدمَ بالأرضِ، كما قال تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر:٧٤].

وقِيلَ: إن جِبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَمَلَ هذهِ القريةَ، أو القُرَى كُلَّها وقَلَبَها، فصَارَ عاليها سافلَها، فاللهُ أعلمُ.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦].

قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وهناك فرقٌ بينَ التعبيرينِ في المَعْنَى؛ لأنَّه لم يَنْجُ إلَّا المُؤْمِنُ، وأمَّا البيتُ فهو بَيْتُ إسلامٍ؛ لأنَّه هَذَا البيتَ يَشْمَلُ لُوطًا وأهلَه المؤمنينَ وزوجتَه الكافرةَ؛ لأن زوجتَه الكافرةَ مُسْلِمةٌ في ظاهرِ الحالِ، ولهَذَا جَعَلَها الله تَعالَى خائنةً لِزَوْجِها، كما قال تَعالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠].

فكانتِ المرأةُ كافرةً، لكنَّها لا تُظْهِرُ الكُفْرَ، وإذا كانتْ لا تُظْهِرُ الكفرَ صارَ البيتُ بيتَ إسلامٍ، ولهَذَا كانَ المُنافقونَ في عهدِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُعامَلونَ مُعاملةَ المُسْلِمينَ، وإن كانوا غيرَ مُؤمِنينَ. أما الَّذي نَجَا وأُخْرِجَ فَهُم المؤمنونَ.

قال تَعالَى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات:٣٧].

الَّذي يَخافُ العقوبةَ يَتْرُكُ هَذَا العَمَلَ المُشِينَ؛ وهو اللُّواطُ -والعياذُ باللهِ- واللواطُ أَقْبَحُ منَ الزِّنَى؛ ولهَذَا سمّاه لُوطٌ الفاحشةَ، وأمَّا الزِّنَى فقالَ اللهُ عنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢].

وفرقٌ بينَ الفاحشةِ وبينَ فاحِشَةٍ؛ لأن قوله: ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي من الفواحشِ، لكنِ الفَاحِشَةُ يعني العُظْمَى الكُبْرَى.

ولهَذَا كانَ القولُ الراجِحُ أنَّ اللائطَ والمَلُوطَ به يُقتلانِ جميعًا، وإن لم يكونا مُتزوِّجِينِ، بخلافِ الزِّنَى، فإن الزِّنَى لا يُرجَم فيه إلَّا مَن كان ثَيِّبًا، أما اللُّواطُ فإنَّه يُقتَلُ فيه الفاعلُ والمفعولُ به، إذا كانَ المفعولُ به مُختارًا، سواءٌ كانا مُحْصَنَيْنِ أم غيرَ مُحْصنَيْنِ.

ولهَذَا قال شَيْخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَجْمَعَ الصحابةُ عَلَى قَتْلِ اللائطِ والمَلُوطِ بِهِ، لكنِ اخْتَلَفُوا كيفَ يُقتلانِ؛ فمِنهم مَن قَالَ: يُحرقانِ بالنارِ، ومنهم مَن قَالَ: يُلقيانِ من أَعْلَى شاهقٍ في البلدِ، ويُتبَعانِ بالحجارةِ، ومنهم مَن قَالَ: يُقتلانِ كما يُقْتَلُ الزاني المُحْصَنُ؛ أي يُرْجمانِ بالحجارةِ من غَيْرِ أن يُلْقَيَا من شَاهِقٍ»[1]. وعلى كلِّ حالٍ، فإنَّه لا تَصْلُحُ الأُمَّةُ إلَّا بقَتْلِ اللُّوطيِّ الفاعلِ والمفعولِ به، ولو كانَا غيرَ مُحْصَنينِ ما دَامَا بالِغَيْنِ عاقِلَيْنِ. نَسْأَلُ اللهَ لنا ولكم السلامةَ والحمايةَ.

قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

قَولُهُ: ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ أَيْدٍ بِمعنَى قُوةٍ، مَصْدَرُ: آدَ يَئِيدُ أَيْدًا، مثلُ بَاعَ يَبِيعُ بَيْعًا، ولَقَدْ ظَنَّ كَثيرٌ منَ النَّاسِ أَنَّ أَيْدًا هنا جَمْعُ يَدٍ، وأنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاءَ بِأَيْدٍ كثيرةٍ، وهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ الربَّ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَ لهُ إِلَّا يدانِ اثنتانِ فَقَطْ بِدَلَالةِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ.

أَمَّا الكتابُ: فقالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى مُثْنِيًا عَلَى نَفسِهِ، وردًّا عَلَى اليَهُودِ الَّذِينَ قالُوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، قَالَ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وهَذَا نَصٌّ صَريحٌ فِي العدَدِ؛ لِأَنَّ التَّثنيةَ نَصٌّ صَريحٌ فِي مَدْلُولها فِي انحِصَارِ العَدَدِ باثنينِ، بِخِلافِ الجمعِ، فَقَدْ يَكونُ لِلتَّعظيمِ، ولَا يَدُلُّ عَلَى عَدَدٍ، لكنَّ التَّثنيةَ نَصٌّ فِي مَدْلُولها بِالعددِ، وأنَّها اثْنَانِ، فَتمدَّحَ اللهُ بِنَفْسِه بِأنَّ لهُ يَدَيْنِ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي، وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ**»[2]، بِلفظِ التَّثنيةِ، وأجمعَ أَهْلُ السُّنةِ وَأئمةُ الأُمَّةِ عَلَى أنَّ اللهَ لَهُ يَدانِ اثْنَتَان فَقَطْ.

---

(١) انظر السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (ص:٨٤)، ط. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم (٣٣٦٨).

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: أَلَسْتُم تُنْكِرونَ عَلَى الَّذِينَ يُحرِّفونَ الكَلِمَ عنْ مَوَاضِعِه، ويُفسِّرونَ آياتِ الصِّفاتِ بِمَعانٍ لَا يُرِيدُهَا اللهُ وَلَا رَسُولُه ﷺ ويَدَّعونَ أنَّ التعبيرَ بِهَا مجازٌ عَن كَذا وكَذا؟

قُلْنَا: بَلى، نُنْكِرُ عَلَى ذَلِكَ، ولكِنَّنَا فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ ما حرَّفناهَا، وَلَا صَرَفْناها عنْ ظَاهِرِها، فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ لَمْ يُضِفِ الأَيْدِيَ إلَيْه حتَّى نَقولَ: إِنَّهُ يَتَعينُ أَنْ تكونَ هِيَ أَيْدِ اللهِ، بَلْ قالَ: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾، وأَيْدٌ كلُّ مَنْ عَرَفَ اللُّغةَ العربيَّةَ عرَفَ أَنَّ المُرادَ بِهَا القُوةُّ، وَذَكَر قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢]، أَيْ: قَوِيَّةً، وَحِينَئِذٍ لَا تَحْرِيفَ.

وإِنْ قِيلَ: إِنَّ أَيْدًا هُنَا هِيَ أَيْدِي اللهِ.

قُلْنَا: هَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يُضِفْها إِلَى نَفْسِه، ومثلُ هَذَا قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]، فكَلِمَةُ ﴿سَاقٍ﴾ وَرَدَ فِيها عنِ السَّلفِ قَوْلانِ:

القولُ الأَوَّلُ: أَنَّ المُرادَ بالسَّاقِ الشِّدةُ، وَقَالَوا: إِنَّ هَذَا مِثلُ قولِ العربِ: كَشفتِ الحَرْبُ عنْ سَاقِهَا.

القولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بِالساقِ سَاقُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، والأَسْعَدُ بالدَّلِيلِ منْ حَيثُ اللفظُ هو القولُ الأولُ؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يُضِفْهُ إِلَى نفسِهِ، فَلَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نُضِيفَ إلى اللهِ مَا لَمْ يُضِفْهُ لِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَم يَقُلْ فِي الكتابِ العزيزِ: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقِ اللهِ.

هُناكَ حَديثٌ جَاءتْ بِهِ السُّنةُ عنِ النَّبيِّ ﷺ رَوَاهُ أَبُو سَعيدٍ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ

مُطَوَّلًا، وفيهِ: «فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ»(١)، وَإِذَا قَرَأتَ الحديثَ وَقَرَأْتَ الآياتِ، وجَدْتَ أَنَّ مَعْنَاها واحدٌ.

وعَلَى هَذَا، فيَتَرَجَّحُ أنْ يَكونَ المرادُ بالساقِ سَاقَ اللهِ لَا مِنْ حَيثُ اللفْظُ ولكنْ مِنْ حَيثُ بَيَانُ السُّنةِ؛ وَلِهَذَا كَانَ القولُ الرَّاجحُ أنَّ المرادَ بِالساقِ فِي قولهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم:٤٢] ساقُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وليسَ مَعْنَى هَذَا أنَّ سَاقَ اللهِ تُشبِهُ أَو تُماثِلُ سُوقَ المَخْلوقِينَ، كَما نُثْبِتُ أنَّ للهِ وجهًا، وللهِ عينًا، ولكنَّه لَا يُماثِلُ أَوْجُهَ المخلوقِينَ وأَعْيُنَهم.



(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم (٧٠٠١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

الدَّرس الرَّابع:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧].

تلك آياتٌ بيِّناتٌ أنْزَلَها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عِبادِهِ؛ لِتَسْتَقِيمَ عِبادَتُهُم، وتستَقِيمَ أخلاقُهُم، وتَعْلُوَ آدابُهُم، خَلَقَ اللهُ الجِنَّ والإنْسَ لا لأجلِ أن يتمتَّعوا في هذِهِ الدُّنْيا كَما تَتَمَتَّعُ البهائمُ والأنْعامُ، ولا لأَجْلِ أن يَعْمُروا القُصُورَ، ويُشَيِّدُوا البِناءَ، ولا لأجْلِ أن يكونَ بَعْضُهم لبَعْضٍ عَدُوًّا أو صَدِيقًا، ولا لأجْلِ أن يتكاثَرُوا في المالِ، والأغراضُ كثِيرَةٌ؛ ولكِنَّ الحِكْمَةَ التي مِنْ أَجْلِهَا خلقَ اللهُ الجِنَّ والإنسَ هي حِكْمَةٌ واحِدَةٌ، هي عِبادَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والعبادَةُ: تُطْلَقُ على مَعْنَيَيْنِ:

المعنَى الأَوَّلِ: فِعْلُ العَبْدِ، وهو التَّعَبُّدُ.

المعْنَى الثانِي: مفعولُ العَبْدِ، وهو العِبادَةُ التي يَفْعَلُها.

فهي بالمَعْنَى الأَوَّلِ تَذَلُّلُ العبدِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بظاهِرِه وباطِنِه، بقَلْبِهِ ولِسانِهِ وجوارِحِهِ، يتذَلَّلُ له كَمالَ التَّذَلُّلِ، بحيثُ لا يُخالِفُهُ في أمْرِهِ، ولا يُخالِفُه في نَهيِهِ، فإذا أَمَرَهُ قالَ: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا، وإذا أَخْبَرَهُ بشيءٍ قالَ: سَمِعْنَا وآمَنَّا، فهو مُتَذَلِّلٌ له غايَةَ التَّذَلُّلِ، إن شَرَدَ عن اللهِ عَزَّوَجَلَّ مَرَّةً مِنَ المرَّاتِ بفِعْلِ معْصِيَةٍ، أو تَرْكِ واجِبٍ، تَجِدُهُ

يَرجِعُ إلى اللهِ؛ لأَنَّهُ مُتَذَلِّلٌ إلى رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ ولا يَتَذَلَّلُ لغيرِهِ، لا يَتذَلَّلُ لبشَرٍ حَيٍّ، ولا لبشَرٍ مَيِّتٍ، فالعبادَةُ للهِ وحدَهُ، يَتعبَّدُ للهِ وحْدَهُ، لا يَتعبَّدُ لأَحدٍ دونَ اللهِ، لا لمَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ولا لنَبِيٍّ مُرْسَلٍ، ولا لِوَلِيٍّ، ولا لمَلِكٍ، ولا لرَئيسٍ، ولا لوَزيرٍ، بل عِبادَتُهُ للهِ وحْدَهُ.

وبالمَعْنَى الثانِي: مَفْعُولُ العَبْدِ، وهو المُتَعَبَّدُ بِهِ، وهو بهذَا المَعْنَى كما قالَ شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ: «هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ الأَقْوالِ وَالأَعْمالِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»[1]، كالصلاةِ، والزكاةِ، والصِّيامِ، والحَجِّ، وبِرِّ الوالدَيْنِ، وصِلَةِ الأرحامِ، والجهادِ، والأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ، وغيرِ ذلِكَ.

ومن أعمالِ العبادَةِ: التَّوكُّلُ على اللهِ، فلا يَتَوَكَّلُ الإنسانُ إلا عَلَى اللهِ وَحْدَه، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢]، فلا تَعْتَمِدْ على وَلِيٍّ تَدَّعِي أو تزعُمُ أنه يَقْضِي لكَ حَوائِجَكَ، كمثلِ أولئكَ القومِ الذين يَذْهَبُون إلى قَبْرِ فُلانٍ أو قَبْرِ عِلَّانٍ، ويَسألونَهُ حَوائِجَهُم، ويَستَعِينُونَ به، وهو لا يَمْلِكُ لهم نَفْعًا ولا ضَرًّا، فمَن توَكَّلَ على غيرِ اللهِ تَوكُّلَ عبادَةٍ؛ فإنه مُشْرِكٌ كافِرٌ، لا يَنفَعُهُ قولُهُ: إنه مُؤْمِنٌ؛ لأنه صَرَفَ شَيْئًا مِنَ العبادَةِ لغَيرِ اللهِ، ومَنْ صرَفَ شيْئًا مِنَ العبادَةِ لغيرِ اللهِ، فقَدْ أَشْرَكَ باللهِ شِرْكًا أكبَرَ مُخْرِجًا عَنِ المِلَّةِ.

ولهذا نَحْنُ نَقْرَأُ في اليومِ والليلَةِ على أَقَلِّ تَقْدِيرٍ سَبْعَ عَشْرَةَ مرَّةً قولَ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فكَما أَنَّنَا لا نَعْبُدُ إلا اللهُ، فإنَّنا لَا نَستَعِينُ إلا باللهِ، وقالَ تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

يُوجَدُ بعضُ الناسِ يُعَلِّقُونَ قُلُوبَهُم في حُصولِ المَطْلوبِ ودَفْعِ المَكْرُوهِ علَى البَشَرِ، وهذا إن كانَ اعْتِمادًا على السَّبَبِ معَ اعتقادِ أنَّ المسَبِّبَ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ فهذا نَوْعٌ من الشِّرْكِ الأصْغَرِ، وإن كان اعتِمادًا مُطْلَقًا وتَفْويضًا كامِلًا، تَفْويض تَذَلُّلٍ وافتِقَارٍ؛ فهذَا شِرْكٌ أكبرُ؛ لأنه لا يَصِحُّ إلا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

من ذلِكَ أيضًا: ما يَفْعَلُهُ بعضُ الناسِ مِنْ خَوفِ المَخْلُوقِ الذي يَمْنَعُهُ عن فِعْلِ ما أمَرَ اللهُ بِهِ ورَسولُهُ ﷺ، أو عَنْ تَرْكِ ما نَهَى اللهُ عنه ورُسولُهُ ﷺ، فيَخافُونَ النَّاسَ كَما يَخافُونَ اللهَ.

تَجِدُ الرجُلَ لا يَتكَلَّمُ بالحَقِّ معَ تَمَكُّنِهِ من الكَلامِ منْه؛ خَوفًا مِنَ المخْلُوقِ، وهذا خِلافُ طَرِيقِ المُؤْمِنِينَ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قالَ في كِتابِهِ: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ﴾ [المائدة:٥٤].

قُلْ كَلِمَةَ الحَقِّ ولا تَخَفْ إلَّا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ كَلِمَةَ الحَقِّ لها تَأْثِيرٌ بالِغٌ على القُلُوبِ، ولو علَى المَدَى البَعيدِ، فَقَدْ لا تَنْفَعُ في الوقتِ الحاضِرِ، لكنْ يَكونُ لها أثَرٌ.

انظُرُوا إلى قولِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين جَمَعَ السحَرَةَ لَهُ، وألْقَوْا حِبالَهُمْ وعِصِيَّهُم حتى أوْجَسَ في نَفْسِه خِيفَةً، فقالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٨-٦٩]، قالَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَلِمَةً لَهُمْ: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١]، كَلِمَةٌ مِنْ رَجُلٍ يَتكَلَّمُ مَعَ عَدُوِّهِ، ومعَ ذلِكَ أثَّرَتْ هذه الكَلِمَةُ فيهِمْ، ذلكَ التأَثُّرُ تَجِدُهُ في قولِه -جلَّ شأنُه-: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه:٦٢]، لَـمَّا قال هذه الكَلِمَةَ تنازَعُوا الأمْرَ، فصارَ كلُّ

واحِدٍ يَرى رَأْيًا، ومِنَ المَعلومِ أن التَّنَازُعَ سببٌ للفَشَلِ، كَمَا قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]، هذه كَلِمَةٌ واحِدَةٌ أَثَّرَتْ هذَا التَّأْثِيرَ الذي صَارَتْ بالنسبَةِ لَهُ كقُنْبُلَةٍ أُلْقِيَتْ بينَ أقوامٍ مُجْتَمِعِينَ.

ولكن ما كُلُّ كَلِمَةِ حَقٍّ تُقَالُ في كلِّ مَوطِنٍ؛ بل تُقَالُ في المَوطِنِ الذي يُمْكِنُ أن تَنْفَعَ فيه، يعْنِي: إنه لا يَنْبَغِي للإنسانِ أن يَتَهَوَّرَ، فيقولَ الكَلِمَةَ في مَوطِنٍ لا تَزُولُ بقَولِهِ المَفْسَدَةُ؛ بل رُبَّمَا تَحصُلُ مَفسَدَةٌ أكبرُ.

أنت لا تَدَعْ قولَ الحَقِّ، لكن انظُرْ أينَ تَضَعُ هذا القَوْلَ، قد تَقولُهُ في مكانٍ يَلُومُكَ عليهِ مَن يَلُومُكَ، لَكِنْ قُلْهُ في مَكانٍ يكُونُ لَهُ أَثَرٌ، وهذَا يَختَلِفُ باختِلَافِ النَّاسِ.

لو أن صَبِيَّكَ فَعَلَ مُنْكَرًا، فقُلْتَ: يا بُنَيَّ، هذا مُنْكَرٌ، إياكَ أن تَفْعَلَهُ، فإن فَعَلْتَهُ فسأَفْعَلُ بِكَ وأَفْعَلُ، فمِثْلُ هذا مُناسِبٌ في هذا المَقَامِ؛ لكِنْ أن تقولَ لرَجُلٍ بالِغٍ عاقِلٍ أجنَبِيٍّ عنْكَ، ورأَيتَهُ على هذا المُنْكَرِ، تقولُ له مِثْلَ هذا القولِ؛ فهذا مِمَّا ليسَ في مَحَلِّهِ، ولكِنَّ الوَاجِبَ عليكَ أن تَتكَلَّمَ بالكَلامِ المُناسِبِ، ورُبَّمَا إذا لم يَكُنِ الكلامُ مُناسِبًا في هذَا المَكانِ، رُبَّمَا يَكونُ مُناسِبًا في مكانٍ آخَرَ.

رأيتَ رجُلًا -مثلًا- قَدْ أَسْبَلَ ثوبَهُ، وهو رَجُلٌ شَرِيفٌ وَجِيهٌ، نافِعٌ للعِبادِ في مالِهِ وجَاهِهِ، رَأيته مُسْبلًا في مَجْمَعٍ، هل مِنَ الحِكْمَةِ أن تقولَ له في هذَا المكانِ: يا فُلانُ، أنتَ فاعِلٌ كبيرَةً، اتَّقِ اللهَ وارفَعْ ثوبَكَ، أم هذا غَيْرُ مُناسِبٍ؟ لا شَكَّ أنه غَيرُ مُناسِبٍ؛ لأن الرَّجُلَ يَرى لنفسِهِ مَقَامًا، ويَرى لنفْسِهِ مَرْتَبَةً، إذن: أَنزِلْه مَنْزِلَتَهُ، وتَكَلَّمْ معَهَ سِرًّا، وقل: يا أخِي، هذا حَرامٌ عليكَ، وهذا مِنَ الكَبَائِرِ، ولا يَحِلُّ لك أن تُنْزِلَ

ثوبَكَ إلى أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ.

فإذا قالَ لكَ في هذا المكانِ أو في هذَا الحَالِ: أنا أَعْلَمُ بذلِكَ مِنْكَ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ، لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[1]، وأنا لَمْ أُنْزِلْهُ عَنِ الكَعْبَيْنِ خُيلاءَ، لكِنَّ هذَا شيءٌ أُرِيدُهُ، وهذِهِ عَادَتُنَا نحْنُ التُّجَّارُ الوُجهاءُ الشُّرَفَاءُ، أن تكونَ ثِيابُنَا طَوِيلَةً، وما دَامَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ**»، فيُقَيَّدُ بالخُيلاءِ، وأنا لم أَفْعَلْ هذَا خُيلاءَ، فأَنَا بَرِيءٌ من ذلِكَ، رُبَّمَا يُجادِلُ بذلِكَ كَمَا يُجادِلُ غَيرُهُ.

فنَقولُ له: بَارَكَ اللهُ فِيكَ، كلامُ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَتَنَاقَضُ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ**»، وفي حَدِيثِ أبي ذَرٍّ في صحيح مُسلِمٍ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»، قَالَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ، خَابُوا وَخَسِرُوا؟ قَالَ: «**المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ**»[2]، فالوعيدُ الذِي قالَهُ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيمَنْ نَزَلَ ثَوبُهُ عن كَعْبِهِ هو: «**مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ فَفِي النَّارِ**»[3]، هذه عُقوبَةٌ جُزئيَّةٌ في نَفْسِ المَكانِ الذي حَصَلَتْ فيهِ المُخَالَفَةُ فَقَطْ، فلو أَنَّنَا حَمَلْنَا هذا عَلَى هذا، لَكانَ الكَلَامُ مُتَنَاقِضًا؛ لأن العقوبَةَ في الأوَّلِ -فيمَنْ جرَّهُ خُيلاءَ- غيرُ العُقُوبَةِ فيمَنْ نَزَلَ ثوبُهُ عن كَعبِهِ بدونِ خُيلاءَ، ومعلومٌ أن كلامَ الرَّسولِ ﷺ لا يَتَنَاقَضُ، فيكونُ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ**» له

---

(١) أخرَجه البخاري: كتاب المَناقِبِ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذا خليلا**»، رقم (٣٦٦٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء، رقم (٢٠٨٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار، رقم (٥٧٨٧).

حَالٌ، وله وَعِيدٌ خاصٌّ، ومن نَزَلَ ثوبُهُ عن كَعبِهِ له وعيدٌ خاصٌّ.

قد يقولُ قَائِلٌ: كيف يُمكِنُ العذابُ بالنَّارِ على جُزْءٍ مِنَ البَدَنِ؟

نقولُ: هذا مُمكِنٌ شَرْعًا وحِسًّا؛ أما شَرْعًا فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأى ذَاتَ يومٍ أصحابَهُ يتَوَضَّؤونَ، ولكنَّهُم لا يُسْبِغُونَ الوُضوءَ في أَرْجُلِهِمْ، وأَعْقابِهِمْ -يعني: العَرَاقِيبَ- لم يَمَسَّهَا الماءُ مِنَ العَجَلَةِ؛ لأنَّ صَلاةَ العَصْرِ أرْهَقَتْهُم، وصارُوا يَتَوَضَّؤونَ على وَجْهِ العَجَلِ، فصارَ لا يُسْبِغُونَ الوُضوءَ في أَقْدامِهِمْ، فماذا قالَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ قال: «**وَيلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**»(١).

إذن: النَّارُ هنا لا تكونُ في كُلِّ البَدَنِ؛ بل تكونُ في المَكانِ الَّذِي حَصَلَتْ فيهِ المُخَالَفَةُ، إذن: يُمكِنُ أن يَكونَ العَذابُ على جُزْءٍ مِنَ البَدَنِ.

بهذا عَرَفْنَا أن الوَعِيدَ يَخْتَلِفُ باختلافِ المَعْصِيَةِ، وأنَّ العُقوبَةَ كذلِكَ تَختَلِفُ باخْتِلافِ المَعصْيَةِ.

أما حِسًّا فإنه يُمكِنُ أن تَكْوِيَ الرِّجْلَ دونَ بَقِيَّةِ البَدَنِ، ويكونُ الأَلَمُ مباشِرًا عَلَى الرِّجْلِ وحْدَهَا، وإن كان في هذَا الحالِ يَتَأَلَّمُ الجسدُ كلُّه، لكِنَّ الأَلَمَ المُباشِرَ هُو هذَا.

ولو قالَ قائلٌ: هل يَجوزُ لي أن يَكونَ ثَوْبِي فيما بينَ نِصْفِ السَّاقِ والكَعْبِ؟

الجواب: نَعَمْ، يَجوزُ هذَا، وهو مِنْ فِعْلِ الصحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن أَبا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ بقولِهِ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ**»، قالَ: يا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب غسل الرجلين ولا يمسح على القدمين، رقم (١٦١)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، رقم (٢٤١).

رَسولَ الله، إنَّ أَحَدَ شِقَّيْ إزَارِي يَسْتَرخِي عَلَيَّ، إلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ، قالَ: «**إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ خُيلَاءَ**»[1]، فهذا يَدُلُّ على أن إِنْزَالَ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس إلى نِصْفِ السَّاقِ، بل هو أَنْزَلَ مِنْ ذلِكَ؛ لأنه لو كانَ إلى نِصْفِ السَّاقِ، ثم استَرْخَى عليهِ حتَّى يَنْزِلَ إلى الأرْضِ، لَزِمَ مِنَ ذلِكَ أن تَنْكَشِفَ عَوْرَتُهُ مِنْ فَوقُ، وهذا دَلِيلٌ واضِحٌ على أنَّ الصحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تكونُ أُزُرُهمْ إلى أَسْفَلَ مِنْ نِصْفِ الساقِ، فما بَينَ نِصْفِ السَّاقِ والكَعْبِ فلا بأسَ به، ولا يُنْكَرُ على الإنسانِ، ولا يُقالُ: إنَّ إيمانَهُ ضَعِيفٌ.

نَعودُ إلى قولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات:٥٦]، في هذِه الآيَةِ الكَريمَةِ دَلِيلٌ على أن الجِنَّ مُكَلَّفونَ بالعبادَةِ، كما أن الإنسَ مُكَلَّفونَ بالعبادَةِ، فهل مَا كُلِّف بِهِ الجِنُّ كالذي كُلِّفَ به الإنسُ؟ يعنِي: هَلْ على الجِنِّ صَلواتٌ خَمْسٌ، وعَليهِمْ زكاةٌ، وعليهِمْ صيامُ شَهْرِ رمضانَ، وعليهِمْ حَجُّ بيتٍ، أم لهُم عِباداتٌ خاصَّةٌ تَلِيقُ بأحْوالِهِمْ؟

الجواب: في المَسْألةِ قولانِ واحتِمالانِ بالنِّسْبَةِ للعِلْمِ، فيَحْتَمِلُ أن تكونَ العِبادَةُ التِي كُلِّفَ بها الجِنُّ هي العبادَةَ التي كُلِّفَ بها الإِنْسُ، ويُؤَيِّدُ هذَا الاحتِمالَ أَنَّنا إذا تَدَبَّرْنَا النُّصوصَ من الكِتَابِ والسُّنَّةِ، لم نَجِدْ خِطَابًا خاصًّا بالجِنِّ يُمَيِّزُهُمْ عن الإنسِ في العِباداتِ، وإذا كانَ رَسولُ اللهِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم مُرْسَلًا إليهِمْ، ولم نَجِدْ بينَ أَيدِينا أَحْكَامًا خاصَّةً بِهِمْ، دَلَّ ذلك عَلَى أن الأحكامَ التِي للبَشَرِ هِيَ الأحكامُ التِي للجِنِّ.

أما مَنْ قالَ: إنَّهم يُكَلَّفُونَ بعباداتٍ تَلِيقُ بِهِمْ، فقال: إنَّ حِكْمَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، رقم (٣٦٦٥).

تَقْتَضِي ذلِكَ؛ لأنَّ الجِنَّ ليسُوا كالإنسِ في الحَقِيقَةِ، فحَقائقُهُم تختَلِفُ عَنِ الإنسِ، وأصْلُهُم يختَلِفُ عن الإنسِ، فأصْلُهُم مِنَ النَّارِ، حَقِيقَتُهم تختَلِفُ، فهُمْ أجسامٌ، لكِنْ لا يُرَوْنَ، وعِنْدَهُم قُوةٌ ليستْ عندَ البَشَرِ؛ بل هِيَ أقْوَى مِنَ البشَرِ، ولهذَا لما قالَ سُليمانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ [النمل:٣٨]، يعني: عَرْشَ بِلْقِيسَ في اليَمَنِ: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨]، هو في الشَّامِ في فِلَسْطِينَ، وهُمْ في اليَمَنِ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:٣٩]، وليسَ لقِيامِهِ مِنْ مَقامِهِ وقتٌ مُعَيَّنٌ يَقُومُ فيهِ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩].

انظُرْ إلى بَلَاغَةِ الجِنِّيِّ: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾؛ لأنَّ تمامَ الأُمُورِ بالقُوَّةِ والأمانَةِ، فالضَّعِيفُ لا يُتْقِنُ العَمَلَ، وغيرُ الأَمِينِ يخُونُ في العَمَلِ، فقالَ: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٣٩-٤٠]، وهَذَا أَسْرَعُ مِنَ الأَوَّلِ حيثُ قالَ: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، يعني مَدَّ الطَّرْفِ ورَدَّهُ، فقَبْلَ أن تَرُدَّه تجِدُ العَرْشَ عنْدَكَ، ولهذا قالَ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ [النمل:٤٠]، أتى بالفاءِ الدَّالَّةِ على التَّرتِيبِ والتَّعْقِيبِ: ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، وهنا لم يَقُلْ: فلمَّا رَآهُ عنْدَهُ؛ بل قالَ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ والاستِقْرارُ أخصُّ من مُطْلَقِ الوُجودِ، يعْنِي: رَأَى العَرْشَ مُستَقِرًّا كأنه قَدْ حَضَرَ منذُ زمانٍ، وقد استقَرَّ، لا يتَرَجْرَجُ ولا يتحَرَّكُ، لما رَآهُ مُسْتَقِرًّا عندَهُ: ﴿قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

والشاهِدُ قَوْلُه: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:٣٩]، قالَ بعْضُ العُلَماءِ: فإذَا كانَ الجِنُّ مخالِفِينَ للإنْسِ في الحَقِيقَةِ، فإن

حِكْمَةَ اللهِ تَقْتَضِي أن تكونَ عِبَادَاتُهم مُناسِبَةً لأَحْوالِهِمْ، كَمَا أن العِبادَاتِ في البَشَرِ مُناسِبَةٌ لحالِ الإنسانِ، فالصَّغِيرُ لا يُكلَّفُ بالعباداتِ ولا يُلْزَمُ؛ لأنه لا يَتَحمَّلُ، والمريضُ يُلْزَمُ بالصلاةِ قائمًا، فإن لم يَستَطِعْ فقاعِدًا، فإن لم يَستَطِعْ فعَلى جَنْبٍ، فإن لم يَستَطِعْ فَلْيُومِئْ، فإن لم يَسْتَطِعْ فَلْيَنْوِ بقَلْبِهِ الركوعَ والسجودَ والقُعودَ والقِيامَ، كلُّ ذلكَ يَنْوِيهِ بقَلْبِهِ.

وقالَ بعضُ العُلماءِ: يُومِئُ بعَينِهِ إذا لم يسْتَطِعِ الإيماءَ بالرأسِ، وفيهِ حديثٌ ضَعِيفٌ أخَذَ به هؤلاءِ العلماءُ، وآخَرُون لم يأخُذُوا بِهِ.

وأما الصلاةُ بالإصْبَعِ في حالِ عَدَمِ القُدْرَةِ؛ فهذا لا صِحَّةَ له إطْلاقًا، لا بالآثارِ عَنِ السابِقِينَ، ولا بمُؤَلَّفاتِ المُتأخِّرِينَ، ما رَأينا أحدًا يقولُ: إن المَرِيضَ يُصَلِّي بإِصْبَعِهِ، فالظاهِرُ أن هذِهِ حكايَةٌ عامِّيَّةٌ، رَأَوْا أن الإِصْبَعَ قَرِيبٌ مِنَ الإنسانِ، فإذا وَقَفَ وقالَ: اللهُ أكبرُ، نَصَبَ إِصْبعَهُ، وإذا رَكَعَ حَنَى إِصْبَعَهُ قَلِيلًا، وإذا سَجَدَ حناهُ أكثَرَ من الرُّكوعِ، فقَالوا: يُصَلِّي بالإِصْبَعِ، وهذا ليسَ بصَحيحٍ، فما دامَتِ الآثَارُ لم تَرِدْ بِهِ، والعُلماءُ لم يقُولُوا بِهِ، فإنه يُرفَضُ، فيُقالُ: أقلُّ ما نَقُولُ أن يُومِئَ بعينِهِ -وإن لم نَقُلْ بذلِكَ- كما اختارَهُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ[1]، فإننا نَقولُ: يُصَلِّي بِقَلْبِهِ، هذا هو الراجِحُ.

أقولُ: إن بعضَ العلماءِ يقولُ: إن العباداتِ التِي أُلزِمَ بها الجِنُّ عباداتٌ خاصَّةٌ بِهِمْ، تَلِيقُ بأحْوالِهِمْ، كما أن البَشَرَ لهُمْ عِباداتٌ تَلِيقُ بأحوالِهِمْ، فالغَنِيُّ عليهِ زكاةٌ، والفَقِيرُ لا زكاةَ عليهِ، إذن: سقَطَ عنه رُكْنٌ مِنْ أركانِ الإسلامِ؛ لأَنَّه لا يَستَطِيعُهُ،

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٧٢).

والقادِرُ على الحَجِّ عليهِ الحَجُّ، والعاجِزُ ليسَ عليهِ، وهَلُمَّ جرًّا.

وهذا القولُ من حيثُ مُوافَقَةُ الحِكْمَةِ أقربُ للصوابِ، أي: إنَّ الجِنَّ مُكلَّفُونَ بعباداتٍ تَلِيقُ بأحْوالِهِمْ.

فإذا لم يَقُمِ الجِنُّ بالعِبادَةِ، بأنْ وَصَلَ بِهِمُ الحَدُّ -مثلًا- إلى الكُفْرِ، فهُمْ في النَّارِ؛ لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨]، حيثُ قالَ: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، وإذا أطاعُوا دَخَلُوا الجَنَّةَ؛ لقولِهِ تَعالَى في سورَةِ الرَّحمنِ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧]، والخِطابُ للجِنِّ والإنْسِ، وهذا القَولُ هُو الراجِحُ، أنَّهم يَدْخُلونَ الجنَّةَ إذا كانُوا مُطِيعِينَ.

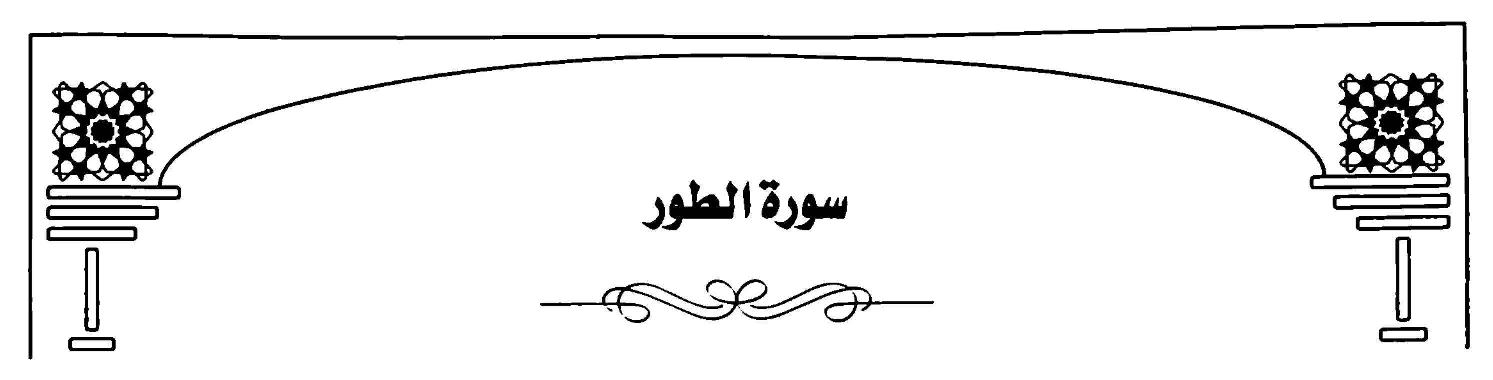
نعودُ بعدَ هذا إلى العبادَةِ:

قلنا: إنها تُطْلَقُ على مَعْنَيَيْنِ: الأوَّلُ: التَّعَبُّدُ وهو فِعْلُ العَبْدِ، والثاني: مَفْعُولُ العَبْدِ وهُو المُتَعَبَّدُ بِهِ، ولكِلٍّ واحدٍ مِنْهما حَدُّهُ.

وَلْيُعْلَمْ أن العبادَةَ لا تَصِحُّ إلا بشَرْطينِ: الإخْلاصِ للهِ، والمتابِعَةِ لرَسولِ اللهِ ﷺ كما تَقَدَّمَ ذلِكَ مِرارًا، وعليه فمَن ابتدَعَ عبادَةً لم يَشْرَعْها اللهُ، ولو كان قَلْبُهُ يَلِينُ لهَا ويَطْمَئِنُّ إليها، ولكنها لم تُشْرَعْ، فإنَّها لا تُقْبَلُ منْه؛ لقولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلهِ وسلَّم: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1].



(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).



سورة الطور

بسمِ اللهِ الرحمَنِ الرَّحِيمِ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، وأُصَلِّي وأسَلِّمُ على نَبِيِّنَا محمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قولُهُ تَعالَى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩]، إلى قولِهِ: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] إلى آخِرِ السُّورَةِ.

في هذه الآياتِ العظِيمَةِ يأمُرُ اللهُ نَبِيَّهُ محمَّدًا ﷺ أن يُذَكِّرَ الناسَ بالذِّكْرِ، ألَا وهُوَ كتابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وما جاءَتْ به سُنَّةُ الرسولِ ﷺ. ثم يُبيِّنُ أنه بنِعْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عليه بهذَا الوَحْيِ العَظِيمِ، لم يَكُنْ مِنَ الكَهنَةِ، ولا مِنْ ذي الجُنونِ، وكانَ النَّبِيُّ ﷺ قبلَ أن يُوحَى إليهِ يُسَمِّيهِ أهلُ مَكَّةَ الأمِينَ، ويَأْتَمِنُونَهُ أعظمَ ائتمانٍ، ولَمَّا مَنَّ اللهُ عليه بالوَحْيِ صارُوا أعْدَاءً لَهُ، يَرمونَهُ بكُلِّ لقَبٍ مَعِيبٍ، فقالوا: إنه شاعِرٌ، وكاهِنٌ، ومجنونٌ، وساحِرٌ، وكذابٌ. وغيرُ ذلك مما أَلحَقُوا به النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الألْقابِ السَّيِّئَةِ؛ تَنْفِيرًا للناسِ عن دَعْوتِهِ، وتَهْجِينًا له، ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ لهُ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩].

والكاهنُ هو الَّذِي يُخْبِرُ عن الغَيبِ، يُخبِرُ عما يكونُ في المُستَقْبَلِ، وكان الكَهَنَةُ في الجاهليةِ قَوْمًا يتَّصِلُونَ بالشياطِينِ الذين يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ مِنَ السماءِ، فيأتِي الشيطانُ إلى صاحِبِهِ، ويُخبِرُهُ بما سَمِعَ من السماءِ، ثم يُضِيفُ إلى ما سَمِعَه لِيُوحِيَ إليه

كَذِباتٍ كثيرَةً، فيُحَدِّثُ الناسَ بذلك، فإذا وقَعَ الأمرُ كما سَمِعَ رَئِيُّه[1] مِنَ الشياطِينِ، قالَ الناسُ: إن هؤلاءِ يَعْلَمُونَ الغَيبَ. فحَذِرُوهم وعَظَّموهم، وأغدَقُوا عليهِمُ الأموالَ والهِباتِ، وغير ذلك.

والنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليسَ بكاهِنٍ، بل يَأْتِيهِ الوحْيُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عن طَريقِ جِبريلَ الأمينِ، وليسَ بمَجْنونٍ، بل هو أعْقَلُ الناسِ -صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ-.

قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠]، يقولُ هؤلاءِ المكذِّبُونَ للرسولِ ﷺ: إنه شاعِرٌ. وكَذَبُوا فيما قَالُوا؛ فإنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩].

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور:٣١]، وهذا الأمرُ للتَّهْديدِ يُهَدِّدُهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيقولُ: انتَظِرُوا؛ فإني مَعَكُم من المُنتَظِرينَ، وستَعْلَمُونَ لمَن تكونُ العاقِبَةُ، فصارَتِ العَاقِبَةُ للنَّبيِّ ﷺ والحمدُ للهِ رَبِّ العالمِينَ.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور:٣٢]، يعني: هَلْ عُقُولُهم هِيَ التي تَأْمُرُهم بمِثْلِ هذا القولِ، أم طُغْيانُهُم وعُدْوانُهم مَعَ عِلْمِهِمْ بأن النَّبيَّ ﷺ ليسَ على الوصفِ الذِي وَصَفُوه بِهِ، والواقِعُ أنَّ الأمرَ هو الثَّانِي؛ فإنهم طُغَاةٌ بُغاةٌ يعْلَمُونَ أن رسولَ اللهِ ﷺ ليسَ بكاهِنٍ، وليسَ بمَجنونٍ، وليسَ بساحِرٍ، وليسَ بكذَّابٍ، وليسَ بشاعِرٍ، لكنَّ الطُّغْيانَ والعُدوانَ هو الَّذِي حمَلَهُم على تَلْقِيبِهِ بهذِهِ الألقابِ السَّيِّئَةِ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [الطور:٣٣]، أي قالَهُ على اللهِ معَ أنه كاذِبٌ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) هو التابع من الجن، انظر: تاج العروس رأي.

﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٣-٣٤]، إن كانوا صادِقِينَ أنَّك مُتَقَوِّلُهُ، وأنه من قَولِكَ؛ فإنكَ بشَرٌ، وإذا كُنْتَ بشَرًا، وكان هذا من قَولِكَ الذي تَقَوَّلْتَهُ على اللهِ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور:٣٤]، واللامُ هنا للأَمْرِ الذي يُرادُ به التَّعْجيزُ، ولكنهم عَجَزُوا ولم يأْتُوا بحَدِيثٍ مِثْلِهِ، فدَلَّ ذلك على أن هذَا القرآنَ كلامُ اللهِ، وليسَ مِنْ كلامِ النَّبيِّ ﷺ.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، أي هَلْ هؤلاءِ خُلِقُوا من غَيرِ خالِقٍ، أم هُمُ الذين خَلَقُوا أنْفُسَهُم، وهذا الدَّليلُ العقْلِيُّ البُرْهَانِيُّ على أنَّ لَهُمْ خالِقًا، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، يُسَمَّى بدَليلِ السَّبْرِ والتَّقْسِيمِ؛ وذلِكَ لأننا نقولُ: إن هؤلاءِ الَّذِينَ يُخَاطِبُونَ النَّبيَّ ﷺ لا هُمْ خَلَقُوا أنْفُسَهُم، ولا هُمْ خُلِقُوا من غيرِ خالِقٍ؛ لأنهم ليسوا هم الذينَ خَلَقُوا أنْفُسَهم؛ إذ إنهم كانوا عَدَمًا قَبْلَ أن يُوجَدُوا، والعَدَمُ غيرُ مَوجودٍ، فكيفَ يُوجِدُ غيرَهُ؟! وهم لم يُخْلَقُوا من غيرِ خالِقٍ بأن جَاءوا صُدْفَةً، فهذا لا يُمكِنُ؛ لأن هذا الخَلْقَ لا بُدَّ له من خَالِقٍ، والقاعدَةُ العَقْلِيَّةُ النظَرِيَّةُ أن: كلَّ حادِثٍ لا بُدَّ لهُ مِنْ مُحْدِثٍ.

فلو أن شَخْصًا حَدَّثَكَ بأن هناكَ قَصْرًا مَشِيدًا تَجْرِي فيه الأنهارُ، وتَهْتَزُّ فيهِ أغصانُ الأشجارِ، وفيه مِنْ كلِّ ما يُجَمِّلُه من فَرْشٍ وأوانٍ وغيرِها، لو قالَ لكَ قائِلٌ: إن هذا القَصْرَ خلَقَ نَفْسَهُ، وأوْجَدَ نفْسَهُ! لقلتَ: إن هذا نوعٌ مِنَ الجُنونِ، فإن هذا القَصْرَ لم يأتِ صُدْفَةً من غيرِ أن يَبْنِيَهُ بانٍ، ومَن يصَدِّقُ هذا فإنه رجلٌ مجْنونٌ! كيف يَكونُ هذا القَصْرُ بهذا النَّوعِ أو بهذا الوصفِ، ونُصَدِّقُ أنه من غيرِ بانٍ بَنَاهُ، هذا لا يُمْكِنُ أبدًا.

ولما جاءَ قومٌ من أهلِ الإلحادِ يُحاجُّونَ أبا حَنِيفَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وُجودِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويقولون: إنَّ اللهَ تَعالَى ليسَ بمَوجودٍ، فهَلْ لك مِنْ دَليلٍ تُقْنِعُنَا به؟ فقال: دَعُونِي أُفَكِّرُ. فتَرَكُوه يُفَكِّرُ، ثم قالَ بعدَ ذلِكَ: «إنَّ هُناكَ سَفِينَةً جاءَتْ إلى نَهرِ دِجْلَةَ مُحَمَّلَةً بالأَرْزاقِ، فأَرْسَتْ في المِيناءِ، ثم أَنْزَلَتْ هذِهِ الأَرْزاقَ علَى الساحِلِ بدونِ أن يَكونَ لَهَا مَلَّاحٌ، وبدُونِ أن يكونَ هناك حَمَّالونَ يُنزِلُونَ هذِهِ الأَرْزاقَ». فقالَ هؤلاءِ القومِ لأبِي حنيفَةَ: هذا لا يُمكِنُ! هذا ليسَ بعَقْلٍ. فقالَ لهم: «إِذَا كانَتْ هذِه السَّفِينَةُ وهي ليستْ بشَيْءٍ بالنسبَةِ إلى الشَّمْسِ والقَمْرِ، والنجومِ، والسماءِ والأرْضِ، فهي لا يُمكِنُ أن تَأتِيَ بنَفْسِهَا، أو تَحْمِلَ المتَاعَ بنَفْسِهَا، أو تُنْزِلُه بنَفْسِهَا، فكيفَ يُمكِنُ أن تكونَ هذا المخلوقاتُ العظِيمَةُ خُلِقتْ بدونِ خالِقٍ»!!

ولهذا قيلَ لأَعْرَابيٍّ: بِمَ عَرَفْتَ ربَّك؟ فقالَ: «الأَثَرُ يَدُلُّ على المَسِيرِ، والبَعْرَةُ تَدُلُّ على البَعِيرِ، فسَماءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وأَرْضٌ ذاتُ فِجَاجٍ، وبِحَارٌ ذاتُ أمْواجٍ، أَلَا تَدُلُّ على السَّميعِ البَصِيرِ»[1].

سُبْحانَ اللهِ! أعْرَابِيٌّ يَنطِقُ بهذا النُّطْقِ العَقْلِيِّ الذي لو تكَلَّمَ عليه الفَلاسِفَةُ بمُجَلَّدَاتٍ ما أَتَوْا بمِثْلِهِ! (الأثرُ يدُلُّ على المسِيرِ)، لو وَجَدْتَ أَثَرَ أقدامٍ علَى أرضٍ رَمْلِيَّةٍ، فهل يُمْكِنُ أن تكونَ هذِهِ الأقدامُ من غيرِ سائرٍ عليهَا؟ لا يُمكِنُ. ولو وجَدْتَ بعْرَةً هل يُمْكِنُ أن تكونَ هذِهِ البَعْرَةُ من غيرِ بَعِيرٍ؟ لا يُمْكِنُ.

إذن، السماءُ العظيمَةُ ذاتُ الأبراجِ العظِيمَةِ، وهي النجومُ العالِيَةُ، والأرضُ ذاتُ الفِجَاجِ الواسِعَةِ بما فيها مِنَ الجبالِ والأودِيَةِ وغيرِ ذلِكَ، والبحارُ العَظِيمَةُ ذاتُ

---

(١) تاريخ دمشق (٣/ ٤٣١).

الأمواجِ، مَن خَلقَهَا هُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فهِي تَدُلُّ على السَّمِيعِ البَصِيرِ.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]؟ والجوابُ: لَا هذا ولا هَذَا. فهل هؤلاءِ خَلَقَهُم رُؤساؤُهُم؟ هل خَلَقَ الإنسانَ أمُّهُ وأبوه؟ لَا، إذن لا بُدَّ أن يكون هناكَ خالِقٌ وراءَ هذا الخَلْقِ، أَلَا وهُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

كانَ جُبَيرُ بنُ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَدَ الأُسَراءِ في بَدْرٍ، فسَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَكَادَ قَلْبِي يَطِيرُ**»(١)، مِن شِدَّةِ ما رَأى مِنَ الإقناعِ، والحُجَّةِ البَيِّنَةِ، ودخَلَ الإيمانُ في قَلْبِهِ من ذلِكَ الوقتِ، حتى أَسْلَمَ في النِّهايَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذن، نَستَدِلُّ بهذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ بدَليلٍ عَقْلِيٍّ على أنَّ هذا الكونَ له خالِقٌ، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطور:٣٦]؟ والجوابُ: لا، فَهُمْ لم يَخْلُقوا السماواتِ والأرضَ، بل اللهُ هو الخالِقُ، حتى هم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، ومعَ ذلك يُنْكِرُونَ شَرْعَهُ ويُكَذِّبُونَ رَسُولَهُ.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور:٣٧]؟ والجوابُ: لا، فخَزائنُ رِزْقِ الله ليستْ عنْدَهُم، بل هي عندَ اللهِ وحدَهُ.

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٧]؟ أي لهُمُ السيطَرَةُ والسُّلطانُ؟ والجوابُ: كلُّ ذلك لم يكُنْ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩]. رقم (٤٨٥٤).

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨]؟ أي: يَصْعَدُونَ فيهِ إلى السَّماءِ، ويستَمِعُونَ ما يَحْدُثُ في السماءِ، والجوابُ: لا، فإنْ كانَ لَهُمْ سُلَّمٌ: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٨]، ولن يَفْعَلَ أبدًا.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور:٣٩]؟ وهذا الاستفهامُ إنكارٌ؛ لأن هؤلاءِ يقولونَ: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ. فيَنْسُبُونَ المَلائكَةَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بوَصْفِهِمْ بناتٍ له، معَ أنَّهم هم لا يَرْضَوْنَ أن تُنْسَبَ البناتُ إليهِمْ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل:٥٨-٥٩]، ومَعْنَى ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ [النحل:٥٩]: أن يُبْقِيَ هذِهِ البنتَ على ذُلٍّ وهَوَانٍ، أم يَدُسَّهَا في التُّرابِ فيَدْفِنَها وهِيَ حَيَّةٌ، فهُم لا يَرْضَوْنَ البناتِ لأَنْفُسِهِمْ، ويَرْضَوْنَهُنَّ للهِ، فأنكرَ اللهُ عليهِمْ ذلِكَ: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور:٣٩].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور:٤٠]؟ والجواب: لا، فإنَّ الرسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يَطْلُبْ منهم مالًا أو أَجْرًا، قال تَعالَى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، فالرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يَطلُبُ أجْرًا على ما بَلَّغَهُ مِنَ الرسالَةِ، وإنما يَدْعُو الناسَ لمَصْلَحَتِهِمْ.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور:٤١]؟ والجواب: لا، ليسَ عندَهُم عِلْمُ الغَيْبِ، ولم يَكتُبُوا مَقادِيرَ الخلائقِ، وإنما الذي عنْدَهُ عِلْمُ الغيبِ ويكتُبُ مَقادِيرَ الخلائقِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطور:٤٢]؟ وهذا هُو الوَاقِعُ، فهُمْ يُريدونَ كَيْدًا برسولِ اللهِ

ﷺ، يُريدونَ أن يُنفِّرُوا الناسَ عنه، ولكنَّ هذه الإرادةَ للكَيْدِ لن تُؤَثِّرَ على رسولِ الله ﷺ، بل تُؤَثِّرُ عليهِمْ، ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢]، وهنا أتى بالجُملَةِ الاسميَّةِ للدَّلالَةِ على أن الكيدَ مُلازِمٌ لَهُمْ، لا يَنفَكُّونَ عنه، فهُمُ المَكِيدونَ، ولهذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ [الطارق:١٥- ١٧]، فلم تَمْضِ إلا سنواتٌ قَلِيلَةٌ حتى سُحِبَ صَناديدُ هؤلاءِ المُكَذِّبِينَ وكُبَرَاؤُهُم جُثَثًا، وأُلْقُوا في قَلِيبِ بَدْرٍ قد جَيَّفُوا وأَنْتَنُوا[1]، وهذا هو نَتِيجَةُ قولِه تَعالَى: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢].

﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [الطور:٤٣]؟ والجواب: لا.

قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الحشر:٢٣]، تَنْزِيهًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عما يُشْرِكُ بِهِ هؤلاءِ الجَهَلَةُ السُّفهاءُ الذين يأتِي أَحَدُهم إلى الأرْضِ، يَنزِلُ فيها في السَّفَرِ، فيَختارُ أربعةَ أحجَارٍ، يَجْعَلُ ثلاثَةً مِنْها أثَافِيَ للقِدْرِ -والأثَافِي: مَناصِبُ يُنصَبُ عليهَا القِدْرُ- ويَجْعَلُ الرابعَ مِن هذِهِ الأحجارِ إِلَهًا يَعْبُدُهُ! وهذا سَفَهٌ شديدٌ، حتى إنَّ بعْضَهُم لَيَعْجِنُ التَّمْرَ على صِفَةِ تمثالٍ، فيَعْبُدُهُ، فإذا جاعَ أَكَلَهُ، وهذا مِنَ السَّفَهِ العظيمِ، ولهذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الطور:٤٣].

قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا﴾ [الطور:٤٤]، يعْنِي عَذَابًا نازِلًا عليهم لم يُصَدِّقُوا بذلِكَ، ولكن ﴿يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ [الطور:٤٤]، ولا يُصَدِّقُونَ بالعَذابِ. ونظيرُ ذلك ما حصَلَ في عَصْرِنَا اليومَ، إذا رَأَوْا كُسوفَ الشَّمْسِ والقمرِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المُشركين بالهزيمة والزلزلة، رقم (٢٩٣٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٢٨٧٤).

قالوا: هذا أمرٌ طَبِيعِيٌّ لا يَحْتاجُ أن نَخافَ منْه، ولا أنْ نَفْزَعَ إلى الصلاةِ والذِّكْرِ، وغَفَلَ هؤلاءِ عن أن الكُسوفَ والخُسوفَ لهما سَببانِ؛ سببٌ كَوْنِيٌّ طبيعِيٌّ، وسببٌ شَرْعِيٌّ وَحْيِيٌّ جاءَ عن طَرِيقِ الوَحْيِ.

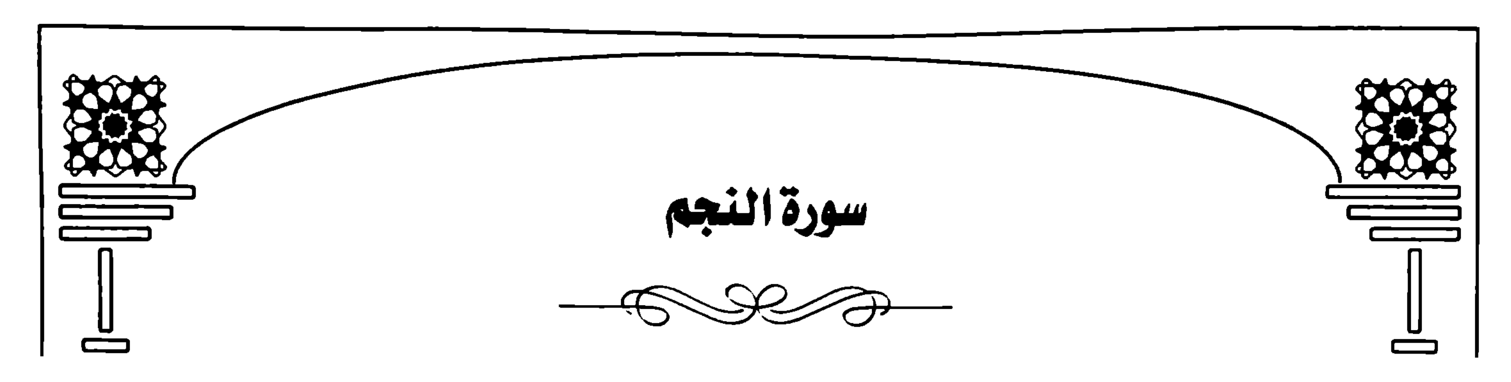
أما السببُ الكَونِيُّ الطَّبيعِيُّ؛ فإن سَبَبَ كسوفِ الشَّمْسِ هو أنَّ القمَرَ يَحُولُ بينَها وبينَ الأرضِ، فيُظْلِمُ الجانِبُ الذي حُجِبَ عنه نُورُ الشَّمْسِ بظِلِّ القَمْرِ، وكذا في خُسوفِ القَمَرِ، سببُه حَيْلُولَةُ الأرضِ بينَ الشمْسِ والقَمَرِ؛ لأن نُورَ القَمَرِ مُستفادٌ مِنَ الشَمْسِ، ولهذا كُلَّما قَرُبَ القَمَرُ مِنَ الشمسِ ضَعُفَتِ المُواجَهَةُ بينَه وبينَها، فقَلَّ النورُ الذي فيه، وكُلَّما ابتَعَدَ عن الشَّمْسِ كَبُرَتِ المُقابَلَةُ بينَه وبينَ الشمسِ، فكَبُرَ النورُ.

فإذا أَرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَخْسِفَ القَمَرَ، حالَتِ الأَرْضُ بينَهُ وبينَ الشَّمْسِ، وهذا أمرٌ مَعلومٌ، ولا أحدَ يَشُكُّ فيهِ، والذي أَوْجَدَ السببَ لحَيْلُولَةِ القمَرِ بينَ الشمسِ والأرضِ، وحَيلُولَةِ الأرضِ بينَ الشَّمْسِ والقَمَرِ هو اللهُ، أَوْجَدَهُ لِيُخَوِّفَ العبادَ بذلِكَ، وهذا هو السببُ الشَّرْعِيُّ الذي أخبرَنا عنه رَسولُ اللهِ ﷺ ولا يُمكِنُ أن يَعْلَمَهُ أحدٌ إلا عَنْ طريقِ الوَحْيِ.

أما الأَوَّلُ -وهو السببُ الطَّبِيعِيُّ- فهذا يَعرِفُهُ الناسُ كلُّهم حتَّى المُلْحِدُونَ الكافِرُونَ، لكنَّ السببَ الشَّرْعِيَّ الذي هو تَخويفُ العبادِ بهذِهِ الحادِثَةِ، لا يَعْلَمُهُ إلا مَنْ أَوْحاهُ اللهُ إليهِ، وهو رَسولُ الله ﷺ وعَلَى هذا: فإن أولئكَ القومَ الذينَ يَستَهِينُونَ بأَمْرِ الكُسوفِ والخُسوفِ، ويقولون: هذا أمرٌ طَبِيعِيٌّ لا يُهِمُّنَا، لا يَنْبَغِي أن نَهْتَمَّ بِهِ، فَهم يُشابِهُون هؤلاءِ المُشْرِكينَ الذين إذا رَأَوْا كِسْفًا مِنَ السماءِ سَاقِطًا قالُوا: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤].

قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور:٤٥-٤٦]، هذه الآياتُ العَظِيمَةُ التي إذا قَرَأَهَا الإنسانُ اسْتَنْتَجَ منْها صِحَّةَ ما جاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ وأنَّ اللهَ تَعالَى وَحْدَه هُو الخالِقُ، وهو الَّذِي له الأَمْرُ الكَوْنِيُّ والشَّرْعِيُّ.





سورة النجم

الدَّرسُ الأوَّل:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تَعالَى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ
ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ
بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ
أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾
عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا
طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١-١٨].

هذه الآياتُ الكريمةُ تُشيرُ إلى قِصَّةِ المِعْراجِ عِندَمَا عُرِجَ بالنَّبِيِّ ﷺ إلى السماواتِ السَّبْعِ، وكانَ ذلك وهُو في مَكَّةَ قبلَ الهِجْرَةِ بثلاثِ سنواتٍ أو بسَنَةٍ واحدَةٍ، وهذه الليلةُ ليلةُ المِعْراجِ لم يُحَدَّدْ زَمَنُها في أيِّ شَهْرٍ هي، أو في أيِّ ليلةٍ هِي، ومَا اشْتَهَرَ بينَ الناسِ مِنْ أنَّ ليلةَ المِعْراجِ في الليلةِ السابعَةِ والعشرينَ من شَهْرِ رجَبٍ، فلا أَصْلَ له من الناحِيَةِ التارِيخِيَّةِ، ولهذا فالأقربُ أن ليلةَ المِعْراجِ في رَبيعٍ الأوَّلِ قبلَ الهِجرَةِ إما بِسَنَةٍ وإما بثلاثِ سنواتٍ.

عُرِجَ بالنَّبِيِّ ﷺ من الأرضِ إلى السماواتِ العُلا حتَّى بَلَغَ مَقَامًا سَمِعَ فيه

صَريفُ الأقلامِ، الأقلامُ التي يَكْتُبُ اللهُ بها القضاءَ والقَدَرَ، هذا المِعْرَاجُ لا شَكَّ أنه مِنْ مَنَاقِبِ النَّبيِّ ﷺ ومِنْ فَضائلِهِ، ولهذا يَنْبَغِي لنَا أن نَشْكُرَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على هذِهِ النِّعْمَةِ التي أنْعَمَ اللهُ بها عَلَى نَبِيِّنا محمَّدٍ ﷺ؛ لأن نِعْمتَهُ عليهِ هِي في الحَقِيقَةِ نِعْمَةٌ علينَا، ثم إنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾، ما ضَلَّ في عِلْمِهِ، وما غَوَى في عَمَلِهِ، فالضَّلالُ بالنِّسْبَةِ للعِلْمِ، والغَيُّ بالنِّسْبَةِ للعَمَلِ، فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعطاهُ اللهُ العِلْمَ والحِكْمَةَ والعَمَلَ.

وقولُه: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ يَعْنِي بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، وإنما قال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يَقُلِ: النَّبِيُّ، كأنه يُشِيرُ إلى أن هذَا النَّبيَّ ليسَ غَرِيبًا عليكُمْ، ولكنَّه صاحبُكُم الذي تَعْرِفونَهُ، وتَعرِفونَ صِدْقَهُ، وتَعْرِفونَ أَمانَتَهُ.

قال تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ يعْنِي: لا يُمْكِنُ أن يَنْطِقَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم- عن الهَوَى، إنما يَنْطِقُ بوَحْيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، يَعْنِي: عَلَّمَهُ إياهُ شديدُ القُوَى، وهو جِبريلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذُو هَيئَةٍ حَسَنَةٍ، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم:٦]، فِعْلًا، ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾، حيثُ إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ في الأُفُقِ عَلَى خِلْقَتِهِ التي كانَ عليهَا، وله سِتُّ مِئةِ جَناحٌ قد سَدَّ الأُفُقَ(١)، ورَآهُ كذلك مَرَّةً أُخْرَى عندَ سِدْرَةِ المُنْتَهى

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، رقم (٣٢٣٢)، مسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤).

على صُورتِه التي خَلَقُه اللهُ عليهَا، وله سِتُّ مِئةِ جَناحٍ[1]، فتعالى اللهُ المَلِكُ الحقُّ، فهذا المَخْلُوقُ العظِيمُ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ﴿دنَا﴾: أي شَدِيدُ القُوى وهو جِبرِيلُ، ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي فنزَلَ، فكانَ قابَ قَوسَيْنِ أو أَدْنَى، أي: كانَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْرَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ.

قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، أَوْحَى جبريلُ بما جاءَ بِهِ مِنْ وحْيِ اللهِ إلى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم، فأَوْحَى إليهِ ما أَوْحَى، وهنَا الإبهامُ قال العلماءُ: إنه للتَّعظيمِ، لم يقُلْ: أوْحَى إليه القُرآنَ، قالَ: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ مِنْ ذلِكَ الوَحْيِ العَظِيمِ، والإبهامُ يأتي للتَّعْظيمِ أحيانًا، فَفيهِ دليلٌ على عِظَمِ القُرآنِ حيثُ أَبهَمَهُ وأوقَعَهُ مَوقِعَ التَّفْخِيمِ والتعظِيمِ. كما في قولِهِ تَعالَى عَنْ آلِ فِرْعونَ: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]، أي: غَشِيَهُم أمرٌ عظيمٌ وهو ذلكَ الماءُ الَّذِي أَغْرَقَهم وأَهْلَكَهُم عن آخِرِهِمْ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، القَلْبُ ما كَذَبَ ما رَأَتْهُ العَينُ، أي: أنه طابَقَ وَعْيُهُ لِمَا رَأَتْهُ عَيْنُهُ، وهذا دَليلٌ على ثباتِ النَّبِيِّ ﷺ، إذ إنَّ الأَمْرَ ليسَ بالهَيِّنِ، صُعِدَ بـه مِنَ الأرضِ إلى السماواتِ العُـلا، ومعَ ذلِكَ كانَ ثابِتَ القَلْبِ بحيثُ لَمْ يَتَصَوَّرْ إلا مَا رَأَتْهُ عينُهُ حقيقَةً.

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾، وهذا الاستِفهامُ للإنكارِ على قُرَيشٍ الذين مارَوا النَّبِيَّ ﷺ على ما رَآهُ بِعينِهِ وعَلِمَهُ بقَلْبِهِ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٧، رقم ٣٨٦٢).

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ رأى النَّبيُّ ﷺ جبريلَ نَزلَةً أخرَى، أي: مرَّةً أُخْرى نازِلًا، ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، وسِدْرَةُ المُنْتَهى سِدْرَةٌ عَظِيمَةٌ وصَفَهَا النَّبِيُّ ﷺ بصِفاتٍ عَظيمَةٍ، ويَدُلُّ لذلكَ قولُهُ تَعالَى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾، أي: غَشِيَهَا أَمرٌ عظيمٌ، لا يَكادُ أحدٌ يَصِفُها من البَهاءِ والحُسْنِ، فإنَّ اللهَ تَعالَى كَساهَا في ذلِكَ الوقتِ، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَنْظُرُ إليها مِنَ البهاءِ والحُسْنِ ما لا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يَصِفَهُ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾، ﴿مَا زَاغَ﴾ أي: ما زَلَّ عمَّا حُدِّدَ لَهُ، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: ما تجاوَزَ، فكانَ ﷺ على جَانِبٍ عظِيمٍ مِنَ الأدبِ، ما رَفَعَ بصَرَهُ إلى شيءٍ لم يُؤْذَنْ له فِيهِ، ولا تجاوزَهُ، بل كانْ على نِهايَةِ الأدَبِ -صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا أَدَبٌ مُسْتَحْسَنٌ في العُقولِ أنْ يكونَ الإنسانُ أدِيبًا، لا يَنْظُرُ إلى مَا لم يُؤْذَنْ له فيهِ.

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، أي: رَأَى مِنَ الآياتِ العظِيمَةِ ما هو عَظِيمٌ جِدًّا، ثم انتقَلَ اللهُ بعدَ ذلِكَ إلى الاستفهامِ على سَبيلِ السُّخْرِيَةِ وعلى سَبيلِ الضَّعْفِ والهوانِ لأَصنامِ قُريشٍ فقالَ:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ أي: أخْبِرُونِي ما شَأْنُها هذِهِ الآلهةِ الَّتِي زَعَمْتُموها؟ ما شَأْنُها وما عَظَمَتُها بالنِّسْبَةِ إلى عظَمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ إنَّها ليستْ بشيءٍ. ولهذا أتَى بالاستِفْهامِ المقرِّرِ لهوانِها وذُلِهَا، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾، وفي هذا دليلٌ واضِحٌ على أن كلَّ مَن اتَّخَذَ معَ اللهِ آلهةً يَدْعُوهَا مِن دُونِ اللهِ، ويَعْبُدُهَا من دُونِ اللهِ، ويَذْبَحُ لها ويَنْذِرُ، ويَسْجدُ لها ويَرْكَعُ، فإنه قَدْ اتَّخَذَها إلهًا بغيرِ حَقٍّ، ويكونُ بذلك مُشْرِكًا باللهِ، حتى لو صَامَ ولو صَلَّى ولو جاءَ إلى مَكَّةَ لِيَعْتَمِرَ أو لِيُحَجَّ، بل مَنْ كانَ على هذِهِ

العَقيدَةِ وهي الشِّرْكُ وتَعْظِيمُ أصحابِ القُبورِ تَعْظِيمًا لا يَلِيقُ إلا باللهِ، فإنه مُشْرِكٌ يَحْرُمُ عليه أن يَدْخُلَ مَكَّةَ لقولِ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة:٢٨].

فعلى المَرْءِ الَّذِي مَنَّ اللهُ عليه بالحُضورِ إلى هذَا البيتِ في الحَجِّ أو في العُمرَةِ عليه أن يَتوبَ إلى اللهِ، وأن يُخْلِصَ العبادَةَ لَهُ، وألَّا يتَّخِذَ وَلِيًّا من دُونِهِ، لا مَلَكًا مُقَرَّبًا ولا نَبِيًّا مُرْسَلًا، حتى رسولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ اللهُ لَهُ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وفي آيةٍ أُخْرَى قدَّمَ الضَّرَّ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٤٩]؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يَمْلِكُ لنَفْسِهِ جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ولا دَفْعَ مَضَرَّةٍ، ومَن لا يَمْلِكُ ذلك لِنَفْسِه لا يَملِكُهُ لغيرِهِ، ولهذا قالَ اللهُ لهُ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١]، فأنا لا أَمْلِكُ أن أدْفعَ عَنْكُم ضَرًّا، ولا أن أَجْلُبَ إِلَيكُمْ رَشَدًا، بل أَبْلَغُ مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢٢]، يعني: لو أَرَادَنِي اللهُ بسُوءٍ فلا أَحَدَ يُجِيرُنِي مِنَ اللهِ، فأنا بنَفْسِي لا أَحَدَ يُجِيرُنِي مِنَ اللهِ لو أرادَ اللهُ بِي سُوءًا، فكيفَ أَملِكُ أن أُجِيرَكُم أنتُمْ، وبهذا عَلِمَ أن الذينَ يتعَلَّقُونَ بغيرِ اللهِ مِنَ الرُّسِلِ، يتَعَلَّقُونَ بغيرِ اللهِ، سواءٌ تَعَلَّقُوا بالرُّسلِ أو بأَحَدٍ مِنَ الملائكَةِ أو بأَحَدٍ مِمَّنْ يَزْعُمُونَهم أولياءَ؛ فإنَّهم تَعَلَّقُوا بغيرِ مُتَعَلَّقٍ؛ لأنه لا يَنْفَعُنَا مِنَ التَّعَلُّقِ برَسولِ اللهِ ﷺ إلا اتِّباعُ شَرِيعتِهِ، هذا هو الذي يَنْفَعُنَا حَقِيقَةً إذا اتَّبَعْنَا شَريعَتَهُ وحَكَّمْناهَا فيما بينَنَا انتَفَعْنَا بذلِكَ، أما أنَّ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَدْفَعُ عنَّا ضَرًّا أو يَجْلُبَ لنَا نَفْعًا فذلِكَ أَمْرٌ نَفاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فإذا كانَ محمَّدٌ ﷺ وهو أعظَمُ النـاسِ جَاهًـا عندَ اللهِ، وهو سَيِّدُ الخَلْقِ ﷺ لا يَملِكُ ذلِكَ، فما بالُكَ بمَنْ هو دُونَهُ بمَراحِلَ عظِيمَةٍ، فإنَّه لا يَكونُ مَالِكًا لهذا أبَدًا، فلا يَجوزُ للمَرْءِ أن يُعَلِّقَ حاجَاتِهِ بغيرِ رَبِّه.

قد يقولُ قائلٌ: إننا أحْيانًا نأتِي صاحبَ القَبْرِ ونستَغِيثُ بِه، ونَنتَفِعَ بذلِكَ؟

فنَقولُ: هذا أَمْرٌ قد يُصِيبُ، ولكنه ليسَ حَاصِلًا بسَبَبِ دُعائِهِمْ لصاحِبِ القَبْرِ، ولكنه حَصَلَ عنْدَه لا بِهِ فِتْنَةً لهؤلاءِ؛ فإنَّ اللهَ تَعالَى قد يُيَسِّرُ للمرءِ أسبابَ المَعصِيَةِ فتْنَةً له؛ ليَخْتَبِرَهُ، فهذا إذا صَحَّ بأنهم إذا استَغَاثُوا بأصحابِ القُبورِ أُغِيثُوا، فإنَّهم لم يُغَاثُوا مِنْ قِبَلِ صاحبِ القَبْرِ؛ لأن صاحبَ القَبْرِ مَيِّتٌ، وهو نفْسُهُ يَحتاجُ إلى مَن يَدْعُو له، فكيفَ يُدْعَى مِن دونِ اللهِ، فإنَّ اللهَ تَعالَى يَبْتَلِيهِمْ حيث يُقَدِّرُ أَسبابَ إغاثَةِ هؤلاءِ بأُمورٍ أُخْرَى غيرِ دُعاءِ هؤلاءِ المَقْبُورِينَ، ولكنه يكونُ عندَ دُعاءِ هؤلاءِ فِتْنَةً لهم، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَكيمٌ عَلِيمٌ.

فالمُهِمُّ: أنه وَاجِبٌ على المَرْءِ أن يُوَحِّدَ اللهَ حَقِيقَةً في العِبادَةِ والقَسَمِ، وأن يَكونَ دَائِمًا على ذِكْرٍ مِنْ قولِ الشاعِرِ[1]:

رَبُّ العِبادِ إِلَيْهِ الوَجْـهُ وَالعَمَـلُ

فهو الَّذِي يَتَوَجَّهُ إليه الناسُ ويَعْمَلونَ لَه ويَعْبُدونَهُ ويَرْجُونَهُ.

وإنَّني وأنا أَنظُرُ إلى هذا الجَمْعِ العظِيمِ في هذِه الليلةِ التي يُرْجَى أن تكونَ ليلَةَ القَدْرِ، أنظُرُ إلى هذا الجمعِ العظِيمِ وأقولُ: ما ظَنُّ المرءِ لو كانوا كلُّهم على سُنَّةٍ صحِيحَةٍ، وعلى تَوحيدٍ خالِصٍ، وعلى اتِّباعٍ مَشْرُوعٍ، لو أنَّهم كانوا على ذلِكَ فإنَّني

---

(١) الصاحبي (ص:١٣٣-١٣٤).

واثِقٌ بأنهم لن يُغْلَبُوا أبدًا؛ لأن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**لَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ**»(١)، كيفَ والذي في المَسْجِدِ الحرامِ يُقارِبُ في هذِه الليلَةِ أَرْبعَ مِئةِ أَلْفٍ أو نحوَ ذلك، ومعَ هذا فإنَّنا كَما تُشاهِدُونَ بالنِّسبَةِ لغيرِنا مِنْ دُولِ الكُفْرِ لا نُعْتَبَرُ في عِزٍّ؛ لأنَّنا في الحقيقةِ أَضَعْنَا فأضَاعنَا اللهُ، ونَسِينَا اللهَ عَزَّوَجَلَّ فنَسِينَا، أَنْسانَا أَنْفُسَنَا في الواقِعِ، فالَّذِي أَرْجوهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذِه الليلةِ أن يُصْلِحَ للمُسلِمِينَ عُلماءَهُم؛ لأن العُلماءَ عليهِمْ مدارٌ كَبيرٌ في توجِيهِ الناسِ، فنحن هنا في المَمْلكَةِ العربيةِ السُّعوديةِ -وللهِ الحمدُ- مَوضِعُ ثِقَةٍ بينَ العَالَمِ الإسلامِيِّ، ولكننا وإن كنَّا كذلِكَ، قدْ لا يَقْبَلُ منَّا عَوامُّ هذا العالَمِ الإسلامِيِّ كلَّ ما نَقُولُ، فالمَسئوليةُ إذن على عُلماءِ العالمِ الإسلامِيِّ، وهم مَسْؤُولونَ أمامَ اللهِ عمَّا يَحْدُثُ مِنْ عَوامِّهِمْ، ففيهِمْ مَن يُشْرِكُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ ويَعْبُدُ القُبورَ ويستَغِيثُ بِهِمْ، فيَجِبُ عليهم أن يَقُومُوا للهِ مَثْنَى وفُرادَى، وأن يَقولوا كَلِمَةَ الحقِّ وإن أَغْضَبُوا الدَّهماءَ مِنَ العامَّةِ، فإن هؤلاءِ الدَّهماءَ من العامَّةِ إذا غَضِبُوا يومًا، فإن مَنْ بيَدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ يُرضِيهِمْ؛ لأن مَنِ التَمَسَ رِضَا اللهِ بسَخَطِ الناسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأَرْضَى عنه الناسَ، وأما مَنِ التَمَسَ رِضَا الناسِ بسَخَطِ اللهِ، فإن اللهَ يُقَلِّبُ عليهِ القُلوبَ، ويُسْخِطُ عليهِ الناسَ، فأَدْعُو نَفْسي وإخوانِي العُلماءَ أن يَتَّقُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وأن يقُومُوا للهِ قيامَ مُخْلِصٍ داعٍ إلى ربِّه على بَصيرَةٍ حتى يَنْصُرَهُم اللهُ، وحتى يُقِيمَ بِهِم المِلَّةَ ويَنْصَحَ بهم الأُمَّةَ، وتكونَ الأُمَّةُ الإسلاميةُ في أقطارِ الدُّنْيا كلِّها على بَصِيرَةٍ ويتَحَقَّقَ بذلكَ قولُ اللهِ تَعالَى للنَّبيِّ ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٤، رقم ٢٦٨٢)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب فيما يستحب من الجيوش والرفقاء والسرايا، رقم (٢٦١١)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب السرايا، رقم (٢٨٢٧).

ولْيَعْلَم هؤلاءِ العلماءُ الذين عليهِمْ مَسؤوليةُ نَشْرِ العِلْمِ والدَّعْوةِ إلى اللهِ أنَّهم وإن أَغْضَبُوا مَن يَغْضَبُ مِنْ وُلاةِ أمُورِهِمْ، فإنَّ ذلك لن يَضُرَّهُم شيئًا إذا قامُوا للهِ، فالعاقِبَةُ ستكونُ للمُتَّقِينَ، يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، القائلُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ وهو أَصْدَقُ القائلينَ، وأَقدَرُ القائلينَ على تَنفيذِ ما قالَ، وهو الذي لا يُخْلِفُ المِيعادَ، أوجَبَ على نفْسِه أن يَنْصُرَ المُؤْمِنِينَ، ولكن أينَ المُؤمِنُ حَقًّا؟ الذي يَقولُ: سأَقولُ كَلِمَةَ الحَقِّ رَضِيَها مَن رَضِيَهَا، وغَضِبَ منها مَنْ غَضِبَ، ولْيَعْلَمِ المرءُ أن نَصْرَ اللهِ إياهُ يكونُ في الدُّنيا ويكونُ في الآخِرَةِ، وذلك بأنْ يَنْصُرَ مَقالَتَهُ التي قالَها فيكونُ بذلِكَ أحيا سُنَّةً من سُنَنِ الرسولِ ﷺ.

ثم إنَّ عليكُمْ أيها المُسلِمُونَ الذين تَعْلَمُونَ خطَرَ هذِهِ القُبورِ، وخَطَرَ عِبادَتِها مما تَسْمَعونَ من عُلماءِ هذه المَمْلكَةِ وغيرِهِمْ من عُلماءِ المُسلِمينَ الصالِحِينِ، عليكُم أن تُرْشِدُوا أيضًا إِخْوانَكُم لهذا الأمرِ العظِيمِ حتى تَصْلُحَ الأُمَّةُ الإسلامِيَّةُ صَلَاحًا على ما جَرَى عليهِ سَلَفُها؛ فإنَّه لن يُصْلِحَ آخِرَ هذا الأُمَّةِ إلا ما صَلَحَ عليه أَوَّلُها[1]، كما قالَ الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ، أما كَونُنَا نَسْكُتُ ونَخْشَى مِن غَضَبِ الدَّهماءِ والعامَّةِ ووُلاةِ الأمورِ، فإن هذا خَطَرٌ عظيمٌ على المُجْتمعِ الإسلامِيِّ، وأنا واثِقٌ كلَّ الثِّقةِ بأنه إذا صَلَحَ العلماءُ وَوَجَّهُوا العامَّةَ إلى ما فيهِ الصَّلاحُ والرشادُ، فإن الوُلاةَ سوفَ يَنْضَمُّونَ إليهم وسوفَ يَصْلُحونَ؛ لأن الوُلاةَ ولا سِيَّما الذين لا يَرْعُونَ حُرمَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يَخافُونَ اللهَ إنما يُحافِظُونَ على ما يَحْفَظُ لهم مَراكِزَهُم، إذا رَأَوْا أنَّ العامَّةَ قد صَلَحَتْ اضطَرُّوا إلى أن يَصْلُحُوا تبَعًا لهم، ولو كان ذلك على سبيلِ المُداهَنَةِ والنِّفاقِ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٩٦)، وإغاثة اللهفان (١/ ٢٠٠).

وهنَا -وللهِ الحمدُ- في المَمْلَكَةِ، الحكومَةُ لا تَألُو جُهْدًا في مُناصَرَةِ الدُّعاةِ ومُساعَدَتِهِمْ، ولكنَّ الَّذِي يُخْشَى منه هو الانْدَفاعُ الذي لا ضَوابِطَ لهُ، والذي يُرِيدُ منه الداعِيَةُ أن يَعْسِفَ الناسَ قَصْرًا إلى أن يكونُوا على الحَقِّ دَفْعَةً واحِدَةً، ويَنْسَى أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وهو الحكيمُ العَليمُ الَّذِي أرسلَ الرسولَ مُؤَيَّدًا بالآياتِ البيناتِ، يَنْسَى أنه جَعَلَ الشريعةَ على التَّدْرِيجِ شَيئًا فشيئًا حتى صَلَحَ الناسُ واستَقَامَتِ الأمورُ.



الدَّرسُ الثَّاني:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قولُه تَعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١].

هذا قَسَمٌ، صِيغتُه الواوُ، وأكثرُ ما يُقسَمُ بهِ منَ الحروفِ الواوُ.

وقد يُقْسَمُ بالتاءِ، كقولِه تَعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء:٥٧]، تاللهِ بمعنَى واللهِ، ويُقْسَمُ بالباءِ كثيرًا أيضًا كقولِه تَعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام:١٠٩].

والمرادُ بالنجمِ، ليسَ مَخصوصًا بنَجْمٍ مُعَيَّنٍ، إنما هوَ عامٌّ، وقيلَ: إنهُ الثُرَيَّا، وهيَ الأَنْجُمُ المُجْتَمِعةُ التي يَعرِفُها الكثيرُ منَ الناسِ، والصوابُ أنها عامٌّ.

قولُه: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾، قيلَ: إذا غابَ، وقيلَ: إنَّ المرادَ بهِ الشُّهبُ التي تُرسَلُ على الشياطينِ الذينَ يَسْتَرِقُونَ السَّمعَ، وإذا كانَ اللفظُ صَالِحًا لِلْمَعْنَيَيْنِ فإنهُ يُحملُ عليهما، للقاعدةِ المعروفةِ: «إذا كانَ نصُّ القرآنِ أو السُّنَّةِ يَحْتَمِلُ مَعْنيَيْنِ لا يُنافي أَحدُهُما الآخرَ؛ فإنهُ يُحْمَلُ على المَعْنيينِ» **وذلكَ لسببينِ:**

الأولُ: أنهُ أَعَمُّ وأشملُ.

الثاني: أنهُ أبرأُ للذِّمةِ وأَحوطُ.

أما إذا كانَ أَحَدُهما يُنافي الآخرَ، فإننا نَنْظُرُ أَيُّهما أرجحُ، ونأخُذُ بالراجحِ.

قولُه تَعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢].

هذا هوَ المُقْسَمُ عليهِ، وهو انتفاءُ ضَلالِ النبيِّ ﷺ وغَيِّهِ.

فإن قيلَ: ما الفرقُ بينَ الضلالِ والغَيِّ؟

قلنَا: الفرقُ أن الخَطَأَ عن جهلٍ يُسَمَّى ضلالًا، والخطأُ عن عِلْمٍ يُسَمَّى غَيًّا، فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما ضلَّ، ولم يَتكَلَّمْ عن جَهْلٍ فيما تكَلَّمَ بهِ مِن أمرِ المِعْراجِ، وما غَوَى: أي ما تَعَمَّدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَتكَلَّمَ عن خَطَأٍ.

وهنا يَرِدُ سؤالٌ: في قولِـه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ لماذا لم تكنِ العبـارةُ ما ضلَّ مُحَمَّدٌ وما غوى؟

الجوابُ: لأنَّ قولَه: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ وإضافةُ صُحبتِه إليهِمْ، كإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، فكأنهُ قالَ: صاحبُكم الذي تَعرِفونَه، وتعرفونَ صِدقَه، وتعرفونَ أَمانتَه، حتى كُنتُم تُسمونَه قبلَ البَعْثةِ بالأمينِ، فصارَ بعدَ البَعثةِ مَوْصوفًا بالكَذِبِ عندكُم.

قولُه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم:٣].

أي لا يَتكلَّمُ كلامًا صادرًا عن هَوًى، وإنما يَتكلَّمُ بالحقِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٤]، أي ما جاءَ بهِ مِن القرآنِ، إلا وَحْيٌ يُوحَى مِن قِبلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ [النجم:٥-٧].

وقولُه: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾، هوَ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قولُه: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي ذُو هَيئةٍ حَسَنةٍ.

قولُهُ: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ أي كَمَلَ.

وقولُه: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، ولهذا رآهُ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم على صُورتِه التي خُلِقَ عليها مَرَّتينِ، مرةً وهوَ في غارِ حِراءٍ، «رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لَهُ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ»(١)، فجِبْريلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كغيرِه منَ الملائكةِ لهُ أَجْنِحةٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ [فاطر:١].

ورآهُ مرةً أُخرَى عندَ سِدرةِ المُنْتَهى على صُورتِه التي خُلِقَ عليهَا لهُ ستُّ مئةِ جَناحٍ قد سدَّ الأفقَ، فعنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالَ «رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الأُفُقَ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَاليَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ»(٢).

قولُه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم:٨-١٠].

ثم دَنَا جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتَدَلَّى، أي نَزَلَ، فكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى فأَوْحَى إلى عبدِ اللهِ -محمدٍ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلمَ- ما أوحَى.

وقولُه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ أتى هنا بصِيغةِ الإبهامِ تَعْظيمًا لشأنِه، كقولِه تَعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ [طه:٧٨]، لتعظيمِه وتهويلِه.

قولُه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١].

أي أنَّ فُؤادَ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما كَذَبَ الذي رَأَى، بل ما رآهُ النبيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي، تفسير القرآن، سورة والنجم، برقم (٣٢٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥، رقم ٣٧٤٨).

واستقرَّ في فُؤادِهِ فهوَ الحقُّ، فالبَصَرُ ما زاغَ، والفؤادُ ما كَذَبَ.

قولُه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم:١٢].

الخطابُ في قولِه: تمارونَ، يَعودُ على قريشٍ، الذينَ ماروُا الرسولَ ﷺ على ما رآهُ، وكَذَّبُوه وصارُوا يُناقِشونَهُ.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]، الفاعلُ في ﴿رَءَاهُ﴾ الرسولُ ﷺ، ومفعولُ ﴿رَءَاهُ﴾ جبريلُ، و﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾: أي نازلًا مَرَّةً أُخْرَى.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٤-١٨].

قولُه: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾، يعني مِنَ الجمالِ والحسنِ، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾، أي ما مَالَ يَمِينًا وشِمالًا، ولا طَغَى: فنظَرَ إلى ما لم يُؤْمَرْ بهِ، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، لقد أَراهُ مِن آياتِ ربِّه الكبرَى.

الإسراءُ والمعراجُ:

هذهِ الآياتُ في قصةِ المِعْراجِ، والنبيُّ ﷺ حدَثَ لهُ الإسراءُ والمِعْراجُ في ليلةٍ واحدةٍ، والكلامُ هنا في أُمورٍ:

الأمرُ الأولُ: مِن أين كانَ إسراءُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ:

كانَ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم في مَكَّةَ حينَ أُسْرِيَ بِهِ وعُرِجَ بِهِ، وأُسْرِيَ بِهِ مِنَ الحِجْرِ الذي في الكعبةِ، وهذا مَعْنَى قولِهِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، وقد جاءَ في بعضِ الرواياتِ أنهُ أُسْرِيَ بِهِ منْ بَيتِ أُمِّ هانِئٍ، وجَمَعَ بينَ الرِّوايَتَيْنِ الحافظُ ابنُ حجرٍ

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بأنهُ صلى الله عليه وعلى آله وسلم كانَ نائمًا في بيتِ أُمِّ هَانِئٍ، ثم انتقَلَ فنَامَ في الحِجْرِ، ثم عُرِجَ بِهِ منَ الحِجرِ، وعلى هذا فيَكونُ قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي مَسْجِدِ مَكَّةَ، وليسَ مِن بيتِ أُمِّ هانِئٍ، وهذا هوَ المُناسِبُ تمامًا، أن يُسرَى بِهِ مِن مَسْجِدٍ إلى مَسْجِدٍ، من المَسْجِدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصَى.

الأمرُ الثاني: متى كانَ المعراجُ:

ليسَ هناكَ شيءٌ ثابتٌ في الأحاديثِ والآثارِ، وأقربُها إلى الصحةِ أنهُ كانَ في ربيعِ الأولِ، وهوَ شَهرُ المَبْعَثِ، وشهرُ المَوْلِدِ، وشهرُ المَمَاتِ، علي خِلافٍ في كونِه شَهرًا للمَوْلِدِ، وعلى كلِّ حالٍ أقربُ ما يقالُ في المِعْراجِ والإسراءِ أنهُ كانَ في ربيعٍ الأولِ، وكانَ قبلَ الهجرةِ بثلاثِ سنواتٍ.

ثالثًا: هلِ المِعْراجُ بالرُّوحِ، أم بالجَسَدِ، أم بهما معًا:

المِعْراجُ كانَ بجَسَدِه ورُوحِه؛ لقولِه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ولم يَقُلْ: برُوحِ عَبْدِه، ولأنَّ قُريشًا أنكرتِ المِعْراجَ والإسراءَ، ولو كانَ بالرُّوحِ لم تُنْكِرْهُ؛ لأنَّ المَنامَ أوِ الرُّؤْيا لا يُنْكِرُها أحدٌ، فالصحيحُ أنهُ أُسْرِيَ بجَسَدِه ورُوحِه.

رابعًا: هلِ الإسراءُ والمِعْراجُ كانَا في ليلةٍ واحدةٍ، أو كلٌّ مِنهما في ليلةٍ:

كانَ الإسراءُ والمِعْراجُ في ليلةٍ واحدةٍ، لكن ذُكِرَ أحدُهُما في سورةٍ في القرآنِ، وذُكِرَ الآخرُ في سورةٍ أخرَى.

فالإسراءُ ذُكِرَ في سورةِ الإسراءِ، قالَ تَعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، والمِعْراجُ ذُكِرَ في سُورةِ النجمِ.

هذا الإسراءُ والمِعْراجُ يُعْتَبَرُ من آياتِ اللهِ، ويُعْتَبَرُ منَ الشرفِ العظيمِ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإنهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سارَ مِن مكةَ إلى المسجدِ الأقصى على البُراقِ، بصُحْبةِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ والتقى بالأنبياءِ هناكَ، وصلَّى بهم إمامًا، معَ أنهُ آخِرُهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ إظهارًا لشرفِه، وأنهُ إمامُ الأنبياءِ[1].

ولهذا أَخَذَ اللهُ على كلِّ نبيٍّ أن يُؤْمِنَ بمحمدٍ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلمَ، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران:٨١]، فالنبيونَ أَخَذَ اللهُ عليهمُ المِيثاقَ، وهوَ العهدُ الثقيلُ، أنهُ إذا جاءَهُم رسولٌ مُصدِّقٌ لما مَعَهُم فليُؤمنُوا بهِ ولينصرُوه، والذي جاءَ مُصدِّقًا لمَنْ سَبَقَهُ منَ الأنبياءِ هوَ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، جاءَ مُصدِّقًا لكلِّ مَن سَبَقَهُ منَ الأنبياءِ، وآمرًا بالإيمانِ بهم، قالَ تَعالى: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

ولهذا إذا نَزَلَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخِرِ الزمانِ فسيَحْكُم بشَريعةِ النبيِّ ﷺ، فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ أَتَاهُ عُمَرُ، فَقَالَ: إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنْ يَهُودَ تُعْجِبُنَا، أَفَتَرَى أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا، فَقَالَ: «**أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا اتِّبَاعِي**»[2].

ثم إن جبريلَ عُرِجَ بهِ إلى السماءِ الدُّنيَا فاستفتحَ؛ لأنَّ السماءَ لها أبوابٌ لا ينالُها

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تَعالَى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾. برقم (٣٢٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧، رقم ١٥١٩٥).

كلُّ أحدٍ، فقيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جِبريلُ، قيلَ: ومَن مَعَكَ؟ قالَ: مُحمَّدٌ، قيلَ: قد أُوحِيَ إليهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قيلَ: مَرْحَبًا بهِ، فنِعْمَ المَجِيءُ جاءَ.

ففُتحتِ السماءُ الدُّنْيا، ثم الثانيةُ، والثالثةُ، والرابعةُ، والخامسةُ، والسادسةُ، والسابعةُ، حتى وَصَلَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى مكانٍ سَمِعَ فيهِ صَرِيفَ أَقْلامِ القَضاءِ والقَدَرِ، وصَرِيفُ الأقلامِ يعني أصواتَها حينَ الكتابةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، يُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُغني ويُفْقِرُ، ويُحيي ويُميتُ، ويداولُ الأيامَ بينَ الناسِ.

وَصَلَ إلى هذا المُنْتَهى إلى مكانٍ سَمِعَ فيهِ صَرِيفَ الأقلامِ، أقلامِ القضاءِ، وكَلَّمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بما كَلَّمَهُ بهِ بفَرْضِ الصلواتِ، وفَرَضَها عليهِ وعلى أُمَّتِه خمسينَ صَلاةً في اليومِ والليلةِ، فرَضِيَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، واستسلَمَ وامتثَلَ وأَذْعَنَ، ونَزَلَ حتى مرَّ بمُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقالَ لهُ: ماذا فَرَضَ ربُّكَ عليكَ وعَلَى أُمَّتِكَ؟ قالَ: «خَمْسِينَ صلاةً في اليومِ والليلةِ»، قالَ: إن أمتَكَ لا تطيقُ ذلكَ، اذهبْ إلى ربِّكَ فَاسْأَلْهُ التخفيفَ لأُمَّتِـك. فجعلَ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُراجِـعُ اللهَ حتى وَصَلَتْ إلى خَمْسٍ لكنها خمسٌ بالفعلِ وخمسونَ في الميزانِ[1].

وليسَ هذا مِن بابِ أن الحَسَنةَ بعَشْرِ أَمْثالِها؛ لأن هذا في كلِّ عِبادةٍ، ولكن هذهِ الصلواتُ الخمسُ، تكونُ كالصلواتِ الخمسينَ في الفعلِ، بمعنى أنهُ يُؤْجَرُ أَجْرَ كلِّ صلاةٍ خَمسينَ صلاةً.

(١) أخْرَجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فُرِضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٣).

الدَّرسُ الثَّالِثُ:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قالَ اللهُ تَعَالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:١-٤]، إِلَى آخِرِ الآياتِ.

قَولُهُ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، هَذا قَسَمٌ، أَقْسَمَ اللهُ تَعالَى بِالنَّجْمِ حينَ يَهْوِي، والنَّجْمُ هُنا اسمُ جنسٍ، وليسَ نَجمًا مُعَيَّنًا، لَا الثُّريا، ولَا غيرهَا؛ بَل هوَ اسمُ جنسٍ يَعُمُّ كلَّ نجمٍ هَوَى، و﴿هَوَىٰ﴾ إمَّا أنْ تكونَ بِمعنَى غابَ، وإمَّا بمعنَى سقطَ، وكِلاهمَا صحيحٌ.

وإنما أَقْسَمَ اللهُ بالنجمِ عَلى صِحَّةِ مَا جاءَ بِهِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى جَعلَ النجومَ رُجومًا لِلشَّياطينِ، تَرْجُمُ الشياطينَ الَّتي تَسْترِقُ السمعَ وتَأْتيه إِلى الأرضِ.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢]، مَا ضلَّ فِي عِلْمِهِ، ومَا غوَى فِي عَمَلِه، والضَّلالُ ضدُّهُ العلمُ، والغيُّ ضِدُّهُ الرُّشْدُ، فَأقْسَمَ اللهُ تَعالَى بِالنجمِ إذَا هَوَى بأنَّ محُمدًا صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ مَا ضَلَّ فِي عِلْمِهِ، ومَا غوَى فِي عَمَلِهِ؛ بَل صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ هوَ أَعْلَمُ الخلقِ بِشريعةِ اللهِ، وأَهْدَى الخلقِ وأَرْشَدُهم فِي دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والنبيُّ ﷺ عَلى غايةٍ منَ الكمالِ فِي العلمِ، وغايةٍ فِي الكمالِ فِي الرُّشدِ، صَلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ.

وقولهُ: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ يَعني بِذلكَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ، وفيهِ التَّمجيدُ الظاهرُ بكفارِ قريشٍ الذينَ كذَّبوا بالنبيِّ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ وقالُوا: إنَّه ساحرٌ، وشاعرٌ، وكاذبٌ، ومجنونٌ، ووجهُ ذلكَ أنهُ قالَ: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، كأنهُ قالَ: إنهُ صَاحبُكمُ الَّذِي تَعرِفونهُ، تَعرِفونَ صِدْقَهُ، تَعرِفونَ أَمانتَهُ، تَعرِفونَ رُشدَهُ، فَهو مَا ضلَّ، وَمَا غوَى، ومَا يَنطِقُ عنِ الهوَى، النُّطقُ عنْ قَولِ اللسانِ، والهوَى مَا يَهواهُ الإنسانُ وَيُريدهُ.

وثَمَّةَ فرقٌ بينَ قولهِ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ وبينَ قولِنَا: مَا يَنطِقُ بِالهَوَى، وهوَ فَرْقٌ ظاهرٌ، فَمَعْنَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، أَيْ: إِنَّ نُطْقَهُ ليسَ صادرًا عنْ هَوًى؛ ولكنهُ صَادِرٌ عنْ وَحْيٍ؛ ولذلكَ قالَ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، فهوَ ﷺ لم يَنْطِقْ عنِ الهَوَى، بلْ عنْ وَحْيٍ.

وقولُهُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، إنْ قالَ قائلٌ: عَلامَ يَعودُ الضَّميرُ (هو) فِي الآيةِ؟

قُلْنَا: قيلَ: إنَّه يَعودُ عَلى النُّطقِ المَفهُومِ مِن قولِهِ: ﴿يَنطِقُ﴾؛ أَي: يَعودُ عَلى مَا يَنْطِقُ بِهِ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مِن عِندِ نَفْسِهِ، وأنَّه لَا يَتكَلَّمُ إلَّا بوَحْيٍ؛ وذلكَ لأنَّ كلَّ فعلٍ يَشتمِلُ عَلى مَصْدَرٍ وزَمَنٍ، فيَكونُ الضميرُ فيهِ ﴿هُوَ﴾ يَعودُ عَلَى المَصْدرِ المفهومِ منَ المفعولِ، وهذَا كقولهِ تَعالى: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، (هوَ) أَي: العدلُ المفهومُ مِن كلمةِ: (اعدلُوا)؛ لأنَّ الفِعْلَ -كَما قُلتُ- يَتضَمَّنُ الدَّلالةَ عَلى المصدرِ وعَلى الزمنِ.

وقيلَ: إنَّ الضميرَ فِي قولِهِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، يعودُ عَلى القرآنِ؛ لأنَّ

اللهَ تَعالَى قالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢]، وهذَا القولُ الثَّاني هوَ الراجحُ، وهوَ الذِي اختارهُ إمامُ المُفسِّرينَ ابنُ جَريرٍ(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وليسَ عائدًا إِلَى الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

لكنْ نَعْلَمُ عِلْمَ اليقينِ أنَّ النبيَّ ﷺ لا يَنْطِقُ عنْ هَوًى، وإِنَّما يَنْطِقُ عنِ اجتهادٍ، ثمَّ إنهُ أَحيانًا يكونُ اجْتهادُهُ اجتِهادًا مَأجورًا عليهِ، صَلواتُ اللهِ وسَلامهُ عليهِ، كقَولِه تَعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣]، فقَدَّمَ الحُكْمَ بِالعفوِ قبلَ ذكرِ الأمرِ الَّذِي كانَ النبيُّ ﷺ مُسْتَحِقًّا لِلعفوِ عنهُ.

وكَذلكَ قالَ اللهُ لهُ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس:١-٤]، فالذِي عَبَسَ هوَ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لكنِ انظُرْ إلى إكْرامِ اللهِ لرَسولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي هذَا الخطابِ حيثُ لمْ يَقُلْ: عَبَسْتَ؛ فَيُواجِهُهُ بهذهِ الكَلمةِ الَّتي تَشْمئِزُّ مِنْها النفسُ؛ لكنَّهُ قالَ: ﴿عَبَسَ﴾، فَأَتَى بِضميرِ الغَائبِ؛ تَكريمًا لِرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ أنْ يُخاطَبَ بِمثلِ هذَا.

وكذَلِك أَيضًا قالَ اللهُ لهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم:١].

وهذهِ الأَمثلةُ كلُّها تَدُلُّ عَلى أنَّ القولَ الرَّاجحَ فِي قَولِهِ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٤]، أنَّ الضَّميرَ يَعودُ فيهِ إِلى القُرآنِ؛ وَلِهَذَا قالَ بعدَهُ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وهوَ جبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أيْ: إنَّ جبريلَ عَلَّمَ الرسولَ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٨).

آلِه وسلَّمَ القرآنَ؛ لأنَّهُ يَنزِلُ بالقرآنِ منْ عندِ اللهِ علَى رسولِ اللهِ ﷺ كما قالَ تَعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣]، والرُّوحُ الأَمِينُ هوَ جِبريلُ، وإنَّما قالَ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ دُون أنْ يقولَ: عليكَ؛ معَ أنَّه قالَ ذلكَ فِي آياتٍ أخرَى؛ لِبيانِ أنَّ النبيَّ ﷺ وَعَى مَا يَنزِلُ بهِ جبريلُ وَعْيًا كاملًا؛ لأنَّ القلبَ هوَ محَلُّ الوَعْيِ والعقلِ.

﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾، هذا عطفُ بيانٍ لقولهِ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، والمِرَّة: الهيئةُ الحسنَةُ؛ ولهذَا كانَ جبريلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلى هَيئةٍ حَسنةٍ، رآهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ مرةً عَلى صُورتهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيها، حَيث رَآهُ ولَه ستُّ مئةِ جَناحٍ، قَد سَدَّ الأفقَ[1]، ملأَ الأفقَ كلهُ، وهَذا يَدُلُّ عَلى عظمةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ ولهذَا قالَ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾.

قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:٦-١٠]، استوى مَعْناها: كَمَلَ، أَي: ذُو هَيئةٍ حَسنةٍ فكَمَلَ بهذهِ الهيئةِ الحسنةِ، وإنَّما قُلنا: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ هُنا بِمَعنى: كَمَلَ؛ لأنَّ اسْتَوى لَهَا فِي اللُّغةِ أَربعةُ استِعْمالاتٍ:

الاستِعمالُ الأَوَّلُ: أنْ تَأتِيَ مُطْلقةً.

الاستعمالُ الثَّاني: أنْ تَتَعَدَّى بـ(إلى).

الاستعمالُ الثالثُ: أنْ تَتَعَدَّى بـ(على).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بَدْء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، رقم (٣٢٣٢)، مسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤).

الاستعمالُ الرَّابعُ: أنْ تَقْتَرِنَ بِالواوِ.

فإنْ جاءتْ مطلقةً، حينئذٍ تكونُ بمَعْنَى كَمَلَ، وَمنهُ قولهُ تَعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]، ومنهَا أيضًا قَوْلُنَا: إنَّ الطعامَ قدِ استوى، أي: كَمَلَ نُضْجُهُ.

وإنْ تَعدَّتْ بـ(على) فَهي بِمَعْنَى العلوِّ، ومنهُ قولهُ تَعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨]، وقالَ تَعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٣]، ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، أَي: تَرْكَبوا عَلَيها، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، أَي: إذا رَكِبْتُم عليهِ وَاسْتَقْرَرْتُمْ عليهِ.

وإنْ تَعدَّتْ بـ(إلى) فتكونُ بِمعنى قَصَدَ، يقولُ: استوَى إِلَى كَذا، أَي: قَصَدَ، ومنهُ قولهُ تَعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١]، أَي: قَصَدَ إِلَيْها؛ لِيَخْلُقَها عَلى وَجْهِ التمامِ، وهذَا أحدُ القولينِ فِي تفسيرِ هذهِ الآيةِ، والقولُ الثَّاني: أنَّ ﴿إِلَىٰ﴾ هُنا بِمَعنى (على)، فتكونُ منَ القِسْمِ الثَّاني.

وإنْ جَاءَتْ مَقرونةً بِالواوِ حينئذٍ تكونُ بِمعنى سَاوى، كَقولِهِمْ: استوَى الماءُ والخشبةُ، أَي: إنَّ الماءَ يَرْتَفِعُ فِي البئرِ حتَّى يَصِلَ إِلى الخَشَبةِ، أَيْ: إنَّ الماءَ سَاوَى الخشبةَ.

كلُّ هذهِ المعَانِي فِي اللُّغةِ العربيَّةِ، والذِي يُعَيِّنُ المَعْنَى المُرادَ هوَ السياقُ؛ لأنَّ السِّياقَ لهُ دَخْلٌ كبيرٌ فِي تَعْيينِ المَعْنَى، رُبَّ كَلِمةٍ واحدةٍ فِي سِياقٍ لا يكونُ لَهَا مَعْنًى، وفِي سياقٍ آخرَ تكونُ لَهَا مَعْنًى، فقولهُ تَعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا

فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، المرادُ بِالقريةِ: سَاكنوهَا، وقولهُ تَعَالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت:٣١]، المرادُ بِأهلِ هذهِ القريةِ: المَبانِي المُجْتمِعةُ، يَعني البَلَد، والَّذي عَيَّنَ أنْ تَكونَ القَرْيَةُ فِي الآيةِ الأُولى هيَ أهلَ القَرْيةِ، وفِي الآيةِ الثَّانيةِ هيَ البناءَ المُجتمِعَ؛ الَّذي عَيَّنَ ذلكَ هوَ السياقُ.

فيَجِبُ أنْ يُتَنَبَّه إِلى السياقِ؛ حيثُ إنَّ السياقَ هوَ الَّذي يُعَيِّنُ المعنَى المرادَ، ومِنْ ثَمَّ -وأَنَا لَا أُحِبُّ أنْ أَدْخُلَ فِي لُجَّةِ البحرِ؛ لكنْ لَا بأسَ أنْ نَغترِفَ غَرْفةً- قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّه لَا مجازَ فِي اللُّغةِ العربيةِ، ولا سِيَّما فِي القرآنِ الكريمِ[١]؛ وذلكَ لأنَّ المَعْنَى المَجازِيَّ يُعَيِّنُه أهلُ المَجازِ، هوَ حَقِيقيٌّ فِي سِياقِهِ، ولَا يُمْكِنُ أنْ يُرادَ بِهِ غَيْرُهُ، وعَلى هذَا فَما يَظْهَرُ منَ الكلامِ منَ المَعْنَى بحَسَبِ السِّياقِ يكونُ حَقِيقةً فيهِ.

ولهذَا؛ لوْ أَنَّك قلتَ: رأيتُ أَسَدًا يَحْمِلُ حَقِيبتَهُ لِيَذْهبَ إِلَى المدرسةِ، أَو: رأيتُ أَسَدًا يَحْمِلُ سِلاحَهُ لِيَذْهَبَ إِلى ساحةِ الوَغَى، وقلتَ: أَرَدْتُ بالأَسَدِ الحيوانَ المُفْتَرِسَ ذَا الأرجلِ الأربعِ؛ لَو قلتَ: إنَّ هذَا هوَ مُرادُكَ؛ لقالَ الناسُ: هذَا مُحالٌ، مُحالٌ أنْ يُرَادَ هذَا، فالمرادُ بِالأسدِ هوَ الرجلُ الشُّجاعُ، عَيَّنَ هذَا المعنَى السياقُ، فإذا تَعَيَّنَ المعنَى بِالسياقِ فلَا عليكَ منَ اللفظِ، هوَ حقيقةٌ فِي مَدْلولِهِ، وهَذا هوَ المُرادُ.

ومِنْ هُنا نَعرِفُ أنَّ مَا ذَهَبَ إليهِ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتِلْميذُهُ ابنُ القَيِّمِ[٢] مِنْ أَنَّهُ لَا مَجَازَ فِي اللغةِ العربيةِ؛ ولَا سِيَّما فِي القرآنِ الكرِيمِ؛ هوَ القولُ الرَّاجحُ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٧/ ٩٠).

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (ص:٢٨٥).

ولعلكَ تَقولُ: كيفَ نَصْنَعُ بقولِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف:٧٧]، فهلْ للجِدَارِ إرادةٌ؟ ولَا يَصِحُّ أنْ نقولَ: إنَّه لَيس لَه إِرادةٌ؛ إذْ كيفَ يقولُ ربُّ العَالمينَ: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، ونَحنُ نقولُ: ليسَ لهُ إرادةٌ؟! نَستغفِرُ اللهَ مِن هذَا، ولَا يَصْلُحُ أنْ نقولَ هذَا، والصَّوابُ أنْ نقولَ: لهُ إرادةٌ؛ ولكنَّ المُرادَ بِالإرادةِ كَذَا وَكَذَا؛ حتَّى لَا نَنْفِيَ مَا أثبتَ اللهُ، كَما قلنَا ذلكَ قبلُ فِي التفريقِ بينَ مَن يُنكِرُ الشَّيْءَ تَأويلًا، ومَن يُنكِرهُ تَكذيبًا، وأنَّ الإنسانَ لَو قَال: إنَّ اللهَ لَم يستوِ عَلى العرشِ كَفَرَ، ولكنْ لَوْ قالَ: استَوى؛ ولكنْ بِمَعنى استولَى؛ صارَ مُؤَوِّلًا.

فيَجِبُ علَينا أنْ نقولَ: بَلِ الجِدارُ لهُ إرادةٌ حقيقيةٌ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، وهلْ يُوجَدُ تَسْبيحٌ بِلَا إرادةٍ، ولَو وُجِدَ تَسْبيحٌ بِلَا إرادةٍ لَم يَكُنْ هَذا مَحَلًّا لِلثَّناءِ.

إذن؛ الجِدارُ لهُ إرادةٌ، وأَزيدُ عَلى هذَا أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا أقبلَ عَلى المدينةِ قالَ: «هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[1]، والمَحبَّةُ أَخصُّ منَ الإرادَةِ، والجبلُ جَمادٌ، وأثبتَ لهُ النبيُّ ﷺ وهوَ الصادِقُ المصدُوقُ، أَثْبَتَ أنَّ لهُ مَحبَّةً، فمَنِ الَّذي يقولُ: إنَّ الجدارَ ليسَ لهُ إرادةٌ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾، كلُّ شيءٍ يُسَبِّحُ بحمدِ اللهِ، فَالبَهائِمُ لَهَا إِرادةٌ، وقَد عَرَفنا ذَلك منَ الأدلةِ وَالواقعِ، تَأتي البَهيمةُ وأَوَّلُ مَا تَقْصِدُ وَلَدُها، وَكَذلك تَأتي إِلَى أُناسٍ فتَقْصِدُ صَاحِبَها الَّذي يُرَبِّيها، وهَذا شيءٌ معروفٌ.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النجم:٧]، أَي: هذَا المَوصوفُ بِهذه الصِّفاتِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب خرص الثمر، رقم (١٤١١)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٢).

فِي الأُفُقِ الأَعْلَى، يَعني أُفُقَ السماءِ، وذَلك حِينَ رآهُ النبيُّ ﷺ على خِلقتِه التِي هُو عَلَيها، ولَم يَرَهُ عَلى خِلقَتِهِ الَّتي هُو عَليها إلَّا مَرَّتينِ، وهَذه إِحدَى المَرَّتين.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم:٨]، فاعِلُ الدنوِّ هوَ جِبْريلُ، ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أَيْ: مِن عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أَي: كانَ قَدْرَ قَوْسَينِ أَو أَدْنَى منْ ذَلك.

وقدْ عَرَفْنا صِفَةَ الوَحْيِ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ، فَقدْ رُوِيَ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَمَّ النبيَّ ﷺ ضَمَّةً حتَّى بَلَغَ منهُ الجَهْدَ، فكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، و ﴿أَوْ﴾ هنَا بِمَعْنَى: (بَل)، أَي: كانَ قابَ قَوسينِ، بَلْ أَدْنَى، و(بلْ) هَا هُنا ليسَتْ للشَّكِّ؛ لأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أنْ يَشُكَّ اللهُ فِي شيءٍ؛ إذْ إنهُ جَلَّ وَعَلَا بكلِّ شيءٍ محيطٌ، وبكلِّ شيءٍ عليمٌ؛ لكنْ قيلَ فِي ﴿أَوْ﴾ إنَّها بِمَعنى: (بَل)، كَما سَبَقَ؛ فتَكونُ مِن بابِ الإضرابِ الانتِقَاليِّ، يَعني قَابَ قَوْسَيْنِ، ثمَّ قالَ: بَل أَدْنَى، أَيْ: إِنَّه أَدْنَى، ويَكونُ مَا قَبْلَها لَاغِيًا.

وقيلَ: ﴿أَوْ﴾ لِلتَّحقيقِ، أَي: تَحقيق مَا سَبَقَ، كأَنَّهُ قالَ: قابَ قَوْسَينِ إنْ لَمْ يَنْقُصْ لَمْ يَزِدْ، كقولِهِ تَعالَى: ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات:١٤٧]، قيلَ: المَعْنَى بلْ يَزِيدون، وقيلَ: المَعْنَى إنْ لَمْ يَزِيدُوا عنْ أَلْفٍ فإِنَّهُم لَا يَنْقُصونَ، وعَلى كلِّ حالِ المَعْنَى أَنَّه كانَ قَرِيبًا جدًّا، كانَ قابَ قَوْسينِ أَو أَدْنى.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ الضَّمائرُ كلُّها تَعودُ إِلى جِبْريلَ، لماذا نَجْعَلُ الضميرَ هُنا إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ الضمائرِ فِي سياقٍ واحدٍ تَعودُ إِلى جبريلَ؟ ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أَيْ: جبريلُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ الضَّميرُ فِي عَبْدِهِ هُنا يَتَعَيَّنُ أنْ يكونَ إِلى اللهِ؟ نقولُ: لأنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ لَيْسَ عبدًا لجِبْرِيلَ؛ بَلْ هوَ عَبْدٌ للهِ، أَوْحى إِلى

عبدِهِ مَا أَوْحَى، الكلامُ هُنا مُبْهَمٌ.

مَا فائدةُ الإبهامِ؟

فائدتهُ التَّضخيمُ والتعظيمُ، أَيْ: وَحْيًا عَظِيمًا مُفَخَّمًا، كَقولِهِ تَعَالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]، أَيْ: شيءٌ عظيمٌ غَشِيَهمْ وَأَبقاهم فِي تَغْطيةٍ كاملةٍ، إذن؛ أَوْحَى إِلى عبدِهِ شيئًا عَظيمًا مُفَخَّمًا، وهوَ كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، الذِي هوَ أصدقُ الكلامِ وأشرفُهُ.

وهنَا نَقِفُ وقفةً يَسيرةً لِنسأَلَ: هلْ كلامُ اللهِ منْ صِفاتهِ، أَو لَا؟

ونقولُ: كلامُ اللهِ تَعَالى مِنْ صِفَاتِه، وهُو كلامٌ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، وصِفةٌ منْ صِفاتِهِ، وصِفاتُ اللهِ غيرُ مَخلوقةٍ، هذَا هوَ التَّعليلُ، وهوَ تعليلٌ طيبٌ ومقبولٌ، لكنْ إذَا قيلَ لكَ: مَا الدليلُ؟ فَأْتِ بنصٍّ منَ القرآنِ والسُّنَّةِ، وإذَا قيلَ لكَ: أنتَ تقولُ: اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ. والقرآنُ شيءٌ، فيَكونُ مَخلوقًا؟!

نقول: نَعَم اللهُ خالقٌ، والخالقُ غيرُ المخلوقِ، والقرآنُ ليسَ هوَ اللهَ، ولكنِ القُرآنُ مُعَلَّمٌ، وكلُّ مُعَلَّمٍ فَهو غيرُ مخلوقٍ، يَعني أن الشيءَ الَّذي عَلَّمَنا اللهُ إِياه فهوَ غيرُ مَخْلوقٍ.

إذن نَستطيعُ الإجابةَ عَلى مَن طَلَبَ منَّا إثباتَ أَنَّ القرآنَ ليسَ مخلوقًا.

وأمَّا مَا استدلَّ بهِ بعضُ الإخوةِ عَلى أنَّ القرآنَ مَخلوقٌ وهو قولُه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، وقولُه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

نقولُ: إنَّ هذَا ليسَ بِحجةٍ؛ لأنَّ وجهَ ذلكَ أنَّ اللهَ قالَ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾،

وقالَ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، والقرآنُ صفةٌ منْ صفاتِهِ، وصِفاتهُ مِن ذاتِهِ فِي الواقعِ؛ لأنَّ الشيءَ لَا يَكْمُلُ إلَّا بذاتٍ وصفةٍ؛ إذْ لا يُمْكِنُ أنْ تُوجَدَ ذاتٌ بلَا صفةٍ إطلاقًا؛ لأنَّكَ لَو فكَّرتَ غَايةَ التفكيرِ وفِي أَفضلِ وقتٍ للتفكيرِ تُرِيدُ أنْ تتصورَ ذاتًا بِلَا صفةٍ؛ مَا استطعتَ إِلَى ذلكَ سَبِيلًا، فاللهُ تَعالَى بِصفاتِهِ غيرُ مخلوقٍ، والقرآنُ تَقرَّرَ أنَّه منْ صِفاتِهِ.

وقدْ رُدَّ عَلى الزَّمخْشَرِيِّ حينَ فسَّر قولَهُ تَعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وقالَ: إن كلَّم هُنا بِمَعْنَى: جَرَّحَهُ بِمَخَالِبِ الحِكْمةِ[1]. والكَلْمُ بِمَعْنَى الجَرْحِ، كَما قالَ النبيُّ ﷺ: «**مَا مِن مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وكَلْمُهُ يَثْعُبُ دمًا**»[2]، يقولُ: جَرَّحَهُ، هذَا مَجازُ استعارةٍ. وهذَا منَ الحِكْمةِ أنْ يَعْلَمَ بأنَّ اللهَ هُوَ اللهُ.

فَالزَّمخشريُّ هُنا حَرَّفَ بِناءً عَلى مَذْهَبِهِ؛ لكنْ رُدَّ عَلَيْهِ بقولِهِ تَعالَى: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فَهُو هُنا لَا يَسْتَطِيعُ أنْ يَقولَ: (الهاء) فِي (كَلَّمَهُ): فاعلٌ؛ لأنَّ الهاءَ بِإِجماعِ أَهْلِ اللُّغةِ ضَميرُ نصبٍ.

وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى:٥٢]، فجعلَ الوَحْيَ مِن أَمْرِهِ، وقالَ تَعالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فجعلَ الأمرَ قَسِيمًا للخلقِ، وقَسِيمُ الشَّيْءِ غيرُ الشيءِ، والأمرُ هُنا الوحيُ، وهذَا دليلٌ واضحٌ استدلَّ بِهِ أهلُ السُّنةِ والجماعةِ عَلى الجَهْميَّةِ وأَتْبَاعِهِم.

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري: (١/ ٥٩١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٢٦٤٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦).

ثُمَّ إِنَّنا لَو قُلنا: القرآنُ مَخلوقٌ؛ لَبطلتِ الشريعةُ؛ لأنَّ القرآنَ مَكتوبٌ ومَسموعٌ، فَإِذَا قلنَا: إِنَّه مَخْلوقٌ صَارَ مَعناهُ أنَّ اللهَ خَلَقَ شيئًا عَلى هَذهِ الصورةِ مَسْموعًا، أَو عَلى هذهِ الصُّورةِ مَكْتوبًا، ولَيْسَ فِيه أمرٌ ولَا نهيٌ؛ لأنَّ ﴿أَقِيمُواْ﴾ إِذَا جَعَلناها مَخلوقةً صَار مَعْناها: أنَّ اللهَ خَلَقَ صوتًا بِهذا اللَّفظِ يَدُلُّ عَلى أمرٍ، كَما خَلَقَ النَّجْمَ عَلى صُورةٍ مُعَيَّنةٍ، والشمسَ عَلى صُورةٍ مُعَينةٍ، والبَعِيرَ عَلى صُورةٍ مُعَينةٍ، لَيسَ فِيها أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ، وَكَذلك أَيضًا إِذَا كَتَبْتَ ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، صَار مَعْناها أَنَّهَا صُورةٌ، أي خَلَقَ اللهُ شَيْئًا عَلى هذهِ الصورةِ، أَو عَلَى هَذا المَسمُوعِ، وليسَ أمرًا ولَا نَهْيًا؛ وَلِهَذا كانَ بعضُ الناسِ يَستغرِبُ مِن قَولِ بعضِ أهلِ السُّنةِ: إِنَّنا إِذَا قُلنا: القرآنُ مَخلوقٌ، أَبْطَلْنا الشَّريعةَ عامةً، فَكيف هَذا؟

نقولُ: وَجْهُهُ أنْ يَكونَ خَلَقَ اللهُ أصواتًا عَلى صُورةٍ مُعَينةٍ، أَو خَلَقَ أَصواتًا وخَلَقَ حُروفًا عَلى صُورةٍ مُعَينةٍ لَا تَدُلُّ عَلى أمرٍ ولَا نهيٍ، وهذَا واضحٌ جدًّا، تَعليلٌ عَقْليٌّ لَا يُمْكِنُ الانفكاكُ عنهُ، فَالقرآنُ إِذن كلامُ اللهِ، والكلامُ -كَما نَعْلَمُ جَميعًا- لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ عَيْنًا قائمةً بنفسهَا، وإِذَا لَمْ تَكُنْ عينًا قائمةً بِنفسِها لَزِمَ أَنْ تَكونَ قائمةً بِغيرِها، وهذَا يَعْنِي أَنَّ القرآنَ صِفَةٌ، وليسَ عَيْنًا قَائِمةً بِنَفسِها، فَلَمَّا أَضافها اللهُ إِلى نفسِهِ، كَان صِفةً لهُ غيرَ مخلوقٍ؛ لأنَّ صِفاتِ الخالقِ غيرُ مخلوقةٍ.

وأمَّا قولُهُ: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، فدليلٌ عَلى أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوقٍ إِذَا قلنَا: إِنَّه صِفَةٌ؛ وَلِهَذَا مَا يُضافُ إِلى اللهِ تَعالَى **يَنقَسِمُ إِلَى قسمينِ:**

الأَوَّلُ: قِسْمُ عَينٍ قائمةٍ بِنَفسِها، أَو وَصفٌ قائمٌ بِتلكَ العينِ، فَهَذَا مَخلوقٌ.

الثَّاني: وَصفٌ مضافٌ إِلى اللهِ، فَهذا غيرُ مَخلوقٍ، هذهِ هيَ القاعدةُ.

فقولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٤]، وقولُهُ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ [الحج:٢٦]، وَقولُهُ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس:١٣]، وقولُهُ فِي عيسَى ابنِ مريمَ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢]، وقولُهُ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١]، وَقولهُ فِي آدمَ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩]، كلُّ هَذا غيرُ مخلوقٍ؛ لأَنَّهُ إمَّا عَيْنٌ قائمةٌ بِنفسِها، أَو وَصْفٌ فِي تلكَ العينِ.

فأمَّا قولهُ تَعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ الفؤادُ: القلبُ، ومَعْنَى ذلكَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ وَعَى مَا شَاهَدَه وَعْيًا كَاملًا، لَمْ يَكْذِبْ بهِ الفؤادُ، وكَانَ الذِي رآهُ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّهُ رَأَى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَى، رَأَى أَمرًا عَظيمًا لَا يَصْبِرُ الإنسانُ عليهِ، لَو أنَّ الإنسانَ شَاهَدَهُ لجُنَّ، لَولا أنَّ اللهَ ثَبَّتَ مُحَمَّدًا ﷺ، فجبريلُ يَحْمِلُهُ منَ الأرضِ إلَى السَّماءِ الدُّنيا، ثم إلى الثَّانيةِ، ثمَّ إلى الثالثةِ... ثم إلى السابعةِ؛ حتَّى يَصِلَ إلَى مَحَلٍّ سَمِعَ فيهِ صَرِيفَ الأقلامِ تَكْتُبُ، ثمَّ عُرِضَتْ لهُ سِدْرَةُ المُنْتَهى، ورَأَى فيهَا العَجائِبَ، مثلُ هذَا لا يَثْبُتُ لهُ إلَّا مَن ثَبَّتَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وكانَ قَلْبُهُ كقَلبِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ، ولم يَكُنْ أهلًا لِهَذَا الثباتِ إلَّا محمدٌ ﷺ.

قال تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ هَذا استفهامٌ إنكاريٌّ، أَي: أَتُجادِلُونَهُ وَتُخاصِمُونَه على شَيْءٍ رَآه وعَقِلَهُ بفؤادِهِ، هذَا مُنْكَرٌ.

وهُنا قَد يَسأَلُ سائلٌ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ كَيفَ نَقولُ فِي إِعْرَابِها؟

نقولُ: الفاءُ عاطفةٌ عَلى مَا قَبلها منَ الجملِ، لكنْ كيفَ تَحُولُ هَمْزَةُ الاستفهامِ بَيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ؟ نقولُ: لأَنَّ لَهَا الصدارَةَ، فَالفاءُ عَاطفةٌ، وَالهمزةُ

منَ الاستفهامِ، وَاختلفَ النَّحْوِيُّونَ فِي المعطوفِ عليهِ، فقيلَ: إنَّ المَعْطوفَ عليهِ مَا سَبَقَ منَ الجُمَلِ، وعَلى هذَا القولِ نَحْتَاجُ أَنْ نَقولَ: إنَّ الفاءَ مُزَحْلَقَةٌ عنْ مَكانِهَا، ومَعْنَى مُزَحْلَقَةٍ: أَي: مَنقُولة مِن مَكانِها إِلى آخرٍ، والأصلُ: فَأَتُمَارُونَهُ، فَتكونُ الفاءُ عَاطفةً، ومَا بَعدَها مَعطوفٌ عَلى مَا سَبَقَ، وهَذا القولُ لَيسَ فيهِ إلَّا أنَّ الفاءَ زُحْلِقَتْ عَن مَكانِها.

القولُ الثَّاني: أنَّ الفاءَ عَاطفةٌ، وأنَّ المعطوفَ عليهِ مَحْذُوفٌ مُقَدَّرٌ بعدَ الهمزةِ، ويُقَدَّرُ بحَسَبِ السياقِ، فنَقولُ فِي قولِهِ تَعَالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق:٦]، التقديرُ: أَغفَلُوا فَلَمْ يَنْظُروا إِلى السماءِ، وهذَا القولُ لَيسَ فِيه إلَّا أنَّ فِي الكلامِ حَذْفًا، والأصلُ عدمُ الحذفِ، والقولُ الأولُ لَيسَ فِيه إلَّا أنَّ الفاءَ مُزَحْلَقةٌ، والأصلُ عدمُ الزَّحلقةِ.

إذن، كلُّ واحدٍ مِنهم خَالَفَ الأصلَ، لكنْ أَيُّهما أَسهلُ مِن حيثُ التقديمُ؟ نقولُ: الأَسْهَلُ الأوَّلُ، أنَّه ليسَ هُناك شَيءٌ مَحذوفٌ يُقَدَّرُ؛ لأنَّهُ أَحيانًا تَعْجِزُ أنْ تُقدِّرَ شيئًا بينَ الهمزةِ وبينَ الفاءِ؛ فَلذلكَ نَختارُ أنَّ الهمزةَ لِلاستفهامِ، وأنَّ الفاءَ حَرْفُ عطفٍ، وأنَّ المعطوفَ عليهِ مَا سَبَقَ منَ الجملِ، وأنَّه ليسَ فِي الكلامِ إلَّا زَحْلَقةُ الفاءِ، وهذَا شيءٌ مُحْتَمَلٌ؛ حتَّى نَسْلَمَ منْ تَكَلُّفِ المُقَدَّرِ.

وكنَّا قدْ ذَكَرْنا قبلُ قاعدةً أنَّه إذَا اختلفَ النَّحْويونَ فِي مسألةٍ يُؤخذُ بِالأسهلِ والأيسرِ.

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:١٢-١٤]، الفاعلُ الرسولُ ﷺ والهاءُ تَعودُ عَلى جِبْرِيلَ، أَي:

رَأَى النبيُّ ﷺ جِبْرِيلَ مَرَّةً أُخْرَى عندَ سِدْرةِ المُنْتَهَى، وسُمِّيتْ سِدْرَةَ المُنتهَى؛ لأنهُ يَنْتَهِي إِلَيها مَا يُرْفَعُ منَ الأرضِ، وهيَ سِدْرةٌ، لكنَّها لَيست كَالسِّدَرِ، نَبْقُها كَقِلالِ هَجَرَ، وأَوْرَاقُها كَآذانِ الفِيلَةِ، هَكَذا شَبَّهَها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ[1]، لكنِ غَشِيَها مَا غَشِيَها منَ البهاءِ والحُسْنِ الَّذي لَا يُمْكِنُ أنْ يُوصَفَ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٦-١٧]، للهِ دَرُّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ فِي هذَا الأمرِ العَظيمِ العَجيبِ، مَا زَاغَ بَصَرُهُ ومَا طَغَى، نحنُ إذَا رَأَينا شَيْئًا عَجِيبًا قَامَتْ أَبْصارُنا تَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمالًا مَا شَاءَ اللهُ، ونتساءلُ: مَا هَذا؟ مَا هَذا؟ لكنَّ الرسولَ ﷺ مَا زَاغَ بَصَرُهُ، أَي: مَا جَاوَزَ مَا أُذِنَ لَه فِي النَّظرِ إِليه، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾، يَعْنِي: ومَا زَلَّ، أو مَا زَادَ.

قال تعالَى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨]، ضميرُ (رأى) يَعودُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فقد رأى مِن آياتِ ربهِ الكبرَى، والكبرَى هُنا صِفةٌ لآياتٍ، إذن: رَأَى منَ الآياتِ الكَبيرةِ، ويكونُ مفعولُ (رَأى) محذوفًا، يَعني: لقدْ رَأى منْ آياتِ ربه الكُبرى مَا هُو كبيرٌ عظيمٌ.

إذن قولهُ: ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ فِيها إِعْرَابان، الأولُ: أَنَّها صفةٌ لآياتٍ، ومَفْعولُ (رأَى) محذوفٌ، والتَّقديرُ: لَقد رَأَى منْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَى مَا رَأَى منَ الأمورِ العَظيمةِ، والقولُ الثَّاني: أنَّ الكُبْرَى مَفعولُ (رَأَى)، والتقديرُ: لَقد رَأى الكُبْرَى منْ آياتِ رَبِّهِ، ويكونُ مَا رآهُ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَكْبَرُ الآياتِ، والقولُ الأولُ أحسنُ، وهُو أنَّ الكُبرى صِفةٌ، والمفعولُ محذوفٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧).



سورة القمر

الدَّرسُ الأوَّل:

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين، أَمَّا بَعْدُ:

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، قوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ استفهامٌ للتشويقِ، أي: تَذَكَّروا حتى يُبَيِّنَ لكم القرآنُ ما لم يَكُنْ بَانَ لغَيْرِكم، ولهذا لما قالَ أبو جُحَيْفَةَ لعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللهِ؟ قَالَ: لَا وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ»(١).

وبهذا نَعْلَمُ كَذِبَ مَن قالوا: إنَّ عَلِيَّ بنَ أبي طَالِبٍ هو الخليفةُ بعدَ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم نحن نَشْهَدُ أنَّ الخليفةَ حقًّا بعدَ رسولِ اللهِ هو أبو بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقد أَشَارَ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى كونِه الخليفةَ بأُمورٍ وَاضِحَةٍ منها:

أولًا: أنه لما مَرِضَ وَكَّلَ أبا بَكْرٍ يُصَلِّي بالناسِ، ولم يُوَكِّلْ عَلِيًّا ولا عُثْمانَ ولا عُمَرَ، ولا ابنَ عَبَّاسٍ ولا غَيْرَهم، بل وَكَّلَ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «مُرُوا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).

أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»(١).

ثانيًا: لَـمَّا مَرِضَ أَمَرَ أن تُسَدَّ جَمِيعُ الأبوابِ المُشْرَعَة في المَسْجِدِ إلا بابَ أبي بَكْرٍ(٢)؛ إِشَارةً إلى أنَّه سَيَكونُ الخليفةَ، ويَأْتِيهِ النَّاسُ من المَسْجِدِ.

ثالثًا: أنه لَـمَّا تَخَلَّفَ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الحَجِّ في السَّنَةِ التاسعةِ أَمَّرَ أبا بَكْرٍ لِيَحُجَّ بالناسِ(٣).

رابعًا: أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لَـمَّا جَاءَتْهُ امرأةٌ في حَاجَةٍ، ووَعَدَها العامَ المُقْبِلَ، قالت: يا رسولَ، أرأيتَ إن لم أَجِدْكَ؟ قالَ: «**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَائْتِي أَبَا بَكْرٍ**»(٤).

خامسًا: قال: «**وَيَأْبَى اللهُ وَالمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ**»(٥).

سادسًا: قال: «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ**»(٦). أي: أَعْظَمُهم مِنَّةً على الرَّسولِ هو أَبُو بَكْرٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب حد المريض أن يشهد الجماعة، رقم (٦٦٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض، رقم (٤١٨).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم (٤٦٧)، وكتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩٠٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم (٢٣٨٢).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب لَا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج مشرك، رقم (١٦٢٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب لَا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، رقم (١٣٤٧).
(٤) أخرجه الترمذي: أبواب المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم (٣٦٧٦).
(٥) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي أبكر رضي الله عنه، رقم (٢٣٨٧).
(٦) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه، رقم (٢٣٨٢).

سابعًا: قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ»[١].

ثامنًا: لما سُئِلَ: مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ». قِيلَ: مِنَ الرِّجَالِ. قَالَ: «أَبُوهَا»[٢].

فكيفَ يُمْكِنُ بعدَ هذا أنْ نقولَ: إنَّ الخلافةَ لعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ؟ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كانَ في مَوْضِعِه من الخِلافةِ تمامًا، ولا شَكَّ أنه أحقُّ الناسِ بالخلافةِ بعدَ عُثمانَ، ومَن نَازَعَه في الخلافةِ فإنه مُخْطِئٌ، لكنه مُجْتَهِدٌ، والمُجْتَهِدُ من هذه الأُمَّةِ إذا أَخْطَأَ فله أَجْرٌ، وإنْ أصابَ فله أَجْرَانِ.

المُهِمُّ أنَّ الوَاجِبَ عَلَيْنَا أن نَقْبَلَ الحقَّ مِن كلِّ مَن جاءَ به، وأنْ نَعْرِفَ الرِّجالَ بالحقِّ، لا أَنْ نَعْرِفَ الحقَّ بالرجالِ؛ لأنك لو عَرَفْتَ الحقَّ بالرجالِ لَقَبِلْتَه من فُلانٍ؛ لأنه عندَكَ رَجُلٌ، ورَدَدْتَهُ من فُلانٍ؛ لأنه ليسَ برَجُلٍ. اللَّهُمَّ أَرِنا الحقَّ حقًّا، وارْزُقنا اتِّباعَه، وأَرِنا الباطلَ باطلًا وارْزُقْنا اجتنابَه، ولا تَجْعَلْه مُلْتَبِسًا علينا فنَضِلَّ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذًا خليلا، رقم (٣٦٥٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب من فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٣٨٩٠).

الدَّرسُ الثَّاني:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شُرورِ أنفسِنا ومِنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هَادِيَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلَهُ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وخليلُه، وأَمِينُه على وَحْيِه، بَلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصَحَ الأُمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، وترَكَ أُمَّتَه على محَجَّةٍ بيضاءَ، ليلُها كنهارِها، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

ومعنى نستعينُه: أن نطلبَ منهُ العونَ، ونستغفرُه: نطلبُ منهُ المغفرةَ. وفي قولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، أي: لا نَعْبُدُ إلا إياهُ، ولا نستعينُ إلا إياهُ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورةِ اقتربتِ الساعةُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، و(كُلَّ) مَنْصوبةٌ بفعلٍ محذوفٍ يُفَسِّرُه ما بعدَهُ، والتقديرُ: إنا خَلَقْنَا كلَّ شيءٍ بقَدَرٍ، فتُفِيدُ هذهِ الجملةُ أن كلَّ شيءٍ مخلوقٌ للهِ، ونحنُ لا نَعقِلُ بعدَ هذهِ الآيةِ إلا أن الأشياءَ كلَّها إما خَالِقٌ وإما مَخْلوقٌ، فإذا كانَ كلُّ شيءٍ مَخْلوقًا للهِ، صارَ الخالقُ هوَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فيَتَضَمَّنُ هذا التعبيرُ انفرادَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالخلقِ، ويتضَمَّنُ أن كلَّ شيءٍ مخلوقٌ خَلَقَهُ اللهُ.

قولُه: ﴿بِقَدَرٍ﴾ هذا وصفٌ آخَرُ، يعني كل شيءٍ بقَدَرٍ؛ بقَدرٍ في زمنِه، بقَدَرٍ في مكانِه، بقَدَرٍ في طُولِه، بقَدَرٍ في قِصَرِه، بقَدَرٍ في حَجْمِه؛ كبيرٍ أو صغيرٍ، بقَدَرٍ في شِدَّتِه، بقَدَرٍ في خِفَّتِه. فكلُّ شيءٍ بقَدَرٍ، حتى قَطَراتُ المَطَرِ بقَدَرٍ، قالَ اللهُ تعالى:

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢].

وقالَ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١].

وقالَ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون:١٨].

فالقطرةُ الواحدةُ ولو كانتْ مِن أصغرِ القطراتِ بقَدَرٍ، قَدَّرَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ على أيِّ مكانٍ تَنْزِلُ، وفي أيِّ زَمانٍ تَنزِلُ، ويَعْلَمُ جَلَّوَعَلَا أيُّ ثَمرةٍ ونَتيجةٍ تكونُ لهذهِ القَطْرةِ.

إذنْ كلُّ شيءٍ بقَدَرٍ، فالإنسانُ بقَدَرٍ، وأخلاقُهُ ذَميمةٌ أو حميدةٌ بقَدَرٍ، ولهذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء:٣٢].

فاللهُ هوَ الذي يُعْطِي مَن يَشاءُ، ويَحْرِمُ مَن يَشاءُ، لكنهُ لا يُعْطِي العَطاءَ إلا مَن هوَ أهلٌ للعطاءِ، ولا يَحْرِمُ العطاءَ إلا مَن هوَ أهلٌ لِحرْمانِهِ منَ العَطاءِ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

المُهِمُّ كلُّ شيءٍ مخلوقٌ بقَدَرٍ، وأجَلُ الإنسانِ بقَدَرٍ، وأجلُ الحيوانِ، وأجلُ النباتِ، وأجلُ الحَرِّ، وأجلُ البَرْدِ بقَدَرٍ. وهذا دليلٌ على عُمومِ علمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإحاطتِه بكلِّ شيءٍ.

قولُه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾، يعني أنَّ اللهَ إذا أرادَ شيئًا أمر مَرَّةً واحدةً، ثم كانَ الشيءُ ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، وليسَ هناكَ شيءٌ أسرعَ مِن لَمحِ البَصَرِ،

فبمُجَرَّدِ أن يقولَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: كُنْ، يكونُ.

واستَمِعْ إلى قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في البعثِ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، اللهُ أكبرُ ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يأمرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الخلائقُ كلُّها جميعًا مُحْضَرُونَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقالَ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، على وَجْهِ الأرضِ، كَلِمةٌ واحدةٌ تَخْلُقُ الخلائقَ كلَّها بعدَ الفناءِ بكلمةٍ واحدةٍ.

واستدلَّ بهذهِ الآيةِ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ شيخُ الإسلامِ مُحَمَّدُ بـنُ عبدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ على الإيمانِ بالقَدَرِ[1].

شروطُ الإيمانِ بالقدرِ:

والإيمانُ بالقَدَرِ لا يَتِمُّ إلا بأربعةِ شروطٍ:

الشرطُ الأولُ: أن تُؤْمِنَ بعلمِ اللهِ المُحِيطِ بكلِّ شيءٍ، يعني أنَّ اللهَ عَلِمَ ما كانَ، وما يكونُ لو كانَ كيفَ كانَ يكونُ، ويَعْلَمُ كلَّ شيءٍ سابقٍ أو لاحقٍ، فلا يَجْهَلُ ما يُسْتَقْبَلُ، ولا يَنسَى ما مَضَى.

ولما قالَ فِرْعونُ لمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه:٥١]، قالَ لهُ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] عَزَّوَجَلَّ، لا يَضِلُّ: يعني لا يَجْهلُ، فهوَ لا يَجْهَلُ ما يُستقبلُ، ولا يَنْسَى ما كانَ ومَضَى، فلا يُمْكِنُ أن تُؤْمِنَ بالقَدَرِ إلا إذا آمنتَ بعلمِ اللهِ المحيطِ بكلِّ شيءٍ جُملةً وتفصيلًا، فيعلمُ اللهُ كلَّ شيءٍ،

(١) أصول الإيمان لمحمد بن عبد الوهاب (٧٠)، ط. وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

فكلُّ ما مَضَى فهوَ معلومٌ عندَ اللهِ، وكلُّ ما يُستقبَلُ معلومٌ عندَ اللهِ، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

الشرطُ الثاني: أن تُؤمِنَ بأن اللهَ تَعالَى كَتَبَ مَقاديرَ كلِّ شيءٍ إلى قيامِ الساعةِ، فلا بُدَّ أن تُؤمِنَ بهذا، وقد كتبَ جَلَّوَعَلَا في اللَّوحِ المحفوظِ ما هوَ كائنٌ إلى يومِ القيامةِ.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في كتابِهِ العزيزِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمُخاطَبُ هوَ الإنسانُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، ففي هذهِ الآيةِ ذكَرَ الأمرينِ جميعًا، وهما العِلْمُ والكِتابةُ.

وكانتِ الكتابةُ قبلَ أن يَخْلُقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ؛ «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، فَقَالَ: اكْتُبْ»[1]. والقَلَمُ هذا لا تَسأَلْ عن كيفيتِه ولا مادتِه، فإن سألتَ عن كيفيتِه وعن مادتِه فأنتَ مُتنطِّعٌ، وقدْ قالَ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»[2]. فلا تقولُوا: ما هذا القلمُ؟ وما مادتُه؟ وكيفَ هوَ؟ وما مِدادُه؟ ولا تَسألوا عنْ هذا.

«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ القَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ».

وهلْ سؤالُ القلمِ ربَّه ماذا يَكْتُبُ يُعْتَبَرُ تَأَخُّرًا في تَنفيذِ الأمرِ؟

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة (ن)، رقم (٣٣١٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

الجوابُ: لا؛ لأنَّ هذا أمرٌ مُجْمَلٌ: اكْتُبْ، فماذا يَكْتُبُ؟ ولهذا لما قالَ: «**اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ**»، كتبَ ما هوَ كائنٌ إلى يوم القيامةِ، سبحانَ اللهِ العظيمِ! فكلُّ شيءٍ يَخْضَعُ لأمرِ اللهِ، وكلُّ شيءٍ يَسْجُدُ لأمرِ اللهِ إلا عُتاةَ بني آدَمَ، فعُتاةُ بني آدمَ ما يَخافونَ مِن أمرِ اللهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج:١٨]، والكثيرُ الذي حَقَّ عليهِ العذابُ بالنسبةِ لمن سَجَدَ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ منَ الألفِ، فهؤلاءِ حقَّ عليهمُ العذابُ.

ولهذا صَحَّ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ أنهُ قالَ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ**». وآدَمُ الآنَ امتثلَ، نظيرَ ما قلنَا في القلمِ قبلَ قليلٍ، «**قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ**».

فهؤلاءِ بَعْثُ النارِ أهلُ النارِ مُخَلَّدونَ فيها، والعياذُ باللهِ، تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ منَ الألفِ في النارِ -اللهمَّ أَنْجِنَا منَ النارِ، أَسْأَلُ اللهَ العافيةَ- هؤلاءِ أهلُ النارِ، وواحدٌ في الجنةِ ناجٍ، أسألُ اللهَ أن يَجْعَلَنِي وإياكُم منهمْ.

فكَبُرَ ذلكَ على الصحابةِ، وعظُم عليهم وشقَّ عليهمْ «**قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ قَالَ: «أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا**»[1].

فنقولُ: إن كلَّ شيءٍ كُتِبَ وانتهَى، وجَفَّتِ الأقلامُ، وطُويتِ الصحفُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، رقم (٢٢٢).

الشرطُ الثالثُ: أن تُؤْمِنَ بأنَّ كلَّ ما حَدَثَ في الكونِ فإنهُ بمشيئةِ اللهِ؛ كإنزالِ المَطَرِ، وإحياءِ الموتَى، وإماتةِ الأحياءِ، والرياحِ، والبرقِ، والرعدِ، فهذا مَعروفٌ أنهُ بمَشيئةِ اللهِ؛ لأنهُ ليسَ لنا فيهِ تَدَخُّلٌ إطلاقًا، وهذا كلامٌ معقولٌ ومعلومٌ. وكذلكَ ما كانَ مِن فِعْلِنا فهوَ بمشيئةِ اللهِ، قالَ تَعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وقالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١٣٧].

إذنْ كلُّ ما نَفْعَلُهُ فبمَشيئةِ اللهِ، لكنْ كيفَ أعْلَمُ أنهُ بمَشيئةِ اللهِ؟ اعْلَمْ أنهُ إذا وَقَعَ ما شِئْتُهُ أنا فَقَدْ شاءَهُ اللهُ، ولا شَكَّ، ولا يُمْكِنُ أن يَكونَ في مُلْكِ اللهِ ما لا يَشاؤُه أبدًا.

ثم المَشِيئةُ منَ الناحيةِ العقليةِ صِفةٌ منْ صِفةِ الإنسانِ، والإنسانُ مخلوقٌ للهِ، فكلُّ شيءٍ مخلوقٌ للهِ، فصِفاتُه مخلوقةٌ، والخالقُ صِفاتُهُ غيرُ مخلوقةٍ؛ لأنهُ خالقٌ، فصِفاتُه غيرُ مخلوقةٍ، والآدميُّ مخلوقٌ فصِفاتُه مخلوقةٌ، إذنْ مشيئتُكَ مَخلوقةٌ للهِ باعتبارِ أنها صفةٌ مِن صفاتِكَ. فهذا هو الدليلُ السمعيُّ الأثريُّ، والدليلُ العقليُّ النظريُّ هو أن مشيئةَ الإنسانِ كائنةٌ مخلوقةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

الشرطُ الرابعُ مما لا بدَّ منهُ في الإيمانِ بالقَدَرِ: الخَلْقُ، وهوَ أن تُؤْمِنَ بأن اللهَ تَعالَى خالقُ كلِّ شيءٍ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢].

وقالَ تَعالَى في الآيةِ التي نحنُ بصددِها: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾، فحركاتُك مخلوقةٌ للهِ، لكنهَا فِعلٌ لكَ، ولهذا لا يُنْسَبُ فِعْلُكَ للهِ، وإنما يُنْسَبُ فِعْلُكَ لكَ، لكنِ الذي خَلَقَ هذا الفِعْلَ هوَ اللهُ.

فالإنسانُ هوَ المُصَلِّي، وليسَ اللهُ هو المُصَلِّي، وهوَ الصائمُ، وهوَ المُتصَدِّقُ، وهوَ البارُّ، وهوَ العاقُّ، وهوَ الواصلُ، وهو القاطعُ، فالفعلُ فعلُ الإنسانِ، لكنهُ مخلوقٌ للهِ؛ لأن فعلَ الإنسانِ ناتجٌ عَن أمرينِ: عن إرادةٍ وقُدْرةٍ؛ لأنهُ إذا لم يُرِدْ لم يَفْعَلْ.

مثالُ ذلكَ: قلتَ لصاحبِكَ: يا فلانُ، هيا إلى صَدِيقِنا، قالَ: لا، أُرِيدُ أن أنامَ. فهوَ الآنَ لم يَفْعَلْ؛ لعَدَمِ الإرادةِ.

وإن قلتَ لصاحبِكَ وهوَ مشلولٌ، وليسَ عندَكَ آلةٌ تَحْمِلُه عليها: تعالَ يا فلانُ نَزُرْ صَدِيقَنا فلانًا، فإنهُ ما يَذْهَبُ؛ لأنهُ غيرُ قادرٍ.

إذنْ فِعلُ الإنسانِ ناتجٌ عنْ أَمْرينِ: عنْ إرادةٍ وقُدرةٍ، والذي خَلَقَ الإرادةَ وخَلَقَ القُدْرةَ هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ إذنْ فِعْلُكَ مخلوقٌ للهِ؛ لأنَّ الفِعْلَ لا يَكونُ إلا بإرادةٍ جازمةٍ، وقُدْرةٍ تامَّةٍ، فإذا كانتِ الإرادةُ الجازمةُ والقُدْرةُ التامَّةُ مَخْلوقتَيْنِ للهِ لَزِمَ أن يَكونَ فِعْلُكَ مَخْلُوقًا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، أيْ خَلَقَكُم

وعَمَلَكُم، فأنتَ مَخْلوقٌ للهِ، وعَمَلُك مَخلوقٌ للهِ.

فلا يُمْكِنُ أن يَتِمَّ الإيمانُ بالقَدَرِ إلا بهذهِ الأُمورِ الأربعةِ: الإيمانِ بالعلمِ، وبالكتابةِ، وبمشيئةِ اللهِ، وبخلقِ اللهِ، ولهذا جُمِعَتْ هذهِ الأربعةُ في بيتٍ:

عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ وَخَلْقُهُ وَهوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

«عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ» هذهِ ثلاثةٌ في الشَّطرِ الأولِ، «وخَلْقُه» وهوَ في الشطرِ الثاني «وَهوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ».

وذَكَرْنا الأدلةَ الدالةَ على ذلكَ.

القدريةُ والجبريةُ:

والقَدَرُ تنازعتِ الأمةُ فيهِ، حتى إنَّ النبيَّ ﷺ خَرَجَ ذاتَ يومٍ على أصحابِهِ وهمْ يَتنازعونَ في القَدَرِ، فغَضِبَ ﷺ منْ ذلكَ غَضَبًا شديدًا[1]؛ لأن التنازعَ في القَدَرِ خطيرٌ جدًّا، ولذلكَ ضلَّ فيهِ طائفتانِ ضلالًا مُبِينًا:

طائفةٌ تقولُ: لا قَدَرَ في أفعالِ العبدِ، تعني أن العبدَ مُستقِلٌّ بفعلِهِ، ليسَ للهِ فيهِ تَعَلُّقٌ إطلاقًا، فأنا مثلًا أَتكلَّمُ بإرادتي، وأفعلُ بإرادتي، وأذهَبُ بإرادتي، لا بإرادةِ اللهِ، وليسَ للهِ تَعَلُّقٌ بفعلِي. فهؤلاءِ يُسَمَّوْنَ القَدَريةَ، نُفاةَ القَدَرِ، الذينَ همْ مَجوسُ هذهِ الأُمةِ؛ لأنَّ المَجوسَ يقولونَ: الحوادثُ لها خالقانِ؛ خالقٌ للخيرِ وخالقٌ للشرِّ، فهؤلاءِ القَدَريةُ يقولونَ: الحوادثُ لها خالقانِ: حوادثُ تَتعلَّقُ بفعلِ اللهِ، خالقُها اللهُ، وحوادثُ تَتعلَّقُ بفعلِ العبدِ، خالقُها العبدُ، وهؤلاءِ يقولونَ: الإنسانُ هوَ يَفْعَلُ باختيارِه، ولا عَلاقةَ للهِ بهِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، رقم (٢١٣٣).

فقابَلَتْهُم الجَبْرِيةُ ببِدْعةٍ أَقْبَحَ؛ قالُوا: الإنسانُ مُجْبَرٌ على عَمَلِه، وليسَ لهُ إرادةٌ ولا قُدْرةٌ ولا اختيارٌ أبدًا، فهوَ مُجْبَرٌ على العملِ، فيُصَلِّي جَبْرًا، ويصومُ جبرًا غصبًا عليهِ، وليسَ لهُ إرادةٌ، رجلانِ على سَطْحٍ، أحدُهما دُفِعَ مِن فوقِ الدَّرَجِ حتى تَدَحْرَجَ بغيرِ اختيارٍ، وآخَرُ نزلَ على الدَّرَجِ بهُدوءٍ درجةً درجةً، يقولونَ: إن فِعْلَهُما سواءٌ، فكلٌّ منهما مجبورٌ؛ الأولُ الذي تَدَحْرَجَ والذي يَنزِلُ دَرَجةً درجةً! فهذا غيرُ معقولٍ، لكن لِغُلُوِّهم في إثباتِ القَدَرِ سَلَبُوا الإنسانَ قُدرَتَه واختيارَه وقالُوا: حركاتُ الإنسانِ كحركاتِ السعفةِ في الهواءِ، وحركاتِ الأشجارِ في الرياحِ.

وسَلَكتْ طائفةٌ تَحْتَجُّ بالقَدَرِ مَسْلَكَ الجَبْرِيةِ في المعاصي، ومسلكَ القدريةِ في الطاعاتِ، إذا فَعَلَ منهمُ الإنسانُ الطاعاتِ قالَ: فَعَلْتُها باختيارِي وشَمَخَ أنفُه، وقالَ: أنا مَن أنا، وذَكَّى نفسَه، وإذا عصَى اللهَ قالَ: أنا مجبورٌ، فصارَ جبريًّا عندَ المعصيةِ، قدَرِيًّا عندَ الطاعةِ، فيَحتَجُّ بالقَدَرِ في المعاصي، لكنهُ في الطاعاتِ كأنهُ الذي فعَلَ، فيَمُنُّ على اللهِ بعَمَلِهِ.

والحمدُ للهِ الذي هدَى الذينَ آمنُوا إلى الحقِّ بإذنِهِ.

ويُذكرُ أن رَجُلًا منَ المُعتزلةِ -والمعتزِليُّ قَدَرِيٌّ- جَلَسَ إلى شَخْصٍ آخَرَ يُخالِفُ رَأْيَهم، فقالَ المُعْتزِليُّ: سبحانَ مَن تَنَزَّهَ عنِ الفحشاءِ. والفحشاءُ فعلُ العبدِ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

فقالَ لهُ السُّنيُّ أو المُقابِلُ: سبحانَ مَن لا يَقعُ في مُلْكِه إلا ما يشاءُ.

والفحشاءُ حَدَثَتْ في مُلكِ اللهِ، والإنسانُ مملوكٌ للهِ، وعَمَلُه مملوكٌ للهِ كلُّه.

فقالَ لهُ القَدَريُّ أوِ المُعتزِليُّ: أفرأيتَ إن مَنَعَنِي الهُدى، وقضَى عَلَيَّ بالرَّدَى،

أَحْسَنَ إِلَيَّ أم أَسَاءَ؟.

فقالَ لهُ خَصْمُهُ: إن مَنَعَكَ ما هوَ لكَ فقدْ أساءَ، وإن مَنَعَكَ ما هوَ لهُ فيختصُّ برَحْمَتِهِ مَن يشاءُ. فبُهِتَ القَدَرِيُّ وعَجَزَ عنِ الإجابةِ[1].

وهنا نقولُ: إذا مَنَّ اللهُ على إنسانٍ بالطاعةِ، فهوَ فضلُ اللهِ وإحسانُه، وفضلُ اللهِ يؤتيهِ مَن يشاءُ.

أعودُ فأقولُ: الإيمانُ بالقدرِ أحدُ أركانِ الإيمانِ الستةِ، ولا يَتِمُّ إلا بأربعةِ أمورٍ.

ثمراتُ الإيمانِ بالقدرِ:

واعْلَمْ أن للإيمانِ بالقَدَرِ ثمراتٍ جليلةً؛ منها أنهُ مِن تَمامِ الإيمانِ، فإنهُ أحدُ أركانِه، ومنها أنهُ مِن تَمامِ الإيمانِ برُبوبيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومنها أنَّ الإنسانَ يَطْمئِنُّ؛ فإنْ أصابَهُ مَرَضٌ فبقَدَرِ اللهِ، وإن أَصابَتْهُ صِحَّةٌ فبقَدَرِ اللهِ، وإن سُرِقَ مالُه فبقَدَرِ اللهِ، وإن هلَكَ وَلَدُه فبقَدَرِ اللهِ، فتَجِدُ المُؤمِنَ بالقَدَرِ مُطْمَئِنًّا دائمًا كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[2].

لأن المؤمنَ يقولُ: أنا عبدٌ، أنا مملوكٌ، يَفْعَلُ بي سيدِي ومالكِي ما شاءَ، فتَجِدُهُ مُطمئنًّا راضيًا، فإذَا أصابتْه الضراءُ احتسبَ الأجرَ وقالَ: عذابُ الدنيا أهونُ من عذابِ الآخرةِ.

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي (٤/ ٢٦١، ٢٦٢)، وهي مناظرة بين الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني والقاضي عبد الجبار المعتزلي.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

وَيُحْكَى عَنِ امْرَأَةٍ مِنَ العَابِدَاتِ أَنَّهَا عَثَرَتْ، فَانْقَطَعَتْ إِصْبَعُهَا، فَضَحِكَتْ، فَقَالَ لَهَا بَعْضُ مَنْ مَعَهَا: أَتَضْحَكِينَ، وَقَدِ انْقَطَعَتْ إِصْبَعُكِ! فَقَالَتْ: أُخَاطِبُكَ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ؛ حَلَاوَةُ أَجْرِهَا أَنْسَتْنِي مَرَارَةَ ذِكْرِهَا[١]. كلمةٌ عظيمةٌ!

فالإنسانُ إذا تَأَذَّى بمرضٍ أو جُرحٍ أو غيرِه وذَكَرَ الأجرَ فإنـهُ يهونُ عليهِ، يقولُ: هذا يُكفِّرُ بهِ سَيِّئاتي وتكثرُ بهِ حسناتي؛ معَ احتسابي، وانتظارِ الفرجِ.

فالإيمانُ بالقَدَرِ منْ أكبرِ أسبابِ طُمأنينةِ القلبِ.

ومنْ فوائدِ الإيمانِ بالقَدَرِ أن الإنسانَ لا يَفْخَرُ بنفسِه، فإذا عَمِلَ عَمَلًا صالحًا فكما قالَ تَعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]، والتعليلُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي لا تَحزنُوا إذا ما فاتَكُم شيءٌ؛ لأن هذا شيءٌ مكتوبٌ فلا بُدَّ أن يَقعَ ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، أي لا تَفرحوا فَرَحَ بَطَرٍ وخُيلاءَ بما أعطاكُم، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣].

فأنتَ آمِن بالقَدَرِ إذا أردتَ الطمأنينةَ والرضا والسرورَ والانشراحَ، ولا تَجْزَعْ مِن مُصيبةٍ، وكنْ دائمًا معَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لكنِ المعاصي يَجِبُ ألا ترضَاها لنفسِكَ ولا لغيرِك، فيَجِبُ أن تُقْلِعَ عنِ المعاصي، وتَنْتَهِيَ عنِ المعاصي.

وانْظُرْ إلى هذا الحَديثِ العَظيمِ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فالصحابةُ أَوْرَدوا على الرسولِ هذا، فما دَامَ الشيءُ مَكْتوبًا فلماذا نَعْمَلُ؟ قال:

---

(١) مدارك السالكين (٢/ ١٦٧).

«**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل:٥-٦][1].

فلا تَقُلْ: واللهِ إذا كانَ مِن أهلِ الجنةِ فهوَ في الجنةِ، ولو كانَ نائمًا، وإن كانَ منْ أهلِ النارِ فهوَ مِن أهلِ النارِ، وإن كانَ قائمًا. فلا تقلْ هذا، بلِ اعْمَلْ.

أرأيتُم لو أن شخصًا قيلَ لهُ: تَزَوَّجْ لِيأتِيَكَ الأولادُ، فقالَ: إن كانَ اللهُ مُقدِّرًا لي أولادًا فإنهم سيأتونَ! فهذا مجْنونٌ ولا أَحَدَ يَرْضَى منهُ هذا.

وإن قيلَ لهُ: اعْمَلْ صالحًا تدخُلِ الجنةَ قالَ: إذا كنتُ منْ أهلِ الجنةِ فسوفَ أَدْخُلُها. فهذا ما يُمْكِنُ، فلا تَدْخُلُ إلا بعَمَلٍ، ولهذا قالَ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وجزاهُ اللهُ عنا أفضلَ ما جَزَى نبيًّا عن أُمَّتِه- قالَ هذهِ الكلمةَ المُوجَزَةَ الواضحةَ القاطعةَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**».

ولو جلسَ واحدٌ مثلًا يُصلي في بيتِه، وهوَ ممن تَجِبُ عليهِ الجماعةُ، فقلنا: صلِّ معَ الجماعةِ، فصلاةُ الجماعةِ أفضلُ مِن صلاةِ الفردِ بسبعٍ وعشرينَ درجةً، فقالَ: إن كانَ مُقدَّرًا لي الثوابُ أَخَذْتُه، فنقولُ: هذا غيرُ معقولٍ.

إذنْ لا بدَّ أن نَعمَلَ؛ لأنهُ في الحقيقةِ لا نَعْلَمُ ما سيَقَعُ غدًا، فالإنسانُ يُقَدِّرُ شيئًا في ذِهْنِه أنه غدًا سيَصُومُ، أو سيَحْضُرُ درسَ علمٍ، أو سيقومُ يصلي الضُّحَى، أو سيقرأُ القرآنَ، وما أشبهَ ذلكَ، لكنْ لا يَعْلَمُ أن هذا سيَكونُ، فقدْ يُحالُ بينَهُ وبينَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١٠]، رقم (٤٩٤٩)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

ولهذا نَهى اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ فقالَ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]، فاعْمَلْ، وإذا عَمِلْتَ فاعْلَمْ أن اللهَ كَتَبَ لكَ ما عَمِلْتَ، قالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**».

ولذلكَ تَجِدُ شَخْصينِ أخوينِ أَحَدُهُما سَلَكَ طريقَ الخيرِ، والثاني سَلَكَ طريقَ الشرِّ، والمَنْبَتُ واحدٌ، والبيتُ واحدٌ، والأبُ والأمُّ واحدٌ، فهذا أرادَ الخيرَ فهُدِيَ لهُ، وهذا أرادَ الشرَّ فهُدِيَ لهُ، قالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، واللهِ لن يُضلَّكَ اللهُ إلا وهوَ يَعْلَمُ أنكَ تريدُ الضلالَ.

ولذلكَ احْرِصْ على إحسانِ النيةِ، ومعاملتِكَ معَ اللهِ، واجْعَلْ عملَكَ خالِصًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، لا تُراعي فيهِ أحدًا، ولا تُريدُ أن يَمْدَحَكَ الناسُ، والأمرُ الثاني: اتَّبِعْ، فقدْ يكونُ تهَجُّدُ الإنسانِ خيرًا لا شَكَّ، وقدْ يكونُ غيرُ التهجدِ أفضلَ منهُ، ألم تَعْلَموا أن نبيَّكم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَحُثُّ على اتباعِ الجنائزِ، ومعَ ذلكَ يُفوتُ جنائزَ كثيرةً وما حَضَرَها؛ وذلكَ لأنهُ مُنشغِلٌ بما هوَ أفضلُ، ألم تَعلموا أنهُ كَانَ يَصُومُ حَتَّى يُقَالَ: قَدْ صَامَ، قَدْ صَامَ. وَيُفْطِرُ حَتَّى يُقَالَ: قَدْ أَفْطَرَ، قَدْ أَفْطَرَ[1]، هكذا جاءَ الحديثُ؛ لأنهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَتَّبِعُ ما هوَ الأفضلُ، فأنتَ احْرِصْ على اتباعِ السُّنةِ، فهيَ خيرٌ.

مثالٌ: رجلٌ قامَ يُصلي سُنَّةَ الفجرِ فأطالَ فيها القِراءةَ، وأطالَ الرُّكوعَ، وأَطالَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان، واستحباب أن لا يخلي شهرا عن صوم، رقم (١١٥٨).

السُّجودَ؛ لأنهُ يُحِبُّ أن يَقْرَأَ، ويُحِبُّ أن يَدْعُوَ اللهَ، وآخَرُ صَلَّى سُنةَ الفجرِ فخَفَّفَ حتى يَقولَ القائلُ: إنهُ لم يَقرَأْ بفاتحةِ الكتابِ، فأَيُّهما أفضلُ؟

الجوابُ: الأفضلُ هوَ الثاني الذي خَفَّفَ؛ لأنهُ أَتْبَعُ للسُّنةِ منَ الأولِ، معَ أن الأولَ أكثرُ عملًا، لكنْ مَن وافقَ السُّنةَ فعَمَلُه هوَ الأفضلُ، وإن قلَّ، واسْتَمِعْ إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، ولم يَقُل: أكثرُ، وكلُّ ما كانَ أوفقَ للشرعِ كانَ أحسنَ، فعليكَ يا أخي بهذهِ القاعدةِ المهمةِ.

احتجاجُ العاصِي بالقدرِ:

بَقِيَ أن يُقالَ: هلْ للعاصِي أن يَحْتَجَّ بالقَدَرِ على مَعْصِيَتِه؛ فإذا قِيلَ لهُ: اتقِ اللهَ واجتَنِبِ الحرامَ. قالَ: هذا مُقدَّرٌ عليَّ؟

الجوابُ: ليسَ للعاقلِ أن يَحْتَجَّ لمَعْصِيَتِه بقَدَرِ اللهِ، ولوِ احْتَجَّ لم يُقْبَلْ منهُ، واسْتَمِعْ إلى قولِ اللهِ تَعالَى في الردِّ على المُحْتَجِّينَ بالقَدَرِ؛ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، فجعَلَ اللهُ تَعالَى ذلكَ تَكْذِيبًا، وأَذاقَهُم بأسَه، ولو كانتْ حُجَّتُه صَحِيحةً ما كانَ قولُهم تكذيبًا، ولا ذاقُوا بأسَ اللهِ؛ لأن اللهَ لا يَظْلِمُ أحدًا، فالعاصِي إذا احتجَّ بالقَدَرِ فحُجَّتُه غيرُ مَقبولةٍ.

دليلٌ آخرُ: قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٤-١٦٥]، ومَعْلومٌ أن فِعْلَ الإنسانِ حتى بعدَ الرسالاتِ الإلهيةِ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، ولو كانَ

القضاءُ والقدرُ حُجَّةً لم تَنْتَفِ بإرسالِ الرسلِ؛ لأن فعلَ الإنسانِ واقعٌ بقَدَرِ اللهِ حتى بعدَ إرسالِ الرسلِ.

ثم نقولُ لهذا العاصِي: أنتَ الآنَ شَرِبتَ الخمرَ وتحتجُّ بالقدرِ، أرأيتَ لو قيلَ لكَ: هذهِ البلدُ لها طريقانِ؛ أحدُهما مَخوفٌ فيهِ قُطَّاعُ الطريقِ وفيهِ السِّباعُ، ووَعرٌ ومُتعِبٌ، والطريقُ الثاني لهذا البلدِ طريقٌ آمِنٌ مُسَفْلَتٌ سَهلٌ، فهلْ تَسْلُكُ الطريقَ الأولَ وتَحْتَجُّ بالقَدَرِ!

وحتى الذِي يَزْنِي ويقولُ: الزِّنَى بقَدرِ اللهِ، ويَشْرَبُ الخَمْرَ ويقولُ: شُرْبُ الخمرِ بقَدَرِ اللهِ، نقولُ: تعالَ، أرأيتَ لو أردتَ أن تُسافِرَ إلى بلدٍ لهُ طريقانِ أَحَدُهما مَخوفٌ كلُّه قُطَّاعُ طريقٍ وكلُّه سِباعٌ ووعرٌ وصعبٌ، والطريقُ الثاني سهلٌ آمنٌ مُطمئنٌّ، فأَيُّهما تَسْلُكُ؟ يقولُ: الثانِيَ ولا شكَّ، وفعلًا يَشُدُّ الرحلَ ويَمْشِي منَ الطريقِ الثاني.

نقولُ: إذا كنتَ تَسْعَى في الأسهلِ الآمنِ في طُرقِ الدنيا، فلماذَا لا تَسْلُكُ الأيسرَ الآمِنَ في طُرقِ الآخرةِ، فكلُّ إنسانٍ وأنتَ بنفسِك لو ذهبتَ في الطريقِ المَخوفِ الوعرِ وقلتَ: واللهِ هذا قضاءٌ وقَدَرٌ، فكلٌّ يقولُ: هذا غَلَطٌ، وليسَ بحُجَّةٍ.

فأنتَ قدْ أعطاكَ اللهُ إرادةً، وأعطاكَ عقلًا، فلماذَا لا تَسْلُكُ الطريقَ الآمِنَ؟!

فإذنْ لا حُجةَ للعاصِي على مَعصيتِهِ بقَدَرِ اللهِ، **فهيَ** حُجةٌ باطلةٌ ولا تَنْفعُه عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يَرِدُ على هذا إشكالٌ إلا حديثًا صحَّ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّ آدمَ وموسَى -عليهما الصلاةُ والسلامُ- تَحاجَّا فيما بَيْنَهُما، احتجَّ كلُّ واحدٍ على الآخرِ، ومُوسَى وَلَدُ آدمَ عليهما الصلاةُ والسلامُ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا، خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ**»؛ لأن آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ اللهُ لهُ ولزوجتِه:

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:٣٥]، ولكنِ الشيطانُ وسوسَ لهما وقاسمَهُما إني لكما لمِنَ الناصِحِينَ، فدَلَّاهما بغُرورٍ، وأكلَا منَ الشجرةِ، فأخرجهما اللهُ منَ الجنةِ؛ لأنهما أكلَا منَ الشجرةِ، فبمَعْصيةٍ واحدةٍ خرجَا منَ الجنةِ!

«**قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الأَرْضِ. قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟**»، قال النبيُّ ﷺ: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**»(١).

ومعنَى حَجَّهُ: غَلَبَه في الحُجَّةِ، فالذي غَلَبَ الآخَرَ آدمُ، مُحْتَجًّا بالقَدَرِ، قالَ: هذا شيءٌ كَتَبَهُ اللهُ عليَّ فماذا أصنعُ.

واختلفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ في تخريجِ هذا الحديثِ؛ لأن ظاهرَهُ أن آدمَ احْتَجَّ بالقَدَرِ، فغَلَبَ موسى، لكن أجابَ العلماءُ عنهُ بأحدِ جوابينِ:

الجوابُ الأولُ: أن موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَلُمْ آدمَ على الذنبِ، وإنَّما لامَهُ على نتيجةِ الذنبِ، وهِيَ الإخراجُ منَ الجنةِ، فاحْتَجَّ آدمُ بالقَدَرِ على المُصيبةِ لا على الفِعْلِ الذي كانَ مِن ثَمَرتِهِ المُصِيبةُ، فهوَ مِن بابِ الاحتجاجِ بالقَدَرِ على المُصيبةِ.

ونظيرُ ذلكَ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم (٦٦١٤)، ومسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٢).

وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»(١).

هذا وَجْهٌ، واختارَ هذا الوَجْهَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢)، وقالَ: ما كانَ لمُوسَى وَهُوَ أَحَدُ الرُّسُلِ الكِرَامِ، بَلْ مِنْ أَكَابِرِ الرُّسُلِ؛ لأَنَّهُ مِن أُولِي العَزْمِ، ما كانَ لِيَلُومَ أباهُ عَلَى ذَنْبٍ قد تَابَ منهُ وأنابَ إِلى اللهِ؛ فإنَّ آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تابَ إلى اللهِ، ثمَّ اجْتباهُ ربُّه فتَابَ عليهِ وهَدَى، فكيفَ يَلِيقُ بمُوسَى أن يَلُومَ أباهُ على ذَنْبٍ تابَ منهُ واجتباهُ اللهُ تعالى بعدَ ذلكَ وتابَ عليهِ، إن الإنسانَ لو لامَ شخصًا مثلَه على ذَنْبٍ تابَ منهُ لكانَ هذا اللائمُ ملومًا، فكيفَ برسولٍ مِن أولي العزمِ؟!

وما قالَهُ شيخُ الإسلامِ مُتَّجِهٌ وجَيِّدٌ، وذهبَ تلميذُه ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ(٣) إلى الوجهِ الثاني: أن احتجاجَ الإنسانِ بالقَدَرِ على مَعصيةٍ تابَ منها وتركَها لا بأسَ بهِ، وأنهُ لم يُرِدْ -أيِ المُحْتَجُّ بالقَدَرِ- أن يَدْفَعَ اللومَ عن نفسِه؛ لأنهُ مُقِرٌّ بالذنبِ، ولكنهُ تائبٌ، ونظيرُ ذلكَ أن يَزِلَّ شخصٌ مُلتزِمٌ زَلَّةً، فيأتي الصاحبُ ويقولُ: يا فلانُ، آسِفٌ عليكَ أن تفعلَ كذا وكذَا. فيقولُ: واللهِ هذا قضاءُ اللهِ وقَدَرُه، وهوَ لم يَحْتَجَّ بالقضاءِ والقدرِ على أن يُصِرَّ على المَعصيةِ، بل نَدَمًا على ما جَرَى منهُ، وهذا لا بأسَ بهِ.

وما ذَهَبَ إليهِ ابنُ القيمِ هوَ أيضًا وَجِيهٌ، فيكونُ الجوابُ عن حديثِ آدمَ إما بما اختارَهُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ، وإما بما اختارَهُ تلميذُهُ ابنُ القيمِ، وكلاهُما صحيحٌ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٢٥).

(٣) انظر شفاء العليل (ص:١٣).

أما إذا احْتَجَّ الإنسانُ بالقَدَرِ على المَعصيةِ لِيَسْتمِرَّ فيها، فهذَا لا شكَّ أنهُ لا حُجَّةَ فيهِ، وأنهُ لا يُعذرُ فيهِ الإنسانُ. نسأَلُ اللهَ أن يَهْدِيَنا جميعًا لما يُحِبُّ ويَرْضَى.

وأَسأَلُ اللهَ تَعالَى أن يَهدِيَنِي وإياكُم صِراطَهُ المُستقِيمَ، وأنْ يَتولَّانَا في الدنيا والآخرةِ، وأن يَجْعَلَ خيرَ أعمالِنا آخِرَها، وخيرَ أعمالِنَا خَواتِيمَهَا.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِهِ.



الدَّرسُ الثَّالِث:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿كُلَّ﴾ مَفْعولٌ بِهِ لِفعلٍ مَحذوفٍ عَلَى الاشتغَالِ، والتقديرُ: إِنَّا خَلَقْنا كلَّ شَيْءٍ بِقَدرٍ.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ يَشْمَلُ جَميعَ مَا سِوَى اللهِ، فاللهُ خَالقٌ، ومَا سِوَاهُ مَخْلوقٌ، فَكلُّ شَيْءٍ مَخلـوقٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ فَالسَّماواتُ، والأَرضُ، والنجومُ، والجبـالُ، والشجَرُ، والدَّوابُّ، كُلُّ شَيْءٍ سِوَى الخالقِ فَإِنَّهُ مَخْلوقٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الرعد، الزمر:٦٢]، وَقَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

فَالآدَمِيُّ وَأَفْعَالُهُ، وَأَقْوالُهُ، وَصِفَاتُهُ: منَ الطُّولِ، والقِصرِ، والجمالِ، والقُبحِ، كُلُّهُ مَخلوقٌ، فَكلُّ شَيْءٍ مَخلوقٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، واللهُ تَعَالَى هُوَ الخالقُ.

أَمَّا صِفاتُ الربِّ عَزَّوَجَلَّ كَسَمْعهِ، وبَصَرِهِ، وقُدرتِهِ، واسْتوائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، ونُزولِهِ إلى السَّماءِ الدُّنيَا، وَإتيانِهِ لِلفصلِ بَيْنَ عِبادِهِ، غَيرُ مخلوقةٍ؛ لِأَنَّ الصِّفاتِ تَابعةٌ لِلذاتِ، فَكما أَنَّ ذاتَ الخالقِ عَزَّوَجَلَّ غيرُ مَخلوقةٍ، فَكَذلك صفاتُهُ غيرُ مَخلوقةٍ.

فكلامُ اللهِ غَيرُ مَخلوقٍ؛ لِأَنَّ الكلامَ صِفةُ المتكلمِ، فَالقُرْآنُ غيرُ مَخلوقٍ؛ لِأَنَّ القُرْآنَ كلامُ اللهِ بنصِّ القُرْآنِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، والمرادُ بِهِ القُرْآنُ بِإجماعِ المُفسِّرِينَ، فإذَا كَانَ

كذلكَ، فالقُرْآنُ غيرُ مخلوقٍ؛ لِأَنَّهُ كلامُ اللهِ، وَاللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى فرَّقَ بَيْنَ الخَلْقِ، والأمرِ، والقُرْآنُ منَ الأمرِ، وليسَ منَ الخلقِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فَجعلَ القُرْآنَ منْ أَمرِ اللهِ، وفرَّقَ اللهُ تعالَى بَيْنَ الخلقِ وَالأمرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فَالعطفُ يَقْتَضِي المُغايرةَ، أَيْ: أَنَّ المعطوفَ غَيْرُ المعطُوفِ عَلَيْهِ، وَحِينئذٍ يَكونُ أَمْرُ اللهِ -وَمِنْهُ القُرْآنُ- قَسِيمًا لِلخلقِ، ولَيْسَ منَ الخلقِ.

فَمَنْ قَالَ: إِنَّ القُرْآنَ مَخْلوقٌ، لَبطَلَ بقولهِ هَـذَا كُلُّ أَمرٍ وكلُّ نَهيٍ، وبَقِيتِ الأوامرُ وَالنَّواهِي الَّتِي فِي القُرْآنِ لَا قِيمةَ لَهَا؛ لِأَنَّك إِذَا قُلتَ: إِنَّه مَخْلوقٌ، فكَلِمَةُ: أَقِيمُوا الصَّلَاةَ، مَكْتوبةٌ عَلَى شَكْلٍ مُعَيَّنٍ، فإذَا قُلتَ: إِنَّها مَخْلوقةٌ، صَارت كَما لَو نَقَشَ الإِنْسَانُ عَلَى الأَعْمدَةِ، لَيْسَ لهَا قِيمةٌ، وَلَا تَدُلُّ عَلَى أمرٍ، وكذلكَ لَو قُلتَ: إِنَّ القُرْآنَ مَخلوقٌ مَسموعٌ منْ عندِ اللهِ، لَزِمَ أَيضًا أَلَّا تكونَ فِيهِ أَوامرُ ولَا نواهٍ؛ لِأَنَّنا نَسْمَعُ أَصواتَ الرعدِ، وأَصواتَ الهواءِ، وَالزَّلازلِ، وهيَ مَخْلوقةٌ، لَكنْ لَا تَدل عَلَى أمرٍ ونهيٍ.

وَلِهَذَا قَالَ العُلَمَاءُ: إِنَّ مَنْ قالَ: إِنَّ القُرْآنَ مَخلوقٌ، لَزِمَ عَلَى قولِهِ إِبطالُ الأمرِ وَالنهيِ، وَبَقِيتِ الشرائعُ كُلُّها غَيرَ قائمةٍ، إِنَّما هِيَ حُروفٌ خُلِقتْ عَلَى هَذَا الشكلِ كَما خُلقت الثُّريا نُجومًا مُتَعددةً، وكَذَلك الجوزاءُ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ[1].

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّه سُمِعَ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِأصواتٍ.

قُلْنَا: إذَا قُلتَ: إِنَّ هَذِهِ الأصواتَ مَخْلوقةٌ صَارت لَا تَشْتمِلُ عَلَى أوامرَ

---

(١) انظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (ص:٣٥٧).

وَلَا نَواهٍ، كَأَصْواتِ الرعدِ، وحَفيفِ الرِّياحِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَعَقيدتُنَا أنَّ كلامَ اللهِ غيرُ مخلوقٍ، وأنَّ القُرْآنَ منْ كَلامِ اللهِ، فَالقُرْآنُ غَيرُ مخلوقٍ، وهَذِهِ هِيَ النتيجةُ الحتميةُ الَّتِي تُبطِلُ قولَ كُلِّ مَن قالَ: إنَّ القُرْآنَ مخلوقٌ، وإنَّ قولهُ جِنَايةٌ عَلَى كلامِ اللهِ، فَكلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أشرفُ وأجلُّ منْ أَنْ يَكونَ مخلوقًا؛ لِأَنَّهُ صِفتُه، والصِّفَةُ تَابعةٌ لِلموصوفِ.

والمِحْنةُ الَّتِي جَرَتْ فِي عَهدِ المأمونِ، تُبيِّنُ لَنَا مَا امْتُحِن بهِ أَئِمَّةُ الهُدَى منْ هَذَا القولِ الباطِلِ، فصَارتِ العاقبةُ لِلمُتَّقِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، صَارتِ العاقبةُ لِلمُتقينَ، لِإِمامِ أهلِ السنَّة، أحمدَ بنِ حنبلٍ، وَذَوِيهِ، ودُحِضَ أهلُ الباطلِ الَّذِينَ قَالُوا: إنَّ القُرْآنَ مخلوقٌ.

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي (نُونِيَّتِهِ) العَظِيمَةِ:

وَالحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلَا ... تَعْجَبْ فهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ(١)

فَلَا بُدَّ أَنْ يُمْتَحَنَ الحقُّ بأهلِ الباطلِ، فاقْرَأْ قَولَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [مُحمَّد:٤]، أي يَخْتبِرَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ.

فَعَلينا بِالصبرِ وَالثباتِ عَلَى الحقِّ، الَّذِي عليه سَلَفُ الأُمةِ، وَإِيَّاكَ وبُنيَّاتِ الطريقِ، وحَوادِثِ البِدَعِ، فإنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ قالَ: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٢).

---

(١) انظر: نونية ابن القيم (ص:١٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

إِذَنْ، يُستَثْنَى منْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾ صفاتُ اللهِ تَعَالَى: الذَّاتيةُ، وَالفعليَّةُ؛ لِأَنَّ الصِّفاتِ تَابعةٌ لِلْموصوفِ.

﴿بِقَدَرٍ﴾ يَعْنِي: بِتَقديرٍ، لَا يَفوتُ وَلَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقصُ عَمَّا قَدَّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١]، فحَبَّاتُ المَطَرِ الَّتِي تَنْزِلُ تَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَعْلومٍ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فيَعْلَمُ عَزَّوَجَلَّ نُقْطةَ المَطَرِ مَتَى نَزَلتْ، وأَيْنَ نَزَلَت، وكَيْفَ نَزَلت؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عندَ اللهِ خَزائنُهُ، وكلُّ شَيْءٍ مُقدَّرٌ عِنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الآجالُ، والأَرزاقُ، والأحوالُ مُقَدَّرةٌ، واختِلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ، كُلُّ شَيْءٍ مُقدَّرٌ.

﴿خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾ قَالَ أهلُ العلمِ: مَرْتبةُ الإيمانِ بالقَدَرِ عَظيمةٌ؛ لِأَنَّهُ أحدُ أَرْكانِ الإيمانِ، فَمَن لَمْ يُؤمنِ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّه، فإنَّ إيمانَهُ نَاقصٌ، ورُبَّما يكونُ مَعْدُومًا بالكُلِّيَّةِ، والدَّليلُ عَلَى أنَّ الإيمانَ بالقَدَرِ أحدُ أَرْكانِ الإيمانِ، مَا جَاء فِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الخطابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ جِبْرِيلَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عنِ الإيمانِ، فَقَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1]، فَالإيمانُ بِالقَدَرِ ذُو مَرتبةٍ عَظيمةٍ؛ لِأَنَّهُ أحدُ أركانِ الإيمانِ.

مَراتبُ الإيمانِ بالقدرِ:

المَرْتَبَةُ الأُولَى: أَنْ تُؤْمِنَ بعِلْمِ اللهِ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيِّ، وأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَالِمٌ بكُلِّ شيءٍ، جُمْلةً وتَفْصِيلًا.

فقولُنا: «الأزليُّ»، يعنِي: الماضِي، و(الأبديُّ) يَعني: المُسْتقبَل، قَالَ مُوسَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو، رقم (٩).

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ سَأَلَهُ فِرعونُ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢]، ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ أَيْ: لَيسَ بِجاهلٍ مَا يكونُ، ﴿وَلَا يَنسَى﴾ مَا يَكونُ؛ فعِلْمُ المخلوقِ محْفوفٌ بِآفتينِ، الجهلِ، وهوَ سابقٌ عليْهِ، والنِّسْيانِ وهوَ لاحقٌ عليْه، أمَّا عِلْمُ الخالقِ فإنَّهُ أَزَليٌّ أَبديٌّ.

والدَّلِيلُ عَلَى عِلْمِ اللهِ الإجْمَالِيِّ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢]. والدَّلِيلُ عَلَى عِلْمِ اللهِ التَّفْصيلِيِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، وَقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾ [فصلت:٤٧]، والآياتُ فِي هَذَا كَثيرةٌ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: هلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُهُ بَنُو آدمَ؟

قُلْنا: يَعْلَمُ اللهُ مَا يَعْمَلُهُ بَنُو آدَمَ، سَواءٌ كَتَموهُ أَمْ أَبدَوْهُ، بَل أَبْلَغُ منْ هَذَا أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفسُ الإِنْسَانِ، وَلَقَدْ قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، بَلْ إِنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعْلَمُ ما سَيَكونُ فِي المُستقبَلِ لِلْإِنْسَانِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

المرْتبةُ الثَّانيةُ: أَنْ تُؤمِنَ بأنَّ اللهَ كَتَبَ مَا سَيَكونُ إِلى يوم القيامةِ فِي اللَّوحِ المَحفوظِ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ**

كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ»[1]، ودليلُ هَاتينِ المَرْتبتَيْنِ منْ مَراتبِ الإيمانِ بِالقَدَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠]، فهَذَا العلمُ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ أَيْ: مَكتوبٌ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

المرتبَةُ الثَّالِثةُ: أَنْ تُؤْمِنَ بأنَّ كُلَّ مَا حَدَثَ فِي الكونِ، فَإِنَّهُ بِمَشيئةِ اللهِ، لَا أَحَدَ يُكرِهُهُ عَلَى ما يُريدُ فَيفْعَلَ، أَو عَلَى مَا لَا يُرِيدُ فَيَتْرُكَ، بَلْ هُوَ سُبْحانَهُ وَتَعَالَى لَه المَشيئةُ التامَّةُ، أَمَّا مَا يَتَعلَّقُ بِأَفعالِهِ فَالأَمرُ ظَاهرٌ: يُحْيِي بِمَشِيئتِه، وَيُميتُ بِمَشِيئَتِهِ، وَيَرفعُ السَّماءَ بِمَشِيئَتِهِ، وَيَضَعُ الأرضَ لِلْأَنامِ بِمَشِيئتِه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هلْ أَفْعالُ العبادِ بِمَشيئةِ اللهِ؟

قُلْنَا: نَعم، أَفْعالُ العبادِ بِمَشيئةِ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]، وَقَالَ فِي آيةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١٣٧]، إِذَنْ، أَفْعالُنا بِمَشِيئةِ اللهِ.

فإنْ قِيلَ: أَلَيْست لَنا مَشِيئةٌ نَخْتارُ مَا نُريدُ؟

قُلْنَا: بَلى، لَكنْ مَشِيئَتُنَا تَابِعةٌ لِمَشيئةِ اللهِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الكونِ فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ للهِ، وَدليلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧/ ٣٧٨، رقم ٢٢٧٠٥).

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢]، فخَلَقَ اللهُ الآدمِيَّ، وخَلَقَ صِفاتِهِ الذاتيَّةَ، كأَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ طويلًا أو قصيرًا، أَوْ أَبيضَ أو أسوَدَ، أَوْ سَريعَ الغضبِ أَوْ بَطِيءَ الغَضَبِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَلَا يُنْكِرُ أَحدٌ أَنَّهُ مِنْ خَلْقِ اللهِ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: هلْ أَفْعالُ العبدِ الاختيارِيَّةُ مخلوقةٌ للهِ؟

قُلْنَا: نَعَمْ، أَفعالُ العبدِ الاختيارِيَّةُ مخلوقةٌ للهِ، ودَلِيلُهُ قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، فَقَائِلُ هَذَا إِبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحَكَاهُ اللهُ عَنْه مُقَرِّرًا إِيَّاهُ، قَالَ إِبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦]، يعْنِي: خَلقَ الَّذِي تَنْحِتونَهُ، فكَيْفَ تَعْبُدونَ مخلوقًا، والعِبَادَةُ لَا تَكونُ إِلَّا لِلخالقِ، وَهَذَا دَليلٌ مِنَ الأَثَرِ، والدَّلِيلُ النَّظَرِيُّ هُوَ أَنَّ فِعْلَ الإِنْسَانِ منْ صِفاتهِ، وصِفَاتُ المَخلوقِ مَخْلوقةٌ.

وإِذَا أَصَابَنا مَا نكْرَهُ مَعَ بَذْلِ الأسبابِ النافعَةِ، فَحِينئِذٍ نَسْتَسلِمُ لِلْقضاءِ، لكنْ إِذَا أصَابَنا ما نكْرَهُ مَعَ عدمِ فِعْلِ الأسبابِ، فَإِنَّنا نُلامُ عَلَى ذلكَ؛ لِأَنَّ الواجبَ أَنْ يَفْعَلَ الإِنْسَانُ الأسبابَ الَّتِي تَنْفَعُهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»(١). أمرَنَا أَنْ نَفْعَلَ مَا يَنْفَعُنا، وأَنْ نَحْرِصَ عَلَيْه، فإِذَا لَمْ يأتِ الأمرُ عَلَى مَا نُرِيدُ، حِينَئِذٍ نَسْتَسلِمُ للقضَاءِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

مِثَالُ ذلكَ: أنَّ الإِنْسَانَ مَأْمورٌ بالتكسُّبِ الحَلالِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة:١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، فإِذَا فَعَلَ الإِنْسَانُ الأسبابَ، ثُمَّ لَمْ يَرْبَحْ وخَسِرَ، فَلَا يُلامُ؛ لِأَنَّهُ حَرَصَ عَلَى مَا يَنْفَعُه، ولكنْ صَارَ قَضاءُ اللهِ وَقَدَرُهُ فَوْقَ إرادةِ الإِنْسَانِ، فَاحْرِصْ عَلَى كُلِّ مَا يَنْفَعُكَ فِي أُمورِ دِينِكَ وَدُنْياكَ، وإِذَا لم يأتِ الشيءُ عَلَى ما تُرِيدُ، فقلْ: قَدَرُ اللهِ ومَا شاءَ فَعَلَ، ولَا تَحْزَنْ، ولَا تَأْسَ عَلَى ما فَاتَكَ؛ لِأَنَّ ما قُدِّرَ أَنْ يَكونَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكونَ، وتَغْيِيرُ الحالِ بَعدَ وُقوعِ الشَّيءِ منَ المُحالِ.

فعلَيْنا التَّسليمُ لِلقضاءِ وَالقَدَرِ، وَبِذَلكَ يَطْمَئِنُّ الإِنْسَانُ، ولَا يُصِيبُهُ نَدَمٌ، ولَا حُزْنٌ، لَاسِيَّما إذَا عَلِمَ أنَّ هَذِهِ المصائبَ تكفيرٌ لِلسيِّئاتِ، ورِفعةٌ للدرجاتِ، فإِنَّ ذلكَ يُهوِّنُ الأمرَ علَيْه.

قِيلَ لِرابعةَ العَدَويَّةِ- وقدْ أُصِيبَتْ فِي إِصْبَعِها، فَحَمِدتِ اللهَ عَلَى ذلكَ، فقالُوا لها: كَيْفَ تَحْمَدِينَ اللهَ وَالإِصْبَعُ قَد أَصابهُ مَا أَصابه، فَقَالتْ: إنَّ حلاوةَ أَجْرِها أَنْسَتْنِي مَرارةَ صَبْرِها[1].

إنَّ الإِنْسَانَ يُثابُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يُصِيبُه مِنْ همٍّ وغَمٍّ وحُزْنٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ، وَلا هَمٍّ وَلا حُزْنٍ وَلا أَذًى وَلا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»[2]، فالشَّوكةُ إذَا أصابتِ الإِنْسَانَ فصَبَرَ واحْتَسَبَ، نَالَ بِذَلك أجرًا، ويَقُولُ فِي نَفْسِهِ: الحمدُ للهِ، إذَا حَصَلَ لِيَ الأَذَى فِي

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم (٥٣١٨).

دُنيايَ، حَصَلَ لي بِذَلِكَ الأجرُ والثوابُ فِي أُخْرايَ.

وَلِهَذَا قَالَ عَلْقَمةُ رَحِمَهُ اللَّهُ -وهوَ مِنْ كِبارِ أَتْباعِ عَبدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتَلَاميذِهِ- فِي قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى ويُسَلِّمُ»[١]، فَيَهديهِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَهْدِي قَلْبَهُ بِالطُّمَأنينةِ، والانشِرَاحِ، وَعَدَمِ التحسُّرِ.

وهُنَا يَرِدُ سؤالٌ: لَو أنَّ العاصِيَ نَهَيْناه عنِ المعصيةِ، وَقَالَ: واللهِ هَذَا بِقَدَرِ اللهِ، فهَلْ لَهُ حُجةٌ فِي هَذَا؟

الجَوَابُ: لَيْست لَه حُجةٌ؛ لِأَنَّهُ أَقْدَمَ عَلَى هَذِهِ المعصيَةِ بِاختيارِهِ، وهَذَا شَيْءٌ مُشاهَدٌ، فَلَا حُجَّةَ لَهُ.

يُذْكَرُ أنَّ أميرَ المُؤمنينَ عُمَرَ بْنَ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهوَ الخليفةُ الثَّاني لِهَذِهِ الأُمةِ، رُفِعَ إِلَيْهِ السارقُ، وتَمَّتْ شُرُوطُ القَطعِ فِي السَّرِقَةِ، فَأَمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ تُقطعَ يَدُه، وكَانَ أميرُ المؤمنينَ عُمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْروفًا بالعدلِ، قالَ: مهلًا يَا أَميرَ المؤمنينَ، لَا تَقْطَعوا يَدِي، واللهِ مَا سَرَقْتُ إِلَّا بقَدَرِ اللهِ، فقالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ونَحنُ لَا نَقطعُ يَدَكَ إلَّا بِقَدرِ اللهِ»[٢]، فَأَبطَلَ حُجَّتَهُ، وَمَعَ أَنَّ القَطْعَ بقَدَرِ اللهِ، وشَرْعِ اللهِ، وهوَ يَسْرِقُ بِقَدَرِ اللهِ لَا بِشَرْعِ اللهِ، فَالشَّرْعُ لَا يَأْذَنُ لَهُ بِالسَّرِقةِ، إِلَّا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَم يَقل لَه: نَحْنُ نَقْطَعُكَ بِقَدَرِ اللهِ وَشَرْعِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُلقِمَ الإِنْسَانَ حُجَّته منْ نُطقِهِ.

---

(١) انظر: الكشف والبيان للنيسابوري: (٩/ ٣٢٩).

(٢) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة الأشرار (٢/ ٤٩٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

أَيْ: أنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أرادَ شَيْئًا وأَمَرَ أَنْ يَكونَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكونَ هَذَا الشيءُ بِدُونِ تَكْرارٍ، وبِدونِ تَأخيرٍ مثل لَمحِ البصرِ.

فَائِدَةٌ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾، ولمْ يَقُلْ: أَوْ أَقْرَب، وفِي أمرِ الساعةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

والسرُّ فِي هَذَا أنَّ الساعةَ يُنْكِرُهَا الكُفَّارُ، فبيَّنَ اللهُ أنَّ أمرَ الساعةِ سَهْلٌ عِنْدَ اللهِ: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

أَمَّا عُمومُ الأمرِ فَلَمْ يَقُلْ: أَوْ أَقْرَبُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾.

فَالأمواتُ فِي قُبُورِهِمْ يَوْمَ القيامَةِ يَأْمُرُهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَيَخْرُجون بِأَمْرٍ واحِدٍ دَاخِلٍ فِي العُمُومِ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾، وهُنَاكَ شَيْءٌ بِخُصُوصِه، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، أَيْ: عَلَى وَجْهِ الأرضِ فَسُبْحانَ مَن يُحْصِي العالَمَ مُنذ خَلَقَ آدمَ إِلَى قِيامِ السَّاعةِ، وَيُخْرِجُهم مِنْ أَراضٍ كلداءَ صَعبةٍ، وأَراضٍ رَمْلِيَّةٍ سهلةٍ، وأَراضٍ جَبَلِيَّةٍ صَعْبةٍ، يُخْرِجُ الجميعَ خُروجَ رَجلٍ واحدٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]، يَأْمُرُهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فَيَخْرُجونَ، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، كُلُّهم جَاؤُوا، وأُحضِروا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِلقضَاءِ بَيْنَهم بِكَلِمَةٍ واحدةٍ.

قصتان في بيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ:

وهناكَ قِصَّتانِ تُبيِّنانِ لَنَا الدَّلِيلَ عَلَى قُدرةِ اللهِ، وأنَّ أَمْرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

القصَّةُ الأُولَى: مُوسَى مَعَ فرعونَ:

لَمَّا خرجَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقَوْمُه مِن مِصرَ مُتَّجِهِينَ إِلى الشامِ عَبْرَ البحرِ الأحمرِ، وَصَلُوا إِلى البحرِ، وإِذَا فِرعونُ بِجُنودِهِ وَرَاءَهُمْ وَالبحرُ بِلُجَجِهِ أَمَامَهم، فقالَ أَصْحابُ مُوسَى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، فَإِنْ تَقَدَّمْنا لِلبَحْرِ غَرِقنا، وإِنْ وَقَفنا أَدْرَكَنا فِرْعَونُ، فقالَ لَهُمْ مُوسَى مَقالَةَ المُطْمَئِنِّ، الواثقِ بِاللهِ: ﴿قَالَ كَلَّآ﴾، لَسْتُمْ بِمُدْرَكِينَ، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، فَالإِيمانُ وَاليَقِينُ عندَ الشَّدَائِدِ يُعرَفُ بِهِ المرءُ: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْه أنْ يَضْرِبَ بِعَصاهُ البحرَ، فنِسْبَةُ عصَا مُوسَى لِلبحرِ الأَحمرِ لَا شيءَ؛ ولَا مُقارنةَ بَيْنَهما، فعَصَا مُوسَى كَعَصَا الرَّجلِ العاديَّةِ، يَتوكَّأُ علَيْها، ويَهُشُّ بِها عَلَى غنمِهِ، والبحرُ واسعٌ، تَجْرِي فِيهِ السفنُ.

فَمُوسَى ضَرَبَ بِعَصاهُ البحرَ، فصَارَ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا، وفِي الحالِ تمايزَ الماءُ حَتَّى صارَ ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣]، أَيْ: كَالجبلِ العظيمِ، وصَارتِ الأَرْضُ يَابسةً فِي الحالِ، وَعبَرَ مُوسَى وقَوْمُه، وَنَجَوْا، وَدَخَلَ فِرْعونُ وقومُهُ وَغَرِقوا فِي لَحْظةٍ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى قُدْرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأَنَّ أَمْرَه كَما قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

القصَّةُ الثَّانيةُ:

والقصةُ الثَّانيةُ وَقَعتْ لِخَاتَمِ الأنبياءِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: دخَلَ رَجُلٌ يومَ الجُمُعَةِ

والنَّبيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ: هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعْتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغيثُنَا، وكَانتِ السَّماءُ صَحْوًا مِنْ أَقْصاها إِلَى أَقْصاهَا، فرَفَعَ النَّبيُّ ﷺ يَدَيْه، وَقَالَ: ثَلاثَ مَرَّاتٍ: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا»، فَخَرَجت سَحَابةٌ مِثْلَ التُّرْسِ[1] صغيرةٌ، وَفِي الحالِ ارْتَفَعت فِي السَّماءِ، وانْتَشَرت، وَتَوَسَّعت، وَرَعَدت، وبَرَقَت، وأَمْطَرت، ومَا نَزَلَ النَّبيُّ ﷺ مِن مِنْبَرِه إِلَّا والمَطَرُ يَتَحَادَرُ مِن لِحْيَتِهِ بِهَذِهِ السرعةِ العظيمَةِ.

وَبقِيَ المَطَرُ عَلَى المَدِينَةِ أُسبوعًا كَاملًا والسَّماءُ تُمْطِرُ، والأرضُ تَجْرِي، فَدَخَلَ رجلٌ أَوِ الرجلُ الأولُ منَ الجُمُعَةِ الثَّانيةِ، وَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكُهَا عَنَّا»، فمِنْ كَثْرةِ المَطرِ البِناءُ تهدَّمَ، والمالُ غرِقَ، والحيوانُ جَرَتْ بِهَا الأَوْديَةُ، والزُّروعُ أَفْسَدَتْها كَثرةُ الماءِ، فَادعُ اللهَ يُمْسِكُها عنَّا.

هَذَا الرجلُ طَلَبَ منَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ أنْ يُمْسِكَها اللهُ، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ لَم يُوَافِقْهُ فِي وَجْهٍ، وَوَافَقَهُ فِي وجهٍ، فَماذَا قَالَ الرَّسُولُ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا»، مَا دَعَا بِالإِمْساكِ، دَعَا بِشَيْءٍ يَحْصُلُ بِهِ الخيرُ، وَيَنْتَفِي بِهِ الضَّررُ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ[2] وَالجِبَالِ وَالآجَامِ[3] وَالظِّرَابِ[4] وَالأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ»، فَانْجَابتِ السُّحبُ عنِ المَدِينَةِ، حَتَّى إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ يُشيرُ إِلَى السُّحبِ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا،

---

(١) التُّرْس: ما كان يُتَوَقَّى به في الحرب. المعجم الوسيط (ترس).

(٢) جمع أكم، وهي الرابية. انظر: النهاية (أكم).

(٣) أي: الحصون. انظر: النهاية (أجم).

(٤) الظراب: الجبال الصغار، واحدها: ظَرِبٌ بوزن كتف. وقد يجمع في القلة على أَظْرُب. النهاية (ظرب).

وَلا عَلَيْنَا»[١]، وَيُشَاهِدُ الصَّحَابَةُ السحابَ يَتَمايَزُ، بِأَمرِ اللهِ، لا بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ لَم يَقُلْ: يَا سَحابُ، حَوالَيْنا وَلَا عَلَيْنا، بَلْ دَعَا رَبَّهُ، فقالَ: «**اللهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلا عَلَيْنَا**» لَكنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُشِيرُ إلى ما كَانَ حَولَه وَالسَّحابُ يَتَمايَزُ يَمِينًا وشِمالًا بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِسرعةٍ.

فالشَّواهِدُ عَلَى كونِ أوامرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ كثيرةٌ جدًّا، وَبِهِ يَتَبَيَّنُ كَمالُ قُدرةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَقوَّتهِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).



سورة الرحمن

الدَّرسُ الأوَّل:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّم عَلَى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يوم الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤].

إن سُورَةَ الرَّحْمَنِ سُورَةٌ عظيمةٌ من أعظمِ السُّورِ، ففيها ابتدأ اللهُ بهذا الاسمِ الكريمِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وهو مُبْتَدَأٌ، وجملةُ: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ خَبَرُ المُبْتَدَأِ. فما الرَّحْمَنُ؟

الرحمنُ اسمٌ من أَسماءِ اللهِ، من أشرفِ أسمائِه وأعظمِها، والعجَبُ أن المُشرِكينَ يُنكِرُونه، حتَّى عندَ كتابةِ الصُّلْحِ بينَهم وبينَ الرَّسُولِ ﷺ فِي الحُدَيْبِيَة لَمَّا قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قال سُهَيْلٌ مُمَثِّلُ قُرَيْشٍ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ». فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبدِ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ». ثمَّ ذكَرَ الشُّروطَ[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

فانظُرْ -يا أخي- كيفَ كانَ النَّبيُّ ﷺ يُراعِي المَصْلَحَةَ فِي أَمْرٍ عَظيمٍ؛ وهو عَدَمُ كِتابةِ اسْمٍ من أسماءِ اللهِ، وفي عَدَمِ كتابةِ رِسالتِه، مَعَ أَنَّه حَقٌّ، ولهذا قال: «**وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي**»، فتنازَلَ عن اسمٍ من أسماءِ اللهِ، وعن الإقرارِ برسالةِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكلُّ هذا من أجلِ المَصْلحةِ.

ولهذا لمَّا بَلَغَ النَّبيُّ ﷺ الحُدَيْبِيَةَ بَرَكَتِ الناقةُ، فزَجَرَها الناسُ فلم تَقُمْ، فقالوا: خَلأَتِ القَصْوَاءُ، خَلأَتِ القَصْوَاءُ. يعني: حَرَنَتْ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا خَلأَتِ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ**». فدافع حتَّى عن البَهائِمِ، فالظُّلْمُ لا أَحَدَ يَرْضَاهُ، يقولُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**»[1].

وفعلًا هَذَا الَّذِي حَصَلَ، أَجابَهم عَلَى هَذَا الأمرِ العظيم، وهو مَحْوُ اسمِ الرَّحْمَنِ من البسملةِ، والثَّاني مَحْوُ وصفِه بالرسالةِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكُلُّ هَذَا لتعظيمِ حُرماتِ اللهِ.

وتَعْرِفونَ أيضًا أَنَّه ذُكِرَت شُروطٌ صعبةٌ عَلَى المُسْلِمِينَ، ومعَ ذلك قَبِلَها، ومن أَعْظمِ الشُّروطِ أن يَرْجِعَ ولا يُتِمَّ العُمْرَةَ، وأن يَأْتِيَ من العامِ القادمِ، وأَلَّا يَبْقَى إِلَّا ثلاثةَ أيامٍ، وأنَّ مَن جاءَ منهم مُسلِمًا رَدَدْناه إليهم، ومَن ذَهَبَ منَّا إليهم لا يَرُدُّونه، فهذا الشَّرطُ ظَاهِرُه الحَيْفُ والجَوْرُ، فكيفَ نَقولُ: مَن جاءَ منكم مُسْلِمًا رَدَدْناهُ إليكم، ومَن جاءَكم مِنَّا لا تَرُدُّونه! ولهذا حَاوَلَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلْغاءَ هَذَا الشَّرطِ، وناقشَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَلَسْنا عَلَى الحَقِّ، وَعَدُوُّنا عَلَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

البَاطِلِ؟ قَالَ: «**بَلَى**». قال: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَنْ؟ قال: «**إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**»[(١)]. فدَلَّ هَذَا عَلَى أن هَذِهِ الشروطَ كانتْ بإقرارٍ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ ذَهَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ؛ لأنَّ أبا بكرٍ أخصُّ النَّاسِ برسولِ اللهِ ﷺ وهو الَّذِي قالَ عنه: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**»[(٢)]. ذهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يُناقِشُه، فكانَ جَوابُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كجَوابِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ سواءً بسواءٍ. فكُتبت الشروطُ.

وقال النَّبِيُّ ﷺ مُدافِعًا عن هَذَا الشَّرطِ الثقيلِ: أن مَن جاءَ منهم مُسلمًا رَدَدْناهُ إليهم، ومَن جاءَ منا إليهم لا يَرُدُّونه: «**إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا**»[(٣)]؛ لأنَّ مَن ذَهَبَ من المُسْلِمِينَ إِلَى الكفَّارِ يعني أنَّه اختارَ الكُفْرَ عَلَى الإيمانِ، لكن مَن جاء منهم مُسْلِمًا فرَدَدْناهُ فإنَّه سيَجْعَلُ له اللهُ فَرَجًا ومَخْرَجًا.

ووقَعَ الأمرُ كذلك؛ وذلك في قِصَّةِ أبي بَصِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حينَ جاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُسْلِمًا، فأَلْحَقَتْ به قُرَيْشٌ رَجُلينِ يَطْلُبَانِه من الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلما وَصَلَ المَدِينَةَ إذا بالرجلينِ يَلْحقانِ به، فطَلَبا من الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَرُدَّه إليهما،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٥٨١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩٠٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية، رقم (١٧٨٤).

وقالا للرَّسُولِ ﷺ: العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا. فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ(١)، وَفَرَّ الآخَرُ حَتَّى أَتَى المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: «**لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا**». فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ. فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، قَدْ وَاللهِ أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَيْلُ امِّهِ(٢) مِسْعَرَ حَرْبٍ(٣)، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ**». فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ البَحْرِ، أي سَاحِلَه عَلَى جَادَّة قُرَيْشٍ ذَهابهم إِلَى الشام ورُجوهم إِلَى مَكَّة، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَمَا يَسْمَعُونَ بِبعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، لأنَّ قُرَيْشًا فِي ذلك الوقتِ كانوا حَرْبِيِّينَ بالنِّسْبَةِ لهذا الرَّجُلِ، وإن كانَ بينَهم وبينَ الرَّسُولِ عَهْدٌ، لكنَّ هَذَا الرَّجُلَ رُدَّ إليهم، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ أن يَكُفَّ عنها هؤلاء، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ(٤).

---

(١) أي: مات. النهاية (برد).

(٢) الويل هنا بمعنى التعجب، والمعنى: ويل امه تعجبا من شجاعته وجرأته وإقدامه. النهاية (ويل).

(٣) يُقَالُ: سَعَرْتُ النَّارَ والحَرْبَ إِذَا أوقدتها، وسَعَّرْتُهُمَا بِالتَّشْدِيدِ لِلْمُبَالَغَةِ. والمِسْعَرُ والمِسْعَارُ: مَا تُحَرَّكُ بِهِ النارُ مِنْ آلةِ الحَدِيدِ. يَصِفُه بِالمُبَالَغَةِ فِي الحَرْب وَالنَّجْدَةِ. النهاية (سعر).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

فالمُهِمُّ أننا نَقولُ: إنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانَ لا يُمْكِنُ أن يَدَعَ شيئًا تُعظَّمُ فيه حُرُماتُ اللهِ إِلَّا فَعَلَه، وإنَّ أسْعَدَ النَّاسِ بشَفاعتِه مَن قالَ: لا إلهَ إِلَّا اللهُ خالصًا من قَلْبِه. فنسأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُدخِلَنا فِي شَفاعتِه، وأن يَسْقِيَنا من حَوضِه، وأن يَجْمَعَنا به فِي جَنَّاتِ النعيمِ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ والرَّحْمَنُ اسمٌ من أسماءِ اللهِ، وكلُّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ فإنَّه يَتَضَمَّنُ صِفةً من صِفاتِ اللهِ، وليسَ فِي أسماءِ اللهِ ما لا يَدُلُّ عَلَى صفةٍ إطلاقًا، لكنَّ أسماءَ المَخْلوقِينَ لا تَدُلُّ عَلَى الصِّفَاتِ، فقد يُقالُ: هَذَا عبدُ اللهِ وهو من أكفرِ عِبَادِ اللهِ، ولَيْسَ فيه شيءٌ من صِفاتِ العُبوديَّةِ، وقد يُقالُ: فُلَانٌ صالحٌ، وهو من أَفْسَدِ عبادِ اللهِ، لكنَّ أسماءَ اللهِ لا بُدَّ أن تَتضمَّنَ صِفةً دلَّ عليها هَذَا الاسمُ.

ولذلك نقول: كلُّ اسمٍ مُتضَمِّنٌ لصِفَةٍ، وليسَ كلُّ صِفَةٍ مُتَضَمِّنةً لاسمٍ.

وبهذا نَعرِفُ أن الصِّفَاتِ أَوْسَعُ من الأسماءِ؛ إذ قد يُوصَفُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بصفةٍ، ولكنْ لا يُشْتَقُّ منها اسمٌ للهِ، لكنْ كُلَّما وجدتَ اسمًا فإنَّه مُتضمِّنٌ لصِفةٍ، مثلًا الرَّحْمَن مُتضمِّنٌ للرحمةِ، والسميعُ للسمعِ، والبَصِيرُ للبَصَرِ، والحَكِيمُ للحكمةِ... وهَلُمَّ جَرًّا.

ولذلك غَلِطَ المُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ يَقولون: إنَّهم عُقَلاءُ وخَالَفوا العَقْلَ فِي قَولِهم: إنَّ أسماءَ اللهِ مُجَرَّدةٌ عن الصِّفَاتِ، نَقولُ: كيفَ يُمكِنُ أن يُسَمَّى السميعَ ولا سَمْعَ، هل هَذَا معقولٌ! أَبَدًا لَيْسَ مَعْقولًا نُطقًا ولا مَعقولًا عقلًا، فمِن رَحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ما نراهُ من النِّعمِ الكثيرةِ واندفاعِ النِّقَمِ، فكم للهِ علينا مِن نعمةٍ؟

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، كُلُّها من آثارِ

رَحْمتِه: المَطَرُ من رَحمتِه، ونَباتُ الأرضِ من رَحْمتِه، والأمنُ من رَحمتِه، والرَّخاءُ في العَيشِ من رَحمتِه، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

قولُه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، بَدَأَ بالعِلْمِ قبلَ ذِكرِ الخلقِ؛ لأنَّ الإِنْسانَ بلا عِلمٍ لَيْسَ بإنْسانٍ، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، فبدأ بالعلمِ ولم يَذْكُر إلَّا تعليمَ القُرْآنِ؛ لأنَّ تَعليمَ القُرْآنِ أفضلُ تَعليمٍ، وأفضلُ من أيِّ تعليمٍ كان، وجميعُ العلومِ بالنِّسْبَةِ لعلمِ القُرْآنِ ليستْ بشيءٍ، كعلمِ العَجائزِ بالنِّسْبَة لعلم العُلَماء، بل هو أَعْظمُ.

فالقُرآنُ هُوَ كلُّ شيءٍ، فإذا وَفَّقَ اللهُ العبدَ لتعليمِه نالَ سعادةَ الدُّنيا والآخرةِ إذا عَمِلَ به ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١].

ما هُوَ القُرْآن؟

القُرْآنُ هُوَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، أي: بلُغَةٍ عَربيَّةٍ بيِّنةٍ وَاضحةٍ فَصِيحةٍ.

ويَبتدِئ القُرْآنُ بالفَاتِحَةِ، ويَنتهي بسُورةِ النَّاسِ.

وهَذَا هُوَ القُرْآنُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ والذي قالَ اللهُ عنه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ولهذا لا زِيادةَ فيه ولا نَقْصَ، وهَذَا القُرْآنُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ تَلَقَّاهُ الأصاغرُ عن الأكابرِ، وسَيَبْقَى بإذنِ اللهِ عَلَى هَذَا، إلى أن يَأْذَنَ اللهُ بخرابِ العالَمِ، فإذا أَذِنَ اللهُ بخرابِ العَالَمِ فإنَّه يُنزَعُ من المَصاحِفِ، ويُنزَعُ منَ الصدورِ، فإذا أَعْرَضَ

النَّاسُ عنه إِعْرَاضًا كُلِّيًّا فحينَئِذٍ لا يَبْقَى، ولَيْسَ مـن الحكمـةِ أن يبقى بـين قومٍ لا يُقَدِّرونه قَدْرَه، فيُنزَع.

إذن نقولُ: القُرْآنُ هُوَ أشرفُ علمٍ يَتعلَّمُه الإِنْسَانُ؛ ولهذا لم يَذكرِ اللهُ سِواه؛ لأنَّه أشرفُ العلومِ، وإنني أَحُثُّكم عَلَى تعلُّمِ القُرْآنِ حِفظًا -يعني تلاوةً- ومعنًى وعَمَلًا، فهَذَا هُوَ عَمَلُ الصَّحَابَةِ، فكانوا لا يَتجاوزون عَشْرَ آياتٍ حتَّى يَتَعَلَّمُوها وما فيها من العِلْمِ والعَمَلِ[1].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، الإِنْسَانُ هنا مُفرَدٌ، لكنْ مُرادٌ به العُمومُ؛ لأنَّه اسمُ جنسٍ، والإِنْسَانُ هُوَ البشرُ، وأوَّلُ ما خلقَ اللهُ من البَشَرِ هو آدمُ ﷺ.

ولم يَذْكُرْ خَلْقَ غيرِه؛ لأنَّ أشرفَ المخلوقاتِ جِنسًا هم البَشَرُ من حيثُ الجنسُ، لا من حيثُ الأفرادُ؛ لأنَّ بعضَ البشرِ أخسُّ منَ الأنعامِ؛ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤]، لكنَّ البَشَرَ من حيثُ الجنسُ هُم أفضلُ أجناسِ المخلوقاتِ.

قولُه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾، يعني عَلَّمَ الإِنْسَانَ البيانَ.

ومعنى البيان: التعبيرُ عمَّا فِي نفسِه؛ ولهذا نَجِدُ أن الإِنْسَانَ هُوَ الَّذِي يُعَبِّرُ عمَّا فِي نفسِه بعِبارةٍ واضحةٍ بيِّنةٍ.

فإنْ قالَ قائلٌ: هل البيانُ مُختَصٌّ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ؟ بمعنى أنَّ مَن لَيسَ يَنطِقُ العربيةَ فليسَ عندَه بيانٌ؟

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨/ ٤٦٦، رقم ٢٣٤٨٢).

فالجواب: لا، فبيانُ كلِّ قومٍ بلُغتِهم، وعلى حَسَبِ ما يَفْهمونَه، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، فالبيانُ عندَ العربِ هُوَ النُّطقُ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى، والبيانُ عندَ غيرِ العَرَبِ عَلَى حَسَبِ لُغتِهم.

ولذلك نَجِدُ أن مِن النَّاسِ مَن يقومُ خَطيبًا فِي النَّاسِ ثُمَّ يَسْحَرُهم بخُطبتِه، فيتحوَّلون من الرأيِ الَّذِي كانوا عليه إلى الذي أراد هَذَا الخطيبُ أن يَمْحُوَه من نُفوسِهم؛ يَتحولون إلى رَأْيِه هو بسَبَبِ البيانِ.

وفي الحَديثِ: «**إِنَّ مِنَ البيَانِ لَسِحْرًا**»[1]، و«**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً**»[2].

ثم قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، إِلَى آخِرِ ما ذَكَرَ اللهُ فِي هَذِهِ السُّورةِ، ثم قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، وذَكَرَ الجنتينِ، ثمَّ ذَكَرَ جَنَّتَينِ أُخْرَيَيْنِ، وقدِ اختلفَ العُلَماءُ أيُّهما أفضلُ: الجَنَّتانِ الأُوليانِ أو الأُخريانِ، والصوابُ أن الجنتينِ الأُوليينِ أفضلُ، فإذا تَدَبَّرْتَها وجدتَ ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢]، وفي الأخريين ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]، فالأُولَى أعمُّ.

وقال في الأولى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠]، وفي الثانيةِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن:٦٦]، والنَّضْحُ أقلُّ من الجَريانِ.

وقال في الأولى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن:٥٦]، وفي الثانيةِ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢]، والفرقُ بينَ قَاصِراتِ الطَّرْفِ والمقصوراتِ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب إن من البيان سحرا، رقم (٥٧٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، رقم (٦١٤٥).

قاصراتُ الطَّرْفِ يعني أن أَزواجَهنَّ لا يَنْظُرونَ إِلَى غَيْرِهنَّ، فتَقْصُرُ طَرْفَ زوجِها عن غَيْرِها؛ لأنها قد مَلأَتْ قَلْبَه سُرورًا ومَلأَتْ بَصَرَه نَظَرًا، أما في الثانيةِ فهنَّ مَقصوراتٌ فِي الخيامِ. ومعَ هَذَا نقولُ: إن الحُورَ المذكوراتِ فِي الأُولَيينِ والأُخريينِ أَوصافُهنَّ للجميعِ، ولهذا تَجِدُ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، وكلُّها بلفظِ التثنيةِ فيهما، لكنْ لَمَّا تكلَّمَ عن الحُورِ قال: ﴿فِيهِنَّ﴾؛ فأَتى بالجمعِ، فيُستفادُ منه -واللهُ أعلمُ- أن هَذِهِ الأوصافَ أوصافُ الحُور العِينِ ثَابِتَةٌ فِي كليهما.

وآخِرُ الأمرِ قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨]، وقال فِي أثناءِ السُّورةِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

فإن قِيلَ: لماذا قالَ في إحدى الآيتين: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾، وقال في الأخرى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾، في الأُولى: (ذو) وفي الثانيةِ (ذي).

قلنا: (ذو) صِفَةٌ لـ(وَجْهُ)، و(وَجْهُ) مَرْفوعٌ عَلَى أَنَّه فاعلٌ.

و(ذي) صِفَةٌ لـ(رَبِّ)، وهو مَجْرورٌ بالإضافةِ، فكانتِ الصِّفَةُ (ذي)، ولم تكُنْ (ذو).

إذن الموصوفُ بذِي الجلالِ والإكرامِ هُوَ وَجْهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أما اسْمُه فهو اسْمٌ، لَيْسَ ذَا الجَلالِ ولا ذَا الإِكْرَامِ، وذُو الجلالِ والإكرامِ هُوَ الربُّ ووَجْهُ الربِّ.

وفي الآيةِ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، إثباتُ صِفَةٍ من صِفاتِ اللهِ، وهي الوَجْهُ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهناك آياتٌ أُخرَى تُثبِتُ الوجهَ للهِ؛ كما في قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَىۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، وهناك آيةٌ ثالثةٌ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥].

فهَذِهِ آياتٌ فِي القُرْآنِ الكريمِ، والحُكمُ يَثْبُتُ بخبرٍ واحدٍ عنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أو عنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فكيفَ إذا تكرَّرَ؟!

ومن هنا نَأْخُذُ إثباتَ صفةِ وجهِ اللهِ، فالوجهُ صِفةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وهذا الوجهُ لا يُمكِنُ أن يكونَ مُماثلًا لأَوجُهِ المَخْلوقِينَ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ولأنه باتِّفاقِ العُقلاءِ إذا اشتركَ اثنانِ فِي اسمٍ فإنَّه لا يَلزَمُ تماثُل المُسَمَّى، يعني: الاشتراكُ فِي الأسماءِ لا يَلزَم منه تماثُل المُسمَّياتِ.

وهذا كَلامٌ مَعْلومٌ؛ لأنَّنا نَعْلَمُ أن للفَرَسِ وَجْهًا، وللبَعيرِ وَجْهًا، ولا يُمكِنُ أن يكونَ هَذَا مِثْلَ هذا، وهذا حَسَبَ الوَاقِعِ، لكن لو شاءَ اللهُ لَكانَا سواءً.

إذن هذه قاعدةٌ مفيدةٌ فِي الأسماءِ والصِّفَاتِ: لا يَلزَمُ منِ اشتراكِ الأسماءِ تَمَاثُلُ المُسمَّياتِ.

إذن نقولُ: للهِ وَجْهٌ يَليقُ بجلالتِه، ولا يُشبِهُ أَوْجُهَ المَخْلوقينَ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدَّرسُ الثَّاني:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُه تعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٣-٣٦].

فِي هَاتَيْنِ الآيتينِ يَتحدَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ الجِنَّ وَالإِنسَ أَنْ يَخْرُجُوا عَن قَبْضَتِه وَسُلْطانِه، فيقُولُ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾، وَلَا يُمْكِنُهم أَنْ يَنْفُذُوا مِن ذَلك؛ لأنَّه لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنفُذوا ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، أَي: بِسُلطةٍ وَقُدرةٍ يَرْتفعون بِهَا، أَي: يَنْفُذون، وهذَا غيرُ مُمكنٍ؛ وَلِهذَا قَالَ بَعدهَا: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾، وهَذَا يَكونُ يَوْمَ القيامَةِ، فإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قالَ قَبْلَ هَذهِ الآيةِ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمن:٣١-٣٣].

هذِهِ الآيةُ الكَريمةُ إِذَا تَأمَّلَها الإِنسانُ، وتَأَمَّلَ السِّياقَ الذِي قَبْلَها وَبَعْدَها، عَلِمَ قطعًا بأَنَّها إِنَّما تكونُ يَوْمَ القيامَةِ، وحِينَ صَعِدَ الناسُ بِما عَلَّمَهمُ اللهُ تَعالَى إِلَى السَّماءِ حَتَّى خَرَجُوا مِنْ أَجْواءِ الأرضِ إِلَى الفضَاءِ، وَوَصَلوا إِلَى القمرِ، قَامَ كَثيرٌ مِنَ الناسِ بِتَحريفِ هَذِهِ الآيةِ، وَقَالوا: إِنَّها تَدُلُّ عَلَى مَا وَصَلَ إِلَيْه النَاسُ مِنَ الصعودِ إِلَى الفضَاءِ، وَالوُصُولِ إِلى القمرِ! وَهذَا خطأٌ، وَلَا يَجوزُ لَنا أَنْ نُفسِّرَ كلامَ اللهِ، وَأَنْ نَلْوِيَ

أَعناقَ الآياتِ لِأُمورٍ حَدَثَتْ، أَو إِلَى آراءٍ وأَفكارٍ قَالَ بِهَا مَن قال مِنْ عُلماءِ الغربِ أَوْ عُلماءِ الشرقِ؛ وَذَلكَ لأنَّ الشَّيْءَ الحادثَ فِي الوَاقعِ لَا يَحْتاجُ إِثْباتَهُ إِلَى دَليلٍ مِنَ الوَحيِ؛ لأَنَّه وَاقعٌ، فَهو مَعْلومٌ بِالحسِّ، فَما كَانَ مَعلومًا بِالحسِّ لَا يُمْكِنُ إِنْكارُهُ.

وَمَا عَلِمَهُ النَّاسُ مِنْ عَجائِبِ الكونِ الَّتِي أَوْدَعها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي هذَا الكَونِ العَظيمِ الوَاسعِ، فَإِنَّهُ لَا يَحْتاجُ إِلى أَنْ نَتعسَّفَ فِي دَلالةِ القرآنِ أَوِ السُّنةِ عَلَيْه، حَتَّى نَلْوِيَ أَعناقَ الأدلةِ لِتَلْتَفِتَ إِلَى هذَا المَعْنَى الواقعِ المَحسُوسِ.

كَما أَنَّ بَعضَ النَّاسِ رُبَّما يُحرِّفُ بعضَ الآياتِ إِلَى مَعانٍ يَتوَقَّعُها مَن يَتوَقَّعُها مِنَ النَّاسِ، فَيستدِلُّ بِهَا عَلَى ذَلكَ، ثُمَّ تَحْدُثُ آياتٌ وأحكامٌ أُخْرى تُخَالِفُ هَذهِ الآيَةَ الَّتِي حَرَّفَ الآياتِ إِلَيْهَا، فَيَكونُ تَفْسيرُ القرآنِ بِالرَّأيِ الَّذي تَبيَّنَ بُطْلانُهُ جِنايةً عَلَى كِتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

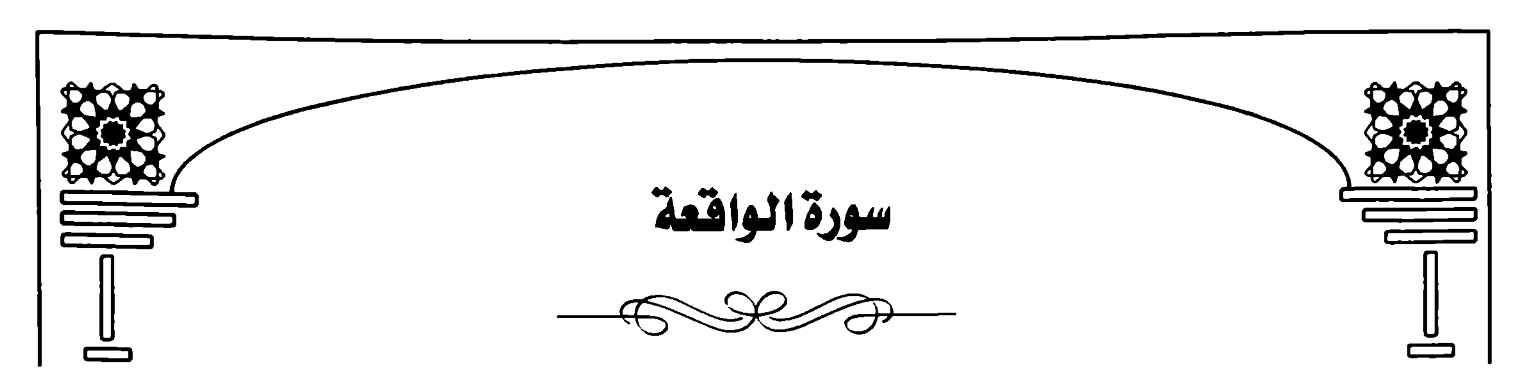
وعَلَى الذِينَ يُحاولونَ أَنْ يَجْعَلوا مِنَ القرآنِ العَظيمِ أَوْ مِنَ السُّنَّةِ النَّبويةِ دَلالَةً عَلَى نَظَرِيَّاتٍ حَادثةٍ، أَوْ عَلَى أُمورٍ وَاقعةٍ مَعَ بُعدِ دَلَالةِ النُّصوصِ عَلَيْهَا، أَن يَدَعوا الأُمورَ تَجْرِي حتَّى يَتبَيَّنَ الأمرُ، فَالنَّظرياتُ تَظَلُّ نَظَرياتٌ حتَّى يَشْهَدَ لَهَا الواقعُ.

والشَّيءُ الوَاقعُ وَاقعٌ، لَا يُحْتاجُ إِلَى إِثْباتِهِ بِالوَحْيِ، وَرُبَّما نَسْتَشهِدُ لِنَظريةٍ قَالَ بِهَا مَن قَال بِهَا منَ الناسِ بِآياتٍ منَ القرآنِ، أَوْ أَحاديثَ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ يَتبيَّنُ بُطلانُ هَذهِ النَّظريةِ، وَحِينئذٍ يَكونُ هَذَا قَدْحًا فِي الكتابِ وَفِي السُّنَّةِ، لَا سِيَّما عِندَ أَعداءِ المُسلِمينَ.

فَالحَذرَ الحَذرَ مِنْ سُلوكِ مِثْلِ هذَا الطَّرِيقِ، وَدَعُوا العُلومَ الكَونيَّةَ يَشْهَدُ لَهَا الواقعُ، فَإِذَا وُجِدَ فِي القرآنِ مَا يَدُلُّ عَلَيْها دَلالةً وَاضحةً، أَوْ بِإِشارةٍ سَليمةٍ لَيْسَ فِيها

تَكلُّفٌ وَلَا تَعسُّفٌ، فَلَا مَانعَ مِنْ أَنْ يُستدَلَّ بِالقرآنِ، لَكنْ بِشَرطِ أَلَّا يَكونَ مُجُرَّدَ نظريةٍ؛ لأنَّ النظريةَ قَدْ تُخطِئُ وَقَدْ تُصِيبُ، وَلَكنْ يَكونُ أَمرًا وَاقعًا محسوسًا.





سورة الواقعة

الدَّرسُ الأوَّل:

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأَصْحَابِهِ ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قبلَ أنْ أَبْدَأَ أَحُثُّ إخواني المسلمين على تَعَلُّمِ تفسيرِ القرآنِ؛ لأنَّ القرآنَ لم يَنْزِلْ لِنتَعَبَّدَ بتِلاوتِه فَقَط، بل اسْمَعْ كَلامَ رَبِّكَ ماذا يقولُ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، هذا العَمَلُ، أي لِنَعْلَمَ المعنى ونَعْمَلَ به، لا لأنْ نَكْسِبَ الأَجْرَ بتِلاوتِه، فكَسْبُ الأجرِ بالتلاوةِ -والحمدُ للهِ- حَاصِلٌ، سواءٌ عَرَفْتَ المعنى أو لم تَعْرِفْ، لكنَّ الثمرةَ من القرآنِ الكَريمِ لا تكونُ إلا بمَعْرفةِ المَعْنَى.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة:١]، هي يومُ القيامةِ، والواقعةُ أي: العَظِيمةُ الشديدةُ الوَقْعِ على الناسِ،﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة:٢]، بل هي حَقٌّ وصِدْقٌ.

﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة:٣]، أي هناك يَكُونُ الغَبْنُ العَظِيمُ، ففي الدنيا مهما كانَ الأمرُ فَلَيْسَ هناك غَبْنٌ، فإذا كانَ أَحَدٌ من الناسِ أَكْثَرَ مِنَّا مالًا أو أَكْثَرَ عِيالًا أو أَكْثَرَ قُصورًا، وما أَشْبَهَ ذلك، فَلَيْسَ فيه غَبْنٌ؛ لأنَّ هذا المَالَ لن يَبْقَى لك، إِمَّا أَنْ يَفْنَى قَبْلَك، أو تَفْنَى قَبْلَه، فكلُّ وَاحِدٍ منا، غَنِيًّا كانَ أو فقيرًا، ليسَ له إلا مِلْءُ بَطْنِه،

ولو مِن أَوْراقِ الشَّجَرِ، وما يَمْلأُ به بَطْنَه يَذْهَبُ إلى المَرَاحِيضِ، كلُّ الناسِ في هذا سَواءٌ.

ورُبَّما يَكونُ الغَنِيُّ إذا أَكَلَ أَطْيَبَ الطعامِ وأحسنَ الطعامِ يُؤْلِمُه بَطْنُه، وعندَ الخُروجِ أيضًا يَخْرُجُ بمَشَقَّةٍ، والفقيرُ الذي يَأْكُلُ ما تَيَسَّرَ بسُهولةٍ، ولا يَجِدُ أَلَمًا في البَطْنِ، ولا أَلَمًا عندَ إخراجِه، أَهْنَأُ وأَفْضَلُ بلا شَكٍّ من الغَنِيِّ الذي يَأْكُل من كلِّ شيءٍ ويُؤلِمُه بَطْنُه، ويَجِدُ الأَلَمَ عندَ إخراجِ هذا المأكولِ.

إِذَن الغَبْنُ يومَ القيامةِ، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]، أي يَوْمُ القِيامَةِ.

وكم مِن إنسانٍ في الدنيا رَفِيعِ المَقامِ لا يُوصَلُ إليه إلا بسِكِرْتِيرٍ، يكونُ يومَ القيامةِ مَخْفُوضًا. وربما إنسانٌ في الدنيا أَشْعَثُ أَغْبَرُ مَدْفوعٌ بالأبوابِ، لا يُؤْبَهُ له، ولا يُلْتَفَتُ إليه، يكونُ يومَ القيامةِ رَفِيعَ المَقامِ. وكم مِن إنسانٍ عالٍ خَفَضَتْهُ الواقعةُ، وكم مِن إنسانٍ وَضِيعٍ رَفَعَتْهُ.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة:٤]، أي: رَجًّا عَظِيمًا.

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة:٥]، أي صَارَت كالرَّمْلِ، انْدَكَّتْ، ولهذا قال بعدَ أن تُبَثَّ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة:٦]، أي: مِثْلَ الهَباءِ الذي نَراهُ في شُعاعِ الشَّمْسِ.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة:٧]، أي: أَصْنافًا، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨]، أي أَصْنافٌ.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:١٠-١١]، أي: إلى اللهِ في الفِرْدَوسِ الأعلى، والفِرْدوسُ هو أَعْلَى الجَنَّةِ، وسَقْفُه عَرْشُ الربِّ عَزَّوَجَلَّ.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٢-١٤]، ثُلَّةٌ من الأولين من هـذه الأُمَّةِ، وقليلٌ مِن الآخِرين من هذه الأُمَّةِ؛ لأنَّ السَّلَفَ الصالِحَ كثيرٌ منهم من السُّبَّاقِ، وآخِرُ الأُمَّةِ مِن هؤلاء قليلٌ.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة:١٥]، أي مَنْسوجةٍ من الذَّهَبِ، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ [الواقعة:١٦]، والاتِّكاءُ يَدُلُّ على الراحةِ، وعلى طُمَأْنينةِ القَلْبِ، وعلى سُرورِ النَّفْسِ، ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾، فهم مُتَّكِئون مُتقابِلونَ، فإن كانوا كَثِيرينَ فالمَكانُ أَوْسَعُ، فهم مُتقابِلُون مهما كَثُروا؛ لأنَّ المَكانَ وَاسِعٌ، والنَّظَرُ قَوِيٌّ والكلامُ وَاضِحٌ مهما تَباعَدُوا، فكأنهم مُتلاصِقُونَ، أَدْنَى أهلِ الجَنَّةِ مَن يَرَى مَنْزِلَه مَسِيرةَ أَلْفَيْ عَامٍ، يَرَى أَقْصَاهُ كما يَرَى أَدْنَاهُ(١).

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يَتَرَدَّدُ عليهم ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة:١٧]، أي: شَبابٌ مُنَعَّمون أبدًا دائمًا، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة:١٨]، الكوبُ مِثْلُ الكأسِ، والأباريقُ مَعْروفةٌ، وهي آنِيَةٌ لها يَدٌ تُمْسَكُ مِنْها ولها خُرْطومٌ.

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، أي: من خَمْرٍ صَافٍ ليسَ فيه كَدَرٌ، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: لا يُصِيبُ رُؤُوسَهم صُدَاعٌ ودُوَارٌ كخَمْرِ الدنيا، ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٩]، أي: لا تَذْهَبُ عُقولُهم. فالخَمْرُ في الدُّنْيا يُذْهِبُ العَقْلَ؛ ولذلك حُرِّمَ تَحرِيمًا مُؤَكَّدًا، وعُوقِبَ عليه، فشُرْبُ الخَمْرِ حَرامٌ بإجماعِ المُسلِمِينَ بالكتابِ والسُّنةِ، ومن قالَ: إنه

---

(١) أخرجه أحمد (٨/ ٢٤٠، رقم ٤٦٢٣).

حلالٌ، وهو قد عَاشَ بينَ المُسْلِمِينَ، فقد ارْتَدَّ عن دِينِ الإسلامِ؛ لأنه أنْكَرَ شَيْئًا مَعْلومًا بالضرورةِ من الدِّينِ، ومَن شَرِبَه وهو يَعْتَقِدُ أنه حَرَامٌ فإنه يُعاقَبُ بثمانين جَلْدَةً، أو ما يَراهُ الإمامُ رَادِعًا له ولأَمْثالِه، فإنْ عاقبناه أَوَّلَ مَرَّةٍ وعادَ في الثانيةِ أَعَدْنَا العُقوبَةَ، وفي الثالثةِ نُعِيدُ العُقوبةَ، وفي الرابعةِ نَقْتُلُه قَتْلًا، وهكذا جاءَ الحديثُ عن النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم[1].

وإذا رأينا أنَّ الناسَ انْهَمَكوا فيه، ولم يَصُدَّ عنه إلا القَتْلُ في الرابعةِ قَتَلْناهم؛ لأنَّ هذا فيه إصلاحٌ للمُجتمعِ، حتى لا يَشِيعَ فيه الخَمْرُ، وفيه رَأْفَةٌ بالشاربِ أيضًا؛ لأننا مَنَعْناه من أن يُكَرِّرَ هذه المَعْصِيةَ العظيمةَ، وهو إن لم يَمُتِ اليومَ ماتَ غدًا، فبذلك إِصْلاحٌ للمُجْتمَعِ، وفي ذلك أيضًا رَأْفَةٌ بهذا.

وَاسْمَعْ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، فهذا لو تَرَكْناه ازدادَ شَرًّا وصارَ كلَّ يومٍ يَطْلُعُ علينا بشُرورٍ، فكانَ قَتْلُه في الرابعةِ إصلاحًا للمُجتمَعِ من وَجْهٍ، وحِمايةً لهذا الشاربِ ورَأْفَةً به من أن يَزْدَادَ إثمًا مِن وَجْهٍ آخَرَ، وهو إنْ لم يَمُتِ اليومَ ماتَ غدًا.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة:٢٠]، والفاكهةُ هنا أنواعٌ، والدليلُ أنَّه قال: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، وهذا يَقْتَضِي أنه يكونُ أشياءُ فيها خِيارٌ، ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة:٢١]، سَواءٌ كان مَطْبوخًا، أو مَشْوِيًّا، كما يُرِيدُ، ومِن أَطْيَبِ اللُّحومِ لُحومُ الطُّيورِ، وفي الجَنَّةِ لحمُ طَيْرٍ مما يَشْتَهُونَ، أسأَلُ اللهَ تعالَى أن يَجْعَلَه مَذَاقَنا ومَذَاقَكم.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب إذا تتابع في شرب الخمر، رقم (٤٤٨٤)، والترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء من شرب الخمر فاجلدوه، ومن عاد في الرابعة فاقتلوه، رقم (١٤٤٤).

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة:٢٢]، الحُورُ جَمْعُ حَوْرَاءَ، والعِينُ جَمْعُ عَيْناءَ، أي: ذَاتُ أَعْيُنٍ جَمِيلةٍ، وهي حَوْراءُ وَجْهُها أَبْيَضُ، ولكنه مُشْرَبٌ بحُمْرةٍ، فهي حَوْراءُ وعُيُونُها أَحْسَنُ العُيونِ؛ ولهذا قال: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة:٢٣]، واللُّؤلؤُ مَعْروفٌ، والمَكْنونُ: الذي في صَدَفِه لم يُفْتَحْ، وهذا من أَحْسَنِ ما يَكونُ مَرْأًى.

﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة:٢٤- ٢٥]، بل يَسْمَعُونَ كَلامًا طَيِّبًا، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة:٢٦]، وكلامُنا في الدنيا إما لَغْوٌ أو تَأْثِيمٌ أو طَيِّبٌ، والتأثيمُ من الآثامِ، وهو حَرامٌ، أما اللَّغْوُ فهو ما يكونُ بينَ الناسِ من كلامٍ لا مَعْنَى له ولا هَدَف. ولكن في الجَنَّةِ لا يَكونُ فيها إلا الطَّيِّبُ فَقَطْ.

نسأَلُ اللهَ أن يَجْعَلَنا من السَّابِقِينَ، الذين هم مُقَرَّبون، اللَّهُمَّ إنا نَسْأَلُك بأسمائِكَ الحُسْنَى وصِفَاتِكَ العُلْيا يا ربَّ العَالَمِينَ أنْ تَجْعَلَنا منهم، اللَّهُمَّ اجْعَلْنا منهم، اللَّهُمَّ اجْعَلْنا منهم.



الدَّرسُ الثَّاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُه، ونَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفسِنا، وسَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، وأَشْهَدُ أنّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، وخَلِيلهُ، وأمينُهُ على وَحْيِهِ، بَلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جِهادِه، صلى الله عليه وعلى آلهِ وأصحابهِ ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

إنَّ سورةَ الواقعةِ سورةٌ عظيمةٌ، ابتدأَها اللهُ تَعَالَى بذِكرِ أحوالِ النَّاسِ يَوْمَ القيامةِ، واخْتتَمَها بذِكْرِ أحوالِ النَّاسِ عندَ الموتِ.

أما أحوالُ النَّاسِ يومَ القيامةِ فقَسَّمَهم اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى **ثلاثةِ أقسامٍ**:

الأوَّل: السابقونَ.

والثَّاني: أصحاب اليمينِ.

والثَّالث: أصحاب الشمالِ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أن يَجْعَلَني وإياكمْ منَ السابقينَ.

فقال في الأوَّل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:١٠-١١]؛ السابقونَ إلى الخيرِ، وإلى طاعةِ اللهِ، وإلى عبادةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في هذهِ الدُّنْيا، هم السابقونَ إلى ثَوابِهِ في الآخرةِ، وهم المقرَّبون إليه جَلَّوَعَلَا في جنَّاتِ النَّعيمِ؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة:١١-١٢].

فاحرِصْ يا أخي على أن تَكُونَ من هؤلاءِ، فَسَابِقْ إلى الخيراتِ، ومتى ذُكِرَ لكَ

الخيرُ فاسْبِقْ إليه، وسَارِعْ إليه؛ حتَّى تكونَ من السابقينَ يومَ القيامةِ.

وقولُه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي في الجناتِ الَّتي كلُّها نعيمٌ، شَبَابٌ لا هَرَمَ[1] معَه، صِحَّةٌ لا مَرَضَ مَعَها، بَقاءٌ لا فَنَاءَ معه، فيها ما لا عَينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ[2]، أَصْحابُها النَّبيُّونَ والصِّدِّيقُونَ والشهداءُ والصالحونَ.

قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة:١٥]، أي مَخصوفةٍ بالذَّهبِ، وليسَتْ مِنَ الخَشَبِ، ولا مِنَ الخَزَفِ، ولا مِنَ الحَديدِ، بل هي مِنَ الذَّهَبِ. جَعَلَنا اللهُ وإياكم مِمَّن يَتَّكِئون عليها.

قولُه: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الواقعة:١٦]، كلُّهم مُتقابِلُونَ، وهَذَا يَدُلُّ على سَعَةِ المكانِ، وأنهم دائرةٌ واسعةٌ مُتقابِلونَ.

قولُه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة:١٧]، خَلَقَهم اللهُ تَعَالَى في الجنةِ لأهلِ الجنةِ، ومنذُ خَلَقَهم، خَلَقهم لِلبَقاءِ؛ لأَنَّهم من نَعِيمِ الجَنَّةِ، والجَنَّةُ خُلِقَتْ للبقاءِ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ لا يفنون، لا يمرَضون، ولا يَمَلُّون من خِدمةِ أَسْيادِهِمْ.

قولُه: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة:١٨]، الأكوابُ: جمعُ كُوبٍ، وهي الأواني الَّتي ليسَ لها عُرًى؛ بدليلِ قولِه: ﴿وَأَبَارِيقَ﴾، والإبريقُ له عُروة، وهَذَا يَدُلُّ على تَنوُّعِ الأواني عندَهم.

وهذهِ الأواني من الذهَبِ والفِضَّةِ، والجِنانُ العُليا منَ الذهبِ، قال النَّبيُّ ﷺ:

---

(١) الهَرَم: كِبَر السنِّ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بَدْء الخلق، باب ما جاء في صِفَة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٢٤)، أن النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**».

«جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»(١).

قوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٨-١٩]؛ وهي كأسُ الخمرِ بيضاءَ لَذَّةٍ للشاربينَ، لا فيها غَـوْلٌ يَغتالُ عُقولَهم، ولا هم عنهـا يُنزِفون، أي تُصدَّعُ رُؤُوسُهم، ولكنَّهم يَشْرَبونها لَذيذةً طيِّبةً، لا يُمكِنُ أن يكونَ لها مَثيلٌ في الدُّنْيَا، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

قولُه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة:٢٠]؛ والفاكهةُ ما يَتفكَّه به الإِنْسَانُ من مأكولٍ.

قولُه: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة:٢١]؛ ولحمُ الطيورِ هو أفضلُ اللحومِ وأَنْعَمُها وألذُّها.

قولُه: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة:٢٢-٢٣]؛ الحُورُ جمعُ حَوْرَاءَ، وهي الجميلةُ في أَعْيُنِها، والَّتي أَعيُنُها شديدةُ البياضِ في بَياضِها، وشديدةُ السَّوادِ في سَوادِها، وحَسَنةُ الوَجْهِ، و(عِين) جمعُ عَيْناءَ، أي واسعةُ العُيونِ، حَسَنةُ العُيونِ.

قولُه: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾، اللؤلـؤُ المكنونُ: أَصفَى مـا يكونُ وأحسنُ ما يكونُ مَنظَرًا، وهَذَا هو مَنْظَرُ الزوجاتِ في جناتِ النعيمِ، وهَذَا جَزاءُ السابقِينَ.

أما الطرفُ الثَّاني؛ وهو الطرفُ المُتطرِّفُ، أصحابُ الشِّمالِ، فيقولُ اللهُ عنهم: إنهم ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤٢-٤٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، رقم (٤٨٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨٠).

(سَمُوم) حَرارةٌ شَديدةٌ، و(حميم) كذلك أيضًا، حتَّى ما يَشْرَبونَه مِنَ المياهِ فإنها حَارَّة في أشدِّ الحرارةِ.

قولُه: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ إذن هو ظِلٌّ لا يُظِلُّ، وليسَ كَريمًا مُلائِمًا للطَّبعِ، ولكنَّه في أَرْذَلِ ما يكونُ، وأبعدِ ما يكونُ عن مُوافقةِ الطِّباعِ.

ثمَّ بَيَّنَ اللهُ حالَ هؤلاءِ الَّذين يُعَذَّبون هَذَا العذابَ فيما سَبَقَ فقالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤٥]؛ قد أَتْرَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِنَعِيمِ الدُّنْيَا، وذلك من أَجْلِ أن تَزدادَ حَسْرَتُهم بِفَقْدِ هَذَا النَّعيمِ، ومن ثَمَّ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عن كَثْرَةِ الإِرْفَاهِ، وَأَمَرَ بِالاِحْتِفَاءِ أَحْيَانًا(١)؛ لأن كثرةَ التَّرَفِ فيها التَّلَفُ.

وإذا نَظَرْنا إلى حَالِنا اليومَ وَجَدْنا أننا وَاقِعونَ في هَذَا، وأَنَّنا مُتْرَفون غايةَ التَّرَفِ، حتَّى إنَّ الإِنْسَانَ لَيَمْضِي من بيتِه إلى المَسْجِدِ وليسَ بينَه وبينَ المَسْجِدِ إلَّا خُطواتٍ ولا يَمْشِي، ولكن يَرْكَبُ السَّيارةَ؛ لأَنَّه يَخْشَى من لَفْحِ الحَرِّ، وهو إذا رَكِبَ السَّيارةَ رَكِبَها مُكيَّفةً.

حتى إنَّ الرجل لَيأتي بالخَدَمِ إلى بيتِه من غيرِ حاجةٍ، ولذلك كانتْ مُشكِلَةُ الخَدَمِ في نَظَري مُشكلةً عظيمةً؛ من جِهةِ ما يَحْدُثُ -وهو قليلٌ والحمدُ للهِ- من الأخلاقِ السافلةِ والفحشاءِ، وفيما يَحْدُثُ لرَبَّةِ البيتِ الأُولى مِنْ الاِتِّكاليَّةِ والترهُّل والسُّكَّر والضَّغْطِ والفراغِ، فتَجِدُها تُرِيدُ أن تخرُجَ إلى الأسواقِ تَتَسكَّع فيها، أو إلى جِيرانِها لِتُؤْذِيَهم وتُثْقِلَ عليهم، أو تبقَى في رَبْعَةٍ(٢) منَ البيتِ واضعةً خَدَّها على

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الترجل، رقم (٤١٦٠).

(٢) أيْ موضع من البيت، والرَّبْع: المنزل، والرَّبعة أخصُّ منه.

كفِّها؛ هاجسٌ يأتي وهَاجِسٌ يَروحُ؛ لأنها ليس عندَها عَمَلٌ، وهَذَا لا شَكَّ أنَّه ضَررٌ صِحِّيٌّ على النساءِ، أما إذا كان هناك ضَرورةٌ فالأمرُ -والحمدُ للهِ- واسعٌ، والخدمُ اتَّخَذَها الصحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ لكن للضرورةِ والحاجةِ، وبشرطِ أن تكونَ المرأةُ المُستقدَمةُ معَها مَحْرَمُها؛ لأن النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تُسَافِرِ المَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ»[1].

ويَنْبَغِي أَلَّا يأتِيَ بامرأةٍ كافرةٍ خادمًا؛ لأن ذلك يُخشَى منه أن يَحْصُلَ من هذهِ الخادمِ دَعوةٌ إلى النصرانيَّة إن كانت نصرانيةً، أو البُوذِيَّة، أو غيرِ ذلك، وهي لا تَشْعُرُ، وكيفَ تَقَرُّ عينُ المرءِ وفي بيتِه مَن هو عَدوٌّ للهِ وعَدُوٌّ له؛ لأنَّ كلَّ كافرٍ -ويَنْبَغِي ألا يَستهينَ النَّاسُ بالأمرِ- كلُّ كافرٍ فهو عدوٌّ للهِ وعدوٌّ لك، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨].

وهو عدوٌّ لك أيضًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١].

فاحْذَرْ يا أخي، وائتِ بالمُسلِمةِ، وائتِ بالعاملِ المُسلِمِ، ولو نَقَصَ في ظَنِّكَ عن العاملِ الكافرِ، فإن اللهَ يَقولُ: ﴿وَلَعَبۡدٌ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢١].

أقولُ: إن هؤلاء الَّذين هم من أصحابِ الشِّمالِ كانوا في الدُّنْيَا كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٤٦]؛ وهو الشِّركُ، والحِنْثُ هو الإثمُ، والمرادُ به الشِّرْكُ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب حج النساء، رقم (١٨٦٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، رقم (١٣٤١).

ويُنكِرونَ البَعْثَ.

قولُه: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة:٤٧-٤٨]، والاستفهامُ هنا للإنكارِ، أنكروا إنكارًا مؤكَّدًا بـ(إنَّ) و(اللامِ)، ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أيضًا ويُبْعَثُ آباؤنا الأوَّلون؟ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مجيبًا لهَذَا الإنكارِ:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة:٤٩-٥٢]، شَجَرٌ من الزقُّومِ الخَبيثِ الطَّعْمِ، الخبيثِ المَرْأى، الخبيثِ الرِّيحِ، قالَ اللهُ تَعالَى في شَجرةِ الزَّقُّومِ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٤-٦٥]، وهَذَا أَكْرَهُ ما يَكونُ مَرأًى، وطَعْمُها مُرٌّ شَديدُ المَرارةِ، خَبيثٌ، ورائحتُها كذلكَ.

قولُه: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة:٥٢-٥٣]؛ يَمْتلِئُ البطنُ منها، ويأكلونها بِنَهَمٍ عظيمٍ، فإذا أَكَلُوها أَصابَهم العَطَشُ، فيَكونُ شَرابُهم: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الواقعة:٥٤]؛ من الماءِ الحارِّ -والعياذ بالله- شَديدِ الحرارةِ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩]، قبلَ أن يَصِلَ إلى الأمعاءِ، فإذا شَرِبوه سُقوا ماءً حَميًا فقطَّع أمعاءَهم.

قال: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة:٥٥]؛ الهِيمُ جَمْعُ هَيْماء، وهي الإبلُ العِطاشُ؛ أي يَشْرَبون شُرْبَ الإبِلِ العِطاشِ، ومعلومٌ أنَّ الإبلَ العِطاشَ تَشْرَبُ ماءً كثيرًا؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا تَرِدُ المَاءَ»[١].

(١) أخرجه البخاري: كتاب في اللقطة، باب ضالة الإبل، رقم (٢٤٢٧)، ومسلم: كتاب اللقطة، رقم (١٧٢٢).

فما ظنُّكم بقومٍ أكلوا من شجرةِ الزقُّوم حتَّى مَلَؤوا البطونَ، ثمَّ شَرِبوا عليها من الحَميمِ شُرْبَ الإبلِ العِطاشِ، إنَّ هَذَا لهو العذابُ الأليمُ والعياذُ باللهِ.

قولُه: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة:٥٦]، أي ضِيافَتُهم.

أما عندَ الموتِ فاستمِعْ إلى قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣]؛ (لولا) بمعنى (هَلَّا): هلا إذا بَلَغَتِ الحلقومَ تَرْجِعُونها؛ يعني إذا كنتم صادقين، فإذا بَلَغَتِ الرُّوحُ الحُلْقومَ، وهو أعْلَى الصدرِ، تَرْجِعُونها.

قولُه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٧]، هَذَا الجوابُ، فهل يُمْكِنُ لأَحدٍ مهما بَلَغَ في الطبِّ، ومهما بَلَغَ في السُّلطةِ، ومهما بَلَغَ في الغِنَى، هل يُمكِنُ أن يَرُدَّ الروحَ إذا بلغتِ الحلقومَ؟ أقول: لا واللهِ لا يمكِنُ، ولو اجتمع عنده مَن بأقطارِها، فإنَّه لا يُمكِنُ.

قولُه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ أي: تَنْظُرون رُسُلَ ربِّكم إذا نَزلوا لِقَبْضِ الرُّوحِ.

قولُه: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ (نَحْنُ) أي بملائِكَتِنا، ملائكةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذين يَنزِلون لِقَبْضِ الرُّوحِ أَقْرَبُ إلى الإِنْسَانِ منَ الحُلقومِ. والقُرْبُ هنا ليسَ قُربَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بل هو قُربُ الملائكةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾.

والربُّ عَزَّوَجَلَّ لا يَقرُبُ قُربًا بحيثُ يُبْصَرُ أو لا يُبْصَرُ، ولكنَّ المُرادَ قُربُ الملائكةِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: كيفَ أضافَ اللهُ القُربَ إلى نفسِهِ وهو لِمَلائكتِهِ؟

قلنا: كما أضافَ القراءةَ إلى نفسِه وهي لملائكتِهِ، في قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٨] والَّذي يَقْرَأُ هو جِبريلُ، فأضافَ اللهُ القراءةَ إلى نفْسِه، والقارِئُ جِبريلُ، وهنا أضافَ اللهُ القُرْبَ إلى نَفْسِه، والمرادُ مَلائِكتُه الَّذين نَزَلوا لِقَبْضِ رُوحِ ابنِ آدمَ. جعلَ اللهُ قَبْضَ أَرواحِنا قَبْضَ خيرٍ وسلامةٍ.

قولُه: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾، يعني هلَّا إن كنتم غير مَجْزِيِّينَ كما تَزعُمون تَرجِعون هذهِ الرُّوحَ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٦-٨٧]؟ **والجوابُ**: لا يُمكِنُ أبدًا أَنْ يَرجُعوها.

ثم قَسَّمَ اللهُ النَّاسَ فقَالَ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩].

(رَوحٌ) رَحمةٌ، (رَيْحَانٌ) طِيبُ رِيحٍ (وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)، وهَذَا الرَّوْحُ والرَّيْحانُ وجَنَّةُ النعيم يكونُ في ذلك اليوم؛ ولهَذَا في الاحتضارِ يُبشَّرُ المؤمنُ، فيُقالُ لِرُوحِه: اخْرُجِي أَيَّتُها الرُّوحُ الطيِّبةُ، كانتْ في الجسدِ الطيِّبِ، اخْرُجي إلى رحمةٍ منَ اللهِ ورِضوانٍ، فتَفرَحُ وتَنقَادُ وتَخْرُجُ بسرعةٍ مُطْمَئِنَّةً. ويَشهَدُ لهَذَا قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾، لا تخافوا في مُستَقْبَلٍ، ولا تَحزَنوا من ماضٍ ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [فصلت:٣٠-٣١]، بِشاراتٌ عَظيمةٌ.

ولهَذَا يُوجَدُ منَ النَّاسِ مَن إذا ماتَ استنارَ وجهُه حتَّى كأنه قِطعةُ قَمَرٍ؛ لأَنَّه بُشِّرَ بهذِهِ الجَنَّةِ، فخَرَجَتْ رُوحُه وهي مُسْتَبْشِرَةٌ، فظَهَرَ أثرُ ذلك في جَسَدِه.

قولُه: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة:٩٠] الَّذين سَلِموا منَ الذُّنوبِ والآفاتِ، لكن لم يَصِلوا إلى درجةِ السبقِ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة:٩١]؛ يعني أنهم سَالِمون منَ العَذابِ الَّذي يكونُ لأصحابِ الشمالِ.

قولُه: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٤] -أعاذنا اللهُ وإياكم من ذلكَ- أي فشأنُه نُزُلٌ من حَميمٍ وتَصْلِيَةُ جَحيمٍ.

قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥]، هَذَا كلامُ ربِّ العالَمِينَ جَلَّ وَعَلَا، ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أيِ: المُشارَ إليه في أَحوالِ النَّاسِ عندَ الموتِ ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، وهذهِ الجملةُ مؤكَّدةٌ بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ:

الأول: إنَّ.

الثَّاني: اللام في (لهو).

الثَّالث: ضمير الفصل(هو)؛ لأن ضميرَ الفَصْلِ من جُملةِ الأدواتِ المُؤكِّدةِ.

فهَذَا خَبَرٌ مُؤَكَّدٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بهذهِ المُؤكِّداتِ الثلاثِ، بأنَّ ما ذُكِرَ من أحوالِ النَّاسِ عندَ الموتِ هو حقُّ اليقينِ.

قولُه: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٩٦]، يعني قُلْ: سُبْحانَ ربِّي العظيمِ. وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّه لَـمَّا نَزَلَ قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قَالَ:

«اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»(١).

ويَشْهَدُ لهَذَا ما ثَبَتَ في الحديثِ الصحيحِ: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ»(٢).

ولـمَّا نَزَلَ قولُه تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، قَالَ: «اجْعَلُوها فِي سُجُودِكُمْ»(٣).

هَذَا في الواقِعِ إلمامٌ يَسِيرٌ فيما تَضَمَّنَتْه هذهِ السورةُ العظيمةُ. نَسأَلُ اللهَ تَعَالَى أنْ يَرْزُقَنا وإيَّاكم الاتِّعاظَ بما في كِتابِه.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥، رقم ١٧٥٤٩)، وأبو داود: باب تفريغ أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥، رقم ١٧٥٤٩)، وأبو داود: باب تفريغ أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧).

الدَّرسُ الثَّالِثُ:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

سُورةُ الوَاقعةِ سُورةٌ عَظيمةٌ، قسَّمَ اللهُ النَّاسَ فِيهَا إِلَى ثَلاثةِ أَقْسامٍ بَعْدَ الموتِ، كَذَلك قَسَّمَهم إِلَى ثَلاثةِ أَقْسامٍ بَعْدَ قِيامِ السَّاعةِ.

فَأَمَّا الأَقسامُ بَعدَ قِيامِ الساعةِ:

القسمُ الأَولُ: السَّابقونَ.

القِسمُ الثَّاني: أَصحابُ اليَمينِ.

القِسمُ الثَّالثُ: أَصحابُ الشِّمالِ.

فَقَالَ اللهُ تعالى فِي السَّابقينَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة:١٠-١٣].

وقالَ تَعالى فِي أَصْحابِ اليَمينِ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة:٢٧-٢٩]، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:٣٩-٤٠].

وقَالَ تعالى فِي أَصْحابِ الشِّمالِ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤١-٤٥]، كَانُوا فِي الدُّنيا، مُنَعَّمِينَ بِأَبْدانِهِمْ، وَبِمَلابِسِهِمْ، وَبِمَراتِبِهِمْ، وَبِمَساكِنِهِمْ فِي غَايةِ مَا يَكونُ الترفُ، وَمَعَ هذَا النَّعيمِ: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ

﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الواقعة:٤٦-٤٨].

أمَّا عِنْدَ الموتِ، فقسَّمَ اللهُ تَعَالَى الناسَ إِلَى ثَلاثةِ أَقْسامٍ أَيْضًا، فَقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٤]، أَيْ الرُّوحُ وَصَلتِ الحُلْقومَ؛ لأنَّ الرُّوحَ تَخْرُجُ مِنْ أَسْفَلِ البَدنِ إِلَى أَعْلاهُ، ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة:٨٤-٨٥].

قَوْلُهُ: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ قِيلَ: إنَّكمْ تَنْظُرونَ إِلَى الميتِ ولَا تَسْتَطِيعون أَنْ تَصْنعوا شَيئًا، وَلَوِ استطاعَ الإنسانُ أَنْ يَفْدِيَ هَذا الميتَ بِنَفسِهِ لَفَعَلَ، ولكنْ لَا يَسْتطيعُ أَنْ يَمْنَعَ هَذهِ الرُّوحَ التِي وَصَلتْ إِلَى الحُلقومِ أَنْ تَخْرُجَ.

وقِيلَ: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ خطابٌ لِلذِينَ احتَضَرُوا، تَنْظُرونَ إِلَى المَلَائكةِ؛ وَلِهَذا قالَ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾، أَي: لَا تُبْصِرونَ المَلائِكةَ الذِينَ حَضَرُوا إِلَى هذَا الميتِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩]، وَالمقرَّبونَ هُمُ السَّابقونَ، وَقَولُهُ فِي أَولِ السُّورةِ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة:١٠-١١].

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة:٩٠-٩٤]، فعلَيْنا أنْ نُفتِّشَ فِي أَنْفسِنا هَلْ نَحنُ مِنَ السَّابقينَ، هلْ كُلَّما ذُكِرَتْ لَكَ خصلةٌ مِن

خِصالِ الخيرِ مِنْ عِبادةٍ للهِ، أَوْ إِحسانٍ إِلَى عبادِ اللهِ سَبقَت إِلَيْهِ، فَانتهزتَ الفرصةَ فِي الوُصولِ إلَيْه، أَم أَنْتَ مِنَ المُتساهِلِينَ، وهَلْ أَنْتَ قَائمٌ بِمَا أَوْجَبَ اللهُ علَيْكَ، تَارِكٌ لِما حرَّمَ اللهُ علَيْكَ، أَم أَنت مُضيِّعٌ لِذَلكَ، مُتْرفٌ لِنفسِك، هَالكٌ لِدُنياكَ؟



الدَّرس الرَّابع:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨-٥٩]، ثمَّ قالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة:٦٣]، ثمَّ قالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة:٦٨]، ثمَّ قالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ [الواقعة:٧١].

فذكَرَ اللهُ فِي هذهِ الآياتِ الكريمَةِ مَبدأَ الإنسانِ، وهَذَا أصلٌ، وذَكَرَ إِمْدادَ الإنسانِ بِهَذِهِ الأصنافِ الثَّلاثةِ، وهِيَ الزَّرعُ، والماءُ، والنَّارُ؛ لأنَّ الحياةَ لَا تَقومُ إِلَّا بِذلكَ، فَقالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤]، وجوابُ هَذَا الاستفهَامُ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٤]، **الجوابُ**: بَلْ أَنْتَ يَا رَبَّنا الزَّارعُ، قالَ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥].

ثمَّ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥]، ولَمْ يَقُلْ: لَو نَشاءُ لَمْ نُخْرِجْه، لماذَا؟ معَ أنَّ مُقْتَضَى قولِهِ: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٤]، مُقْتَضى السِّياقِ أَنْ يَقولَ: لَو نَشاءُ لَم نُخرِجْه، فَلِماذا قالَ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾؟ قلنَا: لأنَّه إذَا خَرَجَ وتَعلَّقَتْ بِهِ النَّفسُ ثمَّ جَعَلَهُ حُطامًا كانَ ذلكَ أشدَّ فِي الحَسْرَةِ، فذكَرَ اللهُ تَعالَى أعلَى أَنواعِ التَّحسرِ على هذَا الزَّرعِ.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠]، لماذَا لَم يَقُلْ: لَو نَشاءُ لَم نُنزِّلْهُ؟ لأنَّ وُجودَ الماءِ بَيْنَ أَيْدِينا، ولكنَّه أُجاجٌ لَا نستطيعُ شُرْبَهُ أشدُّ فِي التَّحسرِ مِما لَو لَمْ يَنزِلْ.

وقـالَ فِي النَّـارِ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة ٧١-٧٢]، ثمَّ ذكَرَ اللهُ تَعالَى فِي النَّارِ أنَّ هذهِ النَّارَ أَوْجَدَها اللهُ تَعالَى لِتكونَ تَذْكِرَةً لِلْإِنسانِ بنارِ جَهَنَّمَ، إذَا عَرَفَ حرَّ النارِ فِي الدنيَا فإنَّه يَخافُ حَرَّ النَّارِ فِي الآخرَةِ، وقالَ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة:٨١]، وقدْ فُضِّلَت عَلى نَارِ الدُّنيا بِتِسعةٍ وستِّينَ جُزءًا، نَسألُ اللهَ تَعالَى أَنْ يَقِينا وإيَّاكمْ حَرَّها، وأنْ يَجْعَلَنا منَ العُتقاءِ منَ النارِ، إنَّه جوادٌ كريمٌ.



الدَّرس الخَامِس:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ تَعالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٧٥-٨٠].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ [الواقعة:٧٥]، (لا) هُنا قالَ عنها بعضُ المُفَسِّرينَ: إنها نَافِيَةٌ. ثم اختَلَفُوا في المَنْفِيِّ، فقِيلَ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، أي: لا يَحْتاجُ الأمرُ إلى قَسَمٍ؛ فإنه أوضَحُ وأَبْيَنُ من أنْ يَحْتَاجَ إلى الإقسامِ عليه. وعلى هذا فتكونُ نافِيَةً للقَسَمِ باعتبارِ أن القَسَمَ هنَا لا يُحتاجُ إِلَيْهِ؛ لِوُضوحِ أَمْرِ المُقْسَمِ عليهِ. وقيلَ: إِنَّها نافِيَةٌ، والمَنْفِيُّ محذوفٌ، تقديرُهُ: لا صِحَّةَ، ولا قَبولَ لما أنكَرَهُ هؤلاءِ مِنْ هذا القُرآنِ الكريمِ. وَذَهَبَ بعضُ المُفَسِّرينَ إلى أن (لا) هنا لَيْسَتْ نافِيَةً، ولكنها للتَّنْبِيهِ؛ لأن ما بَعدَهَا أَمْرٌ مُهِمٌّ يَنْبَغِي العنايَةُ بِهِ، والتَّنَبُّهُ له. وهذا القولُ هو الصَّحِيحُ؛ وأن (لا) يُرادُ بِهَا تنبيهُ المُخاطَبِ، يعني: انتَبِهْ لما سيُلْقَى إليكَ.

قولُه: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥- ٧٦]، مَواقِعُ النُّجومِ جمعُ مَوقِعٍ، وهو إمَّا مَطَالِعُها ومغَارِبُها، وإما ما يقَعُ من الشُّهُبِ التي تُرمَى بها الشياطينُ الذين يَستَمِعُونَ الوَحْيَ.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧]، إنه -أي: هذا القرآن- الذي نَزَلَ على رسولِ اللهِ ﷺ والذي حَمَى اللهُ السماءَ مِنْ أَجْلِهِ بالشُّهُبِ: ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧]،

والكريمُ في كلِّ موضعٍ بحَسَبِهِ، فكَرَمُ الرجالِ يكونُ ببَذْلِ الجاهِ، وبَذْلِ المالِ، وبَذْلِ العِلْمِ، وكَرَمُ القرآنِ بما يَتَرَتَّبُ على التَّمَسُّكِ به، وعلى تِلاوتِهِ من الأَجْرِ العظيمِ، والآثارِ الحَميدَةِ.

ومن فَضْلِ اللهِ تَعالَى على الإنسانِ أنه لم يَتْرُكْه في هذِهِ الحياةِ يَسْتَهْدِي بما أَوْدَعَهُ اللهُ فيهِ من فِطْرَةٍ سَليمَةٍ تَقودُهُ إلى الخيرِ، بل بَعَثَ إليهِ رَسُولًا يَحْمِلُ من اللهِ كِتابًا، وآخِرُ هذِهِ الكتُبِ هي القرآنُ العظِيمُ، الذي أُنْزِلَ على آخِرِ الرُّسُلِ محمَّدٍ ﷺ.

أوصاف القرآن الكريم كما في القرآن:

وقَدْ تَعَدَّدَتْ أوصافُ الكِتابِ العَزيزِ، وهذه أوصَافُهُ التي اسَتطَعْتُ التَّوَصُّلَ إليهَا مِنَ القرآنِ:

١. أنه نورٌ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء:١٧٤]

٢. أنه هُدًى.

٣. أنه شِفَاءٌ.

٤. أَنَّه رَحْمَةٌ.

٥. أنه مَوعِظَةٌ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

٦. أنه مباركٌ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام:٩٢].

٧. أنه مُبِينٌ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥].

٨. أنه بُشْرَى، قال اللهُ تعالَى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧].

٩. أنه عَزِيزٌ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١].

١٠. أنه مجِيدٌ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج:٢١].

١١. أَنَّه كَرِيمٌ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧].

١٢. أنه بَشِيرٌ ونَذِيرٌ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت:٣-٤].

١٣. أنه كِتابٌ مُفصَّلٌ، قال تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٤].

١٤. أنه عَرَبِيٌّ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢].

١٥. أنه عَجَبٌ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن:١].

١٦. أَنَّه مُصَدِّقٌ للكُتُبِ المنزَّلَةِ، قال تَعالَى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران:٣].

١٧. أنه كِتابٌ مُتَشَابِهٌ مثانٍ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر:٢٣].

١٨. أنه بيِّنَةٌ، قالَ تعالَى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٧].

١٩. أنه ذِكْرَى، قالَ تَعالَى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢].

٢٠. أنه بصائرُ، قالَ تَعالَى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف:٢٠٣].

٢١. أنه حَكِيمٌ، قالَ تَعالَى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١].

٢٢. أنه الحقُّ، قالَ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرعد:١].

٢٣. أنه الفُرقانُ، قالَ تَعالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١].

٢٤. أنه قَيِّمٌ، قالَ تَعالَى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف:٢]، القِراءةُ المَشْهورَةُ (قِيمًا).

٢٥. أنه ذِكْرٌ ومُحْدَثٌ، قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥].

٢٦. أنه شَرِيفٌ، قالَ تَعالَى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص:١]، في قَوْلِ مَنْ قالَ: إن مَعناهُ ذُو الشَّرَفِ.

٢٧. أنه رُوحٌ، قالَ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢].

٢٨. أنه العَلِيُّ، قالَ تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

٢٩. أنه مَسْطُورٌ، قالَ تَعالَى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور:٢].

٣٠. أنه تَذْكِرَةٌ، قالَ تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة:٤٨].

٣١. أنه حَسْرَةٌ على الكافِرينَ، قالَتعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة:٥٠].

٣٢. أنه قولٌ ثَقِيلٌ، قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥].

٣٣. أنه العظِيمُ، قالَ تَعالَى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾. قال مُجاهِدٌ: يَعْنِي:

القرآن[1].

٣٤. أنه قولٌ فَصْلٌ، قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٣-١٤].

٣٥. أنه كِتَابٌ مُطَهَّرٌ، قالَ تَعالَى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة:٢].

قوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة:٧٨]، والكِتابُ المكنونُ هو اللَّوْحُ المحفوظُ؛ لقولِهِ تَعالَى في آيةٍ أُخْرَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢١-٢٢].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]، الضَّمِيرُ في قولِهِ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ يَعودُ على أقْرَبِ مذْكُورٍ، وهو الكِتابُ المَكْنُونُ، أي: لا يَمَسُّ هذا الكتابَ المَكْنُونَ إلا المُطَهَّرُونَ الذين طَهَّرَهُم اللهُ، وهم المَلائِكَةُ. وقيلَ: إن الكِتابَ المَكْنونَ هي الصُّحُفُ التي بأَيدِي المَلائكَةِ؛ لقولِهِ تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦]، والقولانِ لا يتَنافيانِ؛ لأنَّ كُلًّا منهما صحيحٌ، وكلُّ واحدٍ منْهُما لا ينافِي الآخَرَ.

وهناك قاعدَةٌ مُهِمَّةٌ في التَّفْسِيرِ، وهي أنَّ الآيةَ الكَرِيمَةَ إذا كانَتْ تَحْتَمِلُ مَعْنَيينِ أو أَكْثَرَ، ولا يُنافِي أَحَدُهما الآخَرَ؛ فإنه يَجِبُ أن تُحمَلَ على المَعْنَيَيْنِ جميعًا؛ لأن مَعانيَ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واسعَةٌ.

أما إذا كانَتِ الآيَةُ تَحْتَمِلُ مَعْنيَيْنِ، لكن لا يَجْتَمعانِ؛ فإن الواجبَ طَلَبُ المُرجِّحِ؛ حتى نُرَجِّحَ أَحَدَ المَعْنَيينِ، فنأخُذَ بِهِ، ونَدَعَ الآخَرَ. هذا المَعْنَى الذي أَشَرْنَا إليه الأخيرُ، وهو أنَّ المُرادَ بالكِتابِ المَكنُونِ الصَّحُفُ التي في أَيْدِي

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٦).

الملائكَةِ، ولا يُنَافِي ذلِكَ أن يَكونَ المرادُ به اللَّوْحَ المحفوظَ؛ لإمكانِ الجَمْعِ، فالقرآنُ في اللَّوْحِ المحفوظِ، والقرآنُ أيضًا فِي: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾.

وأما مَن قـالَ مِنْ أهلِ العِلْمِ: إن الضميرَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُ﴾ [الواقعة:٧٩] يعودُ علَى القُرآنِ، وإنَّ المرادَ بـ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩] الإنسانُ المُتَطَهِّرُ من الحَدَثِ، فهذا القولُ لا يُسْعِفُهُ اللَّفْظُ، ولا يُساعِدُهُ.

أما كونُه لا يُسْعِفُه اللَّفْظُ؛ فلأَنَّ القاعِدَةَ المُقرَّرَةَ في اللُّغَةِ العربيَّةِ أن الضَّمائِرَ وأسماءَ الإشارةِ تَعودُ إلى أَقرَبِ مَذْكُورٍ.

وأَمَّا كونُـهُ لا يُساعِدُهُ المَعْنَى؛ فـلأنَّ اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]، وهو اسمُ مفعُولٍ، ولو كانَ المرادُ بها المتَطَهِّرِينَ، لقال: المطَّهِّرُونَ -بكسرِ الهاءِ- ومَعْنَى المطَّهِّرِينَ، أي: المتَطَهِّرُونَ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وعلى هـذا، فـلا يَكونُ مَرجِعُ الضميرِ إلى القُرآنِ، ولا يكـونُ المرادُ بـ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ الناسَ الذين تَطَهَّرُوا من الأَحْداثِ. ولكن قد يَقولُ قائلٌ: هل يَجوزُ أنْ يَمَسَّ القرآنَ مَن ليسَ بطاهِرٍ، أي كانَ مُحْدِثًا حَدَثًا أصغَرَ، أو كانَ على جَنابَةٍ؟ والجواب: لا يَجوزُ، لَكِنَّه لا يُؤْخَذُ من هذِهِ الآيَةِ، وإنها يُؤْخَذُ من حديثِ عَمْرِو بنِ حَزْمٍ الذي كَتَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُو «**أَنْ لَا يَمَسَّ القُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ**»[1].

---

(١) أخرجه مالك رقم (٤٦٩)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣١٣، رقم ١٣٢١٧)، وأخرجه أيضًا في الصغير (٢/ ٢٧٧ رقم ١١٦٢) قال الهيثمي (١/ ٢٧٦): رجاله موثقون.

وهذا الحديثُ وإن كانَ مُرْسَلًا، ونحن نَعلَمُ أن المُرْسَلَ من الحديثِ مِنْ أقسامِ الضَّعِيفِ، لكنَّ المُرْسَلَ إذا كانت له شواهدُ، أو تَلَقَّتْهُ الأُمَّةُ بالقَبولِ، أُلحِقَ بالصحيحِ، وهذا الحديثُ قَدْ تَلَقَّتْه الأُمَّةُ بالقَبولِ، وعَمِلت به في الدِّياتِ، والزَّكاةِ، وغَيْرِها مما جَاءَ فيهِ، فيكونُ هذا الحديثُ مَقْبُولًا معَ إرسالِهِ، وهذه فَائِدَةٌ يَنبَغِي لطالِبِ الحديثِ أن يَعْتَبِرَ بِهَا، وهو أَلَّا يَنْظُرَ إلى مُجَرَّدِ السَّنَدِ؛ فإنَّ مَن نظَرَ إلى مُجَرَّدِ السَّنَدِ وظاهِرِ الإسنادِ، قد يُصَحِّحُ ما كانَ مُنْكرًا، ونحن نَعْلَمُ أن من شَرْطِ الصحيحِ أن يكونَ متَّصِلَ السنَدِ، غيرَ مُعَلَّلٍ، ولا شاذٍّ، فلا بُدَّ من أنْ يكونَ غيرَ معَلَّلٍ ولا شَاذٍّ، وإلا كانَ ضَعِيفًا، وإن كانَ رجالُ السنَدِ ثِقاتٍ وكانَ متَّصِلَ السندِ.

فهُنَا الحدِيثُ مُرْسَلٌ مُنقطِعٌ، لكن لَـمَّا تَلَقَّتْهُ الأُمَّةُ بالقَبُولِ صارَ صَحِيحًا، فقولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**لا يَمَسُّ القُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ**»، أي: طاهِرٌ مِنَ الحدَثِ، وبعضُ الناسِ يقولُ: إلا طاهِرٌ مِنَ الشِّرْكِ، قال: لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]، ويَقولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ المُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ**»[(١)]، فيكونُ المرادُ بالطاهِرِ هنَا المُؤْمِنَ، يعني: لَا يَمَسُّ القرآنَ إلا مُؤْمِنٌ، سَواءٌ كانَ متَطَهِّرًا مِنَ الحدَثِ أَمْ لَا.

ولكن عِنْدَمَا نُمْعِنُ النظَرَ في هذَا الحديثِ، يَتبَيَّنُ لنَا أن هذا التأويلَ للحديثِ غيرُ صَحِيحٍ؛ لأن الطاهِرَ هو المُؤمِنُ الذي تَطَهَّرَ مِنَ الحَدَثِ، بدليلِ قولِهِ تَعالَى حِينَ ذكَرَ آيَةَ الوُضوءِ والغُسْلِ والتَّيَمُّمِ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة:٦]، وهذا يَدُلُّ على أَنَّنا غيرُ طاهِرِينَ قبلَ أن نتوَضَّأَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الغسل، باب: الجنب يخرج ويمشي في السوق وغيره، رقم (٢٨٥)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على أن المسلم لا ينجس، رقم (٣٧١).

ونَغْتَسِلَ، فيكونُ (طَاهِرٌ) أي: متوَضِّأٌ ومُغتَسِلٌ من الجَنابَةِ، ولا نَعْلَمُ أن الشارِعَ يُعبِّرُ بكلِمَةِ (طَاهِر) عن المُؤمِنِ أو المُسلِمِ، وإنما يُعبِّرُ عن المؤمِنِ بوَصْفِ الإيمانِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، وقَالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، ولم يَقُلْ: إن الطَّاهِرِينَ والطاهِرَاتِ. فلم يأتِ التَّعبيرُ بالطاهِرِ في كتابِ اللهِ ولا سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ عنِ المُؤمِنِ؛ لأن وَصْفَ الإيمانِ وصْفٌ عظيمٌ أبْلَغُ من وَصْفِ الطهارَةِ، فالطهارَةُ صِفَةُ المُؤمِنِ، ولكِنَّ الإيمانَ هو الأصْلُ.

إذن، فالاستِدْلالُ بهذِهِ الآيَةِ على أنه لا يَمَسُّ القرآنَ إلا طاهِرٌ بِناءً على أن الضَّمِيرَ فِي: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ [الواقعة:٧٩] عائدٌ عَلَى القُرآنِ، وأنَّ المرادَ بالمطَهَّرِينَ المتَطَهِّرُونَ، استِدْلالٌ ضعيفٌ، ونحنُ في غِنًى عن هذَا الاستدلالِ بالحدِيثِ: «**لَا يَمَسُّ القُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ**»(١).

قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٨٠]، هذه الآيَةُ أخَذَ منها عُلماءُ أهلِ السُّنَّةِ إثباتَ عُلُوِّ اللهِ بذاتِهِ، فعندمَا يقول: ﴿تَنزِيلٌ﴾ إذن فرَبُّ العالَمِينَ فوقُ؛ لأنَّ النُّزولَ لا يَكونُ إلا مِنْ عالٍ، واستَدَلُّوا بها أيضًا عَلَى أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ، وذلِكَ من قولِهِ: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٨٠]، فمِنْهُ ابْتَدَأَ وإليه يَعُودُ.

لكن قد يقُولُ قائلٌ: إنه لا يَلْزَمُ مِنَ التَّنْزِيلِ أن يكونَ المُنزَّلُ صِفَةً للمُنزِّلِ، بل قدْ يَكونُ المُنزَّلُ خَلْقًا من مخلوقاتِ المُنزِّلِ، مثل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ

---

(١) أخرجه مالك رقم (٤٦٩)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣١٣، رقم ١٣٢١٧)، وأخرجه أيضًا في الصغير (٢/ ٢٧٧ رقم ١١٦٢)، قال الهيثمي (١/ ٢٧٦): رجاله موثقون. وصححه الألباني.

بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، والحدِيدُ والأنعامُ والماءُ كُلُّها مخلُوقَةٌ، فلا يَلْزَمُ من نُزولِ الشيءِ مِنَ اللهِ أن يكونَ غيرَ مخلُوقٍ. وهي شُبْهَةٌ أورْدَهَا الجَهْمِيَّةُ والمُعتزِلَةُ على أهلِ السُّنَّةِ.

والجوابُ أن يُقَالَ: المُنزَّلُ قِسمانِ: قِسْمٌ قائمٌ بذاتِهِ، وقسمٌ لا يقُومُ إلا بغيرِهِ، فالقائمُ بذاتِهِ يكونُ مخْلُوقًا، فالماءُ النازِلُ مِنَ السماءِ جِرْمٌ محْسُوسٌ نُشاهِدُهُ، قائِمٌ بذاتِهِ، والأنعامُ ثَمانِيَةُ أزواجٍ قَائِمَةٌ بذاتِها، وهي ما جاءَتْ في الآياتِ الكَريمَةِ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣]، ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٤]، ومعنَى (اثنين) ذَكَرٌ وأُنْثَى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، فهَذِهِ عَيْنٌ قَائِمَةٌ بنَفْسِهَا، لكِنَّ القرآنَ ليسَ عَيْنًا قائمَةً بنَفْسِهَا، بل هو كلامٌ، والكلامُ لا يَقومُ إلَّا بمُتكَلِّمٍ، وإذا كانَ كذلِكَ لَزِمَ أن يكونَ الكلامُ صِفَةَ المُتكَلِّمِ، وصفاتُ الخالِقِ غيرُ مخْلُوقَةٍ، كما أنَّ صِفاتِ المَخْلوقِ مخلوقَةٌ: فسَمْعُ الإنسانِ وبَصَرُهُ وقُدْرَتُهُ وقُوَّتُهُ كلُّها مَخْلُوقَةٌ، لكِنَّ سَمْعَ اللهِ وبَصَرَهُ وقوَّتَهُ وكَلامَهُ غيرُ مخْلُوقَةٍ.

وبهذا بطَلَتْ شُبْهَةُ هؤلاءِ الجَهْمِيَّةِ والمُعتزِلَةِ، وتَبَيَّنَ أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، وأنه صفَةٌ من صفاتِهِ، وأنه غيرُ مخلُوقٍ.



الدرس السادس:

الحَمدُ لله رَبِّ العالَمِينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقدِ استَمَعْنَا إلَى قِراءةِ إمامِنَا فِي صلاةِ المَغْرِبِ، حيثُ قرَأَ فِي صلاةِ المَغْرِبِ أوِ العِشاءِ قَوْلَ اللهِ تَعالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٧٥-٨٠].

يُقْسِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بمَواقِعِ النُّجُومِ، ومَواقِعُ النُّجُومِ أماكِنُ وُقُوعِهَا، والنُّجُومُ جَمْعُ نَجمٍ، وهِيَ هَذِهِ الأجرامُ المُنِيرَةُ فِي السَّماءِ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ تعالَى لثلاثٍ لَا غَيْرُ، كما قَالَ قَتادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلاثٍ: زِينَةً للسَّماءِ، ورُجُومًا للشَّياطِينِ، وعَلاماتٍ يُهْتَدَى بِهَا[1].

الدَّلِيلُ عَلَى الأَوَّلِ والثَّانِي قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [المُلْكِ:٥] والدَّلِيلُ عَلَى الثالِثِ أَنَّها خُلِقَتْ علاماتٍ يُهْتَدَى بِهَا قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النَّحْلِ:١٦].

ويُسْتَدَلُّ بالنَّجْمِ عَلَى الجِهاتِ، ويُسْتَدَلُّ بالنَّجمِ عَلَى القِبْلَةِ، ويُسْتَدَلُّ بالنَّجْمِ عَلَى أيِّ شَيْءٍ يَهْتَدِي إليْهِ الإنْسَانُ بسَبَبِهَا.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقِعَةِ:٧٥] وهُنا سُؤالانِ:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩١٣)، وعبد بن حميد كما في فتح الباري (٦/ ٢٩٥)، وعلقه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب في النجوم.

السُّؤَالُ الأَوَّلُ: هلْ جُمْلَةُ: (لا أُقْسِمُ) إثباتٌ للقَسَمِ أوْ نَفْيٌ للقَسَمِ؟

السُّؤَالُ الثَّانِي: كَيْفَ يُقْسِمُ اللهُ تَعالَى بمَواقِعِ النُّجُومِ، ولا يُقْسَمُ بِشَيْءٍ مِنَ المَخْلُوقَاتِ؟

أَمَّا الأَوَّلُ فنقولُ: إنَّ هَذِهِ الجُمْلَةَ إثْباتٌ للقَسَمِ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: أَلَيْسَتْ (لا) مِنْ أدَواتِ النَّفْيِ؟

قُلْنَا: بَلَى، لكنَّهَا أحْيانًا تأْتِي للتَّنْبِيهِ، فقَوْلُهُ: (لَا أُقْسِمُ) (لَا) هُنا: للتَّنْبِيهِ والتَّوْكِيدِ، أيْ: أُقْسِمُ بمَواقِعِ النُّجُومِ.

أَمَّا الثَّانِي وهُوَ: كَيْفَ أقْسَمَ اللهُ تَعالَى بمَواقِعِ النُّجُومِ، والقَسَمُ بغَيْرِ اللهِ حَرامٌ ومِنَ الشِّرْكِ؟

الجَوَابُ عَنْ هذَا أنْ نَقُولَ: إنَّ للهِ تَعالَى أنْ يُقْسِمَ بما شاءَ مِنْ خَلْقِهِ، فقَدْ أقْسَمَ اللهُ تَعالَى بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارِق:١]، وأقْسَمَ بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البُرُوجِ:١]، وأقْسَمَ بـ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشَّمْسِ:١]، وأقْسَمَ بـ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [اللَّيْلِ:١]، وأشياءُ كَثِيرَةٌ أقْسَمَ اللهُ بها، وللهِ تَعالَى أنْ يُقْسِمَ بما شاءَ مِنْ خَلْقِهِ، أمَّا نَحْنُ العِبادَ فلَيْسَ لنَا أنْ نُقْسِمَ بأَحَدٍ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولذَلِكَ يُخْطِئُ خطَأً عَظِيمًا مَنْ يَحْلِفُ بالنَّبِيِّ، أوْ يَحْلِفُ بالكَعْبَةِ، أوْ يَحْلِفُ برَئِيسِهِ، أوْ يَحْلِفُ بشَعْبِهِ، أوْ يَحْلِفُ بوَطَنِهِ، أوْ بغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَخْلُوقَاتِ، وإنَّنا لنَسْمَعُ كثيرًا مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ: والنَّبِيِّ، أوْ وَحياةِ النَّبِيِّ، أوْ مَا أشْبَهَ ذَلِكَ ممَّا يُقْسِمُونَ بِهِ سِوَى اللهِ، وهَؤُلاءِ عَلَى جَهْلٍ؛ لأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ قالَ:

«مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[(١)] وَقَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[(٢)].

أخِي المُسْلِمَ: لَا تَحْلِفْ إِلَّا بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا تَحْلِف بالنَّبِيِّ، ولا بالكَعْبَةِ، ولا بالسَّيِّدِ، ولا بالرَّئِيسِ، ولا بالوَزِيرِ، ولا بالمَلِكِ، ولا بأحَدٍ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أمَّا رَبُّكَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإنَّ لهُ أنْ يُقْسِمَ بما شاءَ مِنْ خَلْقِهِ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقِعَةِ:٧٦] ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أيْ: إقسامُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بمَواقِعِ النُّجُومِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ، وجُمْلَةُ: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ لبيانِ أهَمِّيَّةِ هَذَا القَسَمِ، وإنَّما كانَ هَذَا القَسَمُ عَظِيمًا؛ لأنَّ المُقْسَمَ عَلَيْهِ عَظِيمٌ، وهُوَ القُرْآنُ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقِعَةِ:٧٧].

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضَّمِيرُ يعودُ عَلَى مَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ مِنْ كلامِ اللهِ وهُوَ القُرْآنُ، وسُمِّيَ قُرآنًا لأَنَّهُ يُقْرَأُ ويُتْلَى ﴿كَرِيمٌ﴾ لكَثْرَةِ خَيْراتِهِ وبَركاتِهِ، فهَذَا القُرْآنُ بَرَكَةٌ، هَذَا القُرْآنُ شِفاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، هَذَا القُرْآنُ شِفاءٌ للأَبْدانِ أيْضًا كما أنَّهُ شِفاءٌ للصُّدُورِ.

يُقْرَأُ القُرْآنُ عَلَى المريضِ فيُشْفَى بإذْنِ اللهِ، أرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً، فنَزَلُوا عَلَى قَوْمٍ ضُيُوفًا، لكنَّ القَوْمَ لَمْ يُضَيِّفُوهُمْ، فسَلَّطَ اللهُ عَلَى رَئِيسِ هَؤُلَاءِ القَوْمِ الَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى، رقم (٧٤٠١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٦٩)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

أَبَوْا أنْ يُضَيِّفُوا أصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَلَّطَ اللهُ عَلَى رَئِيسِهِمْ عَقْربًا فلَدَغَتْهُ، فقالُوا: مَنْ يَقْرَأُ عَلَى هَذَا الَّذِي لُدِغَ، قالُوا: لَعَلَّ هَؤُلَاءِ القَوْمَ الَّذِينَ نَزَلُوا فِيهِمْ مَنْ يَقْرَأُ، فأَتَوْا إِلَى الصَّحَابَةِ، قالُوا: هلْ فِيكُمْ قَارِئٌ؟ قالُوا: نَعَمْ، قالُوا: إنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، فاقْرَؤُوا عليْهِ، قالُوا: لَنْ نَقْرَأَ عَلَيْهِ إلَّا بجُعْلٍ -يَعْنِي إلَّا أنْ تَجْعَلُوا لنَا شَيْئًا- قالُوا: نُعْطِيكُمْ هَذَا القَطِيعَ مِنَ الغنَمِ، فذَهَبَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ، وجَعَلَ يَقْرَأُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ سُورَةَ الفاتِحَةِ فقطْ، فقامَ هَذَا الرَّجُلُ اللَّدِيغُ كأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقالٍ[1]، يَعْنِي كأَنَّهُ بَعِيرٌ فُكَّ عِقالُهُ، وصارَ يَمْشِي طَلِيقًا لَيْسَ بِهِ بأْسٌ.

إِذَنِ: القُرْآنُ شِفاءٌ لأمْراضِ الأبْدانِ، كما أَنَّهُ شِفَاءٌ لأمْراضِ القُلُوبِ.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧] ومِنْ كَرَمِ هَذَا القُرْآنِ أنَّ مَنْ قَرَأَهُ فلَهُ بكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسناتٍ، لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ، لكنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، ولَامٌ حَرْفٌ، ومِيمٌ حَرْفٌ، وعلَى هَذَا يكونُ للقارِئِ إذَا قالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] يَكُونُ لهُ بكَلِمَةِ (رَبِّ) ثَلاثُونَ حَسَنَةً؛ لأنَّ (ربِّ) الباءُ مُضَعَّفَةٌ، فتكونُ عَنْ حَرْفَيْنِ، وعلَى هَذَا كَلِمَةُ (رَبِّ) يَحْصُلُ لكَ بِهَا ثلاثونَ حَسَنَةً.

ومِنْ كَرَمِ القُرْآنِ أنَّ أهْلَ القُرْآنِ الَّذِينَ حَمَلُوهُ حَقِيقَةً فتَحُوا بِهِ مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَهَا، لَمَّا كانَتِ الأُمَّةُ الإِسْلامِيَّةُ حامِلَةً للقُرْآنِ عَلَى حَقِيقَتِهِ فتَحُوا بذَلِكَ مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَهَا، حتَّى جِيءَ بِتَاجِ كِسْرَى مَحْمُولًا إِلَى المَدِينَةِ لَمْ يَتَغَيَّرْ منهُ شَيْءٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

ومِنْ بَرَكَةِ القُرْآنِ أنَّ اللهَ تعالَى يَفْتَحُ بِهِ عَلَى المُؤْمِنِ، كلَّما تَدَبَّرَهُ فتحَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ المَعانِي والحِكَمِ والأسْرَارِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى المُعرِضِ عَنِ القُرْآنِ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقِعَة:٧٧-٧٨] وهُوَ اللَّوْحُ المَحْفُوظُ، كما قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البُرُوج:٢١-٢٢] وهَذَا اللَّوْحُ المَحْفُوظُ لَوْحٌ عَظِيمٌ فِي السَّماءِ، لَا يَعْرِفُ قَدْرَهُ إلَّا اللهُ، ولا نَدْرِي مِنْ أيِّ مادَّةٍ هُوَ، ولا يَحِلُّ لنا أنْ نتكلَّمَ بما لَا نَعْلَمُ.

فلَوْ قَالَ قائِلٌ: مِنْ أيِّ شَيْءٍ هَذَا اللَّوْحُ المَحْفُوظُ؟

قُلْنَا: هَذَا السُّؤَالُ بِدْعَةٌ، لَمْ يَسْأَلْ عَنْهُ الصَّحَابَةُ، لِماذَا تَسْأَلُ مِنْ أيِّ مادَّةٍ هُوَ؟ هلْ أنْتَ أحْرَصُ مِنَ الصَّحَابَةِ عَلَى العِلْمِ؟!

إذَنْ: اسْكُتْ كما سَكَتَ الصَّحَابَةُ، فإنَّهُ لَوْحٌ عَظِيمٌ كَتَبَ اللهُ بِهِ مَقادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ.

﴿فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقِعَة:٧٨] المَكْنُونُ هُوَ المَحْفُوظُ كما تُفَسِّرُهُ الآيَةُ الثَّانِيةُ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقِعَة:٧٩] الضميرُ الهاءُ فِي قَوْلِهِ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ أيعُودُ عَلَى القُرْآنِ أمْ يَعُودُ عَلَى اللَّوْحِ المَحْفُوظِ؟

الجَوابُ: يَعُودُ عَلَى اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، أيْ: لَا يَمَسُّ هَذَا اللَّوْحَ إلَّا المُطَهَّرُونَ، والمُطَهَّرُونَ هُمُ المَلائِكَةُ، ولا يَصِحُّ أنْ يُسْتَدَلَّ بالآيَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى أنَّ القُرْآنَ لَا يَمَسُّهُ إلَّا طاهِرٌ؛ لأنَّ اللهَ لَمْ يَقُلْ: لَا يَمَسُّهُ إلَّا الطَّاهِرُونَ، بلْ قالَ: ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ الَّذِينَ طَهَّرَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وعلى هَذَا فالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ يَعُودُ عَلَى اللَّوْحِ المَحْفُوظِ لَا عَلَى القُرْآنِ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: أيجوزُ لنا أنْ نَمسَّ القُرْآنَ عَلَى غيْرِ طَهارَةٍ؟

قُلْنَا: لا، لكِنَّنَا لَا نَسْتَدِلُّ بِهذِهِ الآيَةِ، وإِنَّمَا نَسْتَدِلُّ بحدِيثِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ الَّذِي تَلَقَّتْهُ الأُمَّةُ بالقَبُولِ، وفِيهِ: أَلَّا يَمَسَّ القُرْآنَ إِلَّا طاهِرٌ(١)، فالإِنْسَانُ الَّذِي لَيْسَ عَلَى طَهارَةٍ لَا يَمَسُّ القُرْآنَ.

لكنْ إِذَا احْتاجَ إِلَى أنْ يَقْرَأَ القُرْآنَ ولَيْسَ عَلَى طَهارَةٍ، ولَيْسَ حَافِظًا للقُرْآنِ فماذا يَصْنَعُ؟

نقولُ: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبينَ المُصْحَفِ حاجِزًا مِنْ وَرَقَةٍ، أَوْ مِنْدِيلٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؛ حتَّى يُمْكِنَكَ أَنْ تَقْرَأَ فِي المُصْحَفِ، وأمَّا أَنْ تَمَسَّهُ مُباشَرَةً وأَنْتَ عَلَى غيْرِ وُضُوءٍ، فإِنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٨٠] أيْ نازِلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهُوَ القُرْآنُ، أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالَى عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ، وكَيْفِيَّةُ إِنْزالِهِ بيَّنَهَا اللهُ تَعالَى فِي سُورَةِ الشُّعراءِ؛ حيثُ قالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعَراءِ:١٩٢-١٩٥].

هكَذَا نَزَلَ القُرْآنُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ، وإِنَّمَا قالَ: عَلَى قَلْبِكَ؛ لأَنَّ القَلْبَ وِعاءُ الحِفْظِ.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعَراءِ:١٩٣-١٩٥].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٩٩، رقم ١)، وأبو داود في المراسيل رقم (٩٤)، والدارمي في سننه رقم (٢٣١٢)، والدارقطني (١/ ١٢٢).

يقولُ جَلَّوَعَلَا هُنا فِي الآياتِ الَّتِي نَحْنُ بصَدَدِ الكلامِ علَيْها: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقِعَة:٨٠] عبَّرَ عَزَّوَجَلَّ بأَنَّهُ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ؛ لأَنَّهُ لَمَّا كانَ نازِلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ الَّذِي هُوَ ربُّ العالَمِينَ وجَبَ عَلَى العالَمِينَ قَبُولُ هَذَا القُرْآنِ، وتَصْدِيقُ أَخْبارِهِ، وامْتِثالُ أَحْكامِهِ.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقِعَة:٨١-٨٢]

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يَعْنِي القُرْآنِ ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ تُداهِنُونَ الكُفَّارَ ولا تَصْدَعُونَ بِهِ، وهَذَا إِنْكارٌ لِمَنْ داهَنَ بالقُرْآنِ، وصارَ لَا يَصْدَعُ بِهِ، ولا يَمْتَثِلُ أَحْكامَهُ.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقِعَة:٨٢] أيْ: تَجْعَلُونَ شُكْرَ رِزْقِكُمْ وعَطائِكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ، نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَوْلِ العَرَبِ إِذَا نَزَلَ المَطَرُ قالُوا: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وكَذَا، ولا يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ، وعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالحُدَيْبِيَةِ صَلاةَ الصُّبْحِ عَلَى إِثْرِ سَماءٍ كانَتْ مِنَ اللَّيْلِ -أَيْ: عَلَى إِثْرِ مَطَرٍ- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحابِهِ: «**أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**» قالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**إِنَّهُ قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ**»(١).

وكانُوا فِي الجاهِلِيَّةِ يَظُنُّونَ أَنَّ الأَنْواءَ -أَيِ النُّجُومَ- هِيَ الَّتِي تُنْزِلُ المَطَرَ، وأَنَّ اخْتِلافَ النُّجُومِ هُوَ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ المَطَرُ، وهَذَا كُفْرٌ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ الَّذِي يُنْزِلُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، رقم (٨٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، رقم (٧١)، من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المَطَرَ هُوَ اللهُ، يُنْزِلُهُ مَتَى شاءَ، أَحْيانًا فِي هَذَا النَّوْءِ، وأحيانًا فِي النَّوْءِ الآخَرِ، أَحْيانًا تَكُونُ السَّنَةُ مُجْدِبَةً، وأحيانًا تَكُونُ مُخْصِبَةً، وكُلُّ ذَلِكَ بإذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهَذَا إِذَا أَصَابَنَا مَطَرٌ قُلْنا: مُطِرْنَا بفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ، ولا نقولُ: مُطِرْنَا بالنَّوْءِ الفُلانِيِّ؛ لأَنَّنَا إِذَا قُلْنَا: مُطِرْنَا بالنَّوْءِ الفُلانِيِّ، أَسْنَدْنَا النِّعْمَةَ إِلَى غَيْرِ مُسْدِيهَا، والنَّجْمُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا، ولا يَصْنَعُ شَيْئًا، إِنَّمَا الَّذِي يَفْعَلُ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

إِذَنْ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقِعَة:٨٢] أَيْ: تَجْعَلُونَ شُكْرَ نِعْمَةِ اللهِ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بها، وتَنْسُبُونَهَا إِلَى غَيْرِ اللهِ، كما يقولُ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ إِذَا نَزَلَ المَطَرُ يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذَا وكذَا.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقِعَة:٨٣-٨٧] هَذَا مَشْهَدٌ عَظِيمٌ، يَكُونُ لكُلِّ إنسانٍ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٥] ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤].

كُلُّ إنْسَانٍ دخَلَتِ الرُّوحُ فِي جِسْمِهِ، فسَوْفَ تَخْرُجُ مِنْ هَذَا الجِسْمِ إنْ عاجِلًا وإِنْ آجِلًا.

انْظُرْ إِلَى هَذَا المَشْهَدِ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقِعَة:٨٣-٨٧] يَعْنِي: فهلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ الحُلْقُومَ تُرْجِعُونَهَا، تَرُدُّونَهَا إِلَى مَحَلِّهَا؟

الجَوابُ: لا، والحُلْقُومُ تَصْعَدُ مِنْ أَسْفَلِ البَدَنِ إِلَى أَعْلاهُ، تَسُوقُهَا المَلائِكَةُ حتَّى

إذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ -وهُوَ مَجْرَى النَّفَسِ- فإنَّهُ لَا يُمْكِنُ لأحدٍ أنْ يَرُدَّهَا، مَهْمَا كانَ سُلْطانُهُ، مَهْمَا كانَتْ قُوَّتُهُ، مَهْمَا كانَ عِلْمُهُ بالطِّبِّ، لَا يُمْكِنُ أنْ يَرُدَّهَا، ولوِ اجْتَمَعَتِ الخَلائِقُ عَلَى أنْ تُرَدَّ هَذِهِ الرُّوحُ الَّتِي بَلَغَتِ الحُلْقُومَ لَا يُمْكِنُ.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقِعَة:٨٦] الجَوابُ: ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقِعَة:٨٧]. الجَوابُ: لَا يُمْكِنُ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقِعَة:٨٤].

هلِ المَعْنَى أنَّ الميِّتَ يَنْظُرُ أوْ أنَّ الحاضِرينَ للمَيِّتِ يَنْظُرُونَ، أوْ أنَّ المَعْنَى هَذَا وهَذَا؟

الجَوابُ: المَعْنَى هَذَا وهَذَا.

وسَأُعْطِيكُمُ الآنَ قاعِدَةً: إذَا كانَتِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ عَلَى السَّواءِ، ولا مُرَجِّحَ لأحَدِهِمَا، فإنَّهُ يَجِبُ أنْ تُحْمَلَ عَلَى المَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا، أمَّا إذَا كانَ هُناكَ مُرَجِّحٌ أخَذْنَا بالمُرَجِّحِ.

مثالُ ذَلِكَ: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التَّكْوِيرِ:١٧-١٨] (عَسْعَسَ) فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لهَا مَعْنَيانِ: الإقْبالُ والإدْبارُ، فهلْ أرادَ اللهُ تَعالَى القَسَمَ باللَّيْلِ عندَ إقْبالِهِ أوْ باللَّيْل عندَ إدْبارِهِ؟

الجَوابُ: كِلاهُمَا صَحِيحٌ؛ لأنَّ الآيَةَ تَحْتَمِلُهُمَا ولا مُرَجِّحَ ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التَّكْوِيرِ:١٨]يَعْنِي إذَا بَدَأَ وظَهَرَ.

وقَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البَقَرة:٢٢٨] كَلِمَةُ (قُرُوءٍ) جَمْعُ قُرْءٍ، والقُرْءُ اسْمٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الحَيْضِ والطُّهْرِ، أيْ أنَّهُ يُطْلَقُ فِي

اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ عَلَى الحَيْضِ ويُطْلَقُ عَلَى الطُّهْرِ، فهلْ يُحْمَلُ هُنَا عَلَى الطُّهْرِ والحَيْضِ أوْ لَا يُحْمَلُ؟

الجَوابُ: لَا يُحْمَلُ؛ لأنَّ الحَيْضَ ضِدُّ الطُّهْرِ، فَلا يُمْكِنُ الجَمْعُ بَيْنَهُمَا.

إِذَنْ نَنْظُرُ مَا المُرَجِّحُ، هلْ هُناكَ مَا يُرَجِّحُ أنَّ المُرَادَ بالقُرْءِ الحَيْضُ فنَأْخُذُ بِهِ، أوِ الطُّهْرُ فنَأْخُذُ بهِ، إذَا نَظَرْنَا وجَدْنَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ للمُسْتَحَاضَةِ -وهِيَ الَّتِي اسْتَمَرَّ علَيْهَا الدَّمُ- قالَ: «**اجْلِسِي مَا كَانَتْ أَقْرَاؤُكِ تَحْبِسُكِ**»[1] (أقْراؤُكِ) أيْ: حَيْضُهَا، وعَلَى هَذَا يكونُ المُرَادُ بالقُرُوءِ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ الحِيَضُ؛ لأَنَّنَا وجَدْنَا مُرَجِّحًا.

إِذَنْ فالقَاعِدَةُ: إذَا كانَتِ الآيَـةُ تَحْتَمِلُ مَعْنيَيْنِ عَلَى السَّـواءِ، ولا مُرَجِّـحَ لأَحَدِهِمَا عَلَى الآخَرِ، ولا تَنافِيَ بَيْنَهُمَا، فالواجِبُ: حَمْلُهَا عَلَى المَعْنيَيْنِ جَمِيعًا، فإنْ وُجِدَ لأحَدِهِمَا مُرَجِّحٌ عَمِلْنَا به، وهَذَا إذَا لَمْ يُمْكِنِ الجَمْعُ بَيْنَهُمَا، فإنْ أمْكَنَ أخَذْنَا بالجَمْعِ.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥] (نحنُ) الضَّمِيرُ يعودُ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أقْرَبُ إليهِ: أيْ: إلَى الحُلْقُومِ مِنْكُمْ، وهَذَا فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] فهلِ المُرَادُ بذَلِكَ قُرْبُ اللهِ نَفْسِهِ أوْ قُرْبُ مَلائِكَتِهِ؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب المستحاضة وغسلها وصلاتها، رقم (٣٣٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بلفظ: «امكثي قدر ما كانت تحبسك حيضتك».

الجوابُ: الثَّانِي؛ وذَلِكَ لأنَّ قولَهُ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقِعَة:٨٣-٨٥] يَشْمَلُ المُؤْمِنَ والكافِرَ، والكَافِرُ لَيسَ أَهْلًا لأنْ يَقْرُبَ اللهُ منهُ؛ ولهَذَا كانَ القَوْلُ الرَّاجِحُ مِنْ أَقْوالِ العُلَماءِ أنَّ قُرْبَ اللهِ تَعالَى يَخْتَصُّ بمَنْ يَدْعُوهُ أوْ يَعْبُدُهُ، ولَيْسَ عامًّا لكُلِّ أَحَدٍ.

فيكُونُ قَولُهُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقِعَة:٨٥] أيْ بمَلائِكَتِنا، وهُمُ المَلائِكَةُ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ لقَبْضِ الرُّوحِ، والرُّوحُ يَحْضُرُ قَبْضَها مَلائِكَةٌ يُرْسِلُهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، إنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ فمَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ، وإنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ فمَلائِكَةُ العَذابِ، مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ معهُمْ كَفَنٌ مِنَ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ مِنَ الجَنَّةِ، يَأْخُذُونَ الرُّوحَ ويَجْعَلُونَها فِي هَذَا الكَفَنِ، ويُحَنِّطُونَها فِي ذَلِكَ الحَنُوطِ، ويَصْعَدُونَ بِهَا إِلَى السَّماءِ بأَطْيَبِ رائِحَةٍ تُوجَدُ عَلَى وجْهِ الأَرْضِ، يَصْعَدُونَ بِهَا سَماءً سَماءً إِلَى أَنْ تَصِلَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كلما مرَّتْ بسَماءٍ أَثْنَى علَيْهَا أَهْلُ السَّماءِ.

أَمَّا رُوحُ الكَافِرِ -أَعاذَنا اللهُ وإيَّاكُمْ مِنَ الكُفْرِ- فإنَّها تُكَفَّنُ بكَفَنٍ مِنَ النَّارِ، وحَنُوطٍ مِنَ النَّارِ، ويُصْعَدُ بِهَا فِي أَخْبَثِ رَائِحَةٍ تُوجَدُ عَلَى وجْهِ الأَرْضِ، فتُغْلَقُ أبْوابُ السَّماءِ دُونَها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعْراف:٤٠] سَمُّ الخِياطِ هُوَ ثُقْبُ الإبْرَةِ، والجَمَلُ هُوَ ذَكَرُ الإِبِلِ.

وإنَّما ذَكَرَ الجَمَلَ؛ لأنَّ الجَمَلَ أَضْخَمُ مِنَ النَّاقَةِ، ولا يُمْكِنُ أنْ يَدْخُلَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِياطِ.

إذَنْ: مُسْتَحِيلٌ أنْ تُفتَّحَ أبوابُ السَّماءِ للذِينَ كذَّبُوا بآياتِ اللهِ، واسْتكْبَرُوا عنْهَا، مُسْتَحِيلٌ أنْ يَدْخُلُوا الجَنَّةَ.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقِعَة:٨٥] أيْ أَنَّكُمْ بمَلائِكَتِنَا ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقِعَة:٨٥] ولذَلِكَ نَحْنُ لَا نُبْصِرُ المَلائِكَةَ، أمَّا الَّذِي فِي سِياقِ المَوْتِ فقَدْ يُبْصِرُ المَلائِكَةَ، وقدْ لَا يُبْصِرُهُمْ، لكنِ الحاضِرينَ لَا يُبْصِرُونَ المَلائِكَةَ.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقِعَة:٨٥-٨٦].

يَعْنِي: هلَّا إنْ كُنْتُمْ غيْرَ مجْزِيِّينَ تُرْجِعُونَ الرُّوحَ.

الجَوابُ: لَا يُمْكِنُ، فلا بُدَّ لكُلِّ حَيٍّ مِنْ مَوْتٍ، ولا بُدَّ لكُلِّ حَيٍّ مِنْ مجُازاةٍ، كُلٌّ سيُجازَى بعَمَلِهِ، أسألُ اللهَ تَعالَى أنْ يجْعَلَ عَمَلِي وعَمَلَكُمْ صالحًا، وأنْ يُثِيبَنَا عَلَى أعمالِنَا، ويَعْفُوَ عَنْ تَقْصِيرِنَا؛ إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ثُمَّ اسْتَمِعْ إِلَى حالِ المَيِّتِ عنْدَ النَّزْعِ ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقِعَة:٨٨-٩٤].

هَذَا التَّقْسِيمُ تَقْسِيمٌ لبَنِي آدَمَ عندَ المَوْتِ، وأوَّلُ السُّورَةِ -ونحنُ فِي سُورَةِ الوَاقِعَةِ الآنَ- أوَّلُ السُّورَةِ تَقْسِيمٌ لبَنِي آدَمَ عنْدَ البَعْثِ.

أوَّلُ السُّورَةِ ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقِعَة:١-٧].

الصِّنْفُ الأَوَّلُ: السَّابِقُونَ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقِعَة:١٠-١١].

الصِّنْفُ الثَّانِي: أَصْحابُ اليَمِينِ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقِعَة:٢٧-٢٨].

القِسْمُ الثَّالِثُ: أَصْحابُ الشِّمال ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقِعَة:٤١]. وفيهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقِعَة:٥١].

وهذِهِ الأَصْنافُ الثَّلاثَةُ ذكَرَهَا اللهُ تَعالَى فِي يَوْم القِيامَةِ، وعندَ الاحْتِضَارِ، يقُول تعالَى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقِعَة:٨٨]وهُمُ الصِّنْفُ الأَوَّلُ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقِعَة:٨٩] ﴿فَرَوْحٌ﴾ راحةٌ ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ رائِحَةٌ طيِّبَةٌ ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي جَنَّةٌ يَنْعَمُ بِهَا أبدَ الأبِدِينَ.

وفِي هَذِهِ الآيَةِ إشارَةٌ إِلَى أَنَّ المُؤْمِنَ يَكُونُ فِي الجَنَّةِ مِنْ حِينِ أَنْ يَمُوتَ؛ لأَنَّهُ إِذَا دُفِنَ فُسِحَ لهُ فِي قَبْرِهِ، وفُتِحَ لهُ بابٌ إِلَى الجَنَّةِ، وأتاهُ عَمَلُهُ الصالِحُ، وآنَسَهُ عندَ الوَحْشَةِ، وبَسَطَ اللهُ لهُ قَبْرِهِ؛ ولهَذَا يقولُ: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقِعَة:٨٩].

وهُنَا نَقُولُ: هلْ يَنْعَمُ المَيِّتُ فِي قَبْرِهِ؟

والجَوابُ: نَعَمْ، ودَلِيلُ ذَلِكَ فِي القُرْآنِ والسُّنَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النَّحلِ:٣٢] ولهَذَا يُبَشَّرُ المُحْتَضَرُ إِذَا كانَ مِنَ المُؤْمِنِينَ -وأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي وإِيَّاكُمْ منهُمْ- فيُقالُ لرُوحِهِ: اخْرُجِي أَيَّتُها الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ، فتَسْتَبْشِرُ وتَخْرُجُ مُنْقادَةً؛ لأَنَّهَا بُشِّرَتْ بما هُوَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا.

وإذَا حُمِلَ المَيِّتُ وهُوَ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ تَقُولُ نَفْسُهُ: قدِّمُونِي قدِّمُونِي، يَعْنِي: أَسْرِعُوا بِي؛ لأَنَّهَا بُشِّرَتْ بالنَّعِيمِ.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ لكـنَّهُ دونَ المُقَرَّبِينَ ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقِعَة:٩١] أيْ أَنَّهُ سالِمٌ مِنَ العَذَابِ، لكنَّهُ لَيْسَ كالأَوَّلِ، إنَّما يكونُ سالِمًا مِنَ العَذَابِ.

ومِنَ المَعْلُومِ أَنَّهُ إِذَا سَلِمَ مِنَ العَذَابِ فلَهُ الثَّوابُ، لكنْ لَمْ يُذْكَرْ؛ لأَنَّ المُقَرَّبِينَ أَفْضَلُ منهُ.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقِعَة:٩٢-٩٤] جَزاؤُهُ النُّزُلُ مِنَ الحَمِيمِ، أي الماءِ الحارِّ، الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ أَهْلَ النَّارِ إِذَا اسْتَغَاثُوا فإِنَّما يُغاثُونَ بِماءٍ يَشْوِي الوُجُوهَ، إذَا قَرَّبُوهُ إلَى وُجُوهِهِمْ شَواهَا، وإذَا نَزَلَ فِي بُطُونِهِمْ قطَّعَ أَمْعاءَهُمْ، وإذَا تَجَرَّعُوهُ يَتَجَرَّعُهُ ولا يَكادُ يُسِيغُهُ، والعِياذُ باللهِ، نسأَلُ اللهُ تَعالَى أنْ يُحْسِنَ لنَا ولَكُمُ الخَاتِمَةَ، وأنْ يَتوفَّانَا عَلَى الإِيمانِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فِي هَذِهِ الآياتِ مَباحِثُ:

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: كَيْفَ أَقْسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بمَواقِعِ النُّجُومِ معَ أَنَّها مِنَ المَخْلُوقاتِ؟

الجَوابُ: لأَنَّ اللهَ تَعالَى لهُ أنْ يُقْسِمَ بمَا شاءَ مِنْ خَلْقِهِ، بارَكَ اللهُ فِيكَ.

لِماذَا قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقِعَة:٧٦].

الجَوابُ: لعِظَمِ المُقْسَمِ عَلَيْهِ وهُوَ القُرْآنُ، بَارَكَ اللهُ فِيكَ.

قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقِعَة:٧٧] مِنْ كَرَمِ القُرْآنِ أنَّ مَنْ قَرَأَهُ فلَهُ بكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسناتٍ، هَذَا عطاءٌ جَزِيلٌ، ومِنْ كَرَمِهِ أَنَّ مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ بتَدبُّرٍ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ العُلُومِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى البالِ، ومِنْ كَرَمِهِ أَنَّ فِيهِ شِفاءً للقُلُوبِ والأَبْدانِ.

وهُنَا إِشْكالٌ أَنَّهُ ربَّما قَرَأَ الإِنْسَانُ الفاتِحَةَ عَلَى مَرِيضٍ ولَمْ يُشْفَ.

نقولُ فِي الجَوابِ: إِنَّما السَّيْفُ بضَارِبِهِ، فإِنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يَقْرَأُ القُرْآنَ عَلَى شَخْصٍ، لكنَّهُ لَيْسَ كقارِئِ الصَّحَابَةِ الَّذِي قَرَأَ عَلَى الشَّخْصِ، إِنَّما السَّيْفُ بضارِبِهِ، فالسَّيْفُ البَتَّارُ يكونُ معَ الجَبانِ، فإِذَا جاءَهُ العَدُوُّ، أَلْقَى السَّيْفَ وهَرَبَ، فهَذَا الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ إِذَا لَمْ يَكُنْ عندَهُ إِيمانٌ بأَنَّ القُرْآنَ سيُفِيدُ فإِنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ المريضُ.

كذَلِكَ رُبَّما يكونُ القارِئُ أَهْلًا للقِراءَةِ، لكنِ المَقْرُوءُ عَلَيْهِ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بالشِّفاءِ، وحينئذٍ لَا يَنْتَفِعُ بهِ، فلا بُدَّ أنْ يَكُونَ عندَ القارِئِ والمَقْرُوءِ عَلَيْهِ إِيمانٌ بأَنَّهُ سَوْفَ يَنْتَفِعُ منْ هَذِهِ القِراءَةِ.

فإِذَا كانَ المَقْرُوءُ عَلَيْهِ شاكًّا فِي هَذَا الأَمْرِ، يقولُ: كَيْفَ يَنْفَعُ القُرْآنُ؟! أَذْهَبُ إِلَى المُسْتَشْفَى، آخُذُ عَقاقِيرَ، أَمَّا قِراءَةُ هَؤُلَاءِ فلا تَنْفَعُ، فهَذَا وإِنْ قُرِئَ عَلَيْهِ لَا يَنْتَفِعُ؛ لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بالشِّفاءِ.

ومِنْ بَرَكَةِ القُرْآنِ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فتَحُوا بِهِ مَشارِقَ الأَرْضِ ومَغارِبَهَا، لَمَّا كانُوا عامِلِينَ بِهِ، مُطَبِّقِينَ لأَحْكامِهِ، مُصَدِّقِينَ بأَخْبارِهِ، فتَحُوا بِهِ مَشارِقَ الأَرْضِ ومَغارِبَهَا؛ ولهَذَا قالَ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفُرْقان:٥٢] بالقُرْآن.

يعودُ ضَمِيرُ المَفْعُولِ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقِعَةِ:٧٩] إِلَى اللَّوْحِ المَحْفُوظِ.

فلو قَالَ لكَ قائِلٌ: يَعُودُ إِلَى المُصْحَفِ كَمَا قَالَ بِهِ بَعْضُ العُلَمَاءِ.

قُلْنَا: إِنَّهُ قَوْلٌ غيرُ صَحِيحٍ؛ لأَنَّ مِنْ قَاعِدَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ أَنَّ الضَّمِيرَ يعودُ إِلَى أَقْرَبِ مَفْعُولٍ، اقْرَأِ الآيَةَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقِعَةِ:٧٧-٧٩] فالأَقْرَبُ هُنَا الكِتابُ المَكْنُونُ لا القُرْآنُ.

إِذَنْ: لَا يَمَسُّ هَذَا الكِتَابَ المَكْنُونَ إِلَّا المُطَهَّرُونَ.

وأَيْضًا دَلِيلٌ آخَرُ: قالَ: ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ ولم يَقُلْ إِلَّا الطَّاهِرُونَ، والمُطَهَّرُونَ هُمُ المَلائِكَةُ؛ لأَنَّ اللهَ طَهَّرَهُمْ مِنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ ومِنْ كُلِّ مُخَالَفَةٍ.

نَسْتَفِيدُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقِعَةِ:٨٠] أَنَّ اللهَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؛ لأَنَّ النُّزُولَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الأَعْلَى، وعلى هَذَا، فيُسْتَدَلُّ بهذِهِ الآيَةِ عَلَى عُلُوِّ اللهِ تَعالَى، وأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

كيْفَ نَزَلَ القُرْآنُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ؟

الجَوابُ: نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ؛ لقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشُّعَراءِ:١٩٢-١٩٤]، وقالَ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ولم يَقُلْ عَلَيْكَ؛ لأَنَّ القَلْبَ وِعاءُ الحِفْظِ.

ذَكَرَ اللهُ تَعالَى فِي سُورَةِ الواقِعَةِ أَنَّ النَّاسَ ثَلاثَةُ أَصْنافٍ فِي وقْتَيْنِ: عِنْدَ البَعْثِ وعِنْدَ المَوْتِ.

فعِنْدَ البعْثِ فِي أوَّلِ السُّورَةِ، إلَى أنْ قالَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقِعَة:١٠-١١] وعنْدَ المَوْتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقِعَة:٩٠].

والصِّنْفُ الثَّالِثُ: المُكَذِّبُونَ الضَّالُّونَ، وهُمْ أصْحابُ الشِّمالِ، ذكَرَ اللهُ هَذِهِ اللَّفْظَةَ فِي أوَّلِ السُّورَةِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقِعَة:٥١] وفِي آخِرِ السُّورَةِ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقِعَة:٩٢].

إذَنْ: وجَدْنَا (المُقَرَّبُونَ) فِي أوَّلِ السُّورَةِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقِعَة:١٠-١١] وفِي آخِرِ السُّورَةِ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقِعَة:٨٨].

ووجَدْنَا فِي أوَّلِ السُّورَةِ أصْحابَ اليَمِينِ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقِعَة:٢٧] وفِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ووجَدْنَا فِي أوَّلِ السُّورَةِ (المُكَذِّبُونَ الضَّالُّونَ) ووجَدْنَا أيْضًا فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقِعَة:٩٢].

وهذِهِ المُقابلاتُ يَنْبَغِي للإنْسَانِ أنْ يَحْرِصَ علَيْهَا؛ حتَّى يَتبَيَّنَ لهُ أنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لتطابُقِهِ، ولكَوْنِهِ مُتَشابِهًا، فقَدْ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزُّمَر:٢٣] والمُرَادُ بهَذَا القُرْآنُ، فَتجِدُهُ مُتَشابِهًا مُتطابِقًا، يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، ويُوافِقُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

مَنِ الَّذِي يتوَلَّى قَبْضَ الرُّوحِ؟

نقولُ: ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ أنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يتوَفَّى الأَنْفُسَ، كَما فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمَر:٤٢] وذَكَرَ فِي موْضِعٍ آخَرَ أنَّ الَّذِي

يتوَفَّى الأنْفُسَ مَلَكُ المَوْتِ، كما فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السَّجْدَة:١١] وذكَرَ فِي موْضِعٍ ثالِثٍ أنَّ الَّذِينَ يتوَفَّوْنَ الأنْفُسَ رُسُلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنْعامِ:٦١]

فكَيْفَ نجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الآيَاتِ، لأنَّ القُرْآن لَا يُمْكِنُ أنْ يَتَنَاقَضَ أبَدًا؟

نَقُولُ: أمَّا إضافَةُ التَّوَفِّي إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فلأنَّ الوفاةَ بأمْرِهِ، وأمَّا إضافَةُ الوَفاةِ إلَى الرُّسُلِ؛ فلأنَّ مَلَكَ المَوْتِ لهُ أعْوانٌ يَسُوقُونَ الرُّوحَ مِنْ أسْفَلِ الجَسَدِ إلَى أعْلاهُ، ثُمَّ يَقْبِضُهَا مَلَكُ المَوْتِ، ثُمَّ تَأْتِي المَلائِكَةُ وتَأْخُذُهَا منهُ، لَا يَدَعُهَا فِي يدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، ويَجْعَلُونَهَا فِي الكَفَنِ الَّذِي نَزَلُوا بِهِ معَهُمْ، فصارَ مَلَكُ المَوْتِ يَقْبِضُهَا إذَا ساقَتْهَا المَلائِكَةُ، ثُمَّ تَأْخُذُهَا المَلائِكَةُ منهُ، وتَجْعَلُهَا فِي الكَفَنِ والحَنُوطِ. وبذَلِكَ تَتَّفِقُ الآيَاتُ، ولا يَحْصُلُ فِيهَا التَّناقُضُ.

واعْلَمْ أنَّ القُرْآن الكَرِيم لَيْسَ فِيهِ تَناقُضٌ إطْلاقًا، وإذَا ظَنَنْتَ أنَّ هُناكَ تَناقُضًا فهُوَ لسُوءِ فَهْمِكَ، أوْ لقِلَّةِ عِلْمِكَ، أرَأَيْتُمْ قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آلِ عِمْرانَ:١٠٦]، وقَوْلَهُ تَعالَى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢] الظاهِرُ أنَّ بَيْنَ الآيتيْنِ تَعارُضًا؛ لأنَّ السَّوادَ غَيْرُ الزُّرْقَةِ، لكنْ نقولُ: لَا تَعارُضَ؛ لأنَّ يَوْمَ القِيامَةِ مِقْدارُهُ خَمْسُونَ ألْفَ سَنَةٍ، وإذَا كانَ كذَلِكَ فيُمْكِنُ أنْ تَتَغَيَّرَ الوُجُوهُ مِنْ سَوادٍ إلَى زُرْقَةٍ، أوْ مِنْ زُرْقَةٍ إلَى سَوادٍ، هَذَا وجْهٌ.

الوجْهُ الثَّانِي: أنَّ الشَّيْءَ إذَا كانَ أزْرَقَ حالِكًا صارَ يَمِيلُ إلَى السَّوادِ.

فالقُرْآنُ لَيْسَ بِهِ تَناقُضٌ إطْلاقًا، والتَّناقُضُ الَّذِي يَظُنُّهُ الظَّانُّ إمَّا لقُصُورِ فَهْمِهِ، وإمَّا لقِلَّةِ عِلْمِهِ، وقدْ يأْتِي الإنْسَانُ يُشَبِّهُ بالقُرْآنِ إذَا كانَتْ إرادَتُهُ سَيِّئَةً؛ لقَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ:٧].

أسألُ اللهَ تَعالَى أنْ يَنْفَعَنِي وإيَّاكُمْ بكِتابِهِ، وأنْ يَجْعَلَهُ دَلِيلًا لنا إلَى جنَّاتِهِ؛ إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



الدَّرس السَّابع:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥].

ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآياتِ أَقْسامَ النَّاسِ عندَ حُضُورِ الأجلِ، وَذَكَرَ أَنَّهم أَقْسامٌ ثَلاثةٌ، فقالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿فَلَوْلَآ﴾ بِمَعْنَى: فهلَّا.

قَوْلُهُ: ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أَيِ: الرُّوحُ.

قَوْلُهُ: ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾ أَعْلَى النَّحْرِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ﴾ أَيْ: حِينَ بُلُوغِهَا الحلقومَ ﴿تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، أَي: بِمَلَائكتِنَا؛ لِأَنَّ المَلَائِكَةَ تَنْزِلُ عندَ حُضورِ الأجلِ لِقَبضِ رُوحِ الميتِ، إِمَّا مَلَائِكَة عذابٍ، وإِمَّا ملائكة رحمةٍ، فَيَجلسونَ منه مَدَّ البَصَرِ وهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِم، ويُخَاطِبونَ الرُّوحَ، وَيقُولُونَ: اخرُجِي أَيَّتُهَا النَّفسُ المُطْمَئِنَّةُ إذَا كَانَ منَ الصَّالحينَ، أَو يَقُولونَ: اخْرُجِي أَيَّتُها النَّفسُ الخَبِيثَةُ إذَا كَانَ منْ غَيرِ الصَّالحِينِ، فتَخْرُجُ الرُّوحُ، ولَكنَّها بالنِّسْبَةِ لِأَرْواحِ المُؤمنينَ تَخْرُجُ بِسُهُولَةٍ كأَنَّها شَعرةٌ سُلَّت مِنْ عَجينٍ؛ لِأَنَّها تُبشَّرُ بالرَّوحِ وَالرَّيحانِ ورِضَا الربِّ عَزَّوَجَلَّ، فَتخْرُجُ مُنْقَادةً مُشْفِقةً عَلَى أَنْ تَصِلَ إِلَى هَذَا النَّعيمِ، الَّذي بُشِّرتْ بِهِ.

أمَّا غيرُ المُؤمنِ فإنَّهُ يُقالُ لِرُوحِهِ: اخْرُجي أَيَّتُهَا النَّفسُ الخبيثةُ إِلَى غَضبِ اللهِ وعِقَابِهِ، وحِينئذٍ تَأبَى أَنْ تَخْرُجَ، تَتَفَرَّقُ فِي جِسمِهِ، فَيَنْتَزِعونَهَا بِشِدَّةٍ، وَفِي ذَاكَ يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [الأنعام:٩٣]، فَإِنَّ قَولَهُ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهم مُمْسكونَ بِالأنفسِ، شَحِيحونَ بِهَا، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾ [الواقعة:٨٦-٨٧]، يَعْني: هلَّا تَرْجِعونها إِنْ كُنْتم كَما تدَّعُون أَنَّه لا بَعْثَ وَلَا جَزاءَ وَلَا حِساب، فَلَا يُمْكِنُ أبدًا، مَهْمَا بَلَغتْ قُوَّةُ الإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَرْجِعَ النَّفْسَ إِذَا أرادَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أَنْ تَخْرُجَ.

قَـوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩].

ثُمَّ قسَّمَ اللهُ تعَالَى النَّاسَ إِلى ثَلاثةِ أَقسامٍ، فقَالَ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾، فَالمُقربُونَ منَ الأَصْنافِ الثَّلاثةِ الَّتِي فِي أوَّلِ السُّورةِ هُمُ السَّابقُـونَ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ﴾ أَيْ: فلَهُ رَوحٌ بِمَعنى الرَّاحـةِ، ﴿وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾، والرَّيحانُ: ذُو الرَّائحةِ الطَّيِّبةِ، ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾؛ لِأَنَّهُ يُبشرُ بِهَا.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة:٩٠-٩١]، وَهُمُ الَّذِينَ ذُكِروا فِي أوَّلِ السُّورةِ بِلَفظِ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة:٨].

قَوْلُهُ: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أَيْ: أَنَّه يَخْرُجُ سَالمًا منَ الآثامِ والعقوبةِ، لكنَّهُ لَيْسَ كَالمُقرَّبينَ الَّذِينَ لَهمُ الرَّوحُ وَالرَّيحانُ وجنةُ النعيمِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٦].

قَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهَذَا هُوَ الصِّنفُ الثَّالِثُ، وهوَ المذكورُ فِي أوَّلِ السُّورَةِ بِقولِهِ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة:٩].

قَوْلُهُ: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أَي: فلَهُ نُزُلٌ مِنْ حَميمٍ، وَالنُّزُلُ: هُوَ مَا يُقدَّم لِلضَّيفِ عِنْدَ قُدومِهِ، أَيْ: أَنَّ نُزُلَهُ يَكونُ منَ الحَميمِ، أَيِ: الماءِ الحارِّ -والعِياذُ باللهِ-.

قَوْلُهُ: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ وهيَ النارُ يُصْلَى بِها.

قَولُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ المشارُ إِلَيْه مَا ذُكِرَ منِ انقِسامِ النَّاسِ عِندَ حُضورِ الأجلِ إلى هَذِهِ الأقسامِ الثَّلاثَةِ.

قَولُهُ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أَي: قُل سُبحانَ ربِّي العظيمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِهِ الآيةِ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»(١).



(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥، رقم ١٧٥٤٩)، وأبو داود: باب تفريغ أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧).

الدَّرس الثامن:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمُتَّقِينَ، ولا عُدوانَ إلَّا على الظالمينَ، وأَشْهَدُ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحدَه لا شَرِيكَ له، إِلَهُ الأَوَّلِينَ والآخِرينَ، وصَلَّى اللهُ وسلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وأَصْحابِهِ ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يَومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

إنَّ سُورَةَ الواقعةِ سُورَةٌ عظيمةٌ، افتتحها اللهُ عَزَّوَجَلَّ بذِكْرِ يوم القِيامَةِ، وانقسامِ النَّاسِ في ذلكَ اليومِ إلى ثَلاثةِ أقسامٍ: سَابقينَ، وأصحابِ يَمينٍ، وأصحابِ شِمالٍ.

أما السَّابِقونَ فقَالَ اللهُ تعَالَى فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٠-١٤] أي ثُلَّةٌ من الأولينَ من هذه الأُمةِ، وقليلٌ من الآخِرينَ من هذهِ الأُمةِ، هذا هو القَولُ الراجِحُ في مَعْنَى هذه الجُملةِ: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

ولهذا كانَ خَيْرَ هذه الأُمةِ همُ الصَّحَابَةُ، ثمَّ التابعونَ، ثمَّ تابعوهم، ثمَّ تَتَغَيَّرُ الأحوالُ بعدَ ذلك، كما صَحَّ هذا عن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ[1].

أَمَّا أَصْحابُ المَيْمَنةِ فإنهم دُون ذلك في المَنْزِلةِ، وفي الثوابِ والأجرِ.

وأما أصحابُ الشِّمالِ فقد قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة:٤١-٤٣].

---

(١) أخرج البخاري: كتاب أصْحاب النبي ﷺ باب فضائل أصحابِ النبي ﷺ رقم (٣٦٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصَّحَابَة، باب فضل الصَّحَابَة ثمَّ الذين يلونهم ثمَّ الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، أن النبي ﷺ قال: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**».

أما في آخِرِ السُّورةِ فذكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أحوالَ الإنسانِ عندَ قِيامِ ساعتِهِ؛ لأنَّ أَوَّلَ السورةِ عندَ قيامِ الساعةِ الكُبْرَى، ولكنَّ آخِرَها عندَ قيامِ ساعةِ الإنسانِ، وذلك عندَ موتِه، فقَسَّمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيها النَّاسَ إلى ثلاثةِ أَقْسامٍ:

القِسْم الأَوَّل: قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩]. أَسْأَلُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكم منهم، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا من المُقرَّبِينَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنا من المُقَرَّبِينَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا من المُقَرَّبِينَ.

قال: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾، وهذا يُقابِلُ قولَه في أَوَّلِها: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

القِسْم الثَّاني: أَصْحاب اليَمينِ؛ قال اللهُ فيهم: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة:٩٠-٩١].

القِسْم الثَّالث: أصحاب الشِّمال، وهم الَّذِينَ عَبَّرَ اللهُ عنهم في آخِرِ السُّورةِ بقَوْلِه: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٤].



الدرس التاسع:

قال تَعَالَى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ
أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ
وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا
تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ
﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ
ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ
﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾
[الواقعة:٥٧-٧٣].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ يُخَاطِبُ بذلك مَن يُنكِرون البَعثَ، ويقولون: كيفَ نُبعَثُ وقد كُنا عِظامًا ورُفاتًا، وكيف يُبعَثُ آباؤُنا، وإذا كنتم صادقينَ في ذلكَ فرُدُّوا آباءَنا، مع أنَّ الرُّسلَ إنَّما جاءَتْ بالبَعْثِ بعدَ الموتِ عندَ قيامِ الساعةِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠].

يَقولُ تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾، أي ابْتَدَأْنا خَلْقَكم ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي فهَلَّا تُصدِّقون بالبَعْثِ؛ لأنَّ القَادِرَ على ابتداءِ الخَلْقِ قادِرٌ على إعادتِه، بل الإعادةُ أهونُ؛ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وهذا أَمْرٌ مُسلَّم، فإعادةُ الشيءِ أهونُ من إنشائِه ابتداءً، فإذا كانَ اللهُ قادرًا على أن يَبتدِئَ الخلقَ فهو قادِرٌ على إعادتِهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولهذا قال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ يعني ابْتِداءً ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بإعادتِكم.

قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هـذا استـدلالٌ بأمرٍ واقعٍ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي ما تُريقُونَ من المَنِيِّ في أَرحامِ النساءِ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥ﴾ أي في بُطونِ الأُمَّهاتِ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؟ والجوابُ: اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فلا أَحَدَ يَخْلُقُ الجَنِينَ في بَطْنِ أُمِّهِ، لا أبوه ولا أُمُّه، ولا أيُّ إنسانٍ، وأكبرُ مَلِكٍ وأكبرُ رَئيسٍ من البشرِ لا يَستطِيعُ أن يَخْلُقَ هذه النُّطفةَ حتَّى تكونَ رَجلًا سَوِيًّا.

واستمِعْ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَتحدَّى أولئك القومَ الَّذِينَ يَعبُدون مِن دونِ اللهِ مَن سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فيقـولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خِطابٌ للناسِ كُلِّهم؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾، فأَمَرنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن نَستمِعَ لهذا المَثَلِ؛ لأنَّه دَليلٌ حِسِّيٌّ على أن هذه المعبوداتِ لا تَصْلُحُ أن تكونَ آلهةً، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾. وهذا حقٌّ، فلو اجْتَمَعَ البشرُ كُلُّهم ومَعْبوداتُهم على أن يَخْلُقوا هذا الذُّبابَ المَهِينَ ما استطاعوا، ولو اجْتَمعوا له، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ سُبْحَانَ اللهِ! لا يَستطيعون إيجادَ الذُّبابِ ولا دَفْعَه عنهم أيضًا.

قال بعضُ العُلماءِ: المَعْنَى أن هذه المَعْبوداتِ تُوضَعُ عليها الأطيابُ، فإذا جاءَ الذُّبابُ وارْتَشَفَ من هذه الأَطْيابِ فإن الأصنامَ لا تَستطِيعُ أن تَسْتَنْقِذَه منه[١]

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٦٨٥).

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

إذن ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؟ الجوابُ: اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقولُه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، أي: كَتَبْنَاهُ مُقَدَّرًا عليكم، فكلُّ نفسٍ ذَائقةُ المَوْتِ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: ما نحن بمَغْلُوبِينَ، ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾، بل هذا أمرٌ سَهْلٌ عَلَيْنا، ولا أَحَدَ يُعجِزُنا، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: في الآخرةِ الَّتي لا تَعلَمون حَقِيقَتَها وكُنْهَهَا؛ لأَنَّه مَهما وُصِفَ لنا من أَمْرِ الآخرةِ فإننا لا نَستَطِيعُ مَعْرِفةَ حقيقةِ ذلك.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، والنشأةُ الأُولى أنَّ الإنسانَ خُلِقَ مِن ماءٍ مَهِينٍ من نُطْفةٍ، ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، فتَعْلَمونَ أنَّ اللهَ تَعَالَى قادرٌ على إعادَتِكم.

قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ هذا الطعامَ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾؟ والجواب: اللهُ عَزَّوَجَلَّ. ولو أَنَّنا وَضَعْنا حَبَّةً للزَّرْعِ، وأرادَ اللهُ تَعَالَى أَلَّا تَنبُتَ، فهل يُمْكِنُ لجميعِ الخَلْقِ أن يُنْبِتوا هذه الحَبَّةَ؟ أبدًا واللهِ، قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام:٩٥]. فلا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَفلِقَ هذه الحَبَّةَ حتَّى تكونَ زَرْعًا، ولهذا قال: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، أي بعدَ أن يَستوِيَ على سُوقِه ويَرْتَفِعَ، وتَتعلَّقَ النفوسُ به، لو شاءَ اللهُ تَعَالَى لجَعَلَه حُطامًا، فأَرْسَلَ عليه قَاصِفًا من الرِّيحِ، أو أرسَلَ عليه بَرَدًا من السَّماءِ أو غَيْرَ ذلك، فأَصْبَحَ حُطامًا، أي: مَحْطُومًا لا تَنْتَفِعون منه.

وهنا **سُؤالٌ**: لماذا لم تكُنِ الآيةُ الكَريمةُ: أأنتم تَزْرعونه أم نحن الزارعونَ لو نَشاءُ لم نَزْرَعْه، ولكن قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾؟

الجوابُ: لأنَّه لو لم يَنْبُتِ الزَّرعُ من الأَولِ لم تكُنِ النفوسُ تتَعَلَّقُ به، لكن إذا نَبتَ الزرعُ واسْتَوَى على سُوقِه، تَعَلَّقتِ النفوسُ به، فإذا جُعِلَ حُطامًا بعدَ هذا صارَ أَشَدَّ إيلامًا وأشدَّ عذابًا للنفوسِ؛ فلهذا قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾، أي: بعدَ أن يَخْرُجَ ويَستوِيَ على سُوقِه.

قولُه: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾، أي: ظَلَلْتُم تَقُولون كذا وكذا ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ المُزْنُ: السَّحـابُ، والربُّ عَزَّوَجَلَّ يَسْتَفْهِمُ يقولُ: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾؟

والجوابُ: بل أنتَ يا رَبَّنا.

ثم قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا﴾ أي: جَعَلناه مَالِحًا لا يُمكِن شُربُه.

وهنا لو قال قائلٌ: لماذا لم تكُنِ الآيةُ: لو نَشاءُ لم نُنْزِلْه؟

فالجوابُ كالأوَّلِ تمامًا؛ لأنَّه لو لم يَنْزِلْ من السَّماءِ لم تتَعَلَّقِ النفوسُ به، لكن إذا كانَ الماءُ بينَ أيدِينا ولكنه أُجاجٌ لا نَستطِيعُ شُربَه صَارَ أَشَدَّ حَسْرةً، فالذي أَنْزَلَهُ من المُزْنِ هو اللهُ، والذي جَعَلَه سَائِغًا هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾؟
والجوابُ: اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ومعنى النَّارِ الَّتي تُورُونَ: أنَّه كانَ فيما سَبَقَ أشجارٌ مُعَيَّنَةٌ من شَجَرِ البَوادِي،

يُضْرَبُ على سُوقِها بالزَّنْدِ؛ قِطْعة من الحَديدِ، ثمَّ إذا ضُرِبَ انقدحَ منها نارٌ؛ كما لو ضَرَبْتَ مَرْوةً بمَرْوَةٍ، فإنه تَنقدِحُ النارُ، فإذا انْقَدَحتِ النَّارُ أَوقَدوا منها؛ كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس:٨٠]. هذه النَّارُ ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾؟ والجوابُ: بل أنتَ يا رَبَّنا أنشأتَها.

فذكَرَ اللهُ الطعامَ والشرابَ وما يَصْلُحُ به الطعامُ، وهي النارُ، وكلُّ هذا لا نَملِكُه، بل اللهُ عَزَّوَجَلَّ هو الَّذي مَنَّ به علينا، فإذن لماذا لا نُصدِّقُ بأننا سنُبعَثُ يومَ القِيامَةِ، وسيُجازَى كلُّ واحدٍ منَّا بعَمَله! نَسْأَلُ اللهَ أنْ يُعامِلَنا بعَفْوِه عما أَوْجَبَ علينا، وبسَتْرِهِ عَمَّا خالَفْناه فيه، إنَّه على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.

قولُه: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾، أي النارَ، جعلناها تَذْكرةً يَتذَكَّرُ بها الإنسانُ؛ لأنَّه إذا أَحسَّ بحرارتِها، وعَلِمَ أن نَارَ الآخرةِ أَشَدُّ منها حَرارةً اتَّعظَ وخافَ. ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، أي جَعَلْناها مَتاعًا للمُقْوِينَ، وهم المُسافِرونَ، يَتَمَتَّعون بها في أَسفارِهم؛ يُوقِدُونَها لإصلاحِ الطعامِ وللتدفئةِ.

وهذا القُرآنُ العَظِيمُ -يا إخواننا- إذا تَدبَّره الإنسانُ عَلِمَ أَنَّه من عِنْدِ اللهِ، وأنه لا يُمْكِنُ لأَيِّ بَشَرٍ أن يَأْتِيَ بمثلِه، بل ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، ولكن لا يَتذَوَّقُ طَعْمَ القُرآنِ إلا مَن تَدَبَّره وتَفهَّمَ مَعَانِيَه، إن كانْ قادرًا على الفَهْمِ بنَفْسِه فهذا المَطْلوبُ، وإنْ لم يَكُنْ قَادِرًا سَأَلَ أهلَ العِلْمِ بالتفسيرِ، أو راجَعَ كُتُبَ التفسيرِ المَوْثوقةِ؛ لأنَّه ليسَ كلُّ كتابِ تَفسيرٍ مَوْثوقًا، بل بَعْضُ كتبِ التفسيرِ فيها

الضلالُ البعيدُ والعياذُ باللهِ.

لكنْ مِثْلُ تفسيرِ ابنِ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَفْسِيرٌ سَلَفِيٌّ جَيِّدٌ، وإن كانَ فيه بعضُ الإسرائيلياتِ، لكنَّ أكثرَها يُنبِّه عليها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتفسيرِ الشيخِ عبدِ الرحمنِ بنِ سِعدِي، وهو تفسيرٌ سهلٌ مُبَسَّطٌ يَفْهَمُه العامِّيُّ، وطالِبُ العِلْمِ.

أسألُ اللهَ تَعَالَى أن يَرْزُقَنا وإياكم الفَهْمَ في كتابِه، وأنْ يَرْزُقَنا العَمَلَ به، إنَّه على كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



الدرس العاشر:

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، ونُصَلِّي ونُسلِّمُ على نَبِيِّنا مُحمَّدٍ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

فإنَّنا اسْتَمَعْنَا فيما استمعنا إليه من كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ سُورةَ الوَاقِعَةِ التي ابْتَدَأَها اللهُ تَعالَى بقولِه: ﴿**إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا**﴾ [الواقعة:١-٦]، والمرادُ بالواقعةِ يومُ القيامةِ، وقد سَمَّى اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هذا اليومَ بأسماءٍ عَظِيمةٍ تُوجِبُ للإنسانِ المُؤْمِنِ أن يَسْتَعِدَّ لهذا اليومِ العظيمِ الذي يُبْعَثُ الناسُ فيه لِيُجازُوا على أعمالِهم، إنْ خيرًا فخَيْرٌ، وإن شرًّا فشَرٌّ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقد قَسَّم اللهُ -سبحانه- الناسَ في هذا اليومِ في سُورةِ الواقعةِ إلى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ:

الأول: السَّابِقُونَ.

والثاني: أَصْحَابُ اليمينِ.

والثالث: أصحابُ الشِّمالِ.

أما السابقون فقال تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾ [الواقعة:١٠]، وهاتان الكلمتان هما كلمةٌ واحدةٌ، لكن لكلِّ كَلِمةٍ مَعنًى، السابقون إلى الخيراتِ هُم السابقون يومَ القيامةِ إلى الثوابِ، وَلَيْسَتا مُتَرَادِفتَيْنِ، بل لكلِّ واحدةٍ منها مَعْنًى، فكلُّ ما سَبَقَ في هذه الدنيا من العَمَلِ الصَّالِحِ فإنه يَسْبِقُ يومَ القيامةِ إلى الثوابِ، ولهذا كانَ الناسُ يَمُرُّونَ على الصِّراطِ -وهو الجِسْرُ المَنْصُوبُ على جَهَنَّم- يَمُرُّون عليه على قَدْرِ

أَعْمالِهم بحَسَبِ قَبولِهم ومُسارَعَتِهم إلى الخيرِ واجتنابِ الشَّرِّ، هؤلاء السابقون هم المُقَرَّبون إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهم أقربُ المؤمنينَ إلى اللهِ، ونحن نَعْلَمُ أنَّ الجناتِ دَرَجاتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، حتى قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ**»(١)، يعني يَنْظُرون إليهم أنوارًا تَتَلألأُ عاليةً جِدًّا؛ لأنَّ لكلٍّ درجاتٍ مما عملوا.

ثم ذَكَرَ اللهُ جَزَاءَهم، وذَكَرَ جزاءَ أصحابِ اليَمينِ، ثم جَزَاءَ أصحابِ الجَحيمِ أَصْحابِ الشِّمالِ، وبَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حالَ أصحابِ الشِّمالِ في هذه الدنيا، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤٥]، كانوا مُتْرَفِينَ في الدنيا مُنَعَّمِينَ، قد أنْعَمَ اللهُ عليهم بالصِّحَّةِ والعافيةِ والمالِ والأهلِ والمساكنِ وغيرِ ذلك، حتى صاروا إلى التَّرَفِ، ويُقَالُ: إنَّ في التَّرَفِ التَّلَفَ؛ لأن كلَّ مَن انْغَمَسَ في الترفِ فإنَّ الغالبَ أنه يَهْلِكُ إلا مَن شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾، الحِنْثُ: الإثمُ، يُصِرُّون عليه ولا يُبالُونَ به، وهو الشِّرْكُ والكُفْرُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكانوا يَقولون مُنْكِرِينَ للبَعْثِ: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة:٤٧]، والاستفهامُ هنا للإِنْكارِ، يعني يُنْكِرُونَ أن يُبْعَثُوا، يَقولون: كيفَ نُبْعَثُ وقد كُنَّا عِظامًا ورُفاتًا، بل يَقولون: كيف نُبْعَثُ ويُبْعَثُ آباؤُنا الأولون، فيَزِيدُونَ إنكارًا على إنكارٍ -والعياذُ باللهِ- إنكارَ أنْ يُبْعَثوا، وإِنْكارَ أن يُبْعَثَ آباؤُهم الأولون، وقد ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آيةٍ أُخْرَى أنهم كانوا يَتَحَدَّوْنَ ويقولون: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦]، يعني إن كُنْتُم صادِقِينَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٨٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، رقم (٢٨٣١).

بالبَعْثِ فَأْتُوا بآبائنا الذين ماتوا من قَبْلُ، وهذا التَّحَدِّي تحَدِّي مُكابَرةٍ؛ لأن الرُّسلَ -عليهم الصلاة والسلام- لم يقولوا للناسِ: إنَّهم سَيُبْعَثون في الدنيا حتى يكونَ لهذا التَّحَدِّي وَجْهٌ، بل قالوا: ستُبْعَثُون في الآخرةِ يومَ القيامةِ، وليستِ الرُّسلُ تقول: إنكم ستُبْعَثُون اليومَ حتى يقولوا: أين آباؤُنا إن كنتم صَادِقِينَ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، الأَوَّلُونَ والآخِرون كُلُّهم سيُبْعَثُون إلى مِيقاتِ يومٍ مَعْلومٍ، وهذا اليومُ المعلومُ قَريبٌ، ولكنَّ الله تَعالَى يُؤَخِّرُه إلى أَجَلٍ مَعْلومٍ، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤]، وما أحرى المَعْدُود أنْ يَنْتَهِيَ، ولذلك تمُرُّ الأيامُ على الإنسانِ وكأنها سَاعةٌ من نَهارٍ، فكم مَرَّ علينا منذُ العامِ الماضي من أيامٍ، ومن ساعاتٍ، ومن دَقَائِقَ، ومن ثوانٍ، ومن لحظاتٍ، مرَّ علينا شيءٌ كثيرٌ وكأنه لَحْظَةٌ واحدةٌ، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]، هذا الوقتُ المَحْدُودُ المعدودُ ما أقْرَبَهُ، ما أقْرَبَ ما يقال: فلانٌ ماتَ وانْتَهَى كلُّ شيءٍ، انْتَقَلَ من الدنيا إلى الآخرةِ، ولم يَبْقَ لديه إلا العَمَلُ الصالحُ، ثم إذا بُعِثَ فالمجرمون يقولون: ﴿يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢]، كأنها نَوْمةٌ، مَهْما طالتِ المُدَّة وهو في القَبْرِ فكأنها نَوْمةٌ، يقولون: ﴿يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، وإذا بالآخرةِ، وإذا بالإنسانِ يُشاهِدُ الحقَّ وإذا الناسُ يَنْقَسِمونَ، فَرِيقٌ في الجنَّةِ، وفريقٌ في السعيرِ، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة:٤٩-٥٦]، نَعوذُ باللهِ من هذا النُّزلِ، أيها الضالون في عَمَلِهم المكذبون لرُسلِهم فهم ضَالُّون في العَمَلِ مُكذِّبون للخبَرِ، آكِلُونَ من شَجرٍ من زَقُّومٍ، وهذا الشَّجرُ -والعياذُ باللهِ-

شَجَرٌ خَبيثُ الرائحةِ، خَبيثُ الطَّعْمِ، كَرِيهُ المَنْظَرِ، قال اللهُ تَعالَى في وَصْفِ هذه الشجرةِ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٥]، يأكلون هذا تجرُّعًا، لا عن لَذَّةٍ وشَهْوَةٍ، ومع ذلك فإنهم يَمْلَئُونَ منها بُطونَهم مُكْرَهِينَ على هذا، ثم يَعْطَشُونَ عَطَشًا شَدِيدًا، وإذا عَطِشوا فإنَّ الماء لا يأتي إليهم بسُهولةٍ، بل يَسْتَغِيثُونَ ويَسْألونَ ويُلِحُّونَ ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩] -نَسْألُ اللهَ العافيةَ- مِن شِدَّةِ حَرَارَتِهِ يَشْوِي الوُجوهَ إذا أَدْنَوْهُ إلى وُجُوهِهِم لِيَشْرَبوا، ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ الهِيمُ: هي الإِبِلُ العِطاشُ، والإبل كما تَعْلَمون تَشْرَبُ ماءً كثيرًا، ولا سِيَّما إذا كانتْ عَطْشَى، هذا الذي ذَكَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهؤلاء المُتْرَفِينَ في الدنيا، الذين يُصِرُّونَ على الكُفْرِ والتكذيبِ، إذا تَأَمَّلَه الإنسانُ فإنه يُوجِبُ لكلِّ إنسانٍ عاقِلٍ أن يَفِرَّ من حالِ هؤلاء فِرارَه من الأَسَدِ، وأنْ يَتَجَنَّبَ كلَّ تَرَفٍ وتَنَعُّمٍ يُوجِبُ له الكُفْرَ والتَّكْذِيبَ.

ثم ذَكَرَ اللهُ في آخرِ السورةِ حالَ مَن احْتُضِرَ وحَضَرَه الموتُ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣]، بَلَغَت: يعني الرُّوحَ والنفسَ، فإنها تَخْرُجُ مِن البَدَنِ من عندِ القَدَمِ، وتَصْعَدُ في الجِسْمِ شَيْئًا فَشَيْئًا حتى تَصِلَ إلى الحُلْقومِ، الحُلْقومُ الذي هو مَجْرَى النَّفَسِ، هذا إذا بَلَغَتِ الحُلْقومَ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، تَنْظُرون إلى المَيِّتِ يُنازِعُه الموتُ، قد احْتُضِرَ، وضَاقتْ عليه الأرضُ بما رَحُبَتْ، وضاقتْ عليه نَفْسُه، لا تَسْتَطِيعونَ أنْ تَدْفَعُوا عنه شيئًا، لوِ اجتمعَ أَطِبَّاءُ العَالَمِ كلُّهم على أن يَدْفَعوا ما نزَلَ به لـم يَسْتَطِيعُوا إلى ذلكَ سَبِيلًا، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ الملائكةُ الذين وُكِّلوا بقَبْضِ رُوحِ هذا المُحْتَضَرِ أَقْرَبُ إلى المُحْتَضَرِ مِن أَهْلِهِ، ولكن لا يُبْصِرُونَه، لأنهم مَلائِكَةٌ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، لا يَظْهَرُونَ للشَّاهِدِ والعِيَانِ، إلا إذا

أرادَ اللهُ أنْ يُظْهِرَهم آيةً من آياتِه، فيُمْكِنُ هذا، قال اللهُ تَعالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ لولا: بمعنَى (هلَّا) إنْ كُنْتُم غيرَ مَدِينِينَ، وهذا تحذيرٌ مُشْرَبٌ بالتَّحَدِّي، يعني إنْ كُنْتُم غَيْرَ مجْزِيِّينَ بأعمالِكم فرُدُّوا الرُّوحَ التي بَلَغَتِ الحُلْقومَ حتى تَرْجِعَ في البَدَنِ، وهذا لا يُمْكِنُ أبدًا.

ثم ذَكَرَ الله تَعالَى أن حالَ هؤلاءِ المُحْتَضَرِينَ تَنْقسِمُ إلى ثلاثةِ أحوالٍ: مُقَرَّبون، وأصحابُ يَمِينٍ، وأصحابُ شِمالٍ، أما المُقَرَّبون -وأسألُ اللهَ أنْ يجْعَلَنِي وإيَّاكم منهم- قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ينجو سالمًا بدُونِ عذابٍ، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أصحابُ الشِّمالِ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، وسَوْفَ يجِدُه المُكَذِّبُ إذا نَزَلَ به الموتُ، ربما يُكَذِّبُ الإنسانُ بهذا أو يَشُكُّ، ولكن إذا نَزَلَ به الموتُ وعَايَنَهُ عَرَفَ الحقَّ.

إثباتُ عذابِ القَبْرِ:

في هذهِ الآياتِ الأَخيرةِ دَلِيلٌ على إثباتِ عذابِ القَبْرِ، وعذابُ القَبْرِ ثابتٌ بدَلالةِ القُرآنِ والسُّنةِ وإجماعِ أهلِ الحقِّ، أما القرآنُ ففيه عِدَّةُ آياتٍ تُشِيرُ إلى ذلكَ، منها هذهِ الآيةُ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾، يكونُ هذا عندَ الاحتضارِ، وهذا يَدُلُّ على أنه يُنَعَّمُ في قَبْرِه، ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ عندَ الاحتضارِ عندَ الموتِ، وهذا دَلِيلٌ على أنه يُعَذَّبُ في قَبْرِه، والمسلمونَ جَمِيعًا يقولونَ في صَلاتِهم: أَعوذُ باللهِ مِن عَذابِ جَهَنَّمَ، ومِن عَذَابِ القَبْرِ[1]، وهذا إثباتٌ

(١) أخرَجه البخاري: كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذابِ القَبْر، رقم (١٣٧٧)، ومسلم: كتاب المَساجِد، باب ما يُستعاذُ منه في الصلاة، رقم (١٣٥٢)، واللفظ له.

له؛ لأنه لا يُسْتعاذُ إلا من شيءٍ مَوْجودٍ، فيَخْشَى الإنسانُ أن يَنْزِلَ به، فيَستعِيذُ باللهِ منه.

وثَبَتَ في الصحيحين من حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بقَبْرَيْنِ فقال: **«أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»**(١).

قولُه: **«لَا يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَوْلِ»**، أي إنه لا يَهْتَمُّ بطَهَارَةِ نَفْسِه، يُصِيبُ البَوْلُ ثَوْبَه، فلا يَغْسِلُه، ويُصِيبُ بَدَنَه، فلا يَغْسِلُه، ولا يَهْتَمُّ به، أما الثاني فكانَ يمشي بالنميمةِ، والنميمةُ: أن يَنْقُلَ الإنسانُ كلامَ الناسِ بَعْضِهم إلى بعضٍ للإفسادِ بينَهم، فيأتي إلى الشخصِ ويقولُ: يا فُلانُ، أَمَا سَمِعْتَ كلامَ فُلانٍ فيكَ؟ يقول: إنَّك بَخِيلٌ، أو سَيِّئٌ، أو فَاسِقٌ، أو كَذَّابٌ، أو ظَالِمٌ، وما أَشْبَهَ ذلك، لأَجْلِ أن يُفَرِّقَ بينَهما، وهذا النَّمَّامُ قال فيه رسولُ اللهِ ﷺ: **«لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ»**(٢)، أي نَمَّامٌ، فهذا النَّمَّامُ يُعذَّبُ في قَبْرِه قبلَ يومِ القيامةِ، نَسألُ اللهَ العافيةَ.

في الحديثِ: **«إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»**، كيفَ يقولُ هذا معَ أن عَدَمَ التَّنَزُّهِ من البولِ والنَّمِيمَةَ مِن كَبَائِرِ الذُّنوبِ؟

قال أهلُ العِلْمِ: المرادُ بقولِه ﷺ: **«وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»**، أي في أَمرٍ شَاقٍّ عليهما، بل هو أَمْرٌ سَهْلٌ، لكن معَ ذلك تَهاوَنَا به، فأَوْقَعَهما في العذابِ، ثم أَخَذَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الجريد على القبر، رقم (١٣٦١)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، رقم (٥٧٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، رقم (١٠٥).

جَرِيدَةً رَطْبَةً، فشَقَّها نِصْفينِ، فغَرَزَ في كلِّ قَبرٍ واحدةً، فقالوا: لِمَ صَنَعْتَ هذا يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**».

وقد أَخَذَ بعضُ الناسِ من هذا الحديثِ أنه يَنْبَغِي أن يُوضَعَ على القَبْرِ جَرِيدتانِ أو غُصْنٌ أَخْضَرُ من أَيِّ شَجَرةٍ، وهذا الأَخْذُ من هذا الحديثِ غَيْرُ صَحِيحٍ، ولا يَجُوزُ أن يُسْتَدَلَّ بهذا على أنه يُسْتحَبُّ أن تُوضَعَ جَرِيدَةٌ أو غُصْنُ شَجَرةٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك على ا لقَبْرِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لم يَسُنَّ هذا لأُمَّتِه مُطلقًا، وإنما فَعَلَه حين كُشِفَ له عن هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ أنهما يُعذَّبانِ، ولهذا اسْتَغْرَبَ الصَّحابةُ ذلك، وقالوا: لِمَ صَنَعْتَ هذا؟ وهو دَلِيلٌ على أنه ليسَ من سُنَّتِه أنْ يَفْعَلَ هذا في كلِّ قَبْرٍ.

وأيضًا إنما يُفْعَلُ هذا حِينَ نَعْلَمُ أن صاحبَ القَبْرِ يُعَذَّبُ، وهل عندَنا عِلْمٌ بأنَّ صَاحِبَ القَبْرِ يُعَذَّبُ؟ لا.

ولهذا نَقولُ للرَّجُلِ إذا وضَعَ مِثْلَ هذا على قَبْرِ قَرِيبِه: أنتَ الآن أَوَّلُ مَن يَقْدَحُ في قَرِيبِكَ، وأَوَّلُ مَن يَتَّهِمُه بالسُّوءِ؛ لأنَّ هذه الجَرِيدةَ أو نَحْوَها لا تُوضَعُ إلا على مَن يُعَذَّبُ، فكأنك بوَضْعِك لهذه الجريدةِ شَهِدْتَ على قريبِكَ بأنه يُعذَّبُ، وهذا من أكبرِ القَدْحِ فيه.

ولهذا نَقولُ لهؤلاء الإخوةِ الذين يَصْنعون مثلَ هذا الشيءِ: تَأَمَّلوا ما صَنَعْتُم تَجِدوا أنكم قد أخطأتُم في ذلك؛ لأن لَازِمَ فِعْلِكم أن هذا الذي في القَبْرِ يُعَذَّبُ، فأنتَ إذن أَوَّلُ قَادِحٍ في قَرِيبِكَ من أَبٍ، أو عَمٍّ، أو خالٍ، أو جَدٍّ، أو جَدَّةٍ، أو مَا أَشْبَهَ ذلك.

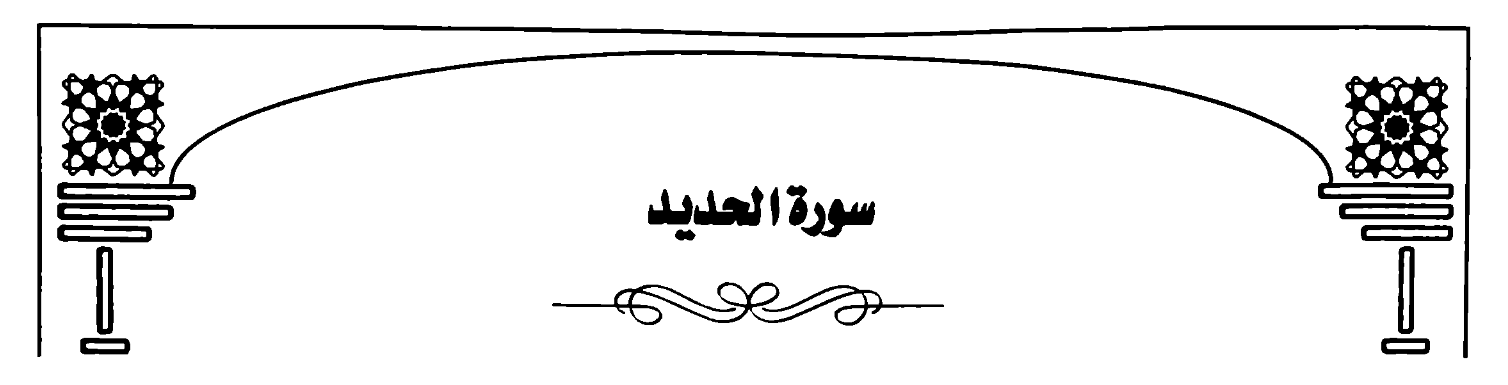
المُهِمُّ أنَّ عذابَ القَبرِ ثابتٌ بدَلالةِ الكِتَابِ والسُّنةِ، وقد أَجْمعَ عليه أهلُ الحقِّ، وأَثْبَتُوا ذلك في عَقَائِدِهم، ولكن لو قال قائلٌ: هل عذابُ القبرِ من الأمورِ

المَحْسوسةِ، بحيثُ لو كُشِفَ عن صاحبِ القبرِ لوُجِدَ أَثَرُ العذابِ فيهِ، أو مِن أُمورِ الغَيْبِ؟

نقولُ: هو مِن أُمورِ الغَيْبِ، وهذه الأمورُ لا يُمْدَحُ عليها الإنسانُ لو كانَ يُشاهِدُها، فلو قِيلَ لك: يا فُلانُ، هل تُؤْمِنُ بهذِهِ المناراتِ التي في المَسْجِدِ الحَرَامِ؟ فقلتَ: نَعَمْ. فليسَ في هذا مَدْحٌ، الشيءُ المُشَاهَدُ لا يُمْدَحُ الإنسانُ على الإيمانِ به؛ لأنه لا يُمْكِنُ إنكارُه إلا مُكابَرَةً، لكن الذين يُمْدَحُون هم الذين يُؤْمِنونَ بالغيبِ، ولهذا جعَلَ اللهُ هذه الأمورَ غَيْبًا، لا أَحَدَ يَطَّلِعُ عليها، ولا أَحَدَ يَعْلَمُ بها إلا عن طريقِ الرُّسلِ، ولولا أنَّ اللهَ أخبرنا في كتابِهِ وعلى لسانِ رَسُولِه ﷺ عن هذهِ الأُمورِ، ما كُنَّا نَعْلَمُها أبدًا؛ لأنها أمورٌ غَيْبِيَّةٌ، لا تُمْكِنُ الإحاطةُ بها عِلْمًا إلا عن طَريقِ الرُّسلِ -عليهم الصلاة والسلام-.

هذا ما نُرِيدُ أو ما أَرَدْنَا أن نَتكَلَّمَ عليه فيما يَتعلَّقُ بما يَتعلَّقُ بما سَمِعْناه من قِراءةِ أئمَّتِنا، ونسألُ اللهَ تَعالَى أن يَرْزُقَنا وإياكم الانتفاعَ بكتابِهِ وبسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ.





سورة الحديد

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، والعاقبةُ للمُتَّقِينَ، ولا عُدوانَ إلا على الظالمينَ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، إِلَهُ الأوَّلينَ والآخِرِينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلي يومِ الدينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

نَتناوَلُ بما يُيَسِّرُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ علي قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** [الحديد:٢٥].

يَقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾**، وهذهِ الجملةُ عندَ علماءِ النحوِ وكذلكَ عندَ عُلماءِ البلاغةِ مُؤَكَّدةٌ بثلاثةِ مُؤَكِّداتٍ:

المُؤَكِّدُ الأولُ: القَسَمُ المحذوفُ؛ إذ إنَّ التقديرَ: (واللهِ لَقَدْ).

والثاني: اللامُ؛ لأن اللامَ مِن معناها التوكيدُ.

والثالثُ: (قد).

وإنما أَكَّدَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هذا لإقامةِ الحُجَّةِ على الخَلْقِ، وأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يَكِلِ الخَلْقَ إلى عُقولِهم، وإنما أرسلَ الرُّسلَ مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ؛ لِئَلَّا يكونَ للناسِ

على اللهِ حُجةٌ مِن بعدِ الرسلِ؛ لئلا يقولَ قائلٌ: إنهُ لم يُرْسَلْ إلينا رسولٌ، فلا نَدْرِي ما شَرِيعةُ اللهِ حتى نُلْزَمَ بها.

قولُه: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، البيناتُ وَصْفٌ لمَوْصُوفٍ محذوفٍ، والتقديرُ: (بالآياتِ البيناتِ) الواضحةِ التي لا تُبْقِي لأحدٍ عُذرًا إذا كَفَرَ بهؤلاءِ الرُّسلِ. وكلُّ ما أبانَ الحقَّ فهو بَيِّنةٌ، وتُسمَّى بَيِّناتُ الأنبياءِ آياتٍ، وتَسْمِيتُها بالمُعْجزاتِ تَسْمِيةٌ حادثةٌ ليستْ مَعْروفةً في الكتابِ والسُّنةِ، أي لم يُعْرَفْ في الكتابِ والسُّنةِ تسميةُ آياتِ الأنبياءِ بالمعجزاتِ، وإنما هيَ آياتٌ، والآياتُ جمعُ آيةٍ، والآيةُ هيَ العلامةُ؛ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١]، أي علامةٌ.

وقالَ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]، أي: أَوَلَمْ يَكُنْ لهم عَلامةٌ على صِدْقِ ما جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ؟ فهذهِ هي الآيةُ.

إذنْ آياتُ الأنبياءِ نُسمِّيهَا آياتٍ ولا نُسَمِّيها مُعْجِزاتٍ؛ لأن المُعْجِزَةَ قدْ تأتي منَ الساحرِ، فالساحرُ يَفْعَلُ أشياءَ مُعْجِزةً لا يَستطِيعُ الناسُ أن يَفعلُوها، والمُعجِزةُ تأتي منَ الأولياءِ. إذنْ عَبِّرْ عما يُعَبِّرُ عنهُ بعضُ العلماءِ بالمُعْجِزاتِ؛ عَبِّرْ بما عَبَّرَ اللهُ بِهِ، وهوَ الآياتُ.

إذنْ قولُه: ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي بالآياتِ البيِّناتِ الدالةِ على صِدْقِهِمْ.

وآياتُ الأنبياءِ تَختلِفُ؛ فمَثَلًا من آياتِ الأنبياءِ أن يَأْتُوا بشيءٍ لا يَستطِيعُ السحرةُ أن يأتوا بمثلِه؛ كآياتِ مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فآياتُ موسى لا يمكنُ أن يأتِيَ السحرةُ بمِثلِها؛ فمنها أن مَعَهُ عصًا يَتوكَّأُ عليهَا ويَهُشُّ بها على غَنَمِهِ، وله فيها حاجاتٌ أُخرى، ورآها في الأرضِ صارتْ حَيَّةً عظيمةً تَسْعَى، وإذَا نَزَعَهَا عادتْ

عَصًا، فإذا شَاهَدَ الناسُ هذا قالوا: هذا سِحْرٌ، ولا يَستطِيعُ السحرةُ أن يَأْتوا بمِثلِهِ، فهذه عَصًا إذا وَضعَها في الأرضِ صارتْ ثُعبانًا عَظيمًا؛ حيةً عظيمةً، وإذا نَزَعَها عادتْ عَصًا، سبحانَ اللهِ! فهذا بأمرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذهِ العَصَا فيها آيةٌ أُخرَى أيضًا؛ يَضرِبُ بها الحَجَرَ فيَتفَجَّرُ عُيونًا؛ ماءً، فهذا أَيضًا مِن أعظمِ ما يكونُ منَ الآياتِ.

وهذه العَصا فيها آيةٌ ثالثةٌ؛ فلما حاصَرهُم فِرْعونُ وجُنودُهُ، وليسَ أمامَهُم إلا البَحْرُ -أي وليسَ أمامَ موسى وقومِهِ إلا البَحْرُ- أَمَرَهُ اللهُ أن يَضْرِبَ البَحْرَ بعَصاهُ، فضَرَبَهُ، فانْفَلَقَ البحرُ.

كذلكَ معهُ آيةٌ أُخرى مِنْ هذا النوعِ، حيثُ يُدْخِلُ يدَه في جيبِه يدًا عاديةً ثم يُخْرِجُها بيضاءَ مِن غيرِ سُوءٍ؛ أيْ مِن غيرِ عَيْبٍ، أيْ ليسَ بياضَ بَرَصٍ، ولكنهُ بياضٌ يُشِعُّ دونَ أن يَكونَ عَيْبًا، فهذا أيضًا مِن آياتِ اللهِ.

وإِنَّما أعطاهُ اللهُ تَعالَى هذهِ الآياتِ؛ لأنَّ السِّحْرَ في زَمَنِه كانَ فاشيًا مُنتشِرًا، واذْكُرْ حِينَما جُمِعَ الناسُ مِن أجلِ مُناظرةِ مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبالفعلِ جُمِعَ السحرةُ من كلِّ مكانٍ مِن أرضِ فِرْعونَ، وأَلقَوُا الحِبالَ وأَلقَوُا العِصِيَّ، وسَحَروا عُيونَ الناسِ، وجاءوا بسِحْرٍ عظيمٍ، فكانتْ هذهِ الحبالُ والعِصِيُّ حياتٍ وثعابينَ تَسْعَى، وأَرْهبتِ الناسَ، حتى إنَّ موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْجَسَ في نفسِه خِيفةً، وأَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يُلْقِيَ هذه العَصَا، فما كانَ من هذه العَصَا إلا أنْ جَعَلَتْ تطُوفُ على هذهِ الحِبَالِ والعِصِيِّ وتَلْتَهِمُها، سبحانَ اللهِ! حَيَّةٌ تَلْتَهِمُ كلَّ هذا الوادي المَمْلوءِ بالحبالِ والعِصِيِّ، فأينَ تَذْهَبُ هذهِ الحِبالُ والعِصِيُّ وجِسْمُ هذهِ الحَيَّةِ صَغيرٌ، والحِبالُ

والعِصِيُّ كثيرةٌ! لكنها تَذوبُ وتَروحُ كالبُخارِ إذا التَهمَتْهَا، وتَزولُ بالكُلِّيةِ.

ولَمَّا رأى السحرةُ ما صَنَعَ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وما صَنَعتْ هذهِ العصا؛ عَلِموا أن ذلكَ ليسَ بقُدرتِهم، وأنَّ ذلكَ ليسَ من سَاحرٍ، فآمنوا باللهِ، وأُلْقِيَ السحرةُ ساجدينَ، وأُلْقُوا يعني كأنهُم سَجَدُوا تِلْقائِيًّا من غيرِ شُعورٍ؛ لأن هذا الأمرَ مَلَكَ مَشاعِرَهُم، وعَجزُوا أن يُمسِكُوا أَنْفُسَهمْ عنِ السُّجودِ، بلْ سَجَدوا كالمَقْهُورينَ، ولهذا قالَ: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٠].

فأَعْلَنـوا عـلى المـَلَأِ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، ربِّ العَالَمِينَ كلِّهِمْ، ربِّ مُوسَى وهارونَ الذي أَيَّدَهُما ونَصَرَهما في هذا المَوقِفِ العظيمِ.

إذنْ مِن أَبْرزِ الآياتِ التي جاءَ بها مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما يُشبِهُ أن يكونَ سِحرًا وليسَ بسحرٍ، وإنما اختارَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يكونَ هذا من أَبْرزِ آياتهِ؛ لأنَّ السِّحْرَ انتشرَ في وَقْتهِ، فأَرَى اللهُ العبادَ آيةً عظيمةً لا يَستطيعُ السحرةُ أن يَأْتُوا بِمثلِها.

عِيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ آخِرُ أنبياءِ بَنِي إسرائيلَ، الذي ليسَ بينهُ وبينَ محمدٍ رسولِ اللهِ تَعالَى رسولٌ؛ أُوتِيَ آياتٍ مِن أَبْرزِها ما يَعْجِزُ عنهُ الأطباءُ، فيُبْرِئُ الأكمهَ والأَبْرصَ ويُحْيِي المَوْتَى، ويُخْرِجُهم من قُبورِهم، الطبُّ عاجزٌ عن ذلكَ، فالأَكْمهُ الذي خُلِقَ بعيبٍ لا يُمْكِنُ للطبِّ أن يَفْعَلَ فيهِ شيئًا، والأبرصُ لا يُمْكِنُ للطبِّ أن يَفْعَلَ فيهِ شيئًا، وكذلكَ إحياءُ المَوْتَى لا يُمْكِنُ أن يقومَ بهِ أحدٌ منَ الأطباءِ، فلا أحدَ منَ الأطباءِ يستطيعُ أن يَحبِسَ الرُّوحَ إذَا أرادَ اللهُ أن تَخْرُجَ، لكن عِيسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَقِفُ على المَيِّتِ أو يُؤْتَى إليهِ بالمَيِّتِ ويَأْمُرُه أَنْ يَحيَا فيَحْيَا بإذنِ اللهِ، قالَ اللهُ تَعالَى:

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠]، يَقِفُ على القَبْرِ ويُكَلِّمُ صاحبَ القبرِ ويقولُ: اخْرُجْ فيَخْرُجُ حيًّا بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فهذهِ الآيةُ العظيمةُ لا يُمكنُ للأَطِبَّاءِ أن يَأْتُوا بها، وإنما جَعَلَ اللهُ هذهِ الآيةَ منْ أَبْرَزِ آياتِ عِيسَى أن الطبَّ في وَقْتِه كانَ مُنتشِرًا، وقدْ بَلَغَ الأَوْجَ، ولكنْ يَعجِزُ الأطباءُ أن تَأْتِيَ بمثلِ ما جاءَ بهِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

محمدٌ رسولُ اللهِ -صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهِ، وجعلنا اللهُ وإياكمْ من أتباعهِ- آتاهُ اللهُ آياتٍ عظيمةً؛ آياتٍ أُفُقيةً وآياتٍ أرضيةً، آياتٍ مَعْقولةً وآياتٍ محسوسةً؛ طَلَبتْ قريشٌ منَ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آيةً، فأشارَ إلى القمرِ وهو مُجْتَمِعٌ، فانْفَلَقَ القمرُ فِرْقتينِ[1]، يعني صارَ جُزءَينِ، والناسُ يُشاهدونَ، ولا أَحَدَ يَستطِيعُ أن يَفْعَلَ هذا إلا خالقُ الكونِ عَزَّوَجَلَّ.

دَخَلَ رجلٌ يومَ الجمعةِ والنبيُّ ﷺ يَخْطُبُ الناسَ وقالَ: يا رسولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فليسَ هناكَ مَطَرٌ -والأموالُ: المواشي- والسُّبلُ انْقطَعَتْ بهُزالِ الإبلِ وعَدَمِ قُدْرتِها على المَسيرِ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثَنَا. فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللهُمَّ أَغِثْنَا، اللهُمَّ أَغِثْنَا**» ثلاثَ مراتٍ، قالَ أنسٌ، وهوَ راوي الحديثِ: «**وَلَا وَاللهِ، مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلَا قَزَعَةً**» يعني ليسَ هناكَ سحابٌ واسعٌ ولا شيءٌ يَسِيرٌ، فالسماءُ صَحْوٌ، «**وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ**»، وسَلْعٌ: جبلٌ في المدينةِ يأتي من جِهَتِهِ السحابُ، لكنْ ما رَأَوْا سحابًا جاءَ مِن جِهَتِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، فأراهم انشقاق القمر، رقم (٣٦٣٧)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، رقم (٢٨٠٢).

يقولُ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ**» والتُّرْسُ مثلُ الطَّسْتِ، والطستُ هوَ الصَّحْنُ، والصَّحْنُ ما يُوضَعُ فيهِ الطعامُ.

يقولُ: «**فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ**»، في مُدَّةٍ وَجيزةٍ، قالَ: «ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ ﷺ». لا إلهَ إلا اللهُ! آيةٌ منْ آياتِ رسولِ اللهِ ﷺ، بهذهِ السرعةِ العظيمةِ نزلَ المطرُ قبلَ أن ينزلَ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم منَ المنبرِ.

وبقيَ المطرُ ينزلُ أُسبوعًا كاملًا ما رَأَوُا الشمسَ، وسالَ الوادي المعروفُ في المدينةِ باسمِ قَناةَ بعدَ ذلكَ شهرًا كاملًا وهو يَجْرِي منْ آثارِ السيلِ.

وفي الجمعةِ الثانيةِ دَخلَ رجلٌ إما الأولُ أو غيرُه وقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ منْ كثرةِ المطرِ -فالبناءُ تهدَّمَ، والمالُ غَرِقَ؛ الزُّروعُ غَرِقتْ، أَغرقَهَا المطرُ- فَادْعُ اللهَ يُمْسِكُهَا عَنَّا. ولكنِ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذهِ المَرَّةِ لم يَدْعُ اللهَ أن يُمْسِكَهَا عنهمْ؛ لأن في إمسَاكِهَا حبسًا للمطرِ، ولكنهُ دَعَا دُعاءً مُفِيدًا غيرَ ضارٍّ، قالَ: «**اللهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلا عَلَيْنَا**». وكانَ يُشيرُ إلى النواحي، يقولُ الراوي: «**فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلَّا انْفَرَجَتْ**»، سبحانَ اللهِ، فيَذْهَبُ السحابُ إلى أيِّ جهةٍ أشارَ، قالَ: «**اللهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلا عَلَيْنَا، اللهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالجِبَالِ وَالآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**». يقولُ: «**وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ**»[1]. اللهُ أكبرُ! آياتُ الأنبياءِ -عليهمُ الصلاةُ والسلامُ- آياتٌ بينةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

وأعظمُ آيـةٍ جـاءَ بها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم هيَ القرآنُ، فالقرآنُ آيةٌ عظيمةٌ في لفظِهِ ومعناهُ ونظمِهِ واتساقِهِ، وفصاحتِهِ وبلاغتِهِ، وأحكامِهِ، وأخبارِهِ، في كلِّ شيءٍ آيةٌ مِن آياتِ اللهِ، وعجَائِبُه لا تَنقضِي، وأخبارُه لا تُمَلُّ، فلو بَقِيتَ الدهرَ كلَّهُ تقرأُ القرآنَ مَا مَلَلْتَهُ، لكنِ اقرأْ أعظمَ قصيدةٍ في العربِ مرتينِ أو ثلاثًا فإنكَ تَمَلُّ.

والقرآنُ لا يُمْكِنُ أن يَخْلَقَ على كَثْرةِ التردادِ، فهذهِ منْ آياتِ اللهِ.

والأمةُ لما كانتْ مُتمسِّكةً بِهِ كانَ الناسُ يدخلونَ في دينِ اللهِ أفواجًا بدونِ قتالٍ، يُلقونَ بأَيديهِم أسلحتَهمْ حتى يَنقَادُوا للإسلامِ، ولما أَعْرَضتِ الأمةُ الإسلاميةُ عن كتابِ اللهِ أصابَها الذلُّ والهوانُ، حتى صارتِ الشراذمُ منَ اليهودِ والنصارى تَتحَكَّمُ في مَصيرِ الأُمةِ الإسلاميةِ؛ لأنها لم تَتَمَسَّكْ بدِينِها، وليسَ لها منْ دِينِها إلا القُشورُ. نَسأَلُ اللهَ أن يَرُدَّ الأمةَ إلى دِينِهَا ردًّا جميلًا.

وهذا القرآنُ تَحدَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ الخَلْقَ كلَّهمْ بِهِ على أربعةِ وجوهٍ:

الوجهُ الأولُ: أن يَأتوا بمِثلِه كلِّه، **والثاني**: أن يأتوا بعَشرِ سورٍ منهُ، **والثالثُ**: أن يَأتوا بسورةٍ منهُ، **والرابعُ**: أن يَأتوا بشيءٍ منهُ.

والآيةُ التي تَحدَّى اللهُ فيها بالقرآنِ كلِّه هيَ قولُه تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، يعني مُعِينًا، فلا يُمْكِنُ أنْ يأتوا بمِثلِه.

أما عشرُ سورٍ فقولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود:١٣].

أما سُورةٌ فقولُه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس:٣٨].

أَمَّا بأيِّ شيءٍ فقولُه: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور:٣٤].

وبَقِيَ هذا القرآنُ آيةً من آياتِ اللهِ، أَيَّدَ اللهُ بها رَسولَهُ إلى يومِنا هذا، والحمدُ للهِ، لكنْ يَحْتاجُ إلى تَدبُّرٍ وتَفكُّرٍ في مَعانِيهِ، لا أنْ نَقرَأَهُ قراءةً لفظيةً دونَ أن نَفْهَمَ المَعْنَى، فإننا لنْ ننتفعَ بهِ الانتفاعَ الكاملَ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

عودةٌ إلى الآياتِ الكريمةِ:

قولُهُ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [الحديد:٢٥]، أي بالآياتِ البيِّناتِ التي جَعَلَها اللهُ معَ الرُّسلِ حتى تَقومَ الحُجَّةُ على الناسِ؛ لأنهُ لو جاءَ رسولٌ إلى الناسِ وقالَ: أنا رسولُ اللهِ إليكمْ دونَ أن يكونَ مَعَهُ آياتُهُ لم يَكُنْ مَقبولًا، ولكانَ للناسِ حُجَّةٌ وعُذْرٌ، لكنْ لا بُدَّ منَ الآياتِ، قالَ النبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ»**[1].

وفي كونِ اللهِ أرسلَ الرسلَ إلى الخلقِ دليلٌ على مسألةٍ مُهمةٍ، وهيَ العُذْرُ بالجهلِ، فإن الإنسانَ إذا كانَ غيرَ عالمٍ بشَريعةِ اللهِ فإنهُ مَعذورٌ على كلِّ حالٍ، مَعذورٌ في أصولِ الدِّينِ وفُروعِهِ، ولكن إذا كانَ هذا الإنسانُ يَنتسِبُ إلى دِينٍ غيرِ الإسلامِ فهوَ كافرٌ في أحكامِ الدنيا، ولا نقولُ: إنهُ مؤمنٌ، ولا إنهُ مسلمٌ، فالنصارى وإن كَانُوا عَوَامَّ، فإنهم يُعْتَبَرُونَ كُفارًا، وإنْ كَانُوا لا يَعْلمونَ بمحمدٍ صلى الله عليه وعلى آله

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا ﷺ، رقم (١٥٢).

وسلم فهمْ كُفَّارٌ في أحكامِ الدنيا، لكن في الآخرةِ إذا كانَ لم تَبْلُغْهُمُ الدعوةُ، أي دعوةُ الرسلِ، فإن اللهَ تَعالَى يَمتحِنُهم يومَ القيامةِ بما شاءَ، فمِنهمْ مَن يُؤْمِنُ ومنهمْ مَن لا يؤمنُ، أما في الدنيا فإن كانوا على دِينٍ غيرِ الإسلامِ فهمْ كُفارٌ، وإن كَانوا مَعْذورِينَ عندَ اللهِ إذا لم تَبْلُغْهمُ الرسالةُ، وأما المُنْتسِبُ إلى الإسلامِ الذي يَفْعَلُ بعضَ الأشياءِ جَهْلًا ولم تَبْلُغْهُ الرسالةُ فيها فإنهُ مَعذورٌ؛ لأن اللهَ يقولُ في القرآنِ الكريمِ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥]. وهذا نصٌّ صريحٌ بأن للخلقِ الحُجَّةَ إذا لم تَبْلُغْهمُ الرِّسَالَةُ.

وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص:٥٩].

وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

وقالَ تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٥].

وقالَ النبيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١).

قالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي**»، وأما مَن لم يَسْمَعْ فهوَ مَعذورٌ.

إذنِ الأصلُ هوَ العُذْرُ بالجهلِ، فإذا بَلغَتِ الرسالةُ أحدًا منَ الخلقِ فقدْ قامتْ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٣).

عليهِ الحُجَّةُ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، وإذا لم يُؤْمِنْ بعدَ بُلوغِ الرسالةِ إياهُ كانَ غيرَ معذورٍ.

قولُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، الكتابُ كالقرآنِ الكريمِ، والتوراةِ، والإنجيلِ، والزَّبورِ، وصُحفِ إبراهيمَ، وصُحفِ موسى، وغيرِها، فكلُّ رسولٍ مَعهُ كتابٌ يَأْمُرُ الناسَ بالعملِ بهِ.

والمِيزانُ: ما تُوزَنُ بهِ الأشياءُ، قالَ العُلماءُ: والمرادُ بهِ ما يُقاسُ به على ما في الكتابِ، أي الشيءِ الذي لم يُنَصَّ عليهِ في الكتابِ موجودٌ ثابتٌ بالقياسِ، وفي هذا إثباتُ القياسِ على وجهٍ واضحٍ.

قولُهُ: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾، فالكتبُ الإلهيةُ كلُّها جاءتْ بالعدلِ وحَكَمَتْ بينَ الناسِ بالقسطِ، قالَ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، فكلُّ أمةٍ جَعَلَ اللهُ لها شريعةً تليقُ بها؛ لأن هذا هوَ العدلُ.

قولُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾: بأسٌ شديدٌ أي قوةٌ عظيمةٌ، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ هيَ مَنافِعُ، وما هيَ منفعةٌ واحدةٌ، فالحديدُ فيهِ منافعُ لا يُحْصِيهَا إلا اللهُ؛ مِن سِكِّينِ المَطْبَخِ إلى قَاذِفاتِ القنابلِ، فكلُّ هذا بالحديدِ. ولهذا جاءتْ (مَنافعُ) على صيغةِ الجمعِ، وهو ما يُعْرَفُ عندَ النَّحْوِيِّينِ بصيغةِ مُنْتَهى الجُموعِ.

فما هيَ المناسبةُ في ذِكْرِ الحديدِ بعدَ ذكرِ الرسالةِ؟

قالَ العلماءُ: لأن الدينَ لا يقومُ إلا بالجِهادِ، والقتالُ يكونُ بالحديدِ وليسَ بالخشبِ؛ لأن الدينَ لا يقومُ إلا بهذا، ففي هذا إشارةٌ إلى الجهادِ في هذا الدينِ وأنهُ لا بدَّ منهُ.

قولُه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، يعني: وكذلكَ أتينا بالبيناتِ وبالحديدِ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصرُهُ ورُسلَه بالغيبِ، ولكنْ بماذا يُنْصَرُ اللهُ؟ هلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُحْتاجٌ إلى الخلقِ لينصُروهُ؟

الجوابُ: لا واللهِ، فالخلقُ مُفْتَقِرونَ إلى اللهِ، واللهُ غَنِيٌّ عنهمْ، لكنِ المرادُ بنصرِ اللهِ كلما وَجَدْتَها في القرآنِ: نَصْرُ دِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليسَ بحاجةٍ إلى الخلقِ. قالَ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر:٧]. إذنْ نَصْرُ اللهِ هوَ نصرُ دينهِ.

قَولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ خَتَمَ الآياتِ بالقوةِ والعزةِ حتى لا يَقولَ قائلٌ: إن أَعْداءَنا أَقْوَى مِنا وأعزُّ منا، نقولُ: لكنِ اللهُ هوَ القويُّ العزيزُ، فانْصُرِ اللهَ يَنصُرْكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولو كنتَ ضَعِيفًا، قالَ تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

نَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يَنْصُرَ دِينَهُ، وأن يُعْلِيَ الكلمةَ، ويَجْعَلَنا وإياكُم مِن أَنْصارِهِ، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

مِنْ فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

وهذهِ الآيةُ إذا تَأَمَّلَها الإنسانُ ربما يَستنبطُ منها فوائدَ كثيرةً:

الفائدةُ الأولى: إثباتُ الرِّسالاتِ الإلهيةِ؛ لقولِهِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾.

الفائدةُ الثانيةُ: ومنْ فوائدِ الآيةِ الكريمةِ رحمةُ اللهِ بالخلقِ، ونأخذُ هذا منْ إرسالِ الرسلِ، هذه واحدةٌ، ومن كونِ الرسلِ أَتَوْا بآياتٍ؛ لأنهُ لو جاءتِ الرسلُ بلا آياتٍ ما انتفعَ الناسُ بها.

الفائدةُ الثالثةُ: ومِنْ فوائدِ الآيةِ الكريمةِ أنَّ اللهَ تَعالَى يُقِيمُ الحُجَّةَ على أَكْمَلِ وَجْهٍ، يعني أنهُ عَزَّوَجَلَّ إذا أَقَامَ الحُجَّةَ فلا بُدَّ أن تكونَ إقامَتُها على أكملِ وجهٍ؛ لقولِهِ: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، ولا شكَّ أن اللهَ أرادَ أن يُقِيمَ الحُجَّةَ على أكملِ وجهٍ، وذلكَ بالآياتِ البيِّناتِ؛ إذ لو لم يَكُنْ آياتٌ بيِّناتٌ ما انتفعَ الناسُ بالرسلِ.

الفائدةُ الرابعةُ: ومِنْ فوائدِ الآيةِ الكريمةِ أنهُ ما مِنْ رسولٍ إلا ومعهُ كتابٌ؛ لقولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾. فكلُّ رسولٍ لا بدَّ لهُ مِن كتابٍ فيهِ الشريعةُ حتى تُتَّبَعَ.

الفائدةُ الخامسةُ: ومنْ فوائدِ الآيةِ الكريمةِ بَيانُ علوِّ اللهِ تَعالَى على خَلقِه؛ لقولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وذلكَ لأن الإنزالَ إنما يكونُ مِن أَعْلَى، والكتابُ هوَ كِتابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإذا كانَ الكتابُ نَازِلًا منْ عندِ اللهِ لَزِمَ أن يكونَ اللهُ فوقَ كلِّ شيءٍ، ولهذا كانَ من عَقيدةِ السلفِ إثباتُ عُلوِّ اللهِ تعالى، وأنهُ تَعالَى فوقَ كلِّ شيءٍ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨].

والآياتُ المُثْبَتَةُ لِعُلوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا تَكادُ تُحْصَرُ، والأحاديثُ النبويةُ كذلكَ، والعقلُ يَدُلُّ على عُلوِّ اللهِ تعالى، والفطرةُ تَدُلُّ على عُلوِّ اللهِ، وإجماعُ السلفِ كذلكَ، ولهذا لا يكادُ تُوجدُ مسألةٌ اجتمعتْ بها الأدلةُ الخمسةُ كما اجتمعتْ في الدلالةِ على علوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ:

الأولُ: القرآنُ.

الثاني: السُّنةُ.

الثالثُ: إجماعُ السَّلفِ، فما مِنهمْ أحدٌ قالَ: إنَّ اللهَ تَعالى ليسَ فوقَ سماوَاتِه، أبدًا.

الرابعُ: العقلُ.

الخامسُ: الفطرةُ.

فكلُّها تَدُلُّ على عُلوِّ اللهِ، وإني أَسْأَلُكمْ جميعًا: إذا قالَ القائلُ منكمْ: يا اللهُ، فأينَ يَشْعُرُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ: فوقُ أم تحتُ؟

الجوابُ: فوقُ، يا اللهُ! فلا أَحَدَ يَشْعُرُ إطلاقًا إلا أنَّ اللهَ في السماءِ، ولا يَتَّجِهُ قلبُه إلا إلى السماءِ، ولا يَمِيلُ يَمِينًا ولا شِمالًا ولا أسفلَ، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

لكنِ انتكستْ قُلوبُ وفِطَرُ أقوامٍ وأَنكرُوا عُلوَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، نَسأَلُ اللهَ العافيةَ، فمنهمْ مَنْ قالَ: لا يُوصَفُ اللهُ في مكانٍ إطلاقًا، ولا تَقُلْ: فوقُ ولا غيرُ فَوْقٍ، ومِنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ اللهَ في كلِّ مكانٍ، نَسألُ اللهَ العافيةَ.

وهؤلاءِ كلُّهم ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ، أما الأولونَ فأنكروهُ، إذ قالوا: إن اللهَ ليسَ فوق ولا تحت، ولا يمينًا ولا شمالًا، ولا مُتَّصِلًا ولا مُنْفصِلًا، فأينَ هوَ؟!

ولهذا قالَ محمودُ بنُ سُبُكتكِينَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمحمدِ بنِ فُورَكَ، لما قالَ: صِفْ ربَّكَ قالَ: «يا أَيُّها الأميرُ، إن اللهَ ليسَ فوق ولا تحت ولا يَمِينًا ولا شِمالًا»، قالَ: «فلو أردتَ أن تَصِفَ المَعْدُومَ كيفَ كُنْتَ تَصِفُه بأكثرَ من هذا»؟! أو قالَ: «فَرِّقْ لي بينَ

(١) هو السلطان أبو القاسم محمد بن سبكتكين التركي، صاحب خراسان والهند. انظر سير أعلام النبلاء (١٧/ ٤٨٣).

هذا الربِّ الذي تَصِفُه وبينَ المَعدومِ»![1].

والذينَ قالوا: إنَّ اللهَ في كلِّ مكانٍ واللهِ ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدرِه؛ لأن لَازِمَ قولِهم أن يكونَ اللهُ -تعَالَى عنْ قَولِهم عُلوًّا كبيرًا- في الحُشوشِ، والأنتانِ، والمَواضعِ القَذِرةِ، والأماكنِ الضَّيِّقةِ، وغيرِ ذلكَ، وسبحانَ اللهِ! اللهُ إلهٌ واحدٌ كيفَ يكونُ في كلِّ مكانٍ بذاتِه، إلا إذا أرادوا أن يُجزِّئوه ويجعلُوه أعضاءً، فحَسْبُهمُ اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ.

فالفطرةُ والعقلُ وإجماعُ السلفِ والسُّنةُ والقرآنُ كلُّها تَدُلُّ على عُلوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فوقَ عبادِه، ولا يُنكِرُ هذا إلا منكوسُ الفِطْرةِ والعياذُ باللهِ.

الفائدةُ السادسةُ: مِن فوائدِ هذهِ الآيةِ الكريمةِ إثباتُ القياسِ والعدلِ، وتُؤخَذُ مِن قولِه: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾. والميزانُ ما تُوزنُ بِهِ الأشياءُ، ويُقارَنُ بعضُها ببعضٍ، ومنهُ العدلُ، والعدلُ واجبٌ في كلِّ شيءٍ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

العدل بينَ الأولادِ:

والعدلُ وَاجِبٌ بينَ الأولادِ، قالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ**»[2]. وسببُ هذا الحديثِ أن بَشِيرَ بنَ سعدٍ الأنصاريَّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أعطى ابنَهُ النُّعمانَ بنَ بَشيرٍ عَطيةً، فقالتْ أُمُّه: لا أَقْبَلُ حتى تُشْهِدَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلمَ على ذلكَ.

---

(١) درء التعارض (٦/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الإشهاد في الهبة، رقم (٢٥٨٧)، ومسلم: كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، رقم (١٦٢٣).

فذَهَبَ بَشيرُ بنُ سعدٍ إلى رسولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لِيُشهِدَهُ، فقالَ لهُ الرسولُ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «**أَلَكَ وَلَدٌ سِوَاهُ؟**»، قَالَ: نَعَمْ. قالَ: «**أَكُلَّهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هَذَا؟**». قالَ: لا. فقالَ: «**لا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ، أَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي**». يعني أن الرسولَ تَبَرَّأَ منهُ، وامْتَنَعَ عنِ الشهادةِ، وقالَ: «**اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ**».

فهؤلاءِ الأَوْلادُ يَجِبُ العدلُ بينَهمْ، حتى كانَ السَّلَفُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يَعْدِلونَ بينَ أولادِهم حتى في القُبَلِ -جمعُ قُبلةٍ- يعني إذا قَبَّلَ الصبيَّ مرةً قَبَّلَ أخاهُ مرةً، فما يُقَبِّلُ هذا مرتينِ وهذا مرةً، وحتى في الابتسامةِ، وحتى في المُعاملةِ. فاعْدِلْ بَينَهُم إن كنتَ تُرِيدُ أن يَكونُوا لكَ في البرِّ سواءً.

فإذا قالَ قائلٌ: عندي ولدٌ ما شاءَ اللهُ جِسْمُهُ كبيرٌ وولدٌ جسمُهُ صغيرٌ، فاشتريتُ للصغيرِ ثوبًا بعشَرةِ ريالاتٍ، وللكبيرِ ثوبًا بمِئةِ ريالٍ، والفرقُ بينهما تسعونَ ريالًا، فهلْ أُعْطِي الصغيرَ تسعينَ ريالًا حتى يُساويَ ثوبَ الكبيرِ، يعني أُعطيهِ ثوبًا وتسعينَ ريالًا، وهوَ الفرقُ بينَ ثوبِه وثوبِ الكبيرِ؟

فالجوابُ: لا؛ لأن النفقةَ العدلُ فيها القيامُ بالكفايةِ.

كذلكَ: رجلٌ عِندهُ أولادٌ، أحدُهم في القسمِ العالي منَ الدراسةِ ويحتاجُ إلى كُتبٍ، والثاني في الابتدَائي ويحتاجُ إلى كتبٍ، وكتبُ الأولِ قدْ تَصِلُ إلى خمسِ مِئةِ ريالٍ، والثاني خمسينَ ريالًا، لكنْ إذا اشترى للأولِ كتبًا بخمسِ مِئةِ ريالٍ يَحْتاجُها، فإنه لا يَجِبُ عليهِ أن يُضِيفَ إلى قيمةِ كتبِ الثاني الفرقَ بينَ قِيمَتَيْ كُتُبَيْهِما.

إذنِ العدلُ باعتبارِ النفقةِ أن يُعطِيَ كلَّ إنسانٍ ما يحتاجُ إليهِ.

كذلكَ: إنسانٌ عندَه شابٌّ بَلَغَ عِشْرِينَ عامًا، واحتاجَ إلى الزواجِ، فزَوَّجَهُ بمَهْرٍ

قَدْرُه أربعونَ ألفًا، والثاني صَغِيرٌ لهُ عشرُ سنواتٍ، فهل يَجِبُ عليهِ إذا زَوَّجَ الأولَ بأربعينَ ألفًا أن يُعْطِيَ الثانيَ أربعينَ ألفًا؟

بعبارةٍ أخرى: الآنَ الصغيرُ لهُ عشرُ سنواتٍ، والكبيرُ لهُ عشرونَ سنةً، فزَوَّجَ الكبيرَ بأربعينَ ألفًا، والثاني قالَ: يا أبتِ، أعطني أربعينَ ألفًا، فأنتَ زَوَّجتَ أخي بأربعينَ ألفًا فأعطِني أربعينَ ألفًا، فهل يَجِبُ عليهِ؟

الجوابُ: لا، حتى يَبْلُغَ أن يَتَزَوَّجَ، فإذا بَلَغَ أن يَتَزَوَّجَ والأبُ غَنِيٌّ وَجَبَ أن يُزَوِّجَهُ.

وفي هذهِ المُدَّةِ لما بَلَّغَ الصبيُّ الذي له عَشْرُ سنواتٍ إلى مَبْلَغِ الأولِ واحتاجَ إلى الزواجِ، وَجَدْنَا أن المَهْرَ صارَ غَالِيًا، فالأولُ تَزَوَّجَ بأربعينَ، وهذا لا يَستطِيعُ أن يَتزَوَّجَ إلا بثمانينَ، فهلْ يقولُ للثاني: لا أُعْطِيكَ إلا مثلَ ما أَعْطَيْتُ أخاكَ، أو لا بدَّ أن يُعْطِيَهُ ثمانين؟

الجوابُ: الثاني، والفَرْقُ أربعونَ ألفًا.

والعكسُ: زَوَّجَ الأولَ بأربعينَ ثم رَخُصتِ المُهورُ -ونسألُ اللهَ أن يُرخصَها- فزَوَّجَ الثانيَ بعِشْرِينَ ألفًا، فهلْ يقولُ الأولُ: يا أبتِ، أَعطِني الفرقَ بينَ مَهْرِي ومَهْرِ أخي؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّ المفروضَ الكفايةُ.

العدلُ بينَ الزوجاتِ:

ويَجِبُ العدلُ كذلكَ في مُعاملةِ الزوجاتِ، فإذا كانَ للإنسانِ أكثرُ من زوجةٍ

وَجبَ العدلُ بَيْنَهنَّ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: مَنْ كانتْ لهُ امرأتانِ، فمالَ إلى إحداهُما جاءَ يومَ القيامةِ وشِقُّهُ مَائِلٌ[1]. والعياذُ باللهِ! خِزيٌ وعارٌ بينَ الخلائقِ كلِّها، فيأتي وشِقُّهُ -يعني جانبَ بَدَنِهِ- مائلٌ؛ لأنهُ جَانَبَ العَدْلَ؛ فعُومِلَ بمثلِ ما فَعَلَ، فلمْ يَكُنْ عَادِلًا بينَ شِقَّيْهِ؛ أَحَدُهما مائلٌ عنِ الثاني؛ لأنهُ مالَ إلى إحدَى الزوجتينِ دونَ الأخرى.

وكثيرٌ منَ الناسِ لا يُبالي بهذا، فتَجِدُهُ يُعامِلُ إِحْدَى الزوجتينِ مُعاملةً طَيِّبَةً ويَقومُ بحقِّها على أكملِ وجهٍ، ولكنهُ يُعاملُ الأخرى مُعاملةً سيئةً، ويُقَصِّرُ في حقِّها، ويا ويلَ هذا مِنَ الخِزْيِ يومَ القيامةِ، فيأتي يومَ القيامةِ وشِقُّهُ مائلٌ.

العدلُ في الحكمِ:

ويَجِبُ العدلُ بينَ الناسِ في الحُكْمِ، فإذا حَكَمْتَ بينَ الناسِ فاحْكُمْ بالعدلِ، فلوْ تَخاصَمَ إليكَ رَجُلانِ أحدُهُما ابنُكَ، والثاني عَدوُّكَ، فيَجِبُ عليكَ العَدْلُ بينَهُما.

وقدْ يُقالُ: الطبيعةُ تَقْتضي ألا تُعامِلَ العدوَّ معاملةً طيبةً، وهذا طبيعيٌّ، أنكَ لا تُعامِلُ عَدُوَّكَ مُعاملةً طيبةً، والفطرةُ تَقضي أن تُعامِلَ ابنَكَ مُعاملةً طيبةً، ولو أنكَ سَوَّيتَ بينَ عَدُوِّكَ وبينَ ابنِكَ في الحكمِ لكنتَ قاطعًا للرحمِ؛ لأن ابْنَكَ يَجِبُ أن تَصِلَه؟

فنقولُ: لا يَحْكُمُ لابنِهِ على عَدُوِّهِ بغيرِ الحقِّ؛ لأنَّ مَقامَ الحُكْمِ بينَ الناسِ يَجِبُ أن يكونَ بالعدلِ، قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم (٢١٣٣)، والترمذي: أبواب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، رقم (١١٤١)، والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، رقم (٣٩٤٢)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقم (١٩٦٩).

بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ [النساء:٥٨].

وقالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ﴾ [النساء:١٣٥]، يعنِي إن أَرَدْتُم أن تَعدِلُوا فلا تَتَّبِعُوا الهَوَى.

إذنِ الحُكْمُ بينَ الناسِ يَجِبُ فيهِ العدلُ.

فإذا كانَ خَصْمانِ أحدُهُما مُسلِمٌ والثاني كافرٌ أَتيا إلى القاضي لِيَحْكُمَ بينَهُما، فهلْ يُسَوِّي بينَهُما؟ بأن يَنْظُرَ إلى كلٍّ مِنهُما نَظَرَهُ إلى الآخَرِ، أم يَنْظُرَ إلى الكافرِ بعينٍ شريرةٍ، وإلى المُسلمِ بعَيْنِ الرِّضا؟

الجوابُ: ما دامَ في مَجْلِسِ الحُكْمِ فيَجِبُ أن يكونَ النظرُ إليهما واحدًا، ولا يُفَضِّل المسلمُ على الكافرِ؛ لأن المَقامَ مَقامُ حُكْمٍ، وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

وكذلكَ في الدخولِ، فإذا اسْتَأْذَنا للدخولِ عليهِ، والبابُ ضيقٌ ما يَسعُ إلا رجلًا واحدًا، فلمَنْ يقولُ: تَفضَّلْ؟ يقولُ للكافرِ: تَفَضَّلْ، أم للمُسْلِمِ: تَفَضَّلْ، أم للكبيرِ؟

المُهِمُّ لا يقولُ للمُسلِمِ: تَفَضَّلْ قبلَ أن يَقولَ للكافرِ، يعني حتى في الدُّخولِ يَجِبُ أن يَعْدِلَ بينَ الخَصْمَينِ، فهذا هوَ الإسلامُ، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، والناسُ عامٌّ، فيَشْمَلُ الكافرَ والمؤمنَ ﴿أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾.

فإذا انتهتِ الخُصومةُ، وحَكَمَ القاضي للكافرِ على المسلمِ، أو للمسلمِ على الكافرِ، فهلْ بعدَ انتهاءِ الخُصومةِ يقولُ للمسلمِ: اقْتَرِبْ، صَبَّحَكَ اللهُ بالخيرِ، كيفَ

الأولادُ، كيفَ المَعِيشةُ، وذاكَ يَصْرِفُهُ؟

الجوابُ: يجوزُ؛ لأنَّ الحُكومةَ انتهَتْ، قالَ تَعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، والحكومةُ انتهتِ الآنَ، وإذا انتهتْ فلي أَن أَلْقى المُسْلِمَ بوَجْهٍ طَلِيقٍ وأسألَهُ عن حالِه وعن كلِّ شيءٍ، والكافرُ يَمشي.

الجورُ والسُّحتُ:

أَرْسَلَ اللهُ الرُّسلَ وأنـزلَ مَعَهمُ الكتـابَ والمِيزانَ، فعليكمْ بالعَـدْلِ، ولا تَأْخُذْكُمْ في اللهِ لَوْمةُ لائمٍ، وقدْ فَتَحَ النبيُّ ﷺ خَيْبَرَ، وكانتْ في يَدِ اليهودِ فيها المَزارِعُ والحُصـونُ العَظِيمةُ، وفتَحَها النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وطَلَبَ اليهـودُ منَ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يُبقِيَهُم فيها يَعْمَلُونَ فيها بالزرعِ والحرثِ والسقيِ، ولهمُ النِّصفُ وللمسلمينَ النصفُ.

وأرسلَ إليهمْ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبدَ اللهِ بـنَ رواحةَ، وهوَ من خِيارِ الصحابةِ، أَرْسَلَهُ إليهمْ لِيَخرُصَ عليهمُ الثَّمَرةَ ويُقاسِمَهمْ، واليهـودُ -عليهمْ لَعَنـاتُ اللهِ المُتتابِعةُ إلى يومِ القيامةِ، اللهمَّ العَنْهُم لَعْنًا كبيرًا -أهلُ سُحْتٍ، سَمَّاعونَ للكذبِ، أَكَّالُونَ للسُّحتِ، فأرسَلُوا إلى رَسولِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهوَ عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَرْسَلوا إليهِ هَدِيَّةً؛ رِشوةً، فجَمَعَهمْ وقَالَ كلمةً عَظِيمةً: «**يَا أَعْدَاءَ اللهِ، تُطْعِمُونِي السُّحْتَ، وَلَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ**» وهـوَ رسولُ اللهِ ﷺ «**وَلَأَنْتُمْ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ مِنَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ**» اللهُ أكبرُ! «**وَلَا يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ وَحُبِّي إِيَّاهُ عَلَى أَلَّا أَعْدِلَ عَلَيْكُمْ**» اللهُ أكبرُ! فعندَنا طَرفانِ؛ طَرَفٌ فيهِ رسولُ اللهِ وأصحابُه، وطَرَفٌ فيهِ إخوانُ القِرَدةِ والخنازيرِ، ومعَ ذلكَ يقولُ: «**وَلَا يَحْمِلُنِي**

بُغْضِي إِيَّاكُمْ وَحُبِّي إِيَّاهُ عَلَى أَلَّا أَعْدِلَ عَلَيْكُمْ». فأين نحنُ الآنَ مِنْ هؤلاءِ القومِ! **«فَقَال اليَهُودُ: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ»**[1]. يعني بالعدلِ. واليهودُ يَعْلَمون الحقَّ، لكنهمْ خالَفُوهُ معَ عِلمِهم بِهِ، ولهذا وُصِفُوا بالأُمَّةِ الغَضَبيةِ، المَغْضُوبِ عليهِمْ.

أردتُ مِن هذا -يا إخواني- أن يقومَ الناسُ بالقسطِ، ففي عَهْدِنا الآنَ معَ الأسفِ الشديدِ يُوجَدُ الجَورُ ويُوجَدُ السُّحتُ، وتَجِدُ بعضَ الناسِ يُعامِلُ هذا المُوَظَّفَ مُعاملةً شَدِيدةً، ولا يَسْمَحُ إطلاقًا لهذا الموظفِ أن يُخِلَّ بشيءٍ منَ النظامِ، وابنُ عمِّهِ أو ابنُ قَبيلتِهِ يَتهاونُ مَعَهُ، فيُخِلُّ بكثيرٍ منَ الأنظمةِ لكنْ يَتسامَحُ مَعَهُ، فهذا ليسَ بعَدْلٍ.

فإذا عَامَلَ الجميعَ بالتهاونِ والتلاعبِ، لا يقولُ لهذا ولا لهذا، فكُلُّهم يَجِيءُ مُتأَخِّرًا في الدوامِ ويقولُ: لا مانعَ، وكلُّهم يَخْرُجُ قبلَ انتهاءِ الدوامِ فيقولُ: لا مانعَ، فهلْ هذا منَ العدلِ؟

الجوابُ: ليسَ عدلًا بالنسبةِ للدولةِ، فالواجبُ أن يَأْخُذَ للدولةِ حقَّها كما يُعْطِي الرَّعِيَّةَ حقَّها.

وأقولُ: هل نحنُ مَعْشَرَ المسلمينَ قُمْنا بالعَدْلِ كما يَنْبَغِي؟

الجوابُ: لا، إلا مَن شاءَ اللهُ، فالعدلُ قليلٌ، ففي هذهِ الأُمَّةِ مَن يَأكُلُ السُّحتَ، وفيها منَ المُوَظَّفِينَ مَن يَقولُ لأصحابِ المَصالِحِ المُتَرَدِّدينَ عليهِمْ: تعالَ، أنتَ الآنَ تَتَرَدَّدُ على الديوانِ وما تَجِدُ مُبتغاكَ، فهاتِ عَشَرةَ آلافٍ ونُمشي الأُمورَ، فيُعطِيهِ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبير (٦/ ١٨٩، رقم ١١٦٢٦).

عشَرَةَ آلافٍ. فتَجِدُ صـاحبَ المَصْلحةِ يُراجِعُ شَهْريـنِ أو ثلاثةَ أشهرٍ أو أكثرَ وما حَصَلَ على شيءٍ، فإذا أعطاهُ عشَرةَ آلافٍ فإنهُ قبلَ انتهاءِ الدوامِ يقولُ لهُ المُوَظَّفُ: تَفَضَّلْ خُذْ، هذا ما تُرِيدُ.

إذنِ الذينَ يأكُلُونَ السُّحتَ والرِّشوةَ فيهمْ شَبَهٌ باليهودِ، وهذا داخلٌ في قولِ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُحَذِّرًا أُمَّتَهُ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»(١).

الحسدُ:

في الأُمةِ الآنَ مَن يُشبهُ اليهودَ، ففي الأُمَّةِ حَسدةٌ، فكثيرٌ منَ الناسِ إذا رَأى اللهَ قد أنْعَمَ على أَحَدٍ بمالٍ أو بعِلْمٍ أو بجاهٍ، حَاوَلَ أن يَهْدِمَ تلكَ النِّعْمةَ، والذينَ يَحْسُدونَ الناسَ على ما آتاهُمُ اللهُ مِن فَضلِهِ فيهمْ شَبَهٌ باليهودِ، فلو قلتَ لهذا الرَّجُلِ: أنتَ مُشابِهٌ لليهودِ بهذا الحَسَدِ انتفخَ واحْمَرَّتْ عيناهُ غَضَبًا عليكَ، وهو بنفسِه يَخْتارُ أن يكونَ مُشابِهًا لليهودِ.

وإني أَسأَلُكم: هلْ ينالُ الحاسِدُ مَرامَه؟

الجوابُ: لا واللهِ، لن يَنالَ ذلكَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء:٥٤]، فلن يَنالَ الحَاسِدُ مَرامَه، بل إنما يَزدادُ حَسْرةً وتَعَبًا في كلِّ نِعْمةٍ أنعمَ اللهُ بها على عِبادِه، فإذا رأيتَ اللهَ أنعمَ على شخصٍ بمالٍ أو بعلمٍ أو جاهٍ أو قُوَّةٍ أو صِحَّةٍ أو غيرِ ذلكَ فماذا تَصْنَعُ؟ مثالُ ذلكَ: إنسانٌ مريضٌ مِسْكينٌ، وكلَّ يومٍ هوَ مريضٌ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩).

والناسُ حولَه أَصِحَّاءُ نُشَطاءُ، فإذا أرادَ أن يَكونَ مِثلَهُم هل يَتَمَنَّى أن تَزولَ نِعَمُ اللهِ عليهِمْ أم ماذا يَصْنَعُ؟

الجوابُ: الحَلُّ مَوْجودٌ في القرآنِ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾ فما الدَّواءُ؟ ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء:٣٢]، يقولُ: اللَّهُمَّ كما أَنْعَمْتَ على فُلانٍ بالمالِ، أو بالعلمِ، أو بالجاهِ، أو بالشرفِ، أو بغيرِ ذلكَ، اللهمَّ كما أنعمتَ عليهِ بهذهِ النعمةِ فأَنْعِمْ عليَّ بِمِثلِها؛ لأن الذي أعطاهُ هذا هوَ اللهُ، فاسألِ اللهَ مِن فضلِه، ولا تَحْسُدْ إخوَانَكَ، ولا تكرَهْ ما أنعمَ اللهُ بهِ عليهِمْ، ولا تَتَمَنَّ زوالَ نعمةِ اللهِ عليهِمْ.

حَدَّثَنَا بعضُ مَشايخنا أنهُ سَمِعَ طائِفًا يَطوفُ بالكعبةِ يقولُ: اللهمَّ إني أَسْأَلُكَ فِقْهًا كفِقْهِ شيخِ الإسلامِ، ونحوًا كنحوِ ابنِ هشامٍ. وابنُ هشامٍ إمامٌ في النحوِ.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتهِ تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبينا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ.





سورة المجادلة

الدَّرسُ الأوَّل:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

في سورَةِ ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ [المجادلة:١]، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، هذه الآيةُ في قِصَّةِ امرأةٍ جاءَتْ تشْتكِي للنَّبِيِّ ﷺ زَوْجَها حين ظاهَرَ منْهَا، وكانَ الظِّهارُ -على ما يقولون في الجاهِلِيَّةِ- كان طَلاقًا بائنًا، وقد ظاهَرَ منها على أَنَّها قَدْ بانَتْ منْهُ، فجاءَتْ تَشْتكِي إلى النَّبِيِّ ﷺ وتُحاوِرُهُ، أي: تُراجِعُهُ الكَلامَ فيما صارَ مِنْ زَوْجِهَا، واللهُ عَزَّوَجَلَّ قد أَخْبرَ في كلامِهِ هذا أَنَّه قد سَمِعَ قولَ هذِه المرأةِ، التي تُجادِلُ النبيَّ ﷺ وتَشْتكِي إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد أجابَ اللهُ تعالَى شَكْواهَا، وبيَّنَ حُكْمَ الظِّهارَ فيما بَعْدُ.

قالَتْ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَعْلِيقا على هذِهِ الآيَةِ: «تبارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، واللهِ إِنِّي لَفِي الحُجْرَةِ، وإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بعضُ حَدِيثِهَا، واللهُ جَلَّوَعَلَا من فَوْقِ سَبْعِ سَماواتٍ سَمِعَها وهُو على عَرْشِهِ»[1]. وهذا دَلِيلٌ على سَعَةِ سَمْعِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ،

(١) أخرجه البخاري معلقا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

وسَعَةِ صِفاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كُلُّها في ضِمْنِ قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٣٠]، وما أَشْبَه ذلِكَ. فإنَّ جميعَ صِفاتِهِ واسِعَةٌ عامَّةٌ شامِلَةٌ.

فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَمِعَ قولَ هذِهِ المرأةِ، وسَمِعَ مُحاورَتَها للنَّبيِّ ﷺ، وجاءتِ الكَلِمَةُ الثانيةُ: ﴿يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١] بلَفْظِ المُضارِعِ؛ حكايةً للحالِ الماضِيَةِ، كأنها حاضِرَةٌ الآن. وفي هذه الآيةُ دَليلٌ على أن اللهَ جَلَّ وَعَلَا يتكَلَّمُ بالقُرآنِ حين إنزالِهِ؛ لأنه إذا كان اللهُ قد تحَدَّثَ عن أمرٍ مَضَى بلفْظِ الماضِي؛ دَلَّ ذلك على أن كَلامَهُ كان بعدَ ذلِكَ الأمرِ الذي مَضَى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٨١].

والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ؛ ومنْها: قولُهُ تعالَى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١]، وقولُه تَعالَى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقولُهُ تعالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٨]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ الكثيرَةِ، التي يَظْهَرُ منْها ظُهورًا بَيِّنًا جَليًّا، أن اللهَ يَتكَلَّمُ بالقرآنِ حينَ إنزالِهِ، فيتَلَقَّاهُ جبريلُ، ثم يَنْزِلُ به على قَلْبِ النَّبيِّ ﷺ.

فأمَّا قولُهُ تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، فأصَحُّ الأقوالِ فيها: أن مَعْناها أنَّنا ابتدَأْنا إنزالَهُ في ليلَةِ القَدْرِ، فَقَدْ ابتدأَ إنزالَ القُرآنِ على النَّبيِّ ﷺ في ليلةِ القَدْرِ.

ثم بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حُكْمَ المُظاهِرِ، وبَيَّنَ أنه مُنْكَرٌ منَ القَوْلِ وزُورٌ، فهو

مُنْكَرٌ من حَيثُ الحُكْمُ، وهو زُورٌ مِنْ حيثُ الخَبَرُ؛ لأن قولَ القائلِ لامرأتِهِ: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي، يتَضَمَّنُ أمرينِ:

أَحَدُهما: الإخبارُ عَنْها بأنَّها كظَهْرِ أُمِّهِ، وفي هذه الحَالِ نَصِفُ هذا الخَبَرَ بأنه زُورٌ، والزُّورُ هو الكَذِبُ.

ثَانِيهما: الحُكْمُ بأنَّ زوجَتَهُ حَرامٌ عليه كَما تَحْرُمُ عليه أُمُّهُ، وهذا نَصِفُه بأنه مُنْكَرٌ. فقولُهُ هذا جامِعٌ بينَ المُنْكَرِ والزُّورِ؛ ذلك لأنه شَبَّهَ أحَلَّ النساءِ إليهِ بأحْرَمِ النساءِ عليهِ، حيث قال: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي، فإذا قالَ الإنسانُ لزَوجَتِهِ هذا القولَ؛ قلنا: إن هذا مُنْكَرٌ، وهذا زُورٌ، وهو حَرامٌ عليكَ، ويَجِبُ عليك أن تَتُوبَ إلى اللهِ مِمَّا قُلْتَ.

ثم يَكونُ الحُكْمُ بعد ذلِكَ كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة:٣]، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى كَذِبَ هذا القولَ بقولِهِ: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢]، ﴿مَّا هُنَّ﴾ (ما) هنَا نُعْرِبُها على أنها (ما) الحِجازِيَّة؛ لأن (ما) التي بمَعْنَى (ليس) إذا رَفَعَتِ الاسمَ ونَصَبَتِ الخبَرَ، سَمَّوْها حِجازِيَّةً؛ لأن هذا هُو عَمَلُها في لُغَةِ أهلِ الحِجازِ، أما عَمَلُها عندَ بَنِي تَمِيمٍ؛ فإنها لا تَعْمَلُ عملَ (ليس)، ولكنها تَرْفَعُ المبتدَأَ والخَبَرَ، فيقولُ بَنو تَميمٍ: ما هَذَا رجلٌ، ويقولُ الحِجازِيُّونَ: ما هَذَا رَجُلًا، قالَ الشاعِرُ:

وَمُهَفْهَفِ الأَعْطَافِ قُلْتُ لَهُ انْتَسِبْ ... فَأَجَابَ مَا قَتْلُ المُحِبِّ حَرَامُ[1]

هذه المرأةُ مِنْ قبيلَةِ بَنِي تَمِيمٍ؛ لأنَّها لو كانَتْ حِجَازِيَّةً لقالتْ: ما قَتْلُ المحِبِّ حرَامًا. فالحِجَازِيُّون يَرْفعونَ المُبْتدأَ ويَنْصِبُونَ الخبَرَ بـ(ما)، ولهذا عندَ الإعرابِ

(١) انظر: نفح الطيب (٥/ ٢٢٧).

نقولُ: ﴿مَّا﴾ نافية حِجَازِيَّةٌ، و﴿هُنَّ﴾ اسْمُها، و(أُمهاتِ) خَبَرُهَا. يعني: إن هؤلاءِ النساءِ اللَّاتِي وصَفُوهُنَّ بأنَّهُنَّ كظَهرِ أُمَّهَاتِهِمْ لَسْنَ بأُمَّهاتِهِمْ، مَنْ أُمَّهاتُهُمْ؟ ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ ، و(إنْ) هنا نَافِيَةٌ؛ لأنَّك لو كانَ الكلامُ في غيرِ القُرآنِ، ووَضَعْتَ (ما) عِوَضًا عن (إنْ)؛ لاستقامَ الكَلامُ، تقولُ: «ما أُمَّهاتُهُمْ إلَّا اللائي وَلَدْنَهُم»، إذن (ما) هنا نافِيَةٌ؛ ولهذا إذا جاءتْ (إلَّا) بعدَ (إنْ)؛ فإنَّ (إنْ) تَكونُ نافِيَةً، مثالُ ذلكَ قولُهُ تعالَى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠]، أي: ما هذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص:٧]، أي: ما هذَا إلا اخْتِلاقٌ، ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢]، أي: ما أُمَّهاتُهُمْ إلا اللائي وَلَدْنَهُمْ.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة:٢]، فيَعْفُو عَنْهُم، ويَغْفِرُ لهُم إذا رَجَعُوا إليه.

إذن حُكْمُ المُظاهِرِ أن نَقولَ لَهُ: إن زَوْجَتَكَ لا تَحْرُمُ عليكَ بهذا القَوْلِ؛ ولكن لا يَحِلُّ لكَ أن تَمَسَّها، أي: أن تُجامِعَهَا؛ حتى تَفعَلَ ما أمَرَكَ اللهُ به. **وهو عَلَى التَرتِيبِ:**

أولًا: عِتْقُ رَقَبَةٍ.

ثانيًا: إن لم يَجِدْ عِتقَ رَقَبَةٍ؛ فصيامُ شَهْرينِ مُتتابِعَيْنِ.

ثالثًا: إن لم يَستَطِعْ صيامَ شَهْرَينِ مُتَتَابِعَينِ؛ فإطعامُ ستِّينَ مِسْكِينًا، وقبلَ ذلِكَ لا يَحِلُّ لَهُ أن يُجامِعَهَا.

قالَ العُلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: ولا يَحِلُّ له أيضًا أن يَفْعَلَ مُقَدِّماتِ الجِماعِ، مِنَ التَّقْبِيلِ، واللَّمْسِ، والضَّمِّ، ومـا أَشْبَهَ ذلِكَ، على خِـلافٍ بينَهُم في هذهِ المَسْألَةِ -أعني: مُقَدِّمـاتِ الجِمَاعِ- وعلى نَصٍّ في كِتـابِ اللهِ أن الجِماعَ مُحَـرَّمٌ؛ لقولِهِ: ﴿مِن قَبْلِ أَن

يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة:٤].

وهل يَجْتَنِبُ زَوجَتَهُ لِمُدَّةِ شَهْرَينِ حتَّى يَصومَ؟ **والجوابُ:** نَعَمْ يَجْتَنِبُهَا، وهذا الذي عُمِلَ به هُوَ الذي جَنَاهُ عَلَى نَفْسِهِ؛ إذْ لِماذا يقولُ لِزَوجَتِهِ: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي؟! فهذه هي الكَفَّارَةُ التي أَوْجَبَ اللهُ عليه قَبْلَ أن يمَسَّ زَوْجَتَهُ.

لو قالَ الرجُلُ لزَوْجَتِهِ: أنتِ عليَّ كظهْرِ أُخْتِي، فهَلْ هو كقَولِهِ: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي؟ نَعَمْ، هو كقولِهِ: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي، ولو قالَ لها: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّكِ؟ نَعَمْ مِثْلُه؛ لأنَّ أُمَّهَا حَرَامٌ عليه تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا.

أما لو قالَ لها: أنتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُخْتِكِ؛ فقد اختَلَفَ العلماءُ في هذا؛ فمِنْ قائلٍ: إنَّ هذا ظِهارٌ، ومِنْ قَائلٍ: إنه ليسَ بظِهارٍ؛ لأن ظَهْرَ أُختِهَا ليسَ حَرامًا عليه تحْرِيمًا دَائِمًا؛ إذ إنه لو فارَقَ هذه الزَّوْجَةَ لحَلَّتْ له أُخْتُها.

إذن، فتَحْرِيمُ أُختِ زَوجَتِهِ عليه ليسَ كتَحْرِيمِ أخْتِهِ هو عليه، والفَرْقُ بينَ التَّحْرِيمَيْنِ؛ هو أن هذا مُؤَبَّدٌ، وهذا إلى أَمَدٍ مُؤَقَّتٍ؛ ولذلك لا يَجوزُ لأختِ الزَّوْجَةِ أن تكشِفَ وَجْهَهَا لِزَوْجِ أُخْتِهَا؛ لأنها ليستْ مُحَرَّمَةً عليهِ، فلا يَحِلُّ لهَا أن تَتَكَشَّفَ عندَ زَوْجِ أُخْتِها، كما لا يَحِلُّ للزَّوْجَةِ أن تتكَشَّفَ عندَ أَخِي زَوْجِها؛ لأنها أَجْنَبِيَّةٌ عَنْهُ.

ومَعَ الأسفِ الشَّدِيدِ، أن بعضَ الناسِ يتَهَاونُونَ في هذا، فتَجِدُ أُخْتَ الزوجَةِ تَكْشِفُ وَجْهَهَا لِزوْجِ أُخْتِهَا، وربما تُصَافِحُه، وتَجِدُ أخَا الزَّوجِ تَكْشِفُ له زَوْجَةُ أخيهِ، ورُبَّما يُصَافِحُها، وهذا حرامٌ، لا يَجوزُ لأحدٍ أن يُمَكِّنَ زَوْجَتَهُ منه.

نَعودُ لمَسْأَلَةِ الظِّهارِ، فنقولُ: لو قالَ الزَّوجُ لزَوْجَتِهِ: أنتِ عَلَيَّ حَرامٌ، ولم يَقُلْ: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي، فهل هو كمِثْلِ قولِهِ: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي؟ اختلفَ العلماءُ في

ذلِكَ أيضًا، فمِنْهُم مَنْ يقولُ: إن الرَّجُلَ إذا قالَ لزوجتِهِ: أنتِ عَلَيَّ حرامٌ، فهو كقولِهِ: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي؛ لأن كِلْتَا الجُملتَيْنِ تدُلَّانِ على التَّحْرِيمِ. ولكِنَّ القولَ الصَّحِيحَ أنها لَيْسَتْ كقولِهِ: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أمِّي؛ لأن زوجَتَهُ قد تكونُ حرامًا عليه؛ لكونِهَا حائضًا مَثَلًا، أو لكونِها مُحْرِمةً، أو ما أَشْبَهَ ذلِكَ، فليس هذا كقولِ القائلِ: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي؛ ولذلك إذا قالَ لزوجَتِهِ: أنتِ عَلَيَّ حرامٌ، ولم يَنْوِ شيئًا؛ فإنها تكونُ يَمِينًا مُكَفَّرَةً، أي: يُكَفِّرُ كَفَّارَةَ يمينٍ فَقَطْ، ولا يَحْرُمُ عليه جِمَاعُها؛ لأن اللهَ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ [التحريم:١]، ثم قالَ: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [التحريم:٢]، وهذا دَلِيلٌ على أن الرَّجُلَ إذا حَرَّمَ شَيْئًا أحلَّه اللهُ له، فهذَا التحريمُ يَمِينٌ تُكَفَّرُ، وكَفَّارَةُ اليَمِينِ إطعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ، أو كِسْوتُهم، أو تَحْرِيرُ رَقَبةٍ، فمَن لم يَجِدْ فصيامُ ثلاثَةِ أَيَّامٍ.

إذن؛ حُكْمُ الظِّهارِ حَرامٌ. ودَلِيلُ ذلك قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ [المجادلة:٢].

ويَجِبُ على الزَّوْجِ إذا ظاهَرَ من زَوجَتِهِ أَلَّا يَمَسَّها حتى يَفْعَلَ ما أَمَرَهُ اللهُ به، فيُعْتِقَ رَقَبَةً، فإن لم يَجِدْ فصيامُ شَهْرينِ مُتَتَابِعَيْنِ، فإن لم يَستَطِعْ فإطعامُ سِتِّينَ مِسكِينًا.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ [المجادلة:٢]. إذن الظِّهارُ أَنْ يَقولَ الإنسانُ لِزَوجتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، هذَا القولُ وَصَفَهُ اللهُ تعالى بِوَصْفينِ:

الأولُ: بِأَنَّه مُنكرٌ، قَال تَعَالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا﴾، ﴿مُنكَرًا﴾؛ لأَنَّه مُحَرَّمٌ.

الثَّاني: بأَنَّه زُورٌ، قَالَ تَعَالى: ﴿وَزُورًا﴾؛ لأَنَّه كَذبٌ.

فالزَّوجةُ التِي هِي أَحَلُّ النِّساء لِلرَّجلِ، لَيْست كالأُمِّ الَّتي هِي أَحرمُ المحرَّماتِ علَيْهِ.

فوَصَفَ اللهُ هَذَا القولَ بِالزُّورِ وَالكذبِ؛ وَلِهَذَا قالَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورةِ الأَحزابِ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:٣].

ثُم بَيَّنَ اللهُ تَعالَى كفَّارةَ مَنْ ظَاهَرَ منِ امرأَتِهِ، ومَاذَا يَجِبُ علَيْهِ، فَقالَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ﴾، هَذهِ المَرْتبةُ الأُولَى، فَإِذَا قَالَ لِزَوجتِهِ: أنتِ عَلَيَّ كَظَهرِ أُمِّي، فَإِنَّها لا تَحِلُّ لَهُ إِلَّا إذَا أَعتقَ رَقبةً، قَالَ تعالَى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ﴾، فإِنْ لَمْ يَجِدْ: فَاللهُ تعالى يَقُولُ: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ﴾ [المجادلة:٤]، فَلَا بُدَّ أَن يَصومَ شَهْرينِ مُتَتابعينِ قَبلَ أَنْ يَمَسَّ زَوْجتَهُ، فإِنْ مَسَّها فِي أَثْناءِ هَذَيْنِ الشهرينِ، وَجَبَ علَيْهِ إِعادَةُ الشَّهرينِ؛ لأَنَّ اللهَ اشترطَ شَهْرَينِ مِن قَبلِ أَن يَتماسَّا، حتَّى لَو جَامعَهَا فِي آخِرِ يَومٍ منَ الشهرَينِ، أَو فِي ليلةِ آخِرِ يَومٍ مِنَ الشهرينِ، فَإِنَّه يَجِبُ علَيْه أَنْ يُعِيدَ الشَّهرينِ؛ لأَنَّ اللهَ اشترطَ: ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ﴾.

فإنْ لَم يَسْتطِعْ؛ لِكونِهِ مَريضًا لَا يَسْتطيعُ أَنْ يَصومَ شَهرينِ مُتَتابعينِ، فإِنَّه يُطعِمُ سِتِّينَ مِسْكِينًا؛ لِقَولِه تَعَالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة:٤].



الدَّرسُ الثَّاني:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

في سُورَةِ المُجادِلَة أو المُجادَلَةِ آدابٌ جَلِيلةٌ عظِيمَةٌ، تَتَعَلَّقُ بالمجالِسِ، وآدابٌ تَتَعَلَّقُ بمُناجاةِ الرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وفيها أيضًا ما ذَكَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شُمولِ سَمْعِهِ، وأنه شامِلٌ لكُلِّ مَسمُوعٍ.

فلْنَبْدَأْ بهذِهِ النُّقْطَةِ: وهِيَ أنَّ سَمْعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَامِلٌ لِكُلِّ مَسْموعٍ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

والمَعْروفُ عندَ عُلماءِ النَّحْوِ أنَّ كلِمَةَ (قَدْ) إذا دَخلَتْ على الفِعْلِ الماضِي، كانَتْ للتَّحْقِيقِ، فيُحَقِّقُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنه سَمِعَ قَوْلَ المَرْأةِ التي تُجادِلُ النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم في شَأْنِ زَوْجِهَا، وكانَ زَوْجُها قَدْ ظَاهَرَ مِنها، أي: قالَ لهَا: أنتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي. وكانَ الظِّهارُ في الجاهِلِيَّةِ طَلاقًا بائِنًا، أي: إنَّ الرجُلَ إذا قالَ لزَوجَتِهِ: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي، حَرُمتْ عليه تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا، فجاءتْ هذِهِ المرأةُ التي قَدْ كَبِرَ سِنُّها، وكَبِرَ ولَدُهَا مِنْ زَوْجِهَا، تَشْتَكِي إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتُجادِلُهُ في شأنِ هذَا الزَّوجِ، الذي ظاهَرَ مِنْهَا بعدَ تَقَدُّمِ السِّنِّ، وكثْرَةِ الولَدِ، وأن هؤلاءِ الأولادَ سيَضِيعُونَ إنْ وَكَلَتْهُمْ إليهِ، وسيَجُوعُونَ إن وُكِلُوا إليهَا.

ولكن النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يُجِبْهَا بشيءٍ، ولهذا جَعَلَتْ تُجادِلُهُ، قالتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، لَقَدْ جاءَتِ

المُجَادِلَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِنِّي لَفِي الحُجْرَةِ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِهَا، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ سَمِعَ مُجَادَلَتَهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ»(١).

وهذا يَدُلُّ على إحاطَةِ عِلْمِ اللهِ بكُلِّ شيءٍ، وأنه لا يَخْفَى عليهِ أيُّ شيءٍ يَتَكَلَّمُ بِهِ الإنسانُ، بل يَعْلَمُ جَلَّ وَعَلَا ما تُوَسْوِسُ به نَفْسُ الإنسانِ، وإن لم يَنْطِقْ بِهِ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، فإذَا آمَنَّا بذلِكَ، أي: بأنَّ اللهَ يَسْمَعُ كلَّ قولٍ مَهما كان خَفِيًّا، فإن ذلِكَ يُوجِبُ أَلَّا نُسمِعَ اللهَ تعالَى مِن كَلامِنَا ما يُغْضِبُهُ -جلَّ شأنُه-؛ لأَنَّنا نخَافُ اللهَ، ونَخْشَى أن نُسمِعَهُ ما يُغْضِبُهُ، فيَغْضَبَ علينَا.

ولهذا كانَ الإيمانُ بما وصَفَ اللهُ به نَفْسَهُ يزِيدُ في إيمانِ العَبْدِ، ويُصلِحُ مِنْ مَنْهَجِهِ وسُلُوكِهِ وطَرِيقِهِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثم قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١]، كَلِمَةُ: ﴿يَسْمَعُ﴾ فِعْلٌ مضارِعٌ يَدُلُّ على الاستِمْرارِ، يعني: وفي حالِ استِمْرَارِ مُجادَلَتِهَا ومُحاوَرَتِهَا للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فاللهُ تَعالَى يَسْمَعُ ذلكَ، لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ مِنْهُ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

وقَبْلَ أنْ أَتعَدَّى ما ذَكَرْتُهُ مِنَ الآيَةِ، أُذَكِّرُ أَنَّنَا قَدْ تَكَلَّمْنَا قَبْلُ على ما يَتَعَلَّقُ بالظِّهارِ فِي هذهِ الآيَةِ، وطُبِعَ ذلِكَ في كِتَابٍ سُمِّيَ: (فتَاوَى مَكَّةَ)، ولا مَانِعَ أن نُعِيدَ ما ذُكِرَ هناكَ، فَنقُولُ:

الظِّهَارُ: هو أَنْ يقُولَ الإنسانُ لِزَوجَتِهِ: أَنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي، هذه الجُملَةُ تَتَضَمَّنُ أن يُشَبِّهَ أحَلَّ النِّساءِ له بأَحْرَمِ النِّساءِ عليه -نَسأَلُ اللهَ العافيةَ-، وهذا عَيْنُ

---

(١) أخرجه البخاري مُعَلَّقًا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤].

المُحادَّةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولو كانَ الإنسانُ يَعتقِدُ أن هَذَا هو الحُكْمُ، لكان أَمْرُهُ خَطِيرًا، ولكنه يُريدُ بذلِكَ أن يُحرِّمَها علَى نفْسِهِ، فإذا قالَ: أنتِ عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي، قُلْنَا له: الآنَ لا تَقْرَبْها؛ حتى تُكفِّرَ، والكفَّارَةُ عِتْقُ رَقَبَةٍ، فإن لم يَجِدْ فَصيامُ شَهرَيْنِ متَتابِعَينِ، فإن لم يَستَطِعْ فإطعامُ سِتِّينَ مِسْكينًا، يُؤَدِّي هذِهِ الكفَّارَةَ من قَبْلِ أن يتَماسَّا، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في العِتْقِ، وكذلِكَ في الصيامِ، وسكَتَ عن ذلِكَ في الإطعامِ.

واختَلَفَ العلماءُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ هَلْ يَجوزُ أن يَقْرَبَها قَبْلَ أن يُكَفِّرَ بالإطعامِ إذا كانَ لا يستَطِيعُ العِتْقَ ولا الصيامَ، أو لا بُدَّ أن يُكفِّرَ قبْلَ أن يَقْرَبَهَا؟ والراجِحُ أنه لا بُدَّ أن يُكفِّرَ أوَّلًا؛ لأنه إذا كانَ يُشتَرَطُ تَقْدِيمُ الكفَّارَةِ في العِتْقِ والصِّيامِ، وهُما أبعدُ حُصُولًا مِنَ الإطعامِ، فالإطعامُ مِنْ بابِ أَوْلَى.

وعلى هذا فنَقولُ للرَّجُلِ: الزوجَةُ حَرامٌ عَلَيْكَ، ولا يُمكِنُ أن تَقْرَبَها حتَّى تُكفِّرَ، فإذا كَفَّرْتَ فلَكَ أن تَقْرَبَهَا.

ويَقَعُ عندَ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ -مع الأسفِ الشديدِ- لَفْظُ التَّحريمِ، فيقُولُ -مَثَلًا-: زَوْجَتِي حَرَامٌ عَلَيَّ إلَّا تَفْعَل كذَا -يُخاطِبُ غيرَه-، وهذا يَقَعُ كثيرًا عندَ البادِيَةِ حينَ يَنْزِلُ عليهِمُ الضَّيْفُ، فيقولُ -مثلا- صاحِبُ البيتِ، أو يكونُ من عادَتِهِ أنه يَذْبَحُ ذَبِيحَةً للضَّيْفِ، فيَقولُ الضيفُ: زَوْجَتِي حَرامٌ عليَّ إن ذَبحْتَ لي ذَبِيحَةً، وهذا مِنَ الخطَأ، لماذا تُحرِّمُ زَوجَتَكَ إذا ذَبَحَ لك هذه الذبيحةَ؟! وما عَلاقَةُ الزَّوجَةِ بهذَا الرَّجُلِ؟! لكن هذَا سَفَهٌ مِنَ القائلِ.

فلو فُرِضَ أن المُضِيفَ ذبَحَ له ذَبيحَةً، فتكونُ زَوجَتُهُ حرامًا عليه، ولا تَحِلُّ لَهُ، وهذِه مسأَلَةٌ خَطِيرَةٌ، لكن لو قالَ هذَا الضيفُ: أَردْتُ بقَولي: «إن ذَبَحْتَ الذبِيحَةَ

فزَوْجَتِي حرَامٌ عَلَيَّ، أو: حرَامٌ عليَّ زَوْجَتِي إن ذَبَحْتَ لي الذَّبِيحَةَ» أن أُؤكِّدَ عليهِ أَلَّا يَذْبَحَ، وأنا ما أَرَدْتُ أن أُحَرِّمَ زوْجَتِي، لكن أرَدْتُ أن أُؤكِّدَ عليهِ أَلَّا يَذْبَحَ لي. فإنْ قالَ ذلِكَ قَبِلْنَا قولَهُ؛ لأن النِّيَّةَ أمرٌ باطِنٌ، لا تُعلَمُ إلا مِنْ قِبَلِ النَّاوِي.

فإذا قال: إنَّه أرادَ بذلِكَ أن يُؤكِّدَ على صاحِبِ البَيتِ أَلَّا يذْبَحَ له، وأنَّه لا يُرِيدُ تَحْرِيمَ زوْجَتِهِ، قلنا له: إذن هذا حُكْمُهُ حُكْمُ اليَمِينِ، أي: إنه إذَا ذبَحَ له صاحِبُ البَيتِ، فإنه يُكَفِّرُ كفَّارَةَ يَمِينٍ، فيُطْعِمُ عشَرَةَ مساكِينَ، أو يكْسُوهُم، أو يُعْتِقَ رَقَبَةً، فإن لم يَجِدْ فصيامُ ثلاثَةِ أيامٍ. قالَ اللهُ تعالَى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

واللَّغْوُ: هو الذِي لم يُرِدْهُ الإنسانُ، فجَرَى على لِسَانِهِ بدونِ قَصْدٍ، ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾، أي: بِما نوَيْتُم، ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ يعني: إذا حَنِثْتُمْ ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، هَذِه ثلاثَةُ أشياءَ مُخَيَّرٌ فِيهَا، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [المائدة:٨٩]، وقَدْ قرَأَ ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذِهِ الآيَةَ فقَالَ: صِيامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَـةٍ[1]، يعْنِي: كلَّ يومٍ يُعْقِبُهُ الثـانِيَ، لا يَفصِلُ بينَهَا. هذه هي كَفَّارَةُ اليَمِينِ.

أما إذا أرادَ هذَا الحالِفُ تَحرِيمَ زَوجَتِهِ، فهنا يَقَعُ الخِلافُ بينَ العُلَماءِ: فمِنْهُم مَن جعَلَ ذلِكَ ظِهَارًا، ومنهم مَن جعَلَهُ طَلَاقًا، ومنهم مَن جعَلَهُ يَمِينًا، ومنهم مَن جعَلَهُ

(١) معاني القرآن للفراء (١/ ٣١٨).

لَغْوًا، ومنْهُم مَن قالَ: هو على نِيَّتِهِ، وبَسْطُ هذا له مَوْضِعٌ آخَرُ.

وبِناءً على أن هَذَا كثيرٌ في البادِيَةِ، وربما يُوجَدُ أيضًا في الحاضِرَةِ، فإنني أَنْصَحُ إخوانَنَا المُسلمِينَ بالابتعادِ عن هذِهِ الطَّرِيقِ التِي رُبَّما يكونُ استِفْتاؤُهُمْ عندَ رَجُلٍ يَرَى أن التَّحريمَ -أي: تحريمَ الزوجَةِ- ظِهارٌ بكُلِّ حالٍ، وحِينَئذٍ يَقَعُ في الحَرَجِ الشَّديدِ.

وفي السورَةِ الكريمَةِ مِنَ الآدابِ: التأدُّبُ بينَ يَدَيِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَرَ عبادَهُ المؤمِنِينَ إذَا أرادُوا أن يُنَاجُوا الرَّسولَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يُقَدِّموا بينَ يدَي نَجْواهُمْ صدَقَةً، يعني: إذا أرادَ أحدٌ مِنْهُم أن يَتكَلَّمَ معَ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بكلام سرٍّ مُناجاةً، فإنه لا بُدَّ أن يُقدِّمَ بينَ يَدَيِ المُناجَاةِ صدَقَةً، وكَلِمَةُ (صدقة) مُطْلَقَةٌ، تَشْمَلُ القليلَ والكَثِيرَ، كلُّ هذا تَأدُّبًا بجانِبِ رسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لِئَلَّا يُكْثِرَ الناسُ عليه مِنَ المُناجَاةِ، فيُؤْذُوهُ من حيثُ لا يَشْعُرونَ، ولكن لما شَقَّ هذا عَلَى المُسلِمِينَ نَسَخَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فقالَ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المجادلة:١٣]، فرَخَّصَ اللهُ لهُمْ بعدَ ذلِكَ أن يُنَاجُوا الرَّسولَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم دونَ أن يُقَدِّمُوا صَدَقَةً.

وفي هذا دَلِيلٌ على أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ الحُكْمُ، فينْسَخُ ما شاءَ، ويُثْبِتُ ما شاءَ، كما قالَ تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[البقرة:١٠٦].

وفي السورَةِ الكَريمَةِ مِنَ الآدابِ أيضًا: آدابُ المَجالسِ، في قَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ

ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وهذه الآيَةُ في آدابِ المجالِسِ، والقُرآنُ الكريمُ شامِلٌ لكُلِّ ما يَحتاجُهُ الناسُ في أُمورِ الدِّينِ والدُّنْيا، حتى آداب المجالِسِ التي تُعتبَرُ بالنسبةِ لأمَّهاتِ الدِّينِ وأصولِهِ قليلَةً، فإنَّ اللهَ تَعالَى ذَكَرها في القُرآنِ الكَريمِ.

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ﴾، ومَعْنى التَّفَسُّحِ: التَّوَسُّعُ، يعني: إذا دخَلَ رجُلٌ، فقال صَاحِبُ البَيْتِ: تفَسَّحُوا لهذا، فافْسَحُوا، أي: افتَحُوا لَهُ مكانًا، ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، أي: يُوَسِّعِ اللهُ لكُمْ تَوْسِيعًا حِسِّيًّا ومَعْنوِيًّا، يَشمَلُ الأمرَيْنِ، أما الفَسْحُ الحِسِّيُّ فهو أنكم إذا تَفَسَّحْتُمْ، وجَلَسَ هذَا الرَّجُلُ في المكانِ، فإنه سيكونُ المكانُ فَسِيحًا، ويوسِّعُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وإن كُنْتُمْ تَتَصَوَّرُن أَوَّلًا أَنَّه ضَيِّقٌ، فإن اللهَ تَعالَى يُنزِلُ فيهِ البَرَكَةَ.

وأما الفَسْحُ المَعنَوِيُّ فهو: أن اللهَ يُعْطِي الإنسانَ سَعَةً في صَدْرِهِ، وسَعَةً في خُلُقِهِ، حِينَئذٍ يُثَابُ على هذا العَمَلِ بثَوَابَيْنِ: ثوابٍ حِسِّيٍّ، وثوابٍ مَعْنَوِيٍّ، الثوابُ الحِسِّيُّ هو سَعَةُ المكانِ الذي قِيلَ لَهُ: ﴿فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة:١١]، وأَمَّا الثَّوابُ المَعْنوِيُّ فهُو سَعَةُ الصَّدْرِ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾، ومَعْنى ﴿ٱنشُزُواْ﴾ أي: ارتَفِعُوا عن المكانِ، وقُومُوا عنه، فإذا قالَ صاحِبُ البيتِ -مثلا- للضيوفِ: قُومُوا، بعدَ أن يُؤَدِّيَ واجِبَ الضيافَةِ، فإنَّهم يَقُومُونَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

ولكن؛ هل يَلِيقُ بصاحِبِ البَيتِ أن يقُولَ للضُّيُوفِ: انشُزُوا، أي: ارتَفِعُوا عَنِ المكانِ؟

الجواب: نَعَم، يَلِيقُ له ذلِكَ؛ لأنه قَدْ تكونُ له أسبابٌ أَدَّتْ إلى أن يقُولَ هذا القولَ، مع أنه في لِسَانِهِ أمرُّ مِنَ الصَّبِرِ، لكِنْ لا بُدَّ أن يَقولَهُ.

وكانَ المُسلِمُونَ في عَهدِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنْدَهُم مِنَ الصراحَةِ ما يَجْعَلُ الإنسانَ يَقولُ هذَا القَوْلَ بكُلِّ سُهولَةٍ، ولهذا قالَ اللهُ تَعالَى في سُورَةِ النُّورِ: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ [النور:٢٨].

الآن لَوْ أنَّ أحدًا قَرَعَ عليكَ البابَ، ثُمَّ فَتَحْتَ البابَ، وقلتَ لَهُ: ارْجِعْ، ربما يكونُ في نَفْسِه عليكَ شيءٌ، وهذا غَلَطٌ، بل إذا قالَ لكَ: ارجِعْ. فارْجِعْ، فإن هذا أزْكَى لكَ، يعني: أطَهَرُ وأبَرَكُ لكَ من أن تُحرِجَهُ، فتَدْخُلَ بيتَهُ وهو يُرِيدُ مِنْكَ أن تَرْجِعَ.

كذلك أيضًا في المجالِسِ، إذا قالَ صاحِبُ البيتِ: يا إخْواني، أنا أريدُ أن تُغَادِرُوا، وقد أدَّى ما يَجِبُ عليه مِنَ الضِّيافَةِ، فعَلينا أن نَقُومَ.

ثم قالَ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾، يَعْنِي: لا تَظُنُّوا أَنَّكُمْ إذا قُمْتُمْ بعدَ أن يقولَ لكُمْ: انْشُزوا، أن ذلِكَ يُوجِبُ أن تَذِلُّوا، وأن تَضْعُفُوا، وأن تَنْزِلَ قِيمَتُكُم، فإنَّ أهلَ العِلْمِ والإيمانِ قدْ يَرْفَعُهُم اللهُ تَعالَى درَجاتٍ، وهذا هو الواقعُ، فإننا نَجِدُ -ولله الحمدُ- أهلَ الإيمانِ وأهْلَ العِلْم مَرْفُوعِينَ دَرَجاتٍ على عِبادِ اللهِ، ولكن يَجِبُ عَلَى مَنْ منَّ اللهُ عليه بالعِلْمِ والإيمانِ ورَفَعَهُ بِهِما أن يَتواضَعَ؛ لأن: «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ»[1]، ولا يَجوزُ للإنسانِ إذَا منَّ اللهُ عليهِ بالإيمانِ والعِلْمِ أن يَنتَفِخَ، وأن يَرَى نَفْسَهُ فوقَ العَالَمِ؛ بل الواجِبُ أن يزْدادَ تَواضُعًا

(١) أخرجه أبو نعيم (٨/ ٤٦).

كلَّما ازدادتْ نِعْمَةُ اللهِ عليهِ.

هذه آدَابٌ مِنَ الآدابِ الشَّرْعِيَّةِ التي جَاءتْ في هذِهِ السُّورَةِ، ويَجِبُ علينَا أن نتَدَبَّرَ القرآنَ تَدَبُّرًا كامِلًا؛ حتَّى يُطْلِعَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على مَا في مَعانِيهِ مِنَ الأُصُولِ العظِيمَةِ النافِعَةِ.

اللهُمَّ إنا نَسألُكَ أن تَجْعَلَنَا مِنْ أهْلِ القرآنِ الذين هُمْ أَهْلُكَ وخَاصَّتُكَ يا رَبَّ العَالَمِينَ، اللهُمَّ اجْعَلْنَا ممَّن يَتْلُونَهُ حقَّ تِلاوتِهِ، وممَّن يَعمَلُونَ بِه عقِيدَةً وقَوْلًا وعَمَلًا، ونسألُكَ اللَّهُمَّ أن تَنْصُرَ الإسلامَ والمُسلِمِينَ، وأن تَنْصُرَ إخْوانَنَا في فِلَسْطِينَ، وفي كلِّ بِلادٍ يُضْطَهَدُ فيهَا العالَمُ المسلِمُ، إنك على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، والحمدُ للهِ رَبِّ العالمِينَ، وصَلَّى اللهُ وسلَّمَ على نَبِيِّنَا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.



الدَّرسُ الثَّالِث:

إن الحمدَ للهِ، نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتغفِرُه، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أنفسِنا ومِنْ سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هَادِيَ لهُ، وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَه لا شَرِيكَ لهُ، وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُه وخليلُه، وأَمِينُه على وَحْيِه، وخِيرتُه مِن خَلْقِه، أرسلهُ اللهُ تَعالَى بينَ يَدَيِ الساعةِ بَشيرًا ونَذيرًا، فخَتَمَ بِهِ النبوةَ، وأكملَ بِهِ الدينَ، وأتمَّ بِهِ النعمةَ، فجاهدَ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ حتى أتاهُ اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أَمَّا بَعْدُ**:

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

هذهِ امرأةٌ لها زَوْجٌ قديمٌ ولها منهُ أولادٌ، وظَاهَرَ زوجُها منها، يعني قالَ لها: أنتِ عَلَيَّ كظهرِ أمِّي، وظهرُ الأمِّ على الإنسانِ حرامٌ، ومِن أَشَدِّ ما يَكونُ حُرْمَةً، وكانوا في الجاهليةِ يَرَوْنَ الظِّهارَ طلاقًا بَائِنًا، فهذهِ المرأةُ تقولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي[1]. تقولُ: أنا أمُّ أولادِهِ، وبعدَ أن كَبِرَتْ سِنِّي وَرَقَّ عَظْمِي وكَثُرَ ولدِي يُظاهِرُ مني فيُفارِقُني فِراقًا بائنًا، تَشتكِي إلى الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والنبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يُجِبْها بشيءٍ، وقيلَ: إنهُ قالَ: ما أُرَى زَوجَكِ إلا قدْ طَلَّقَكِ.

والآيـةُ ليسَ فيها إشارةٌ لهذا ولا هـذَا، لكن لا شكَّ أنها جَرَى بينَهَا وبينَ

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٢٠٦٣).

الرسولِ مجادلةٌ ومحاورةٌ.

وقدْ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾، واللهُ تعالى فوقَ سبعِ سماواتٍ على عرشِه يَسْمَعُ قولَ هذهِ المرأةِ تُجادِلُ نَبيَّهُ محمدًا ﷺ ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ ذكرَها بصيغةِ المضارعِ الذي يَدُلُّ على الحالِ، يعني وفي هذهِ الحالِ يَسْمَعُ جَلَّوَعَلَا تحاوُرَكُما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ» يعني أحاطَ بكلِّ صوتٍ عَزَّوَجَلَّ «لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا»[1]، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَسْمَعُ مُجادَلَتَها للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ إذنْ هوَ يَسْمَعُ ما نقولُ سواءٌ كانَ جهرًا أو سرًّا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقالَ تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، أيْ ويَكْتُبُون ذلكَ أيضًا.

فأقوالُنا -أيها الإخوةُ- سواءٌ كانتْ سرًّا أم جَهْرًا مَسموعةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وأقوالُنا مكتوبةٌ علينا، يَكْتبُها الحفظةُ؛ كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

فأُحَذِّرُ نَفسِي وإياكُم أن نُسْمِعَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ما لا يَرضاهُ، وأُحذِّرُكُم أن نَسْمَعَ ما يُسْخِطُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لأن كَلامَنا وإن كانَ لا يَسْمَعُه مَن إلى جانِبِنا فإنَّ اللهَ تَعالَى يَسْمَعُه، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، فحذارِ أيها المؤمنُ حذارِ أن تُسْمِعَ ربَّك ما لا يَرضاهُ، أو ما يُسْخِطُه؛ فإن الأمرَ شديدٌ وعظيمٌ، وسواءٌ

(١) أخرجه النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠).

كانَ هذا الذِي لا يَرْضاهُ اللهُ مما أَصْلُه محمودٌ مشروعٌ، أو مما ليسَ بمشروعٍ أصلًا.

فالسبُّ والشتمُ والقدحُ والاستهزاءُ مسموعٌ عندَ اللهِ، وهوَ غيرُ مشروعٍ إذا كانَ لم يَقَعْ بأهلِه، والذِّكرُ وقراءةُ القرآنِ وغيرُ ذلكَ منَ الأقوالِ التي يُحِبُّها اللهُ مَشروعةٌ، لكنْ إذا فُعِلتْ على وَجهٍ لم تَرِدْ بِهِ الشريعةُ كانتْ غيرَ مشروعةٍ، ولهذا لوِ اجتمعَ أناسٌ على ذكرِ اللهِ، وبَدَؤوا يقولونَ بألسنتِهم ويُحَرِّكون رُؤوسَهم: لا إلهَ إلا اللهُ، لا إلهَ إلا اللهُ، لا إلهَ إلا اللهُ، أو واحدٌ يقولُ: لا إلهَ، والثاني يقولُ: إلا اللهُ، ثم في النهايةِ إذا جاءُوا إلى القمةِ بَدَؤُوا يقولونَ: هوَ، هوَ. فإن أصلَ لا إلهَ إلا اللهُ مشروعٌ، فهيَ كلمةُ التوحيدِ التي لا يَصِحُّ الإسلامُ إلا بها، لكن إذا جاءتْ على غيرِ الوجهِ المشروعِ كانتْ غيرَ مَرضيةٍ عندَ اللهِ؛ لأن اللهَ يقولُ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، والإسلامُ لم يأتِ على هذا الوصفِ، فلا تكونُ مَرضيةً عندَ اللهِ.

وبناءً على هذا نقولُ: جميعُ الطرقِ التي يَتعَبَّدُ بها المُتَطَرِّقون، ولم تَكُنْ على شَريعةِ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنها لا تَزِيدُهم منَ اللهِ إلا بُعدًا والعياذُ باللهِ، ولا مِن لَدُنه إلا سُخْطًا، فعلى المرءِ أن يكونَ عبدًا للهِ حقيقةً، يَعْبُدُ اللهَ بما شَرَعَ، مُخْلِصًا لهُ الدينَ، مُتَّبِعًا لسُنةِ خيرِ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل مُتَّبِعًا لسُنةِ خيرِ النبيينَ والمرسلينَ.

إذنْ نُثبِتُ في هذهِ الآيةِ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ من صفاتِ اللهِ السَّمْعَ المُحِيطَ بكلِّ شيءٍ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ

﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة:٢].

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ مُبَيِّنًا حُكْمَ الظِّهارِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾، فالرَّجُلُ إذا قالَ لزَوجتِه: أنتِ كظهرِ أمّي، أو أنتِ أمّي في الحـرامِ عليَّ، نقولُ: هذهِ ليستْ أُمَّكَ؛ لأن اللهَ قالَ: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، فهذهِ ما هيَ أمُّـك، بـلْ هذهِ زَوجتُك، فمَن أُمُّه؟ ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾، وهذهِ مـا وَلَدَتْك، فأُمُّكَ هيَ التي وَلَدَتْكَ، وجَعْلُكَ الزوجةَ أُمًّـا كَذِبٌ وليسَ صِدْقًا.

وفي قولِه: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ الأسماءَ الشرعيةَ تَنزِلُ على ما وُضِعَتْ لهُ، ولهذا قالَ النبيُّ ﷺ في صلاةِ العشاءِ: «**لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمْ، أَلَا إِنَّهَا العِشَاءُ**»[1]؛ ففي القرآنِ العزيزِ: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ [النور:٥٨]. والأعرابُ يُسمونَها العَتَمةَ؛ لأنهم يُعْتِمونَ بالإبلِ، ويكونُ إعتامُهم بها وقتَ العتمةِ، فيُضِيفُونَ الصلاةَ إلى العَتَمةِ، فلهذَا نَهَى النبيُّ ﷺ عن ذلكَ.

ونظيرُ هذا الآنَ مَشهورٌ عندَ الناسِ أن أُمَّ الزوجةِ تُسَمَّى حَماةً، لكن بعضَ الناسِ يُسمِّيها عَمَّةً، وبعضُ الناسِ يُسمِّيها خالةً، وهيَ ليستْ خالةً لا في كتابِ اللهِ ولا في سُنةِ رسولِ اللهِ، وليستْ عمةً أيضًا، لكن لا بأسَ عندَ نِدائِها أن تقولَ: يا عمة، يا خالة، أما أن تَصِفَها بأنها عمةٌ أو خالةٌ فتَقولَ: قالتْ خالتِي، قالتْ عَمَّتِي. فهذا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها، رقم (٦٤٤).

غَلَطٌ؛ لأن الذِي تُخاطِبُه إذا قلتَ: قالتْ خالتِي. فإنهُ يَفْهَمُ أنها أُخْتُ أُمِّك، وإذا قلتَ: قالتْ عَمَّتِي فإنهُ يَفْهَمُ أنها أُخْتُ أبيك، فلا تَقُلْ هكذَا فتفْهَم الناسُ خِلافَ ما أرادَ اللهُ بِهِ بالعمةِ، وما أرادَ اللهُ بِهِ بالخالةِ.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾، مُنْكَرًا مُحَرَّمًا، وزُورًا كَذِبًا، ووَجْهُ أنهُ مُحَرَّمٌ أن اللهَ حَرَّمَه؛ وإنما قالَ مُنْكَرًا فهوَ حرامٌ، وزورًا أي كذبًا؛ لأنهُ يقولُ: هيَ أمِّي وليستْ أمَّه، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٣-٤].

ثم بَيَّنَ كفارةَ الظِّهارِ، فذَكَرَ أنها عِتقُ رقبةٍ، فإن لم يَجِدْ فصِيامُ شهرينِ مُتَتابعينِ مِن قبلِ أن يَتماسَّا، فإن لم يَستطِعْ فإطعامُ سِتينَ مسكينًا، ولا يُجامِعْها زوجُها إذا قالَ لها: أنتِ عَلَيَّ كظهرِ أمِّي حتى يُكفِّرَ.

بناءً على ذلكَ رجلٌ قالَ لزوجتِه: أنتِ عليَّ كظهرِ أمِّي، قلنَا: لا تَقْرَبْها حتى تَصومَ- وهوَ ليسَ عندَهُ شيءٌ يُعتِقُه- شهرينِ مُتابعينِ، فصامَ شهرينِ مُتابعينِ، ولما بَقِيَ يومٌ واحدٌ جَامَعَ الزوجَةَ، فلا يَجوزُ؛ لأنه لم يُكفِّرْ حتى الآنَ، لكن معَ قولِنا: لا يَجوزُ نقولُ: يَجِبُ عليكَ الآنَ أن تَسْتأنِفَ الصومَ منْ جَديدٍ، فتصومَ شهرينِ مُتابعينِ، فإذا قالَ: أنا صُمْتُ شهرًا وتسعةً وعشرينَ يومًا وبَقِيَ يومٌ، قلنَا: لكنكَ لم تَفِ بالشرطِ الذي شَرَطَهُ اللهُ، وهو مُتابعينِ، فصُمْ شهرينِ مُتابعينِ.

فصامَ شهرينِ، ولما بَقِيَ يومٌ جامعَ، فنقولُ: لا يَجوزُ أن تُجامِعَ المرةَ الثانيةَ حتى تَصومَ شهرينِ مُتتابعينِ، وإذا قالَ: لم يَبْقَ عَلَيَّ إلا يومٌ؛ قلنا: لكنكَ لم تَفِ بالشرطِ؛ لأنَّ اللهَ قالُ: ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

ومثلُ ذلكِ كفارةُ القتلِ، فإذا قَتَلَ مَعصومَ الدمِ خطأً وَجَبَتْ عليهِ الكفارةُ؛ وهي عِتْقُ رقبةٍ، فإن لم يَجِدْ فصِيامُ شهرينِ مُتتابعينِ، لا يُفْطِرُ بينَهُما يومًا واحدًا، فإن أفطرَ يومًا واحدًا قبلَ تَمامِهِا وَجَبَ عليهِ أن يَستأنفَ منْ جديدٍ؛ لأن اللهَ لم يَقُلْ: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ وأَطْلَقَ، بلْ قالَ: ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء:٩٢].

إذنْ لو سألَنا سائلٌ: ما حُكْمُ ظِهارِ الرجلِ مِنِ امرأتِه؟

فإننَا نقولُ: حرامٌ، ويَترتَّبُ على ذلكَ أنهُ لا يَمَسُّها حتى يُكَفِّرَ، والكفارةُ هيَ أغلظُ الكفاراتِ: عتقُ رقبةٍ، فإن لم يَجِدْ فصيامُ شهرينِ مُتتابعينِ، فإن لم يَستطِعْ فإطعامُ سِتِّينَ مسكينًا، فإنْ لم يَجِدْ فلا شيءَ عليهِ؛ لأن اللهَ قالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧].





سورة الحشر

الدَّرسُ الأوَّلُ:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر:١].

قَوْلُهُ: ﴿سَبَّحَ﴾، قَالَ العُلَمَاءُ: التَّسبيحُ: تَنْزِيهُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهم: سَبَحَ فِي الماءِ؛ إذَا قَطَعَه مُبْتَعِدًا.

وقَد سَبَّحَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفْسَهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ منَ القُرْآنِ، وَأَمَر بِتَسْبِيحِه تَارةً بِلَفظِ العَظِيمِ، وَتَارةً بِلَفظِ الأعلَى، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى:١]، قَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ فِي الآيةِ الأُولَى: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**»، وَقَالَ فِي الثَّانيةِ: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**»[1]؛ وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى المُصَلِّي أَنْ يَقُولَ فِي رُكوعِهِ: سُبحانَ رَبِّيَ العَظِيمِ، وأَنْ يَقُولَ فِي سُجودِهِ: سُبحان رَبِّيَ الأَعْلَى.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥، رقم ١٧٥٤٩)، وأبو داود: باب تفريغ أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧).

ومِمَّا جَاءتْ بهِ السُّنةُ فيما عدَا ذَلك قولُه: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي**»(١)، فقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بعدَ إذ نَزَلَ عليْهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ [النصر:١-٣]، قالتْ عَائشةُ: كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِه وسُجوده بَعْدَ إذْ نَزَلَتْ علَيْه: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي**». فَيَنْبَغِي لكَ أَنْ تُكثِرَ منْ هَذَا الدُّعَاءِ: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي**»؛ اقْتِداءً برسولِ اللهِ ﷺ.

واعْلَمْ أنَّ الَّذِي يُنزِّهُ اللهُ عَنْهُ ثَلَاثةُ أَشْياءَ:

الأَوَّلُ: أنَّ اللهَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عنهُ كُلَّ عَيبٍ ونقصٍ، كالموتِ، والعَمَى، والصَّمَمِ، والعَجْزِ، والخِيانةِ، ومَا أَشْبَهَهَا، هَذِهِ صِفاتُ نَقْصٍ يُنزَّهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا بكلِّ حالٍ، ولَا يُمْكِنُ أَن يُوصَفَ بها بأيِّ حَالٍ منَ الأحوالِ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا لهُ المَثَلُ الأعلَى، أيِ: الوَصفُ الأكمَلُ الَّذِي لَا شَيْءَ فَوْقَه، ولَا شَيْءَ يُدانيهِ.

وأَمَّا قولُ العوامِّ: إِنْ خُنْتُكَ فَاللهُ يَخُونُنِي. فهَذَا قولٌ مُنكَرٌ لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُوصف بالخِيانةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡ﴾ [الأنفال:٧١]، وَلَمْ يَقُلْ: فَخانَهُمْ، لَكنْ لَمَّا قَالَ: ﴿وَمَكَرُواْ﴾، قَالَ: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤].

الثَّانِي: أنه سُبْحانَه مُنَزَّهٌ عن مُشَابهةِ المَخْلُوقِينَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُماثِلُ أَحَدًا،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، رقم (٧٨٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤).

ولَا يُماثِلُهُ أَحَدٌ فِي جَميعِ صِفَاتِهِ؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فَحياةُ المَخْلوقِ لَيْست كَحَيَاةِ الخالقِ، فَحَيَاةُ المخلوقِ مَسْبُوقةٌ بِعَدَمٍ، ومَلْحُوقةٌ بِفَناءٍ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُوَ الحيُّ الَّذِي لَا يَموتُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، فَنُثْبِتُ للهِ تَعَالَى وَجْهًا كَمَا قَالَ تَعالَى هُنَا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، ولكنَّ هَذَا الوَجْهَ لَا يَكونُ مُماثلًا لِأَوْجهِ المَخْلوقِينَ.

أَثبتَ اللهُ لِنَفسِهِ يَدَيْنِ، نُثْبِتُهَا للهِ، وَنَقُولُ: للهِ يَدَانِ حَقِيقيَّتانِ لَا تُماثلانِ أَيْدِيَ المَخْلُوقِينَ، وَلَا تُماثِلُهما أَيْدِي المَخلوقِينَ.

وَنُثبتُ للهِ أَصَابعَ، ولكنَّا نَقُولُ: إِنَّها أَصَابعُ لَا تُماثِلُ أَصابعَ المَخْلوقِينَ، وَلَا تُمَاثِلُهَا أَصابعُ المَخلوقِينَ؛ استِنَادًا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وقَدْ ضلَّ فِي هَذَا طَائفتَانِ منَ النَّاسِ:

الطَّائفَةُ الأُولَى: طَائفـةٌ ادَّعتْ أنَّ صِفـاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُماثلةٌ لِصِفـاتِ المَخْلوقِينَ، وَهَؤُلاءِ المُمَثِّلةُ هم الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ اللهَ تَعالَى بِخلقهِ، وَيَقُولونَ: نُثْبِتُ للهِ الصِّفاتِ عَلَى أَنها مِثلُ صِفَاتِ المَخْلوقِينَ، وَهؤُلاءِ غَفَلُوا عنْ قَولِهِ تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، وَقَوْلِهِ تعالَى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، ومَا أَشْبهَ ذَلِكَ.

الطَّائفةُ الثَّانيةُ: الَّتِي ضَلَّت فَأَنْكروا الصِّفاتِ، وَقَالُوا: لَا يُوصَفُ اللهُ بأَنَّ له وجهًا، ولَا أنَّ لَهُ يَدًا، ولَا أَنَّ لَه عَينًا، ولَا أَنَّ لَهُ أَصابعَ، ومَا أَشْبهَ ذَلِكَ، أَنْكروا هَذَا؛ ظنًّا منهمْ أَنَّنا لَو أَثْبَتْنا ذَلك للَزِمَ منَ الإثباتِ أَنْ يَكونَ اللهُ مُمَاثِلًا لِلْخَلْقِ، ولكنَّهُم

ضَلُّوا؛ فإنَّ المَخْلُوقاتِ تَتَماثَلُ فِي الأَسْمَاءِ وَلَا تَتَماثَلُ فِي المُسَمَّياتِ، فَمَا بَالُكَ فِيما بَيْنَ الخالِقِ والمَخلُوقِ، فَانتِفَاءُ التَّماثلِ بَيْنَ الخالقِ وَالمخْلُوقِ أَوْلى من انتفاءِ التَّماثلِ بَيْنَ المخلوقَاتِ بَعْضِها مَعَ بعضٍ، فهَؤُلاءِ يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ بِحُجةِ أَنَّ إِثباتَ هَذَا الشيءِ يَسْتلزِمُ التَّمثيلَ.

وكلُّ مَن حرَّفَ نصًّا منَ الصِّفاتِ عنْ ظَاهِرِهِ، فقدِ ارتكبَ **مَحْظُورَيْنِ عَظِيمَيْنِ**:

المَحْظورُ الأَوَّلُ: إخراجُ النصِّ عَمَّا أرادَ اللهُ بِهِ ورسولُهُ ﷺ.

المَحظورُ الثَّاني: إثباتُ مَعْنًى لَا يُرِيدُهُ اللهُ وَلَا رَسولُهُ ﷺ فَيَكُونونَ قَد جَنَوْا عَلَى النصوصِ فِي الإثبَاتِ والنفْيِ، فِفِي الإثباتِ أَثْبَتوا مَعَانِيَ لا يَدُلُّ علَيْها اللفظُ، وفِي النَّفْيِ نَفَوْا المَعْنَى الَّذِي يَدُلُّ علَيْهِ اللَّفظُ.

فكَيْفَ يُقابِلُ الإِنْسَانُ ربَّهُ يَوْمَ القيامَةِ إذَا سَأَلَهُ عَمَّا أَنْزَلَ عَلَى رسولِهِ ﷺ، وعَمَّا قالَهُ رَسولُهُ ﷺ فِي ذَاتِ اللهِ وصِفَاتِهِ، وَلِهَذَا أخطأَ خطأً عَظِيمًا مَنْ قالَ: إنَّ طَرِيقةَ السلفِ أَسْلَمُ، وطَريقـةُ الخَلَفِ أَعْلَمُ وأَحْكَمُ! فـإِنَّ هَذَا القولَ مُتَناقِضٌ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تكونَ هُناكَ سَلامةٌ إِلَّا بِعلمٍ وحِكْمةٍ.

مَا هِيَ طَرِيقةُ السلفِ؟

هم يَقُولونَ: إنَّ طَرِيقةَ السلفِ أَنْ يَقْرَؤُوا النصوصَ وَلَا يَتَعَرَّضوا لمَعْناهَا؛ لِأَنَّ كثيرًا منَ النَّاسِ يَفْهَمون أَنَّ طَرِيقةَ السَّلَفِ فِي الأَسْمَاءِ وَالصِّفاتِ هِيَ التَّفويضُ، وأَنْ نُفَوِّضَ المَعْنَى ونَقولَ: اللهُ أَعْلَمُ، ولكنَّ هَذَا إمَّا كَذِبٌ عَلَى السَّلَفِ، وإِمَّا جَهْلٌ بِحَقيقةِ مَا هُم علَيْهِ، فَالسَّلَفُ يُثْبِتونَ مَعَانِيَ آياتِ الصِّفاتِ وَأَحَادِيثِهَا، لكنَّهم يُفوِّضُون عِلْمَ الكَيْفيةِ، ويَقُولونَ: مَا نَدْري، لَكنَّ المَعْنَى يَعْلَمونَه ويُثْبِتونَه، ولقدْ قَالَ

الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي الاستِواءِ: «الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهولٍ، والكيفُ غَيْرُ معقولٍ، والإيمانُ بِهِ وَاجِبٌ، والسؤالُ عَنْهُ بِدْعةٌ»(١)، فَهُمْ إمَّا أَنْ يَكونُوا جَهِلوا مَذْهَبَ السَّلَفِ، وإمَّا أن يَكونُوا كَذَبوا عَلَى مَذْهَبِ السلَفِ.

بَـلْ قَدْ قَـالَ شَيْخُ الإِسْلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي كِتَابِهِ (دَرْءِ تَعارُضِ النَّقْلِ وَالعَقْلِ) المَعْروفِ عندَ النَّاسِ اختصارًا بكِتابِ (العَقْلُ وَالنَّقْلُ)، قالَ: «إِنَّ قَوْلَ المُفَوِّضَةِ مِنْ شَرِّ أَقْوَالِ أَهْلِ البِدَعِ وَالإِلْحَادِ»(٢)؛ لِأَنَّ المُفَوِّضةَ يَجْعَلُونَ القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ فِيما يَتعَلَّقُ بِأَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِه بِمَنْزِلَةِ الحروفِ الهِجَائِيَّةِ، أَو بِمَنْزِلَةِ الكلامِ العربيِّ عِنْدَ الأعجميِّ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا نَقْصٌ عظيمٌ فِي مَدلولِ الكلامِ لَو كَانَ مِن آدميٍّ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ مِنَ اللهِ وَرَسولِهِ ﷺ.

فَالصِّفاتُ فِيما يَتعلقُ بِالمُماثلَةِ، ضَلَّت فِيها طَائفَتَانِ:

الطَّائفةُ الأُولَى: المُمَثِّلَةُ.

الطَّائفةُ الثَّانيةُ: المُعَطِّلَةُ.

ولقدْ قَالَ ابنُ القَيِّمِ فِي مُقَدِّمةِ كِتَابِهِ: المنظومَةُ النُّونيةُ: «إِنَّ المُمَثِّلَةَ يَعْبُدُونَ صَنَمًا، وَإِنَّ المُعَطِّلَةَ يَعْبُدُونَ عَدَمًا، وَإِنَّ المُوَحِّدَ يَعْبُدُ إِلهَ الأَرْضِ وَالسَّماءِ»(٣).

فَـإِنْ قِيلَ: أَيُّهما أَولى، التعبيرُ بِنَفيِ المماثلَةِ، بِـأَنْ تَقولَ: إِنَّ اللهَ لَا يُماثِلُهُ شَيءٌ أَوْ أَنْ تَقولَ: إِنَّ اللهَ لَا يُشابِهُهُ شَيءٌ؟

---

(١) أخرَجه أبو نُعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبَيْهقي في الأسماء والصِّفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية: (١/ ٢٠٥).

(٣) انظر: مقدمة القصيدة النونية لابن القيم (ص:٦).

قُلْنَا: التَّعبيرُ الأَوَّلُ هُوَ الأَولى لِسَببَيْنِ:

السببُ الأَوَّلُ: أَنَّ نَفْيَ المُماثَلةِ هُوَ الَّذِي جاءَ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ، لَيْسَ فِي القُرْآنِ لَا يُشَابِهُهُ شيءٌ، بَل فِيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وَالمُحافظَةُ عَلَى لَفْظِ النَّصِّ أَوْلَى منَ الإِتيانِ بغَيْرِ اللَّفظِ الَّذِي جاءَ بِهِ النَّصُّ، حَتَّى وإِن كَانَ مُرادِفًا لهُ، أيْ: حَتَّى وإنْ كَانَ بِمَعناهُ، فكَيْفَ وإذَا كَانَ يَختلِفُ، فإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُعبِّرَ بِنَفْيِ المُشَابهةِ فَقُلْ: اللهُ لَا يُماثِلُهُ شَيءٌ؛ لِأَنَّهُ هُوَ اللَّفظُ الَّذِي جاءَ فِي القُرْآنِ.

السَّببُ الثَّاني: أَنْ نَفْيَ المُماثلةِ نَفيٌ لِلتَّساوِي مِن كُلِّ وَجهٍ؛ وَلِهَذَا يُقالُ: هَذَا الشيءُ يُشَابِهُ هَذَا أَو يُماثِلُهُ، فإنْ ساوَاهُ مِن كُلِّ وَجهٍ فَهو مُماثِلٌ، وإنِ اختلفَ عَنْهُ مِن بعضِ الوُجوهِ فهو مُشابِهٌ.

ونَفْيُ المشَابهةِ إنْ أُريدَ بِهِ أَنَّه لَا يُشابِهُهُ حَتَّى فِي أصلِ الصِّفَة، فَهَذَا خطأٌ؛ لِأَنَّ هُناك اشْتِراكًا بَينَ الخالقِ والمخلوقِ فِي أصلِ الصِّفَةِ، فمَثَلًا: العِلْمُ ثابتٌ للهِ، والمخلوقُ لهُ علمٌ، لكنْ لَا يَتَماثلانِ، السَّمْعُ كَذَلِكَ، المخلوقُ لَهُ سَمعٌ، والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ له سمعٌ، لَكنَّهما لا يَتَماثلانِ؛ فَلِذَلك كَانَ التَّعبيرُ بِنفيِ المماثلَةِ أحسنَ منَ التَّعبيرِ بِنفيِ المُشابهَةِ.

الثَّالِثُ: أنـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنزَّهٌ عـن النقصِ فِي كَمالِه، يَعْني: أنَّ كَمالهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يَلْحَقُه نَقْصٌ، فَقُدْرَتُه وَقُوَّتُه وعِلْمُه لَا يَلْحَقُه نَقْصٌ، وهكَذَا بَقِيَّةُ الصِّفاتِ، فَاللهُ تَعَالَى مُنزَّهٌ عَنْ أَن يَكونَ فِي صِفاتِ كَمالِهِ شَيْءٌ منَ النقصِ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، يَعْني: مَا مَسَّنَا منْ نَقْصٍ عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ هَذِهِ السماوَاتِ والأرضَ فِي هَذِهِ المدةِ

القَصيرةِ عَلَى عِظَمِ هَذِهِ المَخلوقَاتِ، ومَا مَسَّهُ منْ لُغُوبٍ عَزَّوَجَلَّ أَيْ: مِنْ تَعَبٍ وإعياءٍ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف:٣٣]، أَيْ: لَمْ يَتْعَبْ، وَذَلكَ لِكَمالِ قُوتهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤]؛ لِكَمالِ قُدْرتِهِ؛ لِأَنَّ القوةَ ضِدُّها العَجزُ، والقوةَ ضِدُّها الضَّعفُ، وَقَالَ تَعَالَى فِي العِلْمِ: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، أَيْ: لا يَجْهَلُ جَهْلًا سَابقًا عَلَى العلمِ، وَلَا يَنْسَى نِسيانًا لَاحِقًا بالعِلْمِ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا كَانَ ومَا يكونُ، كَمَا قَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

مَسْأَلَةٌ: هُناكَ صِفاتٌ تكونُ مَدْحًا فِي حالٍ، وذَمًّا فِي حالٍ، مثلُ: الخِداعِ، والمَكْرِ، والاستهزَاءِ، فهلْ يُوصَفُ اللهُ بِهَا عَلَى الإِطلاقِ؟

الجَوابُ: لَا، وَإِنَّما يُوصَفُ بِها فِي الحالِ الَّتِي وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفسَهُ، فمثلًا: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠]، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَصِفَ اللهَ بِالمَكْرِ، فَقُلْ: إِنَّهُ يَمْكُرُ بمَنْ يَمْكُرُ به، وَبِدِينِه، وَرُسُلِه، وَأَوْليَائِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَذْكُرَ المَكْرَ عَلَى وَجْهِ الإِطلاقِ، وَإِنَّما تَذْكُرُهُ مُقَيَّدًا؛ لِأَنَّ المَكْرَ بِمَن يَمْكُرُ بِكَ دَليلٌ عَلَى الكَمالِ، وأَنَّ قُوتَكَ أَشدُّ منهُ.

أما صِفةُ الكَيدِ: فَلا يُوصفُ اللهُ تَعَالَى بِها عَلَى وجهِ الإِطلاقِ، ولَكنَّه يُوصفُ بِهِ عَلَى وَجهِ التَّقييدِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦] يَعْني: أَكِيدُ كَيدًا أَعْظَمَ منْ كَيدِهِمْ.

وصِفةُ الاستِهْزاءِ: لَا يُوصَفُ اللهُ بِأَنَّه مُسْتهزِئٌ عَلَى وجهِ الإِطلاقِ، بَلْ يُقالُ:

إِنَّ اللهَ يَسْتهزِئُ بِمَنِ اتَّخَذَ دِينَهُ هُزُوًا؛ مِنْ أَجْلِ المُقابلَةِ، فيَكُونُ هَذا كَمالًا، لكنْ بِدُونِ أَن يَقيَّدَ هُوَ نَقْصٌ.

صِفَةُ الخِداعِ: فَلا يُوصفُ اللهُ تَعَالَى بِالخِدَاعِ عَلَى الإطلاقِ، ولكنْ يُقالُ: إِنَّهُ يُخَادِعُ مَن يُخَادِعُهُ؛ لِقَولِهِ تَعالَى: **﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾**، وعلَى هَذَا فقِسْ.

صفةُ الخِيَانةِ: لَا يُوصفُ اللهُ بِهَا؛ لِأَنَّها نَقصٌ بِكلِّ حالٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**».

فَالصِّفاتُ الَّتي هِيَ نقصٌ فَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنهَا، والصِّفاتُ الَّتِي تَكونُ نَقصًا فِي حالٍ وكمالًا فِي حالٍ، يُوصَفُ بها مُقيَّدةً، ولَا يُوصَفُ بِها مُطْلَقةً.

الصِّفاتُ أوِ المعَانِي الَّتي يَحْتَمِلُ مَعْناها حقًّا، وَيَحْتَمِلُ مَعناها بِاطلًا، فَهَذِهِ يُخْبَرُ بِها عنِ اللهِ وَلَا يُسَمَّى بِهَا، مِثْلُ المُتكَلِّمِ، تَقولُ: إنَّ اللهَ مُتكَلِّمٌ، ولكنْ لَا نُسَمِّيهِ بِالمُتكَلِّمِ، فَلا يَجُوزُ أَنْ تَقولَ: يَا مُتكَلِّمُ اغْفِرْ لي.

المُرِيدُ: يَجوزُ أَنْ تُخْبِرَ عنِ اللهِ بِأَنَّه مُرِيدٌ، ولكنْ لَا يَجُوزُ أَنْ نُسَمِّيَه بِالمُرِيدِ؛ لِأَنَّ أَسْماءَ اللهِ كلَّها حُسْنَى، وهَذِهِ الكلماتُ تَحْتمِلُ مَعْنيَيْنِ؛ لِأَنَّ المتكلِمَ قَد يَتكَلَّمُ بِخَيرٍ، وقدْ يتكلمُ بشَرٍّ، وقدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[1]، كَذلك المُرِيدُ، قَد يُرِيدُ الإِنْسَانُ سُوءًا وقَدْ يُرِيدُ خيرًا، فَالإرادةُ تَكونُ لِهَذَا ولِهَذَا، فَلا يُسمَّى اللهُ بِالمُرِيدِ لَكنْ يُقالُ: إنَّه مُرِيدٌ، قَالَ اللهُ تَعالَى:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرِّقاق، باب حفظ اللِّسان، رقم (٦٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم (٤٧).

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:١٤].

قَوْلُهُ: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿مَا﴾ اسمٌ مَوصولٌ، وتكونُ لِلعُمُومِ، أَيْ: أَنَّ كُلَّ مَا فِي السماوَاتِ وَالأَرضِ فَإِنَّهُ يُسبِّحُ اللهَ.

وَالتَّسبيحُ نَوْعانِ:

النَّوعُ الأوَّل: التَّسبيحُ بِلِسانِ المَقالِ.

النَّوعُ الثَّانِي: التَّسبيحُ بِلِسانِ الحالِ.

فالتَّسبيحُ بِلِسانِ المَقالِ أَنْ يَقُولَ القائلُ: سُبْحانَ اللهِ. وَالتَّسبيحُ بِلِسانِ الحالِ: أَنْ تكونَ حالُ المَخْلوقِ دَالَّةً عَلَى تَنْزِيهِ اللهِ تَعَالَى عنْ كُلِّ نَقْصٍ.

المؤمنُ يُسَبِّحُ اللهَ بِلِسانِ الحالِ وَالمَقالِ، فيَقُولُ بِلِسانِهِ: سُبْحانَ اللهِ، وإِذَا تأمَّلتْ حَالَهُ، والخِلقةَ الَّتِي خَلقهُ اللهُ علَيْها، ومَا جَبَله اللهُ علَيْه منَ الأَخلاقِ والمعانِي والأَوصافِ، دلَّ ذلكَ عَلَى تنزيهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

أَمَّا الكافرُ فَيُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَى بِلِسانِ الحالِ لَا بِلِسانِ المَقالِ؛ لِأَنَّ الكافرَ لَا يُسَبِّحُ اللهَ، بَل يَصِفُ اللهَ بِكلِّ نَقصٍ وعَيْبٍ، ولكنَّ الإِنْسَانَ حالُهُ يُسبِّحَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ومَعْنَى تَسْبيحِ الكافرِ بِلِسانِ الحالِ أَنَّك إِذَا تَأَملتَ حَالَ الكافرِ عَرفْتَ حِكْمَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي خِلْقَتِهِ، وفِي سُلُوكِه، وَفِي جَمِيعِ أَعْمالِهِ، فَنَحْنُ نُسَبِّحُ اللهَ عِنْدَمَا نُشاهِدُ الكَافِرِينَ كَيْفَ أَضَلَّهمُ اللهُ عنِ الحقِّ مَعَ وُضُوحِهِ، لَوْلَا أَنَّ اللهَ لَه الحكمةُ فِي ذَلك مَا أَضَلَّهم.

أَمَّا الجَمادُ فَيُسَبِّحُ اللهَ بِلسَانِ الحالِ وقِيلَ: بِلِسانِ المَقالِ أَيضًا، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ [الحشر:٢١]، وَقَالَ تَعالَى: ﴿تُسَبِّحُ

لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾، فَهَذَا دَليلٌ عَلَى أنَّ هَذِهِ المَخلوقَاتِ تُسبِّحُ اللهَ بِلِسانِ المقالِ، وَقَالَ تَعالَى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣].

وسُمِعَ تَسبيحُ الحَصَى بيْنَ يَدَي الرَّسُولِ ﷺ، وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْرِفُ حَجَرًا فِي مَكَّةَ يُسَلِّمُ عليه.

إِذَنِ الجمادُ يُسَبِّحُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ [النور:٤١]، فَالطُّيورُ فِي جَوِّ السَّماءِ تُسَبِّحُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وَقَالَ تَعالَى فِي شَأنِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

إِذَنِ، المخلوقاتُ: الجمادُ، والحيوانُ، تُسبحُ اللهَ بِلِسانِ الحالِ وَبِلِسانِ المقَالِ.

وَلَا تَتَعَجَّبْ مِنْ هَذَا، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى عنِ الكافِرينَ: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت:٢١]، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنطَقَ كُلَّ شَيءٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿مَا﴾ لِغَيْرِ العاقلِ أَيْ: لِلْجَمادِ.

وَقَالَ ابنُ هِشامٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأَوْلَى أنْ تَقولَ: لغيرِ العالِمِ دُونَ العاقِلِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُوصفُ بِالعِلْمِ وَلَا يُوصفُ بِالعقلِ»[١].

وَالمسأَلَةُ سَهلةٌ مَا دُمنا نَعْرِفُ أَنَّ المُرادَ بِالعاقلِ مَن لَه إِدْراكٌ، وَبِغَيْرِ العَاقلِ

(١) انظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني: (١/ ٢٢٢).

مَن لَيْسَ لَه إِدْراكٌ، لَكن فِي آيةٍ أُخْرى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤]، فـ(مَن) هُنا لِلْعاقلِ، فَاللهُ تَعَالَى يُعبرِّ أحيانًا بِـ(مَا)، وأحيانًا بِـ(مَن).

قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فَاللهُ تَعَالَى عَزيزٌ لا يُغلَبُ، بَلْ هُوَ الغالبُ لكلِّ شَيءٍ، والحكيمُ يَعْني: ذَا الحِكْمةِ والحُكْمِ، فَالحكيمُ مُشْتقةٌ منَ الحِكمةِ، ومُشتقةٌ منَ الحُكْمِ، وعَلَى هَذَا فاعْلَمْ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَفْعَلُهُ اللهُ منَ الأُمورِ المخلوقَةِ، والأمورِ المشروعَةِ، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهُ الحِكْمةُ فِي ذلكَ، كُلُّ شَيْءٍ فَللَّهِ فِيهِ حِكمةٌ، فخَلْقُ الكافرِ حِكمةٌ؛ حَتَّى يَتَبينَ المؤمنُ منَ الكافرِ، وحتَّى يُقامَ الأمرُ بالمعروفِ وَالنهيُ عنِ المنكرِ، وحتَّى يُقامَ الجهادُ، وغيرُ ذَلك منَ المصالِحِ.

وخَلقُ الشَّيْطَانِ الَّذِي يُضِلُّ النَّاسَ حِكمةٌ يَعرِفُ الإِنْسَانُ به حِكْمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حيثُ سلَّطَ الشَّيْطَانَ عَلَى أُناسٍ دُونَ آخَرِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

خَلْقُ الأشياءِ المُؤْذيَةِ كَالذِّئابِ، والحَيَّاتِ، والعَقارِبِ، لَهَا حِكْمةٌ فَكَثيرٌ منَ النَّاسِ لَا يَحْمِلُه عَلَى قِراءَةِ الأَورَادِ وَالأذكارِ إِلَّا الخَوْفُ منَ العَقارِبِ وَالحيَّاتِ؛ ولِذَلِكَ نَقولُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلقَهُ اللهُ أو كُلُّ شَيْءٍ شرَعهُ اللهُ، فإنَّهُ بِحِكمةٍ، لكنَّ بعضَ الحِكَمِ نَفْهمُها وبَعْضَها لَا نَفْهمُها، ولَيْسَ علَيْنا إِلَّا أَنْ نُسلِمَ الأَمْرَ للهِ عَزَّوَجَلَّ ونَقُولَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢].



الدَّرسُ الثَّاني:

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمَامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد اسْتَمَعْنا إِلَى قِراءةِ إمامِنا فِي صَلَاةِ الفَجْرِ هَذَا اليومَ، وقد قَرَأَ من سُورَةِ الحَشْرِ، وهذه السُّورةُ نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ، وبَنُو النَّضِيرِ إِحْدَى القَبائِلِ الثَّلاثِ اليَهُوديةِ الَّتِي كانتْ فِي المَدِينَةِ، وكانتِ القَبائِلُ فِي المَدِينَةِ ثلاثًا: بَنُو قُرَيْظَةَ، وبنو قَيْنُقاعَ، وبنو النَّضِيرِ، هَذِهِ القبائلُ أَتَتْ من الشامِ؛ وذلك لأنَّهم قَرَؤُوا فِي التوراةِ أَنَّه سَيُبْعَثُ نَبِيٌّ يكونُ مَبْعَثُه مَكَّةَ، ومُهاجَرُه المَدِينَةَ، ويَعْلَمون صِفَةَ هَذَا النبيِّ، يَعْرِفُونَه كما يَعْرِفُونَ أبناءَهم، ويَعْرِفُونَ غَايَتَه، ويَعْرِفون ماذا تكونُ عاقِبَتُه.

فقَالُوا: نَقْدَمُ إِلَى المَدِينَةِ الَّتِي هِيَ مُهاجَرُه، ونَسْكُنُ فيها، ونَغْلِبُ غَيْرَها؛ لأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ قد تَكَفَّلَ اللهُ بأَنْ يُظْهِرَه عَلَى جَمِيعِ الأديانِ، واليهودُ يَعْرِفونَ مَعْنَى كلمةِ (ظُهور) فِي قولِه تَعالَى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، فاجتمعت هَذِهِ القبائلُ فِي المَدِينَةِ لنُصْرةِ النَّبِيِّ الَّذِي سيُبْعَثُ، والذي تكونُ نُبُوَّتُه عامَّةً شَامِلَةً: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة:٨٩].

لكن لما بُعِثَ مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّم وصارَ مِن العَرَبِ، حَسَدُوا العَرَبَ؛ لأنَّ العَرَبَ واليهودَ أَبْناءُ عَمٍّ، العَرَبُ بنو إِسْماعيلَ، وهؤلاء بَنُو إِسْرائيلَ، أي: بنو يَعْقوبَ، فهم أَبْناءُ عَمٍّ، وغالبًا ما تكونُ العَداوةُ بينَ أبناءِ العَمِّ، فهم حَسَدُوا العَرَبَ أَنْ يَكونَ هَذَا النَّبِيُّ الكريمُ صلَّى اللهُ عليهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّم منهم، فكَفَرُوا به.

هذه الآيةُ نَزَلَتْ فِي بني النَّضِيرِ، ولـمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى المَدِينةِ أَجْرَى بَيْنَه وبينَ هَذِهِ القَبائِلِ عَهْدًا، ولكنهم نَكَثُوا العَهْدَ، وكانت الذِّلَّة عَلَى هَؤُلاءِ النَّاسِ النَّاكِثِينَ للعَهْدِ، ومَن أرادَ الاستزادةَ من ذلك فعليه بقِراءةِ كُتُبِ التاريخ.

وإنني بهذه المُناسَبةِ أَحُثُّ إِخْوانَنا عَلَى قِراءةِ سِيرةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأنَّ قِراءَةَ سِيرَتِهِ تَزِيدُ فِي الإيمانِ به، وفي محبَّتِهِ ﷺ وتُكْسِبُ الإِنْسَانَ اقتداءً وتَأَسِّيًا به، لو أَنَّنا سَأَلْنا الآن عن سِيرةِ النَّبِيِّ ﷺ كثيرًا من طُلَّابِ العِلْمِ، فَضْلًا عن العامَّةِ، لَوَجَدْنا الخَلَلَ الكَثِيرَ؛ وهذا لأنَّهم لا يَقْرؤُون سِيرةَ النَّبِيِّ ﷺ.

نَتكَلَّمُ فِي هَذِهِ الجَلْسةِ عن بَعْضِ ما سَمِعْنا، إذ إِنَّنا لو ذَهَبْنا نَتكَلَّمُ عن السُّورةِ كُلِّها، لطالَ بنا الوقتُ، ولكنْ نَتكَلَّمُ عَلَى ما يَسَّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ من ذلك.

قَوْلُه تَعالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:٨-١٠].

هؤلاء ثلاثةُ أصنافٍ من النَّاسِ: المُهاجِرُونَ، والأنصارُ، والذين اتَّبَعُوهم بإحسانٍ، ونظيرُ هَذِهِ الآيةِ من هَذَا الوَجْهِ قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]،

فأصنافُ هَذِهِ الأُمَّةِ ثَلاثَةٌ: **الصِّنْفُ الأَوَّلُ** المهاجرون، **والثَّاني**: الأنصارُ، **والثَّالثُ**: المُتَّبِعونَ.

أَمَّا المُهاجِرُونَ: فهم الَّذِينَ هَجَروا دِيارَهم، وأَمْوالَهم، وأَهْلِيهم، هاجروا إِلَى اللهِ ورَسُولِه ﷺ وذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ بُعِثَ فِي مَكَّةَ، كما هُوَ معروفٌ، ودعا إِلَى اللهِ، واسْتَمَرَّ فِي الدعوةِ، وخَرَجَ إِلَى أهلِ الطائفِ ودَعَاهم، ولكنَّ كَثِيرًا منهم لم يُؤْمِنوا به، فأَذِنَ اللهُ له أن يُهاجِرَ إِلَى المَدِينَةِ، فهاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ، فوَجَدَ أُناسًا نَصَرُوهُ، ووَاسَوْهُ، وحَمَوْهُ مِمَّا يَحْمُونَ منه أَبْناءَهم، وهم الذين: ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر:٩].

ولا شَكَّ أنَّ المُهاجِرِينَ أفضلُ من الأنصارِ؛ لأنَّ المُهاجِرِينَ جَمَعُوا بينَ أَمْرَيْنِ: بينَ الهِجْرَةِ والنُّصْرةِ، ولهذا قالَ: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر:٨]، أما الأنصارُ فإنَّهم أَتَوْا بالنُّصرةِ فَقَطْ، نَاصَرُوا النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لكنهم فِي بِلادِهِم، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر:٩]، وهذا من حيثُ الجملةُ، وإلا فقد يُوجَدُ واحدٌ مَثَلًا من الأنصارِ أَفْضَلُ من واحدٍ من المُهاجِرِينَ، لكن من حَيْثُ الجملةُ المهاجرون أَفْضَلُ.

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠] هم الَّذِينَ سَلَكُوا طَرِيقَتَهم فِي الإيمانِ، وفِي العَمَلِ الصَّالِحِ، وفِي الجِهادِ، وفِي كلِّ شُؤونِ الدِّينِ، وكذلك أيضًا فِي الأخلاقِ، هَؤُلاءِ الَّذِينَ جاؤوا من بعدِهم هم الَّذِينَ اتَّبعوهم بإحسانٍ، وهم الَّذِينَ يُقِرُّون لهم بالفضيلةِ والسَّبْقِ، قال تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، هَذَا واضحٌ فِي الآيةِ ﴿سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾

سَبْقًا زَمَنِيًّا ومَعْنوِيًّا، فهم سَبَقوهم بالإِيمانِ؛ لأَنَّهم آمَنُوا قَبْلَهم، وهؤلاء تَابِعُونَ، سَبقوهم بالإيمانِ زَمَنًا، وسَبَقُوهم أيضًا بالإيمانِ مَعْنًى، فإيمانُ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَقْوَى من إيمانِ التَّابِعِينَ، بلا شَكٍّ، والمرادُ أيضًا الجِنْسُ، فقد يكونُ بعضُ الصَّحابَةِ، أو وَاحِدٌ من الصَّحابَةِ أَقَلَّ من بعضِ التابعين، لكنَّ التقريبَ إنَّما يكونُ فِي الجِنْسِ، لا فِي الوَاحِدِ، ولهذا نقولُ: أيما أفضلُ الرِّجَالُ أم النِّسَاءُ ؟ الرِّجَالُ أَفْضَلُ، لكن من حَيْثُ الجِنْسُ قد يكونُ فِي النِّسَاءِ من هُوَ أَفْضَلُ من كثيرٍ من الرِّجَالِ، فمَثَلًا: أمهاتُ المُؤْمِنِينَ خَدِيجَةُ، وعائشةُ، وأُمُّ سَلَمَةَ، وغَيْرُهنَّ، هَؤُلاءِ لا شَكَّ أَنَّهُنَّ أفضلُ بكَثِيرٍ من الرِّجَالِ، لكنِ المُرادُ الجِنْسُ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤].

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. قولُه: ﴿غِلًّا﴾ أي: حِقْدًا وبُغْضًا، ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: مِمَّنْ سَبَقُوا ولحِقوا، يعني: لا تجْعلْنا نُبْغِضُ الَّذِينَ سَبقُونا بالإيمانِ من المُهاجِرينَ والأنصارِ، ولا نُبْغِض الَّذِينَ كانوا فِي عَصْرِنا من المُؤْمِنِينَ، ولا نَحْمِلُ لهم حِقْدًا ولا غِلًّا، وهذا الدُّعاءُ سؤالُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكن يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ إذا دَعَا اللهَ بشَيْءٍ، أن يَفْعَلَ الأسبابَ المُوصِلةَ إليه -انتبه لهذه النقطةِ- الإِنْسَانُ يَسْأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حاجَاتِهِ الدِّينِيَّةَ والدُّنيويةَ، لكن إذا سَأَلَ اللهَ فلا بُدَّ أن يَفْعَلَ الأسبابَ المُوصِلَةَ إليه.

أرأيتَ لو أنَّ رَجُلًا قال: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي وَلَدًا صَالِحًا، ولكنه لم يَتَزَوَّجْ، هل هَذَا لَائِقٌ، أم غيرُ لائِقٍ؟

لا شَكَّ أنه غَيْرُ لائِقٍ، كيف يُرِيدُ أَوْلادًا بدُونِ نِكاحٍ؟! هَذَا لا يُمْكِنُ، كذلك

إذا سَأَلْتَ اللهَ أن يَهْدِيَكَ، فليسَ معناه أن تَسْأَلَ اللهَ أَنْ يَهْدِيَكَ وتَبْقَى مُسْتَلْقِيًا عَلَى فِراشِكَ، لا بُدَّ أَنْ تَعْمَلَ، افْعَلْ أَسْبابَ الهِدايةِ، فهنا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أَنْ تَسْأَلَ اللهَ أَلَّا يَجْعَلَ فِي قَلْبِكَ غِلًّا، إذن لا تَتَّبِعْ عَوْراتِ إِخْوانِكَ المُؤْمِنِينَ؛ لأَنَّكَ إن تَتَبَّعْتَ عَوْرَاتِهم، فلا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِكَ شيءٌ، ولهذا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ من اتِّباعِ عَوْراتِ المُؤْمِنِينَ، فقال: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا المُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ**»[1].

إذن ما دُمْتَ تَسْأَلُ اللهَ أَلَّا يَجْعَلَ فِي قَلْبِكَ غِلًّا، فلا تَفْعَلْ ما يَكونُ سَبَبًا للغِلِّ، لا تَنْهَرْ أَخاكَ، لا تُؤْذِهِ، ولا تَبِعْ عَلَى بَيْعِهِ، لا تَشْتَرِ عَلَى شِرَائِهِ، لا تَخْطُبْ عَلَى خِطْبَتِهِ، حتَّى يَزُولَ عنكَ ما فِي قَلْبِكَ من الحِقْدِ، وحتى يَمْتَنِعَ الحِقْدُ والغِلُّ من قَلْبِكَ.

قولُه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، قالَ العُلَماءُ: ﴿رَءُوفٌ﴾ و ﴿رَّحِيمٌ﴾ معناهما مُتقارِبٌ، لكنَّ الرأفةَ أَشَدُّ من الرحمةِ، يعني: هِيَ رَحْمَةٌ وزِيادةٌ، فمِن أسماءِ اللهِ الرَّؤوفُ، ومن أسمائِه الرَّحِيمُ.

ثم نَتَكَلَّمُ عَمَّا فِي آخِرِ السُّورةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨]. قولُه: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أَمْرٌ بالتَّقْوَى، والتَّقْوَى ذَكَرْناها فِي أَوَّلِ هَذِهِ اللَّيْلةِ، وهي أن تَجْعَلَ بينكَ وبينَ عَذابِ اللهِ وِقَايَةً، وتكونُ هَذِهِ الوقايةُ بفِعْلِ الأوامرِ وَاجْتِنَابِ النَّواهِي.

قولُه: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، أي: ليَوْمِ القيامةِ، انْظُرْ ماذا قَدَّمْتَ،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٨٠).

لا تَنْظُر ماذا قَدَّمْتَ ليَوْمِكَ فِي الدُّنيا، ولكنَّ المُهِمَّ أنْ تَنظُرَ ما قَدَّمْتَ لنَفْسِكَ فِي الآخِرةِ. ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ﴿وَلْتَنظُرْ﴾ بسُكونِ اللامِ، فاللامُ هنا للأَمْرِ، ولامُ الأَمْرِ مكسورةٌ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧]، وسُكِّنَت فِي قولِه: ﴿وَلْتَنظُرْ﴾ لأنها وَقَعَتْ بعدَ الواوِ، ولامُ الأمرِ إذا وَقَعَتْ بعدَ الواوِ، فإنَّها تكونُ مُسَكَّنَةً، وتُسَكَّنُ كذلك إذا وَقَعَتْ بعدَ الفاءِ، وتُسَكَّنُ كذلك إذا وَقَعَتْ بعدَ (ثُمَّ)، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج:١٥]، فاللامُ هنا ساكنةٌ في مَوْضعَيْنِ؛ لأنها وَقَعَت بعدَ الفاءِ، ولأنها وَقَعَتْ بعدَ (ثُمَّ)، وسُكِّنت في قولِه: ﴿وَلْتَنظُرْ﴾ لأنها وقعتْ بعدَ الواوِ. وقولُه: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ [العنكبوت:٦٦]، ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ اللام هنا مَكْسورةٌ؛ لأنَّ هَذِهِ لامُ التَّعْليلِ، فانتبهوا للفَرْقِ، كَثِيرٌ من النَّاسِ وهم قُرَّاءُ وأَئِمَّةٌ نَسْمَعُهم يقولون: وَلْيَتَمَتَّعوا. وهذا لَحْنٌ يُخِلُّ بالمَعْنَى، فلا يجوزُ، بل قُل: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾. وكذلك اللامُ في قولِه: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم:٥٢]، هي لامُ التَّعْليلِ.

إذن اعْرِفوا الفَرْقَ بينَ لامِ التَّعْليلِ ولامِ الأَمْرِ، واعْلَمْ أنك إذا وضعتَ لامَ التعليلِ فِي مكانِ لامِ الأَمْرِ أو بالعكسِ، فإنك لَحَنْتَ لَحْنًا يُحِيلُ المَعْنَى.

إذن قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] أي: ليومِ القِيامَةِ، فإنْ قالَ قائلٌ: كيفَ قالَ الربُّ عَزَّوَجَلَّ: (لِغَدٍ) مَعَ أَنَّه بَعِيدٌ؟

قلنا: إنه قد يُرادُ بالغَدِ ما بعدَ يَوْمِكَ ولو بَعُدَ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨]، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر:١٩]، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: تَرَكُوه، ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي: جَعَلَهم لا يَقُومونَ بمَصالِحِهم، ولهذا أَشَدُّ النَّاسِ تَضْيِيعًا للوَقْتِ هم الَّذِينَ يَعْصُونَ اللهَ، فلا تَجِدُ أَحَدًا خاسِرًا وَقْتَهُ خَسارةً شَدِيدةً، إِلَّا مَن عَصَى اللهَ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف:٢٨]، أي ضَائِعًا، اللهم أَحْيِ قُلوبَنا بذِكْرِكَ، اللَّهُمَّ أَحْيِ قُلوبَنا بذِكْرِكَ- اللَّهُمَّ أَحْيِ قُلُوبَنا بذِكْرِكَ.

قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: تَرَكُوا طاعتَه، ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي: جَعَلَهم يَنْسَوْنَ مَصالِحَهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩]، ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، أي الخَارِجون عن طَاعةِ اللهِ، ومنه قَوْلُهم: فَسَقَت التَّمْرَةُ، إذا خَرَجَتْ عن قِشْرِها، وبَرَزَتْ، فالفِسْقُ هُوَ الخُروجُ عن الطاعةِ.

قولُه: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾، يعني لا يَتَساوَوْنَ، والفَرْقُ: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠]، يعني وأصحابُ النَّارِ هم الخَاسِرُونَ، ولا شَكَّ فِي هذا، فأصحابُ الجنَّةِ هم الفَائِزُونَ، الَّذِينَ فَازُوا بأَعْمالِهم الصَّالِحةِ، والفَوْزُ هُوَ حُصولُ المَطْلوبِ وزَوالُ المَكْروهِ، عَكْسُه أصحابُ النَّارِ.

فإذا كانَ اللهُ تَعالَى نَفَى التَّساوِيَ بينَ أَصْحابِ النَّارِ وأصحابِ الجنَّةِ، فهذا يعني أنّه يَجِبُ علينا أن نَتَّبِعَ أَصْحَابَ الجَنَّةِ.

يا أخي، إنَّ اللهَ تَعالَى لم يُخْبِرْكَ بأنه لا يَسْتَوِي أصحابُ النَّارِ وأصحابُ الجنَّةِ لِتَعْلَمَ هَذَا الخَبَرَ، ولكن لِتَحْمِلَ نَفْسَكَ عَلَى أن تَقُومَ بالعملِ الصَّالِحِ الَّذِي يَجْعَلُكَ

من أهلِ الجنَّةِ -انتبهوا لهذه النقطة- هل أرادَ اللهُ مِنَّا لما قال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾ أن نَعْلَمَ أنَّهم لا يَتساوَوْنَ، أم أرادَ مِنَّا شَيْئًا آخرَ أَهَمَّ، وهو أن نَعْمَلَ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ، وما ذاك عَلَى اللهِ بعزيزٍ، وليسَ علينا بصَعْبٍ إذا يَسَّرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحشر:٢١]، ﴿هَٰذَا﴾ اسْمُ إشارةٍ يُشارُ به للقَريبِ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي الَّذِي بينَ أَيْدِيكُم، ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ وهو الأَصمُّ الصُّلْبُ الصَّعْبُ، ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ أي: لرأيتَ الجَبَلَ، ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ هامِدًا، يَتصَدَّعُ من خَشْيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وذلكَ لِعِظَمِ ما أُنزِلَ عليه، وهو القُرْآنُ، أما لو رَأَى الجبلُ ربَّ العِزَّةِ والجلالِ يكونُ دَكًّا، ولهذا لما قالَ مُوسَى -صلى الله عليه وعلى إخوانِه من المرسلين-: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾؛ لِشِدَّةِ اشتياقِه إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومحبَّتِه له، فقال له: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:١٤٣]، سألَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ربَّه أن يَنْظُرَ إليه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ لا يُمكِنُ، ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣]، انْدكَّ الجبلُ الأَصمُّ الأَشَدُّ، فكيف بِبَنِي آدمَ؟! فإذا كانَ هَذَا الجبلُ لم يَسْتَقِرَّ لرُؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فكيفَ ببَنِي آدَمَ؟! ولهذا قال: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، فلما رَأَى مُوسَى هَذَا الأَمْرَ هَالَه: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾ صَعِقَ مِن هَوْلِ ما رَأَى، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

وهذا لا يُنافِي ما ثَبَتَ بالقُرْآنِ والسُّنةِ وإِجْماعِ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعالَى يُرَى يومَ القِيامةِ، فإنَّه يُرَى لا شَكَّ، ودَلَّ عَلَى هَذَا كتابُ اللهِ وسُنَّةُ رَسولِه صلى الله عليه وعلى

آله وسلم وإجماعُ الصَّحَابَةِ، وهو أنَّ اللهَ فِي القِيامَةِ يُرى رُؤْيةً حَقِيقيةً بالعينِ، ولكن إذا رُئِيَ بالعَيْنِ هل يُدْرِكُه الإِنْسَانُ؟ لا يُدْرِكُه، نَحْنُ الآن نَرَى الشَّمْسَ، فهل نُدْرِكُها بأعْيُنِنا؟ لا، بل إِنَّكَ تَرَى الإِنْسانَ نَفْسَه ولا تَسْتَطِيعُ أنْ تُدْرِكَ مَلامحَهُ كُلَّها أَبَدًا.

نَحْنُ نَرَى الربَّ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ القِيامةِ، ونَسْأَلُهُ سُبْحانَه أَلَّا يَحْرِمَنا وإياكم من هَذِهِ الرُّؤْيَةِ يَوْمَ القيامةِ، لكن لا نُدْرِكُه، ولهذا يُعْطِي اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ قُوَّةً فائقةً لا يَتَصَوَّرُها الإِنْسَانُ، فأَدْنَى أهلِ الجنَّةِ مَنْزلةً مَن يرى مُلْكَه مَسِيرَةَ أَلْفَيْ عامٍ، يَرَى أَقْصاهُ كما يَرَى أَدْنَاهُ[1]، هل باستطاعتِنا نَحْنُ أن نُدْرِكَ هَذَا فِي الدُّنيا؟ لا.

إذن الآخرةُ أحوالُها أحوالٌ أُخْرَى، فالنَّاسُ يومَ القيامةِ يَرَوْنَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لكنْ لا يُدْرِكُونَه؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣].

القُرْآنُ لو نَزَلَ عَلَى جَبَلٍ لَانْدكَّ الجَبَلُ: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾. قُلوبُنا الآنَ -ونحن نَقْرَأُ القُرْآنَ- هل هِيَ تَخْشَعُ حتَّى تَتَصدَّعَ؟ لا، كَثِيرٌ من النَّاسِ اليومَ يَقْرَأُ القُرْآنَ بلِسانِه، ولكنه لا يَقْرَؤُه بقَلْبِه، ولهذا قَلَّ تأَثُّرُ القارئين للقرآنِ بالقُرْآنِ؛ لأنَّ كَثِيرًا منهم يَقْرَؤُونَ بأَلْسِنَتِهم فَقَطْ، نَسأَلُ اللهَ أن يُعِينَنا وإِيَّاكم عَلَى استحضارِ مَعَاني القُرْآنِ الكريمِ والخُشوعِ عندَ قِراءَتِه.

قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، الربُّ عَزَّوَجَلَّ يَضْرِبُ الأمثالَ للنَّاسِ حتَّى يَتَذَكَّروا ويَتَفَكَّروا فِي هَذِهِ الأُمورِ، وهناك أمثلةٌ أخرى سِوَى هَذَا فِي القُرْآنِ الكريمِ، كقولِ اللهِ تَعالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ﴾ [الحشر:١٥]. وكقولِه تَعالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ

(١) أخرجه أحمد (٨/ ٢٤٠، رقم ٤٦٢٣).

أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧]، وكقولِه تعالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]، وكقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي اليهودِ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥]، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُبيِّنُ الأمورَ المَعْقولةَ بالأُمورِ المَحْسوسةِ، وهذا تَقْرِيبٌ للمَعاني.

أَلَمْ تَعْلَموا أنَّ اللهَ تَعالَى ضَرَبَ مَثَلًا للبَعْثِ بالمَطَرِ يَنْزِلُ عَلَى الأرضِ وهي هَامِدَةٌ، فإذا هِيَ خضراءُ؟! ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣]. وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾، يعني: هامدةً ما فيها نباتٌ، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

المُهِمُّ أنَّ ضَرْبَ الأمثالِ من طَريقةِ القُرْآنِ؛ لأنها تُقَرِّبُ المَعانِيَ، إذ إِنَّ تَصوُّرَ الإِنْسانِ للأُمورِ المَحْسوسةِ أَقْرَبُ من تَصوُّرِه للأُمورِ المَعْقولةِ، فلهذا يَذْكُرُ اللهُ تَعالَى الأمثالَ لِيُقَرِّبَ للنَّاسِ المَعَانِيَ المَعْقولةَ، ثمَّ قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:٢٣] إِلَى آخِرِه، يَجِبُ أنْ نَعْلَمَ قَواعِدَ مُهِمَّةً فِي أسماءِ اللهِ، أَوَّلًا: أسماءُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أعلامٌ وأوصافٌ، العَلَمُ ما يُعَيِّنُ المُسَمَّى، والوَصْفُ مَعْنًى زائدٌ عَلَى التَّعْيِينِ، فمَثَلًا نُسَمِّي الأَسَدَ هِزَبْرًا، والضِّرْغامَ، هَذِهِ أَعْلامٌ تُعَيِّنُ مُسَمَّاها، نَعْرِفُ إذا قُلْنَا: الهِزَبْرُ أو الضِّرْغامُ، أنَّه الأَسَدُ، لكنْ هناك أَسماءٌ تُفِيدُ مَعْنًى آخَرَ غيرَ

الدَّلالةِ عَلَى المُسَمَّى، وهي جَمِيعُ أسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنَّها أَعْلامٌ وأَوْصَافٌ، وليستْ مُجَرَّدَ أَعْلامٍ، كما قالَه المُعتزِلةُ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ دَلالاتِها عَلَى صِفَاتِ اللهِ، بل هِيَ أعلامٌ وأَوْصَافٌ.

أَضْرِبُ لكم مَثَلًا: العَلِيمُ مِن أَسْماءِ اللهِ، والوصفُ الَّذِي تَضَمَّنَه العِلْمُ، لَيْسَ العَلِيمُ مُجَرَّدَ اسْمٍ فَقَطْ، بل هُوَ اسْمٌ وصِفَةٌ، فأسماءُ اللهِ -إذن- أعلامٌ وأَوْصافٌ. ومعنى قولِنا: أَعْلامٌ، أنها دَالَّةٌ عَلَى ذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومعنى قولِنا: أَوْصَافٌ، أنها تَحْمِلُ مَعْنًى يَدُلُّ عليه الاسْمُ، ولا يَتِمُّ الإيمانُ إِلَّا بأنْ تُؤْمِنَ بأنها أَعْلامٌ وأَوْصَافٌ، فلو آمنتَ بأنَّ السميعَ مِن أسماءِ اللهِ فَقَط دُونَ أن تُؤْمِـنَ بأنه يَتَضَمَّنُ السَّمْعَ، فـإنك لم تُؤْمِن به، لا بُدَّ أنْ تُؤْمِنَ بالاسْمِ وبما دَلَّ عليه من صِفَةٍ، فالخَالِقُ في الدَّلالةِ عَلَى اللهِ وعلى صِفَةِ الخَلْقِ، والرازقُ في الدَّلالةِ عَلَى اللهِ وعلى صِفَةِ الرِّزْقِ، والغَفورُ في الدَّلالةِ عَلَى اللهِ وعلى صِفَةِ المَغْفِرَةِ... وهُلَمَّ جَرًّا، فهي أعلامٌ وأَوْصَافٌ، هَذَا وَاحِدٌ.

القاعدةُ الثَّانيةُ: أنَّ أسماءَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ غيرُ مَحْصورةٍ بعَدَدٍ مُعَيَّنٍ لا تَزِيدُ عليه، فنحن لا نُدْرِكُها كُلَّها، فقد أَعْلَمَنا اللهُ تَعَالَى بشَيْءٍ من أَسْمائِهِ، واسْتأثَرَ بعلمِ أَسْماءٍ أُخْرَى، ويَدُلُّ لهذا حديثُ عبدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ في دعاءِ الهَمِّ والكَرْبِ: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ**»(١). الشَّاهِـدُ من هَذَا قولُه: «**اسْتَأْثَرْتَ به فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ**». فإن استئثارَ اللهِ بعِلْمِ الشَّيْءِ، يعني أنَّه لَيْسَ مَحْصورًا، ولا يُمْكِنُنا حَصْرُه.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٢، رقم ٤٣١٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠، رقم ٢٩٣١٨)، والطبراني (١٠/ ١٦٩، رقم ١٠٣٥٢)، وصححه الحاكم (١/ ٦٩٠، رقم ١٨٧٧).

وأَمَّا قولُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1]، فالمعنى أنَّ مِن أسمائِهِ هَذَا العَدَدَ الَّذِي إذا أحصاهُ الإِنْسَانُ دَخَلَ الجنَّةَ.

وهنا سُؤالٌ، وهو: هل أَسْماءُ اللهِ تَوْقِيفيَّةٌ أم قِياسِيَّةٌ، بمعنى: هل أسماءُ اللهِ يُقْتَصَرُ فيها عَلَى ما وَرَدَ ولا يُقاسُ عليه، أم هِيَ قِياسيةٌ؟ الجوابُ بالأَوَّلِ، وهو أَنَّ أسماءَ اللهِ تَوْقِيفيَّةٌ، فليسَ لنا أن نُسَمِّيَ اللهَ بما لم يُسَمِّ به نَفْسَه؛ لأنَّ اللهَ أَعْلَمُ بنفسِه وبغَيْرِه، فلو كانَ له هَذَا الاسمُ لَأَنْزَلَهُ فِي كِتابِهِ، فأسماءُ اللهِ إذن تَوْقِيفِيَّةٌ، لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يُحدِثَ اسْمًا من أسماءِ اللهِ لم يُسَمِّ به نَفْسَه لا فِي القُرْآنِ ولا فِي السُّنَّةِ، وأَهَمُّ شيءٍ من هَذِهِ القَوَاعِدِ أَنْ نَعْلَمَ أنَّ أسماءَ اللهِ أَعْلامٌ وأَوْصَافٌ.

حَسَنًا، نَبْدَأُ بما تَيَسَّرَ من الكلامِ عَلَى هَذِهِ الأسماءِ الموجودةِ فِي آخِرِ سُورَةِ الحَشْرِ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر:٢٢]، ﴿ٱللَّهُ﴾ هُوَ أصلُ الأسماءِ وأعمُّها وأَشْمَلُها، ولهذا تَجِدُ السُّنَّةَ جاءَت به، مثل: قالَ اللهُ تَعالَى. اسْتَبْدَلَها بعضُ النَّاسِ بكلمةِ: قالَ الحَقُّ، ولا شَكَّ أَنَّ اللهَ هُوَ الحقُّ المُبِينُ، لكن لماذا نَعْدِلُ عن طريقِ السَّلَفِ، وهو قَوْلُهم: قالَ اللهُ تَعالَى، ونأتي بـ: قَالَ الحَقُّ؟

دلالةُ اسم (اللهِ) عَلَى الربِّ عَزَّوَجَلَّ أَبْلَغُ فِي القُلوبِ من دَلالةِ الحَقِّ؛ لأَنَّ فيه الأُلوهِيَّةَ الَّتِي هِيَ العبادةُ، أما الحقُّ ففيها أَنَّ اللهَ هُوَ الحقُّ الثابتُ والحَقِيقَةُ الَّذِي لا شَكَّ فيه، لكنه لَيْسَ كدَلالةِ اللهِ عَلَى العِبادَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار، والشروط التي يتعارفها الناس بينهم، رقم (٢٥٨٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالَى وفضل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧).

المُهِمُّ أنَّ التعبيرَ بـ(قال الله) أحسنُ من التعبير بـ (قال الحق)، ففي القرآنِ: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح:١٥]. وفي السُّنةِ: قالَ اللهُ تَعالَى: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ**»[1]. والأمثلةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ.

ومَعْنَى اسمِ (اللهِ) كما قالَ العُلَماءُ: ذُو الأُلوهِيَّةِ عَلَى الخَلْقِ، أي: إِنَّه هُوَ المَعْبودُ حَقًّا، فكلُّ ما عُبِدَ من دُونِه فإنَّه بَاطِلٌ، وأما عِبادةُ اللهِ فهي حقٌّ، ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه:٩٨]، هَذَا نَفْيٌ للشِّرْكِ، فلا مَعْبودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ.

﴿المَلِكُ﴾ وهو أَبْلَغُ من المَالِكِ، ولهذا جاءَ لما أُطْلِقَ (المَلِك) دُونَ المَالِكِ، لكن فِي الفَاتِحَةِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، هَذِهِ مُقَيِّدة، مَعَ أنَّ فيها قِراءةً سَبْعيةً: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لكن (المَلِك) أَعْظَمُ؛ لأنَّ (المَلِك) يعني ذَا السُّلْطانِ، والمالِكُ لا تَعْنِي السُّلْطان، ولهذا كُلُّنا يَمْلِكُ، أنا أَمْلِكُ ثِيابي هذه، وأنتَ تَمْلِكُ ثِيابَكَ، لكن هل نَحْنُ مُلوكٌ بمَلْكِنا لِثيابِنا؟ لا؛ لأنَّ لَيْسَ لنا سُلْطانٌ، فالمَلِكُ أَعْظَمُ من المَالِكِ؛ لأنَّه يَتَضَمَّنُ المِلْكَ وزِيادةً، وهي السُّلْطَةُ.

قولُه: ﴿القُدُّوسُ﴾ أي: ذُو القَداسَةِ، وهي الطَّهَارَةُ والنَّزاهَةُ عن كلِّ عَيْبٍ.

قولُه: ﴿السَّلَامُ﴾ أي: السَّالِمُ من كلِّ عَيْبٍ، ومن كلِّ نَقْصٍ، كانَ الصَّحابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم يقولونَ: السَّلامُ عَلَى اللهِ مِن عِبادِهِ، السَّلامُ عَلَى جِبْرِيلَ ومِيكَائِيلَ، فَنَهاهُم الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ يقولوا: السَّلامُ عَلَى اللهِ من عِبادِهِ؛ لأنَّ اللهَ هُوَ السَّلامُ، وإنما يُدعى بالسلامِ لمن يُمْكِنُ أَنْ يَلْحَقُه نَقْصٌ، أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فإنَّه السَّلامُ الَّذي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، رقم (٨٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، رقم (٧١).

لا يَلْحَقُه النَّقْصُ، ولهذا لا يَجوزُ أن تَقولَ: السَّلامُ عَلَيْكَ مِنِّي يا رَبِّي، أو: السَّلامُ عَلَى اللهِ من عِبَادِهِ. فهَذَا حَرَامٌ؛ لأنكَ إذا قلتَ هَذَا أوهمتَ أنَّ اللهَ يُمْكِنُ أن يَلْحَقَه النقصُ، وليس كذلك.

وكانوا يقولون: السَّلامُ عَلَى جِبْرِيلَ ومِيكَائِيلَ، فنهاهم النَّبِيُّ ﷺ أن يقولوا: السَّلامُ عَلَى اللهِ من عِبَادِهِ. ثمَّ أَرْشَدَهم إِلَى أن يُبْدِلُوا كلمةَ «**السلامُ عَلَى جِبْرِيلَ ومِيكَائِيلَ**» بما هُوَ أَعَمُّ، فقال: «**قُولُوا السَّلامُ عَلَيْنَا وعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّكُم إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ، سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ والأَرْضِ**»(١)، أَيْ عَلَى جَمِيعِ المَلائِكَةِ، وعَلَى جَمِيعِ الصَّالِحِينَ مِن بَنِي آدَمَ، وعَلَى جَمِيعِ الصَّالِحِينَ مِن الجِنِّ؛ لأنَّ فِي الجِنِّ صَالِحِينَ، كما جاءَ في قولِه تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن:١١]، وكما أنَّ فيهم صَالِحِينَ، فلا بُدَّ أنْ يَكُونَ فيهم مُسْلِمون، كما جاء في قولِه تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن:١٤]، إذن فِي الجِنِّ مُسْلِمُونَ، وفي الجِنِّ صَالِحُونَ، وهم أعلى مِن المُسْلِمِينَ.

إذن قولُ المُصَلِّي: «**وعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**»، يَشْمَلُ كلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ، ويَشْمَلُ الأُمَمَ الصَّالِحَةَ من قَبْلُ؛ لقولِه ﷺ: «**عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ والأَرْضِ**» المَوْجودين والذين تُوُفُّوا من قبلُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢).

الدَّرسُ الثَّالِث:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمدٍ خَاتَمِ النبيِّينَ وإمامِ المتَّقينَ، وعلى آلِه وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ**:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر:١١].

الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعجيبِ، يعني اعْجَبْ لهؤلاءِ القومِ، والخطابُ إما للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ وإمَّا لكلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه منَ المُكَلَّفِينَ العُقَلاءِ، وإذا احتملَ اللفظُ القرآنيُّ مَعْنيينِ أَحَدُهما أخصُّ قُدِّمَ الأعمُّ؛ لأنَّ الأَعَمَّ يدخُلُ فيه الأخصُّ، والأخصُّ لا يدخُلُ فيه الأعمُّ. وعلى هذا فيكونُ التعجيبُ هنا شاملًا لكلِّ إنسانٍ يُمكِن أن يُوَجَّهَ إليه الخِطابُ، أي ألم تَرَ أيها المُخاطَبُ إلى حالِ هؤلاء، اعجَبْ لها! ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ أي صاروا مُنافقينَ.

ما هو النفاق؟

النِّفاقُ هو إظهارُ الإسلامِ وإبطانُ الكفرِ، يعني أن الإنسانَ يُظهِرُ أنه مُسْلِمٌ وهو في الحقيقةِ كافرٌ، هذا هو النفاقُ، وأوَّلُ ما حَدَثَ النفاقُ في الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ وبَزَغَ نَجْمُه بعدَ غَزوةِ بدرٍ، وغزوةُ بَدْرٍ كانت في السَّنةِ الثانيةِ من الهجرةِ، في شهر رَمَضَان، وقد ظَهَرَ فيها النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ على عَدُوِّه ظُهورًا بيِّنًا، فقتلَ صناديدَ قُرَيشٍ وكُبَراءَهم، وعلا فيها صوتُ الإسلامِ حينئذٍ، وظَهَرَ النفاقُ؛ لأنه قبلَ

ذلك كانَ الناسُ قِسمينِ؛ كَافِرًا خالِصًا يُعلِنُ كُفرَه ولا يبالي، ومُسْلمًا خالِصًا يُعْلِنُ إسلامَه، فلما ظَهَرَ الإسلامُ بعدَ غَزْوةِ بدرٍ خافَ المنافقونَ على أنفسِهم، فخادعوا اللهَ ورسولَه، وقالوا: نُعلِنُ أننا مسلمونَ وهم في الحقيقةِ كافرونَ، كما قال اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى في أَوَّلِ سورةِ البقرةِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]، أي: في قُلوبِهم.

لكن لماذا يَصْنَعون هذا؟

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٩]؛ لأن الرَّجُلَ إذا سَمِعَهم يقولون هذا القولَ وسَمِعَهم يَتشدَّقون به؛ ظنَّ أنهم على حقٍّ؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ تُعجِبُكم أجسامُهم بهيئتِهم، وكأنهم مِن أَصْلحِ عبادِ اللهِ، وهم المُفسِدون في أرضِ اللهِ، ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤]؛ لأنه قولٌ بيانيٌّ بَليغٌ قويٌّ، فيَسْمَعُ الإنسانُ لقولِهم لكنهم كذَّابون.

قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة:٩]؛ لأنهم لَعِبوا على أنفسِهم، فظَنُّوا أنهم بهذه الطريقِ نَجَوْا؛ لأنهم إذا ﴿لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤]، فظَنُّوا أنَّهم يُرضُون هؤلاءِ باللسانِ، ويُرضون هؤلاء بالجَنانِ؛ أي: بالقلبِ.

هؤلاء المنافقونَ أضرُّ على الإسلامِ منَ الكافِرينَ الخُلَّصِ؛ لأنَّ الكافرَ يُعلِنُ أنه كَافِرٌ ولا ينخدِعُ به أَحدٌ، ويُعْرَفُ مَنزِلَتُه في الدينِ ولا إشكالَ في حالِه، لكنَّ البلاءَ كلَّ البلاءِ في قومٍ يُخادعون، يقولون: إنهم مسلمونَ وهم كاذبونَ.

والعَجَبُ أنهم إذا جاءوا إلى الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، أكَّدوا الكلامَ بالشهادةِ و(إنَّ) واللامِ، فقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ حقًّا، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]، شَهادةٌ ضِدُّ شهادةٍ، وشهادةُ اللهِ أَعْظَمُ من شهادةِ المنافقينَ: (يَشْهَدُ) مقابل (نَشْهَد)، و(إنَّ المنافقينَ) مُقابل (إنكَ لَرسولُ اللهِ)، و(لَكاذبونَ) مقابل مُقتضَى قولِه: «نَشهَد إنك لَرسولُ اللهِ».

فالمُنافِقُ أضرُّ على الإسلامِ منَ الكافرِ الخالِصِ، وقد عَقَدَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مَدارِجِ السالكينَ)[1] فَصْلًا عَجيبًا جدًّا في وَصْفِ المُنافِقِينَ وخِداعِهم وضَرَرِهم على الإسلامِ.

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليَهودُ؛ لأن المدينةَ فيها ثلاثُ قَبائِلَ من اليهودِ: بنو قَيْنُقَاعَ، وبنو النَّضِيرِ، وبنو قُرَيْظَةَ، وهؤلاء الطوائفُ من اليهودِ جاؤُوا من أرضِ الشامِ؛ لأن أصلَ بني إسرائيلَ كان في الشامِ، لكنهم قَرَؤُوا في التَّوْراةِ والإنجيلِ أنه سيُبْعَثُ نبيٌّ ويكونُ الظُّهورُ له، والغَلَبَةُ له، ويكونُ مُهَاجَرَه المَدِينةُ؛ أرضٌ سَبِخَةٌ ذاتُ نَخيلٍ، فطبَّقوا هذا على المدينةِ، وجاءت هذه القَبائِلُ لتكونَ معَ هذا النبيِّ الذي سيُبعَثُ ويكونُ له الغَلَبَةُ والنُّصرةُ.

إذن وُجودُ اليهودِ في المدينةِ حادثٌ وليسَ بأصيلٍ، والسببُ أنهم يَنتظرون هذا النبيَّ الذي ستكونُ له الغَلَبَةُ؛ كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ

---

(١) (١/ ٣٥٤).

عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة:٨٩]، يعني يقولون: سَنَنْتَصِرُ عليكم باتِّباعِ هذا الرسولِ، فجاءَ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإذا الرسولُ من العَرَبِ، وعرَفوا أن هذا هو الرَّسولُ نفسُه، ولكنَّ اليهودَ فيهم تلك الطَّبيعةُ الخَبيثةُ، وهي الحَسَدُ، وقالوا: لا يُمْكِنُ أن نَتَّبِعَ هذا الرجلَ الذي هو من بَنِي عمِّنا، فحَسَدوه.

والرسولُ ابنُ عمِّ اليهودِ، ونحن العربُ أَبْناءُ عمِّ اليهودِ، وما أكثرَ العداوةَ بينَ أولادِ العمِّ، حتى في القبائلِ الصغيرةِ تَجِدُ أولادَ العمِّ دائمًا في خِصامٍ ونِزاعٍ إلا أنْ يَشاءَ اللهُ.

المُهِمُّ أنَّ هؤلاء المُنافِقِينَ قالوا ﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾، وَعَدُوهُمُ الوعدَ الكاذبَ؛ لئن أُخْرِجْتُم من المدينةِ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكم، ولا نَبْقَى في المَدينةِ بعدَكم، ولا نُطِيعُ أحـدًا أبدًا في تَخَلُّفِنا عنكم مهما كان هذا القائـلُ، وإنْ لم تُخْرَجوا ولكن قُوتِلْتُم لَنَنْصُرَنَّكم، فوَعَدوهم بأشياءَ ثلاثةٍ.

فقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ ردًّا على هذا التعهُّدِ وهذا المِيثاقِ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، سُبحانَكَ رَبَّنا وبحمدِك، إنَّ كلامَ اللهِ لا يَحتاجُ إلى إثباتٍ، فمُجرَّدُ الخبرِ المحضِ من اللهِ يكونُ حقًّا صِدقًا؛ لكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يأتي بالمُؤكِّداتِ في أخبارِه حتى تَطْمَئِنَّ النفوسُ، ولأنَّ القرآنَ يجري على مُقتضَى كلامِ العربِ، وهو تأكيدُ ما يحتاجُ إلى تأكيدٍ؛ قال: ﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، في هذه الجملةِ ثلاثةُ مُؤكِّداتٍ: الشهادةُ، و(إنَّ)، واللامُ.

فأكَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ كَذِبَ هؤلاءِ المنافقينَ بمُؤكِّداتٍ ثلاثةٍ، ثم قال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾، وهذا مُقابِلُ قولِهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ

فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

قولُه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾؛ لأن المُنافِقَ يُحِبُّ الحياةَ حُبًّا شديدًا، ويَكْرَهُ الموتَ كَراهةً شديدةً، وإذا دُعِيَ للقتالِ فلا يَخْرُجُ بسهولةٍ، ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ يعني على تقديرِ أنْ يَخْرُجوا مَعَهم لِنُصْرَتِهم ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ يَنهزِمون؛ لأن المنافقَ كشجرةٍ اجتُثَّتْ من فوقِ الأرضِ ما لها من قَرارٍ، ما يَثْبُت أبدًا.

ولا يَخفَى على مَن له إلمامٌ بالتاريخِ ما حَصَلَ من المُنافقينَ في غزوةِ أُحُدٍ، خَرَجَ النبيُّ ﷺ في غَزْوةِ أُحُدٍ بنَحْوِ ألفِ مُقاتِلٍ، وتَخَلَّفَ عنه في الغَزْوِ منافقونَ كثيرونَ؛ لأنهم لا يُرِيدون أن يُقاتِلوا، فهم واليهودُ أذلُّ مَن يَكونُ في القتالِ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ لأنه إذا وَلَّى بعضُ الجيشِ الدُّبُرَ خُذِلَ الباقونَ، ولهذا كانَ التولِّي يومَ الزَّحْفِ من كبائرِ الذنوبِ، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أن وَعْدَ المنافقِ كاذِبٌ، وأن المنافقَ معَ الكافرِ، لا معَ المُؤمنِ، فهو معَ المؤمنينَ في ظَاهِرِهِ لكنَّ باطنَه مع الكفَّارِ.

وفيها أيضًا دَليلٌ على أنَّ المنافقَ صاحبُ غَدْرٍ وخيانةٍ، حتى لو شارَكَ الإنسانَ في مَبْدَأِ أمرِه فسوفَ يَخْذُلُه، يَقولُ: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

ولهذا جاء في الحديث: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ**» يعني علامات المُنافقينَ ثلاثٌ

علاماتٍ: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»(١)، هكذا جاء في الحديثِ، ومِن ثَمَّ صارَ الكذِبُ من علاماتِ المُنافقينَ، وهو من كبائرِ الذنوبِ.

وقد حَذَّرَ النبيُّ ﷺ من الكذبِ، وقال: «إِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»(٢).

فاحْذَرْ يا أخي المسلِمُ مِنَ الكذِبِ، وكنْ صادقًا ولو على أُمِّ رأسِكَ، والصادقُ ناجٍ في الحالِ أو في المآلِ. وإياكَ والكذِبَ، حتى في مُخاطبةِ الصِّبيانِ، فلو قلتَ للصبيِّ وهو يَصِيحُ ويَبْكِي: اسْكُتْ وسأُعْطِيك حَلاوةً، وسكتَ ولم تُعْطِهِ فإن هذا يُعْتَبَرُ كذِبًا، وهو تدريسٌ للكذِبِ؛ لأنك تُرَبِّي الطفلَ على إخلافِ الوعدِ والكذِبِ، فإيَّاكَ والكذِبَ، حتى لو نَجَوْتَ بكذِبِكَ أَوَّلَ مرَّةٍ فلن تَنْجوَ بكذبِك ثانيَ مرةٍ.

توبةُ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا:

ولعلَّنا نُلِمُّ بشيءٍ يَسيرٍ من قصةِ الثلاثةِ الذينَ خُلِّفُوا(٣) وصَدَقوا اللهَ ورسولَه، ماذا حَصَلَ لهم من العاقبةِ الحميدةِ، وهم كَعْبُ بن مالِكٍ، وهِلالُ بنُ أُميَّةَ، ومُرارةُ ابنُ الرَّبيعِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩]، وما ينهى عن الكذب، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩).

دعا النبيُّ ﷺ الصحابةَ إلى غزوةِ تبُوكَ في أطرافِ الشامِ، وصرَّح بأنه يُريدُ هذه الغَزوةَ، مع أنه في العادةِ إذا أرادَ غزوةً وَرَّى بغيرِها، فإذا أَرادَ أن يَذْهَب إلى الشَّمالِ أظهرَ أنه يُريدُ الجنوبَ مثلًا، لكن في غَزوةِ تبُوكَ لِبُعْدِ المُسافةِ، وشِدَّةِ الحرِّ، أخبرَ بالواقعِ صراحةً، وهو يُخبِرُ بالواقعِ صراحةً لكن أحيانًا يكونُ صَراحةً، وأحيانا يكونُ تَوْرِيةً، وإلا لا يُمْكِنُ أن يَكذِبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولـمَّا أخبرَ بصراحةٍ، خَرَجَ مَن خَرَجَ، وتخلَّفَ مَن تَخلَّفَ من المنافقينَ، بَعُدت عليهم الشُّقَّة، يعني المَسافَة، وتخلَّفوا، وتخلَّف من الصحابةِ الخُلَّصِ ثلاثةٌ: هِلالُ ابنُ أُميَّةَ، وكعبُ بنُ مالِكٍ، ومُرارةُ بنُ الرَّبيعِ. وكانَ كَعْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَشَدَّهم وأجلدَهم وأَشَبَّهُم.

رجَعَ النبيُّ ﷺ من تبُوكَ، وتعلمون أنه لم يَحْصُلْ غزوةٌ، لكنَّها كُتِبتْ غزوةً وإنْ لم يُقاتِلْ. وكان من عادتِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا قَدِمَ من الغزوةِ أن يَجْلِسَ في المَسْجِدِ يَتَلَقَّى الناسَ، فجاءَ المُنافقونَ يَعتذِرون، كلٌّ يأتي بعُذرٍ، وكان النبيُّ ﷺ لا يَعلَمُ الغيبَ، فيأْخُذُ بظواهِرِهِم، ويَكِلُ سَرائِرَهم إلى اللهِ، ويَستغفِرُ لهم؛ لأنه ﷺ لا يَعلمُ ما في القلبِ، والمنافقون يقتنعون بهذا؛ أن الرسولَ ﷺ يَستغفِرُ لهم، ويَحسَبون أنهم على شيءٍ.

وكعبُ بنُ مالكٍ لَـمَّا حَضَرَ أَخْبَرَ بالصراحةِ، وقال لرسولِ اللهِ ﷺ: «**وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا**»، يعني أستطيعُ أن أُجادِلَ «**وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ**».

اللهُ أكبرُ! إنه الإيمانُ واليقينُ يا إخواني؛ لأنَّ اللهَ يَعْلَمُ السِّرَّ وأخفَى، قال:

أُعْلِمُك بالواقعِ، إني لم أكن أشدَّ من هذه الغزوةِ ولا أقوى ولا أغنَى، عندي راحلتانِ؛ بعيرانِ، ولكن قَدَرُ اللهِ وما شاءَ فعَلَ.

فقال النبيُّ ﷺ: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ**». فمشى خُطُواتٍ، فقامَ إليه نفرٌ من قومِه، وقالوا له: وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَلَّا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكَ.

قال كَعْبٌ: «**فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلانِ، قَالا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُما مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، وَهِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ، قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي**».

فهَجَرهم رسولُ اللهِ ﷺ وأَمَرَ المسلمينَ أن يَهْجُروهم، فهَجَرَهم الناسُ، وصاروا يُسلِّمون فلا يُردُّ عليهم السلامُ، ولا يُكلِّمُهُم أحدٌ، حتى كانوا على الوَصْفِ الذي ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١١٨]. فعندَ الفَرَجِ يكونُ الانفتاحُ.

فبينَما كانَ كعبُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَمْشِي في أَسْواقِ المَدينةِ، وإذا برجلٍ يَسْأَلُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ. يقولُ كعبٌ: حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ، وَلا مَضْيَعَةٍ، فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ.

والله إِنَّها لَفِتْنَةٌ عظيمةٌ، رجلٌ مَهْجورٌ لا يُسَلِّمُ عليه أحدٌ حتى يقولَ: وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلامِ عَلَيَّ أَو لا. وهذا مِن شِدَّةِ الهَجْرِ.

المُهِمُّ جاءه هذا الكتابُ، وماذا تقولون لو جاءَ الكتابُ إلى واحدٍ منَّا في مثلِ هذه الحالِ؟ اللهُ أعلمُ، على كلِّ حالٍ إن لم يُثَبِّتْنا اللهُ قلنا: نَذهَبُ إلى هناك ونَصِيرُ هناك ملوكًا، لكنَّ الإيمانَ إذا وَقَرَ في القلبِ -واللهِ- ما تُزَحْزِحُه الرِّياحُ العاصفةُ؛ فقد ذَهَب كعبٌ بالوَرَقَةِ وأَحرَقَها وسَجَرَ بها التَّنُّورَ؛ خوفًا من أن تَتَعَلَّقَ بها نفسُه بعده فيُغْوِيَهُ الشيطانُ ويقولَ: اذْهَبْ إلى هذا، فأَحْرَقَها رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ نهائيًّا حتى تَتَقَطَّعَ علائقُ قلبِه بها. وهذا واللهِ الإيمانُ.

وفي يوم من الأيامِ يقولُ: «مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ».

فسلَّم على ابنِ عَمِّه وهو من أحبِّ الناسِ إليه ولم يَرُدَّ عليه السلامَ، مع أنَّ ردَّ السلامِ واجبٌ، لكنَّ اللهَ تَعالَى ما اختارَ لنبيِّه إلا أكملَ الخلقِ من الأتباعِ، وهم أصحابُ الرسولِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ. وكلمة: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ» جملة خَبَرِيَّة تُفِيدُ المَعْنَى، وهي كَلِمةٌ مُطْلَقةٌ، فلم يَقُل أبو قتادةَ: لا ولا نعم؛ لأنه لو قال: لا أو نَعم فقد تكلَّمَ.

وبعدَ تَمامِ أربعينَ ليلةً أرسلَ إليهم مَن هو بالمُؤْمِنينَ رَؤُوفٌ رحيمٌ أن يَعتزِلوا

نِساءَهم. إلى هذا الحدِّ؛ زَوْجاتُهم اللاتي جَعَلَ اللهُ بينَهنَّ وبينَهم مَودَّةً ورحمةً أمَرَهم ﷺ أنْ يَعْتزلوهنَّ، فقال كَعْبٌ: «**أُطَلِّقُها؟ أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟**». فقال الرسولُ الذي أَرْسَلَه الرسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لا، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلا تَقْرَبْهَا**». فقال كعبٌ لزوجتِه: «**الحَقِي بِأَهْلِكِ، فتكُونِي عِنْدَهُمْ، حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَـذَا الأَمْـرِ**». أما الآخرانِ فكانا كبيرينِ، فاستأذَنا من الرسولِ ﷺ أن تَخْدُمَهُما زَوْجَتاهما بدون أيِّ استمتاعٍ، فأَذِنَ لهما للضرورةِ.

وبعدَ هذا بَقُوا عَشَرةَ أيامٍ فأكمَلوا الخمسينَ، وكعبُ بنُ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد ضَاقَتْ به الأرضُ، وهو يَخْرُجُ ويَروحُ ويصلِّي في المسجدِ ويُسلِّمُ على الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا يَدْرِي هل ردَّ عليه السلامَ أو لا، أما الآخرانِ فاستكانا في بُيوتِهما يَبْكيانِ طولَ الليلِ والنهارِ، وكعبٌ جَلْدٌ وشابٌّ لكن في النهايةِ صارَ لا يَستطِيعُ أن يُقابِلَ الناسَ، فصَارَ يُصَلِّي في بيتِه، يقولُ: «**فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ**».

قال كَعْبٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ -رَسُولُ اللهِ ﷺ- بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا، بِبُشْرَاهُ، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ،

وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ».

قَالَ كَعْبٌ: «حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، وَلا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ».

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ؛ لأَنَّه ﷺ بالمؤمنين رؤوفٌ رَحِيم: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**».

وفي هذا دَلِيلٌ على ثُبوتِ التَّهنئةِ بكلِّ ما يَسُرُّ، فالتهنئةُ لها أصلٌ، سواءٌ لِوَلَدٍ، أو حُصولٍ على مالٍ، أو حُصولٍ على نتيجةٍ بنجاحٍ، أو زَواجٍ، فنُهَنِّئُ فيها، وما يُقال: هذا بِدْعةٌ، فكلُّ شيءٍ يُسَرُّ به الإنسانُ فإنه يُهَنَّأُ عليه بأيِّ حالٍ.

على كلِّ حالٍ ماذا حَصَلَ بهذه القِصَّةِ العجيبةِ، وهي الصدقُ معَ اللهِ ورسولِه؟

أنزل اللهُ فيهم كِتابًا يُتلَى إلى يوم القِيامَةِ، سِيرة إذا قرأها الإنسانُ له بكلِّ حرفٍ حَسَنَةٌ، والحسنةُ بعَشْرِ أمثالِها، سِيرة تُقْرَأُ في صلاةِ الفرضِ والنافلةِ، ولم يَحْصُلْ هذا لأحدٍ، فنحن لا نَقرَأُ في القُرآنِ سيرةَ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ، وهم أفضلُ من كعبٍ لا شكَّ، لكن معَ ذلك لا، فهذه الخَصِيصة الَّتي حَصَلَتْ لهؤلاء الثلاثةِ كُلُّها بأَثَرِ الصِّدقِ.

فعليك يا أخي بالصِّدْقِ، واترُكِ الكذِبَ، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ**

حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا»(١).

والصِّدِّيقِيَّة ثاني مَرْتبةٍ في طَبَقاتِ بَنِي آدمَ؛ لأنَّ طَبقاتِ بني آدمَ أربعُ مراتبَ، ذكَرَها اللهُ في قولِه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء:٦٩]. فإذا كانَ الإنسانُ يَستعمِلُ الصِّدقَ وَيَصْدُقُ كلَّما حدَّثَ، كُتِبَ عندَ اللهِ صِدِّيقًا، اللَّهُمَّ اجْعَلْنا منَ الصدِّيقين يا ربَّ العالمينَ.

نَعودُ إلى قِصَّةِ المُنافِقِينَ فنقولُ: المنافقونَ كَذَبَةٌ، والمنافقونَ خَوَنَة، والمنافقونَ في الدَّرْكِ الأسفلِ منَ النارِ، فاحْذَرِ النِّفاقَ، وكُنْ مُوفيًا بالوعدِ، صَادقًا في القولِ، أمينًا في الخُصومة.

وإنَّ من العَجَب أن بعضَ السُّفهاءِ الَّذِي دُهشوا واندَهشوا وانبهروا بالغَرْبِيِّينَ كان الواحدُ منهم إذا أراد أن يُؤَكِّدَ الوَعْدَ يَقولُ: وعد إنجليزيّ، لا باركَ اللهُ في الإنجليزِ ولا وَعْدِهِم، تَذهَبُ إلى وعد إنجليزيٍّ وتَنْسَى وعدَ المؤمِنِ! سُبْحَانَ اللهِ! لكنَّ الظاهرَ أن مثلَ هذا لا يَدْرِي عن الإيمانِ شَيئًا حتَّى يَعرِفَ أن الوفاءَ بالوعدِ وَعْدُ مُؤْمِنٍ، والإنجليزُ وأمثالُهم منَ الكَفَرةِ الفَجَرَةِ إنْ صَدَقُوا في شيءٍ فقد كَذَبُوا في أشياءَ، ولم يَصْدُقوا إلَّا لمصلحتِهم المادِّيَّة فقطْ؛ لأنهم يقولون وهم عُقلاءُ عَقْلَ إدراكٍ ويَعرِفونَ: لا يُمكِنُ أن يَجتَمِعَ حَشَفٌ(٢) وسُوء كِيلَة، فما يَجتمِعُ أنْ يَبيعَ تمرًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وما ينهى عن الكذب، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧).

(٢) الحشَف: أردأ التمر. مختار الصحاح (حشف).

حَشَفًا والكيلُ مَبْخُوس، فإذا كان حَشَفًا فزِدْ في الكيلِ حتَّى يُجْبِر هذا، أما أن يجتمِعَ الحشفُ وسُوء الكِيلة فهذا ما هو طيِّبٌ، هم يقولون: لا يُمكِنُ أنْ يَجْتمِعَ كُفرٌ وسُوءُ معاملةٍ، فنُصلِحُ المُعاملةَ حتَّى تُغطِّيَ مَساوئَ الكُفرِ.

والآن العُمَّال الَّذِينَ يأتوننا سواءٌ كانوا على مُسْتَوًى عالٍ من العمالةِ والهندسةِ أو غير ذلك، إذا كانوا كفارًا فإنك تَجِدُهم يُحْسِنُون العملَ تمامًا؛ لسببينِ:

السبب الأوَّل: أن يُضفِيَ على مَساءتِه وعَيبِه هذه الحسنةَ حتَّى يَخفَى كُفْرُه أمامَها.

السبب الثاني: قفل البابِ أمامَ العمَّالِ المُسلمينَ؛ لأن ضَعيفي الإيمانِ يُفَضِّلُونَ الآنَ العمالةَ الكافرةَ، ويقولون: إنَّهم أنصحُ، وهذا قد يكونُ حقًّا وصِدقًا.

فيَعدِل مَن يريدون الدنيا عن العمالةِ المسلمةِ إلى عمالةٍ كافرةٍ، معَ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠].

وقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

فعليك يا أخي بالصدقِ والوفاءِ بالوعدِ، وإذا أردتَ أن تُؤَكِّده فلا تَقُلْ لصاحبِكَ: وعد إنجليزيٍّ، بل تقول: وَعْد مُؤْمِن، والمؤمنُ -واللهِ- يَفي بوعدِه امتثالًا لأمرِ اللهِ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٤]، وتَقرُّبًا إلى اللهِ وتخلُّقًا بالأخلاقِ الإسلاميَّة.

أما الكذِبُ فيقولُ بعضُ النَّاسِ: إنَّ الكذِبَ يَنقسِمُ إلى قِسْمينِ: أبيضَ وأسودَ!

انْظُر إلى هذا الفِقهْ الفارِقِ الخارِقِ. وما عَلِمنا بهذا، فالكذِبُ كلُّه أسودُ، وليسَ فيه أبيضُ، لكنهم يقولون: إذا كانَ الكذِبُ يَتَضَمَّنَ أكلَ المالِ بالباطلِ فهو أسودُ، وإنْ كان لا يَتضمَّنُ ذلك فهو أبيضُ، فاكذِبْ ما شئتَ ومتى شئتَ وأين شئتَ!

وهذا غيرُ صحيحٍ، لكنَّ الكذِبَ إذا تَضمَّنَ أكلَ المالِ بالباطِلِ ازدادَ ظُلْمًا إلى ظُلمِه، وقُبحًا إلى قُبحِه، ولهذا كانَ الَّذي يَكذِبُ في دَعْوَى يَدَّعِيها على أخيهِ ويحلِفُ عليها كانت يَمِينُه غَمُوسًا، ويَلقَى اللهَ تَعَالَى وهو عليه غَضْبَانُ، والعياذُ باللهِ.

أسألُ اللهَ أن يَجْعَلَنا وإياكم منَ الصادقينَ معَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومع عِبَادِ اللهِ، حتَّى نكونَ مع الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عليهم.





سورة الصف

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قَالَ تَعالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الصف:١٠].

التِّجارَةُ: كلُّ ما يُعامِلُ به الإنسانُ غيرَه لِيربَحَ منْه، ولا أعظَمَ من رِبْحِ الإيمانِ والعَمَلِ الصالِحِ؛ لأن رِبْحَ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ مَضمونٌ ومُضاعَفٌ أضْعَافًا كثيرةً؛ فإنَّ اللهَ تَعالَى يقولُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، ويقولُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل:٨٩]، ويقولُ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]، فالتِّجارَةُ التي عرَضَها اللهُ علينا تِجارَةٌ رابِحَةٌ يَقِينًا، وليسَ رِبْحًا قَلِيلًا بل هو رِبْحٌ مُضاعَفٌ أضعَافًا كثيرةً، وليسَ رِبْحًا فانِيًا، بل هو رِبْحٌ باقٍ دائمًا وأبدًا، وليسَ رِبْحًا في زمانٍ مَخْصُوصٍ، ولا في مَكانٍ مَخْصُوصٍ، بل هو رِبْحٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ.

وتأمَّلُوا عبادَ اللهِ قولَ اللهِ تَعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ فليسَ هناكَ أحدٌ في الدُّنْيا أكثرَ نَعِيمًا ولا أطْيَبَ حياةً مِنَ المؤمنينَ الذين يَعمَلُونَ الصالحاتِ. ولهذا قالَ بعضُ السَّلَفِ: لو عَلِمَ المُلوكُ وأبناءُ المُلوكِ ما نَحْنُ فيهِ لجَالَدُونا عليهِ بالسُّيوفِ[١]. فهذا الَّذِي في قُلوبِ المؤمِنِينَ العامِلِينَ للصالحَاتِ، هو في الحقيقَةِ طُمأنينَةٌ وانشراحٌ ورِضًا وسُرورٌ دائمٌ.

وقال تَعالَى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢]، إن ورَدَتْ عليهِ الأحكامُ قَبِلَها بانْشراحٍ، إن أصابَتْهُ الضَّراءُ صبرَ فكانَ خَيْرًا له، وإن أصابَتْهُ السَّراءُ شَكَرَ فكان خيرًا له، كما قالَ ذلِكَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[٢]، فإذا صَبَرَ أنزلَ اللهُ على قلبِهِ الثَّباتَ والطمأنينَةَ وصارتْ هذه المُصيبَةُ التي تُزَلْزِلُ الجِبالَ لم تُؤَثِّرْ فيه شَيئًا، أما مَنْ فَقَدَ الإيمانَ والعمَلَ الصالِحَ فإنه إذا نَزَلَتْ به المَصائِبُ، فإنه -والعياذُ باللهِ- يَضْجَرُ ويَسْأمُ إلى حَدٍّ أنه يَبْلُغُ به الأمرُ إلى أن يَنْحَرَ نفْسَهُ، فيَكُونَ -كما قِيلَ- كالمُستَجِيرِ من النارِ بالرَّمضاءِ -والعياذُ باللهِ-، فيَنْتَقِلُ من هذه الدنْيا التي عَجَزَ عن الصبْرِ على مَصَائِبِهَا إلى مَصائبَ أعظَمَ وأشدَّ، إلى عذابِ النَّارِ وبئسَ المَصِيرُ، فهؤلاءِ الَّذِينَ يَنْتَحِرُونَ ويتخَلَّصُونَ من الدُّنْيا تخَلَّصُوا من شَرٍّ إلى أَشَرَّ منْه؛ لأنه ما مِنْ إنسانٍ يَقْتُلُ نفسَهُ بشيءٍ في الدُّنيا إلا كانَ يَقتُلُ نَفْسَهُ به في نارِ جهنَّمَ خالِدًا مخلَّدًا فيها أبدًا[٣].

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقاق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في قاتل النفس، رقم (١٣٦٣)، ومسلم: كتاب الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٠).

وأما غيرُ المؤمِنِ فإذا أصابَتْهُ السرَّاءُ والنِّعَمُ اتَّخَذَ ذلِكَ سَبيلًا إلى الأشَرِ والبَطَرِ والكِبْرِ والفَخْرِ -والعياذُ باللهِ- والخُيلاءِ والاستِطَالَةِ على الخلْقِ بغيرِ حَقٍّ؛ فيكونُ بذلِكَ -والعياذُ باللهِ- خاسِرًا في الدُّنْيا والآخِرَةِ.

قولُه -جل ذِكْرُه-: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾، هَذِه التجارَةُ التي عَرَضَها علينا مولَانا جَلَّوَعَلَا هي أعْظَمُ تِجارَةٍ، ولهذَا قالَ: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فهذِهِ فائدَةٌ عظِيمَةٌ أنها تُنْجِي المرءَ من العَذابِ الأليمِ، وهي -واللهِ- الغِبْطَةُ، أن ينْجُوَ الإنسانُ من عذابٍ أليمٍ.

واللهُ تَعالَى يقولُ: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر:٩]، فاليومُ نَفْسُهُ عسيرٌ جِدًّا، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠]، أما عَلَى المُؤمِنِ، فإن هذا اليوم العَسِيرَ يومَ القيامَةِ يكونُ يَسِيرًا عليه حتَّى كأنَّما أدَّى صلاةً مفرُوضَةً من يُسْرِهِ عليهِ، فاللَّهُمَّ يَسِّرْهُ علينا يا ربَّ العالَمِينَ .

﴿تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف:١٠-١١]، بدَأَ اللهُ تَعالَى في بَيانِ هذِهِ التجارَةِ فقالَ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، والإيمانُ: هُوَ الإقرارُ معَ القَبولِ والإذْعانِ، لا بُدَّ من إقرارٍ باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، على حَسَبِ ما سَبَقَ بيانُهُ، من أنَّ هذا الإقرارَ لا بُدَّ أن **يتَضمَّنَ أربعةَ أُمورٍ**:

الإقرارَ بوُجودِ اللهِ، وبِرُبوبِيَّتِهِ، وبأُلوهِيَّتِهِ، وبأسمائِهِ وصِفاتِهِ، وقد تقَدَّمَ الكلامُ على ذلك .

أما الإيمانُ بالرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فأنْ تُؤمِنَ بأنَّه رسولُ ربِّ العالمِينَ إلى الخَلْقِ أجمعينَ، فتُصدِّقَهُ فِيما أخْبَرَ، وتَفْعَلَ ما بِهِ أمرَ، وتَجْتَنِبَ ما عنه زَجَرَ.

ثم قالَ: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، أي: تَبْذُلونَ الجُهْدَ في سبيلِ اللهِ، أي: في الطريقِ الَّذِي تُريدُونَ به إعلاءَ كَلِمَةِ اللهِ، وأن يُقاتِلَ المرءُ أعداءَ اللهِ لِتكونَ كلِمَةُ اللهِ هي العُلْيَا، لا لأجلِ أن يَستَرِدَّ وطنَهُ من أجلِ أنه وَطَنُهُ فقط، ولكن ليَسْتَرِدَّ وطنَه من أجلِ أن يُقِيمَ عليه شَريعَةَ اللهِ التي أبْطَلَهَا أولئك المُعتَدُونَ، هذا هو الجهادُ في سَبيلِ اللهِ.

وقولُه تَعالَى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، فيه دَلِيلٌ على أن الجهادَ يكونُ بالمالِ ويكونُ بالنَّفْسِ، على حسبِ استِعْدادِ المرءِ لذلِكَ، فإذا كانَ الإنسانُ من ذَوِي الأموالِ ولكنَّه ضَعيفُ البَدَنِ كان فَرْضُه الجهادَ بالمالِ، وإذا كانَ مِنْ ذَوِي الإعْدامِ ولكنَّه قَوِيُّ البدَنِ كان فرضُه الجهادَ بالنَّفْسِ، وإذا كانَ جامِعًا للأمرين: الغِنَى بالمالِ والقُوَّةِ في البَدَنِ، كان فرْضُه الجهادَ بالمالِ وبالنَّفْسِ على حَسَبِ ما هو مُفَصَّلٌ في السُّنَّةِ وفي كلامِ أهلِ العِلْمِ.

ومن الجهادِ في سبيلِ اللهِ أن يُساعِدَ الإنسانُ بالمالِ إخوانَه الذين يُجاهِدُونَ لتَخْلِيصِ بِلادِهِمْ من استعمارِ المشْرِكينَ؛ لأجلِ أن يُقِيمُوا عليها شَرِيعَةَ الإسلامِ، فهؤلاء الذين يقاتِلُونَ أعداءَ اللهِ الذين احتَلُّوا بلادَهُم من أجلِ أن يُخَلِّصُوها منهم حتى يُقِيمُوا بها مِلَّةَ الإسلامِ، هم مُجاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ، وصَرْفُ الأموالِ إليهم مِنَ الجِهادِ في سبيلِ اللهِ، سواءٌ صَرَفْتَ ذلك مِنَ الزكاةِ أو تَبَرُّعًا من عِندِكَ فإن الكلَّ من الجهادِ في سبيلِ اللهِ بالمالِ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الصف:١١]، قولُه: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مُطْلَقٌ، يَعني من كلِّ شيءٍ، فالإيمانُ والجهادُ في سبيلِ اللهِ بالمالِ

والنَّفْسِ خيرٌ للإنسانِ مِنَ الدُّنْيا وما فِيهَا، وقد أشارَ اللهُ إلى هذا المعْنَى بقولِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١]، وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد:٣٣]، وقالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد:٣٦]، وقالَ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ [محمد:٣٨]، ذَكَرَها اللهُ تعالَى بعدَ الأمرِ بالجهادِ في سَبيلِهِ لِيُبَيِّنَ أن الإنسانَ الذي لا يُجاهِدُ في سبيلِ اللهِ إنَّما يَمْنَعُهُ من ذلك دُنْياهُ، سواءٌ مالُه أو بَقاؤُه، فبَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّما الحياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ ولَهْوٌ زائلٌ لا يَبْقَى، أما الجهادُ في سبيلِ اللهِ فإنه هو البَاقِي، ولهذا قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُنَا: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١١]، فنَتِيجَتُهُ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف:١٢]، ولم يَقُلْ: مِنْ ذُنُوبكُمْ، لأن (مِنْ) للتَّبْعِيضِ، ولكن قالَ: ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾؛ لأن الجهادَ يُكَفِّرُ كلَّ شيءٍ، فإذا قُتِلَ الإنسانُ شهيدًا في سبيلِ اللهِ تَعالَى فإنه يُكَفَّرُ عنه كلُّ شيءٍ، إلا الدَّينَ فإنَّ الدَّينَ لا يُكَفَّرُ، ولا يَبْطُلُ بقَتْلِ الإنسانِ في سبيلِ اللهِ، بل لا بُدَّ أن يُعْطِيَ صاحِبَهُ حقَّه .

قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، جناتٌ، وليستْ جنَّةً واحِدَةً، وإنما هي جِنانٌ كثيرةٌ عظيمَةٌ، أعلاهَا الفِرْدوسُ الذي فوقَهُ عرشُ الرحمنِ جَلَّجَلَالُهُ.

هذه الجِنانُ العظيمَةُ قالَ عنْها النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إنَّ في الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ**»[1]، ولهذا قالَ: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم (٢٧٩٠).

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، جناتٌ فِيها مَا لا عَيْنٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بشَرٍ، يَنْعَمُ الإنسانُ فيها فلا يَبْأَسُ، ويَصِحُّ فيها فلا يَمْرَضُ، ويَشِبُّ فيها فلا يَهْرَمُ، ويَحْيَا فيها فلا يَمُوتُ، فيها قُرَّةُ العَيْنِ، وفيها النَّظَرُ إلى الرَّبِّ جَلَّجَلَالُهُ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢]، يَعْنِي: حَسَنَةٌ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣] أي: يَنظُرُ المُؤمنونَ إلى رَبِّهِمْ جَلَّجَلَالُهُ عِيانًا بأبصارِهِمْ كما قالَ نَبِيُّنا ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**»(١)، وفي روايةٍ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»(٢). ساكِنُو هذه الجِنانِ هُم مَن أَنْعَمَ اللهُ عليهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ، محمَّدٍ وإبراهيمَ وموسَى ونوحٍ وعِيسَى ابنِ مريمَ، وإخوانِهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ وأولياءِ اللهِ المُتَّقِينَ وحِزْبِهِ المُفلِحِينَ، هؤلاء هم ساكِنُوها .

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: مِنْ تحتِ قُصُورِهَا وأشجارِهَا، وما فيها مِنَ النَّعِيمِ العظِيمِ. وهذه الأنهارُ لا تَحْتاجُ إلى رئيسٍ يَرْأَسُها، ولا تَحْتاجُ إلى عُمَّالٍ يُوَجِّهُونها، ولا إلى حُفَرٍ أو أَخاديدَ تَمْنَعُها، ولهذا قالَ ابنُ القَيِّمِ في نُونِيَّتِهِ المشهورةِ قالَ(٣):

أَنْهَارُهَا فِي غَـيْرِ أُخْـدُودٍ جَـرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِـكُهَا عَـنِ الفَيَضَـانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تَعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٥).

(٣) نونية ابن القيم (ص:٣٢٦).

فأنهارُ الدُّنْيا تَجْرِي ويُوَجِّهُها الإنسانُ حيثَ شاءَ إذا شاءَ، يُوجِّهُ هذا النهرَ الجارِيَ إلى ما يُرِيدُ وهكذا.

وأَنْهارُ الجنَّةِ عَظِيمَةٌ وهي أرْبَعَةُ أنواعٍ كما أَخْبرَ ربُّنا تَبارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: أي غيرِ مُتغَيِّرٍ، لا يتغَيَّرُ بطولِ المُدَّةِ، و﴿لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بحُموضَةٍ ولا مَرارَةٍ، ولكنه في غايَةِ ما يكونُ مِنَ الحَلاوَةِ واللَّذَّةِ، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ما فِيهَا إلا اللَّذَّةُ فَقَطْ، لا فِيها غَوْلٌ ولا هُمْ عنها يُنْزَفُونَ، لا تَغْتالُ العقولَ ولا تُصَدِّعُ الرؤوسِ ولكنَّها لذَّةُ كامِلَةٌ خالِصَةٌ، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ ليسَ فيهِ شَمْعُ النَّحْلِ ولا أذاهُ، ولكنه عَسَلٌ صفَّاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وهذه الأنهارُ تجْرِي من تحتِ القُصورِ والأشجارِ، وفيها الأرائكُ والسُّرُرُ، والمؤمنون على الأرائكِ مُتَّكِئونَ، ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٧-٥٨].

هذه الفاكِهَةُ وهذِه الثِّمارُ وهذه الأَشْجَارُ متَى نَظَرَ الإنسانُ إلى وَاحِدَةٍ منْها واشتهَاهَا فإن الغُصْنَ يتدَلَّى حتى تكونَ الثَّمَرَةُ بينَ يَدَيهِ فيأْكُلَها من غيرِ تَعَبٍ، وهذَا واللهِ غايَةُ النَّعِيمِ.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [الصف:١٢]، مساكِنُ: صيغَةُ منْتَهى الجُموعِ، يعني: مساكِنَ كثيرةً متعَدِّدَةً للمؤمِنِ، فيها سبعونَ خَيمَةً من لؤلؤٍ مجوَّفَة، فهي مساكِنُ طيِّبةٌ، كلُّ مَسْكَنٍ فيها أكثرُ راحةً من المَسْكَنِ

الآخَرِ، وكلُّها مَساكِنُ مُرِيحَةٌ، ولهذا وصَفَهَا اللهُ بالطِّيبِ، **فهي** طَيِّبَةٌ من جميعِ الوُجوهِ، فيها نساءٌ مُطَهَّرَاتٌ، أزواجٌ مطهَّرَةٌ، وخدَمٌ بحسبِ ما يقولُ أسيادُهُم، إذا رأيتَ هؤلاءِ الخَدَمَ حَسِبْتَهم لُؤلؤًا منثُورًا لجَمالِهِمْ وكمالِهِمْ وكثْرَتِهِمْ، إذا كان هؤلاءِ الخدَمُ تَحْسَبُهم لُؤلؤًا منثُورًا فما بالُ أَسيادِهِمْ الذين سكَنُوا هذه الدارَ، أسألُ اللهَ لي ولَكُمْ أن يَجْعَلَنا وإياكُمْ من ساكِنِيهَا. آمين يا رَبَّ العالمِينَ.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾: الجُملَةُ هنا جملَةٌ خَبَرِيَّةٌ اسمِيَّة، المبتدأُ فيها معْرِفَةٌ والخَبَرُ فيها معرفَةٌ، ومثلُ هذه الصِّيغَةِ تَقتَضِي الحَصْرَ، أي: كأنَّه لا فَوْزَ عظيمٌ إلا هذا الفوزُ، وهذا هو الحَقُّ فذَلِكَ الفوزُ العظِيمُ.

بعدَ ذلك قالَ تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ [الصف:١٣]، بعدَ أن ذَكَرَ نَعِيمَ الآخِرَةِ ذَكَرَ نعيمَ الدُّنْيا، فقالَ: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾، الأُخْرَى التي نُحِبُّهَا هِيَ ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾، والإنسانُ يُحِبُّ ذلك، كَما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾، يَعْنِي: الكُفَّارَ ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:١٤]، فكَمْ مِنْ قَلْبِ مُؤمِنٍ يَحتَرِقُ من الغَيظِ على الكُفَّارِ، يَوَدُّ أن يَقتُلَهُم، فإذا أباحَ اللهُ له رِقابَهَمُ ونِساءَهم وأَموالَهمُ وذَرارِيَّهم كان في ذلك قُرَّةُ عَيْنٍ، ولهذا يَقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ [الصف:١٣]، نَصْرٌ علَى أعدائِهِ، وفَتْحٌ لبلادِهِ، حتى يَتِمَّ لكُمْ أن تَكُونوا كَما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ [الأحزاب:٢٧].

فالمُهِمُّ: أن هَذِهِ الأُخْرَى التي نُحِبُّها هِيَ النَّصْرُ مِنَ اللهِ والفتحُ القَرِيبُ. ولكِنْ يَا إِخْوانِي المسلِمِينَ، انظُرُوا هل نَحْنُ من أهلِ البِشَارَةِ؟

وقوله تَعالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يَقُلْ: وبَشِّرِ المسلِمِينَ، بل قال: بَشِّرِ المؤمنينَ؛ لأن البُشْرَى للمُؤمِنِ، أمَّا المُسلِمُ فإنه أقَلُّ حَالًا مِنَ المُؤمِنِ، ولهذا قالَ اللهُ تَعالَى عَنِ الأعرابِ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات:١٤].

أما القُرآنُ فإنَّ اللهَ تعالَى قالَ: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل:١٠٢]، ولكِنَّ النَّصْرَ للمؤمنينِ، فالقرآنُ يَهتَدِي بِهِ المُسلِمُونَ والمؤمنون، لَكِنَّ النَّصْرَ للمُؤمِنِينَ فَقَطْ، فاللهُ قالَ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم:٤٧]، ولم يَقُلْ: نَصْرُ المسلِمِينَ، ولهذا يَجِبُ أن نَعرِفَ ما هذَا الإيمانُ الذي بشَّرَ اللهُ تَعالَى أهلَهُ؟

الإيمانُ أَمرٌ عظِيمٌ، نَضرِبُ مَثَلًا واحدًا؛ لِنتَبَيَّنَ هل نَحْنُ مسلمونَ أو مُؤمنون؟

قال رسولُ اللهِ ﷺ «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[١]، فلو طَبَّقْنَا هذا عَلَى المُسلِمِينَ هُنا في هذَا المكانِ، فهَلِ الإنسانُ مِنَّا يُحِبُّ لأخيهِ مَا يُحِبُّهُ لنَفْسِهِ؟ أَعتَقِدُ أن الجوابَ بالنَّفْيِ إلا مَن شاءَ اللهُ، ولهذا تَجِدُ الإنسانَ الآن يُزاحِمُ الطائِفِينَ في المَطافِ، لِيُصَلِّيَ في المطافِ، معَ أَنَّه لا حَقَّ له أن يُصَلِّيَ في المطافِ، ما دامَ الطائفونَ مُحتاجِينَ إليه، ولهذا بدَأَ اللهُ بالطَّائِفِينَ فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[الحج:٢٦]؛ لأن الطائفَ ليسَ له مَحَلٌّ إلا ما حَولَ الكعبَةِ، أما المُصَلِّي فكُلُّ المَسجِدِ الحَرَامِ لهُ مُصَلًّى، فلماذا إذن يُصَلِّي مُضَيِّقًا على المسلِمِينَ مَطافَهُم بلا وَجْهِ حقٍّ، فهذا ليسَ مُؤمِنًا؛ لأنه لم يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه، رقم (٤٥).

مثالٌ آخرُ: يتَقَدَّمُ المُسلِمونَ بعدَ الطوافِ إلى مَقامِ إبراهِيمَ ليُصَلُّوا فيه رَكْعَتينِ اقْتِدَاءً بالنبيِّ ﷺ فيَجِدُونَ على رُؤُوسِهِمْ أقوامًا معَهم كُتُبٌ يَدْعُونَ اللهَ فِيهَا بأصواتٍ مُرْتَفِعَةٍ، يُشَوِّشُونَ على المُصَلِّينَ، ويُؤذُونَهُم، وما أَجْدَرَ المصَلِّي بأنْ يدْعُوَ عَلَى هؤلاء أن يَنتَقِمَ اللهُ مِنهم وقد آذَوْهُ، وقدْ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

وخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ على أصحابِهِ وهُمْ يَجْهَرُونَ بالقراءةِ فقالَ: «**كُلُّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ فَلَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي القُرآنِ**»، أو قالَ: «**فِي القِرَاءَةِ**»(١).

هؤلاءِ يَقِفُونَ على رُؤُوسِ المُصَلِّينَ عندَ مَقامِ إبراهِيمَ ويَدْعُونَ بهذِهِ الكُتَيِّبَاتِ بأصواتٍ مُرْتَفِعَةٍ فيُؤذُونَ المُسلِمِينَ معَ أن الوُقوفَ في هَذَا المَكانِ للدُّعاءِ- أَقولُ وأُكرِّرُ- بِدْعَةٌ، وأنه مُخالِفٌ لهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ، فلم يَقِفِ النَّبِيُّ ﷺ عندَ مَقامِ إبراهيمَ ولا لَحْظَةً واحِدةً، والوقوفُ للدُّعاءِ مُنْكَرٌ وبِدْعَةٌ، وليسَ بشَرِيعَةٍ ولا سُنَّةٍ، ولكنْ -مع الأسف- الناسُ يَقْتَدِي بعْضُهم ببعضٍ، ويُقَلِّدُ بعضُهم بَعْضًا على الحَقِّ وعلى الباطِلِ.

فالوَاجِبُ على المُسلِمِينَ أن يكونُوا مُؤْمِنِينَ وأن يَعْبُدُوا اللهَ على بَصِيرَةٍ، ويُفَكِّرُوا هَلْ هذه الأعمالُ التي نَعْمَلُها من دِينِ اللهِ؟ هل مِنْ دِينِ اللهِ أن نَجْعَلَ لكُلِّ شَوطٍ دُعَاءً؟ دُعاء الشوطِ الأوَّلِ والثَّاني والثالثِ إلى آخِرِهِ ؟ هل من دِينِ الله أن نَدْعُوَ بدُعاءٍ لا نَعْرِفُ معناهُ ؟ قومٌ عَجَمٌ لا يعرِفُونَ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ يَقْرَؤُونَ هذا الكُتَيِّبَ لا

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، رقم (١٣٣٢).

يَفْهَمُونَ معنَاهُ، بل كثيرٌ من الَّذينَ يَتكَلَّمُونَ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لا يفهَمُونَ معناهُ، ويدُلُّ على ذلك أَنَّكَ تَسْمَعُهم يُحَرِّفُونَ المَعْنَى ويَقْرَؤُونَ اللَّفْظَ على غيرِ وَجْهِهِ، وتَجِدُ مَن يقولُ وهو مُعْتَمِرٌ: اللَّهُمَّ اجْعَلْه حَجًّا مَبْرُورًا، هؤلاء هلْ عَرَفُوا ما يَدْعُونَ اللهَ بِهِ؟ إذن: يكونُ الواحِدُ منهم كالبَبَّغاءِ يُلَقَّنُ الكلامَ لا يَدْرِي معناه، فالوَاجِبُ أن يَعْبُدَ الإنسانُ رَبَّه على بَصِيرَةٍ، والصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يكُن مَعَهم كُتُبٌ، ولا هَدَاهم الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى الكُتُبِ، بل كلٌّ يَدْعُو وَحْدَهُ، يَدْعُو رَبَّه تَضَرُّعًا وخُفْيَةً، بصوتٍ مُنْخَفِضٍ حاضِرِ القَلْبِ يَدْرِي ما يقولُ، ويَعْرِفُ ما يَدْعُو اللهَ بِهِ، يَطوفونَ كأنَّ على رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ، خاشِعينَ للهِ، لا صُرَاخَ ولا زَعَقَ، ولا أَحَدَ يُشَوِّشُ على أَحَدٍ ولا أحَدَ يُلْهِي أحَدًا، هذه الأمورُ ليستْ في الحقِيقَةِ من أعمالِ السَّلَفِ الصالِحِ، ولهذا يَجِبُ علينا أن نَعْبُدَ اللهَ على بَصِيرَةٍ وأن نَقْتَدِيَ بالسَّلَفِ الصالِحِ.

إذا جاءَنا أحدُ الناسِ وقالَ: طَوِّفُوني، نقولُ له: نَعَمْ، أهلًا وسهْلًا، الآن أنتَ أمامَ الكعْبَةِ اذْهَبْ فابْدَأْ من الحَجَرِ الأسودِ، وقُلْ: باسْمِ اللهِ، واللهُ أكبرُ، ثم انْصَرِفْ عن يَمِينِكَ، واجعَلِ الكعْبَةَ عن يسارِكَ، وطُفْ سَبْعَةَ أشواطٍ، تَذْكُرُ اللهَ وتُهَلِّلُ وتُكَبِّرُ، وتدْعُو اللهَ بِمَا شئتَ، وتَقْرَأُ القُرآنَ إن أرَدْتَ، وتقولُ بينَ الرُّكْنِ اليمانِي والحَجَرِ الأسودِ: ربَّنَا آتِنَا في الدُّنْيَا حسَنَةً وفي الآخِرَةِ حسَنَةً وقِنَا عذابَ النارِ، وكلَّما مَرَرْتَ على الحَجَرِ الأسودِ تُشِيرُ إليه وتَقولُ: اللهُ أكبرُ.

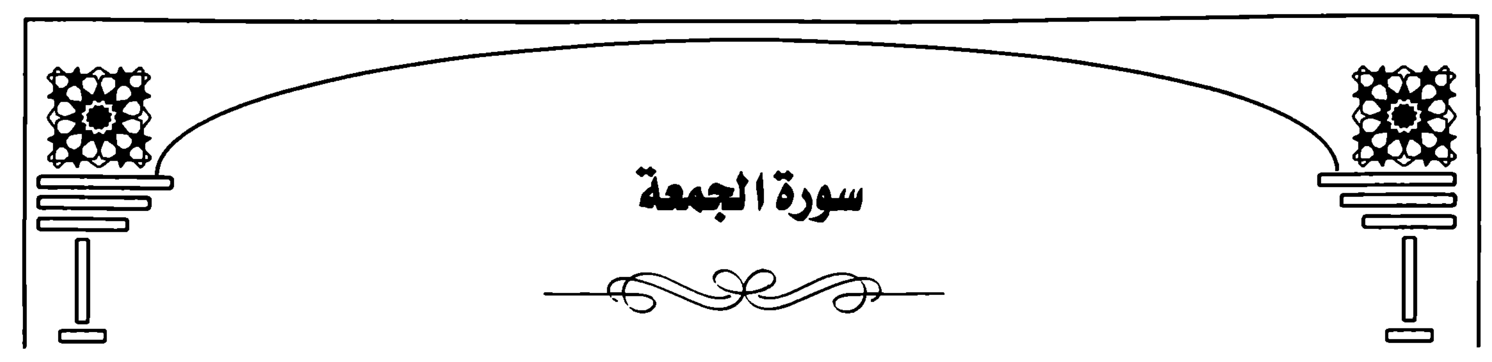
كذلك أيضًا الآن الناسُ يَتَقَاتَلُونَ مُقاتَلَةً شدِيدَةً لاستِلامِ الحَجَرِ الأسودِ، حتى إنَّ الرجلَ يأتِي بنِسائِهِ الشابَّاتِ والعجائزِ يُزاحِمُ بهنَّ الناسَ لأجلِ أن يَسْتَلِمْنَ الحَجَرَ، وهَذَا أيضًا ليسَ مِنَ السُّنَّةِ، فرَسولُ اللهِ ﷺ ما استَلَمَ الحَجَرَ بالمُزاحَمَةِ، معَ أنه

لو وَقَفَ عندَهُ لتَفرَّق الناسُ حتى يَسْتَلِمَ، لكنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أرادَ أن يَشْرَعَ لأُمَّتِهِ، فكانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنْ تيَسَّرَ له استَلَمَهُ وقبَّلَه، وإلا أشارَ إليهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكان مَرَّةً يَطوفُ وهو راكِبٌ ويُشِيرُ إليه بالمِحْجَنِ، والمِحْجَنُ هو عَصَا البَعيرِ التي يَسُوقُها به، وربما يَستَلِمُهُ بالمِحْجَنِ ويُقَبِّلُ المِحْجَنَ، أما إذا أَشارَ إليه فلا يُقَبِّلُ يَدَهُ .

وبعضُ الناسِ يُصَلِّي حَوْلَ الحَجَرِ الأسودِ فإذا سَلَّمَ الإمامُ التسليمَةَ الأُولى قامَ مِنْ فَوْرِهِ قبلَ أن يُسَلِمَ لِيستَلِمَ الحجَرَ الأسودَ، وهذا مِنَ الجهلِ العظِيمِ؛ لأنه أبطَلَ فَريضتَهُ، أبطَلَ صلاتَهُ لأجلِ أن يَفْعَلَ أمرًا قد يكونُ مَشْرُوعًا، وقد يَكونُ غيرَ مَشْرُوعٍ؛ لأن مَشْرُوعِيَّةَ استلامِ الحَجَرِ في الطوافِ فقَطْ، فتَجِدُ هذا الرجلَ يَستَلِمُهُ ويَنْصَرِفُ، فيُضَيِّعُ الفَريضَةَ لأجلِ أن يَفْعَلَ هذا الذي في نَفْسِهِ، والشريعةُ هُدًى وليستْ هَوًى، ليستِ الشَّريعَةُ على ما يُريدُ الناسُ، ولكنَّ الشَّريعَةَ على ما يَرْضاهُ اللهُ ورَسُولُهُ، فأنتَ أيها المرءُ إذا كُنْتَ تُريدُ رِضَا رَبِّكَ والوصولَ إلى كرامَتِهِ فافْعَلْ ما شَرَعَ لكَ، لا تَعْبُدِ اللهَ بالهَوَى، ولكن اعبُدْهُ بالهُدى .

والحاصلُ أنَّ اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالبِشَارَةُ للمُؤْمِنِ، ويَجِبُ علينَا أن نَجتَهِدَ غايَةَ الاجتهادِ لِنَصِلَ إلى دَرجَةِ الإيمانِ بعدَ الإسلامِ حتَّى يتَحقَّقَ لنا هذِهِ البشارَةُ العَظِيمَةُ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.





سورة الجمعة

الدَّرسُ الأوَّل:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

يدَّعِي اليهودُ أنَّهم شَعبُ اللهِ المُختارِ؛ لأنَّ مُوسَى قالَ لَهم: إنَّ اللهَ فَضَّلكم عَلى العَالَمِينَ، فقالُوا: نحنُ المُفَضَّلونَ عَلى العالَمِ، ونحنُ الشعبُ المُختارُ، فَتَحَدَّاهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وقالَ لنبيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة:٦]، فاليهوديُّ لَا يَتَمَنَّى الموتَ أبدًا ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [البقرة:٩٦]، قالَ اللهُ لنبيِّهِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ولكنْ لَا يُمْكِنُ أَن يتمنَّوه؛ وَلِهذا قَالَ: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٧]، مَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَمنوهُ بِما قدَّمت أَيْدِيهم؛ لِأَنَّهم يَعْلمون أَنَّهم لَمْ يُقَدِّموا شَيْئًا يَنْتفعون بِهِ بعدَ الموتِ، وإِذَا لَم يَتَمَنَّوْهُ فَسَيُحاولون بِكُلِّ وَسِيلةٍ أَلَّا يُدْرِكَهمُ الموتُ فَيَفِرُّوا مِنْه فِرَارَهم مِنَ الأسدِ، وإِذَا فَرُّوا منهُ فإِنَّهم لَن يَسْلموا، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]، يَفرُّون مِنْه، لكنَّه يَأْتيهم مِنْ أَمَامِهم، وَالعادَةُ أَنَّ مَنْ فرَّ مِنكَ أَتيته مِنَ الخلفِ، لكنَّ هذَا أشدُّ، فَهم يَفِرُّونَ منَ الموتِ، لكنَّه سَيأْتِيهم

منَ الأمامِ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فتأمَّلْ شأنَ اليهودِ وشأنَ النصارَى، يَتبيَّنْ لكَ ما هُم عَلَيْه منَ العداوةِ والضلالِ والمُشاقَّةِ.

قالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، يُنادى لِلصلاةِ بالأذانِ، هَذا النداءُ المُبارَكُ الذِي أُرِيه بعضُ الصحابَةِ، وعَرَضه على النبيِّ ﷺ وأقرَّهُ، وهُوَ كَلِماتٌ عَظِيمةٌ لَا يَتَّسِعُ المَقامُ لِشَرْحِها لكنَّهُ كَلِماتٌ عظِيمةٌ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ يَعْني بِالأذانِ ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، اسْعَوا: يَعْني بَادِرُوا، ولَيْسَ المرادُ بِالسعيِ الركضَ؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ، فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالوَقَارِ، وَلَا تُسْرِعُوا»[1]، لكنْ يُرادُ بِالسعيِ هُنا فِي قَولِهِ: ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾ المُبادَرَةُ بِالذَّهابِ إِلَيْها، ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وسَمَّى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الخُطْبَةَ والصلاةَ ذِكرًا؛ لأنَّ فِيهما التذكيرَ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ وبِآياتِهِ، والصلاةُ مِنْ أَوَّلِها إِلَى آخِرِها كُلُّها ذِكرٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ جعَلَ اللهُ صَلاتَنا تَنْهانا عَنِ الفحشَاءِ وَالمُنْكرِ ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]، قالَ العُلماءُ: المَعْنى ولِما فِيها منْ ذِكرِ اللهِ أكبرُ، إِذَنْ ذِكرُ اللهِ المرادُ بِهِ الخطبةُ والصلاةُ.

قَوْلُه: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾، أيِ اتْرُكوا البيعَ، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، نَقِفُ عِندَ قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فإذا قَرأتَ الآيَةَ فَقُلْ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار، رقم (٦٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٢).

وَقِفْ، ثُم قُلْ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأَنَّك إِذَا وَصَلْتَ اختلفَ المَعْنَى، إِذَا قلتَ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صارَ المَعْنَى: وإِنْ كُنتم لَا تَعْلمون فلَيْسَ خيرًا لَكُم، وهذَا يَفْسُدُ بِهِ المَعْنَى، فَلَا بُدَّ إِذَنْ منَ الوقوفِ ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ثُمَّ تَقولُ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أَيْ: إِن كُنْتُم منْ ذَوِي العِلْمِ.

البُيوعُ:

البيعُ مَعروفٌ، وهو التَّبايُعُ بَيْنَ الناسِ بِالسِّلَعِ، أمرَ اللهُ تَعَالَى أنْ نَدَعَ البيعَ إِذَا سَمِعنَا أَذانَ الجمعةِ، والمرادُ الأذانُ الثَّانِي؛ لأنَّ الأذانَ الثَّانِيَ هُوَ المعروفُ فِي عهدِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهوَ الذِي يَكونُ بَعدَ دُخولِ الإمامِ، أَمَّا الأذانُ الأولُ، فإنَّه مِن سُنَّةِ الخَليفَةِ الراشدِ عُثْمانَ بنِ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهوَ ثَابتٌ بإقرارِ النبيِّ ﷺ لهُ، الرسولُ أقرَّه، لكنْ لَمْ يُقِرَّه وَهُو فِي قَبْرِهِ، وإِنَّما أَقرَّه بِقَولِهِ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»(١)، وعلَى هَذا فَيكونُ الأذانُ الأَوَّلُ يَوْمَ الجمعةِ مَشْروعًا بِدَلَالَةِ السُّنةِ، وهُو قولُ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»، وعثمانُ بنُ عفَّانَ أحدُ الخلفاءِ الراشدينَ.

ورُبَّما يَقُولُ قَائِلٌ: مَشروعٌ بالقرآنِ أَيضًا؛ لِقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة:١٠٠]، وعثمانُ بنُ عفانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منَ السابقينَ الأولينَ مِنَ المُهاجرِينَ، ولَيسَ هذَا مَوْضِعَ البَسطِ فِي هذهِ المَسألَةِ، لكنَّنا نَقولُ: إنَّ الأذانَ الأولَ يَوْمَ الجمعَةِ سُنَّةٌ، ولَا يُنْكَرُ، وأيُّ إنسانٍ يُنكِرُهُ،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم ١٧١٤٤)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧).

فإنَّنا نقولُ: أَنتَ خيرٌ أمِ الخليفةُ الراشِدُ؟ ثمَّ نَقولُ: أَأَنتَ خيرٌ أمِ الصحابَةُ؟ فَالصحابةُ لَم يُنْكِروا عَلَى عُثمانَ الأذانَ الأولَ فِي جمعةٍ.

ولما أَتَمَّ الصلاةَ فِي مِنًى فِي الحَجِّ أَنْكروا عليْه، أَفَيَظُنُّ هَذَا أنَّ الصحابةَ يَسْكُتون عنِ الأذانِ الأوَّلِ فِي يَوْمِ الجمعةِ، ولَا يُنْكرون عَلى عُثمانَ، وَيُنْكرونَ الإتمامَ؟ أبدًا الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلُّهم ثِقاتٌ، فَإِذَا أَقَرُّوا عُثْمانَ عَلَى الأذانِ الأوَّلِ فِي يَوْمِ الجمعَةِ فَهو حقٌّ.

لَو تَبَايعَ رَجلانِ بَعْدَ أَذَانِ الجمعَةِ الثَّاني كَرَجُلَينِ تبَايعا وَتَقَابَضَا، بَاع عَلَيْه ساعَتَه بِمئةِ رِيالٍ، فَأَعطاه الساعةَ وَقَبَضَ المئةَ رِيالٍ بعْدَ أَن أذَّن، نقولُ: البيعُ باطلٌ، والدليلُ عَلى بُطْلانِه قَوْلُ النبيِّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، وهذَا العَمَلُ لَيْسَ عَلَيْه أمرُ اللهِ وَرَسولِهِ، بَل عليْه نَهْيُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فيكونُ بَاطِلًا، وإِذَا كَانَ بَاطلًا وقَدْ تَمَّ الآنَ التقابضُ، بِحيثُ أخذَ المُشتَرِي الساعةَ، وَالبائعُ أَخذَ الثمنَ، فَنقولُ لِلبائعِ: رُدَّ الثمنَ، ونَقولُ لِلْمُشتري: رُدَّ السِّلعَةَ.

والدليلُ عَلَى أنَّ البيعَ الباطلَ يَجِبُ رَدُّه أنَّه جِيءَ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ بتمرٍ جَيِّدٍ، فَسأَلَ: «**مِنْ أَيْنَ هَذَا؟**»، فَقَالوا: يَا رسولَ اللهِ، كُنَّا نَأْخُذُ الصاعَ بِالصاعينِ، يَأْخذونَ الصاعَ الجَيِّدَ بِالصاعينِ، وَالصَّاعينِ بِالثلاثَةِ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: «**أَوَّهْ عَيْنُ الرِّبَا، لَا تَفْعَلْ**»[2]، معَ أَنَّه مَا فِيه ظلمٌ؛ لأنَّ الصاعَ الطَّيبَ بِالقيمةِ يُساوِي الصَّاعينِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب النجش، رقم (٢٥٥٠)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠١)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب بيع الطعام مثلا بمثل، رقم (١٥٩٤).

فَلا ظُلمَ لكنَّ التَّمرَ بِالتَّمرِ لَا بُدَّ أَن يَكونَ مِثْلًا بمِثْلٍ سواءً بِسواءٍ.

علَى كلِّ حَالٍ، التبايُعُ بعدَ أَذانِ الجمعَةِ الثَّاني بَاطلٌ.

ولوْ تَبَايعتِ امرأتانِ، بَاعتْ إِحداهمَا حُلِيَّهَا عَلَى الأخرَى بِخَمسةِ آلَافِ رِيَالٍ، فَقَبضتِ المُشترِيَةَ الحُلِيَّ وَقَبضتِ البائعةُ الثَّمنَ خَمسةَ آلافِ رِيالٍ، نَقولُ: البيعُ صَحيحٌ.

ولَوْ بَـاعتْ إِحداهمَا سَاعتهَا عَلى الأُخرى بِمِئةِ رَيـالٍ، وسلَّمتِ الساعةَ لِلْمشترِية وَاستَلَمتِ الثمنَ مِنْهَا، فَالبيعُ صحيحٌ، والسببُ أنَّ الجمعةَ غيرُ وَاجبةٍ على النساءِ، وهِيَ وَاجبةٌ عَلى الرِّجالِ، فَالحُكْمُ وَاضحٌ وَالتفريقُ وَاضحٌ.

وَلو تَبَايعَ رَجلانِ مَرِيضانِ فِي المستشْفَى سِلْعةً بَعْدَ أذانِ الجمعَةِ الثَّاني، فَبيعُهما صَحيحٌ؛ لأنَّ الجمعةَ سَاقطةٌ عَنهما.

إِذَنْ نَأخُذُ منْ هَذَا أنَّ البيعَ بعدَ أذانِ الجمعَةِ الثَّاني مِمَّن تَلْزَمُهُ الجمعةُ بِاطلٌ؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**».

فِي وَقْتِنا الحاضِرِ لَو سَمِعْنا مُؤَذنًا يُؤَذِّنُ، وَلَم نَسْمَعِ المُؤَذِّنَ فِي المَسْجِدِ الثَّاني نَقولُ: إنْ كُنتَ تُريدُ الصلاةَ فِي المَسْجِدِ الذِي لَم يُؤَذِّنْ فَالبيعُ صَحيحٌ، وإنْ كُنتَ تُرِيدُ الصلاةَ فِي المسجدِ الَّذي أذَّنَ فَالبيعُ بَاطلٌ.

إمْضاءُ البَيْعِ:

بِمَعْنَى أنَّ الرَّجُلينِ تَبايَعَا شَيئًا واشْتَرطا فِيه الخيارَ، فلَما تقابَلَا بعْدَ نِداءِ الجمعةِ الثَّاني قَالَا: أَمْضَيْنا البيعَ، يعْني لَمْ يَعْقِدَا عقدًا جديدًا، ولَكِنَّهما أَمْضيَا عقدًا سابقًا،

فَالبيعُ صحيحٌ؛ لأنَّ هذَا إمضاءٌ لِعقدٍ سابقٍ، والمنهيُّ عنهُ هُوَ ابتداءُ العقدِ.

ويُقاسُ عَلَى ذَلك مَا إذا أُقِيمتِ الصلاةُ لِغَيْرِ الجمعةِ نَقولُ: إذا أُقِيمت الصلاةُ، فالبيعُ بعدَ الإقامةِ بَاطلٌ عَلى مَنْ تَلْزَمُهُ الجماعةُ، وَالقياسُ هُنا قِياسٌ جَلِيٌّ واضحٌ؛ لأنَّ في كلٍّ مِنْهما إضاعةً لِلواجبِ، فَإذا أُقِيمتِ الصلاةُ والرجلانِ مِن أَهْلِ الجماعةِ حَرُمَ عَليهما أَنْ يَتَبايعا.



الدَّرسُ الثَّاني:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

كانَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ يَقْرَأُ فِي صَلاةِ الجُمُعَةِ بِسُورَتي (الجُمُعَة) وَ(المنافقونَ)؛ لِأَنَّ صلاةَ الجُمُعَةِ كَانَ يَجْتَمِعُ فيهَا أَهْلُ البلدِ فِي مكانٍ وَاحِدٍ، ولمْ تَتَعَددِ الجُمعُ إلَّا فِي القرنِ الثَّالِثِ الهِجْرِيِّ، فكَان أَهْلُ البَلَدِ يُصلُّونَ فِي مَسْجِدٍ واحِدٍ أكثرَ منْ مِئَتي سنةٍ، ثُمَّ حَدَثَ التَّوسُّعُ فِي إنشاءِ الجوامِعِ، ولَا يَجُوزُ إِحْدَاثِ جَامعٍ ثانٍ إِلَّا عندَ الضرورَةِ إذَا كَانَ الأولُ لَمْ يَتَّسِعْ، أَوْ تَباعدتِ البلادُ، أَوْ خِيفتِ الفِتنَةُ، أَو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فكانَ النَّبِيُّ ﷺ يقْرَأُ بِهاتينِ السُّورَتَيْنِ فِي صَلاةِ الجُمُعَةِ؛ **للمُناسبَةِ وَللْأَهميَّةِ:**

أَمَّا المُناسبَةُ: فَفِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [الجُمُعَة:٩].

وَأَمَّا الأَهَميَّةُ: فَالمنافقُونَ الَّذِينَ يَعِيشون بَيْننا يَقُولونَ بِأَلْسنتِهم مَا نَقُولُه بِأَلْسِنتنا، وَيطَّلعونَ عَلَى أسرارِنَا، ونَحْن نَأْمَنُهم وَهُمْ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة:٩].

هَؤُلاءِ المنافِقُونَ أشرُّ وأضرُّ عَلَى الإِسْلامِ والمُسْلِمِينَ مِمَّن أَعْلَنوا كُفْرهم؛ لِأَنَّ مَن أَعْلَنَ كُفْرَه فَهُو عَدُوٌّ ظَاهِرٌ، يَسْهُلُ التَّحرُّزُ مِنْهُ، ويُستعَدُّ لِقِتَالِه أَوْ إِدْخَالِه فِي دِينِ اللهِ، لكنَّ المُشْكِلَ الَّذِي يُخَالِطُكَ، ويَقُولُ مَا تَقولُ وقَدْ أَبْطَنَ الكفرَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة:١٤]،

فهذا هُوَ البلاءُ؛ ولِهذا قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤].

قَوْلُهُ تعالَى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجُمُعَة:٦-٨].

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

يَقُولُ اليَهُودُ: إِنَّهم شَعبُ اللهِ المختارُ، يدَّعُون أنَّهم شَعْبُ اللهِ المختارُ؛ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُمْ: إِنَّ اللهَ فَضَّلكمْ عَلَى العَالَمِينَ، فَقَالوا: نَحْن مُفَضلونَ عَلَى العالَمِ، وَنَحنُ الشعبُ المختارُ، فَتحدَّاهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فقالَ لِنَبيِّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾، فَلَا تَظُنَّ أَنَّ اليَهُوديَّ يَتمَنى الموتَ أبدًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [البقرة:٩٦].

وَقَالَ لِنَبيِّهِ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتمَنَّوْه بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهم؛ لِأَنَّهُمْ يعْلَمون أَنَّهم لَمْ يُقدِّمُوا شَيئًا يَنْتَفعون بِهِ بعدَ الموتِ، فَلَنْ يتَمنَّوْه، وَإِذَا لَمْ يَتَمنَّوْه فَسَيُحَاولون بكلِّ وَسِيلةٍ أَلَّا يُدْرِكَهم الموتُ، ويَفِروا منهُ فِرَارَهم منَ الأسدِ، وَإِذَا فَرُّوا منْهُ، فَإِنَّهُ مُدْرِكُهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى

تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾، والعادةُ أنَّ مَن فرَّ منك أَتَيْتَه مِنَ الخلفِ، لكنَّ هَذَا أشدُّ، فَالموتُ يَفِرُّون منْهُ لَكِن سَيأْتِيهِم منَ الأمَامِ، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فتَأَمَّلْ شَأنَ اليَهُودِ وَشَأْنَ النَّصَارَى يَتَبيَّنْ لَك مَا هُم عَلَيْهِ منَ العَدَاوةِ والضلالِ والمُشاقَّةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة:٩].

قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ يَعْني بِالأَذَانِ، هَذَا النداءُ المُبارَكُ الَّذِي أُرِيه بعضُ الصَّحَابَةِ، وعَرَضهُ عَلَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ وأَقرَّه، وهوَ كلماتٌ عظيمةٌ.

قَوْلُهُ: ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، اسْعَوا يَعْنِي: بَادِرُوا، وَلَيْس المُرادُ بِالسعيِ الركضَ؛ لِقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ، فَامْشُوا إِلَى الصَّلاةِ وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالوَقَارِ، وَلا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**»[1]، لكنَّ المرادَ بِالسَّعيِ هُنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ المُبادَرَةُ بِالذَّهابِ إِلَيْها: وسَمَّى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الخُطبَةَ وَالصَّلَاةَ ذِكْرًا؛ لِأَنَّ فِيهما التَّذكيرَ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ وبِآياتِهِ، والصَّلاةُ مِنْ أَوَّلِها إِلَى آخرِهَا كُلُّها ذِكرٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ قَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، رقم (٦٠٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيًا، رقم (٦٠٣).

عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، جَعَلَ اللهُ صَلَاتَنا تَنْهَانا عنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكرِ، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، قال العُلَماءُ: المعنَى: وَلِمَا فِيها مِن ذِكرِ اللهِ أكبرُ. إِذَنْ ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ المرادُ بِذِكرِ اللهِ: الخطبةُ والصَّلَاةُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة:٩]، حِينَما نَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ هَلْ نَصِلُ، وَنَقولُ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ أَم نَقِفُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؟

إِذَا قَرأْتَ الآيَةَ قُلْ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وَقِفْ، ثُمَّ قُلْ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ لِأَنَّك إِذَا وَصَلْتَ اختلفَ المَعْنَى، فَإِذَا قُلتَ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، صَارَ المعنَى: وَإِنْ كُنتم لَا تَعْلَمونَ لَيْسَ خَيْرًا لَكم، وَهَذَا يَفْسُدُ بِه المَعْنَى، فَلَا بُدَّ إِذَنْ منَ الوُقوفِ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ثُمَّ تَقولُ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: إِنْ كُنتُمْ منْ ذَوِي العِلْمِ.

مَسْأَلَةٌ: البيعُ هُوَ التَّبادلُ بَيْنَ النَّاسِ فِي السِّلَعِ، وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى أَنْ نَدعَ البيعَ إِذا سَمِعْنا أَذَانَ الجُمُعَةِ، ومَا المُرادُ بِالأَذانِ، الأَوَّلُ أَمِ الثانِي؟

الجَوَابُ: المرادُ هُوَ الأذانُ الثَّاني؛ لِأَنَّ الأذانَ الثَّانِيَ هُوَ المعروفُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهوَ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ دُخولِ الإمامِ، وَأَمَّا الأذانُ الأولُ فإِنَّهُ من سُنَّةِ الخليفةِ الراشدِ عُثمانَ بنِ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهو ثابتٌ بِإِقرارِ النَّبيِّ ﷺ، فَالرَّسُولُ ﷺ أَقرَّه لكنْ لَم يُقِرَّهُ وهُو فِي قَبْرِهِ، وَإِنَّما أَقَرَّهُ بِقَوْلِه: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم ١٧١٤٤)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧).

وعلى هَذَا، فَيكونُ الأذانُ الأولُ يَوْمَ الجُمُعَةِ مَشروعًا بِدَلَالةِ السُّنةِ، وهُو قولُ الرَّسُولِ عَلَيهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فَعلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ»، وَعُثْمانُ بنُ عفَّانَ أَحَدُ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ.

وَرُبَّما يَقُولُ قَائلٌ: إِنَّـهُ مَشْروعٌ بِالقُرْآنِ؛ لِقَـولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وعُثْمانُ بنُ عفَّانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ منَ السَّابِقِينَ الأَوَّلينَ منَ المُهاجِرِينَ، ولَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ البَسطِ فِي هَذِهِ المَسأَلَةِ.

فَنَقُولُ: إنَّ الأذانَ الأولَ يَوْمَ الجُمُعَةِ سُنَّةٌ، وَلَا يُنْكَرُ، وأَيُّ إِنْسَانٍ يُنْكِرُهُ، فَإِنَّنا نَقولُ: أَأَنْتَ خيرٌ أَمِ الخليفةُ الراشدُ؟ ثُمَّ نقولُ: أَأَنْتَ خيرٌ أمِ الصَّحابَةُ؟ فَالصَّحَابَةُ لَمْ يُنْكِروا عَلَى عُثْمانَ الأَذانَ الأولَ فِي الجُمُعَةِ، وَلَمَّا أتمَّ الصَّلَاةَ فِي منًى فِي الحجِّ، أَنْكروا عليْه، أَفَيظُنُّ هَذَا أنَّ الصَّحَابَـةَ يَسْكُتـون عـنِ الأذانِ الأَوَّلِ فِي يَـوْمِ الجُمُعَةِ، وَلَا يُنْكِرون عَلَى عثمانَ، ويُنْكِرونَ الإتمامَ، فَالصَّحَابَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كُلُّهم ثِقَاتٌ، فَإِذَا أَقرُّوا عُثْمانَ عَلَى الأَذانِ الأَوَّلِ فِي يَومِ الجُمُعَةِ، فَهُو حَقٌّ.

مَسْأَلَةٌ: لَو تَبَايعَ رَجُلانِ بعدَ أَذَانِ الجُمُعَةِ الثَّاني، فَما الحُكْمُ؟

الجَوَابُ: البيعُ بَاطلٌ، والدَّليلُ عَلَى بُطْلَانِهِ قولُ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، فَهَذَا العملُ لَيْسَ عليْه أمرُ اللهِ وَرَسولِهِ ﷺ؛ بَلْ عَلَيْهِ نَهْيُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَيكونُ بَاطِلًا، وإِذَا كَانَ بَاطِلًا وقَدْ تَمَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب بيع المزايدة، رقم (٢١٤١)، ومسلم: كتاب الحدود، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، (١٧١٨).

التقابضُ، بينَ البائعِ والمشْتَرِي فنَقُولُ لِلبائعِ: رُدَّ الثَّمنَ، وَنَقولُ لِلمُشْتري: رُدَّ السِّلعَةَ.

والدَّلِيلُ عَلَى أنَّ البيعَ الباطلَ يَجِبُ رَدُّه مَا جَاءَ فِي الحديثِ الشريفِ: جَاءَ بِلَالٌ بِتَمرٍ بَرْنِيٍّ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا؟»، فَقَالَ بِلَالٌ: تَمْرٌ كَانَ عِنْدَنَا رَدِيءٌ، فَبِعْتُ مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ لِمَطْعَمِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ عِنْدَ ذَلِكَ: «أَوَّهْ عَيْنُ الرِّبَا، لَا تَفْعَلْ»[1]. مَعَ أَنَّه لَيْسَ فِيهِ ظُلمٌ؛ لِأَنَّ الصاعَ الطيبَ فِي القيمَةِ يُسَاوِي الصَّاعينِ، فَلَا ظُلمَ، لَكنَّ التمرَ بِالتمرِ لَا بُدَّ أَنْ يَكونَ مِثْلًا بِمِثْلٍ سواءً بِسَواءٍ، فالتبايُعُ بَعْدَ أَذانِ الجُمُعَةِ الثَّاني باطلٌ.

مَسْأَلَةٌ: تَبَايعتِ امرَأَتانِ فَباعتْ إِحْدَاهما حُلِيَّها لِلأُخرى بِخَمْسةِ آلافِ رِيَالٍ، فَقَبَضتِ المُشتريةُ الحُلِيَّ، وَقَبَضتِ البائعةُ الثَّمنَ خَمْسةَ آلافِ رِيالٍ؟

الجَوابُ: البيعُ صَحيحٌ، لِأَنَّ الجُمُعَةَ غيرُ وَاجبةٍ عَلَى النِّسَاءِ، وهيَ وَاجبةٌ عَلَى الرِّجَالِ.

مَسْأَلَةٌ: تَبَايعَ رَجُلانِ سِلْعةً فِي المستشفَى بعدَ أَذَانِ الجُمُعَةِ الثَّاني؟

الجَوابُ: البيعُ صَحيحٌ؛ لِأَنَّ الجُمُعَةَ سَاقطَة عَنْهما.

مَسْأَلَةٌ: سَمِعنا المُؤَذِّنَ يُؤَذِّنُ، وَلَمْ نَسمعِ المُؤَذِّنَ فِي المسجدِ الثانِي، فَهَلْ يَحْرُمُ البيعُ والشراءُ؛ لِأَنَّنا سَمِعنا المُؤَذِّنَ أو لَا يَحْرُمُ؛ لِأَنَّ المسجدَ الثَّانيَ لَمْ يُؤَذِّنْ؟

الجَوابُ: إِنْ كُنتَ تُريدُ الصَّلَاةَ فِي المسجِدِ الَّذِي لَمْ يُؤَذِّنْ، فَالبيعُ صَحِيحٌ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب: إذا باع الوكيل شيئًا فاسدًا، فبيعه مردود، رقم (٢٣١٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مِثْلًا بمِثْل، رقم (١٥٩٤).

وَإِنْ كُنتَ تُرِيدُ الصَّلَاةَ فِي المسجدِ الَّذِي أَذَّنَ فَالبيعُ باطلٌ.

مَسْأَلَةٌ: تبَايَعَ رَجُلانِ شَيئًا، واشترَطَا فِيهِ الخيارَ، فَلَما تَقَابلَا بَعْدَ نِداءِ الجُمُعَةِ الثَّاني، قَالَا: أَمْضَيْنَا البيعَ، يَعْني: لَمْ يَعْقِدَا عقدًا جَديدًا، ولَكِنهما أَمْضيا عقدًا سابقًا، أَيَصِحُّ أَمْ لَا؟

الجَوَابُ: يَصِحُّ؛ لِأَنَّ هَذَا إِمْضَاءٌ لِعَقدٍ سَابقٍ، وَالمنهيُّ عَنه هُوَ ابتداءُ العقدِ.

مَسْأَلَةٌ: هَلْ نَقولُ: إِذَا أُقِيمتِ الصَّلَاةُ البيعُ بَاطلٌ بعدَ الإقامةِ عَلَى مَن تَلْزَمُهُ الجماعَةُ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ، نَقولُ هَذَا، والقياسُ هُنَا قياسٌ جَلِيٌّ وَاضحٌ؛ لِأَنَّ فِي كلٍّ مِنْهما إِضَاعةً لِلْواجبِ، فإِذَا أُقِيمتِ الصَّلَاةُ والرجلانِ منْ أَهْلِ الجماعةِ، حَرُمَ علَيْهما أَنْ يَتبَايعا.

مَسْأَلَةٌ: إِذَا بَاعتِ امرأةٌ عَلَى رَجلٍ بَعد أَذَانِ الجُمُعَةِ الثَّاني، هَل يَصِحُّ أَو لَا؟

الجَوَابُ: لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ منْ قَواعدِ الفقهِ أَنَّه إِذَا اجتمعَ مُبيحٌ وحَاظرٌ، غُلِّب جانبُ الحاظرِ.





سورة المنافقون

الدَّرسُ الأوَّل:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]، فمَنِ المنافقونَ؟ المنافقونُ هُمُ الذينَ يُظْهِرونَ الإسلامَ، وَيُبْطِنونَ الكُفْرَ، ومَتَى ظَهَرَ النِّفاقُ فِي الأمةِ الإسلاميةِ؟ ظَهَرَ بعدَ غزوةِ بَدْرٍ، حِينَ نَصَرَ اللهُ فِيها أَولياءَهُ وحِزْبَهُ: رَسولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحابَه، والمنافقُ أَجْبَنُ الناسِ، وأَضَلُّ الناسِ، وأَخوفُ الناسِ؛ ولهذَا يُظْهِرُ أَنَّه مُسلِمٌ وهوَ كافرٌ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٨-٩]، قَالوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسولُ اللهِ، وهَل يَشهدونَ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ؟ نَعَم، لكنَّهمْ إِذا قَاموا إِلى الصلاةِ قَاموا كُسالى، يُراؤون النَّاسَ وَلَا يَذْكرونَ اللهَ إِلَّا قليلًا، فَهم يَقُولون: لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ، ويأتونَ لِلرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِيَشْهدوا لهُ أَنَّه رسولُ اللهِ؛ ولكنَّ اللهَ قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١-٢].

وكلُّ إنسانٍ يُظْهِرُ أَنَّه عَلى تُقًى، وأَنَّه مُؤْمِنٌ، وهوَ بِخلافِ ذلكَ؛ فإنَّه شَبيهٌ بِالمُنافقينَ، إنْ لَمْ يَكُنْ منَ المُنافِقِينَ.

ثُمَّ يقولُ اللهُ عزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤]، المَظْهَرُ مَظْهرٌ جَيِّدٌ، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ هيئةُ خشوعٍ، لكنَّهُ خُشوعٌ ظاهرٌ، تَحْسَبُهُمْ يَعْقِلونَ، إِذَا رَأَيتَهم أَعْجَبَتْكَ أَجسامُهمْ، هذَا حسنُ الفعالِ وَالهيئَةِ والصورَةِ، وحَسَنُ المَقالِ ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾؛ لأنَّ قَوْلَهمْ فَصيحٌ، وبيانُهم بَليغٌ؛ لكنَّهم ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤]، الخُشُبُ هَيْئَتُها قَوِيةٌ، ولكنَّها لَا تَعْتَمِدُ عَلى نَفْسِهَا، إذا أَوْقَفْتَ الخشبةَ فهَل تَقِفُ؟ إِنَّها لَا تَقِفُ، إِذَا حَاوَلْتَ إِيقَافَها فَإِنَّها لَا تَقِفُ، إِلَّا إِنْ حَفَرْتَ لَها، أَو جَعَلْتَ لَها عِمادًا، أَو أَسْنَدْتَها إِلى جِدارٍ، هَؤُلاءِ المنافقونَ لَا يَقُومون عَلى أَقدامِهِمْ أبدًا؛ لأَنَّهُم لَيسَ لَهم قَدَمٌ رَاسخٌ؛ بَل هُم كَالخُشُبِ المُسَنَّدَةِ، ومِن ضَلَالِهِم أَنَّهم يَحْسَبُون كلَّ صَيحةٍ عَليهم، إِذَا نَزَلَت آيةٌ ظَنُّوا أَنَّها عَلَيهم، إِذَا سَمِعوا قَولًا منَ الرسولِ ظَنُّوا أَنَّه عَليهم، يُسِيؤون الظنَّ بكلِّ قولٍ؛ لأَنَّهم أهلٌ لسُوءِ الظنِّ، فَيَحْسَبُونَ أَنَّ كلَّ صَيْحةٍ عَليهم ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾، الكفارُ قالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١]، أَمَّا هؤلاءِ فقَالَ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، وجملةُ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، جملةٌ اسميَّةٌ، مُكَوَّنةٌ مِنْ مُبْتدأٍ وخَبَرٍ، هذَانِ هُما رُكْنَا الجُملةِ، والمبتدأُ معرفةٌ، والخبرُ مَعرفةٌ أيضًا، وإذَا كانَ رُكْنَا الجملةِ مَعْرفتينِ دلَّ ذلكَ عَلى الحَصْرِ.

فقولُهُ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، كأَنَّهُ قالَ: لَا عَدُوَّ إِلَّا هُمْ، هُمُ العَدُوُّ حَقِيقةً؛ لأَنَّهمْ يَتَظَاهرون بِالإسلامِ، وَيَخْتَلِطونَ بِالمُسلمِينَ، ويَأْخُذون مَا عِنْدَهم، وَيَرُوحون بِهِ إِلى أَوْلِيائِهم مِنَ الشَّياطينِ: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤]؛ وَلهذَا قالَ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾، فإِنَّهُم بِطانةُ سوءٍ.

إذن عَداوةُ المُنافقِ لِلمُسلِمِ أشدُّ منْ عَداوةِ الكافِرِ لِلمُسلمِ؛ لأنَّ الكَافِرَ يُعْلِنُ ويُصَرِّحُ بأنهُ كَافِرٌ وضِدُّ المسلمِ، أمَّا المنافقُ فَيُبْطِنُ الكفرَ ويَتظاهرُ بِالصداقةِ، يَتَظاهرُ بِالإسلامِ، وأنَّهُ معكَ؛ لكنَّه خَبيثُ الطويةِ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤].

ثمَّ إنَّ عِندَهُمْ استِكبارًا، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٥]، يَقولونَ فِي قُلُوبِهِمْ: ومَن رَسولُ اللهِ؟ ومَن هَذا الذِي يَستغفِرُ لَنا؟ ويُلَوُّون رُؤُوسَهم، ولَمْ يَقُلْ: لَوَوْا؛ لأنَّ لَوَّوْا أبلغُ مِن لَوَوْا؛ لأنها مُضعَّفةٌ، ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ بِوُجوهِهم، وهُم مُستكبِرونَ؛ لأنَّهُم يَحتَقرون المؤمنينَ، لَا يَرَوْنَ المُؤْمِنِينَ شَيئًا، فَهُم يُلَوُّونَ رُؤُوسهم، وَيَصدون وهمْ مُسْتكبرون، ومَعَ ذلكَ أَيَّسهمُ اللهُ تَعَالى منَ المغفرةِ، وقالَ لِرسولِهِ ﷺ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦]، مَهْمَا كانَ، لَوِ استغفرتَ لَهُم وأَلححتَ بِالاستغفارِ فَإِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ لهمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

ثمَّ يقولُ المنافقونَ: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧]، يَقولُ بَعْضُهمْ لِبَعضٍ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى المُؤمِنِينَ الَّذين مَعَ الرسولِ؛ لِأجلِ أنْ يَنْفَضُّوا عنهُ، أَي: عنِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وألَا ينصروهُ، فـ(حتى) فِي هذهِ الآيةِ لِلتعليلِ، ولَيْست لِلغايةِ؛ لأَنَّها لَو كانتْ لِلغايةِ لَكَان يثبتُ المُغيَّا بَعْدَ وُجودِ الغايةِ، وَلَكَانَ المَعْنَى: لَا تُنفقوا حتَّى يَنْفضوا، فَإِذا انْفَضوا فَأَنْفقوا، وليسَ كَذلكَ، ليسَ المرادُ هذَا المعنَى، ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾، أيْ: لأجلِ أنْ ينفضوا، أمَّا (حتى) الَّتي لِلغايةِ فَمِثَالُها قولُهُ تَعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ

﴿ٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر:٥]، فحتَّى هُنا فِي هذهِ الآيةِ دَاخلةٌ عَلى اسمٍ، وهيَ للغايةِ، ومثالُ مَا جَاءتْ فيهِ (حتى) دَاخلةٌ عَلى الفعلِ وهِيَ لِلغايةِ قولهُ تَعالَى: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩١]، يَعني إِلَى أَنْ يَرْجِعَ.

هَؤلاءِ يَقولونَ: لَا تُنْفِقوا عَلى مَنْ عندَ رَسولِ اللهِ حتَّى يَنفضُّوا، ولكنْ أَتظنُّونَ أنَّ الصحابةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم إذَا تُرِكَ الإنفاقُ عَليهم يَنْفَضُّونَ عَنْ رَسولِ اللهِ؟! لَا واللهِ؛ ولهذَا لَـمَّا قالَ مَندوبُ قُريشٍ فِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ لَمَّا قالَ لِلرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: مَا عِندَكَ إِلَّا أَوباشٌ يُمْكِنُ أَنْ يَذْهَبوا وَيَتْرُكُوكَ، قالَ لهُ أَبو بَكرٍ: «امْصَصْ بَظْرَ اللَّاتِ»[1]، هذِه مَثْلَبَةٌ عَظيمةٌ لِقريشٍ؛ لأنَّ قريشًا تعبدُ اللاتَ، والبظرُ اسمٌ لشيءٍ مَعلومٍ لكثيرٍ منكمْ، لَا حاجةَ إِلَى ذِكْرِهِ، ومصُّهُ مَعروفٌ، المُهِمُّ قالَ: «أَنَحْنُ نَتفرَّقُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَدَعُهُ؟»، فَالصحابَةُ لَا يُمكنُ أنْ يَدعُوا الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبدًا، لكنِ المنافقونَ هَكَذَا يَظنونَ، يَقولُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الردِّ عَلَى هؤلاءِ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون:٧]، مَنِ الَّذي بِيَدِهِ الرِّزقُ؟ أهمُ المُنافقونَ؟! لَا واللهِ، الرِّزقُ بيَدِ مَنْ لهُ خَزائنُ السماواتِ والأرضِ ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

ثمَّ يقولُ اللهُ تَعالَى حِكايةً عَنْهُمْ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون:٨]، الأعزُّ صِيغَتُها فِي اللُّغةِ العَربيةِ اسمُ تَفضيلٍ، عَلى وزنِ أَفعل، الأَعزُّ أَصْلها الأَعْزَزُ، الأَذَلُّ أَصْلُها الأَذْلَلُ، فَهُوَ اسمُ تفضيلٍ، وَيُريدونَ بِالأعزِّ أنفسَهمْ، ويُريدونَ بِالأذلِّ رسولَ اللهِ ﷺ وَأَصحابَهُ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

ولكنْ مَاذا كَانَ الجوابُ مِنَ اللهِ؟ قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. هُمْ قَالُوا: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا﴾ أَيْ: منَ المدينَةِ ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾، وكانَ الجوابُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾، ولمْ يَقُلِ اللهُ: واللهُ الأَعَزُّ، ورَسولُهُ الأَعَزُّ، والمُؤمِنونَ الأَعَزُّ، مَا قالَ هَكذا؛ لأنهُ لَو قالَ: واللهُ أَعَزُّ لأَشْعَرَ ذَلكَ بأنَّ لِلمُنافِقِينَ عِزَّةً؛ وذلكَ لأنَّ اسمَ التفضيلِ يَقْتَضِي اشتراكَ المُفَضَّلِ وَالمُفَضَّلِ عليهِ مَعَ فَضلِ المُفَضَّلِ؛ لكنَّ اللهَ قالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾، يَعْنِي وَلَا عِزَّةَ لِلْمنافقينَ إِطلاقًا، العزةُ الكاملةُ للهِ وَلِرسولِهِ وَلِلمؤمنينَ، اللّهم أَعِزَّنا بِإِيمانِنا، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨]، أَسْأَلُ اللهَ تَعالَى بِهذهِ المُناسبَةِ أنْ يُعِزَّ الإسلامَ والمُسلِمِينَ، وأنْ يُذِلَّ الشِّرْكَ وَالمُشْرِكِينَ، وأنْ يُدَمِّرَ أَعداءَ الدِّينِ.

ونَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنْ يُسَلِّطَ عَلى أُولئكَ الشُّيوعِيِّينَ الَّذين تَسَلطوا عَلى إِخْوانِنا فِي الشِّيشانِ، اللَّهُم أَنْزِلْ بهِمُ البلاءَ، وأَلْقِ بَيْنَهمُ العداوةَ وَالبَغضاءَ؛ حتَّى يَكونَ بَعضُهُم يَذْبَحُ بعضًا، ويَسْبِي بعضُهُم بعضًا، اللَّهم أَسِلْ مَتاجِرَهم ومَكاتِبَهُمْ بِدِمائِهِم بِأَيديهم يا ربَّ العَالَمِينَ، إِنَّكَ عَلى كلِّ شيءٍ قديرٌ، ونَسأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يَكْتُبَ مثلَ هذَا للصِّرْبِ المُعتدينَ الظَّالمينَ الغَابرينَ، الَّذين يَنْقضون المِيثاقَ مِن بعدِ عَهدِ اللهِ، أَنْزِلْ بِهِم بَأْسَكَ الَّذي لَا يُرَدُّ عنِ القومِ المُجْرِمِينَ، يا أَرْحَمَ الراحمينَ.

وأَنَا أَنصحُ إِخْوتي الكرامَ أنْ يَحْرِصوا عَلى تَدَبُّرِ كتابِ اللهِ، واللهِ إِنَّه لَرياضٌ مُتنوعةٌ، تفتحُ القلوبَ، وتُبهِجُ النفوسَ، تَجِدونَ فِيهِ العِلْمَ العظيمَ الواسعَ، تَجدونَ فِيه حَياةَ القلبِ، تَجِدونَ فيهِ الإنابَةَ إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كثيرٌ منَّا يَشْكُو منْ قَسوةِ قَلْبِهِ،

نَسأَلُ اللهَ أنْ يُلِينَها لذِكْرِهِ، ولكنْ لَا يُلِينُهَا إِلَّا الرُّجوعُ لِلقرآنِ بِالقراءةِ وَالتأملِ وَتَعْظيمهِ؛ لأَنَّهُ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خبيرٍ جَلَّوَعَلَا، يقولُ ابنُ عبدِ القويِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي دَالِّيَّتِهِ المَشْهورةِ:

وَحَافِظْ عَلَى دَرْسِ القُـرْانِ فَإِنَّـهُ ... يُلَيِّنُ قَلْبًـا قَاسِـيًا مِثْـلَ جَلْمَـدِ[1]

وقولهُ: مثلَ جَلْمَد، أَي: كَالصَّخْرِ العظيمِ، القَرآنُ يُلِينهُ؛ لكنْ يحتاجُ إِلى تأملٍ، اقْرَأْ سطرًا منَ القُرآنِ وتَأَمَّلْ بفَهْمٍ، تَجِدْ قَلْبَكَ وقدِ انصبَغَ بِهذَا القرآنِ الكَريمِ، وَلَانَ لذكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لكنَّ أكثرنَا -وأنَا مِنهمْ، أسألُ اللهَ أنْ يُعامِلَنَا سُبحانه بِعفْوِه- نَقْرَؤُه هذًّا، مِن أجلِ أنْ نَختِمَ، ومنْ أجلِ أنْ نَقرَأَ حِزْبَنا الذِي قَرَّرناه كلَّ يومٍ، ولكنِ اقرؤُوا القرآنَ بِتأملٍ، ولوْ علَى الأقلِّ غيرَ قِراءتِكَ المُعتادةِ، يَعْنِي اجْلِسْ فِي جَانِبٍ منَ المَسْجِدِ، أَو فِي بَيْتِكَ، وخُـذِ المُصْحَفَ، وتَأَمَّلْ بعضَ الآيـاتِ، تَجِدِ العجبَ العُجابَ، واجْعَلْ قِراءَتَكَ العاديَّةَ عَلى مَا هِي عليهِ، لكنَّ التَّأملَ يَفتحُ القلبَ واللهِ، ويجدُ الإنسانُ طَعمًا لَذيذًا لِلقرآنِ، ومَعانيَ عَظيمةً لَا يَعْلَمُها إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، هذَا مَا أَرَدْتُ أنْ أُنبِّهَ عَليهِ فِي هذهِ السُّورةِ العظيمةِ الَّتي أَنْزلها اللهُ تَعالى فِي المُنافقينَ، وأَنا أَسأَلُ: هلْ أَنزلَ اللهُ سُورةً كاملةً فِي اليهودِ؟ هَل أنزلَ اللهُ سُورةً كاملةً فِي النصارَى؟ فِي المُشْرِكِينَ؟ أمَّا سورةُ (الكافرُونَ) فَهذا لِإظهارِ البراءةِ مِنهم، لَا لوَصْفِ حَالِهِمْ، ولكنَّ اللهَ تَعالَى أَنزلَ سُورةً كاملةً فِي المُنافِقِينَ؛ لأَنَّهُم أَعدَى مَا يَكونُ لِلْإِسلامِ والمُسْلِمِينَ.

---

(١) انظر: منظومة الآداب لابن عبد القوي (ص:٩٩).

الدَّرسُ الثَّاني:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١].

يُبيِّنُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيةِ الكريمَةِ أنَّ المُنافِقِينَ إِذَا جَاؤوا إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وهيَ جُملةٌ مُؤَكَّدةٌ بِثلاثةِ مُؤَكِّداتٍ: نَشْهَدُ، وإنَّ، واللامِ، وكلامُهُمْ كَذِبٌ، ولهَذَا كَذَّبَهمُ اللهُ تَعالَى، وَقَالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، لكنَّ اللهَ أَدْخَلَ قبلَ هَذَا التَّكذيبِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾؛ حتَّى لَا يَتوَهَّمَ وَاهمٌ خِلافَ المقصودِ.

واللهُ عَزَّوَجَلَّ يَعْلَمُ أنَّ مُحمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَسولُهُ، وَيَشْهَدُ بِذَلكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦].

فَاللهُ تَعَالَى يَعلمُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَسولُ اللهِ، وَيَشهَدُ بِذَلِكَ، وَيَشهَدُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فِي قولِهِم: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، يَعْنِي: هُم كَاذبونَ فِي الشهادةِ، لَا فِي المَشهودِ بِهِ، فَالمشهودُ بِهِ حَقٌّ، وهوَ أَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لكنَّ الشهادَةَ كاذبةٌ بَاطلةٌ.

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:٢].

وَيشْهَدُ المنافقُونَ هَذِهِ الشهَادةَ المُؤَكَّدَةَ أنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَسُولُ اللهِ؛ لِأَنَّهُمْ يَجْعَلونَ أَيمانَهُمْ جُنَّةً يَسْتَتِرُونَ بِهَا، وَيُخْفون أَمْرَهم، وَلكنَّ اللهَ يَفْضَحُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤].

ثُمَّ بيَّنَ اللهُ أنَّ هَؤُلاءِ المُنَافِقِينَ ذَوُوا هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ جَمِيلَةٍ، وَذَوُوا بَلَاغَةٍ عَظِيمةٍ، فقَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾، مَا شاءَ اللهُ، هَذَا العَالِمُ الكبيرُ، هَذَا الَّذِي لَيْسَ أَحَدٌ يُمَاثِلُهُ، له هَيْئَةٌ عظيمَةٌ، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾: تَسْمَعْ لِبَلَاغتِهِ وَفَصَاحتِهِ، فتَظُنُّهُ حقًّا وهوَ بَاطِلٌ كَالسَّرابِ ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور:٣٩]؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ وَصْفٌ مُنْطَبِقٌ عَلَيْهِم تَمَامًا، فَالخُشُبُ: جَمَادٌ لَا خَيْرَ فِيهَا، وهِيَ خُشُبٌ لَم تَعْتَمِدْ عَلَى نَفْسِها، ولكِنَّها مُسَنَّدَةٌ، إِذَا رَأَيْتَ هَذِهِ الخشبَةَ الكبيرَةَ العظيمَةَ تَسْتَعْظِمُها، وَلَكِنَّها مُسَنَّدة عَلَى جِدارٍ، فَإِذا سَقَطَ الجدارُ سَقطَت، فلَا خَيرَ فِيهِمْ.

وعبَّرَ عَنْ عَداوتِهمْ بِقَوْلِهِ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾، فَجُمْلَةُ ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ جملةٌ مُكَوَّنَةٌ مَنْ مُبْتدأٍ وخَبرٍ، وطَرَفاها مُعْرِفتانِ، وَهَذَا يُفِيدُ الحصرَ، يَعْنِي: همُ العدوُّ الأكبرُ، وهُمُ العدوُّ الأعظمُ، وهمُ الَّذِينَ يَجِبُ الحَذَرُ مِنْهُمْ؛ وَلِهَذَا رتَّبَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

الدَّرسُ الثَّالِث:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٧].

وَمِنْ بُهتانِ المُنافِقِينَ وَجُرْأَتِهِمْ وَخُبْثِهِمْ، أَنَّهُمْ يَقُولونَ: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾، يَعْنِي: يَقُولُ بَعْضُهم لِبَعضٍ: لَا تُعْطوا المُسْلِمِينَ شَيئًا؛ لَا صَدقةً ولا هَدِيَّةً وَلَا شَيْئًا، ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾، (حَتَّى) هُنَا لِلتَّعليلِ، ولَيْسَتْ لِلغَايةِ، يَعْني: لَا تُنْفِقوا عَلَيْهم لِأَجْلِ أَنْ يَنْفَضُّوا، وَيَدَعوا النَّبِيَّ ﷺ.

فَما أَجْهَلَ هَؤُلاءِ المُنافِقِينَ، أَيَظُنونَ أَنَّ صحابةَ النَّبِيِّ ﷺ يَتْرُكونه مِنْ أَجْلِ لُقمةِ العيشِ؟!

ولهَذَا لَـمَّا قَالَ مَنْدُوبُ قُرِيشٍ فِي صُلْحِ الحُديبيةِ لِلنبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنِّي لَا أَرَى إِلَّا أَوْبَاشًا يُوشِكُ أَنْ يَدَعوكَ. فَقالَ لَهُ أَبُو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «امْصَصْ بَظْرَ اللَّاتِ»[1]، المَصُّ مَعْرُوفٌ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى بيانٍ، وَالبَظْرُ: اللَّحمةُ الزَّائدةُ فِي فَرْجِ الأُنْثى، وَاللاتُ: الصَّنمُ.

فهَذَا الكَلامُ القَوِيُّ مِن أَبِي بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: اذْهَبْ أَنت إِلَى اللاتِ امْصَصْ بَظْرَها، ولَن يَأْتيكَ مِن بَظْرِها إِلَّا البَوْلُ، فَنحنُ لَا نَدَعُ النَّبِيَّ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

أيضًا هَؤُلاءِ المنافقونَ يقُولونَ: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ عنه، فقالَ اللهُ تَعالَى لهمْ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فَلَيست الخزائنُ عِنْدَكم أَيُّها المنافقُونَ، ولَا عِنْدَ أَحدٍ منَ النَّاسِ، فَالخزائنُ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

قَوْلُهُ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ﴾، هَذِهِ الجملةُ مُؤَكَّدَةٌ بالقَسَمِ، واللامِ، والنونِ. أَيْ: وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منْهَا الأذلَّ، وَيُشِيرونَ بالأعزِّ إلى أنفسِهِمْ، وَبِالأذَلِّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحابِهِ.

فَأَجَابَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وَلَمْ يَقُلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: وَاللهُ أَعَزُّ والرَّسُولُ أَعَزُّ والمؤمنونَ أعزُّ. ولو قَالَ ذَلِكَ لَأَثْبَتَ لِلْمُنافقينَ عِزَّةً، ولَكنَّهُ قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾.

أَمَّا المنافقونَ فَلَيْسَتْ لَهم عِزَّةٌ إِطْلاقًا؛ لِأَنَّ المُنافِقَ أَذَلُّ مَنْ يَكونُ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذُلِّهِ أَنَّهُ أَخفَى كُفْرَهُ خَوْفًا منَ السَّيفِ، فَهُوَ ذَليلٌ مَعْنويًّا ونَفسيًّا؛ وَلِهَذَا لَم يُثبتِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ له عِزَّةً حِينَ ردَّ عَلَيْهم بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فَالسُّورةُ هَذِهِ عَظِيمةٌ، يَنبَغِي أَنْ تُذَكَّرَ بِها الأمةُ كلَّ أُسبوعٍ فِي أكبرِ اجْتماعٍ؛ حَتَّى يَحْذَروا منَ النِّفاقِ وَالمنافقينَ أَيْضًا، وأَلَّا يَرْكَنوا إِلَيْهِم، وأَلَّا يَأْمَنوهم، فمِنْ صِفَاتِ

المُنافقِ أنَّه إذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وإذَا عَاهَدَ غَدَرَ[١].

مسألةٌ: هلْ يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَتَّهِمَ أَحَدًا بِالنِّفاقِ دُونَ أَنْ يَتبيَّنَ لَنَا منَ القَرائنِ القَويَّةِ، أَوْ أَنْ نَسْمَعَ عَنْهُ ما يَدُلُّ عَلَى نِفاقِهِ؟

الجَوَابُ: لَا يَجُوزُ، فَالأَصلُ فِي المُسْلِمِ السلامَةُ، وأنَّ مَا فِي قَلْبِه هُوَ مَا فِي لِسانِهِ، ولا يَحِلُّ لأَحَدٍ أَنْ يَتَّهِمَهُ، وَلَا يَحِلُّ أَن نَتَّهِمَ أحدًا بِالنِّفاقِ أَوْ بِالمُرَآةِ، فَإِنِ اتَّهَمْنَا كُلَّ أحدٍ بِالنفاقِ أَوِ المُرَآةِ، صِرْنَا منَ المُنافِقِينَ، فإنَّ المُنافِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعينَ مِنَ المؤمنينَ بِالصَّدقةِ، والَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهمْ.

المنافقُ إِذَا جَاءَ أَحدٌ بِصَدقةٍ كبيرةٍ، قَالَ: هَذَا مُراءٍ، وإِذَا جاءَ أَحدٌ بِنَفقةٍ قَليلةٍ، قَال: إنَّ اللهَ غَنيٌّ عنْ صَدَقتِكَ، فَهم يَلْمِزونَ المُطَّوِّعينَ ويَلْمِزونَ الَّذينَ لَا يَجِدونَ إِلَّا جُهْدَهم؛ وذَلِكَ لأَنَّهمْ يُرِيدونَ أَنْ يَقْدَحوا بِالمؤْمنين بأيِّ وَسيلةٍ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩).



سورة التغابن

إن الحمدَ للهِ، نَحْمَدُه ونَستعِينُه ونَستغفِرُه، ونَعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، إلَهُ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُه ورسولُه، إمامُ المُتَّقِينَ، وخَاتَمُ النَّبِيِّين، صلَّى اللهُ عليه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال تَعالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن:١١-١٤].

قولُه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، في هذهِ الآيَةِ الكريمةِ يُبيِّنُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ المَصائِبَ الَّتي تُصيبُ النَّاسَ ما هي إلَّا بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يَحدُثُ شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ إلَّا بإذنِ اللهِ؛ لأنَّ المُلكَ للهِ، والأمرَ للهِ؛ كما قال تَعالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال تَعالَى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ

وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩].

وإذا كانَ المُلْكُ للهِ، والأمرُ للهِ، فإنَّ المَصائِبَ الَّتي تُصِيبُ النَّاسَ تَقَعُ بإذنِ اللهِ، وإذا كانتِ المَصائِبُ تَقَعُ بإذنِ اللهِ، فإلى مَن نَلْجَأ إذا أَصابَنا بمُصيبةٍ؟ إلى اللهِ وحدَه لا شَرِيكَ له، ولا نَلْجَأ إلى مَلَكٍ مُقرَّبٍ، ولا نبيٍّ مُرسَلٍ، ولا وليٍّ صالحٍ، ولا لشيخٍ عَالِمٍ، ولا لأحدٍ من النَّاسِ، إنما نَلجَأُ إلى الَّذي قَدَّرها، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، فسَّرَها عَلْقَمَةُ أحدُ أصحابِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ المشهورينَ، قَالَ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فيرَضَى وَيُسَلِّمُ»(١).

وهَذَا واقعٌ، فأنتَ إذا عَلِمتَ أن المَصائِبَ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فسَوْفَ تَرضَى؛ لأن الَّذي خَلَقَكَ هو اللهُ، والَّذي أصابَكَ بالمُصيبةِ هو اللهُ، فإن رَضِيتَ فلك الرِّضا، وإنْ سَخِطْتَ فعليك السَّخَطُ.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فكلُّ شيءٍ اللهُ عليمٌ به من أمرِ الدُّنْيَا وأمرِ الآخرةِ، من مَلَكوتِ السماواتِ وملكوتِ الأرضِ، ممَّا ظَهَرَ وبطَنَ، بل إنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ به نفسُكَ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، أي ما يُحدِّثُ به قلبُه يَعْلَمُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ وإنْ لم يَظْهَرْ للناسِ.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا: كتاب تفسير القرآن، باب سورة التغابن، والبيهقي في السنن الكبير (٤/ ٦٦).

وإذا آمَنْتَ بهذهِ القضيةِ فإنك سوفَ تُحافِظُ غايةَ المُحافظةِ على أَلَّا تُضْمِرَ بقَلبِكَ سُوءًا ولا شِرْكًا ولا إِلْحادًا؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى عَلِيمٌ بذلكَ. وحَبْلُ الوَرِيدِ خَلْفَ الذَّقَنِ المُحِيط بالحُلقومِ؛ واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٧]، فكلُّ إنسانٍ يتلقَّى أقوالَه وأفعالَه مَلَكَانِ؛ أَحَدُهما عن اليَمينِ، والثَّاني عن الشِّمالِ، يكتبانِ كلَّ شيءٍ، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، رَقِيبٌ أي مُراقِبٌ، وعَتِيدٌ أي حَاضِرٌ لا يَغِيبُ عنه، يَكْتُبُ كلَّ ما يَقولُ، وكلَّ ما يَلفِظُ من قولٍ، فإنَّه يَكْتُبُ إِمَّا له وإِمَّا عليه، إن كانَ خيرًا فلكَ، وإنْ كانَ شرًّا فعليك.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن:١٢]، والطاعةُ مُوافَقةُ الأمرِ، أَمَرَنا اللهُ أن نُطيعَ اللهَ وأن نُطِيعَ الرَّسُولَ، فمَنِ المرادُ بالرَّسُولِ هنا؟ المرادُ به بعدَ نُزولِ القُرآنِ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لأنَّه لا رَسولَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

قال تَعالَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن:١٢]، أي: إن تَوَلَّيْتُم عن الطاعةِ فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ ليسَ له مِن الأمرِ شيءٌ، وليسَ عليه من إِثْمِكم شيءٌ، ولكنْ عليه شيءٌ واحدٌ وهو البلاغُ المُبِينُ، وقد بَلَّغَ النَّبيُّ ﷺ ما أُنْزلَ إليه من رَبِّهِ، بقَولِه تارَةً، وبفعلِه تَارَةً، وبإقرارِهِ تارةً؛ أي أَنَّه ﷺ تَرَكَ أُمتَه على مَحَجَّةٍ بيضاءَ لَيلُها كنهارِها، لا يَزِيغُ عنها إِلَّا هالِكٌ، قال أبو ذرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلاَّ أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْمًا»(١).

(١) أخرجه أحمد (٣٥/ ٢٩٠، رقم ٢١٣٦١).

ودَلِيلُ هَذَا القولِ من كتابِ اللهِ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، وما في القُرآنِ فهو بَيانٌ للناسِ؛ كما قال تَعالَى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن:١٢].

ثم قال تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن:١٣]، هذهِ الجُملةُ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هي مَعْنَى لا إله إلَّا اللهُ؛ أي: لا مَعْبودَ حقٌّ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فمَن خَلَقَ السماواتِ والأرضَ؟ الجوابُ: هو اللهُ، يَقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٠]؟ الجوابُ: لا، ومَن الَّذي أنزلَ من السَّماءِ ماءً فأنبتَ به حدائقَ ذاتَ بَهْجةٍ؟ الجوابُ: هو اللهُ، ومَن الَّذي سَخَّرَ اللَّيلَ والنهارَ؟ الجوابُ: هو اللهُ، ومَنِ الَّذي يُنزِلُ الغيثَ مِن بعدِ ما قَنطُوا ويَنْشُرُ المَطَرَ؟ الجوابُ: هو اللهُ، إذن فاللهُ عَزَّوَجَلَّ هو الخالقُ وحدَه، أرأيتم لوِ اجتمعَ الخلقُ كلُّهم على أن يَخلُقوا أصغرَ شيءٍ فلَنْ يَستطِيعُوا.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج:٧٣]، فكلُّ ما يُعْبَدُ من دونِ اللهِ مِن بَشَرٍ أو مَلَكٍ أو حَجَرٍ أو شجرٍ أو أرضٍ أو نجومٍ أو شمسٍ أو قمرٍ، كلُّهم لوِ اجتمعوا على أن يَخلُقوا ذُبابًا ما استطاعوا إلى ذلك سَبيلًا، ومعَ تَقدُّمِ الصناعةِ في الوقتِ الحاضرِ، ومعَ القُدرةِ العظيمةِ الَّتي علَّمها اللهُ عِبادَه لا يَستطيعون أن يَخْلُقوا ذُبابًا أبدًا، ولو اجتمعوا له،

بـل ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، فالذُّبابُ لو سَلَبَهم شيئًا ما استطاعوا أن يَستنقذوه.

قال العلماءُ: معنى الآيَةِ أن أصنامهم الَّتي يَصُبُّونَ عليها الطِّيبَ وأنواعَ الزِّيناتِ، لو أنَّ الذبابَ وقَعَ عليها وأخَذَ منها شيئًا، لم يَستطيعوا أن يَستنقذوه منه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

فيَجِبُ على المُسْلِمينَ الرُّجوعُ إلى اللهِ في جَلْبِ المَنافِعِ ودَفْعِ المَضارِّ، وألَّا يَعتمِدوا على أحدٍ في ذلك سِواهُ، إذا كانَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَقولَ: ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١]، وهو مُحَمَّدٌ أفضلُ البَشَرِ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، يَأْمُرُه اللهُ أن يقولَ: ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، فما بالُك بمَن دُونَه؟ هل يُمْكِنُ لأَحدٍ مهما بَلَغَ في الصلاحِ، ومهما بَلَغَ في العلمِ، هل يُمْكِنُ أن يَدْفَعَ ما أرادَ اللهُ أن يَنْزِلَ؟ **الجوابُ:** لا، ولا يُمْكِنُ أن يَرْفَعَ ما نَزَلَ: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٣].

وإذا كانَ الأمرُ كذلك فلا يَجوزُ أن نَذْهَبَ إلى القبورِ لِنَدْعوَ مَن فيها، ولا أن نُقدِّسَ أحدًا، أو نَعتقِدَ أنَّه يَعْلَمُ الغيبَ أو يُجيبُ دعوةَ المُضْطَرِّ، وإنما نُنْزِلُه حيثُ أَنْزَلَهُ اللهُ، يقولُ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ**»(١)، ونَهَى أُمتَه أن يَغْلُوا فيه كما غَلَتِ النصارى بالمَسيحِ ابنِ مَريَمَ.

ولقد بَلَغَنا أن مِن النَّاسِ الَّذين لا يَعْلَمون الحقائقَ على ما هي عليه يَذْهَبونَ إلى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]. رقم (٣٤٤٥).

القُبورِ ويقولون: يا فلانُ، يا سيِّدي، يا مولايَ أَغِثْني. يا فُلانُ، يا سيدي، يا مَوْلايَ، أَعطِني كذا. ولم يَعْلَموا أنهم لن يَسْمَعوا ذلك أبدًا، وأنَّ دُعاءَهم سَفَهٌ في العقلِ وضَلالٌ في الدِّينِ؛ لأنَّ هؤلاء الأموات لا يَملِكونَ لكَ شيئًا مهما قُلْتَ، وهم بالأمسِ كأنتَ باليومِ؛ كانوا يَأْكُلونَ، ويَشْرَبون، ويَمرَضون، ويَجُوعون، ويَعْطَشون، ويَلْحَقُهم الأَذَى بالبَرْدِ والأَذَى بالحرِّ، كما أنتَ اليومَ، فلماذا وَسْوَسَ لكَ الشَّيْطَانُ وأَلْقَى الشَّيْطَانُ في قَلْبِكَ أَنَّهم بعدَ المَوْتِ صاروا يَمْلِكونَ لك النَّفْعَ والضُّرَّ؟! فهم بالأمسِ كأنتَ باليومِ، وهم اليومَ في قُبورِهم أضعفُ مِمَّا كانوا عليه في الحياةِ؛ لأنَّهم في الحياةِ لو استنقذتَ بهم من غَرَقٍ وهم يَعرِفون كيف يَسْبَحونَ لأنقذوك، ولو أنك مَرَرْتَ بهم لينقذوكَ من الجوعِ أنقذوك، أو لينقذوكَ من العطشِ أنقذوك، لكنِ اليومَ هم في القبورِ لا يَنفعونك ولا يَضُرُّونك، فلماذا تَذْهَبُ إليهم؟! ولماذا تَنْذِرُ الصدقاتِ على قُبورِهم! ولماذا تَذْبَحُ الذبائحَ على قُبورِهِمْ! وأنت تَعْلَمُ أنهم لن يَنفعوك، وإذا كانوا لا يَنْفعونَك فكيفَ تُعلِّقُ بهم الرغبةَ والرهبةَ!

قال تعالى في آخِرِ الآيَةِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، على اللهِ وحدَه فَلْيتوكَّلِ المؤمنونَ؛ أي فلْيَعْتَمِدِ المُؤْمِنُ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣]، ولا تَعتمِد على أحدٍ إلَّا على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكلُّ مَن نَفَعَك في الدُّنْيا فإنما نَفَعَك بيدِ اللهِ؛ فلو أنَّ الإِنْسَانَ في وَظيفةٍ وصاحبُ الصندوقِ يُعطيهِ الدراهمَ كلَّ شهرٍ، فلا يَحِلُّ له أن يَعتمِدَ على هَذَا؛ لأن الَّذي سَخَّرَ لك صاحبَ هَذَا الصندوقِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لو شاءَ اللهُ ما أعطاكَ صاحبُ الصندوقِ شيئًا، إذن لا تَعتمِد على هَذَا، واعتمِدْ على اللهِ وحدَه،

فهو الَّذي يُسخِّرُ لك ويُذَلِّلُ لك الأشياءَ ويُعْطِيكَ ما شاءَ أنْ يُعْطِيَكَ.

ثم قَالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن:١٤]، و(مِنْ) هنا للتبعيضِ؛ يعني بَعْضَ الأزواجِ وبعضَ الأولادِ يَكونونَ عدوًّا لنا، وليسَ كلُّ وَلَدٍ عَدُوًّا، بل من الأولادِ مَن هو عَدُوٌّ، ومِنَ الأموالِ ما هو ضَرَرٌ على الإِنْسَانِ.

وفي الحديثِ عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّ اللهَ قَالَ: «**إِنَّ مِن عِبَادِي مَن لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الغِنَى**»(١). قد يُغنِي اللهُ العبدَ فيَبْطَرُ ويَستكبِرُ، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦]؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾. والزوجةُ تكونُ عَدُوًّا للزوجِ إذا حَمَلَتْه على مَعصيةِ اللهِ؛ ولهَذَا لا يَجوزُ للإنسانِ أن يَتزوجَ كافرةً وهو مُؤمِنٌ؛ لأن الكافرةَ رُبَّما تَحمِلُه على الكُفرِ، لكن يُستثنَى من هَذَا أهلُ الكتابِ، فإنَّ اللهَ تَعالَى يقولُ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥]، ولهَذَا جازَ للمُسلمِ أن يَتزوجَ امرأةً نصرانيةً، أو أن يتزوجَ امرأةً يهوديةً؛ لأن أهلَ الكتابِ يَعرِفونَ مُحَمَّدًا ﷺ كما يَعرِفونَ أبناءَهم، وإذا كانوا يَعرِفونه كما يَعرِفون أبناءَهم فهم أَحْرَى النَّاسِ بالإجابةِ؛ ولهَذَا قَسَّمَ اللهُ النَّاسَ في المائدةِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ، فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨) بلفظ: «**وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي المُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الفَقْرُ، وَإِنْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ**».

نَصَـٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢].

فهذِهِ ثلاثةُ أقسامٍ: اليهودُ، والَّذين أَشركوا، والَّذين قالوا: إنا نَصَارَى، ولكن الَّذين قالوا: إنا نَصارَى، إنما يَتحدَّثُ اللهُ عن قَوْمٍ مِنهم؛ القِسِّيسِينَ والرُّهبانَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣]، فليسَ جَمِيعُ النَّصارَى أقربَ النَّاسِ مَوَدَّةً للمؤمنينَ، بل النصارى المَوْصوفونَ بهذِهِ الصفاتِ: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾، والقِسِّيس: العَالِمُ، والراهِبُ: العَابِدُ ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ يعني مُحَمَّدًا ﷺ، ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

فإنْ قِيلَ: وهل النَّصارَى اليومَ مَوصوفون بهذِهِ الصفاتِ؟

قلنا: لا، أبدًا، النَّصارى اليومَ كاليهودِ بالأمسِ؛ فهم للمُسلِمِينَ من أشدِّ النَّاسِ عداوةً، ولا يَخْفَى علينا ما جَرَى في الحُروبِ الصَّلِيبِيَّةِ، وما جَرَى في الحُروبِ في الوقتِ الحاضرِ من مُحاربتِهم لإخوانِنا المُسْلِمين في البُوسنةِ والهِرْسِك، وذَبْحِهم الرجالَ كما يَذْبَحونَ الخِرافَ، والعياذُ باللهِ. وسوفَ نَنْتَظِرُ انتقامَ اللهِ تَعالَى من هؤلاءِ الَّذين فَعلوا بالمُسْلِمينَ ما فَعلوا، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ.

ولكنني أقولُ: إن المُسْلِمين هم الَّذين يَعتمِدون على اللهِ في جَلْبِ المنافِعِ ودَفْعِ المَضارِّ، فلا تَلتفِت لأحدٍ إلَّا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقولُه تَعالَى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، هذهِ

ثلاثُ كلماتٍ: **الكلمةُ الأولى**: تَعْفوا. **والثَّانيةُ**: تَصْفَحوا. **والثَّالثةُ**: تَغفِروا. فما الفَرْقُ بينَ هذهِ الثلاثِ؟ هل هي بمَعْنًى واحدٍ أو تَخْتلِفُ؟

الجوابُ: تَخْتلِفُ؛ فالعفوُ عَدَمُ المُؤاخَذةِ؛ ولهَذَا إذا أَخطأَ بعضُنا على بعضٍ اليومَ فإنه يقولُ له: عفوًا؛ يعني أسألُكَ عفوًا. وتَصفَحوا: أي تُعرِضوا عن الأمرِ، مأخوذٌ من صَفْحَةِ العُنُقِ؛ وهو جَانِبُ العُنقِ؛ يعني أَعرِضْ عن هَذَا، ولا تَلتفِت إليه، كأنه لم يَكُنْ. وتَغفِروا: الغَفْرُ بمعنى السَّترِ، ومنه المِغْفَرُ الَّذي يُوضَعُ على الرأسِ عندَ القتالِ حتَّى يُغَطِّيَ الرأسَ.

فأيُّها أعلى: العفوُ أو الصَّفْحُ أو المَغْفِرةُ؟

نَقولُ: المَغْفِرةُ.

إذن الآيةُ فيها الانتقالُ من السَّهلِ إلى الأعظمِ: من العَفْوِ وهو عَدَمُ المؤاخذة، إلى الصَّفْحِ، وهو الإعراضُ عن الشَّيْءِ وتَناسِيهِ وكأنه لم يَكُنْ، ثم إلى المَغْفِرةِ، وهي السَّترُ.

وأَضْرِبُ لكم مَثَلًا يَتبَيَّنُ به الأمرُ: إنسانٌ اعْتدَى عليك، فحاكمتَه، وأخذتَ حقَّك منه؛ فبأيِّ الأوصافِ اتَّصفْتَ حينما أخذتَ؟ أبالعفوِ أو بالصفحِ أو بالمغفرةِ؟ نقول: لم تَتَّصِفْ بأيِّها. ولا بأسَ أن تَأْخُذَ حقَّكَ، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

مثالٌ آخرُ: رَجُلٌ اعتدَى على شخصٍ، فعفَا عنه، لكنْ في قلبِه شيءٌ عليه؛ حيثُ

يَنْظُرُ إليه نَظَرَ المُغْضَبِ، فهَذَا اتَّصَفَ بالعفوِ، ولكن لم يَتَّصِفْ بالصفحِ؛ لأنَّه لا زَالَ في قلبِه.

مثالٌ ثَالِثٌ: رَجلٌ اعتدى على آخَرَ، فعفا عنه، وأعرضَ، وكأنَّ شيئًا لم يَقَعْ، لكنَّه يَتكَلَّمُ به عندَ النَّاسِ، يقولُ: فلانٌ أَخْطَأَ عليَّ، فلانٌ ظَلَمني، فهَذَا حصَلَ منه العفوُ والصفحُ، لكن لم يَغْفِرْ له.

والرَّابعُ: إنسانٌ أخطأَ عليه شخصٌ فعَفَا عنه، ولم يَأْخُذْ بحقِّه، وأعرضَ كأنَّ شيئًا لم يَكُنْ، وغفرَ ولم يَتكلَّمْ بذلك عندَ النَّاسِ، بل ربما كان يُثْنِي عليه بما يَستحِقُّ، فهَذَا أكملُ الأحوالِ؛ هَذَا عَفَا وأصلحَ وغفرَ.

فبأيِّ الصفاتِ تَتَّصِفُ أنتَ؟

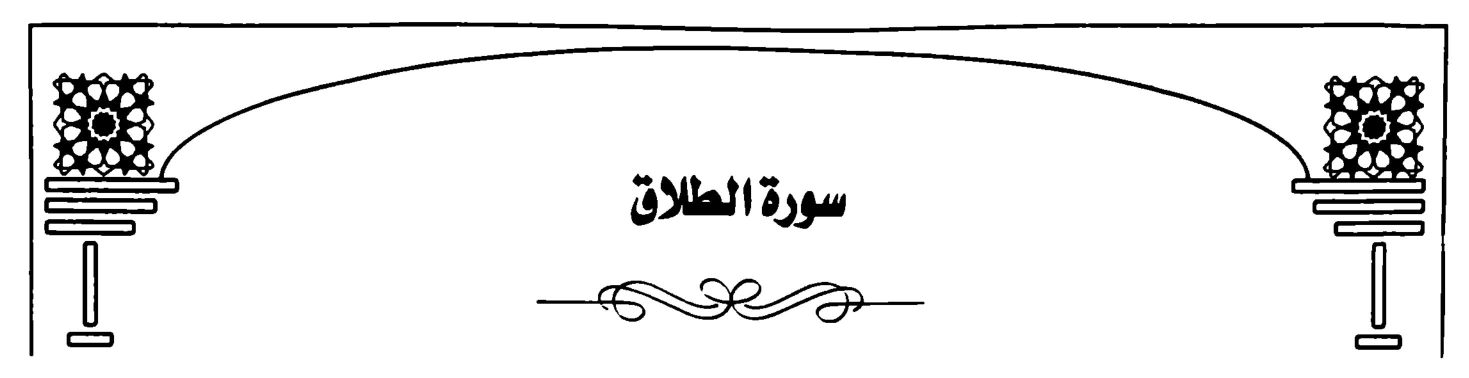
الجواب: نقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، فإذا كان في عَفوِكَ إصلاحٌ فاعفُ، وإنْ كانَ في عفوِك إفسادٌ فلا تَعْفُ، وخُذْ بِحَقِّكَ، ولو كنتَ إذا عفوتَ عن هَذَا المجرِمِ المعتدي ازدادَ شَرُّه وتجرَّأَ على غيرِكَ فهنا نقولُ: لا تَعْفُ.

ولهَذَا يُخطِئُ بَعْضُ النَّاسِ حيثُ يَلتزِمُ بالعفوِ مُطلَقًا، معَ أنَّ اللهَ قيَّدَ فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، ولو أنَّ مُجْرِمًا سَرَقَ منك وأمسكتَه والسرقةُ بيَدِه، فليسَ مِنَ الحِكمةِ أن تَعفُوَ عنه، فإذا عَفَوْتَ عنه الآن سَرَقَ من غيرِكَ من الغدِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١]، فهَذَا لا تَعْفُ عنه، وخُذْ منه بالحقِّ؛ من أَجْلِ أن يَكونَ نَكالًا لغيرِه، ومن أجلِ أنْ يَرتدِعَ، أما رجلٌ حَصَلَ منه العُدوانُ، وهو ليسَ من أهلِ العُدوانِ، ولكنَّه إنسانٌ بَشَرٌ، فهَذَا لا حَرَجَ أن تَعفُوَ عنه،

بل العَفْو عنه مَطْلُوبٌ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





سورة الطلاق

الدَّرسُ الأوَّل:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قولُه تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:١-٢].

قَـوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ﴾ [الطلاق:١]، فِي هَذِهِ الآيةِ الكَرِيمةِ يُخاطِبُ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ بالنِّداءِ، ثُمَّ يُخاطِبُ بصيغةِ الجَمْعِ، فيقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، ولم يَقُلْ: يا أيُّها النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقتَ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قائدُ الأمةِ، وَالخطابُ الموجَّه إِلَيْهِ مُوجَّه للأمةِ؛ ولأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُسوةٌ، وَالخطابُ المُوجَّهُ للأُسوةِ مُوَجَّهٌ لمَن يتأَسَّى به.

والطَّلَاقُ هو: حَلُّ قَيدِ النكاحِ أَوْ حَلُّ بعضِه؛ وذَلِكَ أَنَّ عقدَ النِّكاحِ يَستلزِمُ اتِّصالًا بينَ الرَّجُلِ وبينَ زَوْجتِه، وَالطَّلَاقُ حَلٌّ لهَذَا القَيْدِ، وَهَذَا الاتصالُ، إِمَّا حلٌّ لَهُ

كُلِّيَّةً، وإما حَلٌّ لبَعضِه، فإِنْ كَانَ فِي الطَّلَاقِ رَجعةٌ فَهُوَ حَلٌّ لبعضِه، وإِن لم يَكُنْ فِيهِ رَجْعةٌ فَهُوَ حَلٌّ لكُلِّه، وعَلَيْهِ فَإِذَا طلَّقَ الإِنْسَانُ زوجتَه مَرَّةً فَهُوَ حَلٌّ لبعضِه، وَإِذَا طلَّق ثلاثًا فَهُوَ حَلٌّ لكُلِّه؛ لأنَّها بِهَذَا الطَّلَاقِ لَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تنكِحَ زوجًا غيرَه.

وقَوْلُهُ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، فَلَا طَلَاقَ إِلَّا بَعْدَ نكاحٍ؛ لأَنَّ الطَّلَاقَ هُوَ حَلُّ القَيْدِ، وَالقَيْدُ لَا يَكُونُ إِلَّا بالعَقْدِ؛ وَلِهَذَا لَوْ قَالَ رجلٌ لامرأةٍ: إِنْ تَزَوَّجْتُكِ فَأَنْتِ طَالِقٌ، ثُمَّ تزوَّجها، فإِنَّهَا لَا تُطْلُقُ؛ لأَنَّ الطَّلَاقَ لا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ العَقْدِ، وهنا علَّقَ الطَّلَاقَ عَلَى امرأةٍ قبلَ أَنْ يعقِدَ عَلَيْهَا فَلَا يَقعُ هَذَا الطَّلَاقُ.

وقَوْلُهُ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾، لَمْ يُبيِّنِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حُكْمَ الطَّلَاقِ، هَلْ هُوَ جَائِزٌ، أَوْ مَمْنُوعٌ، أَوْ وَاجِبٌ، أَوْ مُستحَبٌّ؟

وللجوابِ عَلَى هَذِهِ التَّساؤلاتِ، **نُبيِّنُ حُكْمَ الطَّلَاقِ:**

الأصلُ فِي الطَّلَاقِ أَنَّهُ مَكروهٌ؛ وذَلِكَ لأَنَّهُ تنفصِمُ بِهِ عُرَى الصِّلَةِ بينَ المرأةِ وزوجِها، وَرُبَّمَا تَنفصِمُ الصِّلةُ مِنْ أجلِ هَذَا الطَّلَاقِ بينَ الرَّجُلِ وأهلِ زوجتِهِ، وأيضًا فإِنَّ الطَّلَاقَ تفوتُ بِهِ المَصالِحُ العظيمةُ المُتَرَتِّبَةُ عَلَى النِّكَاحِ.

لكِنْ إِذَا احتِيجَ إِلَيْهِ لسُوءِ عِشرةِ المرأةِ، أَوْ لسُوءِ عِشْرَةِ الزَّوجِ، أَوْ لأيِّ سَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ، فحِينَئِذٍ يَكُونُ جَائِزًا، وجوازُه من رَحْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعِبادِهِ؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يَحْتَاجُ إِليه، فقد تكونُ المرأةُ سَيِّئَةَ العِشرةِ، وَقَدْ تكونُ المرأةُ لَا تَتلاءَمُ مَعَ أَهْلِهِ، قَدْ يَمرَضُ الرجلُ فَلَا يستطِيعُ الوفاءَ بحَقِّ الزوجيَّةِ، فأَسْبَابُ الطَّلَاقِ كَثيرةٌ، فَإِذَا وُجِدَ السَّبَبُ صَارَ حَلالًا.

كثيرٌ مِنَ النَّاسِ اليومَ صَارَ يَتهاوَنُ بالطَّلَاقِ، فيُطَلِّقُ زَوْجَته عَلَى أَدْنَى سَبَبٍ، وإِنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ صَارَ يَتلاعَبُ بالطَّلَاقِ، فيَحْلِفُ بِهِ دائمًا ولأدنى سببٍ، يَقُولُ مثلًا لزَوجتِه: إِنْ فعلتِ كذا فأنتِ طَالقٌ، ويَقُولُ: إِنْ فعلتُ كذا فزوجَتِي طَالقٌ، وَمَا أشبهَ ذَلِكَ مِنَ الكلماتِ، ولاسيما فِي البَاديةِ، فإِنَّ كثيرًا أهلِ الباديَةِ إِذَا نَزَلَ بِهِ الضيفُ، وأرادَ أَنْ يُكْرِمَه بالضيافةِ بذَبحِ شاةٍ أَوْ نحوِها لَهُ قَالَ: عليَّ الطَّلَاقُ أَلَّا تَذْبَحَ، فيقولُ الثَّاني: عليَّ الطَّلَاق أَنْ أذبحَ، وحِينَئذٍ يَقَعُ التصادمُ.

فيَجِبُ عدمُ التهاونِ فِي مسألةِ الطَّلَاقِ، فمَن قَالَ لزوجتِه: إِنْ فعلتِ كذا فأنتِ طَالقٌ، ففَعَلَتْ تَطْلُقُ، وَلَا يَعتبرُون ذَلِكَ يَمِينًا، هَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ جمهورُ أهلِ العِلْمِ، ومنهم المَذاهبُ الأربعةُ، فالمسألةُ خَطيرةٌ جدًّا؛ لذَلِكَ يَجِبُ الحذرُ مِنَ التَّساهُلِ فِي هَذَا الأمرِ.

طلاقُ السُّنَّة:

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ ويَكُونُ الطَّلَاقُ للعِدَّةِ فِي حَالَينِ:

الحالُ الأُولى: إِذَا طلَّقها وَهِيَ حَاملٌ.

الحالُ الثَّانية: إِذَا طلَّقها فِي طُهْرٍ لم يُجامِعْها فيه.

لأَنَّه إِذَا طلَّقها وَهِيَ حَاملٌ شَرَعتْ فِي العِدَّةِ من حِينِ الطَّلَاقِ، وَإِذَا طلَّقها فِي طُهْرٍ لم يُجامِعْها فِيهِ، شَرَعتْ فِي العِدَّةِ من حِينِ الطَّلَاقِ؛ وَبِهَذَا يَتبيَّنُ لنا أَنَّ طلاقَ الحَامِلِ وَاقِعٌ، فبَعْضُ العَامَّةِ يَظُنُّونَ أَنَّ طلاقَ الحَامِلِ لَا يَقَعُ، وَهَذَا ظنٌّ لَا أصلَ لَهُ إِطلاقًا، ولم يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ من أهلِ العِلْمِ، فالإِنْسَانُ إِذَا طلَّقَ زوجتَه وَهِيَ حَاملٌ طَلُقَتْ.

الحالُ الثَّانية: إِذَا طلَّقها فِي طُهْرٍ لم يُجامِعْها فيه، ويَكُونُ الطَّلَاقُ لغيرِ العِدَّةِ إِذَا طَلَّقَهَا فِي حَيْضٍ، أَوْ طَلَّقَهَا فِي طُهْرٍ جَامَعَها فيه، هَذَا طلاقٌ لغَيْرِ العِدَّةِ، فيَكُونُ مُحَرَّمًا، فَإِذَا كَانَتِ المرأةُ حَائضًا وطَلَّقَهَا زَوْجُها، فَهَذَا طلاقٌ مُحَرَّمٌ، وعليكَ أَنْ تَرُدَّها؛ لأَنَّهُ طلاقٌ لغيرِ العِدَّةِ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ طلاقًا لغيرِ العِدَّةِ؟

قُلْنَا: لأَنَّ المرأةَ الحَائضَ، إِذَا طَلَّقَهَا فِي حَيْضِها لم تَشْرَعْ فِي العِدَّةِ؛ لأَنَّ بقيةَ الحيضِ لَا يُحْسَبُ مِنَ العِدَّةِ، وحِينَئذٍ يَكُونُ طَلَّقَ لغيرِ العِدَّةِ.

وإِذا طَلَّقَهَا فِي طُهرٍ جَامَعَها فيه، فَإِنَّهُ طَلاقٌ لغَيْرِ العِدَّةِ، فيَكُونُ حَرَامًا؛ لأَنَّهُ مَعْصِيةٌ للهِ، وعليه أَنْ يَرُدَّها إِلَى عِصْمَتِه؛ لِأَنَّهُ إِذَا جَامعها بَعْدَ الحيضِ، فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ تَحْمِلَ، وَإِذَا حَمَلَت صَارَت عِدَّتُها وَضْعَ الحَمْلِ، ويَحْتَمِلُ أَلَّا تكونَ حَامِلًا، فتكونُ عِدَّتُها ثلاثَ حِيَضٍ، فَهُوَ لم يُطَلِّقْ لعِدَّةٍ معلومةٍ، بَلْ طلَّقَ لعِدَّةٍ مجهولةٍ، إِمَّا حملٌ وإِمَّا حيضٌ؛ لذَلِكَ صَارَ الطَّلَاقُ فِي طُهرٍ جَامعَهَا فِيهِ حرامًا، ويَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّها إِلَى عِصْمَتِه.

وبناءً عَلَى هَذَا، إِذَا جَاءك رجلٌ يُرِيدُ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجتَه، فَهَلْ تَكْتُبُ الطَّلَاقَ مباشرةً؟

الجَوَابُ: لا، أولًا انْصَحْهُ أَلَّا يُطَلِّقَ، وقُلْ لَهُ: أنتَ إِذَا طَلَّقْتَ فَصَمْتَ عُرَى النِّكاحِ، وَرُبَّمَا تَفْصِمُ عُرَى المَودَّةِ بينَكَ وبينَ أهلِها، وفوَّتَّ عَلَى نَفْسِكَ وعَلَى أَهْلِكَ مَا يَترتَّبُ عَلَى النِّكَاحِ مِنَ المَصالِحِ، وَإِذَا طَلَّقْتَ رُبَّمَا لَا تَتيسَّرُ لكَ امرأةٌ أُخْرَى، فتَبْقَى أَعْزَبَ بلا زَوْجةٍ، فبَيِّنْ لَهُ مَضارَّ الطَّلَاقِ، فإِنْ أصرَّ عَلَى أَنْ يُطَلِّقَ، فاسْأَلْه، وقُل

له: هَلْ هِيَ حَامِلٌ، فإنْ قَالَ: حَامِلًا، فيُطَلِّقُ، حَتَّى لَوْ كَانَ قَدْ جَامَعَها قريبًا.

فإِنْ كَانتِ المرأةُ حَائضًا، فَلَا يُطَلِّقُ، وَلَوْ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أُطَلِّقَهَا وَهِيَ حَائضٌ، فَلَا تَكْتُبْ لَهُ الطَّلَاقَ، وَلَا تَشْهَدْ عَلَيْهِ؛ لأَنَّ هَذَا حَرَامٌ، وَالشَّهادةُ عَلَى الحَرَامِ، وكتابةُ الحَرَامِ حَرَامٌ.

وإذا قَالَ: إِنَّهَا طَاهرٌ وليستْ حَائضًا، فيَسْأَلُ هَلْ جَامَعَها فِي هَذَا الطُّهرِ أَوْ لَا؟

إِنْ قَالَ: إِنَّهُ جَامَعها، فَلَا تَطْلُقُ، فإِنْ قَالَ: إِنَّهُ لم يُجامِعْها، قِيلَ لَهُ: إِنْ شئتَ فَطَلِّقْ.

قولُه تَعَالَى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

الحَامِلُ عِدَّتُها وضعُ الحَمْلِ، طَالتِ المُدَّةُ أم قَصُرَت، فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهَا حَامِلٌ وطَلَّقَهَا فِي الصَّباحِ، ووضعتْ فِي المساءِ انتهتِ العِدَّةُ وحلَّتْ للأزواجِ، وَإِذَا قَدَّرْنا أَنَّهَا حَامِلٌ فطَلَّقَهَا وبَقِيَتْ عَشَرَةَ شُهورٍ، فَهِيَ فِي العِدَّةِ حَتَّى تَضَعَ، وإِنْ كَانتْ حَامِلًا وَهِيَ تَحِيضُ، فعِدَّتُها ثلاثُ حِيَضٍ كَاملةٍ، فَإِذَا طَلَّقَهَا فِي طُهْرٍ لَمْ يُجامِعْها فِيهِ، وحَاضَت أَوَّلَ مَرَّةٍ وطَهُرَتْ، ثُمَّ حَاضَتْ وطَهُرتْ، ثُمَّ حَاضَتْ وطَهُرت، انقضتِ العِدَّة، لَكِنْ لزَوْجِها أَنْ يُراجِعَها مَا دَامَتْ لم تَغْتَسِلْ مِنَ الحيضة الثَّالثةِ.

إِذا كَانَتْ حَائلًا تحيضُ، ولكنِ ارْتفَعَ حيضُها بسببِ أَنَّهَا تُرْضِعُ، وَالعَادةُ الغَالبةُ أَنَّ المرأةَ إِذَا كَانَتْ تُرْضِعُ لَا يَأْتِيها الحيضُ، فَهَذَا رجلٌ طَلَّقَ زَوْجَته وَهِيَ تُرضِعُ فِي طُهْرٍ لَمْ يُجامِعْها فِيهِ وبَقِيَت لم يَأْتِهَا الحيضُ لمُدَّةِ سنتَيْنِ، فتكونُ عدَّتُها لمُدَّةِ سَنتَيْنِ حَتَّى يَأْتِيَها الحيضُ بَعْدَ أَنْ تَفْطِمَ الصَّبيَّ وتحيضَ ثلاثَ مرَّاتٍ.

إِذا كَانَتْ لَا تحيضُ لكونِها صَغِيرةً أَوْ كبيرةً قَدْ بلغَتْ سِنَّ اليأسِ أَوْ كَانَتْ قَدْ

أَجْرَت عمليةً استأصلت الرَّحِمَ، فعِدَّتها ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطَّلَاق:٤].

إِذا كَانتِ امرأة تَحِيضُ ولكِنِ ارْتفعَ حيضُها لمَرَضٍ، وشُفِيَتْ مِنَ المَرَضِ ولم يَعُدِ الحيضُ، نَنْظُرُ إِذَا قَالَ الأطباءُ: إِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعودَ الحيضُ؛ لخللٍ فِي الرَّحِمِ صَارَت كَالآيسةِ، تَعتدُّ بثَلَاثَةِ أشهرٍ، وإِن كَانَ يُرْجَى أَنْ يَعودَ انتظرت حَتَّى يَعودَ الحيضُ فتَعْتَدُّ به.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾، معنَى أَحْصُوهَا، أَيِ اضْبِطوها، وهَذِهِ اللفظةُ مأخوذةٌ مِنَ الحَصَى؛ لأنَّ العَرَبَ كَانُوا يَضْبِطُونَ العددَ بالحَصَى، كَمَا كَانَ النَّاسُ من قبلُ يَضبِطُون العددَ بالنَّوى؛ أعنِي نوَى التَّمرِ، فيَضْبِطُون العددَ بالحَصَى، ومنه قولُ الشَّاعِرِ(١):

وَلَسْتُ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى ... وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

لستُ بالأكثرِ منهم حَصًى؛ يَعْنِي أَنْ عددَكم قليلٌ لَيْسَ بكثيرٍ، وَالعددُ القليلُ عَادةً يَكُونُ مَغْلوبًا مَهْزومًا.

فأَحْصُوا العِدَّةَ أَيِ اضْبِطوها تمامًا من أَوَّلِها إِلَى آخِرِها؛ لأَنَّ الأمرَ خَطِيرٌ، فالمرأةُ إِذَا تَزَوَّجَتْ قبلَ أَنْ تَنْقَضِيَ عِدَّتُها، فإِنَّ النِّكَاحَ باطلٌ، فيَكُونُ الزَّوجُ الثَّاني يَطَأُ امرأةً لَا تحِلُّ له؛ وَلِهَذَا أمرَ اللهُ بِإِحصاءِ العِدَّةِ.

قَوْلُهُ: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، أَيْ: لَا تُخْرِجُوهنَّ من بُيوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ؛ المرادُ ببُيوتِهِنَّ بيوتُ أَزواجِهِنَّ، فَلَا يَجوزُ للزَّوجِ إِذَا طَلَّقَ امرأتَه،

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للزرقاني (١٠/ ٣٦٧).

لَا يَجوزُ لَهُ أَنْ يُخْرِجَها من بيتِه، وَلَا يَخرجنَ؛ أَيِ النِّساءُ، فَلَا يَجوزُ للمرأةِ أَنْ تَخرُجَ مِنْ بَيْتِ زَوْجِها إِذَا طَلَّقَهَا، إِلَى انتهاءِ العِدَّةِ.

يَجِبُ أَنْ تَبْقَى المرأةُ فِي بيتِ الزَّوْجِ، ويَحْرُمُ عَلَى الزَّوْجِ أَنْ يُخْرِجَها، بَلْ تبقَى إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ العِدَّةُ؛ لأَنَّ اللهَ بَيَّنَ الحكمةَ من ذَلِكَ، فقَالَ: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، رُبَّمَا إِذَا بَقِيَت تَغيَّرَتْ أخلاقُها، ورُبَّما إِذَا بَقِيَت تَوَلَّدَ فِي قلبِ الزَّوْجِ محبةٌ لَهَا فيُبْقِيها؛ لأَنَّهُ قيلَ: أَحبُّ شَيْءٍ إِلَى الإِنْسَانِ مَا مُنِعَ، فرُبَّمَا إِذَا طَلَّقَهَا زالَ مَا فِي قلبِه عَلَيْهَا وأبقَاهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

فإِنْ قَالَ قَائلٌ: إِذَا بَقِيَت فِي بيتِ الزَّوْجِ، هَلْ يَحِلُّ أَنْ تَكْشِفَ وَجْهَها له؟

فالجَوابُ: نعم، يَحِلُّ أَنْ تَكْشِفَ وَجْهَها لَهُ، ويَحِلُّ أَنْ تتجمَّلَ لَهُ، ويَحِلُّ أَنْ تَتطيَّبَ له، ويَحِلُّ أَنْ تُكَلِمَه، ويُكَلِمَها، ويَخْلُوَ بها، كُلُّ هَذَا جَائِزٌ؛ لأَنَّهَا زَوْجَتُه.

قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي سورةِ البقرةِ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة:٢٢٨]؛ بُعولتُهنَّ يَعْنِي أزواجهنَّ، وَالزَّوْجيةُ لَا تزولُ إِذَا كَانَ الطَّلَاقُ رَجْعيًّا، إِنَّما تزولُ بانتهاءِ العِدَّةِ، وَلِهَذَا نقولُ: إِذَا طلَّقَ الإِنْسَانُ زَوْجَتَه طَلاقًا رَجعيًّا تَبْقَى فِي البَيْتِ.

واقعُ النَّاسِ اليومَ أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَ زوجتَه هَرَبَتْ مِنَ البَيْتِ، ولم تَبْقَ بِهِ، وَهَذَا حَرَامٌ عَلَيْهَا، وَرُبَّمَا يُخْرِجُها هُوَ بنفسِه، وَهَذَا حَرَامٌ عَلَيْهِ، فإِنْ خَرَجَتْ هِيَ فَهِيَ آثمةٌ، وإِنْ أَخْرَجها هُوَ فَهُوَ آثمٌ، تَبْقَى حَتَّى تنتهِيَ العِدَّةُ، ثُمَّ تَذْهَبُ إِلَى أهلِها، ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، سواء كَانت هَذِهِ الفَاحشةُ عَائدةً إِلَى الأخلاقِ، أَوْ إِلَى المعاملةِ، فإِنَّهَا حِينَئِذٍ تُخْرَجُ مِنَ البَيْتِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾، ﴿وَتِلْكَ﴾ المُشارُ إِلَيْهِ مَا سَبَقَ من وُجوبِ الطَّلَاقِ للعِدَّةِ، وَمَا سَبَقَ مِنْ تَحريمِ إِخْراجِها مِنَ البَيْتِ وخُروجِها منه، فهَذِهِ حُدودُ اللهِ ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾، وفِي هَذَا دليلٌ عَلَى تحريمِ الطَّلَاقِ لغيرِ العِدَّةِ، وعَلَى تَحْرِيمِ إخراجِها مِنَ البَيْتِ، وتحريمِ خُروجِها مِنْهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا طَلَّقَ عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ زَوْجتَه، فبَلَغَ ذَلِكَ النَّبيَّ ﷺ فتَغَيَّظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فِعْلِ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ، وأمرَ أَنْ يُراجِعَ زوجتَه، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُطَلِّقَهَا، إِمَّا طَاهِرًا أَوْ حاملًا[1].

فَإِنْ قِيلَ: رجلٌ طَلَّقَ زوجَتَهُ فِي حَيْضٍ، مَاذا يَجِبُ عَلَيْهِ؟

قُلْنَا: يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّها؛ لأَنَّ هَذَا طلاقٌ مُحَرَّمٌ لَيسَ عَلَيْهِ أمرُ اللهِ ورسولِه، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2]، فيَجِبُ عَلَيْك ردُّها.

فَإِنْ قِيلَ: طَلَّقَ زوجتَه وأخرجَها مِنْ بيتِهِ، فما الحُكْمُ؟

قُلْنَا: يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّها إِلَى البَيْتِ، وَلَوْ جاءَتْنا امرأةٌ تَذْكُرُ أَنَّ زَوْجَها طَلَّقَها، وَقَدْ خَرَجَتْ من بيتِهِ، قُلنا لها: يَجِبُ عَلَيْكِ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى بيتِكِ، هَذَا هُوَ حدُّ اللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق:١-٢]؛ أَيْ تَمَّت عِدَّتُهُنَّ، فأمسكوهنَّ بمعروفٍ أَوْ فَارقوهنَّ بمعروفٍ، إِذَا تَمَّتِ العِدَّةُ قبلَ أَنْ تَغْتسِلَ، فإِمَّا أَنْ يُفارِقَهَا وإِمَّا أَنْ يُمْسِكَها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق السُّنة، رقم (٢٠٠٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (٣٢٤٩).

قَـالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، عَلَى الطَّـلَاقِ وعَلَى الرَّجعةِ، وقَوْلُهُ: ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أَيْ ذَوِي استقامةٍ فِي الدِّينِ وَالخُلُقِ؛ لأَنَّ العَدْلَ هُوَ مَنِ استقـامَ فِي دِينِه وخُلُقِه، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾، وَالخطـابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ يَشْمَلُ الشَّاهدَيْنِ، ويَشمَلُ المُسْتَشْهِدَ؛ لأَنَّ المُستشهِدَ الَّذِي طَلَبَ الشهادةَ قَدْ أقامَ الشَّهادةَ وَامتثَلَ أمرَ اللهِ، وَالشَّاهدُ الَّذِي يُؤَدِّي مَا شَهِدَ بِهِ عَلَى حَسَبِ مَا بَلَغَه مِنَ العِلْمِ هُوَ أَيْضًا مُقِيمٌ للشَّهادةِ، ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾ [الطَّلَاق:٢-٣].

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، فقولُه: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، اللامُ هنا إما أن تكونَ للتَّعْلِيلِ، وإما أن تكونَ للتَّوْقِيتِ، فَهِي مثلُ قـولِهِ تَعالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء:٧٨]، أما أنَّها للتَّعْلِيلِ؛ لأَنَّ الزَّوالَ الشَّمْسِيَّ سببٌ للوُجوبِ، أو للتوقيتِ؛ لأَنَّ وَقْتَ الظُّهرِ إنما يَدْخُلُ إذا زَالَتِ الشَّمْسُ.

ومعنى الآيَةِ الكريمَةِ: إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فطَلِّقُوهِنَّ في استِقبالِ عِدَّتِهِنَّ، ويكونُ الطلاقُ للعِدَّةِ إذا كانَتِ المرأةُ حامِلًا، أو طاهِرًا من غَيرِ جِمَاعٍ. فتَنَبَّه لذلِكَ، إذا كانَتْ حامِلًا أو طاهِرًا من غيرِ جِماعٍ، أو صغيرةً لا تَحِيضُ، أو كبيرةً آيسَةً، والصغيرةُ التي لا تَحِيضُ تُطَلَّقُ، وكذلك الكبيرةُ الآيِسَةُ؛ لأنها تَشْرَعُ في العِدَّةِ من حينِ الطَّلاقِ، فصارَ الطلاقُ للعدَّةِ يكونُ للحامِلِ، وللآيِسَةِ، وللصغيرَةِ التي لا تَحِيضُ، وللطاهِرِ من غيرِ جِماعٍ.

فإذا طَلَّقَ الرجلُ امرأتَهُ وهي حامِلٌ، فطَلاقُهُ طلاقُ سُنَّةٍ، ويحصُلُ به الطلاقُ،

وقد اشْتَهَرَ عندَ العامَّةِ أنَّ طَلاقَ الحامِلِ لا يَقعُ، وهذا لا أصلَ لَهُ؛ بل طَلاقُ الحامِلِ واقعٌ بنصِّ القُرآنِ، وإجماعِ المسلِمِينَ. فمَنْ طلَّقَ امرأتَهُ وهي حامِلٌ وقَعَ الطلاقُ بلا شَكٍّ، ولا رَيبٍ فيهِ.

وهذا الظَّنُّ الفاسِدُ عندَ العامَّةِ يَجِبُ على طَلَبَةِ العِلْمِ أن يُبيِّنُوه، ويَنْشُروهُ؛ حتى لا يَتوَهَّمَنَّ أحدٌ خِلافَ شَريعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الطَّلاقِ.

إذن، إذا طَلَّقَ الرَّجُلُ الحامِلَ، فالطلاقُ للعِدَّةِ؛ لأنه من حينِ أن يُطَلِّقَهَا تَشْرَعُ في عِدَّتِهَا. وتنتَهِي عِدَّتُها إذا وَضَعَتِ الحَمْلَ، فإذا كانَ في بَطنِهَا حَملانِ، ووَضَعَتْ أَوَّلَهما، فلا تَنْتَهِي العِدَّةُ حتى تَضَعَ الحَمْلَ كلَّه؛ لقولِهِ تَعالَى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق:٤]. و(حَمْل) هنا مُضافٌ مُفْرَدٌ، فيَعُمُّ جميعَ الحَمْلِ. ولو وضَعَتْ بعدَ الطلاقِ بخَمسِ دَقائِقَ خرَجَتْ من العِدَّةِ؛ حتى لو طَلَّقَها وقدْ أَصابَها طَلْقُ الولادَةِ، ثم وضَعَتْ بَعْدَهُ بأقلَّ من خمسِ دقائقَ؛ فإن عِدَّتَها تَنْتَهي، وتَحِلُّ للأزْواجِ.

أما الصغيرَةُ التي لم تَحِضْ؛ فإنه يَجوزُ أن يُطَلِّقَها وهي طاهِرٌ، وأرَى أنه لا حاجَةَ أن أقولَ: وهِي طاهِرٌ؛ لأنها لا تَحِيضُ حتى نَقولَ: وهي طاهِرٌ، فإذا طَلَّقَها الزوجُ ولو كان بعدَ الجِماعِ؛ فإن الطَّلاقَ يَقعُ، وتَبْتَدِئُ العِدَّةُ من الطَّلاقِ، وعِدَّتُها ثلاثَةُ أشهرٍ، فإذا أَتمَّتْ ثلاثَةَ أشهرٍ انتهَتِ العِدَّةُ.

أما الآيِسَةُ من الحَيْضِ، سَواءٌ لكِبَرٍ، أو لعَمَلِيَّةٍ كاستئصالِ الرَّحِمِ مثلًا، تُطَلَّقُ في الحالِ ولو كان قَدْ جامَعَهَا زَوْجُها، وتَعْتَدُّ بثلاثَةِ أشهُرٍ؛ لقولِهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطلاق:٤]،

أي: واللائي لَمْ يَحِضْنَ عِدَّتُهُنَّ ثلاثَةُ أشهُرٍ.

بما سَبَقَ صارَ أنواعُ النساءِ المُطلَّقَاتِ ثلاثَة، وهي: الحامِلُ، والصَّغِيرَةُ التي لم تَحِضْ، والآيِسَةُ مِنَ الحَيْضِ، سَواءٌ لِكِبَرٍ أو لغيرِهِ، كعمليةٍ يكونُ فيهَا استِئصَالُ رَحِمٍ.

أما الرابِعَةُ: فهِي المُطَلَّقَةُ في طُهرٍ لم يُجامِعْهَا فيه، يَعْني أن المرأةَ التي ليسَ في بَطْنِهَا ولَدٌ، وهي مِمَّن يَحِيضُ، هذه لا يَكونُ طَلاقُها طَلاقًا للعِدَّةِ، إلا إذا كانَتْ في طُهرٍ لم يُجامِعْها فيه. انتبِهْ، إذا كانَتْ في طُهْرٍ لم يُجامِعْها فيهِ، فإذا كانَتْ حَائِضًا، فطَلاقُها لغيرِ العِدَّةِ، وهو مُحَرَّمٌ، وإن كانَتْ طاهِرًا لكنه قد جامَعَها زوجُها في هذَا الطُّهْرِ، فطلاقُها لغيرِ العِدَّةِ، وهو مُحرَّمٌ.

مثالُ ذلك: رَجُلٌ عندَهُ امرأةٌ تَحِيضُ، وطَهُرَتْ مِنَ الحيضِ، ولم يُجامِعْهَا بعدَ طُهْرِهَا مِنَ الحَيضِ، وطَلَّقَها، فإنْ قيلَ: هلِ الطَّلاقُ هذا للعِدَّةِ أو لَا؟ قلنَا: نعم للعِدَّةِ؛ لأنه طَلَّقَها طاهِرًا من غَيرِ جِماعٍ، فيكونُ الطلاقُ للعِدَّةِ، وتَبْتَدِئُ العِدَّةُ من طَلاقِهِ، ويكونُ اعتِدَادُها بثلاثَةِ قُروءٍ، أي: بثَلاثِ حِيَضٍ. فإن قيل: كَمْ مُدَّةً تَبْقَى مِنَ الزَّمَنِ؟ قلنا: لا نَدْرِي، فقَدْ تَبقَى ثلاثَةَ شهورٍ، وقد تَبْقَى شَهرينِ، وقد تَبقَى ثلاثَ سنواتٍ، فهل يُمكِنُ أن تَبْقَى ثلاثَ سَنواتٍ؟! نَعَم يُمكِنُ، وذلك أن تَحِيضَ مرَّةً ويرْتَفِعَ حَيْضُهَا، ولا نَدْرِي، فتَنْتَظِر، أو يرتَفِعُ حَيْضُهَا لمرَضٍ، ويَبْقَى المرَضُ معَها مُستمِرًّا، أو يَرتَفِعُ حيضُهَا لكونِها تُرْضِعُ، وتَبْقَى كلَّ زمَنِ الرَّضاعِ لا تَحِيضُ.

المُهِمُّ، أنَّ المُطَلَّقَةَ التي لا تَحِيضُ عِدَّتُهَا ثَلاثَةُ قُروءٍ، سَواءٌ أطالَتِ المُدَّةُ أم لم تَطُلْ؛ لكنه مِنَ المعلومِ أنَّها لا تَنْقُصُ عن شهْرٍ. ودليلُ ذلِكَ قولُ اللهِ تعالَى:

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة:٢٢٨]، أي: ثَلاثَ حِيَضٍ.

ذَكَرْنَا في القِسْمِ الرابعِ أنه لا يكونُ الطلاقُ للعِدَّةِ إلا إذا طَلَّقَهـا في طُهرٍ لم يُجامِعْها فيه؛ فإن طلَّقَها في الحَيْضِ فليسَ طَلاقًا للعِدَّةِ، وهو طلاقٌ مُحَرَّمٌ، ويُسميهِ الفقهاءُ طَلاقًا بِدْعِيًّا، معَ أنه ليسَ من قِسْمِ التعبُّدِ، بل هو مِنْ قِسْمِ الأمورِ العَمَليَّةِ غيرِ التَّعَبُّدِيَّةِ؛ ولكنَّ الفُقهاءَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أَطْلَقُوا عليه اسْمَ البِدْعِيِّ؛ لأنه لم يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ورَسُولُهُ.

وهذا الطَّلاقُ -كما قُلْنا- يكونُ لغيرِ العِدَّةِ؛ لأنه إذا جَامَعَهَا ثم طلَّقَهَا؛ فإننا لا نَدْرِي أتكونُ حامِلًا أم غيرَ حامِلٍ، فإن كانَتْ حامِلًا فعِدَّتُهَا في وضعِ الحَمْلِ، وإن لم تَحْمِل فعِدَّتُها ثَلاثُ حِيَضٍ، ونحن الآن متَرَدِّدُونَ: يَحْتَمِلُ أنها حَمَلَتْ من هذا الوَطْءِ، فتكونُ عِدَّتُها من عِدَّةِ الحامِلِ، ويَحْتَمِلُ أَنَّها لم تَحْمِلْ، فتكونُ عِدَّتُها عدَّةَ الحائضِ، فكان طَلاقُه إياها لغيرِ عِدَّةٍ مُتيقَّنةٍ، ولهذا صارَ حرَامًا.

أما الحائضُ، فظاهِرٌ أنه طَلَّقَها لغيرِ العِدَّةِ؛ لأن الحَيْضَةَ التي وقَعَ فيهَا الطلاقُ لا تُحْسَبُ عليهَا، فلا يكونُ قد طلَّقها للعِدَّةِ.

وإذا جاء رَجُلٌ يَستفْتِي، ويقولُ: إنه طلَّقَ زَوْجَتَهُ وهي حائضٌ، نقولُ له: يَجِبُ عليك أن تَرُدَّهَا وُجُوبًا، ثم تنتَظِرَ حتى تَطْهُرَ، ثم تَحِيضَ، ثم تَطْهُرَ، ثم إن شِئتَ بعدَ ذلك فطَلِّقْها قبلَ أن تَمَسَّهَا، وإن شئتَ فأَمْسِكْهَا؛ لأن النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَخْبَرَهُ عُمَرُ أن عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ طلَّقَ زوجتَهُ وهي حائضٌ، تَغَيَّرَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واغتاظَ مِن هذا الفِعْلِ، وقال: **«مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيَتْرُكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ، ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ، فَتِلْكَ العِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُطَلَّقَ**

لِهَا النِّسَاءُ»[1].

رَجُلٌ آخَرُ جاءَ يَسأَلُ يقولُ: إنَّه طَلَّقَ زَوْجَتَهُ في طُهرٍ جامَعَها فيهِ، نقولُ له: يَجِبُ عليك أن تُراجِعَها، ثم تُمسِكَهَا حتى تَحِيضَ، ثم تَطْهُرَ، ثم إن شِئتَ أمْسِكْهَا، وإن شئتَ طلِّقَها قبلَ أن تَمَسَّهَا.

رجلٌ ثالثٌ جاءَ يَسأَلُ يقولُ: إن عِندَهُ زوجَةً صغيرَةً، أو زَوْجَةً لا تَحِيضُ، سواءٌ أكانَ ذلِكَ لكِبَرٍ أو لأيِّ سببٍ مِنَ الأسبابِ، فجَامَعَهَا، ثم طَلَّقَها قبلَ أنْ يَغتَسِلَ من غُسْلِ الجَنابَةِ، نقولُ له: طَلاقُكَ صحيحٌ؛ لأنها من الأقْسامِ الثلاثَةِ السابِقَةِ.

فإن قالَ قائلٌ: قُلْتُم: إنَّ مَنْ طلَّق طَلَاقًا بِدْعيًّا يَجِبُ عليه أن يُراجِعَ، فهَلْ تُحتَسَبُ هذه الطَّلقَةُ عليه، أم تكونُ لاغِيَةً؟

قُلنا: جمهورُ أهلِ العِلْمِ -ومنهم الأئمةُ الأربعةُ- على أَنَّها طَلْقَةٌ محسُوبَةٌ على الزَّوْجِ، وواقِعَةٌ معَ الإثْمِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لِعُمَرَ: **«مُرْهُ، فَلْيُرَاجِعْهَا»**[2]، ولا مُراجَعَةَ إلا بعدَ وُقوعِ طلاقٍ، والشيءُ يُعلَمُ حُكْمُهُ بالنَّصِّ عليه، أو بنَصٍّ على ما يكونُ مَلْزومًا لَهُ، أو لازِمًا له، وعلى هذا فإنَّ قولَ رسولِ اللهِ ﷺ: **«مُرْهُ، فَلْيُرَاجِعْهَا»**، دليلٌ على أن الطَّلاقَ وَقَعَ، وأنه مَحْسوبٌ مِنْ طَلاقِهَا، وقد جاءَ ذلِكَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي (البخاري)، فحُسِبَتْ من طَلاقِهَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، رقم (٧١٦٠)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، رقم (١٤٧١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، رقم (٧١٦٠)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، رقم (١٤٧١).

وذهَبَ شَيْخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ(١) رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّ الطَّلاقَ البِدْعِيَّ لَا يَقعُ، وقال: إنَّ فِي وقوعِهِ تَثْبيتًا للبِدْعَةِ، وإمْضاءً للحَرامِ، وهذا خِلافُ ما تَقْتضيهِ قَواعدُ الشَّرْعِ، بل خِلافُ ما تَقْتَضيهِ نُصوصُ الشَّرْعِ؛ لأنه ثَبَتَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ من حَديثِ عائشةَ، أنه قالَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»(٢)، ومَعْنَى «رَدٌّ» أي: مَردودٌ، وهذا الحديثُ عامٌّ لا يُمكِنُ أن يَخْرُجَ منْه أيُّ فرْدٍ من أفرادِ العُمومِ إلا بدَليلٍ صَحِيحٍ صَريحٍ، قال شيخُ الإسلامِ: ولأَنَّنا لو أَمْضَيْنَا ما كانَ حَرامًا، لكانَ هذا رِضًا بالحَرامِ، وتَثْبِيتًا للحَرامِ، وهذا لا يَستَقِيمُ على قواعدِ الشَّرْعِ.

ولكننا نقولُ لشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيمِيَّةَ: أَجِبْ عَنْ قولِهِ ﷺ: «**مُرْهُ، فَلْيُرَاجِعْهَا**»، فإنَّ مُراجعَتَها فَرْعٌ عن وُقوعِ الطَّلاقِ، وإذا كانَ فرعًا عن وُقوعِ الطَّلاقِ دَلَّ ذلِكَ على أن الطلاقَ البِدْعِيَّ واقعٌ، لكنه رَحِمَهُ اللَّهُ يُجِيبُ ويقولُ: إن المُراجعَةَ في الكتابِ والسُّنَّةِ ليست هي المُراجَعَةَ في كلامِ الفُقهاءِ، كلامُ الفُقهاءِ في المُراجعَةِ أنها إعادةُ مُطَلَّقَةٍ رَجْعِيَّةٍ إلى عِصْمَةِ النِّكاحِ، لكنَّ المُراجَعَةَ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ أعَمُّ من ذلك، فهِي بمَعْنَى الردِّ مُطْلَقًا، واستدَلَّ رَحِمَهُ اللَّهُ بقولِهِ تعالَى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة:٢٢٩]، إلى قولِهِ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾، أي: طلَّقَها المرَّةَ الثالثةَ، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا﴾، أي: طلَّقَها الزَّوجُ الثَّانِي، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ [البقرة:٢٣٠]، والفاعِلُ في: ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يَعودُ إلى الزَّوجِ الأوَّلِ والمرأةِ، ومعلومٌ أن المُراجَعَةَ هنا ليستِ المراجَعَةَ الاصطِلَاحِيَّةَ، وهي إعادةُ

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٣/ ٢٢- ٢٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

المُطلَّقَةِ إلى عِصْمَةِ النِّكاحِ، ولكنها تجْديـدٌ، أنه يَبْقَى بينَهُما حَبْلٌ واحـدٌ، وهو المراجَعَةُ، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، يعني انتهَتِ العِدَّةُ، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٢] إلى متى؟ قال العلماءُ: إلى أن تَغْتَسِلَ لأوَّلِ صلاةٍ تمُرُّ بِها بعدَ انتهاءِ العِدَّةِ، فما دَامَتْ لم يأتِ وَقْتُ صلاةٍ تَغْتَسِلُ فيه؛ فإنَّ له أن يُراجِعَهَا.



الدَّرسُ الثَّاني:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق:١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ الخطَابُ لِلجماعةِ، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ الخطابُ لِلْجماعةِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ النداءُ لِواحدٍ.

فإنْ قِيلَ: كَيْفَ كَانَ النداءُ لِواحدٍ وَالخطابُ الموَجَّهُ لِلْمُنَادَى لِجَماعةٍ؟

قُلْنا: لأنَّ الخطابَ المُوجَّهَ لِلنَّبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خِطابٌ له وَلِأُمتِهِ معَهُ؛ ولأنَّ هَذا مِن أَجْلِ أَنْ يَتبينَ عِظمُ شَأْنِ الطَّلاقِ، وأنَّ اللهَ خَاطبَ فِي أَحكامِ الطَّلاقِ إمامَ الأمةِ، وهُوَ نَبيُّنا ﷺ لِيَدُلَّ ذَلِك عَلى أَنَّ أحكامَ الطلاقِ هَامَّةٌ جِدًّا؛ وَلِهَذا نُودِيَ بِهَا إمامُ الأمةِ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ نُطَلِّقُهنَّ لِعِدَّتِهِنَّ؟

قُلنا: أَنْ يُطلِّقَها الإنسانُ وَهِيَ طَاهِرٌ مِنَ الحيضِ مِنْ غيرِ جِماعٍ، أَوْ يُطلِّقَهَا وَهِيَ حَاملٌ، فَهذَا طَلاقُ العِدَّةِ، وَعَكسُ ذَلكَ أَنْ يُطلِّقَها وَهِي حَائضٌ، أَوْ أَنْ يُطلِّقَها

فِي طُهرٍ جَامَعَهَا فِيهِ، وَلَمْ يَتبيَّنْ حَمْلُهَا، فإِذَا طَلَّقها حَامِلًا فَقَدْ طَلَّقها لِلعدَّةِ؛ لأَنَّها تَشْرَعُ فِي عدَّتِها فَوْرًا.

وعدةُ الحامِلِ: وَضْعُ الحَمْلِ حَتَّى لو لَمْ يَبْقَ بَعْدَ طَلاقِهِ إِلَّا دَقيقةٌ واحدةٌ، فَإِنَّها تَنْتَهِي عِدتُهَا بِوَضْعِ الحملِ وَلَوْ طَلَّقها ثُمَّ خَرَجَ الجنينُ بعدَ طلاقِهَا بِخَمسٍ دقائقَ أَوْ أقلَّ، فإِنَّ عِدَّتَها تَنتَهِي؛ لِقولِهِ تَعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

وقدِ اشْتَهَرَ عنْدَ العامةِ أَنَّ الحاملَ لَا طَلاقَ عَلَيْها، وَالذي لَا خِلافَ فِيه بَيْنَ العُلَماءِ أنَّ طلاقَ الحاملِ يَقعُ.

ثَانِيًا: أَنْ يُطَلِّقَها فِي طُهْرٍ منَ الحيْضِ لَمْ يُجامِعْهـا فِيهِ؛ فإِذَا طَلَّقَهـا فِي طُهْرٍ لَمْ يُجامِعْهَا فِيهِ فإِنَّه يَكونُ قَد طَلَّقَها لِلعدَّةِ، إذْ إِنَّهَا تَشْرَعُ فِي عِدَّةٍ مُتيقَّنةٍ مِنْ حِينِ أَنْ يُطَلِّقَهَا.

والعِدَّةُ المُتيقَّنةُ هِيَ ثَـلاثُ حِيضٍ، وَقَولهُ تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة:٢٢٨]، أَيْ: ثَلاثَ حِيضٍ.

كَثيرٌ منَ العامَّةِ يَظُنُّونَ أَنَّ عِدَّةَ المرأةِ إِذَا طُلِّقت وَهِي غيرُ حَاملٍ ثَلاثةُ أشهرٍ، وَهَذَا خطأٌ، فَعِدةُ المُطلَّقةِ ثَلاثةُ أَشْهُرٍ إِذَا كَانتْ صَغِيرةً لَمْ يَأْتِها الحيضُ بعدُ، أَوْ إِذَا كَانت آيِسَةً[1]؛ لِقَولِهِ تَعالَى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [الطلاق:٤]. أمَّا الَّتي يَأْتِيها الحيضُ فَعِدَّتُها ثَلاثُ حيضٍ.

---

(١) المحلى بالآثار لابن حزم (١٠/ ٢٨).

فَلَوْ كانتِ المرأةُ لَا يَأْتِيها الحيضُ فِي ثَلاثةِ أَشهرٍ إِلَّا مَرَّةً، فتكونُ عِدَّتُهَا تِسعةَ أَشهرٍ.

وَلَو طَلَّقَها وَهِيَ تُرْضِعُ، وَالعادةُ أَنَّ المرأةَ المُرْضِعَ لَا يَأْتِيها الحيضُ، فَظَلَّت سَنَتَيْنِ وَلَمْ يَأْتِها الحيضُ، حَتَّى فَطَمت الصَّبِيَّ، فتكونُ عِدَّتُها ثَلَاثَ حِيَضٍ بَعْدَ السَّنَتَيْنِ.

فإِذَا طَلَّقها فِي طُهرٍ جَامَعها فِيه، فَالطلاقُ مُحَرَّمٌ؛ لأَنَّهُ طَلَّقَها لِغَيْرِ العِدَّةِ؛ لأَنَّ هذِهِ المرأَةَ التِي وُطِئتْ لَا نَدْرِي هَل حَمَلَتْ منَ الوَطْءِ، فتكون عِدَّتُها عِدةَ حاملٍ، أَمْ لَا تَحْمِلُ فتكون عِدَّتُها بِالحيضِ، فكَان طَلَاقُه حِينئذٍ لِعدةٍ مُحتملةٍ؛ وَهَذا التَّرددُ يَكونُ مُفسِدًا، أَوْ بِالأصحِّ يَكونُ مُحرِّمًا للطلاقِ.

فإِنْ طَلَّقها وهِيَ حَائضٌ، فَالطلاقُ إِذَنْ مُحَرَّمٌ؛ لِأَنَّهُ لَم يُطَلِّقْ لِلعدَّةِ، إِذْ إِنَّ هذهِ الحَيْضةَ التِي وَقَعَ فِيهَا الطلاقُ لَا تُحسَبُ مِنَ العِدَّةِ، وَإِذا كَانت لَا تُحْسَبُ منَ العدةِ، فَمُقْتَضاه أَنَّه لَمْ يُطَلِّقْ لِلْعِدَّةِ، وَحِينَئذٍ يَكونُ الطلاقُ حَرَامًا.

فَإن قِيلَ: لَوْ طَلَّقها وهِي نُفساءُ، فَهَلْ يَكونُ مُطَلِّقًا لِلعدةِ أَو لَا؟

قُلنَا: يَكون مُطَلِّقًا لِلعِدَّةِ؛ لأنَّ النِّفاسَ لَا يُعتبرُ منَ العِدةِ، وَلَا يُحتسبُ منَ العِدةِ، فإِذَا طلَّقها فإِنَّها تَشرَعُ حالًا فِي عِدَّتِها؛ إِذْ إِنَّ عِدَّتَها ثَلاثُ حِيضٍ، وَالنِّفاسُ لَا يُحْسَبُ منَ العِدةِ، بِخِلافِ مَا إِذَا طَلَّقها فِي الحيضِ، فإِنَّ الحَيْضَ منَ العدةِ؛ وَلِهَذَا يَحْرُمُ أَنْ يُطلِّقَها وهيَ حَائضٌ. أَمَّا إِذَا طَلَّقها وهِي نُفَساءُ فَيكونُ قَد طَلَّقها لِلْعِدَّةِ، فَيَقعُ الطَّلَاقُ.

وهنَا يَرِدُ سُؤالٌ: لو أَنَّ إنسانًا طلَّق لغَيْرِ العِـدَّةِ، كأَنْ يُطَلقَها وَهِي حَائضٌ،

أَوْ فِي طُهرٍ جَامعَها فِيه، فَهَل يَكونُ الطلاقُ وَاقعًا وَنَافذًا مَعَ التَّحريمِ، أَو لَا؟

الجوابُ: فِي هذَا خِلافٌ بَيْنَ العلماءِ، وجُمْهورُ أهلِ العلمِ أَنَّ هَذَا الطلاقَ وَاقعٌ، مَعَ التَّحريمِ، فَإِذَا طَلَّقَها وَهِي حَائضٌ حُسبَ علَيْه، ولكِنَّه يُؤمَرُ بِأَنْ يُراجِعَهَا حتَّى يُطَلِّقَها فِي طُهرٍ لَمْ يُجامِعْها فِيه؛ لأنَّ هذَا هوَ الطلاقُ لِلعدةِ، وَمَا أَكْثَرَ الذِينَ يُطَلِّقونَ لِغَيْرِ العِدةِ إمَّا جَهْلًا مِنْهُمْ، وإِمَّا لأَنَّهمْ يُطلقونَ إذا غَضِبوا أَدْنى غَضبٍ، وَلَا يَسألونَ عَنْ زَوْجَاتِهم، هَل هُنَّ فِي حَالٍ تَصْلُحُ لِلطلاقِ أَو لَا، فَلْيَحذرِ الإنسانُ أَنْ يُطلقَ زَوْجتَه وَهِيَ حَائضٌ، أَوْ أَنْ يُطلقَها فِي طُهرٍ جَامعَها فِيه، إلَّا إِذَا تَبيَّنَ حَمْلُها بَعدَ الجماعِ، فَلْيُطَلِّقْها[1].

عدةُ المطلقةِ:

تَكَلَّمْنَا قبلُ عن مسائلَ مُهمةٍ بالنسبةِ للطلاقِ، وذَكَرْنَا أنهُ يَجِبُ على الإنسانِ أَلَّا يتعدَّى حدودَ اللهِ فيهِ، وأن يُطلِّقَ للعدةِ، وأن الطلاقَ للعدةِ يكونُ على وجهينِ لا ثالثَ لهما، وهما: أن تكونَ حاملًا أو طاهرًا مِن غيرِ جماعٍ.

لكن، إذا طلقَ امرأتَه وهيَ حائضٌ؛ هل يكونُ طلاقًا للعِدَّةِ، أم لغيرِ العِدَّةِ؟

الجوابُ: يكونُ طلاقًا لغيرِ العِدَّةِ، فيكونُ حرامًا.

فإذا طَلَّقَها في طُهرٍ جامَعَهَا فيهِ؛ أيضًا ليسَ منَ العدةِ.

فإذا طلقَها حاملًا، فهوَ طلاقٌ للعدةِ، ويكونُ حلالًا.

إذن؛ لو قيلَ: ما هوَ الطلاقُ الذي ليسَ فيهِ عِدَّةٌ؟

---

(١) المغني لابن قدامة (٨/ ٢٤١).

فالجوابُ: إذا طَلَّقَها ولم يَدْخُلْ عليها، ولم يَخْلُ بها.

تنبيهٌ:

المطلقاتُ بالنسبةِ إلى العِدَّةِ على أربعةِ أقسامٍ:

القسمُ الأولُ: اليائسةُ، وهيَ التي لا تَحيضُ ولا يُرْجَى عودُ الحيضِ إليها، مثل الكبيرةِ، والتي استؤصلَ رحمُها، فهذهِ عِدَّتُها ثلاثةُ أشهرٍ؛ والدليلُ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ [الطلاق:٤].

القسمُ الثاني: المرأةُ التي لا يأتيها الحيضُ لصِغَرِها، فهذهِ تَعْتَدُّ ثلاثةَ أشهرٍ أيضًا، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطلاق:٤].

القسمُ الثالثُ: إذا كانتِ المرأةُ تحيضُ، فهذهِ عِدَّتُها ثلاثُ حِيَضٍ، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ [البقرة:٢٢٨].

القسمُ الرابعُ: إذا كانتْ لا تحيضُ، لكن يُرْجَى أن يَعودَ الحيضُ إليها؛ فهذهِ تَنْتظِرُ حتى يَعودَ الحيضُ إليها فتَعْتَدُّ بهِ. مثالُها: المرضعُ؛ فإن الغالبَ أن المُرضِعَ لا تحيضُ، فلو طَلَّقَ زَوْجتَه وهيَ تُرضعُ، وبَقِيَتْ سنتينِ أو ثلاثًا؛ فإنها تَنْتَظِرُ حتى يَعودَ الحيضُ إليها، فتَعْتَدُّ بثلاثِ حَيْضاتٍ.

ولكن بعضُ الناسِ -حتى من طلبةِ العلمِ- يَظُنونَ أن المرأةَ التي تُرضعُ ولا يأتيها الحيضُ تعتدُّ بثلاثةِ أشهرٍ، وهذا لا شكَّ أنهُ جهلٌ؛ فإنَّ الحائضَ التي تُرضعُ يَجِبُ أن تَنتظِرَ حتى يعودَ الحيضُ، ولو بَقِيَتْ سنةً أو سنتينِ في العِدَّةِ.

فإن قيلَ: ما الدليلُ على أنها تعتدُّ ثلاثَ حيضاتٍ وليسَ ثلاثةَ أشهرٍ؟

قلنا: الدليلُ عُمومُ قولِه تَعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة:٢٢٨]، حيثُ اسْتَثْنَى الصغارَ، واللائي يَئِسنَ منَ المحيضِ، ومَن لم يُدْخَلْ بها؛ ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب:٤٩]، فبقيتِ المرأةُ التي ارتفعَ حيضُها لسببٍ يُرجى مَعَهُ أن يعودَ الحيضُ؛ أي: بقيتْ داخلةً في عمومِ قولِه تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وأما المطلقةُ قبلَ الدخولِ فليسَ عليها عِدَّةٌ كما ذَكَرْنا، وإذا لم يَكُنْ لها عِدَّةٌ فلا رَجْعةَ؛ فإنهُ مِن يومِ أن يُطَلِّقَها تَمْلِكُ نفسَها؛ لأن الرُّجوعَ إنما يَكونُ في العِدَّةِ، ولا عِدَّةَ لمَن طُلِّقَتْ قبلَ الدخولِ.

والدليلُ على أن المُراجعةَ هيَ للتي تَكونُ في العِدَّةِ قولُه تَعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ إلى أن قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة:٢٢٨].

فهؤلاءِ الثلاثُ: المطلقةُ بعِوضٍ، والمطلقةُ آخرَ ثلاثِ تطليقاتٍ، والمطلقةُ قبلَ الدخولِ، كلُّ هؤلاءِ ليسَ فيهم رجعةٌ.

أما المطلقةُ بعدَ الدخولِ على غيرِ عوضٍ، فهذهِ فيها رجعةٌ؛ للآيةِ الكريمةِ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وأما الفسوخُ التي تثبتُ لوجودِ عيبٍ أو فواتِ شرطٍ؛ فإنهُ لا رجعةَ فيها إلا بعقدٍ جديدٍ؛ لأن الفسخَ ليسَ بطلاقٍ.

فإن قيلَ: لماذا؟

قيلَ: لأنهُ ليسَ بطلاقٍ، مثالُ ذلكَ: امرأةٌ اشترطتْ على زوجِها شيئًا مُعَيَّنًا؛

وهوَ أن يَأْتِيَ لها بمهرٍ قَدرُه عشرونَ ألفًا، فلم يأتِ إلا بمهرٍ قدرُه عَشَرَةُ آلافٍ، ثم صارَ يُماطِلُ بالعشرةِ الباقيةِ، فلها في هذا الحالِ أن تَفسَخَ العقدَ؛ لأنه فاتَ شرطٌ منَ الشروطِ التي اشترطتْه على زوجِها.

أما وُجودُ العيبِ؛ فمثالُ ذلكَ: رجلٌ تزوجَ امرأةً، ولما دخلَ عليها وجدهَا عمياءَ لا تبصرُ، فهذا عيبٌ، ولهُ أن يَفْسَخَ العقدَ.

أو هيَ تزوجتْ برجلٍ فوجدتْه أعمى، ولم تَعْلَمْ بعماه؛ فلها أيضًا أن تَفْسَخَ هذا النكاحَ؛ لوجودِ العيبِ.

فهذا ليسَ فيه رجعةٌ؛ لأن الفسخَ ليسَ بطلاقٍ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة:٢٢٨]، ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة:٢٢٨].

والخلاصةُ: أنَّ اللاتي ليسَ فيهنَّ رَجْعَةٌ هُنَّ:

الأولى: المطلقةُ قبلَ الدخولِ، ليسَ فيها رجعةٌ، ولا تَحِلُّ للزوجِ إلا بعقدٍ؛ لأنهُ ليسَ لها عِدَّةٌ، والرجعةُ إنما تكونُ في العدةِ.

الثانيةُ: التي طُلقتْ بعوضٍ، يعني مثلًا لو أن المرأةَ أو وليَّها أو أحدًا آخرَ أعطى الزوجَ دراهمَ -ولو قليلةً- على أن يطلقَ، فطلقَ على هذهِ الدراهمِ، فإنه لا رجعةَ لها إلا بعقدٍ جديدٍ.

الثالثةُ: المطلقةُ ثلاثًا؛ فليسَ لها رجعةٌ، وهذه تُسمَّى بينونةً كبرى؛ لأنها لا تحلُّ لزوجِها الذي طلقَها ثلاثًا إلا بعدَ أن تنكحَ زوجًا غيرَه، ويجامعُها، ويكونُ النكاحُ نكاحَ رغبةٍ لا نكاحَ تحليلٍ.

الرابعةُ: أن يكونَ الفِراقُ بفسخٍ؛ مثل أن يكونَ الفراقُ لعيبٍ، أو لفواتِ

شرطٍ؛ فالعيبُ مثل أن تَجِدَه أعمى، أو يَجِدَها عمياءَ؛ فهنا لا رجوعَ إذا فُسخَ العقدُ، ولا تحلُّ لهُ إلا بعقدٍ.

وأما فواتُ شرطٍ: فمثلُ أن تشترطَ أن يكونَ مهرُها عشرينَ ألفًا، ولم يُسَلِّمْها إلا عشرةً، فإنه ليسَ له رجوعٌ عليها إلا بعقدٍ جديدٍ.

إذن فالمرأةُ التي لها رجعةٌ هيَ المرأةُ التي طُلقتْ بعدَ الدخـولِ على غيرِ عوضٍ في نكاحٍ صحيحٍ دونَ ما يملكُ منَ العددِ.

فهذهِ خمسةُ شروطٍ، فإن اختلَّ شرطٌ واحدٌ فإن النكاحَ ليسَ رجعيًّا، ولا يمكنُ الرجوعُ إلى امرأتِه إلا بعقدٍ جديدٍ، إلا إذا استكملتِ العدةَ فيضافُ إلى العقدِ الجديدِ: أن يكونَ بعدَ نكاحِ زوجٍ آخرَ.

وقولنُا: «التي طُلقتْ» احترازٌ منَ الفسخِ، أي: منَ التي فُسخَ نكاحُها.

وقولُنا: «بعدَ الدخولِ» احترازٌ منَ التي قبلَ الدخولِ.

وقولنُا: «على غيرِ عوضٍ» احترازٌ منَ التي طلقتْ بعوضٍ.

وقولُنا: «في نكاحٍ صحيحٍ» احترازٌ منَ التي طُلِّقتْ في نكاحٍ غيرِ صحيحٍ؛ مثلَ أن يتزوجَ إنسانٌ امرأةً بلا وليٍّ، ثم يُطلقها؛ فإن هذا الطلاقَ ليسَ فيهِ رجعةٌ؛ لأن النكاحَ فاسدٌ، والرجعةُ إنما تكونُ في نكاحٍ صحيحٍ، والفاسدُ لا رجوعَ فيهِ.

وقولُنا: «دونَ ما يملكُ منَ العَدَد» وهوَ الثلاثةُ؛ فإن طلقَ ثلاثًا فلا رجعةَ.

وهناكَ قاعدةٌ عندَ العلماءِ تقولُ: إذا طُلقتْ ثلاثًا فالبينونةُ كبرى، وإذا لم يملكِ الرجعةَ وليستْ بسببِ الطلاقِ الثلاثِ فالبينونةُ صغرَى.

فإن قيلَ: هلِ الطلاقُ يملكُ فيه المطلِّقُ الرجعةَ؟

فيقالُ: أحيانًا يملِكُها، وأحيانًا لا يملكُها؛ فإن كانَ الطلاقُ على عوضٍ تبذلُهُ المرأةُ أو وليُّها أو غيرُهما -قليلًا كانَ أو كثيرًا- فإنهُ لا عودةَ لزوجِها عليها إلا بعقدٍ جديدٍ تامِّ الشروطِ.

مثالُه: قالتِ امرأةٌ لزوجِها: أنا أعطيكَ ألفَ ريالٍ وطلقني، فقالَ: نعمْ، وطلقَها على ألفِ ريالٍ، فهل يملكُ الرجوعَ؟

الجوابُ: لا يملكُ الرجوعَ.

حتى في العدةِ؛ لو قالَ: أنا رجعتُ، وخذي الألفَ ريالٍ التي أعطيتِني، فليسَ له رجوعٌ؛ ودليلُ ذلكَ قولُه تَعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢٩]، أي: في العوضِ الذي تفتدي بهِ نفسَها، ولو كانَ يملكُ الرجوعَ لم يكن في هذا العوضِ ابتداءٌ؛ لأن المُبْتَدِئَ بالشيءِ عنِ الشيءِ معناهُ أنه مَلَكَ المُعَوَّضَ ممن أُعْطِيَ العِوَضَ.

فإن قالَ قائلٌ: لو تَراضَى الزوجُ والزوجةُ على الرجوعِ معَ بذلِ العِوضِ فهل هذا يَصِحُّ؟

قُلنا: لا بأسَ إذا تَراضَيا، لكن بشرطِ أن يكونَ هناكَ عقدٌ جديدٌ، ومهرٌ، وشهودٌ؛ كأنهُ يَتزوَّجُها الآنَ.

فأما إذا كانَ الطلاقُ ثلاثًا؛ بأن طلقَ زوجتَه ثم راجعَ، ثم طلقَ، ثم راجعَ، ثم طَلَّقَ؛ فهذهِ الطلقةُ الثالثةُ لا رُجوعَ له عليها، ولو رَضِيتْ، ولو رَضِيَ وليُّها، ولا تَحِلُّ لهُ إلا بعدَ أن تَتزوَّجَ زوجًا آخرَ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

﴿تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة:٢٢٩]، ثم قال بعدَ ذلكَ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ [البقرة:٢٣٠]، أي: بعدَ المَرَّتينِ، وهذهِ الطلقةُ هيَ الثالثةُ: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا﴾ [البقرة:٢٢٩]، أي: الزوجَ الثاني؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ [البقرة:٢٢٩]، أي: أن تَرْجِعَ إلى زَوجِها الأولِ، لكن بعقدٍ جديدٍ، ومهرٍ، وشهودٍ؛ كأنه يَتزوجُها الآنَ، فصارتِ المطلقةُ ثلاثًا بائنةً من زوجِها بينونةً كبرى، لا تَحِلُّ له إلا بعدَ أن تَنكِحَ زوجًا غيرَه بنكاحٍ صحيحٍ.

فإن قالَ قائلٌ: لوِ اتَّفَقَ الزوجُ الأولُ معَ زوجٍ آخَرَ على أن يَتَزَوَّجَها، وقالَ: تَزَوَّجِ امرأتي التي طَلَّقْتُها وأنا أُعطيكَ مَهْرًا، ولكنْ إذا دَخَلْتَ عليها وجامعتَها طَلِّقْها؛ حتى تَرْجِعَ إليَّ؛ فهلْ تَحِلُّ لزوجِها الأولِ؟

فالجوابُ: لا؛ لا تَحِلُّ للزوجِ الأولِ، ولا للزوجِ الثاني؛ لأن نِكاحَ الزوجِ الثاني نِكاحُ تحليلٍ لِمَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وتَحَيُّلٌ على محارمِ اللهِ، والتَحيُّلُ على تحليلِ ما حَرَّمَ اللهُ باطلٌ؛ ولهذا جاءَ في الحديثِ عنِ الرسولِ ﷺ أنهُ قال: «**لَعَنَ اللهُ المُحَلِّلَ وَالمُحَلَّلَ لهُ**»[1]. وسمَّى المُحَلِّلَ «**التَّيْسَ المُسْتَعَارَ**»[2]، يعني كأنهُ تَيْسٌ استُعِيرَ لِيَقْرَعَ العنزَ ويَرجِعَ، فهذا النكاحُ الثاني الذي كان نكاحَ التحليلِ لا يَحِلُّ ولا يصحُّ، ولا تحلُّ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب في التحليل، رقم (٢٠٧٦)، والترمذي: أبواب النكاح، باب ما جاء في المحلل والمحلل له، رقم (١١١٩)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب إحلال المطلقة ثلاثا وما فيه من التغليظ، رقم (٣٤١٦)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب المحلل والمحلل له، رقم (١٩٣٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب النكاح، باب المحلل والمحلل له (رقم ١٩٣٦)، والطبراني (١٧/ ٢٩٩، رقم ٨٢٥)، والحاكم (٢/ ٢١٧، رقم ٢٨٠٤) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (٧/ ٢٠٨، رقم ١٣٩٦٥) . وأخرجه أيضًا: الروياني (١/ ١٧٥، رقم ٢٢٦)، والدارقطني (٣/ ٢٥١) .

بِهِ الزوجةُ للزوجِ الثاني، ولو طلقَها لم تَحِلَّ للزوجِ الأولِ.

فإن قالَ قائلٌ: لو تزوجتْ زوجًا آخرَ بدونِ قصدِ التحليلِ، وطلَّقَها قبلَ أن يُجامِعَها؛ فهلْ تحلُّ للزوجِ الأولِ؟

فالجوابُ: لا تحلُّ.

فإن قيلَ: كيفَ لا تحلُّ؛ وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة:٢٢٩]؟

قُلنا: لأن السُّنةَ دلَّتْ على ذلكَ؛ ففي صحيحِ مسلمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَاءَتِ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ إِلَى النَّبِي ﷺ فَقَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ فَطَلَّقَنِي فَبَتَّ طَلاَقِي، فتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّبِيرِ، وَإِنَّ مَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ، لاَ، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ**». قَالَتْ: وَأَبُو بَكْرٍ عِنْدَهُ، وَخَالِدٌ بِالبَابِ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ، فَنَادَى: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَا تَسْمَعُ هَذِهِ مَا تَجْهَرُ بِهِ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ(١).

ولا يتحققُ هذا إلا بالدخولِ، إذن لا تحلُّ للزوجِ الأولِ إلا بعدَ أن تتزوجَ زوجًا آخرَ بنكاحٍ صحيحٍ، ويجامُعها، ثم إن شاءَ بعدُ طلَّقها، وإن شاءَ لم يطلِّقْها.

وهنا مسألةٌ نذكرُها: وهيَ: أنهُ إذا مـاتَ الزوجُ قبلَ أن يدخلَ بزوجتِهِ؛ فما الذي يترتبُ على ذلكَ؟

الجوابُ: يترتبُ على ذلكَ بعضُ الأحكامِ، منها: ثبوتُ الميراثِ، وثبوتُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب من أجاز الطلاق الثلاث، رقم (٥٢٦٠)، ومسلم: كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثا لمطلقها حتى تنكح زوجا غيره، ويطأها، ثم يفارقها وتنقضي عدتها، رقم (١٤٣٣).

العدةِ، وثبوتُ الصداقِ كاملًا، فإذا عقدَ الإنسانُ على امرأةٍ وماتَ عنها ثبتتْ هذهِ الأحكامُ:

أولًا: أنها ترثُ منه ميراثًا كاملًا.

ثانيًا: أنها تستحقُّ الصداقَ كاملًا.

ثالثًا: عليها العدةُ.

وذلكَ لأن مسألةَ الموتِ ليستْ كمسألةِ الحياةِ، والعلةُ في ثبوتِ العدةِ لغيرِ المدخولِ بها هوَ الاحتياطُ لها؛ فإذا صارَ عليها عدةٌ فهنا نعرفُ ونحتاطُ.



الدَّرسُ الثَّالِث:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ [الطلاق:١]، الخطابُ الموجهُ لِلرسُولِ ﷺ ولسائلٍ أن يسألَ: هلْ هُو خاصٌّ بِه، أَم هُو عامٌّ لَه وَللأمةِ؟

نقولُ: هَذا عَلى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسمُ الأولُ: أنْ يَدُلَّ الدليلُ عَلى أَنَّه عامٌّ، كَهذهِ الآيةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾، ولمْ يقلْ: يَا أيُّها النبيُّ إذَا طلقتَ.

القسمُ الثَّاني: أنْ يكونَ هناكَ دليلٌ عَلى أَنَّه خاصٌّ بِه، فيكونُ خَاصًّا به، مثلُ قولِهِ: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الصدر:١]، فشرحُ الصَّدرِ هُنا خاصٌّ بِالرسولِ.

القِسمُ الثَّالثُ: أَلَّا يَدُلَّ دليلٌ عَلى هذَا ولَا عَلى هذَا، فهلْ هُو خاصٌّ بِه، ويكونُ لِأُمتِهِ عنْ طَرِيقِ الأسوةِ بِهِ، أَو عامٌّ لَه وَللأمةِ ولَكِنَّه خُوطبَ بِهِ؛ لأَنَّه زَعِيمُ الأُمةِ؟ والعادةُ أنَّ خِطابَ الأُمةِ يُوَجَّهُ إِلى زَعِيمِها، والواقعُ أنَّ هذَا خلافٌ يكادُ يكونُ خِلافًا لَفظِيًّا؛ لأنهُ عَلى كِلا القَولينِ يَدُلُّ عَلى أنَّ الحُكْمَ عامٌّ لِلأُمةِ.

وهنَا يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾، هُو منَ القسمِ الأولِ الَّذي فِيهِ الدليلُ عَلَى أنَّ الخطابَ عامٌّ لِلرَّسولِ ﷺ وللأُمَّةِ، وقولُهُ تَعالَى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٦]، هذَا لهُ ﷺ وَللأُمةِ.

وقَولُهُ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فَما هوَ طلاقُ المرأةِ لِعِدَّتِها؟ طـلاقُ المرأةِ لِعِدَّتِها: أَنْ يُطلِّقَها طَاهرًا مِن غيرِ جماعٍ، طـاهرةً منَ الحيضِ، ولمْ يُجامعهَا فِي هذَا الطُّهرِ، هذَا هوَ طلاقهَا لِعِدَّتِهَا، فإنْ طلَّقها وهيَ حَائضٌ فَقد عَصَى اللهَ؛ لأَنَّه لَمْ يُطلِّقْها لِلعِدةِ، وإنْ طلَّقها فِي طُهرٍ جَامعها فِيهِ، فقدْ عَصى اللهَ؛ لأَنَّهُ لَم يُطلِّقْها لِلعِدةِ، أمَّا إذَا طَلقَها وهيَ حاملٌ، فَلَيس فِي هذَا الطلاقِ مَعصيةٌ؛ لأَنَّه طلَّقها لِلعدةِ، إذْ إنَّ المرأةَ الحاملَ بِمجردِ مَا يُطلِّقها زَوجُها، تَبدأ فِي العدةِ، فصارَ الطلاقُ مُباحًا إذَا طلَّقها وهيَ حاملٌ، أَو طَلَّقها فِي طهرٍ لم يُجامعها فِيهِ، والطلاقُ المُحرَّمُ: أنْ يُطلقها وهيَ حائضٌ، أَو فِي طُهْرٍ جَامَعها فيهِ، فَالطلاقُ أربعةُ أقسامٍ: وهيَ حاملٌ، وفِي طُهرٍ لمْ يُجامِعْ فيهِ، وهيَ حائضٌ، وفِي طُهرٍ جَامَعها فيهِ، اثنانِ حلالٌ، واثنَانِ حرامٌ.

قـالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق:١]، أَحصوا العِدَّةَ يَعْنِي: اضبِطُوها؛ لأنَّ أمرَ النِّكاحِ عظيمٌ، هوَ أشدُّ العقودِ خطرًا؛ ولِذَلك جعلَ اللهُ لِلدخولِ فيهِ شُروطًا، ولِلْخروج مِنْهُ شُروطًا.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق:١]، لَا تُخْرِجوهنَّ الضميرُ يَعود عَلى النساءِ المُطَلَّقاتِ، فإذَا طَلَّقَ الإنسانُ زَوْجَته وَجبَ عليهِ أنْ يُبْقِيَها فِي البيتِ، ولا يَجوزُ أَنْ يُخْرِجَها منهُ، وعَمَلُ الناسِ عَلى خلافِ هذَا، فَالمشهورُ أَنَّ الرجلَ إذَا طلقَ امرأتَهُ طَردَها، وهذَا حرامٌ، ومَعصيةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ بلِ الواجبُ أنْ تَبقَى فِي البيتِ، لَا تُخْرِجوهنَّ مِن بُيوتِهنَّ؛ ولِهَذَا أَضافَ البيوتَ إِلى المرأةِ، أَضافَ البيوتَ إِلى النِّساءِ، كأنَّ بَقاءَها

فِي البيتِ حقٌّ لهَا؛ لأنهُ بَيتُها، فكيف يُخْرِجُها مِنه؟! إنْ أَخْرَجَها مِنه فهوَ ظَالِمٌ لَها؛ لأنَّ البيتَ بَيْتُها؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، أمَّا إذَا أرادتْ هيَ أنْ تَخْرُجَ -كَما هيَ عادةُ بعضِ النساءِ إِذَا طلَّقَها زَوْجُها حَزِنتْ وخَرَجت هِي بنَفْسِها- نقولُ: لَا تَخْرُجْ، حرامٌ عَلَيها أنْ تَخرُجَ، ولَا يَخْرُجْنَ إِلى انتهاءِ العدةِ، إلَّا أنْ يَأتينَ بِفاحشةٍ مُبيِّنةٍ فَلَا بأسَ أنْ يُخرِجَها.

والفاحشةُ المُبيِّنةُ فَسَّرَها كثيرٌ منَ العلماءِ بأنْ تكونَ بَذِيئةَ اللسانِ، مُؤذيةً لهُ ولِأَهلِه، فَفي هذهِ الحَالِ يُعذرُ إِذَا أَخْرَجَها منَ البيتِ، أمَّا بدونِ ذَلك فحرامٌ عَليه أنْ يُخرِجَها.

ثمَّ قالَ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق:١]، هذَا التعليلُ -تعليلُ النهيِ عنْ إِخراجِهنَّ وخُروجِهنَّ- لَا تَدْري لعلَّ اللهَ يُحْدِثُ بعدَ ذلكَ أمرًا، فَما هوَ الأمرُ؟ هذَا الأمرُ هوَ أنَّهُ رُبَّما يُراجِعُهَا، فإذَا بَقِيتْ فِي البيتِ وتَغيَّرَ رأيُهُ، والقلوبُ بِيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قدْ يُقلِّبُ البغضاءَ محبَّةً، والمَحبَّةَ بُغضًا، يُراجعهَا فِي البيتِ ولَا كأنَّ شيئًا جَرى؛ ولِهَذَا قالَ: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، وبِهذا التعليلِ عَرفنا أنَّه لوْ كانَ الطلاقُ آخرَ ثلاثِ تَطليقاتٍ، يَعني الطلقةَ الثَّالثةَ، فإنَّه لهُ أنْ يُخْرِجَها؛ لأنهُ لَا يَحْدُثُ بعدَ ذلكَ أمرٌ؛ لأنَّهُ لَا رجعةَ، فهيَ بَائنةٌ منهُ بينونةً كُبْرَى، فإذَا بَلَغْنَ أَجلهنَّ فَأَمْسكوهنَّ بِالمعروفِ أَو فَارقوهنَّ بِالمعروفِ، وَتَبلغُ أَجلَها إذَا حاضتْ ثَلاثَ مراتٍ، إنْ كانتْ مِمَّنْ يَحيضُ، فإذَا حاضتْ ثَلاثَ مراتٍ، فأمْسِكْها بِمعروفٍ، أَو فَارِقْها بِمعروفٍ، أمَّا إذَا طَهُرتْ منَ الحيضةِ الثَّالثةِ، هَل يُمسِكُهَا وقدِ انقضتِ

العدةُ وَلَمْ يُراجِعْ، وهَل يُراجِعُها؟

كثيرٌ منَ العُلماءِ يقولُ: لَا يراجعُ؛ لأنَّ العدةَ انْقضتْ، وَالصحيحُ أَنَّه يُرَاجِعُها مَا لَمْ تَغتسِلْ منَ الحيضِ؛ وَلِهذا قالَ: ﴿ **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** ﴾، وعَلى الرأيِ الآخرِ يَكونُ مَعْنَى ﴿ **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ** ﴾، أَيْ: إِذَا قَارَبْنَ بُلوغَ أَجَلِهنَّ فَأَمسكوهنَّ بِالمعروفِ أَو فَارقوهنَّ بِمعروفٍ.

﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، عَلى المرَاجعةِ أَو عَلى الطَّلاقِ، أَو عَلَيهما جميعًا، أَشْهِدْ عَلى الطَّلاقِ، وأَشْهِدْ عَلى الرجعةِ.

ثمَّ قالَ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾، هذهِ المرأةُ الَّتي لَا تَحِيضُ عِدَّتُها ثَلاثةُ أشهرٍ هِلَاليةٍ، أَو تُكمِلُ العِدَّةَ ثَلاثينَ، يَعْني هَل تُكمِلُ ثَلاثةَ أَشهرٍ كلُّ وَاحدٍ ثَلاثونَ، فَيكونُ الجميعُ تِسعينَ يومًا، أَو هِلَاليةً ولَو نَقصتْ عَن تِسعينَ يومًا؟

نقولُ: هِلاليةٌ؛ لأنَّ هذَا هوَ المعتبرُ شَرْعًا، أَمَّا اللائِي يَئسنَ منَ المحيضِ فعِدَّتُهنَّ ثلاثةُ أشهرٍ، وعندَ العامةِ أَنَّ المُطلقةَ تَعتدُّ ثَلاثةَ أشهرٍ ولَوْ كَانتْ تحيضُ، وهذَا غلطٌ؛ وَلِهَذا لَو سُئلنا: أَيُّهما أطولُ: عدةُ الآيسةِ أَو عدةُ منَ تحيضُ؟ إنْ قُلنا: الآيسةُ أَخْطَأنا، وإنْ قُلنا: مَن تَحِيضُ أَخطَأنا، أَحيانًا تكونُ المرأةُ لَا تَحِيضُ فِي الشَّهرينِ إلَّا مرةً واحدةً، فَعدَّتُها ستةُ شهورٍ، وأَحيانًا تَحيضُ فِي الشهرِ مرَّتينِ، فعِدَّتُها شهرٌ ونصفٌ؛ ولهذَا تَختلِفُ؛ لكنْ إذَا كانتْ مِمَّنْ يَئِست منَ المحيضِ فعدَّتُها ثَلاثةُ

أشهرٍ، وتيأسُ منَ المحيضِ فِي **عدةِ وجوهٍ**:

أَولًا: أنْ تَبْلُغَ سنًّا يَنقطعُ بهِ الحيضُ عادةً، مثلُ أنْ تبلغَ خمسينَ سنةً، أَو ستينَ سنةً، حَسب حالِ النساءِ.

ثَانيًا: أنْ تُجْرِيَ عمليةً بِقَطْعِ الرَّحمِ؛ لأنَّ أحيانًا يكونُ فِي الرحمِ مرضٌ يَسري فِي الجسمِ كَالسَّرطانِ، فيُقَرِّرُ الأطباءُ قَطْعَهُ ويُقْطَعُ، فتكونُ هذهِ آيسةً منَ المحيضِ، لَا يمكنُ أنْ يَعودَ إلَيْهَا الحيضُ، وقَد قُلنا: إنَّ عدَّتَه ثَلاثةُ أشهرٍ.

ثَالثًا: أنْ تُصابَ بِجفوفٍ يُعلم مِنه أنَّهُ لنْ يعودَ إلَيْهَا الحيضُ، فهذِهِ أَيضًا عدَّتها ثَلاثةُ أشهرٍ.

فكلُّ مَنْ يَئِستْ منَ المحيضِ لِأَيِّ سببٍ منَ الأسبابِ فَعدَّتُها ثلاثةُ أشهرٍ، فإنْ قِيلَ: منْ أينَ تَبْتدِئُ، أمِنْ عِلمها، أَمْ مِن طَلَاقِها؟ نقولُ: منْ طَلَاقِها، وهذهِ هِيَ **الحالُ الأُولَى** منْ حَالاتِ عدةِ المطلقاتِ، نشرعُ الآنَ فِي الحالاتِ الأُخْرَى.

الحالُ الثَّانيةُ: مَنْ طُلِّقتْ وهيَ حاملٌ، فعِدَّتُها إلى وَضْعِ الحملِ؛ لِقولهِ تَعالَى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

الحالُ الثَّالثةُ: مَنْ طُلِّقَتْ بعدَ الدُّخولِ وهيَ تحيضُ، فعِدَّتُها ثلاثُ حِيَضٍ؛ لِقولِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨].

الحالُ الرَّابعةُ: مَنْ طُلِّقتْ بعدَ الدُّخولِ وهيَ لَا تَحِيضُ، فهي إمَّا صغيرةٌ أوْ آيسةٌ، فَعِدَّتُها ثلاثةُ أشهرٍ، هذهِ عِدَّةُ الطَّلاقِ، أمَّا الوفاةُ فهيَ عَلى نوعينِ فقطْ:

الأُولَى: منْ ماتَ عنهَا زَوجُها وهيَ حاملٌ، فعدَّتُها وضعُ الحملِ، طالتْ أَو قَصُرَتْ.

الثَّانيةُ: مَنْ تُوفِّي عَنها زَوجُها وهيَ حائلٌ أَيْ: غيرُ حاملٍ، فعِدَّتها أَربعةُ أشهرٍ وعشرةُ أيامٍ، سوَاءٌ حاضتْ ثَلاثَ حيضٍ، أَو لمْ تَحِضْ، أَو حَاضَتْ أكثرَ.

فصارَتِ المُطلقةُ أَربعةَ أوجهٍ لِعِدَّتِها: قبلَ الدخولِ، وهي حَاملٌ، وبَعدَ الدخولِ وهيَ تحيضُ، وبعدَ الدخولِ وهيَ لَا تحيضُ، أمَّا المُتوَفَّى عَنها زَوْجُها، مَن كَانت حَاملًا أَو حَائلًا، الحاملُ عِدَّتُها وَضْعُ الحملِ وَلَو طَالتِ المدةُ أَوْ قَصُرت، والحائلُ عِدَّتُها أَربعةُ أشهرٍ وَعشرةُ أيامٍ. والمعتبرُ فِي الاحتسابِ بِالأشهرِ الهِلاليَّةِ، وَلَيس بِالعددِ.

وليعلمَ أَنَّه -معَ الأسفِ الشديدِ- أنَّ الطَّلاقَ صارَ فِي أَلْسُنِ كثيرٍ منَ الناسِ سَهلًا، نطلقُ عَلى أدْنَى سببٍ، وهذَا أمرٌ خطيرٌ، وأنَا أَضْرِبُ لكمْ مثلًا: كثيرٌ منَ الناسِ يَنزِلُ بهِ ضيفٌ ويريدُ أنْ يُكْرِمَ ضَيفَهُ بِذبيحةٍ منْ غَنَمِهِ حاضرةٍ لَا تحتاجُ إِلى تعبٍ، فَيقولُ الضيفُ: عليَّ الطلاقُ لَا تَذْبَح، ويقولُ المُضِيفُ: عليَّ الطلاقُ لَأَذْبحنَّ لَك. فَصِرْنا الآنَ فِي مُشكلةٍ، مَن نَأْخُذُ بقولِهِ؟ وكلُّ هذَا منَ السَّفَهِ، وإِنِّي أقولُ لكمْ: المسألةُ خَطيرةٌ لِلغايةِ، لَو قالَ رجلٌ لِامرأتهِ: إِنْ خَرجتِ منَ البيتِ فأنتِ طالقٌ، فَهنا إمَّا أنْ يُرِيدَ الشرطَ، وإمَّا أنْ يُرِيدَ اليمينَ، إنْ أرادَ الشرطَ، فإنَّها إذَا خَرَجتْ طَلُقَتْ، ولَا إشكالَ فِي ذلكَ؛ لأنَّ ذلكَ طلاقٌ مُعَلَّقٌ عَلى شرطٍ، وقَد حصلَ، وإذَا وُجِدَ الشَّرطُ ثبتَ المشروطُ، كَما لَو قالَ: إذَا طَلَعتِ الشَّمسُ فَأَنتِ طَالقٌ، فَإِنه إذَا طَلَعتِ الشمسُ تَطْلُقُ، وهذَا محَلُّ إجماعٍ منَ العلماءِ، فهذِهِ حالةٌ.

وهناكَ حالٌ ثانيةٌ: وهيَ أنْ يُريدَ بقولِهِ: إنْ خَرَجْتِ فأَنْتِ طالقٌ. الحثَّ عَلى عَدَمِ الخروجِ، يَعني يُريدُ مَنْعَها، وأَتى بهذِهِ الصيغةِ تَهديدًا لَها، وخَرَجَتْ، فَهل تَطْلُقُ أَو لَا؟

أقولُ: جُمهورُ الأمةِ وجميعُ الأئمةِ عَلى أَنَّهَا تَطْلُقُ، فَيَجِبُ التنبهُ لهذَا؛ لأنَّ هذهِ مسألةٌ خَطيرةٌ، يَعني إذَا قالَ لِزوجتِهِ: أنتِ طالقٌ إنْ خَرَجْتِ منَ البيتِ، فأكثرُ عُلماءِ الأمةِ وَالأئمةُ الأربعةُ كلُّهم يَقولونَ: إذَا خَرَجَتْ تَطْلُقُ، حتَّى وإنْ قَصَدْتَ التهديدَ، ولَيْس عَلينا مِن نِيَّتِهِ، لكنَّ شيخَ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابنَ تيميةَ يَرى أَنَّه إذَا قصدَ اليمينَ أُعطيتْ هذهِ الصيغةُ حُكْمَ اليَمينِ[1]، ومَعْنَى قَصدِ اليمينِ أَنَّهُ يقولُ: أَنَا لَا أَقْصِدُ الطَّلاقَ، وزَوْجتي عِنْدي غَاليةٌ، ولَا أُفَرِّطُ فِيها، لكنِّي ذَكَرْتُ ذَلك تَهديدًا لَهَا؛ لِأجلِ أَلَّا تَخْرُجَ؛ لأَنَّهَا هِي أَيضًا تَكْرَهُ طَلاقِي، فَهَذَا يَرَى شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّها إذَا خَرَجتْ لَا تَطْلُقُ؛ لكنْ عليهِ أنْ يُكَفِّرَ كفارةَ يَمينٍ، وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هوَ القولُ الصحيحُ مِنْ حَيثُ النَّظرُ، قِياسًا عَلى العتقِ الَّذِي وردَ عنِ الصَّحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وتَعليقُ الطَّلاقِ يقولُ شيخُ الإسلامِ عنهُ: إنَّهُ ليسَ مَعروفًا عندَ الصَّحابةِ، فَيُقاسُ عَلى مَا كَان مَعروفًا عِندَهمْ، وإنَّما قلتُ لكمْ ذلكَ لِتَحذروا منَ التَّعجلِ فِي هذَا الأمرِ؛ لأنَّ الإنسانَ الآنَ إذَا قالَ لِزَوْجتِه: إذَا خرجتِ منَ البيتِ فأنتِ طالقٌ، يُريدُ بِذلك المنعَ وَيُهددها بِالطلاقِ، فخرجت، وأَخَذتِ بِقولِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ فإنها لَا تطلقُ، ولكنْ عَليها كفارةُ يَمينٍ، أَفلا تَعلمونَ أَنَّه يَطؤها عندَ جمهورِ الأمةِ وَطْئًا حَرامًا؟! بَلى هُو يَطؤها عندَ جمهورِ الأمةِ وَطأً حرامًا؛ لأَنَّهَا طالقٌ، ولا بدَّ منَ الرجعةِ، إمَّا بِالقولِ، وإمَّا بِالفعلِ الدالِّ عليهِ، وهذَا لَمْ يراجعِ، بَلْ جَامعهَا عَلى أَنَّها زَوجةٌ لَم يَقَعْ عَليها الطلاقُ، والجمهورُ لَا يقولونَ بِهذا، فَالمسألةُ خَطيرةٌ جدًّا.

فَإِيَّاكم أَن تَتَسرعوا فِي هَذَا، وإِذَا أَرادَ الإنسانُ أنْ يَمتنعَ منَ الشَّيْءِ فإِنَّه لَا أحدَ يُكْرِهُهُ، لَو قَالَ الضَّيفُ الَّذي نَزَلَ بِمُضيفِه: لَا تَذْبَحْ، أَنْتَ إذا ذَبحت فَإِني لَا آكُلُ،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٣٣/ ٧، وما بعدها).

هَل ذَلك المُضِيفُ سَيُخْرِجُ عَليهِ المسدسَ يقولُ: لا بدَّ أنْ تحلفَ بِالطلاقِ، لا أبدًا لنْ يقولَ ذلكَ، سيقولُ: إنِ اشْتَهَيْتَ فكُلْ، وإلَّا فاتْرُكْ، فَما الَّذي يُوجِبُ الطلاقَ؟! كلُّ هذَا منَ الغلطِ والتهاونِ فِي حدودِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ونظيرُ ذلكَ أنَّ بعضَ السُّفهاءِ إِذَا أرادَ أنْ يُطَلِّقَ زَوجتَهُ طَلاقًا لَا إشكالَ فيهِ، جاءَ لِلكاتبِ قالَ: اكْتُبْ زَوْجتي طَالقٌ بِالثلاثِ، فَهَذَا لَا يَصْلُحُ، هذَا حرامٌ، لَا يَجوزُ الطلاقُ الثَّلاثُ جَميعًا، فإنْ سَأَلناه عَن ذَلك قالَ: أَنَا لَا أُريدُهَا، وقَدْ طَابتْ نَفْسي مِنْهَا، اكْتُبْ بِالطلاقِ الثَّلاثِ، نَقولُ لهُ: إذن إذَا كَتَبنا أنَّها طلقةٌ وَاحدةٌ، هَل أَحَدٌ يُجْبِرُكَ عَلى أنْ تُراجِعَ! لَا، لَا أحدَ يُجْبِرُهُ، طَلِّقها واحدةً، ولَا أحدَ يقولُ لكَ: لا بدَّ مِنْ أَنْ تُراجعَ، وإِذَا انتهتِ العِدَّةُ بَانَتْ مِنكَ، لَا حَاجةَ إِلَى أَنْ تُلْزِمَ نَفسَكَ الطَّلاقَ بِالثلاثِ؛ لأَنَّكَ أَيضًا إذَا طَلَّقْتَ بِالثلاثِ بَقِيتَ فِي مُشكلةٍ، وهيَ أَنَّ أكثرَ العلماءِ -ومِنْهمُ المذاهبُ الأربعةُ- يَرون أنَّ طلاقَ الثَّلاثِ بكلمةٍ واحدةٍ طَلاقٌ بائنٌ، لَا تَحِلُّ بهِ المَرْأَةُ، يَعني مَثلًا واحدٌ قَالَ لِزوجتِهِ: أَنْتِ طَالقٌ ثلاثًا؛ أكثرُ الأمةِ وأكثرُ علماءِ المسلِمينَ يَقولونَ: إِنَّها لَا تَحِلُّ لهُ، وقَد بَانت مِنهُ بَيْنونةً كبرى، لَا تحلُّ إِلَّا بعدَ زوجٍ.

ومنَ العُلماءِ مَن يَرَى أَنَّهَا تَطْلُقُ طلقةً واحدةً، مثل شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقولهُ هوَ الصوابُ؛ لأنَّ ابنَ عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: كانَ الطلاقُ الثلاثُ فِي عهدِ النبيِّ ﷺ يُعَدُّ طلقةً واحدةً، وكذَلِك فِي عهدِ أَبِي بكرٍ، وَسَنَتَين منْ خِلافةِ عمرَ، فلَمَّا كثرَ الطلاقُ الثلاثُ فِي الناسِ، وكانَ عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَشهورًا بِالحزمِ، قالَ: أَرَى الناسَ قَدِ استعجلُوا فِي شيءٍ كَانت لهمْ فِيه أناةٌ، فلو أَمْضَيناه عَليهم، فَأَمْضاه عَليهم،

وقالَ: مَن طَلق الثَّلاث لَا يُمكن أنْ يُراجعَ؛ وذلكَ لِيرتدعَ النـاسُ عَنِ الطَّلاقِ الثلاثِ المُحرَّمِ[1]، فَمَشَى العلماءُ خَلْفَ أميرِ المؤمنينَ عُمرَ، وقالُوا: إنَّ الإنسانَ إِذَا طلقَ بِالثلاثِ بَانتِ المرأةُ منهُ، وَلمْ يَملكِ الرجعةَ إِلَيْها إلَّا بعد زوجٍ.

فأقولُ: إنَّ بعضَ السفهاءِ يَأْتي إِلَى الكاتبِ وَيقولُ لهُ: لا بُدَّ أنْ تكْتُبَ الطَّلاقَ الثَّلاثَ، ولكنْ هلِ الكاتبُ الآنَ فِي هذهِ الحالِ يَكْتُبُ أَو لَا يَكْتُبُ؟ إذَا كانَ قَدْ وَكَّلهُ يَعْنِي قالَ: اكْتُبْ، أَيْ: جَعَلَهُ وَكيلًا فَلا يَكْتُبُ؛ لأَنَّهُ لَا يجوزُ قَبولُ الوَكَالةِ فِي أمرٍ مُحرَّمٍ، فَعليهِ أَنْ يَمْتَنِعَ عنِ الكِتابةِ، أمَّا إذَا كانَ هذَا الزَّوْجُ يُخْبِرُ عَنْ طلاقٍ سَابقٍ، وأَتَى إِلى هذَا الكَاتِبِ لِيثبتهُ فَقَطْ، فَهنا يَكْتُبُ.

فإنْ قالَ قائلٌ: كَيف يَكتب شَيئًا مُحرَّمًا؟

قيلَ: لأنَّ الحقَّ تَعلَّقَ بثالثٍ، وهوَ الزوجةُ، فلا بُدَّ أنْ يَكْتُبَ هذَا منْ أَجْلِ أنْ يَتبيَّنَ الحالُ لِلزوجةِ، فصارَ الرجلُ إذَا قالَ لِلإنسانِ: تَعالَ اكْتُبْ طَلاقَ زَوْجَتي إنْ جَعَلَه وَكيلًا، يَعني وَكَّلهُ يَكْتُبُ الطلاقَ فَهو وَكِيلٌ، ولَا يقعُ الطَّلاقُ حتَّى يكتبَ هذَا الرجلُ، وإذَا قالَ: اكتبْ بِالثلاثِ. لَا يَكْتُبُ الثلاثَ؛ إذْ لَا يجوزُ قَبولُ وَكالةِ أمرٍ مُحَرَّمٍ، أمَّا إذَا قالَ: اكْتُبْ طَلاقَ زَوْجَتي، يَعني الذِي كُنتُ قُلتُهُ، وطَلَّقتُها فَهنا يَكتبُ، نسأَلُ اللهَ لَنَا ولكمُ الهدايةَ وَالتَّوفيقَ.

وَلِهَذَا يَنْبغي عَلى المُطَلِّقِ أَولًا أنْ يَتأنَّى ولَا يَتَعَجَّلَ فِي الطَّلاقِ، وكَمْ منْ إنسانٍ طَلَّقَ ثمَّ نَدِمَ، وقدْ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، رقم (١٤٧٢).

ثمَّ إنِّي أَقولُ: الإنسانُ قَد يَكْرَهُ زَوجتَهُ مَثلًا اليومَ وَغدًا وبعدَ غدٍ، لكنَّ مُقَلِّبَ القُلوبِ جَلَّ وَعَلَا يُقَلِّبُ قَلبَهُ، فلَا يَثْبُتُ عَلى البَغضاءِ، القلوبُ بيدِ اللهِ، وكمْ منْ إنسانٍ أَبغضَ شَخْصًا اليومَ وأَحَبَّهُ غدًا! وكمْ منْ إنسانٍ أَحَبَّهُ اليومَ وأَبغَضَهُ غدًا! فالواجبُ الصبرُ، لَا سِيَّما أنَّ الزواجَ بِالنساءِ فِي هذهِ الأزمانِ صارَ غَاليا جدًّا، المَهْرُ يَصِلُ إِلى أربعينَ ألفًا، والأربعونَ ألفًا كمْ يَبْذُلُ الشابُّ حتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا؟! ونحنُ هُنا نَتكَلَّمُ عنِ المهرِ المعتدلِ، وليسَ عنِ المهرِ الذِي يُغالي فِيه الناسُ، دَعونا منْ مَهرِ الجنونِ، مَا عَلَينا منهُ، لكنَّ المهرَ المُعتدِلَ يَكونُ أَربعينَ ألفًا، وكيفَ يُحَصِّلُهُ الشابُّ المسكينُ الَّذي تَخَرَّجَ حَدِيثًا؟ لِذَلك أقولُ: عَلى الإنسانِ أنْ يَصْبِرَ، ويتأَنَّى، وينتظرَ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُقَلِّبُ القلوبِ.





سورة التحريم

الدَّرسُ الأوَّل:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

ففي هَذَا اليومِ الخميسِ التاسعِ والعشرين من شهرِ جُمادَى الآخرةِ عامَ ثمانيةَ عشرَ وأربعِ مئةٍ وألفٍ استمعنا إِلَى قراءةِ إمامِنا فِي المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ مِنْ سُورَةِ التحريمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم:١].

فِي هَذِهِ الآيةِ الكريمةِ يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للرَّسُولِ ﷺ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، والذي حرَّمه هُوَ العَسَلُ، لأَنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شَرِبَ عَسَلًا عندَ إِحْدَى أُمَّهاتِ المُؤْمِنِينَ فتَمالَأَتْ عائشةُ وحفصةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بناءً عَلَى طبيعةِ المَرْأةِ وجِبِلَّتِها فِي الغَيْرَةِ مِنْ جارتِها عَلَى أن تَقُولَا للنبيِّ ﷺ: أَكَلْتَ مَغَافِيرَ[١]، والمغافيرُ له رائحةٌ غيرُ مرغوبةٍ، فلما قالتا ذلك للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**لَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلًا، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ، وَقَدْ حَلَفْتُ لَا تُخْبِرِي بِذَلِكِ أَحَدًا**»[٢]، مُحرِّمًا إياه عَلَى نفسِه فأَنْزَل اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾، والاستفهامُ هنا

---

(١) المغافير: صمغ حلو يؤكل وله ريح كريهة منكرة. انظر: النهاية لابن الأثير (غفر)، وتاج العروس للزبيدي (غفر).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة التحريم، رقم (٤٩١٢)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، رقم (١٤٧٤).

للعتابِ، أي إنَّ اللهَ عَاتَبَه كيفَ يُحَرِّمُ ما أحلَّ اللهُ له من أجلِ مرضاةِ أزواجِه، أي بعضِ الأزواجِ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فتأَمَّلْ كيف عَاتَبَ اللهُ نَبِيَّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم عَلَى هَذَا التحريمِ ثمَّ أَرْدَفَه بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. يعني أن اللهَ قَدْ غَفَرَ له صلى الله عليه وعلى آله وسلم ورَحِمَه، ثمَّ قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:٢]، يعني شَرَعَ لكم تَحِلَّةَ الأَيْمانِ، أي أنْ يَتَحلَّلَ الإِنْسَانُ منها بالكَفَّارَةِ، ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢].

يُستفادُ من هَذِهِ الآيةِ أنَّ الإِنْسَانَ لا يَنْبَغِي له أَنْ يُحرِّمَ ما أحلَّ اللهُ له لأيِّ سببٍ يكونُ، لا تَقُلْ: هَذَا الطعامُ عَلَيَّ حرامٌ، أو كلامي لزيدٍ حرامٌ، أو ذَهَابِي إِلَى البلدِ الفُلَانيِّ حرامٌ، لا تَقُلْ هكذا، لأنَّ اللهَ قالَ للنبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو أكرمُ الخلقِ عندَ اللهِ قالَ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾. وقال اللهُ تَعالَى لعُمُومِ المُؤْمِنِينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة:٨٧].

فإنْ قالَ قائلٌ: وإذا حَرَّمَ الرجلُ شيئًا حَلالًا فكيفَ التَّخَلُّصُ؟

قُلنا: التَّخلُّصُ بما ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، أن يُكَفِّرَ كفَّارةَ اليَمِينِ، وحِينَئذٍ تَنْحَلُّ يَمِينُه وكأنَّه لم يَحْلِفْ، وظاهرُ الآيةِ الكريمةِ ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، ظاهرُها الشمولُ والعمومُ، فيَشمَلُ تحريمَ الطعامِ، وتحريمَ اللباسِ، وتحريمَ مكالمةِ فُلَانٍ أو فُلَانٍ، وتحريمَ الزَّوْجةِ، فلو قالَ الرجلُ لزوجتِه: أنتِ عَلَيَّ حرامٌ، قلنا: هَذَا مَنْهِيٌّ عنه، قال اللهُ تَعالَى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

فإذا قالَ: ما الطريقُ الآنَ إِلَى الخلاصِ؟ **قلنا**: الطريقُ سهلٌ، هو كفَّارةُ اليمينِ، يُكَفِّرُ كفَّارةَ اليمينِ، وتعودُ امرأتُه حلالًا عليه، رجلٌ حَرَّمَ ألا يُكلِمَ فُلَانًا قال: عَلَيَّ حرامٌ أن أُكلِمَ فُلَانًا. فماذا يَصنعُ إذا أَرَادَ أن يُكلِمَه؟ قلنا: يُكَفِّرُ كفَّارةَ يَمينٍ.

رجلٌ قال: حرامٌ عَلَيَّ أن أَلْبَسَ هَذَا الثوبَ. نقولُ: الثوبُ لا يكونُ حرامًا، وعليك كَفَّارةُ يمينٍ، فما هِيَ كفَّارةُ اليمينِ؟

استمعْ إليها في قولِ اللهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ المائدةِ: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾ [المائدة:٨٩]، ثلاثةُ أشياءَ، ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٖ﴾ [المائدة:٨٩]، هَذِهِ كفَّارةُ اليمينِ، بَدَأَ اللهُ تَعَالَى بالإطعامِ، لأَنَّه أيسرُ غالبًا، ثمَّ بالكسوةِ، لأنها غالبًا أصعبُ من الإطعامِ، ثمَّ بالعتقِ، لأَنَّه أصعبُ منهما، ممَّا يَدُلُّ عَلَى أن اللهَ جَلَّوَعَلَا يريدُ بعبادِه التيسيرَ والتسهيلَ، فيقالُ لمَن لَزِمَتْه كفَّارةُ يمينٍ: أنتَ بالخيارِ، أَطْعِمْ عَشَرَةَ مساكينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُ أهلَكَ، أو اكْسُهُمْ، أو حَرِّرْ رقبةً، يعني أَعْتِقْهَا، فإن لم تَجِدْ فصيامُ ثلاثةِ أَيَّامٍ مُتتابعةٍ.

ومِن نِعْمةِ اللهِ أن جَعَلَ الصِّيَامَ ثلاثةَ أَيَّامٍ ولم يَجْعَلْه عَشَرَةً كما جَعَلَ الإطعامَ؛ لأنَّ الإِنْسَانَ قد يَشُقُّ عليه الصَّوْمُ، فمِن ثَمَّ سَهَّلَ اللهُ فيه وجَعَلَه ثلاثةَ أَيَّامٍ فقط.

ذَكَرْنَا الآنَ أن الرجلَ إذا قالَ لزوجتِه: أنتِ عَلَيَّ حرامٌ، أو زوجتي عَلَيَّ حرامٌ. أنَّ عليه كَفَّارةَ يمينٍ، لكنْ إذا قالَ لزوجتِه: أنتِ عَلَيَّ مِثْلُ أُمِّي. فهذا ظِهَارٌ وَصَفَه اللهُ تَعَالَى بأنه مُنكَرٌ من القولِ وزُورٌ، فماذا يَجِبُ عليه إذا قالَ لزوجتِه: أنتِ عَلَيَّ كأُمِّي أو كظهرِ أُمِّي أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟ نقولُ: امْتَنِعْ عنها ولا تُطَلِّقْ، ولكن امْتَنِعْ عنها حتَّى

تُعْتِقَ رقبةً، فإن لم تَجِدْ فَلْتَصُمْ شَهْرينِ مُتتابعينِ، فإن لم تَجِدْ فأطعِمْ سِتِّين مسكينًا، ولا تَقْرَبْها حتَّى تفعلَ ما أَمَرَكَ اللهُ به.

أما إذا قالَ لزوجتِهِ: أنتِ طالقٌ. فهنا يكونُ طلاقًا، والطَّلاقُ له شُروطٌ لا بُدَّ من مُراعاتِها، وهي أن يُطَلِّقَها فِي طُهْرٍ لم يُجامِعْها فيه، فلا يُطَلِّقْها وهي حائضٌ، ولا يُطَلِّقْها فِي طُهْرٍ جامَعَها فيه، إلَّا إذا تَبيَّنَ حَمْلُها، لأنَّ الحامِلَ يَقَعُ طلاقُها بكلِّ حالٍ، فلو طَلَّقَ الإِنْسانُ امْرأتَه وهي حاملٌ وقَع الطَّلاقُ خِلَافًا لِما يَفْهَمُه بعضُ العَوامِّ، يقولون: إنَّ الحامِلَ لا تُطَلَّقُ. ولا أَدْرِي من أينَ أتاهم هَذَا الخبرُ، فالحامِلُ تُطَلَّقُ، وطلاقُ الحامِلِ أوسعُ ما يكونُ من الطَّلاقِ، تُطَلَّقُ الحامِلُ حتَّى لو جَامَعَها، حتَّى قَبْلَ أن يَغتسِلَ من الجنابةِ، فإنَّه يُطَلِّقُها، لكنْ غيرُ الحامِلِ إذا جَامَعَ لا يُطَلِّقُ حتَّى تحيضَ أو تَحْمِلَ، وحينئذٍ يُطَلِّقُ بعدَ طُهْرِها من الحَيْضِ.

ولو سَأَلَ سَائِلٌ: هل كِتابةُ الطَّلاقِ كالتلفظِ به تمامًا؟ قلنا: نَعَم؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى كَتَبَ التوراةَ بيدِه لمُوسَى، وجَعَلَ هَذَا المَكْتوبَ مُلْزِمًا لبني إسرائيلَ، وجَعلَه نَازِلًا من عندِه، وأَنْزَلَ التوراةَ والإنجيلَ، فإذا كَتَبَ الرجلُ طلاقَ زوجتِه بورقةٍ كَتَبَ فيها: أنتِ طالقٌ. وأعطاها إياها، فإنَّها تَطْلُقُ، لكنْ لو قالَ الرجلُ: أنا لم أُرِدِ الطَّلاقَ، وإنَّما أَرَدْتُ بذلك غَمَّ زوجتي وإدخالَ الهمِّ عليها. فهنا نقولُ: إذا صَدَّقَتْه المَرْأَةُ لكونِه رجُلًا صاحِبَ دِينٍ، ولا يُمكِنُ أن يَتلاعَبَ فِي دِينِ اللهِ، فعَلَى ما قالَ، ولا تَطْلُقُ، وأمَّا إذا لَمْ تُصدِّقْه ورَفَعَتْه إِلَى القاضي؛ فإنَّ القاضيَ يَحْكُمُ بالطَّلاقِ. وأما لو كَتَبَ طَلَاقَ زوجتِه فِي الماءِ فلا تَطْلُقُ؛ لأنَّه لو كتَبَ بإِصْبَعِه شيئًا على الماءِ لم يَتبَيَّنْ، فالرَّاقِمُ فِي الماءِ لَيْسَ براقِمٍ ولَيْسَ بكتابٍ.

ولو سَأَلَ سائلٌ: مَا حُكْمُ مَنْ جَامَعَ زوجتَه فِي طلاقٍ رَجْعِيٍّ وهو لا يَنْوِي إرجاعَها؟

نقولُ: يَرَى بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أن الرجلَ إذا جَامَعَ زَوْجَتَه فِي طلاقٍ رَجْعِيٍّ، والطَّلاقُ الرجعيُّ هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ فيه إرجاعَ زوجتِه بلا عَقدٍ، يرى بعضُ العُلَماءِ أَنَّه إذا جَامَعَ زوجتَه فهي رَجْعَةٌ، سَوَاءٌ نَوَى بذلك رجعةً أم نَوَى قضاءَ الشهوةِ فقط، ويرى آخرون أَنَّه لَيْسَ برجعةٍ حتَّى يَنْوِيَ، فإذا نَوَى به الرجعةَ صَارَ رجعةً، لِقَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[1]، وهذا الرجلُ لم يَنْوِ به الرجعةَ، وإنما نَوَى قضاءَ الشهوةِ، ولكنه فِي هَذِهِ الحالِ عَلَى هَذَا القولِ يُؤَدَّبُ عَلَى ما فَعَلَ؛ لأَنَّه تجرَّأَ عَلَى شيءٍ مُحَرَّمٍ عَلَيْهِ، إذ لا يَحِلُّ له جِمَاعُها حتَّى يُرَاجِعَ عَلَى هَذَا القولِ، فالمسألةُ فيها خِلافٌ بين العُلَماءِ، والمسائلُ الخِلافيةُ يُرْجَعُ فيها إِلَى حُكْمِ القاضي.

ولو طَلَّقَ رجلٌ زَوْجَتَه فقال لها: أنتِ طالقٌ طالقٌ طالقٌ. فإذا كانَ لم يَنْوِ الثَّلاثَ فهي واحدةٌ، وإذا نَوَى الثَّلاثَ فأكثرُ الفقهاءِ يَرَوْنَها أنها ثلاثٌ، وأنها لا تَحِلُّ له إِلَّا بعدَ زوجٍ، والصحيحُ أنها لَيْسَتْ إِلَّا واحدةً، سواءٌ قال: أنتِ طالقٌ طالقٌ طالقٌ، أو قال: أنتِ طالقٌ ثلاثًا، أو قال: أنتِ طالقٌ أنتِ طالقٌ أنتِ طالقٌ، لكن مَعَ ذلك لو تَرافعوا إِلَى شيخٍ أو إِلَى قاضٍ وأفتاهم بأنها ثلاثٌ، فلا يَحِلُّ لهم أن يَطْلُبوا الرُّخصةَ، ويَذْهَبوا إِلَى عَالِمٍ آخرَ، لأنَّ مَن اسْتَفْتَى عَالمًا مُعْتقِدًا أن ما قاله حَقٌّ، لا يَجوزُ أن يَستفتِيَ غيرَه، إذ لو فَعَلَ لكانَ مُتَلاعِبًا يُرِيدُ من الحقِّ ما وَافَقَ هَوَاهُ فيَتَّبِعُه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**». رقم (١٩٠٧).

ولهذا قالَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لا يجوزُ تَتَبُّعُ الرخصِ.

أَمَّا مَنْ قال لزوجتِه وهو نائمٌ: أنتِ طالقٌ. فلا شَيْءَ عَلَيْه؛ لأنَّ النائمَ لا قَصْدَ له، ومن النومِ مَنْ إذا رَأَى رؤيا نَطَقَ بها وهو نائمٌ، فهذا مثلُه، فمَن قالَ لزوجتِه وهو نائمٌ: أنتِ طالقٌ. أو قالَ إذا كانَ له عبيدٌ مملوكون قال: هم أحرارٌ، أو قال: بَيْتِي وَقْفٌ، أو قال: فِي ذِمَّتِي لفُلَانٍ ألفُ رِيالٍ. فكلُّ هَذَا لَيْسَ بشيءٍ، وَجْهُ ذلك أن النائمَ لَيْسَ له قَصْدٌ، يعني ما عندَه نِيَّةٌ ولا يَدْرِي عَنْ نَفْسِه شيئًا فلا يُعْتَبَرُ بِقَوْلِه.

قولُه تعَالَى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [التحريم:٢]، يعني مُتَوَلِّي أُمورِكم، الَّذِي له الحكمُ فيكم والحكمُ بينكم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢] .

ثمَّ قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم:٣]، أسرَّ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى بعضِ أزواجِه حديثًا، وهو أنَّه لَنْ يَعُودَ إِلَى العسلِ، وقال: «**لَا تُخْبِرِي بِذَلِكِ أَحَدًا**»(١)، ولكنَّها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، ففي قولِه: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، دليلٌ عَلَى أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلَّا ما أَظْهَرَه اللهُ عليه.

وفي قولِه: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ دليلٌ عَلَى كمالِ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لأنَّه لم يُبيِّنْ إِلَّا ما يَقْبُحُ ذِكْرُه ومَا يُسْتَحْيَى منه ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم:٣]، وهو اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وذَكَرَ اللهُ تعَالَى بَقِيَّةَ ما ذكَرَ فِي هَذِهِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة التحريم، رقم (٤٩١٢)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، رقم (١٤٧٤).

السورةِ، ومنه قولُه تعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم:١٠]، يَعْنِي ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا للكَافِرِينَ بِهَاتَيْنِ المَرْأَتينِ ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ [التحريم:١٠]، ومَن هما؟ نُوحٌ ولُوطٌ ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ يعني بالكفرِ، كَفَرَتَا وسَتَرَتَا الكفرَ عن زَوْجَيْهِما، هَذِهِ هِيَ الخيانةُ، ولَيْسَتْ خِيانَةَ العِرْضِ، لأَنَّه لا يُمْكِنُ لِنَبِيٍّ أن تَخُونَه زَوجاتُه خِيَانَةَ عِرْضٍ أَبَدًا، لَكِنْ هَذِهِ خيانةُ دِينٍ، كَفَرَتا باللهِ من غيرِ أن يَعْلَمَ زَوْجَاهُمَا نُوحٌ ولُوطٌ، قالَ اللهُ تعالَى ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم:١٠]، يريدُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بهذا أن يُبَيِّنَ لزوجاتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنَّ قُرْبَهُنَّ من الرَّسُولِ لا يُغْنِي شيئًا، كما لم يُغْنِ قربُ زوجةِ نوحٍ ولوطٍ شيئًا حينَ كَفَرَتَا باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا بالعكسِ لامرأتين مؤمنتين: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم:١١]، وفِرْعَوْنُ هُوَ مَلِكُ مِصْرَ الجبارُ العنيدُ وقصتُه فِي القُرْآنِ مُكَرَّرَةٌ، هَذِهِ المَرْأَةُ كانتْ عَلَى دِينٍ صَحيحٍ وزوجُها كافرٌ ولم تَنفَعْ زَوْجَها بشيءٍ، ولم تُغْنِ عنه شيئًا، بل كانَ زَوْجُها مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ يعني زَوْجَةَ فِرْعَوْنَ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١]، طَلَبَتْ ثلاثةَ أشياءَ ﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، قالَ العُلَمَاءُ: وذَكَرَتْ ﴿عِندَكَ﴾ قبلَ أنْ تقولَ: ﴿بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ إشارةً إِلَى العنايةِ بالجارِ حتَّى قالَ النَّاسُ كلمةً مشهورةً: ابْحَثْ عن الجارِ قبلَ الدارِ. وهذا صحيحٌ؛ لأنَّ الدارَ مهما حَسُنَتْ إذا كانَ الجارُ سَيِّئَ الجيرةِ فإنَّه سوفَ يُتْعِبُ جارَه معه.

الدعوةُ الثَّانيةُ: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾، يعني: نَجِّنِي أنْ أَعْمَلَ عَمَلَه واعْصِمْنِي؛ لأنَّ الأمورَ بيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الدعوةُ الثَّالثةُ: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١]، فلا يُسَلِّطُوا عَلَيَّ ويَفْتِنُونِي عَنْ دِينِي؛ لأنَّ الإِنْسَانَ قد يكونُ بنفسِه صالحًا، ولكن يُسَلَّطُ عليه أحدٌ من الظَّالمين يَفْتِنُه عن دينِه.

المَرْأَةُ الثَّانيةُ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم:١٢]، وهي من الصِّدِّيقَاتِ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة:٧٥]، وإنما قال: ﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، ردًّا لقولِ اليهودِ -عليهم لعنةُ اللهِ إِلَى يومِ الدِّينِ- الَّذِينَ قَالُوا: إن مَرْيمَ بَغِيٌّ -والعِيَاذُ باللهِ-، ولهذا لما جاءتْ تَحْمِلُ ابنَها عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالُوا لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨]، يُعَرِّضُونَ بأنَّها كانت بَغِيًّا وزانيةً، ولهذا كانَ عِيسَى عندَ اليهودِ ابنَ زانيةٍ -والعِيَاذُ باللهِ-، فهنا قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ فوَصَفَها بكمالِ العِفَّةِ وأنها بريئةٌ ممَّا رماها به أعداءُ اللهِ وأعداءُ رُسلِه وهم اليهودُ.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢]، أي فِي الفَرْجِ، نَفَخَ فيه جبريلُ، ولَقِحَت بإذنِ اللهِ بابْنِها عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ووَضَعَتْه وأَرْضَعَتْه، وجاءتْ به إِلَى قومِها تَحْمِلُه طفلًا، ولما قَالُوا لها: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، أَشَارَتْ إليه، يَعْنِي كَلِّمُوه ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩]، ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠]، فتكلَّمَ بهذا الكلامِ الفصيحِ العجيبِ: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ

مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٠-٣٣]، فعَلِمُوا أنَّ الأمرَ بيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأن عِيسَى آيةٌ من آياتِ اللهِ خَلَقَه اللهُ تَعَالَى بلا أَبٍ، وتكلَّمَ فِي المَهْدِ، أَنْطَقَه الَّذِي أَنْطَقَ كلَّ شيءٍ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:٤٦].

فتأَمَّلْ يا أخي أنَّ الأقاربَ لا يُغْنِي بعضُهم عن بعضٍ شَيْئًا، حتَّى إن مُحَمَّدًا رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لابنتِه: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١).

فالإِنْسَانُ بنفسِه وعَمَلِه إنْ عَمِلَ صالحًا فلِنَفْسِهِ وإن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، أسأَلُ اللهَ أنْ يكتُبَ لنا ولكم الصلاحَ والفلاحَ فِي الدُّنيا والآخرةِ، إنَّه عَلَى كلِّ شيءٍ قديرٌ.



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ رقم (٢٧٥٣)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب في قوله تعالَى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، رقم (٢٠٤).

الدَّرسُ الثَّاني:

إن الحمدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَستعِينُهُ ونَستغفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وَحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُهُ، صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ، ومَنْ تَبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أَمَّا بَعْدُ**:

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم:١٠]، إلى آخرِ ما ذَكرَهُ اللهُ تعالى في هذهِ السورةِ.

وقدْ ضَرَبَ اللهُ مَثَلينِ بامرأتينِ خائنتينِ، ومَثَلينِ بامرأتينِ أمينتينِ مؤمنتينِ؛ لأن هذهِ السورةَ كلَّها كانتْ فيما حَصَلَ مِن أمهاتِ المؤمنينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ؛ فإنَّ النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم تَظَاهَرَ عليهِ مِن نِسائِه امرأتانِ، وتظاهرَتَا عليهِ في أمرٍ كَتَماهُ عنهُ، ولكنِ اللهُ تعالى أخبرَهُ بهِ، فقالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم:٣]، وَحَثَّ اللهُ تعالى هاتينِ المرأتينِ على التوبةِ فقالَ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، يعني أن التوبةَ واجبةٌ ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، أي مالتْ ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾، أي: على النبيِّ ﷺ، فإنَّ اللهَ لن يُضَيِّعَهُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤] ، وهذا مِن عنايةِ اللهِ تعالى برسولِه ﷺ وحمايتِه لهُ.

فضَرَبَ اللهُ هذهِ الأمثالَ الأربعةَ: المثلانِ الأولانِ في امرأتينِ كافرتينِ؛ امرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوطٍ، خانتَا نوحًا ولوطًا، لكنْ لم تخونَا بأمرٍ خُلُقِي، ولكنهُ بأمرٍ دِينيٍّ؛ كانتَا كافرتينِ وأَصَرَّتَا الكفرَ عن زَوْجيهِما، وليسَ المَعْنَى أنهما خَائنتانِ في أمرٍ يَتعلَّقُ بالأخلاقِ، بلْ في أمرٍ يَتعلقُ بالإيمانِ.

فأنجَى اللهُ تعالى نُوحًا وأَنجى لوطًا، وهلكتِ المرأتانِ، فانْظُرْ إلى قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ الذارياتِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، فالمؤمنونَ مِن قومِ لوطٍ وهمْ أهلُه إلا امرأتَهُ نَجَوْا، والبيتُ الذي في القَريةِ مُسلِمٌ؛ لأَنَّ البيتَ يشتملُ على مَن هوَ مؤمنٌ حقًّا، وهمُ الذينَ أنجاهُمُ اللهُ معَ لوطٍ، وعلى مَن هوَ مسلمٌ ظاهرًا، وهيَ امرأتُه؛ لأن امرأتَهُ في بيتِهِ وتتظاهرُ بأنها مؤمنةٌ بهِ، ولكنهَا كافرةٌ، ولذلكَ أمرَهُ اللهُ تعالى أن يَسْرِيَ بأهلِهِ إلا امرأتَهُ، ونوحٌ كذلكَ.

ثم ضَرَبَ اللهُ مثلينِ آخرينِ لمَنْ كانَ مُؤْمنًا فقالَ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾، وهيَ آسيةُ، هذهِ المرأةُ مؤمنةٌ وزوجُها فرعونُ كانَ كافرًا، ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١]، وهذا يَدُلُّ على كمالِ إيمانِها باليومِ الآخرِ، وأنها تُؤمِنُ بأنَّ هناكَ جنةً يؤُولُ إليها الناسُ.

قالَ بعضُ العلماءِ: في قولِها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ إشارةٌ إلى أنهُ يَنبغِي للإنسانِ أن يَنْظُرَ في الجارِ قبلَ الدارِ؛ لأنها اختارتِ العِنْديةَ قبلَ أن تَذْكُرَ المكانَ، وهذا حقٌّ؛ فالإنسانُ إذا أرادَ أن يَسْكُنَ دارًا مِلْكًا أو بأُجْرةٍ فعليه أن يَنظُرَ إلى

الجارِ، إن كانَ جارَ سَوْءٍ فليَبْتَعِدْ، وإن كانَ جارَ صَلاحٍ فَلْيَقْتَرِبْ، وكمْ من جارٍ آذَى جارَهُ حتى تمَنَّى أنهُ لم يَسْكُنْ حولَهُ.

أما الثانيةُ فهيَ مريمُ، ومريمُ الصِّدِّيقةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لم يَكُنْ لها زوجٌ، ولكنهَا امرأةٌ صِدِّيقةٌ، مِن كُمَّلِ النساءِ، قالَ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم:١٢]، ونصرَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بهذا الخُلقِ الكريمِ؛ لأن اليهودَ -عليهمْ لعنةُ اللهِ إلى يومِ القيامةِ- ادَّعَوْا أنها امرأةُ سَوءٍ، وأن عِيسَى ولدُ زِنًى، والعياذُ باللهِ، فبرَّأَهَا اللهُ تَعالَى مما قالُوا وقالَ: ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

قولُه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢]، أيْ مِن جبريلَ، نَفخَ في فَرجِها فحَمَلَتْ بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. وقِصَّتُها مُطَوَّلةٌ في سُورةِ مريمَ؛ حيثُ إنها خَرَجتْ من قومِهَا ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣]، وهيَ لم تَتَمَنَّ الموتَ، ولكنْ تمَنَّتْ أنها ماتتْ ولم يَحْصُلْ لها هذَا، وفرقٌ بينَ مَن يَتمنَّى الموتَ لضُرٍّ نَزَلَ بهِ، وبينَ مَن يتمنَّى أنهُ ماتَ بلا ضررٍ، فهيَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لم تَتَمَنَّ الموتَ، ولكنهَا تمَنَّتْ أنها مَاتَتْ قبلَ أن تُصابَ بهذِهِ المُصيبةِ في نظَرِها حتى تبَيَّنَ الأمرُ ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم:٢٤]، والسَّريُّ هوَ النهرُ الجاري، وهوَ منْ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قالَ تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٥-٢٦].

تأملِ الآيَةَ مِن آياتِ اللهِ: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، نخلةٌ لها جِذْعٌ أصلٌ،

ولها فرعٌ، وعليها ثَمرةٌ ناضجةٌ رُطَبةٌ جَنِيَّةٌ، أمرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن تَهُزَّ هذهِ الأُنْثى جِذْعَ النَّخلةِ، وهزُّ جِذْعِ النخلةِ صعبٌ، وإذا هزَّهُ إنسانٌ فإنهُ لا بدَّ أن يَهْتَزَّ الفَرْعُ. أمرَهَا أن تَهُزَّ بجذعِ النخلةِ، وإذا هَزَّتْ بجذعِ النخلةِ تسَاقَطَ عليها الرُّطبُ جَنِيًّا رُطبًا من فَوْقُ، يَسْقُطُ على الأرضِ، ولا يَفْسُدُ، ويَبْقَى كأنهُ مَجْنِيٌّ جَنْيًا سَهْلًا يَسِيرًا.

وهذا منْ آياتِ اللهِ أن تستطيعَ امرأةٌ نُفساءُ هزَّ جذعِ النخلةِ، ثم تتساقطُ الثمارُ تَساقُطًا رَفِيقًا لم يَتَغَيَّرْ بِهِ الرُّطبُ، والعادةُ أن الرُّطبَ إذا سَقَطَ مِن فَوْقُ فَسَدَ، لكنَّ هذا منْ آياتِ اللهِ، واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

قالَ: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾، وسيزُولُ عنها الحزنُ والأسَى ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾، يَعني فإن تَرَيْ أحدًا منَ البشرِ ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾، أيْ إِمْساكًا عنِ الكلامِ، ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٦]. والقصةُ معروفةٌ في القرآنِ.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم:١٢]، ونَصرَهَا اللهُ على ذلكَ كما بَيَّنَّا آنفًا؛ لأن اليهودَ ادَّعَوْا أنها بَغِيٌّ، وأن ابنَها ولدُ زنًى.

وعلى النقيضِ مِن دَعْوَى اليهودِ دَعْوَى النصارى، فالنصارى ادَّعَوا أن عيسَى ابنُ اللهِ؛ لأنهُ أَتى مِن غيرِ أبٍ، فقالوا: هوَ ابنُ اللهِ، فغَلَوْا فيهِ غُلُوًّا شديدًا، فصارُوا معَ اليهودِ في طَرَفَيْ نقيضٍ؛ فاليهودُ مُعتدُونَ ظالمونَ في حَقِّ البشرِ، والنصارى مُعتدونَ ظالمونَ في حقِّ اللهِ؛ حيثُ ادَّعَوا أن عيسَى ابنُ اللهِ، وهمْ كاذبونَ، فالمسيحُ عيسَى ابنُ مريمَ عبدٌ منْ عِبادِ اللهِ ورسولٌ منْ رُسلِ اللهِ. والمسلمونَ -وللهِ الحمدُ- همُ الذينَ أَعْطَوُا المَسِيحَ حقَّهُ وقالوا: إنهُ عبدُ اللهِ ورسولُه، فما جعلُوا لهُ حقًّا منْ حقِّ

الربوبيةِ، ولا كذَّبُوه كما كَذَّبَتْهُ اليهودُ، قالَ تعالى عنْ أُمِّه: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، ولم يَقُل: وكانتْ منَ القانتاتِ؛ **أولا**: مراعاةً لفواصلِ الآياتِ، **وثانيا**: إشارةً إلى أن الكمالَ في الرجلِ أكثرُ منَ النساءِ، ولهذا جاءَ في الحديثِ: **«كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»**(١).

والثريدُ قالَ العلماءُ: هوَ الخُبْزُ المأدومُ باللحمِ؛ كما قالَ الشاعرُ(٢):

إذَا مـا الخبـزُ تَأْدِمُـهُ بلَحـمٍ ... فـذاكَ أَمَانَـةَ اللهِ الثَّرِيـدُ

والحمدُ للهِ الذي بنعمتهِ تَتِمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نَبِيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبهِ.



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة، رقم (٣٧٦٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، رقم (٢٤٣١).

(٢) انظر: لسان العرب أدم.



سورة الحاقة

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ، والصلاةُ والسلامُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين، أَمَّا بَعْدُ:

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ
﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾
فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾
وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة:٣٨-٥٢].

قال اللهُ تَعالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾، القَسَمُ: تأكيدُ الشيءِ بذِكْرِ مُعظَّمٍ بصِيغَةٍ مَخْصوصةٍ، وحُروفُه ثلاثةٌ: الباءُ، والتاءُ، والواوُ. وأمثلةُ ذلك مَعْلومةٌ سَبَقَ بيانُها.

واعْلَمْ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمَرَ نَبِيَّه أنْ يُقْسِمَ في ثَلاثةِ مَواضِعَ من القرآنِ:

الموضع الأول: قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾ [يونس:٥٣].

الموضع الثاني: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧].

الموضع الثالث: قولُه تَعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى

لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [سبأ:٣].

وقد أمَرَه بذلك لأن هذه الأمورَ مُهِمَّةٌ جدًّا، فأمَرَ اللهُ نَبِيَّه أنْ يُقْسِمَ عليها. وخَبَرُ اللهِ جَلَّوَعَلَا مَقْبولٌ، سَواءٌ أَقْسَمَ اللهُ أم لم يُقْسِمْ، لكنَّ القرآنَ الكريمَ نزَلَ باللُّغةِ العربيةِ، واللُّغةُ العربيةُ فيها التأكيداتُ بالقَسَمِ وبغَيْرِ القَسَمِ، وإذا كانَ القرآنُ نَازِلًا باللُّغةِ العَربيَّةِ فإنَّ المَواطِنَ المُهِمَّةَ لا بَأْسَ بالإقسامِ عليها؛ حتى تَزُولَ الشُّبْهةُ ويَحْصُلَ اليَقِينُ.

والفاعلُ في قولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وقد يَقولُ قَائِلٌ: (لا) هنا نَافِيَةٌ، فكيفَ تَقولون: إنَّها قَسَمٌ؟ والجوابُ أنَّ (لا) هنا للتَّوْكِيدِ، وليستْ نَافِيَةً، فيكونُ هذا تَوْكِيدًا على تَوْكِيدٍ.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾، هذا من أَعَمِّ الأَقْسامِ؛ لأنَّ الأشياءَ إمَّا أَنْ نُبْصِرَها، وإمَّا ألَّا نُبْصِرَها. فكأنَّ اللهَ أقْسَمَ بكلِّ شيءٍ، ولكن على أيِّ شيءٍ أقسَمَ. استمِعْ إلى الجوابِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، أي: إنَّ القرآنَ لَقولُ رسولٍ كريمٍ، وهو مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهنا وَصَفَ اللهُ نَبِيَّه بوصفين: أنه رسولٌ صادقٌ في رسالتِه، وأنه كَرِيمٌ في الخُلُقِ، كَرِيمٌ في الطَّبْعِ، كريمٌ في كلِّ مَعْنَى الكرمِ اللائقِ ببني آدَمَ.

ولهذا كانَ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم مِن كَرَمِه أنه يَبِيتُ طَاوِيًا جائعًا، ويُعْطِي عَطاءَ مَنْ لا يَخْشَى الفَقْرَ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه. كانَ يَضَعُ الحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ أحيانًا من الجُوعِ، ويُؤْثِرُ غيرَه، وليسَ بعدَ هذا الكَرَمِ كَرَمٌ. وهو أيضًا كَرِيمٌ في التعليمِ، لا يَدَعُ مجالًا يَحْتاجُ إلى التعليمِ إلا عَلَّمَ. كريمٌ في الدعوةِ إلى اللهِ، يَدْعو إلى اللهِ

تَعالَى بمَقالِهِ وفِعَالِهِ وأَخْلاقِهِ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه. هو كَرِيمٌ بكلِّ مَعْنًى لهذهِ الكلمةِ يَلِيق ببَنِي آدَمَ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ أي: ما القُرآنُ بقولِ شَاعِرٍ، وإنما نَفَى أنْ يَكُونَ قَوْلَ شَاعِرٍ؛ لأنَّ قُرَيشًا قالت: إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم شَاعِرٌ، وإنَّ هذا القرآنَ شِعْرٌ. فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ أي: إِنَّكم لا تُؤْمِنُون إلا قَلِيلًا.

قوله: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ والكَاهِنُ هو الذي يُخْبِرُ عن المُغَيَّباتِ في المُستقبَلِ، فيقولُ: سيكونُ في اليومِ الفُلانيِّ كذا، سيكونُ في اليومِ الفُلانيِّ كذا، هذا هو الكَاهِنُ. وأصلُ عَمَلِ الكاهنِ أن له جِنيًّا يأتيه بخَبَرِ السماءِ، والجِنُّ لهم قُدْرةٌ وقُوَّةٌ، يَتَراكَبُونَ حتى يَصِلُوا إلى السماءِ، ثم يَأْخُذونَ من أَخْبارِ السماءِ ما يَأْخُذون، فيُلْقُونَها في قَلْبِ الكاهِنِ، ثم يُخْبِرُ الكاهنُ بها، ولكنَّه يُضِيفُ إليها أَشْيَاءَ كَثِيرةً كَذِبًا.

إذن ليسَ بشَاعِرٍ ولا بكَاهِنٍ، وقُرَيشٌ تقولُ: إنَّ هذا القرآنَ شِعْرٌ، وإنَّ مُحَمَّدًا شَاعِرٌ؛ لأنه كَلامٌ رَصِينٌ يَشْتَمِلُ على الحِكْمةِ، وعلى كلِّ خُلقٍ فَاضِلٍ، فشَبَّهوهُ بالشِّعْرِ من حيثُ اللَّفْظُ، ولأنَّ فيه إخبارًا بالغيبِ، فيَقَعُ الأمرُ كما جاءَ في القرآنِ، فوَصَفُوه بالكَهانةِ؛ لأنَّ الكَاهِنَ يُخْبِرُ عن الشيءِ المُسْتقبَلِ. ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: إنَّ تَذَكُّرَكم قَلِيلٌ.

وهنا نَسْأَلُ: ما الجمعُ بينَ هذهِ الآيةِ وبينَ قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]، فالرسولُ الكريمُ هنا غيرُ الرسولِ الكريمِ في سورةِ الحَاقَّةِ، الرسولُ الكَرِيمُ في هذهِ السورةِ

جِبْرِيلُ، والرسولُ الكريمُ في الحاقَّةِ هو مُحَمَّدٌ ﷺ فكيفَ يَكونُ الكلامُ الوَاحِدُ مَقُولًا لقَائِلَيْنِ، والمَعروفُ أنَّ القولَ لِوَاحِدٍ ليسَ قَوْلًا لِغَيْرِهِ؟

والجوابُ: القُرآنُ ليسَ قَوْلَ مُحَمَّدٍ، ولا قولَ جِبْرِيلَ من حَيْثُ الأَصْلُ، وإنما هو في الأَصْلِ قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لكنَّ جِبْرِيلَ بَلَّغَه لمُحَمَّدٍ، فكانَ قَوْلُ جِبْرِيلَ مُبَلَّغًا من اللهِ إلى مُحَمَّدٍ، وبَلَّغَه مُحمدٌ للأُمَّةِ، فالقَوْلُ هنا قَوْلُ التَّبليغِ، وليسَ قَوْلَ الإنشاءِ. والقائلُ الأولُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ هذا القرآنَ كلامُ اللهِ حقًّا، تَكَلَّمَ به جَلَّوَعَلَا وألقاه إلى جِبْرِيلَ، وجِبْرِيلُ أتى به إلى النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فألقاهُ على قَلْبِه. وبهذا يَزولُ الإشكالُ تمامًا؛ لأنَّ الكلامَ إِنَّما يُضافُ إلى مَن قَالَه مُبْتدأً، ويُضافُ إلى مَن قَالَه مُبَلِّغًا باعتبارٍ آخَرَ.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: هو تَنْزِيلٌ من رَبِّ العَالَمِينَ، الذي خَلَقَ العَالَمَ كُلَّه، وله مُلْكُ السماواتِ والأرضِ، وله تَدْبيرُ السماواتِ والأرضِ، والمرادُ بالعَالَمِينَ هنا: كلُّ مَن سِوَى اللهِ فهو عَالَمٌ، وجَمَعَ العَالَمَ باعتبارِ أنواعِه، بأنْ يُقالَ: عَالَمُ البَشَرِ، وعَالَمُ الجِنِّ، وعَالَمُ البَهَائِمِ، وهكذا، وإضافتُه إلى ربِّ العَالَمِينَ يَقْتَضِي **شَيْئَيْنِ**:

الأول: أنْ نُؤْمِنَ بأنَّ اللهَ تَكَلَّمَ به حقًّا.

الثاني: أنْ نُؤْمِنَ به تَشْرِيعًا وتصديقًا، فما جاءَ في القرآنِ من الأَخبارِ وجَبَ علينا تَصْدِيقُه؛ لأنه كَلامُ اللهِ، وما جاءَ أَمْرًا أو نَهْيًا فعلينا امتثالُه، إن كان أمرًا فبالفِعْلِ، وإن كان نهيًا فبالبُعدِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ هنا فَاعِلُ ﴿تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أي: لو نَسَبَ إلينا قَوْلًا لم نَقُلْه ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥﴾ ثُمَّ

لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، أي: لأَهْلَكْناه، والوَتِينُ هو عِرْقٌ مَعْروفٌ، إذا قُطِعَ هَلَكَ الإنسانُ. والمعنى: لو أنَّ مُحَمَّدًا قال علينا ما لم نَقُلْ لَكَانَ سَبِيلَهُ الهَلاكُ وَلا بُدَّ.

فما بالُكم إذا كان القائلُ مَن لا ينسبُ إلى مُحَمَّدٍ عِلْمًا ولا دِينًا، وتَقَوَّلَ على اللهِ؟ فهذا أَشَدُّ وأَشَدُّ، ولهذا قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

وقال النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1]. فكيفَ بكَ أَيُّها الإنسانُ أنْ تَقُولَ على اللهِ ما لا تَعْلَمُ؟ كم مِن إنسانٍ يُفْتِي بما لا يَعْلَمُ لِيُبْرِزَ نفسَه أمامَ الناسِ وهو جَاهِلٌ جَهْلًا مُرَكَّبًا؛ لأنَّ الجَاهِلَ الذي لا يَدْرِي ويَعْلَمُ أنه لا يَدْرِي، هذا جَاهِلٌ جَهْلًا بَسِيطًا، والأَصْلُ فينا الجَهْلُ. أمَّا الجَهْلُ المُرَكَّبُ فهو المُشْكِلُ، وهو البَلاءُ، فالذي يَظُنُّ أنه عَالِمٌ وهو جَاهِلٌ، يَكونُ جَهْلُه مُرَكَّبًا، من جَهْلِه بالوَاقِعِ، ومن جَهْلِه بنفسِه، ولهذا يقالُ: إنَّ رَجُلًا يُسَمَّى تُوما يَدَّعِي العِلْمَ والحِكْمَة، فقالَ فيه الشاعرُ[2]:

وَمَـنْ نَـالَ العُلُـومَ بِغَـيْرِ شَـيْخٍ ... يَضِلُّ عَـنِ الصِّـرَاطِ المُسْـتَقِيمِ

وَتَلْتَـبِسُ الأُمُـورُ عَلَيْـهِ حَتَّـى ... يَكُونَ أَضَـلَّ مِـنْ تُومَـا الحَكِـيمِ

تَصَـدَّقَ بِالبَنَـاتِ عَـلَى رِجَـالٍ ... يُرِيـدُ بِـذَاكَ جَنَّـاتِ النَّعِـيمِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٩١)، وأخرج مسلم شَطْره الأول: كتاب المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ رقم (٤)، وشطره الثاني: كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، رقم (٩٣٣).

(٢) انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢/ ٥٦٤).

يُرِيدُ: أنه يُعْطِي النِّساءَ للرجالِ بلا مُقابِلٍ، وهكذا صارَ وَطْؤُهُنَّ زِنًى، فيقولُ: إنَّ هذا التُّوما يقول: الصَّدقةُ بالمالِ مُسْتَحَبَّةٌ وطَيِّبَةٌ، وتُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النارَ، والصَّدَقَةُ بالدِّرْهمِ والدينارِ والمَتاعِ والثوبِ له فَضْلٌ. ولكنه رَأَى أن الصَّدَقَةَ بالمرأةِ من أفضلِ الصَّدقةِ، فإذا كانَ مَهْرُ المرأةِ عَشَرَةُ آلافٍ أعطاها للرَّجُلِ بلا مَهْرٍ، وهكذا يكونُ قد تَصَدَّقَ بها على الرجالِ، ويقول: هذه صَدَقَةٌ للهِ، يُرِيدُ بذلك جَنَّاتِ النعيمِ. ولكنه يَصِلُ بذاكَ إلى مَهْوَى الجَحِيمِ. وفي ذلك يَقولُ حِمارُ تُومَا، وكان لتُوما هذا حِمارٌ يَضْرِبُه، فقالَ الشَّاعِرُ على لِسانِ الحِمارِ[1]:

قَالَ حِمَارُ الحَكِيمِ تُومَا ... لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ كُنْتُ أَرْكَب

لأَنَّنِي جَاهِلٌ بَسِيطٌ ... وَصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّب

فكأنَّ الحِمارَ يَقولُ: لو أَنْصَفَ الدَّهْرُ -ونحن لا نُوافِقُ الحِمارَ على هذا- كنتُ أَرْكَبُ. ثم عَلَّلَ فقال: لأَنَّنِي جَاهِلٌ بَسِيطٌ وصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبٌ، والجاهلُ المُرَكَّب كما نَعْلَمُ أَشَدُّ من الجاهِلِ البَسيطِ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَكْثَرُ مَا يُفْسِدُ الدُّنْيَا: نِصْفُ مُتَكَلِّمٍ وَنِصْفُ مُتَفَقِّهٍ وَنِصْفُ مُتَطَبِّبٍ وَنِصْفُ نَحْوِيٍّ، هَذَا يُفْسِدُ الأَدْيَانَ وَهَذَا يُفْسِدُ البُلْدَانَ وَهَذَا يُفْسِدُ الأَبْدَانَ وَهَذَا يُفْسِدُ اللِّسَانَ»[2]. يُرِيدُ أن يَقولَ: **إنَّ أربعةً هم الذين أَفْسَدُوا الدنيا كُلَّها:**

الأول: نِصْفُ المُتكَلِّمِ الذي يُفْسِدُ الأَدْيَانَ؛ لأنَّ أهلَ الكلامِ هم الذين

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب (١٠/ ١٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ١١٩).

يَتكَلَّمون في العَقيدةِ بمُجَرَّدِ عُقولِهم، فيَدَّعون أنهم عُلماءُ، وهم من أَجْهَلِ الخَلْقِ، فيُفْسِدُونَ الأديانَ.

الثاني: نِصْفُ الفَقيهِ، الذي يُفْسِدُ البلدان، كَفَانَا اللهُ شَرَّه؛ لأنه يأْخُذُ مالَ هذا لهذا، ويُفْتِي لهذا بالشيءِ، فيقولُ: هذا حَرَامٌ. ويقـول للآخَرِ: هذا حَلالٌ. فيُفْسِدُ البلدان.

الثالث: نِصْفُ النَّحْـوِيِّ، وهذا يُفْسِدُ اللِّسانَ، أي اللُّغَةَ، فتَجِـدُه يَرْفَـعُ المَنْصوبَ، ويَنْصِبُ المَرْفوعَ، ويَجُرُّ المَنْصوبَ والمَرْفوعَ، ويَدَّعِي أنه عَالِمٌ بالنَّحْوِ.

الرابع: نِصْفُ طَبِيبٍ، وهذا يُفْسِدُ الأبدانَ، يَصِفُ الدواءَ للشِّفاءِ، وهو للشَّقَاءِ والهلاكِ، فيأْتِيهِ إنسانٌ يَطْلُبُ عِلاجًا لأَلَمٍ في بَطْنِه، فيقول: لا مُشْكلةَ، ثم يُنادِي: هاتِ المِشْرَطَ يا فُلان. ثم يَشُقُّ بَطْنَه، ثم يقول: لا أَسْتَطِيعُ خِياطَتَه. وهذا هو الذي يُفْسِدُ الأبدانَ، وكم من طَبِيبٍ أَهْلَكَ العَالَمَ لأَنَّه نِصْفُ طَبِيبٍ.

فالمُهِمُّ أنَّ اللهَ تَعالَى أخْبَرَ وهو الصَّادِقُ عَزَّوَجَلَّ أن مُحَمَّدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم لو تَقَوَّلَ على اللهِ بَعْضَ الأقاويلِ... وهنا قال: ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾، والأقاويلُ على وَزْنِ أَفَاعِيلَ صِيغَةِ مُنْتَهَى الجُموعِ، أي: لو تَقَوَّلَ بَعْضًا مِن أقوالٍ كَثِيرةٍ: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾. أي: ما تَسْتطيعون أن تَحْجُزوا عِقابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي القرآنَ ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾. اللَّهُمَّ ذَكِّرْنا به يا ربَّ العَالَمِينَ، اللَّهُمَّ ذَكِّرْنا به، اللَّهم ذَكِّرْنا به، فلا يَتَذَكَّرُ بالقرآنِ إلا المُتَّقِي، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾، هذه الجملةُ مُؤَكَّدةٌ: بـ(إنَّ)

واللامِ، أي إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَكَّـدَ أنه يَعْلَمُ أنَّ مِن هـؤلاء المُكَذِّبـين للرسـولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُكَذِّبِينَ حَقًّا.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هذا القرآنُ حَسْرةٌ على الكافِرِ؛ لأنَّ فيه الهُدَى والنُورَ، والكَافِرُ لا يُرِيدُ هُدًى ولا نُورًا فيَتَحَسَّرُ، كلما رَأَى تَقَدُّمَ الأُمَّةِ بالقرآنِ ازْدَادَ حَسْرَةً ونَدَمًا وَغَمًّا.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: هو اليَقِينُ الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، لما نَزَلَتْ هذه الآيةُ قال النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ». ولما نَزَلَتْ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] قال: «اجعلوها في سُجُودِكُمْ»[(١)].

هذا ما أَرَدْنَا أنْ نَتكلَّمَ عليه من هذهِ الآياتِ الكريمةِ، أسألُ اللهَ تَعالَى أنْ يَنْفَعَنا بكتابِه، وأن يَرْزُقَنا تِلاوَتَه آناءَ الليلِ والنهارِ على الوَجْهِ الذي يُرْضِيهِ عَنَّا، وأنْ يَجْعَلَهُ حُجَّةً لنا لا علينا، وأنْ يَجْعَلَه قائدًا لنا إلى جَنَّاتِ النَّعيمِ، إنه جَوَادٌ كَرِيمٌ.

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة:٣٨-٣٩]، يقولُ العلماءُ: إنَّ هذَا أَعَمُّ قَسَمٍ جاءَ في القرآنِ، وَجْهُهُ أنَّ الأشياءَ إما أَنْ نُبصرَهَا، وإمَّا أَلَّا نُبْصرَها فَأَقْسَمَ اللهُ بِما نُبْصِرُ وَبِما لَا نُبْصِرُ، إِذَنْ أَقْسَمَ بِكل شَيْءٍ، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧).

وهنَا يَقعُ إِشْكالٌ، أَقْسَمَ اللهُ تَعالَى هُنا بِغَيْرِ ذَاتِهِ وَصفاتِهِ، وَنحن قَرَّرنا أنَّ الحَلِفَ بِغَيْرِ اللهِ وَصِفَاتِهِ شِركٌ، فكَيْفَ أَقْسَمَ اللهُ بِه؟ **والجَوابُ**: أنَّ للهِ أنْ يُقسمَ بِما شاءَ مِن خَلقِه، ولَسنا نَحن مَن نَحْكُمُ على اللهِ، ولكِنَّ اللهَ تَعالَى هُو الذِي يَحْكُمُ عَلَيْنا.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، المرادُ بِالرسولِ الكريمِ هُنَا مُحمدٌ رَسولُ اللهِ ﷺ، فَأَثْبتَ اللهُ فِي هذهِ الآيةِ أنَّ القرآنَ قولُ الرسولِ مُحمدٍ ﷺ، وفِي آيةٍ أُخرى فِي سُورةِ التكويرِ قالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠]، فَالمرادُ بِالرسولِ الكريمِ فِي هذهِ الآيةِ هُو جِبريلُ لِقَولهِ: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾وَحِينَئذٍ يَقعُ إِشْكالانِ.

الإِشكالُ الأوَّلُ: كيفَ أَضافَ اللهُ القرآنَ إِلَى رَسولِ اللهِ مُحمدٍ ﷺ، وَإِلَى رَسولِهِ جِبريلَ مَع أنَّ القرآنَ قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

والإِشكالُ الثَّاني: كيْفَ أَضافَ اللهُ القرآنَ إِلى قولِ الرَّسولِ مُحمدٍ ﷺ، وأَضافه إِلَى قَوْلِ جِبريلَ؟

أمَّا الأولُ فنَقولُ: إنَّ اللهَ أَضافَ القرآنَ إِلى نَفْسِهِ؛ لأَنَّه كَلامهُ، وهوَ الذِي ابْتَدأَ بِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتَكلَّمَ بِه أوَّلًا، وأمَّا إِضافتُه إِلَى رَسولِ اللهِ مُحمدٍ ﷺ؛ فلأَنَّه بَلَّغَه إِلى الأُمَّةِ، وأمَّا إِضافتُه إِلَى جِبْريلَ؛ فلأَنَّه بَلَّغَه إِلَى النبيِّ ﷺ، وَبِهذا زَالَ الإشكَالُ وَاتَّضحتِ الحالُ وَالحمدُ للهِ.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ الشاعرُ هُو مَن يَأْتي بِالكلامِ عَلَى وَزْنٍ مُقفًّى، وَلَا حَاجةَ إِلَى أَنْ نَأتيَ بِأَمثلةٍ منَ الشِّعرِ؛ لأَنَّهُ مَعروفٌ، وَالشِّعرُ يَشْتمِلُ عَلَى نَغَماتٍ تَجْذِبُ الأَسماعَ، وَعَلَى حِكَمٍ تُبْهِرُ العقولَ؛

وَلِهذَا جاءَ فِي الحديثِ: «**إِنَّ مِنَ البيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً**»[1]، فقالَ هَؤلاءِ المُكذبُونَ: هذَا القرآنُ قَوْلُ شاعرٍ، وَقالُوا: إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ شاعرٌ، يَعْني أنَّه يأتي بِكَلامٍ مَوْزونٍ مُقَفًّى، فَادَّعوا أنَّ هَذَا شِعْرٌ، وَمَعْلومٌ أنَّ الشاعرَ لَيْسَ بِنَبِيٍّ، فَبِمُجَرَّدِ كَوْنِه شَاعِرًا لَا يُقالُ: إنَّه نبيٌّ؛ وَلِهَذا قالَ اللهُ تَعالَى فِي آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، يَعني مُحمدًا ﷺ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، يَعني لَا يُمكن أنْ يُنْشِئَ الشِّعرَ مِن عِنْده، وَيَقولَ للناسِ: إنَّ هذَا كلامُ اللهِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٦٩]، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ يَعْني أنَّ إِيمانكمْ قَليلٌ.

قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: والمرادُ بِالقلةِ هُنَا العَدَمُ؛ لأنَّ هَؤُلاءِ لَيْسَ عِنْدَهم إِيمانٌ، وَهُم يَصِفونَ النبيَّ ﷺ بِالشاعرِ، وَيَصِفونَ القرآنَ بالشِّعرِ.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ الكاهـنُ هوَ الذِي يُخْبِرُ عَـنِ المُغَيَّباتِ فِي المُستقبلِ، بأَن يَقولَ: سَيَكونُ فِي اليومِ الفُلانيِّ كذَا وكذَا، وَسَيَكونُ فِي المكانِ الفُلانيِّ كَذَا وَكَذَا، وَسَيَكونُ فِي النَّجمِ الفُلانيِّ كَذَا وَكَذَا.

وكانَت العَرَبُ لَهُم كَهَنةٌ، وَالكَهَنةُ لَهُمْ شَياطِينُ تَخْدُمُهم، وَتَصْعَدُ إِلَى السماءِ وَتَسْتَرِقُ السمعَ، ثُمَّ تَنزِلُ بِهِ إِلَى أَصْحابِهَا الكهنَةِ، ثُمَّ يَقْرَؤُها الكاهنُ عَلَى الناسِ ويَكْذِبُ مَعَهَا كَذِباتٌ، فَإِذا أَصابَ بِمَا سَمِعَ منَ السماءِ صَارَ سيِّدًا فِي قَوْمِهِ يَرْجِعون إِلَيْه، حتَّى فِي التَّحاكمِ يَتَحَاكمون إِلَى الكهنَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كِتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٤٨٥١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٩).

إِذَنِ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَيْسَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ القرآنِ قولُ كاهنٍ، وَإِنَّما هُو قَولُ رَسولٍ كريمٍ.

وعندَ هذِهِ النقطةِ أُحبُّ أَنْ أُنبِّهَ إِلى أَنَّ بَعضَ الصحفِ أَوِ المَجَلاتِ أَوِ الجرائدِ تَنْشُرُ أَحْيانًا مَا هُو كَهانةٌ، فيَقولُ: فُلانٌ وُلِدَ فِي سَاعةِ السُّرورِ، إِذَنْ سَيَكونُ سَعِيدًا، وَفُلانٌ وُلِدَ فِي سَاعةِ إجابةٍ، إِذَنْ سَيَكون مَشؤُومًا، وَفُلانٌ وُلِد فِي سَاعةِ بَلْعٍ إِذَنْ سَيكونُ أَكولًا مَا يَشْبَعُ وَهَلُمَّ جرًّا، وهَذا لَا يَجوزُ تَصْديقُه، وَلَا يَجوزُ نَشْرُه؛ لأَنَّ هَذا هُو مَا كَان أَهْلُ الجاهليَّةِ يَقُولونه، فَنَشْرُهُ حرامٌ وَتَصْديقُهُ حرامٌ، وَقد قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**»(١).

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنزيلٌ: خَبَرٌ لمُبْتدأٍ محذوفٍ، وَالتقديرُ: هُو تَنْزيلٌ مِن ربِّ العالمينَ.

وَفِي قَولِهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إِلَى عُلوِّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لأَنَّ النُّزولَ إِنَّما يَكونُ مِن أَعْلى إِلَى أَسْفَلَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى عالٍ بِذَاتِهِ كَمَا أَنَّه عَالٍ بِصِفَاتِهِ، وَقَد قَرَّرنا هَذَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِي هَذَا المكانِ، وَفِي غَيْرِهِ أَنَّ عُلوَّ اللهِ تَعَالَى بِذَاتِهِ أَمرٌ مَفْطورٌ عَليه الخلقُ، وَدلَّ علَيْهِ الكتابُ والسُّنةُ وَإِجماعُ الصحابَةِ.

وَقَولهُ: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إِشارةٌ إِلى أَنَّ مَا فِي هذَا القرآنِ يَجِبُ أَنْ يُنَفَّذَ؛ لأَنَّ الذِي أَنزَلَه هو ربُّ العالمينَ الذِي لَهُ الحُكْمُ فِي العالمينَ فِي الأمرِ وَالنهيِ وغَيْرِ ذَلكَ، فإِذَا كَان

---

(١) أخرجه أحمد (١٥/ ٣٣١، رقم ٩٥٣٦)، وأبو داود: كتاب الطب، باب في الكاهن، رقم (٣٩٠٤)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض، رقم (١٣٥)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب النهي عن إتيان الحائض، رقم (٦٣٩).

مِنْ ربِّ العالمينَ وَجَبَ عَلى العالمينَ أَنْ يَقْبلوهُ تَصْديقًا لِلْأَخبارِ وَامتِثالًا لِلْأَحْكامِ.

ثُمَّ قالَ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾.

الفاعلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ يَعودُ عَلى محمدٍ ﷺ.

﴿عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ إِلى آخرِهِ، يَعني فَقولُكمْ: إِنَّه شَاعِرٌ، أَو كَاهنٌ، هذَا كَذِبٌ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يكون شاعرًا وَيقولَ: إِنَّه نبيُّ اللهِ وَيَسْتبيحُ الدماءَ وَالأموالَ وَيُقاتِلُ عَلَى مَا جاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُمَكِّنَ اللهُ لَه أبدًا، لَو أَنَّه فَعَلَ لَأُهْلِكَ كَما سَنُبَيِّنُه إِنْ شَاءَ اللهُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ كَاهنًا أَيْضًا يَأتِي للناسِ، وَيقولُ: إِنَّه رسولُ اللهِ أَرْسَله بِكَذا وكَذا، وَيُحارِبُ مَنْ خَالَفَه وَيَسْتبيحُ دَمَهُ وَنِسَاءَهُ وَمَالَهُ.

وَقَولُهُ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾، أَيْ: نَسَبَ إِلَيْنا قَوْلًا لَم نَقُلْه، وكلمةُ (بعض) تَدُلُّ عَلى أَنَّه لَو تَقوَّلَ ولَوْ شَيئًا قَلِيلًا، فكَيْفَ لَو تَقَوَّلَ كثيرًا، أَو كلَّ الأَقَاوِيلِ، وَجَوابُ (لو) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، هذَا وَعيدٌ شديدٌ عَظيمٌ، يَعْني لَقَضَيْنا عَلَيْه قَضَاءً مُبْرَمًا، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، والوتينُ هُوَ الوَرِيدُ، يَعني حَبْلَ الدمِ الذِي يَتَّصِلُ بِالقلبِ، وإِذَا قُطِعَ الوَتِينُ هَلَكَ الإنسانُ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾، يَعني فَما يَسْتطيع أَحد مِنْكم أَنْ يَحْجُزَ عنه عَذَابَنا.

وَفِي هذهِ الآيَةِ التَّخويفُ لِلعلماءِ الَّذينَ يُفْتون بِغَيْرِ عِلمٍ، وَيَتَسرعونَ فِي الفَتْوى، إِذَا كَانَ مُحمدٌ رَسولُ اللهِ ﷺ قالَ اللهُ فِي حَقِّه مَا سَمِعتُم، فكَيْفَ بِمَن دُونَه مِمن يَتَقَوَّلُ عَلَى اللهِ مَا لَا يَعْلَمُه؟ إِنَّ هذَا أمرٌ خَطيرٌ.

واعْلَمْ أَنَّ المُفْتِيَ إِنَّما يَتَحدَّثُ عَنْ شَرعِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَلْيَحْذَرْ أَنْ يُقالَ له يَوْمَ

القيامَةِ: كَذَبتَ وَيُجازى جَزاءَ الكاذِبينَ، فعَلَيْه أنْ يَتثَبَّت، وعلَيْه أَن يَتأَنَّى، ولَا عَيبَ علَيْه إذَا قالَ: إنِّي لَا أَعْلَمُ، بَل هَذَا واللهِ هوَ العلمُ، وهوَ الذِي يُوجِبُ أَن يَثِقَ الناسُ بِقَولِهِ، إذَا قالَ فِيما لَا يَعْلَمُ: لَا أَعلَمُ، وَثِقَ الناسُ فِيما يَقولُ: إنَّه علمٌ؛ لأَنَّهم يَعرِفونَ أَنَّه لَو لَم يَعْلَمْ مَا قَال وَلَا أَفتَى، فَيَثِقون فِي قَوْلِهِ، لَكنَّ الشَّيطانَ يَأتِي لِلْإِنسانِ فيَقُولُ لَه: لَا تَقُل: لَا أَعْلَمُ، إذَا قُلْتَ: لَا أَعْلَمُ، قَالوا: هَذا صَبِيٌّ مَا يَعْرِفُ، ولكنْ واللهِ هذَا خَطرٌ عَظِيمٌ، لِيَقُل فِيما لَا يَعْلَمُ: إنِّي لَا أَعْلَمُ. فَهذا هوَ العلمُ، إنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُسْتَفْتَى فِي شيءٍ لَمْ يُنزلِ اللهُ حُكْمَه فَيَنتَظِرُ حتَّى يَنْزِلَ الحُكْمُ، وَيقولُ: «**حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ**»[1].

فكَيْف نَتَجَرَّأُ عَلى الفَتْوَى مِن غَيْرِ علمٍ، ولَقد كَانَ مِنْ عادةِ إمامِ أَهْلِ السُّنةِ أَحمَدَ بنِ حَنبلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّك لَا تكادُ تَجِدُ فِي كَلامِهِ: هَذَا حرامٌ، أَو هذَا وَاجبٌ، بَل يَقولُ: أَكْرَهُ هذَا، أَو لَا يُعْجِبُني، أَو لَا أَرَاه، أَو أَجِدُ مَعْنَى الجوابِ عَلَيْهِ، أَو مَا أَشْبَهَ ذَلكَ، كلُّ هَذِا منَ الورعِ.

فَما أَصْعَبَ أَنْ تَقولَ: هذَا حرامٌ، واللهُ تَعالَى لَم يُصَرِّحْ بِتَحْريمِه، وَما أَعظَمَ أَنْ تَقولَ: هذَا لَيْسَ بِحَرامٍ، واللهُ تَعالَى حَرَّمَه؛ وَلِهَذَا يَسُوؤني كَثيرًا أَنْ يَقولَ القائلُ إذَا قُلتَ لهُ: قالَ النبيُّ ﷺ: افْعَلْ كذَا، فَيقولُ: هلْ هذَا لِلوُجوبِ أَوِ الاستحبابِ؟ لأَنَّ هذِهِ الطريقةَ مُخالفةٌ لِطَريقةِ الصحابَةِ، ائْتُوني بِحَديثٍ واحدٍ أَمَرَ فِيه النبيُّ ﷺ بِشيءٍ، ثُمَّ قَالوا: يَا رَسولَ اللهِ أهوَ لِلْاستحبابِ أَوْ لِلوجوبِ، لَنْ تَجِدَ ذلكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، وقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، رقم (٤٤١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩).

وأمَّا قِصَّةُ الحُبابِ بنِ المنذرِ فِي بَدْرٍ لَمَّا نَزَلَ النبيُّ ﷺ فِي أَدْنَى الآبارِ جاءَهُ وقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ هَذَا المَنْزِلَ، أَمَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ، وَلَا نَتَأَخَّرَهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ[1]؟ فهَذَا الحديثُ ضَعِيفٌ، وإِنْ كَانَ أهلُ السِّيَرِ يَقُولونه ولكنَّه ضَعيفٌ لَا يُحْتَجُّ بِهِ، ثُم لو فُرِضَ أنَّه يُحْتَجُّ بِه لَكانَ هذا لَيْسَ فِي أُمُورٍ مَشروعةٍ، بَل فِي أُمورٍ مَدارُهَا عَلى الرَّأيِ؛ وَلِهَذَا لَمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ، وكَانَ قَد قَدِمَ مِنْ مَكَّةَ وَمَكَّةُ لَيْسَتْ بَلَدَ زِراعةٍ، والدليلُ قولُهُ تَعالَى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم:٣٧]، قَدِمَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المدينةَ، ووجَدَ الناسَ يُلَقحونَ النخلَ -يَعْنِي يُؤَبِّرونه-، وَالتلقيحُ أَوِ التأبيرُ أَن يُؤْخَذَ مِن طَلعِ الفحولِ وَيُوضَعَ فِي طَلْعِ النَّخلِ حتَّى يَكونَ الثمرُ جَيِّدًا، والتلقيحُ يَحتاجُ إِلى أَنْ نَصْعَدَ إِلى الفحولِ، ونَأخذَ طَلْعَها وأَنْ نَصْعَدَ إِلى النَّخلِ لِنَجْعَلَ فِيه هذا الطَّلْعَ، ففيه تَعَبٌ فَقالَ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَوْ أَنَّكُمْ لَمْ تَفْعَلُوا هَذَا**»؛ لأنَّه رَأَى أنَّ فِيه تَعَبًا وهُو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَعْرِفُ أَنَّ لِهذا تَأثيرًا، فالصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تَركوا التَّلقيحَ، ففَسَدَ الثمرُ، ثُمَّ قالَ النبيُّ ﷺ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ**»[2]، والشاهِدُ مِن هَذا أَنَّ الحديثَ الذِي أَشَرْنا إِلَيْه الَّذِي يَنْقُلُه المُؤَرِّخون حَدِيثٌ ضَعيفٌ، وَعَلَى تَقْديرِ صِحَّتِهِ فَإِنَّ هذَا لَيْسَ مِن بَابِ الأحكَامِ الشرعيَّةِ، ولكنَّه مِن بَابِ الرَّأْيِ.

إِنَّني يُؤْسِفُني -واللهِ- أَنْ أَقولَ لِإِنْسانٍ: قالَ النبيُّ ﷺ كذَا منْ أَوامِرِ الرسولِ، ثمَّ يَقولُ: هلِ الأمرُ لِلْوجوبِ أَوْ لِلاستحبابِ؟ الَّذِي يَنْبَغِي لَه أَنْ يَقولَ: سَمِعْنا

(١) أخرجه الطبري في التاريخ (٢/ ٤٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٢ ،رقم ١٢٥٦٦)، وابن ماجه: كتاب الرهون، باب تلقيح النخل، رقم (٢٤٧١).

وَأَطَعْنا، فإنْ كَانَ الأمرُ لِلْوجوبِ فَقَدْ بَرِئتِ الذِّمةُ وسَلِمَ منَ الإِثْمِ، وإنْ كانَ لِلْاسْتحبابِ فَقَدِ ازْدَدنا ثوابًا وأَجرًا.

نَعم إِذَا وَقعَ الإنسانُ فِي المُخالفَةِ فَحِينئذٍ يَتوجَّهُ أَن يَقولَ: هلْ هُو لِلوجوبِ أَوِ الاستحبَابِ؟ فَالإنسانُ لَهُ حَالتانِ:

الحال الأولَى: قَبلَ أَنْ يَفعلَ أَوْ يُخالِفَ، فهُنا لَا تَسأل: هَل هُو للاسْتحبابِ أَوْ لِلوجوبِ أَوِ النَّهيِ لِلْكَراهةِ أَوِ التَّحريمِ، بَل قُل: سَمِعنا وَأَطَعنا.

الحال الثَّانيةُ: بَعد أَنْ تَقعَ فِي المُخالفَةِ، فَتتركَ مَا أَمَرَ بِه وَتَفْعَل مَا نَهى عَنه، فَحِينَئذٍ اسْتَفْهِم؛ لأَنَّه إذَا كَانَ الأمرُ لِلوجوبِ لَزمتِ التوبةُ منَ المخالفةِ، وإذَا كانَ لغيرِ الوجوبِ فَهُو مُسْتحَبٌّ، وَلَا إِثمَ فِي تَركِهِ، وَكَذَلك يُقَالُ فِي الكراهَةِ والتَّحريمِ.

فَعلَيْك بِهَذا الأصلِ، فإنَّه نَافعٌ لَكَ وَيَجعَلُ قَلْبَكَ دائمًا مُسْتسلمًا لِأَمرِ اللهِ وَرَسُولِهِ دُونَ أَنْ يَسأَلَ وَيَبْحثَ.

إِذَا كانَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ توَعَّد نَبِيَّه ﷺ بهذا الوَعيدِ الشَّديدِ فِيما لَو تقوَّلَ عَلى اللهِ بَعضَ الأقاوِيلِ، فَما بَالُكَ بِمَن لَيسَ له حقٌّ فِي التَّشريعِ لِمَنْ دُونَ الرسولِ ﷺ إذَا تَقوَّلَ؟

ثُمَّ انظُرْ إِلى قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ يَعْني لَو رَكَنْتَ إِلَيهم شَيئًا قليلًا ﴿لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٧٣-٧٥].

اللهُ أكبرُ، سُبحانَ اللهِ، هَؤلاءِ يُريدونَ أَنْ يَفْتِنُوا الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنِ الَّذي أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ لِأَجلِ أَنْ يَقولَ غَيْرَهُ، فَلَوْ أَنَّه مالَ إِلَيْهم -ولَو يَسيرًا- لَأَذَاقَهُ اللهُ ضِعفَ الحياةِ وَضِعفَ المماتِ، فكَيفَ بِالناسِ الذين يَرْكَنون إِلى الذينَ يُريدون أَنْ يَفتنوهم عَنْ دِينهِمْ رُكونًا تَامًّا؟ وهُم مَا نُسَمِّيهم بِعُلَماءِ الأُمَّةِ أَو عُلَماءِ الدَّولةِ؛ لأَنَّنا نُقَسِّمُ العلماءَ إِلَى ثَلاثةِ أقسامٍ: عَالِمِ ملَّةٍ، وعَالِمِ أُمةٍ، وعَالِمِ دولةٍ.

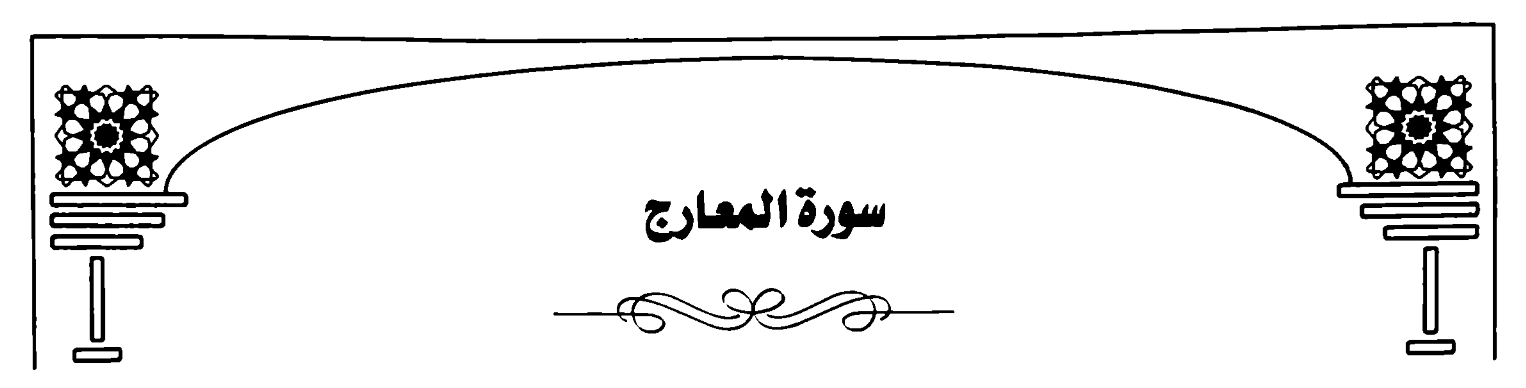
فعَالِمُ المِلَّةِ: هُوَ الذِي لَيسَ لَه همٌّ إِلا أنْ تَقومَ مِلَّةُ رَسولِ اللهِ ﷺ رَضِيَ مَنْ رَضِيَ بِقولِهِ، وسَخِطَ مَنْ سَخِطَ، وهذَا هُوَ العَالِمُ الربانيُّ المُجاهدُ الذِي لَا تَأْخُذُه فِي اللهِ لَوْمةُ لائمٍ.

وعَالِمُ الأُمَّةِ: هوَ الذِي يَنْظُرُ مَا يَشْتهيهِ الشعبُ وعَامةُ الناسِ، فَتجِدُهُ يَتحَرَّى مَا يُريدُهُ الناسُ وَيحْكُمُ بِهِ.

وَعَالِمُ الدَّولةِ: هُوَ الَّذي يَتحَرَّى مَا تُريدهُ الدولةُ، ثُمَّ يَحْكُمُ بِه حَسَبَ مَا تُرِيدهُ الدَّولةُ.

فَنقولُ: الثَّاني وَالثالثُ مُعَرَّضونَ لِهَـذَا الخَطَرِ العَظِيمِ، وهُو أَنَّهم إِذَا مَالوا -ولَوْ قَليلًا- أَذَاقهمُ اللهُ ضِعفَ الحياةِ وَضِعفَ المماتِ، ولَنْ يَجِدوا مِن دُونِ اللهِ نصيرًا، فعلَيْك أَنْ تَحترمَ الشريعَةَ، وأَلَّا تُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلمٍ وَأَلَّا تُفْتِيَ بِخِلافِ الحَقِّ مُحاباةً لِأحدٍ منَ الناسِ، إِنَّكَ مَسؤولٌ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ القيامَةِ عَن عِلمِكَ مَاذا فَعَلتَ بِهِ؟ هَل نَشَرْتَه بَيْنَ الناسِ؟ هَل صَدَعْتَ بِالحَقِّ بِدُونِ مُبَالاةٍ أَوْ لَا؟

أَسأَلُ اللهَ تَعَالَى أَن يَرْزقَنا عِلمًا نَافعًا وعَملًا صَالحًا ورِزقًا طَيبًا واسِعًا.



سورة المعارج

بسمِ الله الرَّحْمَنِ الرحيمِ، الحمْدُ للهِ رَبِّ العالمِينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على نَبِيِّنَا محمَّدٍ، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعينَ، **أَمَّا بَعْدُ**:

قولُهُ تَعالَى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج:١-٢]، هنا يَتبادَرُ إلى الذِّهْنِ أن يكونَ الكلامُ: سأَلَ سائلٌ عن عذابٍ واقِعٍ؛ لأن سأَلَ تَتَعَدَّى بـ(عن)، ولا تَتعدَّى بالباءِ، والكلامُ هنا أُوَجِّهُهُ إلى طَلَبَةِ العِلْمِ، ولا سِيَّما الذين يَعرِفُونَ النَّحْوَ، فإنه قد يَقولُ قَائِلٌ: كيفَ عُدِلَ عَنْ (عن) إلى الباءِ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾؟

والجوابُ عن ذلك: أنَّ عُلماءَ النَّحْوِ اختَلَفُوا في مثلِ هذَا، فمِنهم مَنْ قالَ: إن الاستعارَةَ في الحَرْفِ، ومنهم من قال: إن الاستعارةَ في الفِعْلِ، فالأولون يقولونَ: إن الباء هنا بمَعْنَى (عن)، أي: سأَلَ سائلٌ عن عذابٍ واقِعٍ، فأُجِيبَ. ومنهم مَن قالَ: إن (عن) هنا لا تُقصَدُ، وأن الاستعارةَ في (سألَ)، وأنه ضُمِّنَ معنى الإجابةِ، كأنه قِيلَ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾، فأُجيبَ ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، أي: بهذا الجوابِ.

ثم قالَ تَعالَى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٢-٤]. واللهُ عَزَّوَجَلَّ ذُو المَعارِجِ، كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غافر:١٥]؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، مُستَوٍ علَى عرْشِهِ، وعُلوُّه جَلَّوَعَلَا يَنقَسِمُ إلى قِسمينِ: عُلُوِّ ذاتٍ، وعُلُوِّ صِفاتٍ، فأما

عُلُوُّ الذاتِ فإنَّ معناه أن اللهَ تعالَى بذاتِهِ فوقَ كلِّ شيءٍ، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُسْتَوٍ على عرْشِهِ كما يَليقُ بجَلالِهِ وعَظَمَتِهِ، وأما عُلُوُّ الصفاتِ فإنَّه ما مِنْ صفةِ كمالٍ إلا ولله تعالَى أعْلاهَا وأكْملُها، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

واعْلَمْ أن عُلُوَّ الصِّفَاتِ قدِ اتّفَقَ عليهِ أهْلُ القِبلَةِ، وأما عُلُوُّ الذَّاتِ فأنكرَهُ مَن أنكرَهُ مِنْ أهلِ البِدَعِ، وقالوا: إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ ليسَ عاليًا بذَاتِهِ، ثُمَّ انقَسَمُوا إلى قِسْمينِ: قسمِ الحُلُولِيَّةِ، وقسمِ المُعَطِّلَةِ، وليسَ هذا موضِعَ ذِكْرِ هذِهِ المسألَةِ؛ وحَسْبُنا أن نؤمِنَ بأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فوقَ خَلْقِه مُستوٍ على عَرْشِهِ.

سألَ الإمامَ مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلٌ، فقالَ: يا أبا عبدِ اللهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيفَ استوَى؟ وكان مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حَلْقَةِ أصحابِهِ وتلامِيذِهِ، فأطرَقَ برأسِه حتَّى علاهُ الرُّحضاءُ، أي: العَرَقُ؛ خَجَلًا، وتحمُّلًا لهذَا السؤالِ العَظِيمِ، ثم رَفَعَ رأسَهُ، وقالَ: «الاسْتَواءُ غيرُ مجْهُولٍ، والكَيْفُ غيرُ مَعقولٍ، والإيمانُ به واجِبٌ، والسؤالُ عنه بِدْعَةٌ»[1].

ومَعْنَى قولِهِ: «الاستواءُ غيرُ مجْهُولٍ»، أي: إنَّ الاستواءَ مَعْلومٌ في اللُّغَةِ العربِيَّةِ، فإن جميعَ مَوارِدِهِ في القُرآنِ يُعرَفُ معناهَا من سِياقِهَا، فـ(استَوَى) ورَدَتْ في القرآنِ علَى ثلاثَةِ أوْجُهٍ، مُعَدَّاةً بـ(إلى)، ومُعَدَّاةً بـ(عَلَى)، ومُطْلَقَةً غيرَ مُعَدَّاةٍ بحَرْفٍ. واستُعْمِلَتْ أيضًا في اللغَةِ العربيةِ مَقْرونةً بالواوِ، فاستِعمالاتُها في اللغَةِ

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسناد جوّده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

العَرَبِيَّةِ إذن على أربعةِ أَوْجُهٍ:

الوجهِ الأوَّلِ: أنْ تُعَدَّى بِـ(عَلى)، وحينئذٍ يَصِيرُ معناهَا العُلُوُّ والاستِقْرارُ، ومنه قولُهُ تَعالَى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨]، ومنه أيضا قولُه: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣]، وقولُهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤].

الوجه الثاني: أن تُعَدَّى بـ(إلى)، ومنه قَولُه تَعالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩]، وقولُهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١]، وهِي هنَا بمَعْنَى القَصْدِ، أي: قَصَدَ إلى السَّماءِ، وقيل: بمَعْنَى (عَلَى)، فلِعُلَماءِ السَّلَفِ فيهَا قولانِ، وكلاهُما لا يُنَافِي الآخَرَ.

الوجه الثالث: أنْ تأتِيَ مُطْلَقَةً غيرَ مُعَدَّاةٍ بـ(إِلَى)، ولا بِـ(عَلَى)، ومنْه قولُهُ تَعالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]، وحينئذٍ تكونُ بمَعْنَى كمالِ الشَّيءِ وانتِهائِه، فـ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ يعني: بلَغَ غايَةَ قُوَّتِهِ العَقلِيَّةِ والجِسْمِيَّةِ، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: كَمَلَ، ومنه قولُ العامَّةِ إذا طَبَخُوا الطعامَ، يقولونَ: إنَّه استَوَى، أي: كَمَلَ نُضْجُه.

الوجه الرابع: أن تَأتِيَ مقْرُونةً بالواوِ، وهي في هذا بمَعْنَى تَساوَى، كقولِهِمْ: استَوَى الماءُ والخَشَبَةُ، أي: تَساوَيَا، وصارَ الماءُ إلى الخَشَبَةِ.

ونحنُ نؤمِنُ بأنَّ الاستواءَ الَّذي وَصَفَ اللهُ به نَفْسَهُ بمَعْنَى العُلُوِّ والاستقرارِ، فإذا قلتَ: أليسَ اللهُ عاليًا على كلِّ شَيْءٍ؟ فالجوابُ: بلى؛ ولكِنَّ استواءَه على العَرْشِ استَواءٌ خاصٌّ بالعَرْشِ، وليسَ هو العُلُوَّ العامَّ لجميعِ المخْلُوقاتِ.

وأما قولُ الإمامِ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والكيفُ غيرُ معْقُولٍ»، فالمَعْنَى: أنَّنا لا نُدْرِكُ كَيفِيَّةَ استواءِ اللهِ تَعالَى بعُقُولِنَا؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَعْظَمُ من أنْ تُدْرِكَهُ العُقولُ،

أو تُحِيطَ بِهِ، كما قالَ -جل شأنه-: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وقالَ تَعالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣].

وإذا كانَ العَقْلُ لا سَبِيلَ له إلى إدراكِ كَيْفِيَّةِ استواءِ اللهِ على عَرْشِهِ، بَقِيَ عندنَا السَّمْعُ، فهَلْ دلَّ السمْعُ على كَيْفِيَّتِهِ؟ لا؛ لأن اللهَ أَخْبَرَنَا أنه استوَى عَلَى العَرْشِ، ولم يُخْبِرْنَا كيفَ استوَى، فإذا انْتَفَى عنه الدَّلِيلانِ -العَقْلِيُّ والسَّمعِيُّ- وَجَبَ علينَا الكَفُّ عنْه، وألَّا نَسْأَلَ عن كَيفِيَّتِهِ؛ لأن هذا أمرٌ لا يُمكِنُ إدرَاكُهُ، ولهذا قالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والسؤالُ عنه بَدْعَـةٌ»، أي: عن كَيفِيَّةِ استِوائِهِ؛ لأن الصحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم واللهِ أحْرَصُ منَّا على العِلْمِ- لم يَسْأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ كيفَ استوَى رَبُّنَا على عَرْشِهِ؟ لكن سأَلُوه: أين كان رَبُّنَا قبل أن يَخْلُقَ السماواتِ والأرضِ؟ أما هذا فلم يسأَلُوا عنْه، وهو شيءٌ لم يَذْهَبْ إليه سَلَفُ هذِهِ الأُمَّةِ مما يتَعَلَّقُ في دِينِ اللهِ؛ فإن الذَّهابَ إليه بِدْعَةٌ، ولهذا قال: «السؤالُ عنه بِدْعَةٌ».

أما الإيمانُ به فواجِبٌ؛ لأنَّ اللهَ أخبرَ بِهِ، وكلُّ ما أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فإنه يَجِبُ علينَا أن نُؤمِنَ بِهِ.

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في السُّورَةِ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، والمُرادُ بالرُّوحِ هنا جِبْرِيلُ، وهو مِنَ الملائكَةِ؛ ولكنه خَصَّه بالذِّكْرِ اعتِناءً بِه، وتَعْلِيَةً لشأنِهِ، ومثلُ هذِهِ الآيةِ في تَخصِيصِ جِبريلَ قولُه تَعالَى في ليلَةِ القَدْرِ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤].

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، التَّقْدِيرُ: يقَعُ في يومٍ، وإن شِئْتَ فقُلْ: إن الجارَّ والمَجْرُورَ ﴿فِى يَوْمٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بكَلِمَةِ ﴿وَاقِعٍ﴾، وليسَ متعلِّقًا

بـ﴿تَعْرُجُ﴾؛ لأن عُروجَ الملائكةِ والرُّوحِ إليه في كلِّ وقتٍ، لكِنَّ العذابَ الواقِعَ يَقَعُ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وفيه مِنَ الأهوالِ العِظامِ ما يَجْعَلُ الوِلدانَ شِيبًا، ولكِنَّ هذا اليومَ على صُعوبَتِهِ ومشَقَّتِهِ هو يسيرٌ على المؤمِنينَ -أسأَلُ اللهَ أن يجْعَلَني وإياكُمْ منْهُم-، كما قالَ تَعالَى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦]، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا عَلَى المؤمِنينَ، وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠]، وأما المؤمنونَ فَهُو يَسِيرٌ عليهِمْ.

ثم ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن هؤلاءِ المكَذِّبينَ يستَبْعِدُونَه، ويرَوْنَهُ بَعِيدًا، وهو قريبٌ يَسِيرٌ على اللهِ؛ لأن اللهَ إذا أرادَ شيئًا قالَ لَهُ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧]، وقالَ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤].

قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج:٨-١٠]، الحَمِيمُ: الصاحِبُ والقَرِيبُ، لا يَسْأَلُ حَمِيمٌ عَنْ حَمِيمِه؛ لأن لكُلِّ واحدٍ منهم شأنًا يُغْنِيه.

قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج:١١]، يعْني: يُقَدِّمُ ابنَه فِداءً لَهُ، ففي الدُّنْيا تُقَدِّمُ نفْسَكَ فِداءً لوَلَدِكَ، وقد ذُكِرَ في قِصَّةِ قومِ نُوحٍ حينَ أمرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ السماءَ أن تُمْطِرَ، والأرضَ أن تَنْبُعَ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١-١٢]، فقد ذُكِرَ أن امرأةً كان لها صَبِيٌّ، فلما رَأَتِ الماءَ يرْتَفِعُ، ذهَبَتْ إلى جبَلٍ ورَقِيَتْ عليه، فارتَفَعَ الماءُ، ثم ارتَفَعَتْ، فارتفعَ الماءُ، ثم ارتَفَعَتْ، فارتفَعَ الماءُ إلى قِمَّةِ الجَبَلِ، ثم

ارتفعَ الماءُ حتى ألجَمَ المرأةَ، فأخَذَتْ صَبِيَّهَا ورَفَعَتْه فوقَ يَدَيْهَا، تريدُ أن تموتَ قبلَ أنْ يَمُوتَ الصَّبِيُّ، وجاء في هذا: لو كانَ اللهُ رَاحِمًا أحَدًا منهم لرَحِمَ أمَّ الصَّبِيِّ[1]، لكنَّ يومَ القِيامَةِ ليسَ كحالِ الدُّنْيا: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ [المعارج:١١-١٣]، ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عَشيرَتِه التي تُؤوِيهِ، ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج:١٤]، ولكنَّ الأمْرَ ليسَ باختيارِهِ ولا بِيدِهِ، ولا يُمكِنُ أن يَفْتَدِيَ بشيءٍ يَنْفَعُه.

يَقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ﴾ [المعارج:١٥]، لا فِدْيَةَ، ولا خَلاصَ، ولا وَزَرَ، كما نَقْرَأُ أيضًا في سورةِ القيامَةِ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة:٧-١٠]، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة:١١]، ولهذا يَنْبَغِي الوقوفُ عَلَى هذه الجُملَةِ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، ثم تَستأنِفُ وتقولُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة:١٢]، أي: لا مُعِينَ، ولا مُغِيثَ، ولا مَفَرَّ.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج:١٥] لَظَى: اسمٌ من أسماءِ النَّارِ، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج:١٦]، والعياذُ باللهِ، ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج:١٧] تَقولُ له: ائتِ إليَّ، فيتَساقَطُ أهلُها فِيهَا.

ثم قالَ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج:١٩]، ومَعْنَى: ﴿هَلُوعًا﴾ فسَّرَهُ اللهُ فقالَ: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:٢٠-٢١]، إذا مَسَّهُ الشرُّ وأُصِيبَ بالفَقْرِ جزِعَ، وتَضَجَّرَ، وإذا مسَّهُ الخيرُ وأُصِيبَ وأُعْطِيَ المالَ الكثيرَ كانَ مَنُوعًا، أي: لا يُنْفِقُ. ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:٢٢]، وما أَنْفَعَ الصلاةَ للقَلْبِ

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٢، رقم ٣٣١٠)، وقال: صحيح الإسناد.

والبَدَنِ والمجتَمَعِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ولم يَنْجُ من هذَا الوَصْفِ الَّذِي وُصِفَ به الإنسانُ من حيثُ هو إنسانٌ: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٢٢-٢٣] ، أي: لَا يَمَلُّونَ، ولا يَسْأَمُونَ، ولا يُؤَخِّرُونَهَا عن أوقاتِهَا، ولا يُفرِّطون في وَاجِبَاتِهَا، بل هم دائمون علَيْهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٤-٢٥]، أي: حقٌّ مَعْلومٌ شَرْعًا، أو مَعلومٌ عُرْفًا، فإن كانَ مما قدَّرَهُ الشرْعُ فهو مَعلومٌ شرْعًا مثل الزكاةِ، وإن كان مما لم يُقدِّرْهُ الشَّرْعُ فهو مَعلومٌ عُرْفًا كالنَّفَقَةِ.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٥]، السائلُ الذي يَسْأَلُ، فالسائلُ له حَقٌّ، فإذا جَاءَكَ أحدٌ يسألُكَ فإنك تُعْطِيهِ لسؤالِهِ، ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾، يقولُ العامَّةُ في تفسيرِه: إنه البَخِيلُ الذي حُرِمَ الانتفاعُ بمالِهِ؛ ولكن هذا ليسَ صَحِيحًا، فإن البخيلَ ليسَ له حقٌّ في مالِ الكَرِيمِ، فالبخيلُ يُضرَبُ حتى يُخْرِجَ ما أَوجَبَ اللهُ عليه، وإنما المرادُ بالمَحرومِ الفَقِيرُ الذي حُرِمَ منَ المالِ، ولم يُعْطَ منه شيئًا.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المعارج:٢٦]، أي: لِوقُوعِهِ، وما يَقَعُ فيهِ، فالإيمانُ باليومِ الآخرِ -يومِ الدِّينِ- يتَضَمَّنُ الإيمانَ بوقوعِهِ، والإيمانَ بما يقَعُ فيهِ، فَفيهِ -مثلا- الحِسَابُ، ونشْرُ الكُتُبِ، وفيه أيضًا المِيزانُ، والصِّراطُ، ودُنُوُّ الشمْسِ من الناسِ، وغيرُ ذلك من العَلاماتِ والمَواقِفِ التي ذُكِرتْ في الكِتابِ والسُّنَّةِ.

ومن الإيمانِ باليومِ الآخِرِ الإيمانُ بفِتْنَةِ القَبْرِ، ونَعيمِ القَبْرِ، وعذابِ القَبْرِ.

أما الفِتْنَةُ: فإن الناسَ يُفتَنُونَ في قُبورِهِمْ، فإذا ماتَ الإنسانُ ودُفِنَ، وتولَّى عنه أصحابُهُ -حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ- أَتَاهُ مَلَكَانِ؛ فيُقْعِدَانِه[1]، وتُعادُ إليه رُوحُهُ، ويُسأَلُ عن ثلاثةِ أمورٍ: مَن ربُّكَ؟ وما دِينُكَ؟ ومَنْ نَبيُّكَ؟ فيُثَبِّتِ اللهُ الذين آمَنُوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفِي الآخِرَةِ -أَسْأَلُ اللهَ أن يَجْعَلَنِي وإياكم منْهم بمَنِّهِ وكَرَمِهِ- فيَقولُ المؤمن: «رَبِّيَ اللهُ، ودِينِيَ الإِسْلَامُ، ونَبِيِّي مُحَمَّدٌ، فيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ طِيبِهَا وَرَوْحِهَا»[2]، فيَكونُ بذَلِكَ مُنْتَقِلًا مِنْ نَعيمِ الدُّنْيا إلى نَعيمِ الآخِرَةِ، ويَكونُ عَشِيَّةَ يومِهِ الذي ماتَ فيه أَسَرَّ منه في صَباحِ يومِهِ الذي ماتَ فيِهِ؛ لأنه خَرَجَ من دارِ النَّكَدِ والتَّعَبِ، والهَمِّ والغَمِّ والعَمَى، إلى دارِ النَّعِيمِ والسُّرورِ، وفُتِحَ له بابٌ إلى الجَنَّةَ فجعَلَ يَنظُرُ إليها في قَبْرِهِ، وأُلْبِسَ من الجَنَّةِ، وفُرِشَ مِنَ الجَنَّةِ.

«وَنَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ»، وهوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ «أَنْ صَدَقَ عَبْدِي»، ما بَالُكَ بسُرورِهِ إذ يُنادِيهِ رَبُّهُ: «أَنْ صَدَقَ عَبْدِي»، يُصَدِّقُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ على مَا قالَ مِنْ صوابِ الجوابِ، أما المُنافِقُ أو الكافِرُ فإنَّه إذا قِيلَ: «مَنْ رَبُّكَ، مَنْ نَبِيُّكَ، مَا دِينُكَ، يَقُولُ: هَا هَا، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولونَ شَيْئًا فَقُلْتُ»؛ لأن هذا الإيمانَ لم يَدْخُلْ إلى قَلْبِهِ، وإنما هو شيءٌ سَمِعَهُ فقالَهُ، فما وَقَرَ الإيمانُ في قَلْبِهِ، وقد أَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عن أَقوامٍ يَقْرَؤونَ القُرآنَ ويُصَلُّون، حتى إنَّ الصحابَةَ يَحْقِرُونَ صَلاتَهُم مَعَ صَلاتِهِمْ، لكنَّ إِيمانَهُم لا يَتَجَاوَزُ حنَاجِرَهُم -والعياذُ باللهِ-، يَمْرُقونَ مِنَ الإسلامِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، رقم (١٣٣٨)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السُّنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

الرَّمِيَّةِ(١)، والسَّهْمُ إذا دخَلَ في الرَّمِيَّةِ مَرَقَ منها بسُرعَةٍ، فإيمانُهُم -والعياذُ باللهِ- لم يَتجاوَزِ الحناجِرَ.

ولذلك أَنْصَحُ نَفْسِي وإياكُمْ بأنْ نتَفَقَّدَ قُلُوبَنا: هَلْ وَقَرَ الإيمانُ فِيهَا؟ هل وصَلَ إليهَا؟ أم نحن كالأَعْرابِ الذين قالُوا: آمَنَّا، فقالَ اللهُ لنَبِيِّهِ: ﴿**قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات:١٤]، ليسَ الإيمانُ مُجرَّدَ رُسومٍ يَقومُ بها الإنسانُ، لكنَّ الإيمانَ كما قالَ الحسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا وقَرَ في القَلْبِ وصَدَّقَتْهُ الأعمالُ»(٢).

فأنتَ يا أخِي المُؤمِن، فتِّشْ أوَّلًا عَنْ قَلْبِكَ، انظُرْ أينَ اتِّجاهُكَ، هل هُو إلى اللهِ، وهل تَبْتَغِي وَجْهَ اللهِ، وهل تُرِيدُ ثوابَ اللهِ؟ أم إلى أَمْرٍ تُرِيدُهُ من الدُّنْيَا، أو إلى هَوًى في نَفْسِكَ تَقْصِدُهُ، أو إلى مالٍ، أو إلى رئاسَةٍ، أو إلى جاهٍ؟ انْظُرْ وحَاسِبْ نَفْسَكَ. إنَّكَ إذا أَصْلَحْتَ قَلْبَكَ صَلَحَ أَمرُكَ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»(٣)، فطَهِّرْ قَلْبَكَ مِنَ الرِّياءِ، طَهِّرْ قَلْبَكَ مِنَ الحِقْدِ، طَهِّرْ قَلْبَكَ مِنَ الغِلِّ، طَهِّرْ قلْبَكَ من الفِتْنَةِ في الدُّنْيَا بجميعِ زَهْرَتِهَا، وبجَمِيعِ زِينَتِهَا، وعن جَمِيعِ ما ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ**﴾ [آل عمران:١٤]، كلُّ هذا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٥)، ومسلم: كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج، رقم (١٠٦٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٥٩٨، رقم ٣٠٩٨٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، مسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

زُيِّن، ولكن هل هذا هُوَ النَّعِيمُ؟ هل هذه هي الغَايَةُ؟ ثم اقْرَأْ ما بَعْدَها: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤- ١٥]، ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾، الاستفهامُ هنا يُرادُ بِه التَّشْوِيقُ، فما هو الشيءُ الَّذِي هـو خَيْرٌ مِنْ ذلِكَ؟ اقْرَأْ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فهل يَبْقَوْنَ فيها مُدَّةً، ثم يموتُونَ؟! لَا: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: رضًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يُحِلُّ عليهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رضَاهُ، فلا يَسْخَطُ عليهِمْ بعْدَهُ أبدًا: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٥]، فمَن هم الذين اتَّقَوْا، والذين لهم هَذَا الثوابُ؟ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ -اللهم اجْعَلْنَا مِمَّن يقُولُ ذلِكَ- ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٦-١٧]، يستَغْفِرُونَ بالأسحارِ؛ لأنهم قامُوا للهِ؛ وتَجافَتْ جُنُوبُهم عن المَضاجِعِ، ويَدْعُونَ ربَّهُم خَوْفًا وطَمَعًا، فلما أَكْمَلُوا قِيامَهم، نظَروا في أَمْرِهم، وعامَلوا أنفُسَهُم مُعامَلَةَ المُذْنِبِ المُقصِّرِ، فجعَلُوا بعدَ هذا العَمَلِ يستَغْفِرُونَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لنَا، اللَّهُمَّ نَسْتَغْفِرُك، وما أَشْبَهَ ذلِكَ مِنْ دَعواتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالاستِغْفَارِ.

يَقُولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، أي: خائفونَ مِنْ هذا العَذابِ، ومَن خافَ من شيءٍ حَذِرَهُ، ومَن حَذِرَ شَيئًا تَجنَّبَ أسبابَهُ، فإذا كانوا خائفِينَ من عذابِ اللهِ، فلا بُدَّ أن يَحْذَرُوا منْه، وأَنْ يتَجنَّبوا أَسْبابَه، وأَسبابُ عذابِ اللهِ إمَّا تَفْريطٌ فيما أَوْجَبَ، وإما وُقوعٌ فيما حَرَّمَ. وعلى هَذَا، فهُمْ يَجِدُّونَ كلَّ الجِدِّ بأَنْ يَقومُوا بِما أَوْجَبَ اللهُ عليهِمْ، يَجِدُّونَ كلَّ الجِدِّ بأَنْ يَتَجنَّبُوا

ما حَرَّمَ اللهُ عليهِم، فهم مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج:٢٨]، وصَدَقَ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا فمَن يأمَنُ عذابَ اللهِ؟! هل أَحَدٌ يَأمَنُ أن يأتِيَهُ عذابُ اللهِ بَغتَةً أو جَهرًا؟! أبدًا، لا يَأْمَنُ عذابَ اللهِ إلا القومُ الخاسِرُونَ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

ثم قالَ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج:٢٩-٣٠]، أي: يَحْفَظُونَ فُرُوجَهُم، إلا من هذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ مِنَ النساءِ: الأزواجِ، وما مَلَكَتِ الإيمانُ، وهُنَّ الإماءُ اللائي يُبَعْنَ ويُشْتَرَيْنَ، فإنَّ الأَمَةَ يجوزُ لسَيِّدِها أن يَستَمْتِعَ بها كما يستَمْتِعُ الزَّوْجُ بزَوجَتِهِ. يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، يعني: لا يُلامُونَ على ما يَحْصُلُ بينَهم وبينَ أزواجِهِمْ، أو بينَهم وبينَ ما مَلَكَتْ أَيمانُهم. ولهذا يجوزُ للإنسانِ أن يَستَمْتِعَ بزوجَتِه بكلِّ مُتْعَةٍ أحلَّهَا اللهُ، ويَمْتَنِعَ من كلِّ مُتْعَةٍ منعَهَا اللهُ، والمُتْعَةُ التي مَنْعَهَا اللهُ مُتعتانِ:

المُتْعَةُ الأُولى: المُتْعَةُ في الفَرْجِ في حالِ الحَيْضِ والنِّفاسِ، فإن ذلِكَ مُحَرَّمٌ، ولا يجوزُ للرَّجُلِ أن يُجامِعَ زَوجَتَهُ في حالِ الحَيْضِ والنِّفاسِ.

المُتعةُ الثانيَةُ: المُتْعَةُ في الدُّبُرِ، فلا يَحِلُّ للإنسانِ أن يَأتِيَ زَوجَتَهُ في دُبُرِها، ويَجوزُ للإنسانِ أن يَستَمْتِعَ بزَوجَتِهِ فيما عدَا ذلِكَ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج:٢٩-٣٠].

ويَدْخُلُ في الآيةِ الكَريمَةِ غَضُّ البَصَرِ إلا عَلَى الأزواجِ والمَمْلُوكاتِ؛ لأن

إطلاقَ البصرِ يُؤَدِّي إلى الفِتْنَةِ، ثم إلى الوُقوعِ في المَحْظُورِ، حتَّى لا يَستَطِيعَ الإنسانُ إذَا أَطْلَقَ لنَفْسِهِ النظَرَ أن يُحصِّنَ فَرْجَه، فيكونُ في هذِه الحالِ غَيرَ حافِظٍ لَهُ.

واستَدَلَّ أهلُ العِلْمِ بهذِهِ الآيَةِ الكريمَةِ على أنه يَحْرُمُ على الإنسانِ أن يَستَمْنِيَ بيَدِهِ، أو بفِراشِهِ، أو بأيِّ شيءٍ كانَ، وهو ما يُعْرَفُ عندَ الناسِ بـ(العادة السِّرِّيَّةِ)، فإنها حَرامٌ، ودَلِيلُهُ هذه الآيَةُ الكَريمَةُ؛ لأنَّ اللهَ قالَ بعدَ ذلِكَ: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المعارج:٣١]، يعني: مَن طَلَبَ الاستِمْتَاعَ بغيرِ هذينِ الصِّنْفَيْنِ؛ فإنه عادٍ، فمَن استَمْتَعَ بيدِهِ، أو بفِراشِهِ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، فإنه عَادٍ، والعادِي هُو الجائِرُ الظَّالِمُ.

ويَدُلُّ لِتَحْرِيمِهَا قولُ مُرْشِدِنا ومُعَلِّمِنَا، ومَن هو بالمُؤمنينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ، محمَّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ**»، وخاطَبَ الشبابَ؛ لأنهم ذَوُو القُوَّةِ في هذا الأَمْرِ، «**وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»(١)، لم يَقُلِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: مَن لم يَسْتَطِعْ فلْيُخرِجْ شَهْوتَهُ بما أرادَ، بل قالَ: «**فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ**»، ونحن نَعْلَمُ أنه لو كانَ إِخْراجُ الشَّهْوَةِ جَائِزًا لأَرْشَدَ إليه النَّبِيُّ ﷺ؛ لأَنَّ إخراجَ الشَّهوةِ أَيْسَرُ من التِزَامِ الصَّومِ، فأَيُّهما أَشَقُّ؟ التِزَامُ الصومِ، ولأن في إخراجِ الشَّهْوَةِ نَوعًا من المُتْعَةِ واللَّذَّةِ، فلو كانَ هذا جائِزًا ما عدَلَ النبيُّ ﷺ عنه إلى الأَمرِ الشَّاقِّ؛ لأن هذا الدِّينَ يُسْرٌ، ولا تَجِدُ خَصلَةً مُيَسَّرَةً يَعْدِلُ عنها هذا الدِّينُ؛ إلا لأنها لا تَجوزُ في شَرِيعَةِ اللهِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج، لأنه أغض للبصر، وأحصن للفرج». رقم (٤٧٧٨)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه رقم (١٤٠٠).

وعلى هذا، فنَسْتَدِلُّ على تَحريمِ هذِهِ (العادةِ السِّرِّيَّةِ) بالقرآنِ والسُّنَّةِ، كما أن هناكَ أدِلَّةً عقْلِيَّةً طِبِّيَّةً على تَحْرِيمِهَا؛ لِمَا فيها مِنَ الضَّررِ العظِيمِ على الجِسْمِ، وعلى الغَرِيزَةِ الجِنْسِيَّةِ، وعلى مُستَقْبَلِ هذِهِ المَادَّةِ، التي هي مَادَّةُ خَلْقِ بَنِي آدَمَ.

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المعارج:٣٢]، أي: الذين إذَا اؤتُمِنُوا أو عاهَدُوا رَاعَوا الأمانَةَ والعَهْدَ، فلا يَخُونونَ بأمانَةٍ، ولا يَغْدِرُونَ بعَهْدٍ. فتَنَبَّهْ لذلِكَ، فقد أَقْبَلَ عليكَ زَمَنُ الامتحانِ، وأنتَ حالَ الامتحانِ مُؤْتَمَنٌ، فإياكَ أن تَخُونَ هذِهِ الأمانَةَ، راعِهَا، لا تَقُلْ: هذا صَدِيقِي وزَمِيلِي، وسَأُسِرُّ إليه بتَعليمِهِ ما جَهِلَهُ؛ حتى أَكسِبَ بِهِ أَجْرًا؛ لأنَّ بعضَ الناسِ يُغَشِّشُ زَميلَهُ، وإذا سألتَه: لمَ فَعَلْتَ ذلِكَ؟ قال: أليسَ اللهُ يقولُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، فيَسْتَدِلُّ بآيةٍ مِنَ القرآنِ. وإذا سَأَلَهُ زَمِيلُهُ: يا فُلانُ، عَلِّمْنِي ما معنى كذَا وكذَا، فعَلَّمَهُ، فإن قيل له: لماذا تُعَلِّمُهُ؟ قال: لأنَّ كَتْمَ العِلْمِ حرامٌ! وهذا الدليلُ صحيحٌ، لكِنَّ الاستدلالَ غيرُ صحيحٍ وخَطَأٌ، فاللهُ يَقولُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وأنت حِينَ خُنْتَ الأمانَةَ، أَسَأْتَ ولم تُحسِنْ، ونَقولُ: كَتْمُ العِلْمِ لا شَكَّ أنه حَرامٌ، لكن رِعايَةَ الأمانَةِ وَاجِبَةٌ. فنقولُ لمَن يَطْلُبونَ الغِشَّ في الامتحانِ مِنْ زُملائِهِمْ؛ حيثُ يقولُ له زَمِيلُهُ: علِّمْنِي يا أخِي، ولا تَكْتُمِ العِلْمَ، قل له: لا، إذا سَلَّمْتُ الورَقَةَ عَلَّمتُكَ، وأنت حينئذٍ لم تَكُنْ كَاتِمًا للعِلْمِ؛ ولكنك أَجَّلْتَ العِلْمَ إلى وقتٍ مُناسِبٍ، وهذا لا بَأْسَ بِهِ.

فالحاصلُ أنه يَجِبُ على كلِّ مَن اؤتُمِنَ على أمانَةٍ، أن يَرْعَى هذه الأمانَةَ، ويَجِبُ على كُلِّ مَن عاهَدَ عهدًا أن يَرْعَى العَهْدَ.

إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يُعاهِدُ المُشْرِكينَ ويَفِي لَهُمْ، فإذا نَقَضُوا العَهْدَ انتَقَضَ

العَهْدُ، ولَمَّا صالَحَ قريشًا في غَزوةِ الحُدَيْبيَةِ على تَرْكِ القِتالِ لمُدَّةِ عَشْرِ سِنينَ، ومَضَى على هذا الصُّلْحِ سنتانِ، ما الذي حَصَلَ؟ نَقَضَ المشْرِكُونَ العَهْدَ، فغَزاهُم النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإذا لم يَنْقُضِ المُعاهِدُ عَهْدَهُ، ولكنَّكَ خِفْتَ أن يَنْقُضَه، فاستَمِعْ إلى الحَلِّ: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ [الأنفال:٥٨]، لا تَفْجَأْهُم بالحربِ إذا خِفْتَ الخِيانَةَ، ولكن ابعَثْ إليهِمْ، وقُلْ لهم: إنَّه لا عَهْدَ بينَنَا وبينكُم، وهذا إذا خِفْتَ الخِيانَةَ، **فالمُعاهِدُ له ثَلاثُ حالاتٍ:**

الحال الأُولى: إمَّا أَنْ يَفِيَ بعَهْدِهِ ويَستقِيمَ عليه، فقَدْ قالَ اللهُ فيهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧].

الحال الثانيةُ: أن يَنْقُضَ العَهْدَ، وفي هذِهِ الحالِ لا عَهْدَ لهُ؛ لأنه نَقَضَ العَهْدَ.

الحال الثالِثةُ: أن يُخافَ منه نَقضُ العَهْدِ ولم يَنْقُضْه، فنحنُ نَنْبِذُ إليهِمْ على سَواءٍ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون:٨]، أيضًا نُوَجِّهُ الخِطابَ لِنَنْتَقِلَ من الطالِبِ إلى الرَّئيسِ والمُديرِ، وما أَشْبَهَ ذلِكَ مِمَّنْ يَخُونُونَ الأَمانَةَ فيما وُلُّوا عليهِ. ولقَدْ سَمِعْنَا أن بعضَ الناسِ يُحابِي الأصدقاءَ والقَراباتِ في إهمالِ الحَقِّ الواجبِ عليهِمْ، أو في إعطَائِهِمْ ما لا يَسْتَحِقُّونَ، وكلُّ هذا حَرامٌ ومُخالِفٌ للأَمانَةِ.

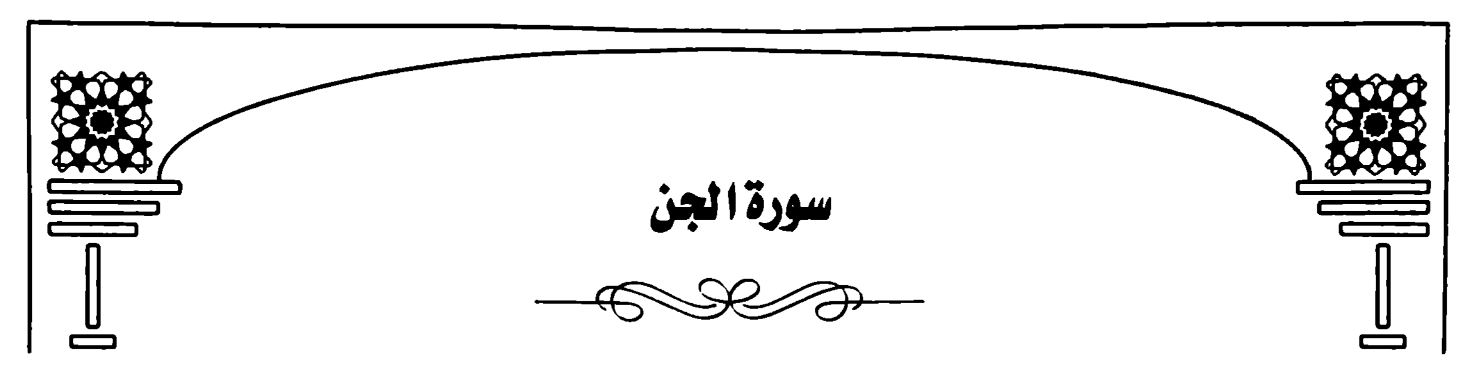
﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٣٣]، يعْنِي: يَقومُونَ بالشهادَةِ على الوَجْهِ المَطلُوبِ، فإذا دُعُوا إلى الشَّهادَةِ تَحَمُّلًا تَحَمَّلُوا، وإذا دُعُوا إلى الشهادَةِ أداءً أَدَّوْا،

فلا يُحابُونَ أحَدًا في ذلِكَ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٤-٣٥]، انظُرْ إلى عِنايَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالصَّلاةِ، ذَكَرَهَا في أوَّلِ الصفاتِ وفي آخِرِ الصفاتِ. فَفِي أوَّلِ الصِّفاتِ على سَبيلِ الدَّيمُومَةِ، وفي آخِرِهَا على سَبيلِ المُحافظَةِ، ونظيرُ ذلكَ قولُهُ تَعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢]، إلى أن ختَمَ هذِهِ الصفاتِ بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:٩]، مما يَدُلُّ على أَهمِّيةِ الصلاةِ، وأنَّها آكَدُ أركانِ الإسلامِ بعدَ الشَّهادتَيْنِ.

أسألُ اللهَ تَعالَى أن يَجْعَلَني وإياكُمْ مِنَ المُصَلِّينَ المُحافِظِينَ على هذِهِ الصفاتِ، الذين مآلُهُم أن يكونُوا في جَنَّاتٍ مُكْرَمِينَ.





سورة الجن

الدَّرسُ الأوَّل:

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُخاطِبًا نَبِيَّهُ محمَّدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَعْظَمَ الناسِ جَاهًا عندَ اللهِ، وأَشْرَفَهُم عندَ اللهِ، آمِرًا لَهُ أن يَقُولَ: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢٢].

هذا الخِطَابُ مِنَ اللهِ لرَسولِ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهو تكْلِيفٌ خَاصٌّ بإبلاغِهِ للأُمَّةِ؛ وذلِكَ لأنَّ كلامَ اللهِ القُرآنَ كلَّهُ قد أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ بتَبليغِهِ في قولِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧]؛ لكِنْ تأتِي أحكامٌ أو أَخبارٌ خَاصَّةٌ يَأمُرُ بها نَبِيَّهُ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَنْ يُبلِّغَهَا للناسِ، وهذا يَدُلُّ على كَمالِ العِنَايَةِ بِهَا: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١]، أي: قُلْ للنَّاسِ جَمِيعًا: لا أَملِكُ لكُمْ ضَرًّا ولا رَشَدًا، ومَعْنَى ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ يَحْتَمِلُ أمرَيْنِ:

الأمر الأوَّل: لا أَمْلِكُ أن أَضُرَّكُمْ.

الأمر الثاني: لا أَمْلِكُ أن أَدْفَعَ عَنْكُمُ الضَّرَرَ، وكلاهُمَا حَقٌّ، فالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُمكِنُ أن يَضُرَّ أحدًا إلا بإذنِ اللهِ، ولا يُمْكِنُ أن يَدْفَعَ ضَرَرًا عنْ أحدٍ إلا بإذنِ اللهِ؛ لأن التَّصَرُّفَ في الكونِ خاصٌّ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، فمَن زَعَمَ أنَّ مِنَ المَخْلُوقِينَ مَن يَتَصَرَّفُ في الكَونِ مِنْ دونِ اللهِ فإنه كافِرٌ مشْرِكٌ، خارِجٌ عن مِلَّةِ

الإسلامِ، وهو وأبو جَهْلٍ وأبو لهبٍ في نارِ جَهنَّمَ، فلا أَحَدَ يتصَرَّفُ في الكونِ إلا خَالِقُ الكونِ، لا محمَّدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا جِبْرِيلُ، معَ أَنَّهما أَشْرَفُ الرُّسُلِ، فمُحَمَّدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَشْرَفُ الرُّسُلِ البَشَرِيَّةِ، وجِبريلُ أَشْرَفُ الرُّسُلِ المَلَكِيَّةِ، ومعَ ذلكَ كلٌّ مِنْهُما لا يَمْلِكُ أن يَتصَرَّفَ في الكونِ، فمَن دُونَهُم مِنَ البشَرِ لا يملِكُ أن يتصَرَّفَ في الكونِ.

ومَن زَعَمَ أن هناكَ أَحَدًا مِنَ البشَرِ يَتصَرَّفُ في الكونِ، أو يَعْلَمُ الغيْبَ أيضًا؛ فإنه كَافِرٌ، مُشرِكٌ، خالدٌ في نارِ جهنَّمَ، مُكذِّبٌ لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، هذا حَصْرٌ بأَكْمَلِ طُرُقِ الحَصْرِ، وهو النَّفْيُ والإثباتُ.

للأسفِ يأتِي بعضُ الناسِ ويقولُ: فُلانٌ الميِّتُ يَعْلَمُ الغيْبَ، فلانٌ القُطْبُ يَعْلَمُ الغيْبَ! هذا لا يُمكِنُ أبدًا، فإذا قُلْتَ ذلك فأنتَ مُكَذِّبٌ لكلامِ اللهِ، والمُكذِّبُ لكلامِ اللهِ كافِرٌ، كما أن الذي يُنْكِرُ وُجودَ اللهِ كافِرٌ.

إذن محمَّدٌ رسولُ اللهِ ﷺ لا يملِكُ لنَا ضَرًّا ولا رَشَدًا، أي: ولَا هِدَايَةً، فهُو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يَملِكُ لأحدٍ الرَّشَدَ، أي: لا يَمْلِكُ أن يهدِيَ أحدًا ويُوَفِّقَهُ للرَّشَدِ الذي هو ضِدُّ الغَيِّ، كما قالَ تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، ولهذا حَاوَلَ بأَتَمِّ المُحاولَةِ نَاصِحًا بأَتَمِّ النُّصْحِ أن يهدِيَ عَمَّه أبا طالِبٍ، ولكنه لم يَتَمَكَّنْ من ذلِكَ.

وأبو طالِبٍ قد أَسْدَى إلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم مَعْرُوفًا كَبِيرًا، ودَافَعَ عنه، ونَاضَلَ عنه، وامتَدَحَه، وامتَدَحَ دِينَهُ، وقال في لَامِيَّته المَشْهورَةِ التي قال

عنها ابنُ كثيرٍ: إنه يَنْبَغِي أن تكونَ إحْدَى المُعَلَّقَاتِ التي تُعلَّقُ في جَوْفِ الكعْبَةِ[1]؛ لأنَّ قُرَيشًا كانوا في الجَاهِلِيَّةِ إذا أعْجَبَتْهم القَصِيدةُ، عَلَّقوها بالكعبةِ، ومن ذلك المُعلَّقاتُ السَّبْعُ المشهورةُ.

يَقولُ أبو طَالِبٍ في هذه اللاميةِ الجَيِّدةِ:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ[2]

لقد عَلِمُوا، أي: قُرَيشٌ، أنَّ ابنَنَا، وهو محمَّدٌ رسولُ اللهِ، لا مُكَذَّبٌ لدَيْنَا، يَعْنِي: لا نُكَذِّبُهُ، ولا يُعْنَى بقولِ الأباطِلِ، أي: لا يُعْنَى بقولِ السَّحَرَةِ، وأهلِ الباطِلِ، بل قَولُهُ حَقٌّ، هكذا قالَ. وقال في مَدْحِ دِينِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا[3]

وناضَلَ عنْه، ودَافَعَ عنه دِفاعًا مَشْهُورًا مَعْرُوفًا.

ومعَ كلِّ هذَا؛ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ كانَ عندَه رسولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فكانَ يقولُ لَهُ: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»[4]، وكانَ عِنْدَهُ رجُلانِ مِنْ قُريشٍ، هما جَلِيسَا سَوْءٍ -والعياذُ باللهِ-، فكُلَّما همَّ أن يقولَ:

---

(١) البداية والنهاية ط هجر (٤/ ١٤٢).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

(٣) المختصر في أخبار البشر (١/ ١٢٠).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

لا إِلَه إِلَّا اللهُ. قالا لَهُ: أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ! ومِلَّةُ عبدِ المُطَّلِبِ -كما هو مَعروفٌ- مِلَّةُ الإِشْراكِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكانَ آخِرُ ما قالَ -والعياذُ باللهِ-: بَلْ على مِلَّةِ عَبْدِ المطَّلِبِ. وأَبَى أن يَقُولَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

نسأَلُ اللهَ تعالَى أن يَخْتِمَ لنَا جَمِيعًا بالتَّوحيدِ والإِخْلاصِ، وأَنْ يُعِيذَنَا مِنَ الشيطانِ الرَّجِيمِ في حَياتِنَا وعندَ مَماتِنَا.

أَبَى أَبُو طالِبٍ أن يقولَ: لا إله إلا اللهُ، فماتَ علَى الكُفْرِ والشِّرْكِ؛ ولهذا كانَ فِي ضَحْضَاحٍ من نارٍ وعليهِ نَعْلَانِ مِنْ نارٍ، يَغْلِي منْهُما دِمَاغُهُ، وإِنَّه لَأَهْونُ أَهْلِ النارِ عذَابًا[1]. نَعوذُ باللهِ مِنَ النَّارِ. يَغْلِي مِنْهُما دِماغُهُ وهُما في أَسْفَلِ بَدَنِهِ، فكيفَ بما دُونَ الدِّمَاغِ، يَكونُ أَشَدَّ وأَشَدَّ، نسأَلُ اللهَ السَّلامَةَ والعافِيَةَ، قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[1]، وقولُه: «**وَلَوْلا أَنَا**»، يعني: شَفَعْتُ لَهُ، أو «**وَلَوْلَا أَنَا**» يعني: أَنَّه حَمَاني وأَيَّدَ دَعْوَتِي في الجاهِلِيَّةِ، الأمرانِ مُحْتَمَلانِ؛ ولكن نُرَجِّحُ جَانِبَ الشفاعَةِ، أي: لَولَا ما حَصَلَ من عِنَايتِهِ برَسولِ اللهِ ﷺ ودِفَاعِهِ الذي أَوْجَبَ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لمُحَمَّدٍ -صلوات الله وسلامه عليه- أن يَشْفَعَ لهذا الرَّجُلِ، فلَولَا هذَا لكانَ في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِنَ النَّارِ.

ولهذا لو سُئِلْنَا: أيُّ كافِرٍ نفَعَتْهُ الشفاعَةُ؟ لكانَ الجوابُ: أبو طالِبٍ، ولو سُئِلْنَا: هل هذِهِ الشفَاعَةُ رفَعَتْ عنه العَذابَ؟ نقولُ: لا، لم تَرْفَعْ عنه العَذابَ، ولكِنْ خفَّفَتْ، ولو سُئِلْنَا: لماذا؟ هل لكونِه قَرِيبًا للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أم لِكونِهِ نَصَرَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

الإسلامَ، ودافَعَ عن رسولِ الإسلامِ؟ نقولُ: لكونِهِ نصَرَ الإسلامَ، ودافَعَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

إذن يَجِبُ أن نَعْلَمَ حِكْمَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في ذلِكَ، وهي أنَّ اللهَ لم يَأْذَنْ لرسولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يَشْفَعَ لعَمِّهِ أبي طَالِبٍ الذي ماتَ على الكُفْرِ حتَّى خَفَّفَ عَنْهُ العَذابَ؛ إلا لأنَّه نَصَرَ الإسلامَ، ودَافَعَ عنِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليسَ بينَهُ وبينَ الخَلْقِ نَسَبٌ، فالناسُ عندَ اللهِ سَواءٌ، إلا في حالَ واحِدَةٍ، وهي التَّقْوَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

إنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يَمْلِكُ لأحدٍ رَشَدًا، أي: لا يُمكِنُ أن يُرشِدَ أحدًا من الغَيِّ، لكنَّ الذي يَمْلِكُهُ هِدايَةُ الخَلْقِ التي بمَعْنَى الدَّلالَةِ، أي: يَمْلِكُ دَلالَةَ الخَلْقِ إلى الحقِّ، والدَّليلُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، ولم يقُلْ: «وإنك لتهدي صراطا مستقيما»؛ لأن الرَّسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يملِكُ أن يَهْدِيَ صِراطًا مستَقِيمًا، لكن يَمْلِكُ أن يَهْدِيَ إلى الصِّراطِ، أي: أن يَدُلَّ الناسَ إليهِ، لكِنْ لا يَمْلِكُ أن يُدْخِلَهُم فيهِ.

ولهذا أنْتَ إذا قُلْتَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، فإنَّكَ تَسأَلُ اللهَ أن يَهْدِيَكَ إلى الصِّراطِ المستَقِيمِ، وأن يَهدِيَكَ في الصِّراطِ المُستَقِيمِ، تسأَلُ اللهَ أمْرَينِ: العِلْمَ، والتَّقْوَى، لَا تَسْأَلِ اللهَ أن يُعْطِيَكَ عِلْمًا فقَطْ، فكَم من إنسانٍ عَالِمٍ زاغَ قَلْبُهُ -والعياذُ باللهِ-، والإنسانُ الجاهِلُ لا يُمكِنُ أن يَعْبُدَ اللهَ على بَصِيرَةٍ.

ولهذا انظُرْ إلى البلاغَةِ التامَّةِ في القُرآنِ: حُذِفَ حَرفُ الجَرِّ مِنَ (الصراطِ)، ولم يقُلْ: (إلى)، ولا قِيلَ: (في)؛ ليكونَ ذلِكَ أشْملَ وأعَمَّ.

وإذا سَأَلْنا الآنَ وقُلْنَا: هل المرادُ اهْدِنَا في الصِّراطِ، أم اهْدِنَا إلى الصِّراطِ؟

من العَجَبِ أن تَرَى بعضَ الناسِ يَحتارُ في الإجابَةِ، ولا أَدْرِي ما هو السَّبَبُ! لكِن رُبَّما كان السببُ أن بَعضَ الناسِ إذا تَرَجَّحَ عندَهُ أحدُ المَعْنَيَيْنِ في الآيةِ مع احتمالِ المَعْنَى الثاني، أَخَذَ بالراجِحِ، ولكن نقولُ: إذا كانَتِ الآيةُ -وهي قاعِدَةٌ مُفِيدَةٌ للإنسانِ- تَحْتَمِلُ مَعْنيَيْنِ، ولا يَتَنَافَى هذانِ المعْنَيانِ، فإنَّ الأَوْلَى حَمْلُها على المَعْنيينِ جَمِيعًا؛ لأن ذلِكَ أشمَلُ وأوسَعُ في عِلْمِ التفْسِيرِ، أما إذا كانَتْ تحتَمِلُ مَعْنَيينِ لا يمكِنُ أن يجتَمِعَا، فحينئذٍ نَطْلُبُ المرَجِّحَ -على الأصَحِّ-، ونأخُذُ بالراجِحِ.

نَضْرِبُ مِثالَيْنِ لهذَيْنِ الحالين -وإنما قُلْتُ: لهذَينِ الحالَيْنِ، ويجوز أن تقول: لهاتَينِ الحالَيْنِ، يجوز أن تَقولَ هذَا، وأن تقولَ هذَا، وهذا كقَوْلِ ابنِ جِنِّي في كلِّ مسألَةٍ يُسأَلُ عنْها كان يَقولُ: فِيهَا قولانِ! والتَّفْصِيلُ عندَ الابنِ، وكانَ ابنُه أَعْلَمَ منْه. يُقالُ: هاتَانِ الحَالانِ؛ لأن الحالَ مُذَكَّرَةُ اللَّفْظِ، مُؤَنَّثَةُ المَعْنَى، ولهذا نقولُ: إن بعضَ الناسِ إذا أرادَ أن يُعبِّرَ: «وفي هذه الحالِ يَصلُحُ كذا وكذَا» مثلا، نقولُ: الصوابُ أن تَقولَ: وفِي هذِهِ الحَالِ. كذلِكَ بعضُ الناسِ يقولُ: «الحالةُ الأُولى، الحالَةُ الثانِيَةُ»، نقولُ: الصوابُ الحَالُ الأُولى، الحالُ الثانِيَةُ؛ لأن الحَالَ مُذَكَّرَةُ اللفظِ، مُؤَنَّثَةُ المَعْنَى-.

أقولُ: نَضْرِبُ مِثَالينِ للحَالَيْنِ:

الحالُ الأُولى: إذَا كانَ اللَّفْظُ يَحتَمِلُ مَعْنَيينِ لا يُنَافِي أَحَدُهُما الآخَرَ، قُلْنَا نَحْمِلُهُ على مَعْنَيينِ، مِثالُهُ: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧-١٨]، وقولُهُ: ﴿عَسۡعَسَ﴾ فسَّرَهَا بعضُ المفَسِّرِينَ بأقْبَلَ، وفسَّرَها بَعْضُهُم بأدْبَرَ، يعني أنَّ اللهَ يُقسِمُ باللَّيْلِ حالَ إدبارِهِ، وحالَ إقبالِهِ، لو قُلْنَا: الآيةُ للمَعْنَيَيْنِ

جَمِيعًا يَصِحُّ؛ لأَنَّهما لا يتنَافيانِ، فمِنْ آياتِ اللهِ العظِيمَةِ إقبالُ اللَّيلِ، ومِنْ آياتِ اللهِ العظِيمَةِ أيضًا إِدْبارُ الليلِ؛ لأنَّ اللهَ قالَ في كتابِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ [القصص:٧١]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص:٧٢].

إذن: فَعَسْعَسَ نُفَسِّرُهَا بِأَقْبَلَ وبِأَدْبَرَ.

الحالُ الثانِيَةُ: إذا كانَ اللَّفْظُ يحتَمِلُ مَعْنيينِ، لكِنْ لا يُمكِنُ أن يجْتَمِعَا، ومن ذلِكَ قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨]، فـ﴿قُرُوٓءٍ﴾ جمعُ: قَرْءٍ، كفُلوسٍ جَمْعُ فَلْسٍ، وقد اختُلِفَ في مَعْنَى القَرْءِ؛ فقِيلَ: إنه الحَيْضُ، وقيلَ: إنه الطُّهْرُ، هنَا لا يُمكِنُ أن نقولَ: الآيةُ للمَعْنَيينِ جَمِيعًا؛ لأنه لا يُمكِنُ أن يجتَمِعَا؛ إذ إنَّ الحَيْضَ ضِدُّ الطُّهْرِ، وحينئذٍ نَطْلُبُ المُرَجِّحَ، ونَنْظُرُ: هَلْ القَرْءُ في اللغَةِ العَرَبِيَّةِ يُطْلَقُ علَى الطُّهرِ، أم يُطْلَقُ على الحَيْضِ، إذا كان يُطْلَقُ على الحَيْضِ دونَ الطُّهْرِ أخَذْنَا بِهِ، وإذا كان يُطْلَقُ على الطُّهْرِ دونَ الحَيْضِ أخَذْنا بِهِ، وإذا كان يُطْلَقُ على هذا أحيانًا، وعلى هذا أحيانًا، نَنْظُرُ للسِّياقِ؛ حتى يَتَبَيَّنَ الراجِحُ.

أَعودُ إلى أَصلِ الموضُوعِ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَهْدِي إلى الصِّراطِ، ولا يَهْدِي الصِّرَاطَ، فالذي يَهْدِي الصِّراطَ هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، وقالَ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢].

وقد تَقَدَّمَ أن قُلْنَا: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَملِكُ لأَحدٍ رَشَدًا، وقلنا: لو كانَ يَستَطِيعُ أن يُرْشِدَ أحدًا، أي: أن يُدْخِلَهُ في الرَّشَدِ؛ لأَرْشَدَ عَمَّهُ أبا طالِبٍ، ولهذا قالَ

النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حينَ ماتَ عمُّه علَى الكُفْرِ: «**وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»(١)؛ وفاءً بحقِّهِ، فأنْزَلَ اللهُ تَعالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣]، إذا وَجدْتَ: ﴿ مَا كَانَ ﴾ في القرآنِ، فذلِكَ يَعْنِي المُمْتَنِعَةَ، إما قَدَرًا، وإما شَرْعًا، فالنَّفْيُ بـ﴿ مَا كَانَ ﴾ و﴿وَلَمْ يَكُن﴾ في القُرآنِ للمُمْتَنِعِ، إمَّا شَرْعًا، وإمَّا قَدَرًا، فلا يجوزُ شَرْعًا: ﴿لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣].

أما إذا كانَ الإنسانُ في شَكٍّ مِنْ قَريبِهِ، هل هُو كافِرٌ أمْ غَيْرُ كافِرٍ؛ فلَهُ أن يستَغفِرَ لَهُ، لكن إذا كانَ يَعْلَمُ أنه كافِرٌ، فإنه لا يجوزُ أن يَستَغفِرَ له.

وقد يَرِدُ علينا: أنَّ إمامَ الحُنَفاءِ إبراهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ استَغْفَرَ لأبيهِ، فأجابَ اللهُ عَنْ ذلِكَ، فقالَ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة:١١٤]، كما قالَ لَهُ: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم:٤٧]، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾، وهكَذَا يجِبُ علينَا إذا تبيَّنَ لنا أنَّ أحَدًا مِنَ الناسِ عدُوٌّ للهِ أن نتبَرَّأَ منه، ولو كانَ أبانَا أو ابْنَنا، أو أخانَا أو عمَّنا؛ لأن النسبَ صِلتُهُ تَضِيعُ إذا انْقطَعتْ صِلَةُ الدِّينِ.

ودَليلُ ذلِكَ قولُ اللهِ تعالَى حِكَايَةً عن نَبِيِّ اللهِ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ** ﴾ [هود:٤٥]، أقْرَبُ الناسِ إليكَ ابنُكَ؛ فهُو أقْرَبُ إليكَ مِنَ الأبِ والأُمِّ؛ لأنَّ الابنَ بَضْعَةٌ مِنْكَ، وجُزْءٌ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠).

مِنْكَ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إِنَّمَا بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُنِي مَا رَابَهَا**»[١]، فشِدَّةُ القُرْبِ هذِه تُضِيعُ إذا انْقَطَعَتْ صِلَةُ الدِّينِ.

كانَ اللهُ تَعالَى قد وَعَدَ نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُنْجِيَهُ وأَهْلَهُ، إلا مَنْ سبَقَ عليه القَولُ مِنْهُم، وكانَ أَحَدُ أبنائِهِ كافِرًا، فأدْرَكَهُ الغرَقُ، فقَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥]، فقالَ اللهُ لَهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦]، وفِي قِراءَةٍ لكنَّها غَيْرُ سَبْعِيَّةٍ: (**إنَّه عَمِلَ غيرَ صالِحٍ**)[٢].

ثم نَراهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود:٤٦]. اللهُ أكبرُ! هكذا يُخاطِبُ اللهُ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أَحَدُ أُولِي العَزْمِ الخَمْسَةِ مِنَ الرُّسُلِ، يقولُ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦]، انقطَعَتِ الآنَ صِلَةُ النَّسَبِ لَمَّا انقطَعَتْ صِلَةُ الدِّينِ.

فرَسولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا قَالَ عن عَمِّه أبي طالِبٍ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» فأنزَلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]، وقالَ عن استِغْفَارِ نَبِيِّهِ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لوَالِدِهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر أصهار النبي ﷺ منهم أبو العاص بن الربيع، رقم (٣٥٢٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام، رقم (٢٤٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٤/ ١٣٦، رقم ٢٦٥١٨)، وأبو داود: كتاب الحروف والقراءات، رقم (٣٩٨٣) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَهَا: (إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ). وانظر: الحُجَّة في القراءات السبع (ص:١٨٧).

إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

نَعودُ إلى قولِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١] فنقولُ:

إذا كانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَملِكُ لغيرِهِ ضَرًّا ولا رَشَدًا ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ﴾، والمُخاطَبُ غيرُ المُتكلِّمِ؛ فهَلْ يَملِكُ ذلِكَ لنفْسِهِ؟

نقولُ: لا يَمْلِكُ ذلِكَ لنفْسِهِ أيضًا، ودليلُ ذلِكَ قولُهُ تَعالَى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، هو نَفْسُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما يَمْلِكُ لنَفْسِه نَفْعًا ولا ضَرًّا. وكُلُّنا يَعْلَمُ ما كانَ مِنْ أمْرِه ﷺ في غَزْوَةِ أُحُدٍ؛ حيثُ شُجَّ وَجْهُهُ حتى سالَ الدَّمُ على وَجْهِهِ ﷺ وأنه كُسِرَتْ رَباعِيَتُهُ[1]، وحَصَلَ له مِنَ الأذَى والضَّرَرِ ما لا يَدْفَعُهُ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فإذا كانَ هو لا يَملِكُ لنَفْسِهِ نفْعًا ولا ضَرًّا، ولا لغيرِهِ، فإنه بذَلِكَ تنْقَطِعُ جميعُ العُرَى التي يتَشَبَّثُ بها مَنْ يتَشَبَّثُ بدُعاءِ الرسولِ ﷺ فيَدْعُونَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما يَدْعُونَ اللهَ، أو أشَدَّ ممَّا يَدْعُونَ اللهَ.

تَجِدُهُم إذا كانُوا عندَ قبْرِهِ -صلوات الله وسلامه عليه- يَتَّجِهُونَ إليه بقُلوبٍ حاضِرَةٍ، وبقُلوبٍ مُنيبَةٍ، وبقُلوبٍ خَاشِعَةٍ: يا رسولَ اللهِ، يا رسولَ اللهِ، سبحان الله! الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَملِكُ لنَفْسِه نَفْعًا ولا ضَرًّا، ولا يَمْلِكُ لكَ ضَرًّا ولا رَشَدًا، فكيفَ تَدْعُوهُ؟! فتَراهُ يتَعَلَّلُ ويقولُ: لأنَّ أَعرابِيًّا جاءَ إلى قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وطَلَبَ من النَّبِيِّ ﷺ أن يَستَغْفِرَ لَهُ، فرَأَى في المَنامِ أنه غُفِرَ لَهُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لبس البيضة، رقم (٢٩١١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد رقم (١٧٩٠).

ويُنشِدُ هَذَينِ البَيْتَيْنِ:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالقَاعِ أَعْظُمُهُ   فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ القَاعُ وَالأَكَمُ
نَفْسِي الفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ   فِيهِ العَفَافُ وَفِيهِ الجُودُ والكَرَمُ(١)

وطَلَب مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أن يَغْفِرَ لَهُ، فرَأَى في المَنامِ أنه قَدْ غَفَرَ لَهُ، ثم يَستَدِلُّ بقولِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤]، فهَلْ في الآيةِ مَا يَدُلُّ على أنَّ الإنسانَ يأتِي إلى قَبْرِ الرَّسولِ ﷺ ويَطْلُبُ مِنَ الرسولِ ﷺ أن يَستَغْفِرَ لَهُ؟

الجواب: لا؛ لأنَّ الَّذي يَظُنُّ أنَّ الآيَةَ تَدُلُّ على ذلِكَ أعْجَمِيٌّ لا يَعْرِفُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾، ولم يَقُلْ: «ولو أنهم إذا ظلموا»، فلو قَالَ: «ولَوْ أنهم إذا ظَلموا أنْفُسَهم جاءوك»؛ لكانَ فيها دَلِيلٌ لهذا المُستَدِلِّ، لكِنَّ الآيَةَ فِيهَا ﴿إِذ﴾، و﴿إِذ﴾ لِمَا مَضَى، يَعْنِي: إذ وَقَعَ مِنْهم الظُّلْمُ: ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، هذا من جِهَةِ الدَّلالَةِ اللَّفْظِيَّةِ.

ومن جِهَةِ الدَّلالَةِ المَعنَوِيَّةِ: فالآيَةُ تَدُلُّ على أنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَستَغْفِرُ لهم، وبعدَ مَوتِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُمكِنُ أن يَستَغْفِرَ لأحَدٍ أبَدًا، ومَن زَعَمَ أن الرَّسولَ ﷺ يُمْكِنُهُ أن يَستَغْفِرَ لأحَدٍ بعدَ موتِهِ؛ فإنَّ مَضْمُونَ قولِهِ تَكذِيبُ قولِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حيث قالَ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(٢)، فتَرَاهُ ﷺ يقولُ:

---

(١) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن (٢/ ٣٠٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

«**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ**»، والرسولُ ﷺ مَيِّتٌ، غُسِّلَ وكُفِّنَ، وصُلِّيَ عليهِ، ودُفِنَ، ولا يُمكِنُ للصحابَةِ أن يَدْفِنُوه ﷺ حَيًّا، فالحياةُ والموتُ هُمَا اللتانِ يَكونُ بِهِمَا الإنسانُ حَيًّا أو مَيِّتًا، والحياةُ البَرْزَخِيَّةُ له ﷺ وللشُّهداءِ لا تُعَدُّ حياةً دُنْيَوِيَّةً: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ**».

إذن: الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يُمكِنُ أن يَستَغْفِرَ لأحَدٍ؛ لأنه قَدْ ماتَ، وإذَا ماتَ انقطَعَ عَمَلُهُ، فلا تَعَلُّقَ لهؤلاءِ الذين يَدَّعُونَ أَنَّهُم مُحِبُّونَ لرَسولِ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم بما تَشَبَّثُوا بِهِ مِنْ مُتَشَابِهِ القُرآنِ، ومَن اتَّبَعَ متَشَابِهَ القُرآنِ هو الذي قَدْ زَاغَ قَلْبُهُ؛ لحديثِ عائشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ**»(١).

والعَجَبُ أن أقوامًا مِنَ المُسلِمِينَ -معَ الأسفِ- يأتونَ إلى قُبورٍ مَوهُومَةٍ يَزْعُمونَ أنَّها قَبْرُ فُلانٍ وفلانٍ ممن شُهِدَ له بالصَّلاحِ، أو قَبْرُ فلانٍ وفُلانٍ لإنسانٍ مَجْهُولٍ يُوضَعُ له اسمٌ، اللهُ أَعْلَمُ هل يُطابِقُ مَسَّماهُ أو لَا، فيَقِفُون عندَ القَبْرِ، يتَضَرَّعُونَ إليه كما يتَضَرَّعُونَ إلى اللهِ!

ولكن قَدْ يَقولُ قائلٌ: إنَّ هؤلاءِ الجَهَلَةَ قد يَدْعونَ صاحِبَ القَبْرِ بما يَدْعُونَه، ثم يُكْشَفُ عنهم ما كانَ بِهِمْ قبلَ الدُّعاءِ، وهذا يَدُلُّ على أن صاحِبَ القَبرِ سَمِعَ الدعَاءَ، وكَشَفَ الغُمَّةَ! فما الجوابُ عنْ هذَا؟

فنَقولُ: الجَوابُ عن هذَا أَنَّنا نَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ أنَّ صَاحِبَ القَبْرِ المَدْعُوَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، رقم (٤٥٤٧)، ومسلم: كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، رقم (٢٦٦٥).

لم يَكشِفْ هذا الضُرَّ، نَعْلَمُ ذلك جيِّدًا؛ لقولِهِ تَعالَى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ [الأحقاف:٥-٦]، هؤلاءِ المَدْعُوُّونَ كانوا إذا حُشِرَ الناسُ كانُوا لهَؤلاءِ الدَّاعِينَ أعْداءً.

إذن: الآيَةُ واضِحَةٌ بأنَّ كلَّ مَنْ دُعِيَ مِنْ دُونِ اللهِ فإنَّه لن يَستَجِيبَ لمَنْ دَعاهُ، وقال -جل شأنه- أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤]، يَعْنِي: لا يُنَبِّئُكَ أحدٌ مِثْلُ الخَبِيرِ بالأَمْرِ، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فنقولُ لهؤلاء الذين فُتِنُوا بِمَا حَصَلَ من كَشْفِ الغُمَّةِ حِينَ دَعَوْا هذا القَبْرَ: إنَّ هذا ليسَ من صَاحِبِ القَبْرِ، بدَلِيلِ الآيتَيْنِ المَذْكُورَتَيْنِ، وغيرِهِمَا.

والقِطْمِيرُ في قولِهِ تَعالَى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، المقصودُ بِهِ اللِّفَافَةُ التِي تكونُ على النَّواةِ، هناكَ فَتِيلٌ، وهناكَ نَقِيرٌ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤]. فنَواةُ التَّمْرِ فيها ثلاثَةُ أشياءَ: قِطْمِيرٌ، وفَتِيلٌ، ونَقِيرٌ، عَرَفْنَا القِطْمِيرَ، وعَرَفْنَا الفَتِيلَ، وبَقِيَ النَّقِيرُ، وهو نُقْرَةٌ في ظَهْرِ النَّواةِ. وهذِهِ الثلاثَةُ يُضرَبُ بها المثَلُ في القِلَّةِ.

إذن: هؤلاءِ المُشرِكونَ الذين يَأْتُونَ إلى هذِهِ القُبورِ ويَدْعُونها، رُبَّما تُكشَفُ عَنْهُمُ الغُمَّةُ، فيَظُنُّونَ أن هذا من صَاحِبِ القَبْرِ، وهو مِنَ الشيطانِ، وليسَ مِنْ صَاحِبِ القَبْرِ.

إذن: هل حَصَلَ كَشْفُ هذِه الغُمَّةِ بدعاءِ هؤلاءِ أو عنْدَ دُعاءِ هؤلاءِ؟

والجواب: أنه حَصَلَ عندَ دُعَائِهِمْ، لا بِدُعائِهِمْ، وفَرْقٌ بينَ حُصولِ الشَّيءِ عندَ الشيءِ، وحُصُولِ الشيءِ بالشَّيءِ.

فإن قِيلَ: ما هِيَ الحِكْمَةُ أنه حَصَلَ ذلِكَ عندَ دُعائِهِمْ؟

فالجوابُ: الحِكْمَةُ مِنْ ذلِكَ: الفِتْنَةُ -والعياذُ باللهِ-، أي: إنَّ الإنسانَ رُبَّما يُفتَنُ، فتُسَهَّلُ له أَسبابُ المَعصِيَةِ وأسبابُ الشِّرْكِ؛ حتى يَقَعَ في الشِّرْكِ والمعصِيَةِ، ونَضْرِبُ لذلِكَ مَثَلَيْنِ:

المَثَل الأوَّل: في بَنِي إسْرائيلَ.

المَثَل الثَّانِي: في هذِه الأُمَّةِ.

فمِنَ الأَوَّلِ ما يَسَّرَهُ اللهُ لبَنِي إسْرائيلَ مِنْ فِعْلِ المَعصِيَةِ امتِحانًا لَهُمْ في قولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ [الأعراف:١٦٣]، يعني: مَنَعَهُمُ الصَّيدَ يومَ السَّبْتِ؛ حيثُ حَرَّمَ اللهُ عليهِمُ الصيدَ يومَ السَّبْتِ، فكانَتِ الحِيتانُ تأتِي يومَ السبْتِ شُرَّعًا على وَجْهِ الماءِ، وكثيرَةً، وفي غيرِ السَّبْتِ: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾، وبَنُو إسْرائيلَ أصحابُ بُطُونٍ، يُحِبُّونَ الأَكْلَ؛ ولهذا لَمَّا قِيلَ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨] ماذا قالُوا؟ قالوا: حِنْطَةٌ، أي: نُرِيدُ أَكْلًا، لا نُرِيدُ حَطَّ الذُّنُوبِ، فهم أهلُ شَهْوَةِ بُطونٍ، فبَقُوا لا تأتِيهِمُ الحِيتَانُ إلا في يومِ السَّبْتِ، فضاقَ عليهِمُ الأَمْرُ، وكانوا أصحابَ حِيَلٍ، فقالُوا: نَضَعُ شِباكًا في يومِ الجُمُعَةِ، وتأتِي الحِيتانُ يومَ السَّبْتِ وتَدْخُلُ في الشِّباكِ، وتَنْحَبِسُ فيها، فإذا جاءَ يومُ الأَحَدِ أَخَذْنَاهَا.

فصُورَةُ فِعْلِهِم هذه حَلالٌ لا بأسَ بِهَا؛ لكِنَّ حَقِيقَتَهُ الوقوعُ في الحَرامِ، ولهذَا عُوقِبُوا، فقالَ اللهُ لهُمْ: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦]، وأُحِيلُوا إلى القِرَدَةِ؛ لأنَّ القِرَدَةَ أشْبَهُ ما تكونُ بالإنسانِ، وفِعْلُهُم أَشْبَهُ ما يكونُ بالحَلالِ؛ لكِنَّ صُورَتَهُ صُورَةُ الحَلالِ، وحَقِيقَتُهُ حَقِيقَةُ الحَرامِ.

هذا مَثَلٌ لبَنِي إسرائيلَ، ولكنْ بنُو إسْرائيلَ لم يَصْبِرُوا.

المَثَلُ الثَّاني في هذِهِ الأُمَّةِ: في قولِهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة:٩٤]، ونَجَحُوا، فصَحابَةُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هَذِهِ الأُمَّةِ ابتَلاهُمُ اللهُ تَعالَى في حالِ الإحْرَامِ بالصَّيْدِ، والصيدُ مُحَرَّمٌ على المُحرِمِ، فأرْسَلَ اللهُ عليهِمُ الصَّيْدَ تَنالُهُ أيدِيهِمْ، يعني: يُمْسِكُونَهُ بأَيدِيهِمْ ورِمَاحِهِمْ، يَصِيدُونَهُ بالرُّمحِ، الذي يَزْحَفُ يَتَمَكَّنُونَ من إمساكِهِ باليدِ، والطائرُ الذي لا يُصَابُ إلا بالسِّهامِ يَنالُونَهُ بالرِّماحِ، ولكِنَّ المُسلِمِينَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ نَجَوْا من هَذِهِ الفِتْنَةِ، فلم يَصِيدُوا صَيْدًا واحدًا، وبهذا يُعْرَفُ الفَرْقُ بينَ هذِهِ الأُمَّةِ وبينَ أُمَّةِ بَنِي إسرائيلَ، جَعَلَنِي اللهُ وإياكُمْ مِنْ هذه الأُمَّةِ دعْوةً وإجَابَةً، ونحن مِنْهُم دَعْوَةً، ونسألُ اللهَ أن يَجْعَلَنَا منْهُم إجابَةً.

إذن: هَؤلاءِ الذين يَدْعُونَ القُبُورَ، ثم تُفَرَّجُ عَنْهُم الغُمَّةُ، فيظُنُّونَ أن هذا الفَرَجَ مِن صاحِبِ القَبْرِ، نَقولُ: إنَّ اللهَ تَعالَى يُقَدِّرُ ذلِكَ عندَ دَعوتِهِمْ لهذَا القَبْرِ ابتِلاءً وامتِحَانًا؛ حتى يَعْلَمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَن هو مُؤمِنٌ، ومَن ليسَ بمُؤمِنٍ، وإلا فَنَحْنُ نَشْهَدُ أنه لا يُمكِنُ لهؤلاءِ المَقْبُورِينَ أن يُجِيبُوا دَعْوَةَ أحدٍ مِنَ الخَلْقِ؛ بلْ هُمْ لا يَسْمَعُونَ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ

بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

ولهذا يَجِبُ عليكُمْ أنتُمْ إذا كُنْتُمْ في بَلَدٍ يكونُ عوامُّها بهذِهِ المَثابَةِ؛ أن تَنْصَحُوهُم، وأن تَقُولُوا: إنه لا يُمكِنُ كَشْفُ الضُّرِّ ولا تَحويلُهُ إلا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حتى محمَّدٌ رسولُ الله ﷺ أعظَمُ الناسِ قَدْرًا وجَاهًا لا يَملِكُ هذَا: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١].

وإذا كانَ النَّبيُّ ﷺ لا يَملِكُ لأَحَدٍ ضَرًّا ولا رَشَدًا، فمَنِ الذِي نَدْعُوه لكَشْفِ الضُّرِّ، ولحصولِ الرَّشَدِ؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لا محمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ له رَجُلٌ: ما شاءَ اللهُ وشِئتَ، فقالَ لَهُ: «أَجعَلْتَني للهِ نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[1]، لَمَّا نَسَبَ الشيءَ إلى مَشِيئةِ الرَّسولِ ﷺ مَقْرُونَةً بمَشِيئةِ اللهِ بحَرْفٍ يَقتَضِي التَّسْوِيَةَ؛ زَجرَه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال: «أَجعَلْتَني للهِ نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

فإن قِيلَ: هل يَجوزُ أن أقولَ لشَخْصٍ تَسَبَّبَ لي بخَيْرٍ: هو الذي أَرادَ فأنْقَذَنِي مِنَ الغَرَقِ مثلًا؟ فهل يَجوزُ أن أقولَ: هذا بمَشِيئةِ اللهِ ومَشِيئتِه؟

نقول: لا؛ لأنَّكَ إذا قُلْتَ ذلِكَ جعَلْتَه نِدًّا للهِ، والصوابُ أن تَقولَ: ثم بمَشِيئتِكَ، أو تقولَ: أنْقَذَنِي اللهُ بِكَ، فأَضِفِ الإنْقاذَ إلى اللهِ، واجْعَلْ هذا الذي أنْقَذَكَ سَبَبًا.

وهنا تَنْبِيهٌ صغيرٌ لكن مَعناهُ كَبِيرٌ: أجِدُ في بعضِ المحلاتِ لَفْظَ الجَلالَةِ (الله) وقَدْ كُتِبَ بحَرْفٍ كبيرٍ، وبجِوارِهِ كُتِبَ اسمُ النَّبِيِّ (محمد) ﷺ بحَرْفٍ كَبِيرٍ أيضًا، على هَيْئةِ اليَدَيْنِ المتَساوِيَتَيْنِ. فنَقولُ في مِثْلِ هذَا: هذا نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ؛ لأن الذي

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٧٤، رقم ٧٨٣)، والطبراني (١٢/ ٢٤٤، رقم ١٣٠٠٥).

يُواجِهُ هذِهِ اللافِتَةَ لا يَعتَقِدُ إلا أنَّ هَذَينِ الاسمَيْنِ والمُسَمَّيَيْنِ متَساوِيانِ، وهذا لا شكَّ كَما لو قلتَ: عبدُ اللهِ، عبدُ الرحمنِ، في مُسْتَوًى واحِدٍ، فكلٌّ يَعرِفُ أنَّهما متَساوِيانِ، فيَجِبُ التَّنَبُّهُ لمثلِ هذَا.

ولذلِكَ نَنْصَحُ إخوانَنَا الذين يُزَيِّنُون أَماكِنَهُم مِنَ المتَاجِرِ والمجَالسِ بمثلِ هَذَا أن يَطْمِسُوا لَفْظَ الجلالَةِ ولَفْظَ محمَّدٍ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لِئَلَّا يقعُوا في الشِّرْكِ وهُمْ لا يَعْلَمُونَ.

ومن المَعلُومِ أن الذِي يَحمِلُ بعضَ الناسِ على إِشْراكِ النَّبِيِّ ﷺ معَ اللهِ في المَشِيئةِ مَثَلًا هو شِدَّةُ مَحبَّتِهِمْ لرَسولِ اللهِ ، ولا شَكَّ أن مَحَبَّةَ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُقدَّمَةٌ على مَحبَّةِ النَّفسِ، والولَدِ، والأمِّ، والأبِ، وأنَّه لا يَتِمُّ الإيمانُ إلا بتَقْدِيمِ محبَّتِهِ على مَحَبَّةِ النَّفْسِ، والمالِ، والولَدِ، والوالِدِ، والناسِ أجْمَعِينَ، ولكن هَلْ يعني ذلِكَ أن نجعَلَ النَّبيَّ ﷺ نِدًّا للهِ؟! أبدًا، فمَحَبَّتُنَا لرسولِ اللهِ ﷺ من مَحَبَّةِ اللهِ.

لو كان أحَدٌ من بَنِي عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ مُسْلِمًا، فهذا لا يَستَوْجِبُ أن نُحِبَّهُ كما نُحِبُّ الرسولَ ﷺ؛ فمَحَبَّتُهُ ﷺ مُقدَّمَةٌ على كُلِّ أحدٍ؛ لأنه رسولُ اللهِ ﷺ، فمَحَبَّتُهُ مِن مَحبَّةِ اللهِ، فكيفَ نَجعَلُ الفَرْعَ كالأصلِ؟! مَحبَّتُنَا للهِ عَزَّوَجَلَّ أَقْوَى وأَعْظَمُ مِنْ مَحبَّتِنَا لرسولِ اللهِ ﷺ، ولا يُمكِنُ أن نَجْعَلَ للهِ نِدًّا في المَحبَّةِ، ولا في أيِّ شيءٍ مما يَختَصُّ به اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

إذن: يَنْبَغِي لنَا أن نتَفَطَّنَ لهذه الأمورِ، وأن نكونَ عَمَلِيِّينَ، لا نَظَرِيِّينَ.

بعضُ طلَبَةِ العِلْمِ عِلْمُه نَظَرِيٌّ، يعْني: يَعْرِفُ المسائلَ، والقواعِدَ، والضَّوابِطَ، ويُفَرِّعُ عليها، وعِنْدَهُ قُوَّةٌ في الحُكْمِ المُستَنْبَطِ مِنَ القُرآنِ والسُّنَّةِ، والقواعِدِ العامَّةِ،

لكِنْ ليسَ عَمَلِيًّا، لا يُنَفِّذُ ما يَعْلَمُهُ؛ لا في نَفْسِهِ، ولا فِي أَهْلِهِ، ولا في جِيرَانِهِ، ولا في المُسلِمِينَ، وهذا غَلَطٌ، والفائدَةُ من العِلْمِ العَمَلُ.

وبعضُ الناسِ عَمَلِّي نَظَرِيٌّ قَوِيٌّ، لكن عِنْدَهُ عُنْفٌ، لا يَعْرِفُ كيفَ يَدْعُو النَّاسَ، ولا يُمَيِّزُ بينَ شيءٍ اعتادَ الناسُ عليهِ، ويَصْعُبُ عليهم أن يَتَحَوَّلُوا عنه، وبينَ شيءٍ خَفِيفٍ لم يَعتَدْهُ الناسُ عادةً بعيدَةً، فيُمْكِنُ إزالتُهُ بأسْهَلِ شيءٍ، وهذا خِلافُ الحِكْمَةِ.

يَجِبُ أن تَعرِفَ الفَرْقَ بينَ شيءٍ اعتادَ الناسُ عليهِ مِنْ أَزْمِنَةٍ بَعيدَةٍ، فإن هذَا لا يُمكِنُ أن يتَحَوَّلَ الناسُ عنه بينَ عَشِيَّةٍ وضُحَاهَا. وانظُرْ أَوَّلًا إلى أُصولِ الإسْلامِ، وفُروعِ الإسْلامِ، فأوَّلُ ما فُرِضَتِ الصَّلاةُ بعدَ أن نَزَلَتْ إلى الأرضِ كانَتْ رَكْعَتَيْنِ، ولَمَّا هاجَرَ الرَّسولُ ﷺ جُعِلَتِ الظُّهْرُ والعَصْرُ والعِشاءُ أربَعًا، وهذا من بابِ التَّدَرُّجِ.

انظُرْ إلى الخَمْرِ مثلًا، لَمَّا اعتادَ الناسُ شُرْبَها في الجَاهِلِيَّةِ، لم يُنزِلِ اللهُ تَعالَى عليهم آيَةً قاطِعَةً بالتَّحْرِيمِ مَرَّةً واحِدَةً؛ بل بالتَّدَرُّجِ، وأَوَّلُ ما نَزَلَ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢١٩]، ذكَرَ اللهُ فِيهِمَا مضَارَّ ومنَافِعَ، ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، والإنسانُ العاقِلُ إذا سَمِعَ هذا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فلا يَنْبَغِي له أن يُمارِسَ شُرْبَ الخَمْرِ، وعَمَلَ المَيْسِرِ، فما دامَ إِثْمُهما أكبرُ مِنْ نَفْعِهِما، معَ أنَّ فِيهما مَنافِعَ وليسَ مَنْفَعَةً واحِدَةً، وصيغَةُ (منافِع) من صِيَغِ مُنْتَهى الجُموعِ، يعني: مَنافِعَ كَثِيرَةً، لكن فِيهِمَا إثمٌ كَبِيرٌ، فالعِبْرَةُ بالكَيْفِ لا بالكَمِّ. الإِثْمُ الكَبِيرُ أكبرُ مِنَ المَنافِعِ الكثيرَةِ، وكلُّ إنسانٍ عاقِلٍ لا بُدَّ أن يدَعَ هذَا.

لكِنْ معَ ذلِكَ النُّفوسُ مجبُولَةٌ على محبَّةِ هذا الشَّرابِ مِنْ أزمِنةٍ مُتطاوِلَةٍ، فيَصْعُبُ أن تَتْرُكَهُ مرَّةً واحِدةً، فنزَلَتِ الآيةُ الثانِيَةُ في ذلِكَ، وهي قولُهُ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣]، وإذَا تجنَّبَ الناسُ الخَمْرَ عندَ وقتِ الصلاةِ، صارَ جُزْءٌ كبيرٌ من وَقْتِ الناسِ لا يُشْرَبُ فيهِ الخَمْرُ، ثُمَّ نَزلَتِ الآيةُ الثالثَةُ، وهِي قَولُ اللهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة:٩٠].

في آيةِ البَقَرةِ ذَكَرَ اثْنَينِ، وفي آيةِ المائدَةِ ذَكَرَ الأربعَةَ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ ﴾ التي تُعبدُ مِنْ دُونِ اللهِ، ﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ ﴾ التي يَسْتَقْسِمُ بها أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة:٩٠]، فلا يُمْكِنُ للناسِ أن يَنتَقِلُوا مِنْ حالٍ اعتادُوهَا منذُ أوقاتٍ وأزمِنةٍ طويلَةٍ بمجرَّدِ كَلِمَةٍ، أو نَصِيحَةٍ.

لكنَّ بعضَ الناسِ لِغَيْرَتِهِمْ على دِينِ اللهِ، وشِدَّةِ انْدفَاعِهِمْ في إزالَةِ المُنْكَرِ؛ يُرِيدُ مِنَ الناسِ أن يتحَوَّلُوا بينَ عَشِيَّةٍ وضُحَاهَا، وهذا خِلافُ الحِكْمَةِ.

فأَصْبَحَ طلَبَةُ العِلْمِ الآن يَنْقَسِمُونَ إلى ثلاثَةِ أقْسَامٍ: قِسْم نَظَرِيُّونَ، وقِسْم ثَانٍ: عَنِيفُونَ، وقِسْم ثالِث: متَوَسِّطُونَ، عندَهُم نَظَرٌ، وعِنْدَهُم عِلْمٌ.

لذلك أَدْعُو طَلَبَةَ العِلْمِ جَمِيعًا -بارك الله فيهم- إلى أن يَكونَ عِنْدَهُم عِلْمٌ وعَمَلٌ، لكِنْ عَمَلٌ مَقْرُونٌ بالحِكْمَةِ التي تُقنِعُ المُخاطَبَ، ويُمكِنُ أن يَنتَقِلَ بِهَا مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ.

ونعودُ إلى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ [الجن:٢٢]، ﴿لَن يُجِيرَنِي﴾ أي: لن يمْنَعَني مِنَ اللهِ أَحدٌ، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ

سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [الرعد:١١]، إذا أَرادَ اللهُ بشَخْصٍ سُوءًا فلَا مرَدَّ لَهُ، إذا كانَ محمدٌ رسولُ الله -صلوات الله وسلامه عليه- لا يُجِيرُهُ أحَدٌ مِنَ اللهِ، فمَن دَونَهُ مِنْ بابِ أَوْلَى، فلا يُجِيرُ أحَدٌ مِنَ اللهِ تَعالَى أَحَدًا، فالأَمْرُ إلى اللهِ، والحُكْمُ حُكْمُ اللهِ، والمُلْكُ مُلْكُ اللهِ، والتَّدْبِيرُ تَدْبِيرُ اللهِ، ولا أَحَدَ يَمْلِكُ أن يُجِيرَ أحدًا مِنْ عذابِ اللهِ.

﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾، أي: مِنْ سِواهُ، ﴿مُلۡتَحَدًا﴾ أي: أحَدًا أَمِيلُ إليهِ فيَعْصِمُنِي؛ بلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هو الذي يَعْصِمُنِي ممَّا أُرِيدُهُ، فصارَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يَملِكُ لأَحدٍ ضَرًّا ولا رَشَدًا، ولا يَمْلِكُ مَنْعَ نفْسِهِ من اللهِ، ولا يَجِدُ أحدًا يَمْنَعُهُ مِنَ اللهِ إلا اللهُ: ﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾، وإذا كانَ هذَا في الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فمَنْ دُونَهُ مِنْ بابِ أَوْلى.

نَسألُ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يَرْزُقَنا وإيَّاكُمُ الإخْلاصَ في دُعائِهِ وعِبادَتِهِ، وأن يتَوَفَّانَا على ذلِكَ، إنه على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.



الدَّرسُ الثَّاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحمَدُه، ونَستعينُه، ونَستغفِرُه، ونَعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنفُسِنا، وسَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ ورَسولُهُ، صلى الله عليه وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

نَتكلَّمُ على آياتٍ من آخِرِ سُورةِ الجِنِّ، والجنُّ والإنسُ مُكلَّفون، لكنَّ الإنسَ أفضلُ من الجِنِّ؛ لأنَّ منهم الرسُلَ والنَّبيِّينَ، وليسَ من الجِنِّ رسولٌ ولا نَبيٌّ، ولكن منهم نُذُرٌ فَقَط يُنذِرون أقوامَهم.

وفي الجنِّ صالحونَ، وفيهم دون ذلكَ. ومنَ الجنِّ مسلمون، ومنهم قاسِطون كافرونَ، فهم كبني آدمَ في الدينِ؛ منهم مَن تَمَسَّكَ به تَمَسُّكًا تامًّا، ومِنهم ما هو دونَ ذلك.

وأصلُ الجنِّ منَ النارِ، وأصلُ بني آدمَ مِنَ الطِّينِ، وأصلُ الملائكةِ منَ النُّورِ؛ كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّـارٍ﴾ [الرحمن:١٤-١٥].

ولهَذا تجدونَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَتحدَّثُ عنهم كثيرًا، ويَقْرِنُهم بالإنسِ كثيرًا، ويُنزِلُ فيهم آياتٍ ويُنزِلُ فيهم سُورةً كاملةً: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:١] إلى آخِرِه.

في آخِرِ هذهِ السُّورةِ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾

وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:١٨-٢١] إلى آخِرِه، هذهِ الآياتُ فيها تقريرُ التوحيدِ الَّذي خُلِقَ الإنسُ والجنُّ من أَجْلِه، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في تَقريرِ ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

فالتوحيدُ خُلِقَ من أجلِه الإنسُ والجنُّ، فلا بُدَّ أن يُحقَّقَ هَذَا التوحيدُ، وتحقيقُه بأُمورٍ ثلاثةٍ:

الأمر الأول: أن تَعتقِدَ أَنَّه لا رَبَّ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لا رَبَّ للكونِ إلَّا اللهُ؛ فاللهُ تَعالَى هو الَّذي خَلَقَ الكونَ، وهو مَالِكُ الكونِ، وهو مُدَبِّرُ الكونِ عَزَّوَجَلَّ، لا خَالِقَ إلَّا اللهُ، ولا مَالِكَ إلَّا اللهُ، ولا مُدَبِّرَ إلَّا اللهُ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧].

الأمر الثَّاني: العبادةُ؛ أن تَعْبُدَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَه، لا تُصَلِّي إلَّا للهِ، ولا تَتقرَّبُ بالصَّدَقَةِ إلَّا للهِ، ولا تَتقرَّبُ بالذبحِ إلَّا للهِ، ولا تَصرِفُ أيَّ شيءٍ من أنواعِ العبادةِ إلَّا للهِ، ولا تَدْعُو إلَّا اللهَ.

والدعاءُ يَتعلَّقُ به أَمرُ الرُّبُوبيَّةِ وأمرُ الأُلُوهِيَّةِ؛ أَمْرُ الرُّبوبيةِ وأَمْرُ العبادةِ؛ لأَنَّه عِبادةٌ مِن حيثُ هو دعاءٌ، ومن حيثُ هو لُجوءٌ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ واستِدْرَارٌ لرَحمتِهِ، فهو مُتعلِّقٌ من هذهِ الناحيةِ بالرُّبوبيَّةِ.

إذن مَن دَعَا غيرَ اللهِ فقد أَشْرَكَ باللهِ من نَاحيةِ الرُّبوبيَّةِ ومِن ناحيةِ العِبادةِ؛

ولهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ لا تَدْعُوا إلَّا اللهَ، ولا تَعْبُدوا إلَّا اللهَ.

الأمر الثَّالث: هو أسماءُ اللهِ وصِفاتُه، يَجِبُ علينا أن نُؤْمِنَ بأنَّ للهِ أسماءً وصفاتٍ تَلِيقُ بجلالِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولا تُماثِلُ صِفاتِ المَخْلوقينَ أبدًا، فكلُّ صفةٍ أَثْبَتَها اللهُ وإن كانت مُماثلةً في الاسمِ لِما في المَخْلوقِينَ، فإنها تُخالِفُ ذلك في الحقيقةِ والكُنْهِ والكيفيَّة.

والنَّاسُ انْقَسَموا في هَذَا البابِ -أي بابِ الأسماءِ والصفاتِ- إلى ثلاثةِ أقسام؛ مُمَثِّل ومُعطِّل ومُتوسِّط، وخَيرُ الأمورِ الوَسَطُ، وقد شَرَحنا ذلك فيما مَضَى وبَيَّنَّا بُطلانَ مَذْهبِ المُمَثِّلة ومَذْهَبِ المُعَطِّلةِ.

قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، لا تَدْعُوا غيرَ اللهِ لا مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا نَبِيًّا مُرسَلًا، ولا وَلِيًّا مُتَّقِيًا، لا تَدْعُوا إلَّا اللهَ؛ لأنَّ مَن يَدْعُو غيرَ اللهِ فلن يَنتفِعَ بدعائِه أبدًا، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]

رَبُّكم يقولُ: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ وهو ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، و(الَّذين) اسمٌ موصولٌ يُفِيدُ العُمومَ، أيْ كلُّ مَن يُدْعَى مِن دُونِ اللهِ ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾، لو تَجْتَمِعُ كلُّ الآلهةِ المَعْبودةِ من دونِ اللهِ لِتَخْلُقَ ذُبابةً ما استطاعتْ، زِدْ على ذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾، وهو هَذَا المَهِينُ الضعيفُ ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، يعني لو أنَّ الذُّبابَ وَقَعَ على صَنَمٍ مُعظَّمٍ يُراقُ عليه من

الأطيابِ ما يُراقُ، فإنَّ الذُّبابَ يَقعُ عليه ويَمْتَصُّ منه، ولا تَستطِيعُ هذهِ المَعبوداتُ أن تَستنقِذَ ذلك منَ الذبابِ. والَّذي لا يَستطِيعُ أن يَنتصِرَ لنفسِه من ذُبابٍ كيفَ يَستطِيعُ أن يَمْلِكَ النفعَ والضررَ لغيرِه؟! إذن ما سِوَى اللهِ لا يَنْفَعُ ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

وقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤] سُبحان اللهِ! تَرتيب الأدنى فالأدنى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾، والَّذي لا يَسْمَعُ لا يُجِيبُ، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على فَرْضٍ ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾، هـذانِ الشيئانِ في الدُّنْيـا، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يَتبَرَّءُونَ مِنكم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة:١٦٦]، فيومَ القيامةِ لا يَنْفَعُونكم ولا في الدُّنْيا أيضًا.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ الَّذي قالَ هَذا القولَ هو اللهُ جَلَّجَلَالُهُ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يعني نفسَه جَلَّوَعَلَا، لا يُخبِرُكَ بمثلِ هذهِ الأُمورِ مِثْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

وإعراب (مَن أَضَلُّ): مَن: اسْمُ استفهامٍ، والمرادُ بالاستفهامِ هنا النَّفْيُ؛ أي: لا أَحَدَ أضلُّ ممَّن دَعَا من دُونِ اللهِ مَن لا يَستجيبُ له إلى يومِ القيامةِ، وهذهِ فائدةٌ:

متى أتى النفيُ بصيغةِ الاستفهامِ؛ فإنَّه نَفْيٌ مُتَضَمِّنٌ للتحدِّي، كأنَّ المُتكلِمَ يقولُ لك: ائتِ لي بأحدٍ أَضَلَّ ممَّن يَدْعو من دُونِ اللهِ مَن لا يَستجِيبُ له إلى يومِ القيامةِ، فيكونُ الاستفهامُ الوَاقِعُ مَوقِعَ النفيِ أَعْظَمَ من النفيِ المُجرَّدِ.

وهَـذَا أمثلتُه كثيرةٌ في القُـرآنِ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف:٥]، ومَرْجِعُ الضمائرِ في قولِه: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ على المَدْعُوِّينَ، يعني وهؤلاء المَدْعُوُّونَ غافلونَ عن دُعاءِ الداعينَ، لا يَسْمعونَه، ولا يَقدِرون على إجابتِهِ

إذن دُعاءُ غيرِ اللهِ سَفَهٌ في العقولِ، وضلالٌ في الدياناتِ، فالإِنْسَانُ الَّذي يأتي إلى صاحبِ القبرِ يَدعوه: يا سيِّدي، يا مَولايَ، إنني قد تَزوَّجتُ منذ عشرينَ سنةً ولم يَأْتِنِي ولدٌ، هاتِ لي ولدًا، نقولُ له: هَذَا سَفِيهٌ عَقْلًا، ضالٌّ في الدينِ؛ فإن صاحبَ القبرِ لا يَملِكُ -واللهِ- لنفسِه نَفعًا ولا ضَرًّا، فكيفَ يَملِكُ لغَيرِه؟!

أنتَ بالأمسِ تُصَلِّي عليه صلاةَ الجنازةِ، وتقولُ: اللهمَّ اغْفِرْ له وارْحَمْهُ، فكيفَ اليومَ تَجْعَلُهُ إِلَهًا تَدْعُوه لِيَكْشِفَ عنك الضَّرَرَ، فهذا سَفَهٌ عَظِيمٌ.

لكن قد يَقولُ: أنا دعوتُ هَذَا السَّيِّدَ الوليَّ. وأنا أَتنازَلُ الآنَ حِينَما أقولُ: إنه وَلِيٌّ؛ لأني لا أَدْرِي عنه، قد يكونُ من أَولياءِ الشَّيْطَانِ مُضِلًّا للناسِ بِهَيْئَتِه الَّتي تَدُلُّ على تَقْواهُ، وهو أبعدُ النَّاسِ عنِ التقوَى، لكن ما علينا من هذهِ، هذهِ في يدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، إنما نقولُ لِهَذَا الداعي: كيفَ تدعو مَن لا يَملِكُ لك نفعًا ولا ضَرًّا؟! فيقولُ: إني دَعَوْتُه يومًا منَ الأيامِ وقلتُ: إن لي عِشْرينَ سنةً وأنا مُتزوِّجٌ، فأَعْطِني ولدًا، وارْزُقني ولدًا، فجَامَعَ زوجتَه ومِن ليلتِه حَمَلَتْ، قال: هَذَا دَلِيلٌ على أَنَّه استجابَ دَعْوَتي.

نقولُ: لا يُمكِنُ هَذَا إطلاقًا، وربُّنا الَّذي بيَدِهِ مَلكوتُ السماواتِ والأرضِ يقولُ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، لا يُمكِنُ، ولكنْ هَذه فِتنةٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فتَنَكَ بها. وحصَلَ هَذَا الشَّيْءُ عندَ دعائِه، لا بدُعائِه، و(عندَ) هنا للظرفيَّةِ، لا بدُعائِه؛ أي: لا بسَبَبِ دُعائِه، وهَذَا قد يَقَعُ فِتْنةً للعبدِ، أرأيتُم الآن الفِتْنة الَّتي وَقَعَت للصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهم مُحْرِمون، والمُحْرِمُ يَحرُمُ عليه صَيْدُ البرِّ ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦].

أَرْسَلَ اللهُ عليهم الصَّيدَ تَنالُه أَيدِيهم ورِماحُهم، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة:٩٤]. ويُمسِكُ الإِنْسَانُ الصيدَ باليدِ إن كانَ من الزواحفِ، ويُدرِكُه بالرُّمحِ إنْ كانَ من الطائرِ، بينَما الطائرُ لا يُدرَكُ إلَّا بالسَّهْمِ، والزاحفُ لا يُدرَكُ إلَّا بالرُّمْحِ، لكنَّ اللهَ ابتلاهم حيثُ سَهَّلَ عليهم صَيْدَ البرِّ؛ ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤]، لِيَعْلَمَ عِلْمَ مُجازاةٍ وثوابٍ، وليسَ عِلْمَ إدراكٍ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَعْلَمُ ذلك بعلمِه القديمِ الَّذي هو موصوفٌ به أَزَلًا وأبدًا.

فالَّذي جَرَى من سَلَفِنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم تَرَكُوا الصيدَ ولم يَصِيدُوه؛ لأن اللهَ تَعَالَى حرَّمه عليهم، والصحابةُ أَشَدُّ النَّاسِ امتثالًا لأمرِ اللهِ ورسولِه، فاللهُ ابتلاهم بهَذَا الصَّيْدِ وسُهولة أَخْذِه ولكنَّهم تَركوه.

ابتلاءٌ آخرُ وقعَ لبني إسرائيلَ، أَذْكُرُه لكم لِتَعرِفوا الفرقَ بينَ هذهِ الأُمةِ والأُمَّةِ الغَضَبِيَّةِ بني إسرائيل، حَرَّمَ اللهُ عليهم الحِيتانَ يومَ السَّبْتِ؛ لأنَّ يومَ السبتِ لليهودِ بِمَنزِلةِ الجُمعةِ للمسلمينَ، فأرادَ اللهُ أن يَبتلِيَهم، فجَعَلَتِ الحِيتانُ تأتي يومَ السبتِ

شُرَّعًا؛ يعني طافيةً على الماءِ من كَثْرتِها، وفي غيرِ يومِ السبتِ لا يَرَوْنَها إطلاقًا، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف:١٦٣]، وتَعْرِفون أنَّ بَنِي إسرائيلَ أصحابُ بُطونٍ؛ لَمَّا قِيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨]، قالوا: حِنطة؛ أي: نَبْغِي أَكْلًا، ما نَبغي غُفرانَ ذُنوبٍ.

صارت الحِيتانُ تأتيهم شُرَّعًا يومَ السبتِ، ويومَ لا يَسْبِتون لا تَأْتِيهِم، فعَجَزوا عن الصَّبرِ، لكنَّهم أصحابُ حِيَلٍ ومَكْرٍ، قالوا: ليسَ هناك مَانِعٌ، اترُكُوها يومَ السبتِ، وضَعُوا شَبَكًا يومَ الجمعةِ، وخذوا الحِيتانَ يومَ الأحدِ، فهذهِ حِيلةٌ على حرامٍ، فجعلوا يضعون الشِّبَاكَ يومَ الجمعةِ وتأتي الحيتانُ يومَ السبتِ تسقطُ في الشباكِ ولا تَستطيعُ الخروجَ، فإذا كان يومُ الأحدِ جاؤُوا وأخذوها، قالوا: الحمدُ للهِ نحن ما صِدْنا يومَ السبتِ، فكانتْ عُقوبَتُهم كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وكلُّ إنسانٍ عُقوبتُه إذا تَأَمَّلها وَجَدَها من جِنسِ ذَنبه، كانَ فِرْعَوْنُ يَفتخِرُ ويقولُ: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف:٥١]، فأُهلِكَ بالماءِ.

وعادٌ قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فأُهلِكوا بالرِّيحِ اللطيفةِ اللَّيِّنةِ الهَيِّنةِ، وكلٌّ أَخَذَهُ اللهُ بِذَنْبه.

وهؤلاءِ بنو إسرائيلَ لَمَّا تَحَيَّلوا على المُحَرَّمِ -وظاهِرُ الحِيلةِ أنها مُباحةٌ، فهم ما اصطادوا يومَ السبتِ- عُوقِبوا بأن قُلِبُوا إلى حَيوانٍ يُشبِهُ الآدَمِيَّ؛ وهو القِردُ

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥].

ولنا وَقْفةٌ عندَ هذهِ القِصَّةِ: حُرِّمَ الرِّبَا علينا مَعْشرَ المُسْلِمينَ؛ حُرِّم بالقُرآنِ والسُّنةِ وجُعِلَ من كبائرِ الذنوبِ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]، وثبتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه لَعَنَ آكِلَ الرِّبَا ومُوكِلَه وشَاهِدَيْهِ وكَاتِبَه[1]. معَ أنَّ الشاهِدَيْنِ والكاتبَ لم يَنْتَفِعَا به، ولكنَّهما أثبتاهُ بالكتابةِ والشهادةِ، فصاروا مُتعاوِنِينَ على الإثمِ والعُدوانِ، فشاركوا الفَاعِلَ، ولكن معَ الأسفِ الشديدِ أن من المُسْلِمينَ اليومَ مَن يَتَحَيَّلُ على الرِّبا، كفِعْلِ اليهودِ تمامًا، حيثُ تَحَيَّلوا على محارِمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ إنسانٍ يَتحَيَّلُ على فِعْلِ مُحرَّمٍ بما ظاهرُه الإباحةُ، أو على تَرْكِ واجبٍ بما ظَاهِرُه العُذْرُ، فإنَّه مُتَشَبِّه باليهودِ، ولا يَرضَى مسلمٌ أن يكونَ مُتشبِّهًا باليهودِ، لا واللهِ لا يَرْضَى إنسانٌ مُؤْمِنٌ كاملُ الإيمانِ أن يَفْعَلَ خَصلةً تُلحِقُه بأفعالِ اليهودِ، ولكنَّ الجَشَعَ والطمعَ يَحمِلُ بني آدمَ على التَّحيُّلِ على محَارِمِ اللهِ بما ظَاهِرُه الإباحةُ ولا يَهتَمُّ.

مثال: اشْتَرَى شَخْصٌ من شَخْصٍ آخَرَ سِلْعةً بعشَرةِ آلافِ ريالٍ إلى سَنَةٍ، ثمَّ إنَّ المُشترِيَ باعها على الَّذي اشتراها منه بثمانيةِ آلافٍ نقدًا، فالعَمَلُ ظَاهِرُهُ مباحٌ؛ بَيْعٌ وشِراءٌ بالرِّضا، لكنَّه حِيلةٌ على أن يُعطِيَه البائعُ الأولُ ثمانيةَ آلافِ ريالٍ نقدًا، ويأخُذَ عَشَرةَ آلافِ ريالٍ مُؤجَّلة، وهذهِ هي العِينَةُ؛ الَّتي قال عنها رسولُ اللهِ ﷺ: «إذَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، رقم (١٥٩٨).

تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ» يعني الحَرْثَ **«وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»**[(١)].

فالحِيَلُ على محَارِمِ اللهِ لا تُبيحُها، ولا تَزِيدُها إلَّا قُبحًا وإثمًا؛ لأنَّها خِداعٌ لمَن يَعْلَمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخْفِي الصُّدورُ، أتُخادِعُ اللهَ؟! يُحرِّمُ عليك الشَّيْءَ ثمَّ تَلتوي وتأتي به! ولهَذَا قال العُلماءُ: إن المُخادِعِينَ للهِ أعظمُ إثمًا من الَّذين يأتون محَارِمَه صراحةً. وما أَكْثرَ الحِيَلَ، ولكنْ ليسَ هَذَا مَوضِعَ بَسْطِها، إنما عليك يا أخي أن تَعتمِدَ على حَديثٍ واحدٍ مِيزانٍ للأعمالِ كُلِّها؛ العباداتِ والمعاملاتِ؛ وهو قولُ رسولِ اللهِ ﷺ: **«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»**[(٢)].

ومثالُ امتثالِ الصحابةِ لأمرِ النَّبيِّ ﷺ على كلِّ حالٍ ومُبادَرَتِهم إلى ذلكَ هو قِصَّةُ الثلاثةِ الَّذين خُلِّفوا[(٣)]، فقد دَعَا النَّبيُّ ﷺ النَّاسَ إلى غَزوةِ تَبُوكَ؛ في أطرافِ الشامِ، وكانت في وَقْتٍ شديدِ الحرارةِ، قد طابتِ الثِّمارُ، وعَذُبَتِ المِياهُ، وصارَ أحبَّ شيءٍ إلى الإِنْسَانْ أنْ يَرْتاحَ، ولكنَّه -صلوات اللهِ وسلامُه عليه- دعا إلى هذهِ الغَزْوةِ بصَراحةٍ، معَ أنَّه كانَ إذا أرادَ غَزْوةً ورَّى بغيرِها، لكن لما كانتِ الشُّقَّةُ[(٤)] بعيدةً، والجَوُّ حارًّا، والثمارُ قد طابتْ، صرَّحَ -صلواتُ الله وسلامه عليه- بأنه يُرِيدُ غَزْوَ الرُّومِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة، رقم (٣٤٦٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنية»**، رقم (١٩٠٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩).

(٤) الشقة: السفر البعيد. مختار الصحاح (شقق).

الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سَاعدوا على هَذَا الجهادِ، وتبرَّعوا، وأنفقوا الأموالَ الكثيرةَ، حتَّى جاءَ عثمانُ بنُ عفانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمئةِ بَعيرٍ كاملةِ العُدَّةِ؛ أي كُل ما تَحْتاجُ إليه هذهِ المئة بَعير، وقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ذلك: «**مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ**»[1].

المُهِمُّ خَرَجَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وخرَجَ الصحابةُ معَه، وتخلَّفَ عنه طائفتانِ من النَّاسِ: طائفةٌ مُنافِقةٌ، وليسَ بغَريبٍ أن يَتخلَّفَ المنافقونَ عن الجهادِ في سبيلِ اللهِ؛ لأنَّهم ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون:٤]؛ كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، هم الَّذين يُريدون أن يَقْضُوا على الإسلامِ بينَ عَشِيَّةٍ وضُحاها، وليسَ غَرِيبًا منهم أن يَخْذُلوا أو يُرْجِفوا أو يَتخلَّفوا.

وطائفةٌ أُخْرَى مُؤْمنةٌ لكن غَلَبَتْها النفوسُ فتأخَّرتْ، وخُلِّفَتْ عن هذهِ الغَزْوةِ؛ منهم كَعْبُ بنُ مَالِكٍ، وهلالُ بنُ أُمَيَّة، ومُرارةُ بنُ الرَّبِيعِ، وكانَ كعبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَشَدَّ هؤلاء الثلاثةِ وأَشبَّهُم.

فلمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَلَسَ في المسجدِ، وجَعَلَ أهلُ النفاقِ يأتون إليه يَعتذِرون إليه، وقد قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٥-٩٦] (رِجس) أي: نَجَس، لا خيرَ فيهم.

وهَذَا كقولِه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب المناقب، باب، رقم (٣٧٠٠).

﴿يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦].

وكان النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يأخذُ النَّاسَ بِظَواهِرِهم، لا غَفْلةً منه، ولكنْ لأنَّ حسابَ النَّاسِ على ما في بَواطِنِهم أمرٌ صَعْبٌ؛ لأنَّه لا يَعْلَمُ ما في البَواطِنِ إلَّا خالِقُ البواطنِ عَزَّوَجَلَّ، والحُكْمُ في الدُّنْيا على الظاهرِ، نسألُ اللهَ أن يُصلِحَ سَرائِرَنا وعَلانِيَتَنا، لكنَّ الحُكْمَ في الآخرةِ على الباطنِ، قالَ اللهُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٨-٩]، أي تُختَبَرُ، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩-١٠].

فأَصْلِحْ سَرِيرَتَكَ يا أخي، واللهِ إنَّ إِصْلاحَ السَّريرةِ لأَهَمُّ من إصلاحِ الظاهِرِ، فإذا صَلَحَتِ السَّريرةُ صَلَحَ الظاهرُ، وإذا صَلَحَ الظاهرُ لم يَلْزَمْ منه صلاحُ السَّريرةِ، فأَصْلِحِ السريرةَ، أَسْأَلُ اللهَ أن يُصْلِحَ لي ولكم السَّريرةَ وأن يَتوفَّانا على الإيمانِ.

كان النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُعامِلُ النَّاسَ على ظَاهِرِهم حتَّى قيلَ له يومًا من الأيامِ: ألا نَقتُلُ المُنافِقِينَ؟ قَالَ: «**لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1]. يَسْتغفِرُ لهم ويَمْشُونَ، لكنَّ استغفارَ الرَّسُولِ لهم لا يَنفَعُهم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦].

جاءَ كعبُ بنُ مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكان شابًّا جَلْدًا مُؤمِنًا صَرِيحًا، وقَدَّمَ للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصراحةَ بكلِّ وُضوحٍ، وقال: إني قَوِيٌّ قادِرٌ، ولم أَكُنْ في غَزْوةٍ مِثْلَما كنتُ عليه في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦]، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، رقم (٢٥٨٤).

هذهِ الغَزْوةِ، فعندَه بَعِيرانِ، ولكنَّه تَخلَّفَ وانصرفَ.

فقام إليه أُناسٌ بُسطاءُ، قالوا له: لو أَنَّكَ قدَّمتَ عُذرًا وكَفاكَ استغفارُ الرَّسُولِ ﷺ لكَ، وألحُّوا عليه، فهَمَّ أن يَرجِعَ، لكنَّ اللهَ أَنْقَذَه لحُسْنِ نِيَّتِه؛ لأنَّه أَخْبَرَ بالصدقِ، وأخبرَ بالواقِعِ.

ثم ذكَرُوا له رَجُلينِ صالحينِ تخلَّفا بغيرِ عُذرٍ، فقال: إنَّ لي فيهم أُسوةً. وهَذَا دليلٌ على أن الإِنْسَانَ قد يَتأسَّى بغيرِه ويَنشَطُ على فعلِ الخيرِ، وقد يَتأَسَّى بغيرِه فينخدِعُ.

فكانت العقوبةُ أنْ أمَرَ النَّبيُّ ﷺ بهَجْرِهم الثلاثةَ.

يَقولُ كَعْبٌ: فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ، أَو لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ. معَ أَنَّنا نعلَمُ واللهِ أن رسولَ اللهِ ﷺ أكملُ النَّاسِ خُلُقًا، وأوسعُ الخَلْقِ رحمةً، ومعَ ذلك لا يَرُدُّ عليه السلامَ.

وهَجَرَهم النَّاسُ، وضاقتْ عليهم الأرضُ بما رحُبتْ، وتَنكَّرَ النَّاسُ لهم، حتَّى ظنُّوا أنهم ليسوا في المدينةِ من هِجْرانِ النَّاسِ لهم.

فمرَّ كعبُ بنُ مالكٍ على حائطٍ لأبي قَتادةَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان ابنَ عَمِّه، ومِن أحبِّ النَّاس إليه -وانتبِهْ يا أخي؛ لا تَأْخُذْكَ العاطفةُ والمحاباةُ- فسَلَّمَ كعبُ ابنُ مالكٍ على ابنِ عمِّه أبي قَتادة، ولم يَرُدَّ عليه السلامَ؛ لأن النَّبيَّ ﷺ أمَرَ بِهَجْرِهِم، فقالوا: سَمْعًا وطاعةً باللسانِ والحالِ، فقال له: أَنْشُدُكَ بِاللهِ -يعني أَسْأَلُكَ باللهِ- هَلْ

تَعْلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ وهَذَا إنشادٌ عظيمٌ، فسَكَتَ أبو قَتادَةَ، ثمَّ أَعادَ عليه، فقالَ: اللهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ. وهَذَا ليسَ بردٍّ؛ فكلٌّ يقولُ: اللهُ أَعْلَمُ، وإنْ لم يُكَلِّمْه أحدٌ، لكن لا يُمْكِنُ أن يُكلِّموا مَن أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَجْرِهِ، ولو كانَ أقربَ النَّاسِ إليهم وأحبَّ النَّاسِ إليهم.

فبينَما هو يمشي في أسواقِ المدينةِ وإذا بفتنةٍ عظيمةٍ؛ إذا رَجُلٌ قَادِمٌ إلى المدينةِ من مَلِكِ غَسَّانَ يَسْأَلُ: أين كَعْبُ بنُ مالكٍ؟ فدلُّوه عليه، وإذا مَعَه كتابٌ من مَلِكِ غَسَّانَ، يقولُ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. وهذه فِتنةٌ عظيمةٌ؛ يعني: تعالَ إلينا نَواسِكَ؛ يعني نَجْعَلك مَلِكًا، ولكنَّ اللهَ أَكْبَرُ! الإيمانُ والصراحةُ مَنَعَتْه أن يَستجيبَ لهَذَا النداءِ، فذهَبَ بالورقةِ وسَجَرَ بها التَّنُّورَ؛ يعني أَحْرَقها، خشيةَ أن تَعودَ إليه نفسُه مرةً أخرى ويَنقادَ لهَذَا النداءِ.

وبَقِيَ على هَذَا هو وصاحباهُ أربعينَ ليلةً، ثمَّ أمرَ النَّبِيُّ ﷺ بأمرٍ أشدَّ من هَذَا؛ أمر أن تُفارِقَهم زوجاتُهم، وما أعظمَ أن تُفارِقَكَ زوجُكَ، أما امرأةُ هلالِ بنِ أُميةَ فاستأذنتْ من الرَّسُولِ ﷺ أن تَبْقَى معَه لأنَّه كبيرٌ ضعيفٌ، فأذِنَ لها، وأمَّا كعبٌ فلما جاءه رسولُ رسولِ اللهِ يقول: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أن تَعتزِلَ امرأتَكَ فإنه قال: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ سُبحانَ اللهِ! امتثالٌ في غايةِ الامتثالِ؛ يعني لو قالَ رسولُ رسولِ اللهِ: إنه يأمُرُك أن تُطلِّقها لَطلَّقها ولم يبالِ.

فقالَ له: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا، فَلَا تَقْرَبَنَّهَا فقال لزوجتِه: الحَقِي بِأَهْلِكِ. وبَقُوا على هَذَا عَشَرَةَ أيامٍ، وأَتمُّوا خمسينَ ليلةً وهم في حالٍ وَصَفَها اللهُ بقولِه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ

ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ حتَّى أنفسُهم ضاقتْ عليهم، كأنهم يَعيشون في عَماءٍ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة:١١٨]، ظنوا بمعنى أيقنوا؛ كقولِه تَعالَى: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦]، أي: يَتيقَّنون.

ثم جاءَ الفَرَجُ منَ اللهِ، فتابَ اللهُ عليهِمْ، قال كعبُ بنُ مالكٍ: فبينما أنا على ظَهْرِ بيتٍ من بيوتِنا إذا بصارخٍ يَصْرُخُ: يا كعبُ بنَ مالِكٍ؛ أَبْشِرْ بتوبةِ اللهِ عليك. اللهُ أكبرُ! يا لها من بُشْرَى! وإذا بفَارِسٍ قد جاءَ من المَسْجِدِ إلى ديارِ كعبِ بنِ مالكٍ ليُبشِّره، ولكنَّ الصوتَ سَبَقَ الفرسَ؛ لأنَّه صَعِدَ على سَلْعٍ جُبَيلٍ مَعروفٍ في المدينةِ، وقال: أَبشِرْ بتَوبةِ اللهِ عليكَ، جاءَ الصارخُ من عندِ الجَبَلِ، فأعطاه كعبٌ بِشارةً، فتبرَّعَ له بثَوْبَيْهِ، واستعارَ ثَوْبَينِ من جِيرانِه، وذهَبَ إلى المسجدِ، أما صَاحِبُ الفرسِ فقد سُبِقَ بالبشارةِ فلم يَستحِقَّ شيئًا.

جَاءَ كعبٌ إلى المسجدِ وسلَّم على النَّبيِّ ﷺ، قَالَ: فإذا وَجْهُه كقِطْعَةِ قَمَرٍ؛ وجه الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الَّذي كانَ بالأمسِ لا يَرُدُّ عليه السلامَ، كأن وَجْهَه قِطْعةُ قَمَرٍ مَسرورًا مُبْتَهِجًا؛ لأنَّ نَبيَّنَا ﷺ يُحِبُّ مِنَ اللهِ أن يَتُوبَ على عِبادِهِ، كما أنَّ اللهَ يُحِبُّ أن يَتوبَ على عَبْدِه، فقال له ﷺ: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**».

هذهِ القِصَّةُ فيها عِبَرٌ؛ ولهَذَا أنا أَحُثُّ إخواني الشبابَ على أن يَقْرَؤُوا السِّيرةَ لِيعتبروا بما فيها من العِبَر.

وانتهتِ القِصَّةُ وأنزَلَ اللهُ فيهم قصةً تاريخيةً، مَن قرأَ حَرفًا منها فلهُ عشرُ

حَسَناتٍ، قصة تاريخية يُتعبَّدُ للهِ تَعالَى بتلاوتِها في الصَّلاةِ وخارجَ الصَّلاةِ، ولولا ما وَقَعَ عليهم ما حَصَلَ ذلك، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٧-١١٨]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وَفَّقَهم للتوبةِ لِيَتُوبوا.

ثُمَّ قَالَ تعالى بَعدَ هَذهِ الآيةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، مِثْلِ كَعْبِ بنِ مالِكٍ، وهِلالِ بنِ أُمَيَّةَ، ومُرارَةَ بنِ الرَّبيعِ، فصاروا أَئِمَّةً يَأْمُرُ اللهُ بالاقتداءِ بهم.

فتأَمَّلْ الفائدةَ العظيمةَ الَّتي تَنتُجُ من المُبادرةِ بطاعةِ اللهِ ورسولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. فأطِعِ اللهَ ورسولَه، ولا تَتَرَدَّدْ في طاعةِ اللهِ ورسولِه، إن كنتَ تُريدُ الفلاحَ والصلاحَ والفوزَ بدارِ النعيمِ المُقيمِ -أَسْأَلُ اللهَ أن يَجْعَلَني وإياكم من هؤلاءِ- فبادِرْ، ولا تَتَرَدَّدْ، فهَذَا ثوابُ مَن بَادَرَ.

وانظُرْ إلى جَزاءِ مَن لم يُبادِرْ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]؛ هَذَا جزاءُ مَن تَرَدَّدَ في أمرِ اللهِ ورَسولِهِ وتوقَّفَ؛ أن يُقَلِّبَ اللهُ فؤادَه وبَصَرَه، ويَذَرَه يَعْمَهُ في طُغيانِه -نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ- لكن مَن بَادَرَ فهَذَا هو الَّذي يَجِدُ الفوزَ والفلاحَ في الدُّنْيا والآخرةِ.

وإنني لَأَعجبُ من قومٍ هم من أتقياءِ اللهِ وهم من الصالحينَ -فيما يَظْهَرُ لنا- إذا قلتَ: قالَ اللهُ كذا، وقال الرَّسُول كذا؛ قَالَ: هل الأمرُ للوجوبِ أمْ للاستحبابِ؟ يا أخي، أَمْرُ اللهِ افْعَلْه، سَواءٌ للوجوبِ أو لغيرِ الوجوبِ، أنت على خيرٍ إذا فعلتَ، سواءٌ كانَ واجبًا أو كانَ غيرَ واجبٍ، فافعَلِ الشَّيْءَ امتثالًا لأمرِ اللهِ ورَسولِه وكفَى بهَذَا عبادةً، وليسَ أن نقولَ: افْعَلْ كذا، فيقولُ: هل هو وَاجِبٌ أو مُستحَبٌّ؟ فنقول: وَاجِبٌ، فيقول: ما الدليلُ على الوجوبِ؟ ونقولُ: مستحبٌّ، فيقولُ: ما الَّذي أخْرَجَهُ منَ الوُجوبِ؟ ونقولُ: للإرشادِ، فيقول: ما هو الدَّلِيلُ؟ ونقولُ: للإباحةِ، فيقول: ما هو الدليلُ؟ سبحان اللهِ! قالَ اللهُ: افعَلْ كذا، وقالَ رسولُ اللهِ: افْعَلْ كذا؛ فإنني أقولُ: سَمْعًا وطاعةً، وأنا على خَيْرٍ؛ إنْ كان وَاجِبًا حَصَلَ لي عِبادةٌ بامتثالِ أمرِ اللهِ، وحَصَلَ لي بَراءةُ ذِمَّةٍ، وإنْ لم يَكُنْ وَاجِبًا حَصَلَ لي عِبادةٌ بامتثالِ أمرِ اللهِ.

نَعَم إذا وَقَعَ الإِنْسَانُ في شَرَكِ المُخالَفةِ فحينَئذٍ يَسألُ: هل هو وَاجِبٌ يَحتاجُ إلى تَوْبةٍ أو هو مُسْتَحَبٌّ، فيَكونُ الإِنْسَانُ في سَعَةٍ، أما إذا سَمِعتَ أَمْرَ اللهِ ورسولِه يا أخي المُسلِمِ، يا أخي المُؤْمِنِ، فقُل: سَمْعًا وطاعةً، وأمَّا أن تَتَوَقَّفَ وتَتَأَرْجَحَ وتقولَ: هو وَاجِبٌ أو مُستحَبٌّ أو ما أَشْبَهَ ذلك، فهَذَا فيه شيءٌ مِنَ القُصورِ في الاستسلامِ للهِ عَزَّوَجَلَّ. نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أن يُوَفِّقَنا وإياكم جميعًا للاستسلامِ له ظاهرًا وباطنًا.

والحَمْدُ لله الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه



سورة المزمل

إنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئَاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:١-٤].

يَقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنَبِيِّه مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ﴾ وكلمةُ (نِصْفَهُ) بَدَلٌ من (اللَّيلِ)، يعني: قُمْ نِصْفَ الليلِ، ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾.

فهذه ثلاثُ حالاتٍ: إمَّا أن يَقومَ نِصْفَ الليلِ، أو يَقومَ أنقصَ منَ النِّصْفِ، أو يَقومَ أَكْثَرَ من النصفِ، ولقد قالَ رسولُ ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ **كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا**»[1]؛ لأن هذا القيامَ أَوْفَقُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، رقم (٣٤٢٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حَقًّا، رقم (١١٥٩).

ما يكونُ للبَدَنِ، حيثُ إنَّ الإنسانَ يَستَرِيحُ أولَ اللَّيْلِ نصفَ اللَّيْلِ كاملًا، ثمَّ يَقومُ الثُّلُثَ، ثمَّ يَستَرِيحُ بعدَ القيامِ السُّدُسَ.

والقيامُ في الثلُثِ الآخِرِ أفضلُ؛ لأَنَّه يُوافِقُ وقتَ النزولِ الإلهيِّ؛ فقد صَحَّ عن النبي صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ مِن أَكْثَرَ مِن وَجْهٍ أنَّه قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، حَتَّى يَطْلُعَ الفَجْرُ**»(١). هكذا ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا**»، والمرادُ به نُزولُ اللهِ حقًّا، ولكن نحن لا نَعْلَمُ كيفَ يَنزِلُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ أَخْبَرَنَا أنَّ اللهَ يَنْزِلُ، ولم يُخْبِرْنا كيفَ يَنزِلُ، وأُمورُ الغيبِ يَجِبُ على الإنسانِ أن يَأْخُذَها على مَا وَرَدَتْ، من دُونِ تكلُّفٍ ولا تَنطُّعٍ.

فنقولُ هنا: إنَّ اللهَ تَعالَى يَنزِلُ هو نفسُه إلى السَّماءِ الدنيا حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ إلى أن يَطْلُعَ الفجرُ، فيقولُ: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ**» يعني: أيُّ إنسانٍ يَدعوني فأستجيبَ له، «**مَنْ يَسْأَلُنِي**» يعني أيُّ إنسانٍ يَسأَلُني شيئًا «**فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي**» أيُّ إنسانٍ يَطْلُبُ منِّي المغفرةَ «**فَأَغْفِرَ لَهُ، حَتَّى يَطْلُعَ الفَجْرُ**».

فيَنْبَغِي لنا أن نَغْتَنِمَ هذا الوقتَ بالدعاءِ والسؤالِ والاستغفارِ، وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقومُ حتَّى يُقالَ: لا يَنامُ، ويَنامُ حتَّى يُقالَ: لا يَقومُ؛ لأَنَّه يَتَّبِعُ في ذلك ما كانَ مَصلحةً، وما كانَ أيسرَ للبَدَنِ وأطوعَ للربِّ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

صفة النزول:

وفي هذا الحديثِ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا» صفةٌ من صفاتِ اللهِ تَعَالَى، وهي صِفَةُ النُّزولِ، وهي من الصِّفاتِ الفِعليَّةِ؛ لأن (يَنزِلُ) فِعلٌ، فهي من الصفاتِ الفعليةِ الَّتي تَتعلَّقُ بمشيئتِه؛ إنْ شاءَ فَعَلَها، وإن شاءَ لم يَفعَلْها، وهذا النوعُ من الصفاتِ يُثبِته أهلُ السُّنَّة والجماعة الَّذِينَ يَتَرَسَّمُونَ خُطَى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ ويُنكِرُها أَهْلُ البِدَعِ الَّذِينَ يَحكُمون على اللهِ بأهوائِهم وعُقولِهم الفاسدةِ، ويَجْعلون قاعدةً يَبْنونَ عليها ما أَخْبَرَ اللهُ به عن نَفْسِه، فيقولون: ما أَخْبَرَ اللهُ به عن نفسِهِ من الصفاتِ فإنْ دلَّ العقلُ عليه وَجَبَ إثباتُهُ بدلالةِ العقلِ، وإنْ دلَّ على خِلافِه وَجَبَ نفيُه، ولو كانَ في القُرآن والسُّنةِ. وما لا يَقْتَضِي إثباتَه ولا نفيَه انقسموا فيه إلى قِسمينِ: مِنهم مَن قال: نُثبِتُه؛ لأن العقلَ لا يَنفِيه، ومنهم مَن قال: نَنفِيه؛ لأن العقلَ لا يُثْبِتُهُ.

وعلى هذا يَكونُ مَدارُ إثباتِ الصفاتِ للهِ عَزَّوَجَلَّ على عُقولِهم الفاسدةِ؛ وذلك لأن العقلَ الصريحَ لا يُمْكِنُ أن يُخالِفَ النقلَ الصحيحَ أبدًا.

لكن هم أَصَّلُوا عُقولًا هي في الحقيقةِ أوهامٌ وخيالاتٌ وليستْ عقولًا؛ ولهذا قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ في وصفهم: «أُوتُوا ذكاءً وما أُوتوا زكاءً، وأُعطوا فُهومًا وما أُعطُوا علومًا»[1]. لأنهم لو زَكَّوْا أنفسَهم لَقالوا لما أخْبَرَ اللهُ به عن نفسِه: سَمِعنا وآمَنَّا وصَدَّقنا، ولا يقولونَ: سَمِعنا وحرَّفنا، فمثلًا يقولون في يَنزِلُ ربُّنا إلى السَّماءِ الدنيا: يَنْزِلُ أي يَنزِلُ أمرُهُ، سُبْحَانَ اللهِ! فهل الأمرُ يقولُ: مَن يَدْعُوني فأستجيبَ له! وهل أَمْرُ اللهِ يَنْتَهِي إلى السَّماءِ الدُّنْيا، أو يُدَبِّرُ الأمرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ؟

---

(١) العقيدة الحموية الكبرى (ص:٥٥٥).

الجواب: الثَّاني، فليسَ مُنْتَهَى أَمْرِ اللهِ السَّماءَ الدنيا، بل هو إلى الأرضِ.

وقال بعضُهم: يَنزِلُ ربُّنا أي يَنْزِلُ مَلَكٌ من ملائكةِ اللهِ، وهذا أَقْبَحُ مِنَ الأولِ، فهل يُمْكِنُ لأيِّ أحدٍ من المخلوقينَ، ولاسيَّما الملائكةُ عليهم الصَّلاة والسلام، أن يُخاطِبَ الخَلْقَ: مَن يَدْعوني، مَن يَسْأَلُني، مَن يَستغفِرُني؟ نقولُ: لا يُمْكِنُ، إذن هذا بَاطِلٌ.

وتكايَسَ بعضُهم وقال: معنى يَنزِلُ ربُّنا: أي تَنزِلُ رحمةُ ربِّنا، وهذا أخبثُ مِمَّا قبلَه؛ لأن رحمَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ليستْ في السَّماءِ فَقَطْ، بل في السَّماءِ والأرضِ. ثمَّ أيُّ فائدةٍ لنا في رَحمةٍ مُنتهَى نُزُولِها السَّماءُ؛ لأنها لا تَصِلُ إلينا. ثمَّ هل يُعْقَلُ أن الرحمَةَ، وهي صِفَةٌ، تقولُ: مَن يَدْعُوني، مَن يَسأَلُني، مَن يَستغفِرُني؟!

ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]. وحَسْبُنا أن نقولَ: سَمِعنا وآمنَّا وصَدَّقنا أنَّ اللهَ يَنزِلُ إلى السَّماءِ الدنيا، ولكننا لا نَعْلَمُ كيف يَنزِلُ؛ لأن هذا أَمْرٌ غَيْبِيٌّ، والأمرُ الغَيْبِيُّ لا يُمكِنُ للعَقلِ أن يَجْتَهِدَ فيه، بل فَرْضُ العقلِ أن يُسَلِمَ ويَسْتَسْلِمَ.

وأرجو أن تَنْتَبِهوا لهذا، إنكم ستَجِدون في بَعضِ الكتبِ الَّتي معَ الأسفِ هي بين أيدي كثيرٍ من المسلمينَ في أقطارِ الدنيا، ستجدون مثلَ هذا الكلامِ، ومثلَ هذا التحريفِ، ومثلَ هذا القولِ على اللهِ بغيرِ علمٍ، ولو أننا رَجعنا إلى العقلِ فيما يُثْبَتُ للهِ عَزَّوَجَلَّ من الصفاتِ وما يُنفَى عنه فبأيِّ عقلٍ نَزِنُ ذلك؟ بعَقْلِ العَالِمِ الفلانيِّ أو العَالِمِ الفُلانيِّ؟

وهؤلاء الَّذِينَ يَدَّعون أنهم أهلُ العقلِ هم بأنفسِهم مُضْطَرِبُونَ؛ فمنهم مَن

يقولُ: هذا الشيءُ وَاجِبٌ، والآخرُ يقولُ: هذا الشيءُ مُمْتَنِعٌ، ومنهم مَن يقولُ: هذا واجبٌ والثَّاني يقولُ: جَائِزٌ، بل إنَّ بعضَهم في كُتُبِه ومُصنَّفاتِه يَتناقَضُ، فيُؤَلِّفُ كتابًا يُثْبِتُ فيه هذه الصِّفةَ، وكتابًا آخرَ ينفي هذه الصفةَ.

ولهذا قال بعضُهم[1]:

نِهَايَـةُ إِقْـدامِ العُقُـولِ عِقَـال ... وأَكْثَـرُ سَـعْيِ العَـالَمِينَ ضَـلَالُ

وأرواحُنا فِي وَحْشَـةٍ مِـن جُسُـومِنا ... وحاصِـلُ دُنيانـا أَذًى وَوَبَـالُ

ولم نَسْتَفِدْ مِن بَحثِنا طُـولَ عُمرِنـا ... سِـوَى أن جمعنـا فيـه قيـلَ وقـالُوا

ذُكِرَتْ هذه الأبياتُ عنِ الفَخْرِ الرازيِّ؛ مِن أَئمَّةِ المُتكَلِّمينَ، وسواءٌ قالها مُنشِدًا، أو قالها راويًا ومُخْبِرًا، فقد أقرَّ بأنَّ نِهايةَ إقدامِ العقولِ عِقالٌ يَعقِلُ الإنسانَ ولا يَمْشِي أبدًا ولا يَسِيرُ؛ لأنها عُقولٌ فاسِدَةٌ لا خيرَ فيها.

فعليك يا أخي بما كان عليه الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فإنهم قَبِلوا هذه النصوصَ وآمَنوا بها، ولم يُحرِّفوها، بل قالوا: هي ثابتةٌ للهِ، ولكننا قاصِرونَ عن مَعرفةِ كيفيَّتِها.

سُئل الإمامُ مالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ عن قول اللهِ تَعالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، فقال السائلُ: يا أبا عبدِ اللهِ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، كيفَ استوى؟

و لم يَقُل السائلُ: ما معنى استوى، بل قال: كيف استوى، فهو يَسْأَلُ عن الكَيفيَّةِ.

فأَطْرَقَ مالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ برأسِه حتَّى علاهُ الرُّحَضاءُ، يعني جعَلَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٦٠).

من شِدَّةِ ما وَقَعَ من السؤالِ، ثمَّ رَفَعَ رأسَه وقال: «يا هَذَا، الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مجهولٍ، وَالكَيْفُ غَيرُ مَعقولٍ، والإيمانُ به واجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عنه بِدعَةٌ، وما أُراكَ إلَّا مُبْتَدِعًا» ثمَّ أَمَرَ به رَحِمَهُ اللَّهُ فأُخرِجَ من مَسجِدِ النبيِّ ﷺ[1]، فطُرِدَ؛ لأن هذا الرجلَ مُبتدِعٌ، كيفَ يَسْأَلُ عن شيءٍ لم يَسْأَلْ عنه الصَّحَابَةُ؟! وكيفَ يُحاوِلُ أن يَعرِفَ كيفيةَ صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ والعقولُ أدنى وأقصرُ من أنْ تُحيطَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال تَعالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

وقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣].

إذن القاعدةُ الَّتي يَجِبُ أن يَبْنِيَ الإنسانُ عَقِيدتَه عليها، وأنْ يَدَعَ هذه الكُتبَ المُحرَّفَةَ وأن يَنْبِذَها وراءَ ظهرِه: أنَّ كلَّ ما وصَفَ اللهُ به نفسَه في القُرآنِ، أو وَصَفَهُ به رَسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ في السُّنةِ، فالواجبُ تَلَقِّيهِ بالقَبولِ، وأن يُؤْمِنَ به الإنسانُ على حَقيقتِه، ولكنْ يُمسِكُ عن شيئينِ: عن التكييفِ وعن التمثيلِ؛ عن التكييفِ فلا يَقولُ: كَيْفيَّتُه كذا وكذا، وعن التمثيلِ فلا يَقولُ: مِثْلُه كذا وكذا.

ولْنَضْرِب لهذا مثلًا آخرَ: أَثْبَتَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لنفسِه وَجهًا في عِدَّةِ آياتٍ، منها قولُه تَعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]. فما الوجهُ؟

قال أهلُ التحريفِ والتعطيلِ، أعني أهلَ التحريفِ للنصوصِ والتعطيلِ للصفاتِ: المرادُ بقولِه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، أي: يَبقَى ثوابُ ربِّك، سُبْحَانَ الله! اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقولُ عن نفسِه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وأنتَ تَقولُ: ويَبْقَى ثَوابُه، فهل أنتَ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥).

أَعْلَمُ منَ اللهِ بنفسِه؟! كلا واللهِ.

فيَجِبُ أن نُثبِتَ للهِ وجهًا، ولكن هل يَجوزُ أنْ نكيِّفَ هذا الوَجْهَ؟

نقولُ: لا يَجوزُ؛ لأننا إن قُلْنا هذا فقد قُلنا على اللهِ ما لا نَعلَمُ.

وهل يَجوزُ أن نَقولَ: مَثَلُ وَجْهِ اللهِ كمَثَلِ وَجْهِ المَخلوقِ؟

نقولُ: لا يَجوزُ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وعلى هذا فَامْشِ وَدَعْ عنك كُتُبَ أهلِ التحريفِ، وإياك أن تَجعلَها عقيدةً؛ لأنَّ اللهَ سوفَ يَسأَلُك يومَ القِيامَةِ ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، ولم يَقُلْ: ماذا أَجَبْتُم فلانًا أو فلانًا من أئمَّةِ المُتكلِّمينَ ونحوهم.

فانتبِهْ يا أخي المُسلِم لهذا، وخُذْ عَقيدتَك من كتابِ ربِّكَ، وسُنةِ نبيِّك مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ولم أَعْلَمْ إلى ساعتي هذه أنَّ أحدًا حقَّقَ في هذا البابِ كما حقَّقه شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّة، وتلميذُه ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُما اللهُ، فعليك بكُتُبِ هذين العالمينِ الجليلينِ؛ لِمَا عندَهما من العلمِ الواسعِ، والفَهْمِ الثاقِبِ، والإيمانِ الراسِخِ الَّذي يَتَّصِفُ به الراسخونَ في العلم.

فعليكُمْ بكُتُبِهما؛ فإنها تَزِيدُ الإنسانَ إيمانًا، وإخلاصًا، واتباعًا، ودَعْ عنك كُتُبَ أهلِ الكلامِ؛ فإنها كما قال بعضُهم: كتبُ أهلِ الكلامِ كلامٌ في كلامٍ. تَقرأُ صفحاتٍ عديدةً لا تَخْرُجُ بشيءٍ إلَّا التَّشكيك، وما أَشْبَهَ ذلك، وكما ذَكَرْتُ قبلَ قليلٍ عن أبياتِ الفخرِ الرازيِّ يقولُ:

لم نَسْتَفِدْ من بَحْثِنا طُول عُمْرِنا سِوَى أن جَمَعْنَا فيه قِيلَ وقَالوا

قال الرَّازِيُّ في كلامِه هذا: «ورأيتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقةَ القُرآنِ، أَقْرَأُ في الإثبـاتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]» يعني: فأُثْبِتُ الاستواءَ «وأَقْـرَأُ في النفيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ومَن جرَّبَ مِثْلَ تَجرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي»[١].

ولهذا كانَ كَثِيرٌ من علماءِ أهلِ الكلامِ الفطاحِل يَرجِعون عمَّا هم عليه من العقيدةِ، ويَتَمَنَّى أحدُهم أن يَموتَ على عقيدةِ أُمِّهِ أو على عَقيدةِ عَجائزِ نِساء نَيْسَابُورَ[٢]؛ لأنهم عَرَفوا أن عِلْمَ الكلامِ كُلَّه كلامٌ فَارِغٌ، ورأوا الرُّجوعَ إلى ما كان عليه السلفُ الصالحُ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وجَعَلَنا وإياكم منهم.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

تَمَّ المُجَلَّدُ الرَّابِعُ بِحَمدِ الله تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ

وَيَلِيهِ بِمَشِيئَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ المُجَلَّدُ الخَامِسُ

وَأَوَّلُهُ دُرُوسُ التَّفْسِيرِ (سُورَةُ القِيَامَةِ)

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٦٠).

(٢) هو أبو المعالي الجويني إمام الحرمين، انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٧٣).

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث | الصفحة

فهرس الفوائد

الفائدة **الصفحة**

فهرس الموضوعات